رَوَائِعُ التَّفْسِيرِ

الجَامِع لِتَفسِيرِ الإِمَامِ ابنِ رَجَبٍ الحَنبَلِي

تَفْسِيرُ ابن رجب الحنبلي

للإمام العلّامة

الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي

جمع وتأليف وتعليق

أبي معاذ

طارق بن عوض الله بن محمد

المجلد الثاني

دار العاصمة

للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار العاصمة
المملكة العربية السعودية
الرياض - ص.ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

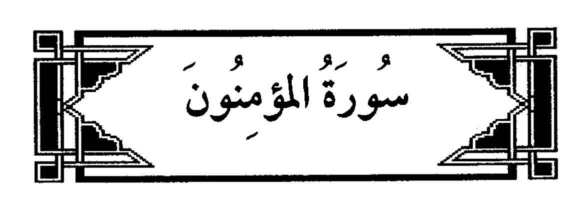
رَوَائِعُ التَّفْسِيرِ

الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي

تَفْسِيرُ

ابن رجب الحنبلي

بسم الله الرحمن الرحيم



سُورَةُ المؤمِنُونَ

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾

قد مدح اللَّه الخاشعينَ في صلاتِهِم، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، وقال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

رُوي عن عليٍّ بنِ أبي طالبٍ، قال: هو الخشوعُ في القلبِ، وأن تلينَ كنفكَ للمسلمِ، وأن لا تلتفتَ في صلاتك[1].

وعنه قال: الخشوعُ خُشُوعُ القلبِ، وأن لا تلتفتَ يمينًا ولا شمالاً.

وعن ابنِ عباسٍ قال: ﴿خاشعونَ﴾ [المؤمنون: ٢]: خائفونَ ساكنون[2].

وعنِ الحسنِ قال: كان الخشوعُ في قلوبِهِم، فغضُّوا له البصرَ، وخفضُوا له الجناحَ.

وعن مجاهدٍ قال: هو الخشوعُ في القلبِ، والسكونُ في الصلاةِ[3].

وعنه قالَ: هو خفضُ الجناحِ وغضُّ البصرِ، وكان المسلمون إذا قامَ أحدُهُم في الصلاةِ خافَ ربَّه أن يلتفتَ عن يمينِهِ أو شمالِهِ.

---

(١) أخرجه: وكيع في «الزهد» (٢/ ٥٩٩)، وابن المبارك في «الزهد» (١٤٤٨).

(٢) أخرجه: ابن جرير في «تفسيره» (١٨/ ٣)، والبيهقي (٢/ ٢٧٩).

(٣) أخرجه: البيهقي (٢/ ٢٨٠).

وعنه قالَ: العلمــاءُ إذا قامَ أحدُهم في الصلاةِ هابَ الرحــمنَ عزَّ وجلَّ أن يشذ نظرُهُ، أو يلتـفتَ، أو يقلِّب الحصى، أو يعبثَ بشيءٍ، أو يحـدِّثَ نفسَهُ بشيءٍ من الدنيا، إلا ناسيًا، ما دامَ في صلاتِهِ.

وعن الزهريِّ قال: هو سكونُ العبدِ في صلاتِهِ[1] .

وعن سعيـدِ بن جبيرٍ، قال: يعني: متــواضعينَ، لا يعرفُ مَنْ عن يمينِهِ، ولا مَنْ عنْ شمالِهِ ولا يلتفتُ من الخشوعُ للَّه عزَّ وجلَّ.

ورُوي عن حذيفةَ أنه رأى رجلاً يعبثُ فــي صلاتِهِ، فقالَ: لو خشعُ قلبُ هذا لخشعتْ جوارحُهُ.

ورُوي عن ابنِ المسيبِ.

ورُوي مرسلاً[2] .

فأصلُ الخشوعِ: هو خشوعُ القلبِ، وهو انكسارُهُ للَّه، وخضوعُهُ وسكونُهُ عن التفاتِهِ إلى غيرِ مَنْ هو بينَ يديهِ، فإذا خشعَ القلبُ خشعتِ الجوارحُ كلُّها تبعًــا لخشوعِهِ، ولهـذا كان النبيُّ ﷺ يقولُ في ركــوعِهِ: **«خشع لك سمعي، وبصري، ومخّي، وعظامي، وما استقلَّ به قدَمي»**[3] .

ومن جـمـلـةِ خـشوعِ الجـوارحِ: خشــوعُ البـصرِ أن يلتـفتَ عن يمينِهِ أو يسارِهِ.

---

(١) أخرجه: عبد الرزاق في «مصنفه» (٢/ ٢٥٤)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣).

(٢) راجــع: «السلسلة الضعيــفـة» (١١٠)، و«تكميـل النفع» لشيخنـا محـمد بن عمـرو (حـديث ٢١).

(٣) أخرجه: مسلم (٢/ ١٨٥).

وقال ابنُ سيـرين: كان رسولُ اللَّه ﷺ يلتفتُ في الصـلاةِ عن يمينِهِ وعن يسارِهِ، فأنزلَ اللَّه تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢]، فخشعَ رسولُ اللَّه ﷺ، ولم يكنْ يلتفتْ يمنةً ولا يسرةً.

وخرَّجهُ الطبرانيُّ(١) من روايةِ ابنِ سيرينَ، عن أبي هريرة.

والمرسلُ أصحُّ(٢).

* * *

إنَّ اللَّه سبحانه وتعـالى مدحَ في كتابِهِ المخبتينَ لَهُ، والمُنْكَسِـرِينَ لِعظَمتهِ، والخاضعينَ.

فقالَ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

وقالَ تعالى: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

ووصفَ المؤمنينَ بالخشوعِ لهُ في أشرفِ عباداتِهِم التَّي هُم علَيْهَا يحافظونَ، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١,٢].

ووصفَ الذين أُوتوا العلمَ بالخـشوعِ، حيثُ يكونُ كلامُـه لهم مسمـوعًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٧:١٠٩].

(١) «المعجم الأوسط» (٤٠٨٢).
(٢) «فتح الباري» (٤/ ٣٣٦ ـ ٣٣٨)

وأصلُ الخشوعِ هو: لينُ القلبِ ورِقَّتُه وسكونُه وخشوعُه وانكسارُه وحرقتُه، فإذا خشعَ القلبُ تبعهُ خشوعُ جميع الجوارحِ والأعضاءِ لأنَّها تابعةٌ له، كما قال ﷺ: «**ألا إنَّ في الجسد مُضْغَةً، إذا صلحتْ صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ**»[1].

فإذا خشعَ القلبُ، خشعَ السمعُ والبصرُ والرأسُ والوجهُ وسائرُ الأعضاءِ وما ينشأُ مِنْها حتى الكلامِ. ولهذا كانُ النبيُّ ﷺ يقولُ في ركوعِه في الصلاة: «**خشعَ لك سمعِي وبصرِي ومُخِّي وعظامِي**»[2].

وفي روايةٍ: «**وما استقلَّ به قدَمي**».

ورأى بعضُ السَّلَفِ رجلاً يعبثُ بيده في صلاتِه فقالَ: لو خشعَ قلبُ هذا لخشعتْ جوارِحُه.

ورُويَ ذلك عن حُذيفةَ[3] رضي الله عنه وسعيدِ بنِ المسيِّبِ[4]. ويُروى مرفوعًا بإسنادٍ لا يصح.

قال المسعوديُّ عن أبي سنانٍ عمَّن حدَّثه عن علي بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه في قولِه تعالى: ﴿**الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾ [المؤمنون:٢]. قال: هوَ الخشوعُ في القلبِ وأن تُلينَ كنفكَ للمرءِ المسلمِ وأن لا تلتفتَ في صلاتِكَ[5].

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢٠ ـ ٢١)، (٣/ ٦٩ ـ ٧٠)، ومسلم (٥ ـ ٥٠ ـ ٥١) من حديث النعمان ابن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: مسلم (٢/ ١٨٥ ـ ١٨٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٥٠).

(٤) أخرجه: ابن المبارك في «الزهد» (٤١٩)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٢/ ٢٦٦)، وابن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٥١).

(٥) أخرجه: وكيع في «الزهد» (٤٢٨)، وابن المبارك (٤٠٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٩٣).

وقالَ عطاءُ بنُ السائبِ عن رجلٍ عن عليٍّ رضي الله عنه: «الخشوعُ: خشوعُ القلبِ، وأن لا يلتفتَ يمينًا وشمالاً»[١].

وقال: عن علي بنِ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢]. قال: خائفونَ ساكِنون[٢].

وقال ابنُ شَوْذب عن الحسنِ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: «كان الخشوعُ في قلوبِهِم فغضُّوا له البصرَ وخفضوا له الجَناحَ».

وقال منصور عن مجاهدٍ: هو الخشوعُ في القلبِ، والسكونُ في الصلاةِ[٣].

وقال ليث عن مجاهدٍ: من ذلك: خفضُ الجناحِ، وغضُّ البصرِ، وكانَ المسلمونَ إذا قامَ أحدُهم إلى الصلاةِ خافَ ربه أن يلتفتَ عن يمينِه أو شمالِه.

وقال عطاءٌ الخراسانيُّ: الخشوعُ: خشوعُ القلبِ والطَّرْفِ.

وقال الزهريُّ: هو سكونُ العبدِ في صلاتِه[٤].

وعن قتادةَ قالَ: الخشوعُ في القلبِ هو الخوفُ وغضُّ البصرِ في الصلاةِ.

وقال ابنُ أبي نَجيح عن مجاهدٍ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠] قال: متواضِعينَ.

---

(١) أخرجه: ابن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٣٩).

(٢) أخرجه: الطبري في «التفسير» (١٨/ ٣).

(٣) أخرجه: ابن المبارك في «الزهد» (٥٥)، والطبري في «التفسير» (١٨/ ٢).

(٤) أخرجه: عبد الرزاق في «المصنف» (٢/ ٢٥٤)، وابن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (١٤١)، والطبري (١٨/ ٣).

وقد وصَفَ اللَّهُ تعالى في كتابِه الأرضَ بالخشوعِ فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت:٣٩]، فاهتزازُها وربوُّها ـ وهو ارتفاعُها ـ مُزيلٌ لخشوعِهَا، فدَلَّ على أنَّ الخشوعَ الذي كانتْ عليه هو سكونُها وانخفاضُها.

وكذلك القلبُ إذا خَشَعَ فإنَّه يَسْكُنُ خواطرُهُ وإرادتُه الرديئةُ التي تنشأُ عن اتِّباعِ الهَوى، وينكسرُ ويخضعُ للَّه عز وجل، فيزولُ بذلك ما كانَ فيه من البَأْوِ[1] والترفعِ والتعاظُمِ والتكبُّرِ، ومتى سكَنَ ذلكَ في القلبِ خشعتِ الأعضاءُ والجوارحُ والحركاتُ كلُّها حتى الصَّوتُ.

وقد وصفَ اللَّهُ تعالَى الأصواتَ بالخشوعِ في قوله: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨]، فخشوعُ الأصواتِ هو سكونُها وانخفاضُها بعد ارتفاعِهَا.

وكذلكَ وصفَ وجوهَ الكُفارِ وأبصارَهم في يومِ القيامةِ بالخشوعِ، فدلَّ ذلك على دخولِ الخشوعِ في هذه الأعضاءِ كلِّها.

ومتى تكلَّفَ الإنسانُ تعَاطي الخشوعِ في جوارحِهِ وأطرافِه مع فراغِ قلبِه من الخشوعِ وخُلوِّه منه كانَ ذلك خشوعَ نفاقٍ، وهو الذي كانَ السلفُ يستعيذونَ منه، كما قال بعضُهم: استعيذوا باللَّهِ من خشوعِ النفاقِ. قالوا: وما خشوعُ النفاقِ؟ قال: أن يُرى الجسَدُ خاشعًا والقلبُ ليس بخاشعٍ[2].

ونظر عمُر رضي الله عنه إلى شابٍّ قد نكسَ رأسَه، فقالَ له: يا هذا، ارفعْ

(١) لم يستطع محقق الكتاب قراءتها، وقال: «تشبه: الباة» والصواب ما أثبتناه، و«البأو»: العظمة والفخر والكبر.

(٢) أخرجه: ابن المبارك في «الزهد» (٤٦) من قول أبي الدرداء أو أبي هريرة رضي الله عنهما.

رأسكَ، فإنَّ الخشوعَ لا يزيدُ على ما في القلبِ.

فمن أظهَر للناسِ خشوعًا فوقَ ما في قلبِهِ فإنَّما هو نفاقٌ على نفاقٍ.

وأصلُ الخشوعِ الحاصلُ في القلبِ، إنَّما هوَ من معرفةِ اللَّه، ومعرفةِ عظمتِهِ وجلالِهِ وكمالِهِ، فمن كانَ باللَّه أعرفَ كانَ له أخشعَ.

وتتفاوتُ القلوبُ في الخشوعِ بحَسبِ تفاوُتِ معرفَتِهَا لمن خشعت، وبحسبِ تفاوتِ مشاهدةِ القلوبِ للصفاتِ المقتضيةِ للخشوعِ، فمنْ خاشعٍ لقوةِ مُطالعتهِ قُربَ اللَّهِ من عبدِهِ واطِّلاعِهِ على سرِّهِ وضميرِهِ المقتضي للاستحياءِ من اللَّهِ تعالى ومراقبتِهِ في الحركاتِ والسكناتِ، ومن خاشع لمطالعتِهِ لجلالِ اللَّه وعظمتِهِ وكبريائهِ المقتضي لهيبتِهِ، ومن خاشعٍ لمطالعتهِ لكمالهِ وجمالهِ المقتضِي للاستغراقِ في محبتهِ والشوقِ إلى لقائهِ ورؤيتهِ، ومن خاشعٍ لمُطالعتهِ شدَّةَ بطشِهِ وانتقامِهِ وعقابِهِ المقتضِي للخوفِ منهُ.

وهو سبحانه وتعالى جابِرُ القلوبِ المنكسرةِ لأجله فهو سبحانه وتعالى يتقرّبُ من القلوبِ الخاشعةِ له كما يتقربُ ممن يناجيهِ في الصلاةِ، وممَّن يعفِّرُ له وَجْهَهُ في الترابِ بالسجودِ.

وكما يتقربُ من وفدِهِ وزوارِ بيتهِ الواقفينَ بين يديه المتضرعينَ إليه في الوقوفِ بعرفةَ ويدنُو ويباهِي بهم الملائكةَ.

وكما يتقربُ من عبادِهِ الدائبينَ له، السائلِين له، المستغفرِين من ذنوبهِم بالأسحارِ، ويجيبُ دعاءَهم ويعطِيهم سؤالَهم.

ولا جبَر لانكسارِ العبدِ أعظمُ من القربِ والإجابةِ.

روى الإمامُ أحمدُ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ في كتابِ «الزهد»[1] بإسنادِهِ عن عمرانَ القصير قال: «قالَ موسى بنُ عمرانَ ـ عليه السلام ـ: أي ربِّ أين أبغيكَ؟ قال: ابغِني عندَ المنكسرةِ قلوبُهم، إنِّي أدنو منهُم كلَّ يومٍ باعًا، ولولا ذلكَ لانهدمُوا».

وروى إبراهيمُ بن الجُنَيد ـ رحمه اللَّه تعالى ـ في كتابِ «المحبةِ»: عن جعفر بنِ سليمانَ قالَ: سمعتُ مالكَ بنَ دينارٍ يقولُ: «قال موسى ـ عليه السلام ـ: إلهي أين أبغيكَ؟ فأوحَى اللَّهُ عز وجلَّ إليه: أن يا موسى ابغني عند المنكسرةِ قلوبُهم، فإني أدنُو منهم في كلِّ يومٍ وليلةٍ باعًا ولولا ذلك لانهدمُوا، قال جعفر: فقلتُ لمالكِ بن دينار: كيف المنكسرةُ قلوبُهم؟ فقال: سألتُ الذي قرأَ في الكتب فقال: سألتُ الذي سألَ عبد اللَّه بن سلام فقالَ: سألت عبدَ اللَّهِ بنَ سلامٍ عن المنكسرةِ قلوبُهم ما يعني؟ قال: المنكسرةُ قلوبُهم بحبِّ اللَّهِ عز وجل عن حبِّ غيرِه».

وقد جاءَ في السنةِ الصحيحةِ ما يشهدُ لقربِ اللَّهِ من القلبِ المنكسرِ ببلائِه الصابرِ على قضائِه أو الراضِي بذلكَ، كما في «صحيحِ مسلمٍ»[2] عن أبي هريرةَ ﷺ عن النبي ﷺ: **«يقولُ اللَّهُ عز وجل يومَ القيامةِ: يا ابنَ آدمَ مرضتُ فلم تَعُدْني، قال: يا ربِّ كيف أعودُك وأنتَ ربُّ العالمينَ؟ قال: أمَا علمتَ أنَّ عبدي فُلانًا مرضَ فلم تَعُدْه، أما علِمْت أنّكَ لو عُدتَهُ لوجَدْتني عندَهُ»**.

وروى أبو نُعيمٍ من طريقِ ضمرةَ عن ابن شَوْذبٍ قالَ: «أوحى اللَّهُ تعالى

(١) (ص ٧٥).
(٢) «صحيح مسلم» (٨/ ١٣).

إلى موسَى ـ عليه السلامُ ـ: أتدرِي لأيِّ شيءٍ اصطفيتُكَ على الناسِ برسالاتِي وبكلامِي؟ قال: لا يا ربِّ! قال: لأنه لم يتواضعْ لي أحدٌ تواضُعَكَ»[1].

وهذا الخشوعُ هو العلمُ النافعُ، وهو أولُ ما يُرفعُ من العلمِ.

خرَّجَ النَّسائيُّ[2] من حديثِ جُبَيرِ بن نفيرٍ رضي الله عنه عن عَوْفِ بن مالكٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ نظرَ إلى السماءِ يومًا وقال: «**هذا أوانُ يرفعُ العلمُ**» فقال رجلٌ من الأنصارِ ـ يُقالُ له: زيادُ بن لَبيدٍ ـ: يا رسولَ اللَّه: ويُرْفَعُ العلمُ وقد أُثبتَ وَوَعَتْهُ القُلوبُ؟ فقال له رسولُ اللَّه ﷺ: «**إنْ كنتُ لأحسبكَ من أفقه أهلِ المدينة**» وذكرَ ضلالةَ اليهودِ والنصارَى على ما في أيديهم من كتابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

قال: فلقيتُ شدَّاد بنَ أوسٍ فحدثتُه بحديثِ عوفِ بن مالك، فقال: صدقَ عوفٌ، ألا أخبرُكَ بأولِ ذلك يُرفع؟ قلتُ: بلى، قالَ: الخشوعُ، حتَّى لا ترى خاشِعًا.

وخرَّجه الترمذيُّ[3] من حديثِ جبيرِ بن نفيرٍ عن أبي الدرداءَ عن النبي ﷺ بنحوِه، وفي آخره: قال جبيرٌ: فلقيتُ عبادةَ بنَ الصامتِ، فقلتُ: ألا تسمعُ ما يقولُ أخوكَ أبو الدرداء ـ فأخبرتُه بالذي قال؟ قال: صدقَ أبو الدرداء، لو شئتَ لحدثتك بأول علمٍ يُرفع من الناسِ: الخشوعُ، يوشكُ أن تدخلَ مسجدَ الجامع فلا تَرى فيه رجُلًا خاشِعًا.

---

(١) «الحلية» (٦/ ١٣٠).

(٢) «السنن الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» للمزي (١٠٩٠٦)، وهو عند أحمد (٦/ ٢٦)، والحاكم (١/ ٩٨).

(٣) «الجامع» (٢٦٥٣).

وقد قيل: إن روايةَ النسائيِّ أرجحُ.

وقد روى سعيدُ بنُ بشيرٍ عن قتادةَ عن الحسنِ - رحمه اللَّه تعالى - عن شدَّادِ بنِ أوسٍ عن النبي ﷺ قال: «**أولُ ما يرفعُ من الناسِ الخشوعُ**» فذكره[1].

ورواه أبو بكرِ بنِ أبي مريمَ عن ضمرةَ بنِ حبيبٍ مُرسلاً[2].

ورُوي نحوه عن حذيفةَ من قولهِ.

فالعلمُ النافعُ هو ما باشرَ القلوبَ فأوجبَ لها السكينةَ والخشية والإخباتَ للَّه والتواضعَ والانكسارَ له، وإذا لم يباشر القلبَ ذلك من العلمِ، وإنما كانَ على اللسانِ فهو حُجَّةُ اللَّهِ على ابنِ آدمَ يقومُ على صاحبهِ وغيرهِ، كما قالَ ابنُ مسعودٍ ﷺ: «إنَّ أقوامًا يقرأونَ القرآنَ لا يُجاوزُ تراقيهم، ولكنْ إذا وقعَ في القلبِ فَرَسَخ فيه نَفَع» خرَّجه مسلم[3].

وقال الحسنُ - رحمه اللَّه تعالى -: العلمُ علمانِ: علمٌ باللسانِ وعلمٌ بالقلبِ، فعلمُ القلبِ: هو العلمُ النافعُ، وعلمُ اللسانِ: هو حجة اللَّهِ على ابنِ آدمَ.

ورُويَ عن الحسنِ - رحمه اللَّه تعالى - مرسلاً عن النبيِّ ﷺ ورويَ عنه عن جابرٍ ﷺ مرفوعًا، وعنه عن أنسٍ ﷺ مرفوعًا، ولا يصحُّ وصلُه.

فأخبر النبيُّ ﷺ أن العلمَ عندَ أهلِ الكتابَينِ من قَبلنا موجودٌ بأيديهم ولا ينتفعونَ بشيءٍ منه لَّما فقدُوا المقصودَ منهُ، وهو وصولُه إلى قلوبهِم، حتى يجدُوا حلاوةَ الإيمانِ به ومنفعتَه بحصولِ الخشيةِ والإنابةِ لقلوبهِم، وإنما هُوَ علَى ألسنتهِم تقومُ به الحُجَّةُ عليهِم.

---

(١) أخرج: الطبراني في «المعجم الكبير» (٧/ ٢٩٥).

(٢) أخرجه: أحمد في «الزهد» (ص ٣٩٥). (٣) «صحيح مسلم» (٢/ ٢٠٤).

ولهَذا المعـنى وَصَفَ اللَّهُ تعالَى في كـتابِه العلمـاءَ بالخشيـةِ كَمَـا قالَ اللَّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩].

ووصفَ العُلماءَ من أهلِ الكتابِ قبلَنا بالخشوعِ؛ كَما قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

فقولُهُ تباركَ وتعالَى في وصفِ هؤلاءِ الذينَ أوتُوا العلم: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٩]. مدحٌ لمن أوجبَ له سـماعُ كـتابِ اللَّه الخُشُوعَ في قلبـه، وقالَ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢، ٢٣].

ولينُ القلوبِ هو زوالُ قسوتِهَا بحدوثِ الخُشوعِ فيها والرقةِ.

وقد وبَّخ اللَّهُ من لا يخشعُ قلبُه لسماعِ كلامِه وتدبُّرِه، قالَ سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

قالَ ابنُ مسْعودٍ رضي الله عنه: «مـا كانَ بين إسلامِنا وبينَ أنْ عوتبْنا بهذهِ الآيةِ إلا أربعَ سنينَ» خرَّجه مسلم[١]، وخرَّجه غيرُه وزادَ فيه: «فجعلَ المسلمونَ يعاتبُ

(١) «صحيح مسلم» (٨/ ٢٤٣).

بعضُهم بعضًا».

وخرَّجَ ابنُ ماجه[1] من حديثِ ابنِ الزُّبيرِ ﷺ قالَ: «لم يكنْ بينَ إسلامِهم وبينَ أن نزلَتْ هذه الآيةُ يعاتبهُمُ اللَّهُ بها، إلا أربعَ سنينَ».

وقد سمعَ كثيرٌ من الصالحينَ هذه الآيةَ تُتلى، فأثَّرتْ فيهم آثارًا متعددةً فمنهُم من ماتَ عند ذلكَ لانصداعِ قلبهِ بها، ومنهُم من تابَ عند ذلكَ وخرجَ عما كانَ فيه.

وقد ذكرنا أخبارَهم في كتابِ «الاستغناء بالقرآن».

وقالَ تعالى: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الحشر:٢١].

قال أبو عمرانَ الجونيِّ: واللَّهِ؛ لقدْ صرفَ إلينا ربُّنا في هذا القرآنِ ما لو صرفَهُ إلى الجبالِ لحتَّها وجبَاها[2].

وكان مالكُ بنُ دينارٍ ـ رحمه اللَّهُ ـ يقرأُ هذه الآيَةَ ثمَّ يقولُ: أقسمُ لكم، لا يؤمنُ عبدٌ بهذا القرآنِ إلا صُدِّعَ قلبُه[3].

ورُويَ عن الحسنِ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ قالَ: يا ابنَ آدمَ، إذا وسوسَ لك الشيطانُ بخطيئة أو حدَّثت بها نفسَكَ، فاذكرْ عندَ ذلكَ ما حَملَكَ اللَّهُ من كتابِهِ مما لو حملتْهُ الجبالُ الرواسي لخشعتْ وتصدَّعتْ أمَا سمعتَه يقولُ: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الحشر:٢١].

(١) «السنن» (٤١٩٢).

(٢) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣١١).

(٣) أخرجه: أحمد في «الزهد» (ص ٣١٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧٩).

فإنما ضرب لكَ الأمثالَ لتتفكرَ فيها وتعتبرَ بها وتزدجرَ عن معاصِي اللَّه عز وجل، وأنتَ يا ابنَ آدمَ أحقُّ أن تخشعَ لذكرِ اللَّه ومـا حَمَّلكَ من كتابِه وآتاكَ من حكمِه، لأنَّ عليكَ الحسابَ ولكَ الجنةُ أو النارُ.

وقد كان النبيُّ ﷺ يستـعيذُ باللَّه من قلبٍ لا يخـشعُ، كما في «صـحيحِ مسلمٍ»[1] عن زيدِ بنِ أرقـمَ: أن النبيَّ ﷺ كانَ يقولُ: **«اللهمَّ إني أعـوذُ بكَ من علمٍ لا ينفعُ، ومن قلبٍ لا يخشعُ، ومن نفسٍ لا تشبعُ، ومن دعوةٍ لا يُستجابُ لَها»**.

وقد رُويَ نحوُه عن النبيِّ ﷺ من وجوهٍ متعددةٍ.

ويُروى عن كعبِ الأحبارِ قالَ: مكتـوبٌ في الإنجيلِ: «يا عيسى، قلبٌ لا يخشعُ عملُه لا ينفعُ، وصوتُه لا يُسمعُ، ودعاؤُه لا يُرفعُ».

قال أسدُ بنُ موسى في كتابِ «الورعِ»: حدثـنا مُباركُ بنُ فَضالةَ قالَ: كان الحسنُ ـ رحمـه اللَّه تعالى ـ يقولُ: إن المؤمنينَ لَمَّا جـاءتْهُم هذه الدعوةُ من اللَّه صدَّقـوا بها وأفْضَى يقـينُها إلى قلوبِهِم خشـعتْ لذلكَ قلوبُهُم وأبدانُهم وأبصارُهم، كنتَ والـلَّهِ إذا رأيتَهم رأيتَ قومًـا كأنَّهم رَأيُ عينٍ، فـواللَّه؛ ما كانُوا بأهلِ جدلٍ ولا باطلٍ، ولا اطمأنُّوا إلا إلى كـتابِ اللَّه، ولا أظهرُوا ما ليسَ في قلوبِهم، ولكنْ جاءَهُم عن اللَّه أمرٌ فصـدَّقوا به، فَنَعَتَهُم اللَّهُ تعالى في القرآنِ أحسنَ نعتٍ فقال: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا**﴾ [الفرقان: ٦٣].

قال الحسنُ: الهونُ في كلامِ العربِ، اللينُ والسكينةُ والوقارُ. قال: ﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا**﴾ [الفرقان: ٦٣].

قال: حلماءُ لا يجـهلونُ، وإذا جُهلَ عليهِم حَلموا، يُصاحِبـونَ عبادَ اللَّهِ

(١) «صحيح مسلم» (٨/ ٨١).

نهارهم بما تسمعونَ، ثم ذكرَ ليلَهم خيرَ ليلٍ فقالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان:٦٤].

ينتصبون للَّه على أقدامهم، ويفترشونَ وجوهَهُم لربِّهم سُجدًا، تجري دموعُهم على خُدودِهم فرقًا من ربِّهم لأمرٍ ما، أسْهَرُوا له ليلَهم، ولأمرٍ ما، خَشَعُوا له نهارَهُم، ثم قالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان:٦٥].

قال: وكلُّ شيءٍ يُصيبُ ابنَ آدمَ ثمَّ يزولُ عنه فليس بغرامٍ، إنما الغرامُ: اللازمُ له ما دامت السماواتُ والأرضُ، قالَ: صدقَ القومُ، واللَّه الذي لا إله إلا هوَ، فعملُوا ولم يتمنَوا، فإياكم ـ رحمكم اللَّهُ ـ وهذه الأماني، فإن اللَّهَ لم يُعطِ عبدًا بالأمنيةِ خيرًا قطُّ في الدنيا والآخرةِ، وكانَ يقولُ: يالَهَا موعظة لو وافقت من القُلوبِ حياةً.

وقد شرعَ اللَّهُ لعبادِهِ من أنواعِ العباداتِ ما يظهُر فيه خشوعُ الأبدان الناشيءُ عن خشوعِ القلبِ وذُلِّه وانكسارِه، ومن أعظمِ ما يظهرُ فيه خشوعُ الأبدانِ للَّه تعالى منَ العبادات: الصلاةُ، وقد مدحَ اللَّهُ تعالى الخاشعينَ فيها بقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١ ـ ٢].

وقد سبقَ بعضُ ما قاله السلفُ في تفسيرِ الخشوعِ في الصلاةِ.

وقال ابنُ لَهيعةَ عن عطاءِ بنِ دينارٍ رحمه اللَّه تعالى عن سعيدِ بن جُبيرٍ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢] يعني: متواضعينَ لا يعرفُ مَنْ عنْ يمينِه ولا مَنْ عن شمالِه، ولا يلتفتُ في الخشوعِ للَّه عزَّ وجلَّ.

وقال ابنُ المباركِ عن أبي جعفرٍ عن ليثٍ عن مجاهدٍ: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨].

قال: القنوتُ: الركونُ والخشوعُ وغضُّ البصرِ وخفضُ الجناحِ من رهبةِ اللَّه عز وجل(١).

قال: وكانَ العلماءُ إذا قامَ أحدهُم في الصلاةِ هابَ الرحمنَ عزَّ وجلَّ أن يشذَّ نظرُه أو يلتفتَ أو يُقلِّبَ الحصى أو يعبثَ بشيءٍ أو يُحدِّثَ - يعني: نفسهُ - بشيءٍ من الدنيا، إلا ناسيًا، ما دامَ في صلاتهِ.

وقال منصورٌ عن مجاهدٍ رحمه اللَّهُ تعالى في قولهِ تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفتح:٢٩].

قال: الخشوعُ في الصلاةِ(٢).

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ والنسائيُّ والترمذيُّ(٣) من حديثِ الفضلِ بن عباسٍ رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**الصلاةُ مثنى مثنى، تشهّدُ في كلِّ ركعتينِ، وتخشّعُ وتضرّعُ، وتمسْكَنُ، وتُقنعُ يديك**» يقولُ: «**ترْفعهُما إلى ربِّك عزَّ وجلَّ وتقولُ: يا رب يا رب يا رب ثلاثًا فمنْ لم يفعلْ ذلكَ فهي خِداجٌ**».

وفي «صحيح مسلم»(٤) عن عثمانَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**ما من امرئ مسلمٍ تحضرُه صلاةٌ مكتوبةٌ فيحسنُ وُضوءَها وخشوعَها وركوعَها إلا كانَت كفارةً لما**

---

(١) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨٢).

(٢) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (٢٦/ ٧٠).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢١١)، والترمذي (٣٨٥)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١١٠٤٣).

(٤) مسلم (١/ ١٤٢).

قبلَها من الذنوبِ، ما لم تُؤْتَ كبيرةٌ، وذلكَ الدهرَ كلَّه».

فممَّا يظهرُ فيه الخشوعُ والذلُّ والانكسارُ من أفعالِ الصلاةِ: وضعُ اليدين إحداهُما على الأخرى في حالِ القيامِ، وقد رُوي عن الإمام أحمدَ ـ رحمه اللَّه ـ أنه سُئِلَ عن المرادِ بذلكَ، فقالَ: هو ذلٌّ بين يَدي عزيزٍ[1].

قال عليُّ بنُ محمدٍ المصريُّ الواعظُ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: ما سمعتُ في العلمِ بأحسنَ من هذا[2].

ورُوي عن بِشرٍ الحافي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ أنه قال: «أشتهي منذ أربعينَ سنةً أن أضعَ يداً على يدٍ في الصلاةِ ما يمنعُني من ذلكَ إلا أن أكونَ قد أظهرتُ من الخشوعِ ما ليس في القلبِ مثلُه»[3] وروى محمدُ بنُ نصرٍ المروزيُّ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ بإسنادِهِ عن أبي هريرةَ ﷺ قال: يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ على قدرِ صنيعهم في الصلاةِ[4]، وفسرهُ بعضُ رواتِهِ[5] فقبضَ شمالَه بيمينِهِ وانحنَى هكذا.

وبإسنادِهِ عن أبي صالحٍ السمَّانِ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ قال: يُبعثُ الناسُ يومَ القيامةِ هكذا، ووضَع إحْدى يديه على الأخرَى[6].

وملاحظةُ هذا المعنى في الصلاةِ يُوجبُ للمصلِّي أن يتذكَّرَ وقوفَه بين يدي اللَّه عزَّ وجلَّ للحسابِ.

---

(١) رواه ابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» (١/ ٨٤).
(٢) ذكره في «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٢٩).
(٣) رواه الخطيب ـ(١٤/ ٣٩٩).
(٤) «تعظيم قدر الصلاة» (٣٣١).
(٥) وهو أبو النضر، كما في الأثر السابق.
(٦) «تعظيم قدر الصلاة» (٣٣٢).

كـان ذو النونِ ـ رحمـه اللَّهُ تعـالى ـ يقولُ فـي وصفِ العُبَّـاد: لو رأيتَ أحدَهُم وقد قامَ إلى صلاتهِ فلمَّا وقفَ في محرابِهِ واستفتحَ كلامَ سيِّده، خطرَ على قلبهِ أنَّ ذلكَ المقامَ هو المقامُ الذي يقـومُ الناسُ فيه لربِّ العالمينَ، فانخلعَ قلبه وذهلَ لبُّه. خرَّجه أبو نعيم ـ رحمه اللَّه تعالى[1].

ومن ذلكَ: إقـبالُه على اللَّهِ عـز وجل، وعـدمُ التفـاتهِ إلى غيـرهِ، وهو نوعانِ:

أحدهما: عدمُ التفـاتِ قلبهِ إلى غيرِ مـنْ هو مناجٍ لهُ، وتفريغُ القلبِ للربِّ عزَّ وجل.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[2] عن عمرِو بن عـبسةَ ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ أنه ذكرَ فضلَ الوضوءِ وثوابَه، ثم قالَ: «**فإنْ هـو قـامَ فصلَّى فحمدَ اللَّهَ وأثنى عليه ومجدَه بالذي هو أهلُه، وفرَّغَ قلبَه للَّهِ، إلا انصرفَ من خطيئتِه كيومِ ولدتْه أمُّه**».

والثاني: عدمُ الالتـفاتِ بالبـصرِ يمينًا وشـمالاً، وقَـصرُ النظرِ علـى موضعِ السجـودِ، وهو من لوازمِ الخشـوعِ للقلبِ وعدمِ الـتفاتهِ، ولهـذا رأى بعضُ السَّلفِ مصليًا يعبثُ في صلاتهِ فقـالَ: لو خشعَ قلبُ هذا لخشعتْ جوارحُه، وقد سبقَ ذكرُه.

وخرَّجَ الطبرانيُّ[3] من حديثِ ابنِ سيـرينَ عن أبي هُريرةَ ﷺ قال: «كان النبيُّ ﷺ، يلتفتُ في الصلاةِ عن يمينه وعن يساره، ثمَّ أنزلَ اللَّهُ تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾ [المؤمنون:١، ٢] فخشعَ رسولُ اللَّه ﷺ فلم يكنْ يلتفتُ يمنةً ولا يسرةً».

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٩/٣٣٩ ـ ٣٤٠)، وهو جزء من أثر طويل.
(٢) مسلم (٢/٢٠٨)، وأحمد في «المسند» (٤/١١١، ١١٢)، والنسائي (١/٩١، ٩٢).
(٣) الطبراني في «الأوسط» (٤٠٨٢).

ورواه غيرُه عن ابنِ سيرينَ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ مرسلاً، وهو أصحُّ[1] .

وخرَّجَ ابنُ ماجه[2] من حديثِ أمِّ سلمةَ أمِّ المؤمنين ﵂ قالتْ: كان الناسُ في عهدِ النبيِّ ﷺ إذا قامَ أحدُهم يصلِّي لم يعدُ بصرُه موضعَ قدميه، فتوفِّي النبيُّ ﷺ، فكانَ الناسُ إذا قامَ أحدُهم إلى الصلاةِ لم يعدُ بصرُه موضعَ جبهتِه، فتوفي أبو بكرٍ، فكانَ عمرُ ﵁، فكانَ الناسُ إذا قام أحدُهم يصلِّي لم يَعْدُ بَصَرُ أحدِهم موضع القبْلةِ، وكان عثمانُ بنُ عفانَ ﵁، فكانتِ الفتنةُ، فتلفتَ الناسُ يمينًا وشمالاً».

وفي «صحيح البخاري»[3] عن عائشةَ ﵂: سألتُ النبيَّ ﷺ عنِ الالتفاتِ في الصلاةِ فقال: **«هو اختلاسٌ يختلسُه الشيطانُ من صلاةِ العبدِ»**.

وخرَّجَ الإمام أحمد ـ رحمه اللَّه تعالى ـ وأبو داودَ والنسائيُّ[4] من حديث أبي ذرٍّ ﵁ عن النبيِّ ﷺ قال: **«لا يزالُ اللَّهُ مقبلاً على العبدِ في صلاتِه، ما لم يلتفتْ، فإذا التفتَ انصرفَ عنهُ»**.

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ[5] من حديثِ الحارثِ الأشعريِّ عن النبيِّ ﷺ: **«إنَّ اللَّهَ أمرَ يحيى بنَ زكريا بخمسِ كلمات أن يعملَ بهنَّ، ويأمرَ بني إسرائيل أن يعملوا بهنَّ»** فذكر منها: **«وآمركُم بالصلاةِ، فإنَّ اللَّه ينصبُ وجهَهُ لوجهِ عبدِهِ ما لم يلتفتْ، فإذا صليتُم فلا تلتفتُوا»**.

---

(١) أخرجه: أبو داود في «المراسيل» (ص ٨) عن ابن سيرين مرسلاً.

(٢) أخرجه: ابن ماجه (١٦٣٤).

(٣) البخاري (١/ ١٩١).

(٤) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ١٧٢)، وأبو داود (٩٠٩)، والنسائي (٣/ ٨).

(٥) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ١٣٠، ٢٠٢)، والترمذي (٢٨٦٣)، وابن حبان (٦٢٣٣).

وفي المعنى أحاديثُ أُخَرُ متعدِّدةٌ.

وقال عطاءٌ: سمعتُ أبا هُريرة يقول: «إذا صلَّى أحدكُم فلا يلتفتُ؛ فإنه يناجِي ربَّه، إنَّ ربَّه أمامه، وإنه يناجيهِ فلا يلتفتُ»[1] .

قال عطاءٌ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: وبلغنَا أن الربَّ عز وجل يقولُ: «**يا ابنَ آدمَ، إلى مَنْ تلتفت؟ أنا خيرٌ لكَ مِمَّن تلتفتَ إليه**». وخرَّجه البزَّار[2] وغيرُه مرفوعًا، والموقوفُ أصحُّ[3] .

وقال أبو عمرانَ الجونيُّ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: أَوحى اللَّهُ عز وجلَّ إلى موسى ـ عليه السلامُ ـ يا موسى، إذا قمتَ بين يديَّ فقمْ مقامَ العبدِ الحقيرِ الذليلِ، وذُمَّ نفسَكَ، فهي أَوْلَى بالذمِّ، وناجِني بقلبٍ وجلٍ ولسانٍ صادقٍ.

ومن ذلك: الركوعُ، وهو ذلٌّ بظاهرِ الجسدِ.

ولهذا كانتِ العربُ تأنَفُ منهُ ولا تفعلهُ حتى بايعَ بعضُهم النبيَّ ﷺ على أن لا يخرَّ إلا قائمًا[4] يعني: أن يسجدَ من غيرِ ركوعٍ.

كذا فسره الإمامُ أحمدُ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ والمحققونَ من العلماءِ.

وقال اللَّه تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ**﴾ [المرسلات:٤٨]، وتمامُ الخضوعِ في الركوعِ: أن يخضعَ القلبُ للَّهِ ويذلَ له، فيتمُّ بذلكَ خضوعُ العبدِ بباطنهِ وظاهرِه للَّه عزَّ وجلَّ.

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣٢٧٠).

(٢) أخرجه: البزار (٥٥٣) «كشف الأستار».

(٣) ومن الموقوف ما رواه: عبد الرزاق في «المصنف» (٢/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦).

(٤) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٤٠٢) عن حكيم بن حزام بلفظ: «بايعت رسولَ اللَّه ﷺ على أن لا أخرَّ إلا قائمًا، قال: قلتُ: يا رسول اللَّه، الرجل يسألني البيع وليس عندي، أفأبيعه؟ قال: **لا تبع ما ليس عندك**»، رواه النسائي (٢/ ٢٠٥).

ولهذا كـان النبيُّ ﷺ يقولُ في ركـوعِهِ: «**خشع لك سمْعي وبصري ومُخِّي وعظامي وما استقلَّ به قدمِي**».

إشارةً إلى: أن خشوعَهُ في ركوعِهِ قد حصلَ بجميعِ جوارحِهِ ومنْ أعظمها القلبُ الذي هو مَلِكُ الأعضاءِ والجوارحِ فإذا خشعَ خشعتِ الجوارحُ والأعضاءُ كلُّها تبعًا لخشوعِهِ.

ومن ذلك: السجودُ وهو أعظمُ ما يظهَرُ فيه ذلُّ العبدِ لربِّه عز وجلَّ حيثُ جعلَ العبدُ أشرفَ ما له من الأعضاءِ وأعـزَّها عليه وأعلاها حقيقة؛ أوضعَ ما يُمكنه، فـيضعُـه في الترابِ مُـتَعَـفِّرًا، ويتبعُ ذلـك انكسارُ القلب وتواضُـعُهُ وخشوعُه للَّه عز وجل.

ولهذا كـان جزاءُ المؤمنِ إذا فـعلَ ذلك أن يُقَربـه اللَّهُ عز وجل إليـه فإن: «**أقربَ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ**» كما صحَّ عن النبيِّ ﷺ(١).

وقال اللَّه تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق:١٩].

والسُّجودُ أيضًـا مما كانَ يأنَفُ منه المشركونَ المستكبرونَ عَنْ عـبادةِ اللَّهِ عز وجل.

وكان بعضُهم يقـولُ: أكرهُ أنْ أسجدَ فتعلُوني إسْتي، وكـان بعضُهم يأخذُ كفًّا من حصى فيرفعُه إلى جبهتِهِ، ويكتفي بذلك عن السُّجود.

وإبليسُ إنما طَرَدَهُ اللَّه لَمَّا استكبـرَ عن السجودِ لمن أمَرهُ اللَّهُ بالـسجودِ له، ولهذا يبكي إذا سجدَ المؤمنُ ويقولُ: «**أُمِرَ ابنُ آدم بالسجود ففعل فله الجنة، وأمرتُ**

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٤٢١)، ومسلم (٢/ ٤٩)، وأبو داود (٨٧٥)، والنسائي (٢/ ٢٢٦).

بالسُّجود فعصيتُ فليَ النارُ»(١) .

ومن تمامِ خشوعِ العبدِ للَّهِ عزَّ وجلَّ وتواضعِه له في ركوعِهِ وسجودِه: أنه إذا ذلَّ لربه بالركوعِ والسجودِ وصفَ ربَّه حينئذٍ بصفاتِ العزِّ والكبرياءِ والعظمةِ والعلوِّ، فكأنه يقولُ: الذلُّ والتواضعُ وصفي، والعلوُّ والعظمةُ والكبرياءُ وصفُكَ، فلهذا شُرع للعبدِ في ركوعِهِ أن يقولَ: «**سبحان ربي العظيم**»، وفي سجودِهِ: «**سبحان ربي الأعلي**»(٢) .

وكانَ النبيُّ ﷺ أحيانًا يقولُ في سجودِهِ: «**سُبحان ذي الملكوتِ والجبروتِ والكبرياءِ والعظمةِ**»(٣) .

ورُوي عنه ﷺ أنه قالَ ليلة في سجودِهِ: «**أقولُ كما قالَ أخي داودُ ـ عليه السلامُ ـ: أُعَفِّرُ وجهِي في الترابِ لسيِّدي، وحُقَّ لسيدي أن تُعَفَّر الوجوهُ لوجهِهِ**».

قال الحسنُ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: «إذا قُمتَ إلى الصلاةِ فقُمْ قانتًا كما أمركَ اللَّه، وإياكَ والسهرَ والالتفاتَ، أن ينظرَ اللَّهُ إليكَ وتنظرَ إلى غيرِه، وتسأل اللَّهَ الجنةَ وتعوذَ به مِنَ النارِ وقلبُك ساهٍ لا تدْري ما تقولُ بلسانِكَ». خرَّجه محمدُ بنُ نصرٍ المَرْوزيُّ ـ رحمه اللَّه تعالى.

وروى بإسنادِه عن عثمانَ بنِ أبي دَهْرَشٍ قالَ: بَلَغَني أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٤٤٣)، ومسلم (١/ ٦١)، وابن ماجه (١٠٥٢).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٧)، ومسلم (٢/ ١٨٦)، وأبو داود (٨٧١)، وابن ماجه (٨٩٧)، (١٣٥١) مختصرًا، والترمذي (٢٦٢)، (٢٦٣)، والنسائي (٢/ ١٧٦).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٦/ ٢٤) عن عوف بن مالك، وأبو داود (٨٧٣)، والنسائي (٢/ ١٩١).

صلَّى صلاةً جَهَر فيها بالقراءةِ فلما فرغ قال: «**هل أسْقَطتُ من هذه السورة شيئًا؟**». قالوا: لا ندري، فقال أُبيٌّ بن كعبٍ: نعم آيةَ كذا وكذا، فقالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**ما بالُ أقوامٍ، يُتلَى عليهم كتابُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، فلا يدرونَ ما يُتلى منه ممَّا تُرِكَ، هكذا خرجتْ عظمةُ اللَّهِ من قلوبِ بني إسرائيلَ، شهدتْ أبدانُهم وغابتْ قُلوبُهُم، ولا يقبلُ اللَّهُ من عبدٍ عملاً حتى يشهدَ بقلبِه مع بدَنِه**»[١].

والآثارُ في هذا المعنى كثيرةٌ جدًا.

ومر عصامُ بن يوسفَ - رحمه اللَّه تعالى - بحاتمٍ الأصمِّ وهو يتكلمُ في مجلسِهِ، فقالَ: يا حاتمُ، تحسنُ تصلِّي؟ قال: نعم! قال: كيفَ تُصلي؟ قال حاتمٌ: أقوم بالأمرِ، وأمشي بالخشيةِ، وأدخل بالنِّيَّةِ، وأُكَبِّر بالعظمةِ، وأقرأُ بالترتيلِ والتفكرِ، وأركعُ بالخشوعِ، وأسجدُ بالتواضعِ، وأجلسُ للتشهدِ بالتمامِ وأسلِّمُ بالسبيلِ والسُّنةِ، أسلمها بالإخلاصِ إلى اللَّه عز وجل، وأرجعُ على نفسِي بالخوفِ، أخاف أن لا يُقبلَ منِّي، وأحفظُهُ بالجهدِ إلى الموتِ، قال: تكلَّم؛ فأنت تحسنُ تصلِّي[٢].

ومن أنواعِ العباداتِ التَّي يظهرُ فيها الذلُّ والخضوعُ للَّهِ عز وجلَّ: الدعاءُ، قالَ اللَّهُ عز وجلَّ: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً**﴾ [الأعراف:٥٥].

وقالَ: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾ [الأنبياء:٩٠].

فمما يظهر فيه الذلُّ من الدعاء رفعُ اليدينِ.

---

(١) أخرجه: ابن نصر في «قيام الليل» (١٥٧).

(٢) «الحلية» (٨/ ٧٤ - ٧٥).

وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه رفعَ يديهِ في الدعاءِ في مواطنَ كثيرةٍ وأعظمُهَا: في الاستسقاءِ؛ فإنه كانَ يرفعُ فيه يديهِ حتَّى يُرى بياضُ إبطيهِ[١]، وكذلك كان يجتهدُ في الرفعِ عشيةَ عرفةَ بعرفةَ.

وخرَّج الطبراني[٢] - رحمه اللَّه تعالى - من حديثِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قالَ: «رأيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يدعُو بعرفةَ ويداهُ إلى صدرِهِ كاستطعامِ المسكينِ».

وقد كان بعضُ الخائفينَ يجلسُ بالليلِ ساكنًا مُطْرِقًا برأسِهِ، ويمدُّ يديه كحالِ السائلِ، وهذا من أبلغِ صفاتِ الذلِّ وإظهارِ المسكنةِ والافتقارِ.

ومن ذلك أيضًا افتقارُ القلبِ في الدعاءِ وانكسارِهِ للَّه عز وجل واستشعارهِ شدةُ الفاقَةِ إليه والحاجةِ. وعلى قَدرِ هذه الحرقةِ والفَاقةِ تكونُ إجابةُ الدعاءِ.

وفي «المسندِ» والترمذي[٣] عن النبيِّ ﷺ قال: **«إن اللَّه لا يستجيبُ دُعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ»**.

ومن ذلكَ: إظهارُ الذلِّ باللسانِ في نفسِ السؤالِ والدعاءِ والإلحاحِ فيه.

قال الأوزاعيُّ - رحمه اللَّه تعالى -: كان يُقال: «أفضلُ الدعاءِ الإلحاحُ على اللَّهِ والتضرعُ إليه».

وفي الطبراني[٤] عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ دعا يومَ عرفةَ فقالَ: **«اللهمَّ إنَّك ترى مكانِي وتسمعُ كلامِي ولا يخْفَى عليكَ شيءٌ من أمرِي، أنا البائسُ**

(١) أخرجه: البخاري في «الصحيح» (٢/ ٣٩ - ٤٠)، ومسلم (٢/ ٢٤).
(٢) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٢٨٩٢).
(٣) أحمد في «المسند» (٢/ ١٧٧)، والترمذي (٣٤٧٩).
(٤) الطبراني في «الصغير» (١/ ٢٤٧).

الفقيرُ المستغيثُ المستجيرُ الوجِلُ المُشْفقُ المُقرُّ المعترفُ بذنبِه، أسألكَ مسألةَ المسكينِ وأبتهلُ إليكَ ابتهالَ المُذنبِ الذليلِ، وأدعوكَ دعاءَ الخائفِ الضرير، ومن خضعَتْ لك رقبتُه، وذلَّ لك جسدُه، ورغِمَ لك أنفُه، وفاضتْ لك عيناه. اللهم لا تجعلْني بدعائكَ شقيًّا، وكنْ بي بارًّا رؤوفًا رحيمًا، يا خيرَ المسئولينَ، ويا خيرَ المُعطينَ».

وكان بعضُهم يقولُ في دعائِه: بعزِّك وذُلِّي وغِناكَ وفَقْري.

وقال طاوسٌ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: دخلَ عليُّ بنُ الحسينِ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ ذاتَ ليلةٍ الحجرَ يصلِّي، فسمعتُه يقولُ في سجودِه: عُبيدُكَ بفنائكَ، مُسيكينُكَ بفنائك، فقيرُكَ بفنائك، سائلُك بفنائك، قال طاوس: فحفظتُهنَّ، فما دعوتُ بهنَّ في كَرْبٍ إلا فُرِّجَ عنِّي. خرَّجه ابنُ أبي الدُّنيا.

وروى ابنُ باكَوَيْه الصوفيُّ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ بإسنادٍ له: أنَّ بعضَ العُبَّادِ حجَّ ثمانينَ حَجَّةً على قدَميه، فبينما هو في الطوافِ وهو يقولُ: يا حبيبي، وإذا بهاتفٍ يهتفُ به: ليس ترضى أن تكون مسكينًا حتَّى تكونَ حبيبًا. قال: فغُشي عليَّ، ثم كنتُ بعد ذلك أقولُ: مسكينُكَ مسكينُكَ، وأنا تائبٌ عن قول: حبيبي[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾

كان السَّلفُ الصَّالح يجتهدون في إتمام العمَل وإكماله وإتقانه، ثم يهتمُّون بعد ذلكَ بقبولِه، ويخافونَ من ردِّه، وهؤلاء الذينَ ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] رُويَ عن عليٍّ ﷺ قالَ: كونُوا لقبول العمل أشدَّ اهتمامًا

(١) «الذل والانكسار» (٣١ ـ ٧٥).

منكمُ بالعمل، ألم تسمعُوا اللَّهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ من الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]؟ وعن فضالةَ بنِ عبيدٍ قالَ: لأن أكونَ أعلمُ أنَّ اللَّهَ قد تقبلَ منِّي مثقالَ حبة من خردلٍ أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها؛ لأنَّ اللَّهَ يقولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وقال ابنُ دينارٍ: الخوفُ على العملِ أن لا يتقبَّلَ أشدّ من العمل.

وقال عطاءٌ السُّليميُّ: الحذرُ: الاتقاءُ على العملِ أن لا يكونَ للّهِ.

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ أبي روَّاد: أدركتُهم يجتهدونَ في العملِ الصالحِ، فإذا فعلوه وقع عليهم الهمُّ، أيقبلُ منهُم أم لا؟

قال بعضُ السَّلفِ: كانوا يدعُون اللَّهَ ستَّةَ أشهرٍ أن يبلِّغهم شهرَ رمضانَ، ثم يدعونَ اللَّهَ ستَّةَ أشهرٍ أن يتقبَّلَهُ منهُم.

خرجَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ ـ رحمهُ اللَّهُ ـ في يومِ عيدِ فطرٍ، فقالَ في خطبته: أيُّها الناسُ؛ إنَّكم صُمتم للَّهِ ثلاثين يومًا، وقُمتُم ثلاثين ليلةً، وخرجتُم اليومَ تطلبون من اللَّه أن يتقبَّل منكم.

كانَ بعضُ السَّلف يظهرُ عليه الحزنُ يومَ عيدِ الفطر، فيقالُ له: إنَّه يومُ فرحٍ وسرورٍ، فيقولُ: صدقتُم، ولكنِّي عبدٌ أمرني مولاي أن أعملَ له عملاً، فلا أدري أيقبلُه منِّي أم لا؟

رأى وُهيبُ بنُ الورد قومًا يضحكونَ في يومِ عيدٍ، فقالَ: إن كانَ هؤلاءِ تُقبِّلَ منهم صيامُهم فما هذا فعلُ الشاكرينَ، وإن كانُوا لم يُتقبَّلْ منهم صيامهُم فما هذا فعلُ الخائفينَ.

وعن الحسنِ قالَ: إنَّ اللَّه جعلَ شهرَ رمضانَ مضمارًا لخلقه يَسْتَبِقُون فيه بطاعتهِ إلى مرضَاتِهِ، فسبق قومٌ ففازُوا، وتخلَّف آخرونَ فخابُوا. فالعجَب من

اللاعبِ الضَّاحكِ في اليومِ الذي يفوزُ فيه المحسنونَ ويخسرُ فيه المبطلُونَ.

لعلك غَضْبانُ وقلبي غافِلٌ   سلامٌ على الدَّارَينِ إن كنتَ راضيًا

رُويَ عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّه كانَ ينادي في آخرِ ليلةٍ من شهرِ رمضانَ: ياليتَ شعْرِي! مَن هذا المقبولُ فنهنِّيه؟ ومَن هذا المحرومُ فنُعَزِّيه؟

وعن ابنِ مسعودٍ أنَّه كانَ يقولُ: مَن هذا المقبُولُ منَّا فنُهنِّيه؟ ومَن هذا المحرومُ منَّا فنعزِّيه؟ أيُّها المقبولُ هنيئًا لكَ، أيُّها المردودُ جبرَ اللَّه مُصيبتك.

ليتَ شِعْرِي مَنْ فيه يُقْبَلُ منَّا   فيُهنَّا يا خيبةَ المَرْدُود
مَنْ تولَّى عنهُ بغيرِ قَبُولٍ   أرْغَمَ اللَّهُ أنفَهُ بِخِزيٍ شَديدِ[1]

* * *

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

في معنى الخراج قال بعضهم: هو المال الذي يجبى ويؤتى به لأوقات محدودة، ذكره ابن عطية قال: وقال الأصمعي: الخراج الجُعْل مرة واحدة، والخراج: ما ردد لأوقاتٍ ما، قال ابن عطية: هذا فرقٌ استعماليّ وإلا فهُمَا في اللغة بمعنىً.

وقد ورد في كتاب الله ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ [المؤمنون:٧٢] هذه قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وعاصم، وقرأ حمزة والكسائي ﴿أم تسألهم خراجا فخراج ربك خير﴾ وقرأ ابن عامر ﴿خرجا﴾ في الموضعين وقال تعالى في قصة ذي القرنين ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ [الكهف:٩٤]، وقرئ ﴿خراجا﴾ أيضًا.

(١) «لطائف المعارف» (٣٧٤ ـ ٣٧٧).

قال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿خَرْجًا﴾ يعني: أجرًا، وقال أبو عبيد: الخراج في كلام العرب إنما هو الغلة، ألا تراهم يُسَمُّونَ غَلَةَ الأرضِ والدارَ والمملوكَ خراجًا؟ ومنه حديث النبي ﷺ «أنه قضي بالخراج بالضمان»، [1] وحديث: [2] «أن النبي ﷺ لما حجمه أبو طيبة كلَّم أهله فوضعوا عنه من خراجه» فسمى الغلة: خراجًا، وقال الأزهري: الخراج: اسم لما يخرج من الفرائض في الأموال، ويقع على القرية وعلى مال الفيء، ويقع على الجزية وعلى الغلة، والخراج المصدر. انتهى.

والجزية تسمى خراجًا، وقد كتب النبي ﷺ إلى قيصر كتابًا مع دِحْيَةَ يُخَيِّرُهُ بين إحدى ثلاث، منها: «أن يقرَّ له بخراجٍ يجري عليه» والحديث في مسند الإمام أحمد وغيره.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

قال اللَّه تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]. قال مجاهدٌ: البرزخُ: الحاجزُ بين الموتِ والرجوعِ إلى الدنيا، وعنه قالَ: هو ما بينَ الموتِ إلى البعثِ.

قال الحسنُ: هي هذه القبورُ التي بينكُم وبينَ الآخرةِ. وعنه قالَ: هي هذهِ القبورُ التي تركضونَ عليها، لا يسمعونَ الصوتَ.

وقال عطاءٌ الخراسانيُّ: البرزخُ: مدةُ ما بينَ الدُّنيا والآخرةِ.

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٩ ـ ١٦١ ـ ٢٠٨ ـ ٢٣٧)، وأبو داود (٣٥٠٨ ـ ٣٥١٠)، والترمذي (١٢٨٦)، والنسائي (٧/ ٢٥٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٣٥٣) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه.

وصلَّى أبو أمامةَ الباهليُّ على جنازةٍ فلمَّا وُضِعتْ في لحدِها، قال أبو أمامةَ: هذا برزخٌ إلى يومِ يبعثونَ.

وقيل للشعبيِّ: ماتَ فلان، قال: ليسَ هو في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، هو في البرزخِ.

وسمعَ رجلاً يقولُ: ماتَ فلانٌ أصبحَ من أهلِ الآخرةِ. قال: لا تقلْ: من أهلِ الآخرةِ، ولكنْ قل: من أهلِ القبورِ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿**تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

روى دراجُ عن أبي الهيثمِ، عن أبي سعيدٍ عن النبيِّ صلى اللَّه عليه وآله وسلم قالَ: ﴿**وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠٤] قالَ: «**تَشْوِيه النارُ، فتقلصُ شفتُهُ العليا حتَّى تبلغَ وسطَ رأسه وتسترخي شفتُه السفلَى حتى تضربَ سرَّتَهُ**». خرجه الإمام أحمدُ والترمذيُّ والحاكمُ[2] وقالا: صحيحٌ.

وعن ابنِ مسعودٍ أنه قالَ في قولِه: ﴿**وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠٤] قال: ككُلُوحِ الرأسِ النضيجِ، وعنه: ككُلُوحِ الرأسِ المشيطِ بالنارِ ـ، قد بدتْ أسنانهم وتقلصتْ شفاهُهُم. وعنه قالَ: ألم ترَ إلى الرأسِ المشيطِ بالنارِ وقد تقلصتْ شفتاهُ وبدتْ أسنانُه[3].

وخرجَ الخلالُ في كتابِ «السنةِ» من حديثِ الحكمِ بنِ الأعرجِ عن

(١) «أهوال القبور» (١٠).
(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٨٨)، والترمذي (٢٥٨٧)، (٣١٧٦)، والحاكم (٢/ ٣٩٥).
(٣) الطبري في «التفسير» (١٨/ ٥٦).

أبي هريرةَ قال: يعظمُ الرجلُ في النارِ حـتى يكونَ مسيرةَ سبع ليـالٍ، ضرسُهُ مثلُ أحدٍ، شفاهُهُم على صدورِهِم، مقبوحينَ يتهافتونَ في النارِ.

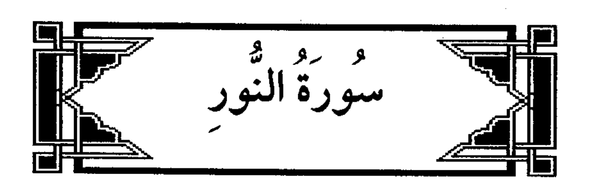
قال أبو بكرِ بنِ عياشٍ عن محمدِ بنِ سويدٍ، كانَ لطاوس طريقانِ إذا رجعَ من المسجـدِ أحدُهُما فـيها روَّاسٌ، وكـان يرجعُ إذا صلَّى المغربَ، فـإذا أخذَ الطريقَ الذي فيـه الروَّاس لم يستطعْ أن يتعـشَّى، فقيلَ لهُ: فـقالَ: إذا رأيتُ الرؤوسَ كالحةً لم أستطعْ آكلُ؛ قال أبو بكرٍ: فذكرتُهُ لسريعٍ المكيِّ. فقالَ: قد رأيتُهُ يقفُ عليهَا.

وقالَ أبو غندرٍ الدمشقيُّ: كـان أويسٌ إذا نظرَ إلى الرؤوسِ المشويةِ يذكـرُ هذه الآية: ﴿**تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠٤] فيقعُ مغشيًا عليه حتى يظنَّ الناظرون إليه أنه مجنونٌ. خرجهُما ابنُ أبي الدنيا وغيرُه.

وقال الأصمعيُّ: حـدثنا الصقرُ بنُ حبيبٍ قالَ: مـرَّ ابنُ سيرين بروَّاسٍ قد أخرجَ رأسًا فغشي عليهِ[١].

* * *

(١) «التخويف من النار» (١٣٤ ـ ١٣٥).



سُورَةُ النُّورِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾

من كانَ مستورًا لا يُعرفُ بشيءٍ منَ المعاصِي، فإذَا وقعتْ منه هفوةٌ، أو زلَّةٌ، فإنَّه لا يجوزُ كشفُها ولا هتكُها، ولا التَّحدُّثُ بها، لأنَّ ذلك غيبةٌ محرَّمةٌ، وهذا هو الذي وردتْ فيه هذه النُّصوصُ، وفي ذلكَ قد قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**﴾ [النور:١٩].

والمرادُ: إشاعةُ الفاحشةِ على المؤمنِ المستترِ فيمَا وقعَ منه، أو اتُّهِمَ به وهو بريءٌ منهُ، كما في قصَّةِ الإفكِ.

قالَ بعضُ الوزراءِ الصالحينَ لبعضِ من يأمرُ بالمعروفِ: اجتهدْ أن تسترَ العُصَاةَ، فإنَّ ظهورَ معاصِيهم عَيْبٌ في أهلِ الإسلامِ، وأَوْلَى الأمورِ سترُ العيوبِ.

ومثلُ هذا لو جاءَ تائبًا نادمًا، وأقرَّ بحَدٍّ لم يفسِّرْهُ، ولم يُستفسر، بل يُؤمَر بأنْ يرجعَ ويسترَ نفسَهُ، كمَا أمر النبيُّ ﷺ ماعزًا والغامديةَ، وكما لم يستفسرِ الذي قال له: «أصَبْتُ حدًا فأقمه عليَّ».

ومثلُ هذا لو أُخذَ بجريمتِه، ولم يبلغ الإمامَ، فإنه يُشفع له حتَّى لا يبلغَ الإمامَ. وفي مثلِه جاءَ الحديثُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ: «**أَقِيلوا ذوي الهيئاتِ عثَراتهم**».

خرَّجه أبو داودَ والنسائيُّ[١] من حديثِ عائشةَ رضي الله عنها[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾

وقد أمر النبي ﷺ ببناءِ المساجدِ في الدُّورِ: أن تُنظَّفَ وتُطَيَّبَ، وسنذكرُهُ في موضعٍ آخرَ - إن شاءَ اللَّهُ.

وقد فُسِّر قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور:٣٦] ببنيانهَا وتطهيرهَا وتنزيههَا عمَّا لا يليقُ بهَا[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعتُ الوزير[٤] يقول في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ [النور:٥٣] قال: وقع لي فيها ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدُها: أن المعنى: لا تقسموا واخرجوا من غير قسم، فيكون المحرك لكم إلى الخروج الأمر لا القسم، فإن من خرج لأجل قسمه ليس كمن خرج لأمر ربه.

والثاني: أنَّ المعنى: نحن نعلم ما في قلوبكم، وهل أنتم على عزم الموافقة

---

(١) أخرجه: أبو داود (٤٣٧٥)، وأحمد (٦/ ١٨١)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١٢/ ١٧٩٥٦).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣١٤).

(٣) «فتح الباري» (٣٢٦).

(٤) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

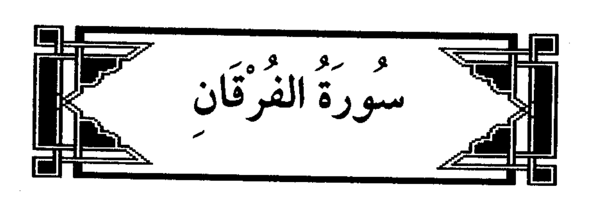
للرسول في الخروج؟ فالقسم هاهنا: إعلام منكم لنا بما في قلوبكم. وهذا يدل منكم على أنكم ما علمتم أن اللَّه يطلع على ما في القلوب.

والثالث: أنكم ما أقسمتم إلا وأنتم تظنون أنا نتهمكم، ولولا أنكم في محل تهمة ما ظننتم ذلك فيكم. وبهذا المعنى وقع المتنبي فقال:

وفي يمينك ما أنتَ واعِدُهُ ... ما دَلَّ أنكَ في الميعادِ متهم[1]

* * *

(١) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٦ - ٢٦٧).



سُورَةُ الفُرْقَانِ

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾

قال ابن الجوزيِّ في «المقتبس»: سمعتُ الوزير[1] يقولُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾ [الفرقان: ٨] قال: العجبُ كلُّ العجبِ لجهلِهِم حين أرادُوا أن يُلقى إليه كنزٌ أَوْ تكُونَ لَهُ جنةٌ. ولو فهموا علموا أن كلَّ الكنوزَ له وجميعَ الدنيا مِلْكُهُ. أو ليس قد قهرَ أرباب الكنوز، وحكم في جميع الملوك؟ وكان من تمام معجزته أن الأموال لم تفتح عليه في زمنه؛ لئلا يقول قائلٌ: قد جرت العادة بأن إقامة الدول، وقهرَ الأعداءِ بِكَثرةِ الأَمْوَالِ، فتمت المعجزةُ بالغلبة والقهرِ مِنْ غَيرِ مالٍ، ولا كَثْرةِ أعوانٍ، ثم فتحت الدنيا على أصحابِهِ، ففرقُوا ما جمعهُ الملوكُ بالشَّرَهِ، فأخرجوه فيما خلق له، لم يمسكوه إمساكَ الكافرين، ليعلموا الناسَ بإخراجِ ذلك المالِ: أنَّ لنا دارًا سوى هذه، ومقرًّا غير هذا.

وكان من تمام المعجزات للنبيِّ ﷺ: أنه لما جاءهم بالهدى فَلَمْ يقبلْ، سلَّ السيفَ على الجاحدِ، ليعلمهُ أن الذي ابتعثني قاهرٌ بالسيفِ بعد القهر بالحجج. ومما يقوي صدقَهُ أنَّ قيصرَ وكِبارَ الملوكِ لَم يوفقوا للإيمانِ به؛ لئلا

---

(١) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

يقولَ قائلٌ: إنما ظهـرَ لأنَّ فلانًا الملكَ تعصبَ له فتقوَّى به، فـبانَ أن أمرَهُ من السماءِ لا بنصرةِ أهلِ الأرضِ(1).

* * *

قوله تعالى: ﴿وأَعْتَدْنَا لمَن كَذَّبَ بالسَّاعَة سَعيراً ﴿١١﴾ إذا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعيدٍ سَمعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وزَفيراً﴾

قالَ اللَّهُ تعالىَ: ﴿إنَّ الَّذينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لا يَسْمَعُونَ حَسيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠١,١٠٢]، وقالَ تعالى: ﴿وأَعْتَدْنَا لمَن كَذَّبَ بالسَّاعَة سَعيراً ﴿١١﴾ إذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعيدٍ سَمعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وزَفيراً﴾ [الفرقان: ١١,١٢]، وقال تعالى: ﴿ولِلَّذينَ كَفَرُوا برَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصيرُ ﴿٦﴾ إذَا أُلْقُوا فيهَا سَمعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ منَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٦، ٨] والشهيق الصوت الذي يخرج من الجوف بشـدة كصوتِ الحمارِ، قـالَ الربيعُ بنُ أنسٍ: الشهيقُ في الصدرِ، وقالَ مجاهدٌ في قولِه: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ [الملك:٧] قال: تغلي بهم كما يغلي القدرُ، وقـالَ ابنُ عباسٍ: تميزُ: تفـرقُ، وعنه قال: يكادُ يفارقُ بعـضُها بعضًا وتتفطرُ، وعن الضحاك: تميزُ. وقـال ابنُ زيد: التميزُ: التفرقُ من شدةِ الغيظِ على أهلِ معاصِي اللَّهِ عزَّ وجلَّ، غضبًا له عزَّ وجل وانتقامًا له.

وخرج ابنُ أبي حـاتمٍ من حديثِ خـالدِ بنِ دريكٍ عن رجلٍ من الصـحابةِ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «من تقوَّلَ عليَّ ما لم أقل فليتبـوء بين عيني جهنمَ مقعدًا» قيلَ: يا رسولَ اللَّهِ، وهل لها عينانِ؟ قال: «نعم، أو لم تسمعْ قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

(1) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٧).

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]».

وروى أبو يحيى القتاتُ عن مجاهدٍ عن ابنِ عباسٍ قالَ: إن العبدَ ليجرُّ إلى النارِ، فتشهقُ إليه شهقةَ البغلةِ إلى الشعير، ثم تزفرُ زفرةً لا يبقى أحدٌ إلا خافَ. خرجهُ ابنُ أبي حاتمٍ.

وقال كعبٌ: ما خلقَ اللَّهُ من شيءٍ، إلا وهوَ يسمعُ زفيرَ جهنَّم غدوةً وعشيةً، إلا الثقلينِ اللذينِ عليهما الحسابُ والعذابُ. خرجه الجوزجانيُّ.

وفي «كتابِ الزهدِ»(١) لهنادِ بنِ السريِّ عن مغيثِ بنِ سمي، قالَ: إنَّ لجهنمَ كلَّ يومٍ زفرتين يسمعُهما كلُّ شيءٍ، إلا الثقلينِ اللذينِ عليهما الحسابُ والعذابُ.

وعن الضحاكِ قالَ: إن لجهنَّمَ زفرةٌ يومَ القيامةِ لا يبقى ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ إلا خرَّ ساجدًا يقولُ: ربِّ نفسي نفسِي(٢).

وعن عبيدِ بنِ عميرٍ قالَ: تزفرُ جهنمُ زفرةً لا يبقى ملكٌ ولا نبيٌّ إلا وقعَ لركبتيه، ترعدُ فرائسُهُ يقولُ: ربِّ نفسي نفسي(٣).

وروى ابنُ أبي الدُّنيا وغيرُه عن الضحاكِ قالَ: ينزلُ الملكُ الأعلَى في بهائِهِ وملكِهِ، مجنبته اليسرى جهنمُ، فيسمعونَ شهيقها وزفيرهَا فيندُّون(٤).

وعن وهبِ بنِ مُنَبِّه قالَ: إذا سيرتِ الجبالُ فسمعتْ حسيسَ النارِ وتغيظَها وزفيرَها وشهيقَها، صرختِ الجبالُ كما تصرخُ النساءُ، ثم يرجعُ أوائلُها على أواخرِهَا، يدقُّ بعضُها بعضًا. خرجهُ الإمامُ أحمدَ.

---

(١) أخرجه: هناد بن السّريٍّ في «الزهد» (٢٥٣).

(٢) السابق (٢٥٤). (٣) السابق (٢٥٥).

(٤) ندَّ البعيرُ: نَفَرَ وشَرَد.

وفي «تفسيرِ آدمَ بنِ أبي إياسٍ» عن محمدِ بنِ الفضلِ عن عليِّ بنِ زيدِ بن جدعان، عن أبي الضُّحى، عن ابنِ عباسٍ قالَ: تزفرُ جهنمُ زفرةً، لا يبْقَى ملكٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ إلا جثا على ركبتيهِ حولَ جهنَّم، فتطيشُ عقولهُم فيقولُ اللَّهُ عز وجلَّ: ماذا أجبتُمُ المرسلينَ؟ قالُوا: لا علمَ لنا، ثم تُردُّ عليهم عقولُهم فينطقونَ بحجتِهِم وينطقونَ بعذرِهِم. محمدُ بنُ الفضلِ هو ابنُ عطيةَ متروكٌ.

قال آدمُ: وحدثنا أبو صفوانَ عن عاصمِ بنِ سليمانَ الكوزيِّ عن ابنِ جريجٍ عن عطاءٍ عن ابنِ عباسٍ ﴿**إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا**﴾ [الفرقان: ١٢] المكانُ البعيدُ، مسيرة مائة عامٍ، وذلكَ أنه إذا أُتيَ بجهنَّمَ تقادُ بسبعينَ ألف زمامٍ يشدُّ بكلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ، ولو تركتْ لأتتْ على كُلِّ برٍ وفاجرٍ، ثم تزفرُ زفرةً لا يبقى قطرةٌ من دمع إلا بدرت، ثم تزفرُ الثانيةَ فَتَنْقَطِعُ القلوبُ من أماكنها تبلغُ اللهواتِ والحناجرَ وهو قولُه: ﴿**وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ**﴾ [الأحزاب: ١٠]. وعاصم الكوزيُّ ضعيفٌ جداً.

وقال الليثُ بنُ سعدٍ عن عبيدِ اللَّهِ بن أبي جعفر: إنَّ جهنَّم لتزفرُ زفرةً تنشقُّ منها قلوبُ الظلمةِ، ثم تزفرُ أخرى فيطيرونَ في الأرضِ حتى يقعُوا على رؤوسِهِم. خرجهُ عبدُ اللَّهِ ابنُ الإمامِ أحمدَ.

وروَى أسدُ بنُ موسى عن إبراهيمَ بنِ محمدٍ عن صفوانَ بنِ سليمٍ عن عطاءِ بنِ يسارٍ عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرِو بن العاصِ ـ مثلَه.

وخرجَ أبو نعيم وغيرُه من روايةِ عبدِ الرحمنِ بنِ حاطبٍ، قالَ: قالَ عمرُ ﷺ لكعبٍ: خوِّفْنَا، قالَ: والذي نفسِي بيده؛ إن النارَ لتقربُ يومَ القيامةِ لها زفيرٌ وشهيقٌ، حتى إذا دنتْ وقربتْ زفرت زفرةً، ما خلقَ اللَّهُ من نبيٍّ ولا

شهيدٍ إلا وجبَ لركبتيهِ ساقطًا، حتى يقولَ كلُّ نبيٍّ وكلُّ صدِّيقٍ وكلُّ شهيدٍ: اللهمَّ لا أكلفُكَ اليومَ إلا نفسِي، ولو كانَ لكَ يا ابنَ الخطابِ عملُ سبعينَ نبيًا لظننتَ أن لا تنجُو، قالَ عمرُ: واللَّه، إن الأمرَ لشديدٌ.

ومن روايةِ شريحِ بنِ عبيدٍ قالَ: قالَ عمرُ لكعبٍ: خوِّفنا، قالَ: واللَّهِ لتزفرنَّ جهنمُ زفرةً، لا يبقَى ملكٌ مقربٌ ولا غيرُهُ إلا خرَّ جاثيًا على ركبتيهِ، يقولُ: ربِّ نفسِي نفسِي، وحتى نبينا محمدٍ وإبراهيمَ وإسحاقَ - عليهمُ السلامُ -، قال: فأبكَى القومَ حتى نشجُوا.

وفي رواية مطرفِ بن الشخيرِ عن كعبٍ، قالَ: كنتُ عندَ عمرَ، فقالَ: يا كعبُ خوِّفنا، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ، إنَّ جهنمَ لتزفرُ يومَ القيامةِ زفرةً لا يبقَى ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ إلا خرَّ ساجدًا على ركبتيهِ، حتى إنَّ إبراهيمَ خليله - عليه السلامُ - ليخرُّ جاثيًا ويقولُ: نفسِي نفسِي، لا أسألكُ اليومَ إلا نفسِي، قالَ: فأطرقَ عمرُ مليًّا، قالَ: قلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ، أولستُم تجدونَ هذا في كتابِ اللَّهِ عزَّ وجل؟! قالَ عمرُ: كيفَ؟ قلتُ: يقولُ اللَّه عزَّ وجلَّ في هذه الآيةِ: ﴿**يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُون**﴾ [النحل: ١١١].

وكانَ سعيدُ الجرميُّ يقولُ في موعظتِهِ إذا وصفَ الخائفين: كأنَّ زفيرَ النارِ في آذانِهِم.

وعن الحسنِ أنه قالَ في وصفِهم: إذا مرُّوا بآيةٍ فيها ذكرُ الجنةِ بكوا شوْقًا، وإذا مرُّوا بآيةٍ فيهَا ذكرُ النارِ ضجُّوا صُراخًا، كأنَّ زفيرَ جهنَّم عندَ أصولِ آذانِهِم.

وروى ابنُ أبي الدنيا وغيرُه عن أبي وائلٍ قالَ: خرجْنا معَ ابنِ مسعودٍ ومعنا الربيعُ بنُ خُثَيمٍ، فأتينَا على تنورٍ على شاطئِ الفراتِ، فلمَّا رآهُ عبدُ اللَّه والنارُ تلتهبُ في جوفهِ قرأَ هذه الآيةَ ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ إلى قوله: ﴿ثُبُورًا﴾ [الفرقان:١٢,١٣] فصعقَ الربيعُ بنُ خُثَيمٍ فاحتملناه إلى أهلهِ، فرابطَهُ عبدُ اللَّهِ حتى صلَّى الناسُ الظهرَ فلم يُفِقْ، ثم رابطَهُ إلى العصرِ فلم يُفِقْ، ثم رابطَهُ إلى المغربِ فأفاقَ، فرجعَ عبدُ اللَّهِ إلى أهلهِ.

ومن روايةِ مسمعِ بنِ عاصمٍ قالَ: بتُّ أنا وعبدُ العزيزِ بن سليمانَ وكلابُ ابنُ جريٍّ وسلمانُ الأعرجُ على ساحلٍ من بعضِ السواحلِ، فبكَى كلابٌ حتى خشيتُ أن يموتَ، ثم بكى عبدُ العزيزِ لبكائهِ ثم بكَى سلمانُ لبكائهِمَا، وبكيتُ ـ واللَّهِ ـ لبكائِهم لا أدْري ما أبكَاهُم، فلما كانَ بعدُ سألتُ عبدَ العزيزِ فقلتُ: يا أبا محمدٍ ما الذي أبكاك ليلتئذٍ؟ قالَ: إنِّي ـ واللَّهِ ـ نظرتُ إلى أمواجِ البحرِ تموجُ وتجيلُ، فذكرتُ أطباقَ النيرانِ وزفراتِها، فذلكَ الذي أبكاني، ثم سألتُ كلابًا أيضًا نحوًا مما سألتُ عبدَ العزيزِ، فواللَّهِ؛ لكأنَّما سمعَ قصتَهُ، فقال لي مثلَ ذلكَ، ثم سألتُ سلمانَ الأعرجَ نحوًا مما سألتُهما، فقالَ لي: ما كانَ في القومِ شرٌّ منِّي، ما كانَ بُكائي إلا لبكائِهم رحمةً لهم مما كانُوا يصنعونَ بأنفسِهِم ـ رحمهُمُ اللَّهُ تعالى[1].

* * *

(١) «التخويف من النار» (٨٠ ـ ٨٤).

قوله تعالى ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعت الوزير[١] يقول في قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ [الفرقان:١٩] قال: المعنى: فقد كذبكم أصنامكم بقولكم؛ لأنكم ادعيتم أنها الآلهة وقد أقررتم أنها لا تنفع، فإقراركم يكذب دعواكم.

في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠] قال هو يدل على فضل هداية الخلق بالعلم، ويبين شرف العالم على الزاهد المنقطع؛ فإن النبي ﷺ كالطبيب، والطبيب يكون عِنْدَ المرضى، فلو انقطع عنهم هلكوا[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾

وخرَّج النسائيُّ[٣] من حديثِ أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إذا أسلمَ العبدُ

(١) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

(٢) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٨، ٢٧٠).

(٣) أخرجه: النسائي (٨/ ١٠٥ ـ ١٠٦).

فحَسُنَ إسلامُه، كَتَبَ اللَّهُ له كُلَّ حَسنةٍ كانَ أزلفَها، ومحيت عنه كلُّ سيئة كان أزلفها، ثمَّ كانَ بعدَ ذلكَ القصاصُ، الحسنةُ بعشْرِ أمثالِها إلى سَبعِ مائةِ ضعفٍ، والسَّيِّئةُ بمثلها إلا أن يتجاوزَ اللَّهُ»، وفي روايةٍ أخرى: «**وقيلَ لهُ: ائتنفِ العملَ**».

والمرادُ بالحسناتِ والسيئاتِ التي كانَ أزلَفَهَا: ما سبقَ منه قبلَ الإسلامِ، وهذا يدلُّ على أنه يُثابُ بحسناتِه في الكفرِ إذا أسلمَ وتُمحى عنه سيئاتُه إذا أسلَمَ، لكن بشرطِ أن يحسُنَ إسلامُه، ويتقِي تلكَ السيئاتِ في حالِ إسلامِه، وقد نصَّ على ذلكَ الإمامُ أحمدُ.

ويدلُّ على ذلكَ ما في «الصحيحينِ»[1] عن ابنِ مسعودٍ قالَ: قلنا: يا رسولَ اللَّهِ، أنؤاخذُ بما عملْنا في الجاهليةِ؟ قالَ: «**أما مَنْ أحسنَ منكُم في الإسلامِ فلا يُؤاخذُ بِهَا، ومن أساءَ أُخِذَ بعملِه في الجاهليةِ والإسلامِ**».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[2] عن عمرِو بنِ العاصِ قال للنبيِّ ﷺ لما أسلمَ: أريدُ أن أشترطَ، قالَ: «**تشترطُ ماذَا؟**» قلتُ: أن يُغفرَ لِي، قالَ: «**أما علمتَ أنَّ الإسلامَ يهدمُ ما كانَ قبلَهُ؟**». وخرجَهُ الإمامُ أحمدُ ولفظُه: «**إن الإسلامَ يجبُّ ما كانَ قبلَهُ منَ الذنوبِ**»[3] وهذا محمولٌ على الإسلامِ الكاملِ الحسنِ، جمعًا بينَهُ وبين حديثِ ابنِ مسعودٍ الذي قبلَهُ.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[4] أيضًا عن حكيمِ بنِ حزامٍ قالَ: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ أرأيتَ أمورًا كنتُ أصنعُها في الجاهليةِ من صدقةٍ أو عتاقةٍ أو صلة

(١) البخاري (٩/ ١٧)، ومسلم (١/ ٧٧).
(٢) «صحيح مسلم» (١/ ٧٨).
(٣) «المسند» (٤/ ٢٠٥).
(٤) «صحيح مسلم» (١/ ٧٩).

رحم، أفيها أجرٌ؟ فقالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «أسلمتَ على ما أسلفتَ من خيرٍ» وفي روايةٍ لهُ: قالَ: فقلتُ: واللَّهِ؛ لا أدعُ شيئًا صنعتُه في الجاهليةِ إلا صنعتُ في الإسلام مثلَهُ.

وهذا يدلُّ على أنَّ حسناتِ الكافرِ إذا أسلمَ يُثابُ عليهَا كما دلَّ عليه حديثُ أبي سعيدٍ المتقدِّمُ.

وقد قيلَ: إن سيئاتِه في الشركِ تبدَّلُ حسناتٍ، ويُثابُ عليها، أخذًا من قولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩، ٧٠].

وقد اختلفَ المفسرونَ في هذا التبديلِ على قولين:

فمنهُم مَنْ قالَ: هو في الدنيا، بمعنى: أنَّ اللَّه يُبَدِّلُ من أسلمَ وتابَ إليه بدلَ ما كان عليهِ من الكفرِ والمعاصِي: الإيمانَ والأعمالَ الصالحةَ، وحكَى هذا القولَ إبراهيمُ الحربيُّ في «غريب الحديث» عن أكثرِ المفسرينَ، وسمَّى منهم ابنَ عباسٍ، وعطاءً، وقتادةَ، والسُّديَّ، وعكرمةَ.

قلتُ: وهو المشهورُ عن الحسنِ.

قالَ: وقال الحسنُ وأبو مالكٍ وغيرُهما: هي في أهلِ الشركِ خاصةً، ليس هي في أهلِ الإسلامِ.

قلتُ: إنما يصحُّ هذا القولُ على أنْ يكونَ التبديلُ في الآخرةِ كما سيأتي، وأما إن قيلَ: إنه في الدنيا، فالكافرُ إذا أسلمَ والمسلمُ إذا تابَ في ذلكَ سواءٌ، بل المسلمُ إذا تابَ فهو أحسنُ حالاً من الكافر إذا أسلمَ.

قالَ: وقال آخرونَ: التبديلُ في الآخرةِ: جعلت لهم مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً منهم: عمرُو بنُ ميمون، ومكحولٌ، وابنُ المسيبِ، وعليُّ بنُ الحسينِ، قالَ: وأنكرهُ أبو العاليةَ، ومجاهدٌ، وخالدٌ سبلان، وفيه موضعُ إنكارٍ، ثم ذكرَ ما حاصلهُ: أنه يلزمُ من ذلكَ: أن يكونَ مَن كثرتْ سيئاتُهُ أحسن حالاً ممن قلَّتْ سيئاتُه، حيثُ يُعطى مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً، ثم قالَ: ولو قال قائلٌ: إنما ذكرَ اللَّهُ أن يُبدلَ السيئاتِ حسناتٍ ولم يذكرِ العددَ كيفَ تبدَّل فيجوزُ أن معنى تبدَّلُ: أن من عملَ سيئةً واحدةً وتابَ منها تبدَّلُ مائةَ ألفِ حسنةٍ، ومن عملَ ألفَ سيئة أن تبدَّل ألفَ حسنةٍ، فيكونُ حينئذٍ مَنْ قلّتْ سيئاتُهُ أحسنُ حالاً.

قلتُ: هذا القولُ ـ وهو التبديلُ في الآخرةِ ـ قد أنكرَهُ أبو العاليةَ، وتلا قولَهُ تعالَى: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً**﴾ [آل عمران:٣٠] وردّه بعضُهم بقوله تعالَى: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**﴾ [الزلزلة:٨]، وقوله تعالَى: ﴿**وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً**﴾ [الكهف:٤٩].

ولكن قد أُجيبَ عن هذا: بأنَّ التائبَ يُوقفُ على سيئاته، ثمَّ تبدَّلُ حسناتٍ، قالَ أبو عثمانَ النهديُّ: إن المؤمنَ يُؤتَى كتابهُ في سَترٍ من اللَّه عزّ وجلّ، فيقرأُ سيئاته، فإذَا قرأ تغيَّر لها لونُه حتَّى يمرَّ بحسناته، فيقرؤُها فيرجعُ إليه لونُه، ثم ينظرُ فإذا سيئاتُه قد بُدِّلتْ حسناتٍ، فعندَ ذلكَ يقولُ: ﴿**هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ**﴾ [الحاقة:١٩].

ورواهُ بعضُهم عن أبي عثمانَ عن ابنِ مسعودٍ، وقالَ بعضُهم: عن أبي عثمانَ عن سلمانَ.

وفي «صحيح مسلم»(١) من حديث أبي ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إني لأعلمُ آخرَ أهلِ الجنَّةِ دُخولاً الجنَّة، وآخرَ أهلِ النارِ خروجًا منها، رجلٌ يُؤتَى به يومَ القيامةِ فيقالُ: اعرضُوا عليه صغارَ ذنوبهِ وارفعُوا عنه كبارها، فيعرضُ اللَّهُ عليه صغارَ ذنوبه، فيقالُ له: عملتَ يومَ كذا وكذا، كذا وكذا؟ وعملتَ يومَ كذا وكذا، كذا وكذا؟ فيقولُ: نعم، لا يستطيعُ أن يُنكرَ وهو مشفقٌ من كبارِ ذنوبهِ أن تُعرضَ عليه، فيقالُ له: فإنَّ لكَ مكانَ كُلِّ سيئة حسنةً، فيقولُ: يا ربِّ قد عملتُ أشياءَ لا أراها ها هنا**». قال: فلقد رأيتُ رسولَ اللَّه ﷺ ضَحِكَ حتَّى بدتْ نواجذُه.

فإذا بُدِّلَت السيئاتُ بالحسناتِ في حقِّ من عوقِبَ على ذنوبهِ بالنارِ، ففي حقِّ من مُحِيَ سيئاتُه بالإسلامِ والتوبةِ النصوحِ أولَى، لأنَّ محوَها بذلكَ أحبُّ إلى اللَّهِ من محوِها بالعقابِ.

وخَرَّج الحاكمُ(٢) من طريقِ الفضلِ بنِ مُوسى، عن أبي العنبسِ عن أبيهِ، عن أبي هُريرةَ قالَ: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**ليتمنَّينَّ أقوامٌ أنَّهم أكثرُوا من السيِّئاتِ**»، قالوا: بِمَا يا رسولَ اللَّه؟ قال: «**الذين بدَّلَ اللَّهُ سيئاتهم حسناتٍ**».

وخرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ من طريقِ سليمانَ أبي داود الزهريِّ عن أبي العنبسِ عن أبيه عن أبي هريرةَ ـ موقوفًا، وهو أشبهُ مِن المرفوع.

ويُروى مثلُ هذا عن الحسنِ البصريِّ أيضًا، وهو يُخالف قولَه المشهور: إن التبديلَ في الدنيا.

وأما ما ذكره الحربيُّ في التبديلِ، وأنَّ من قلَّت سيئاتُهُ يُزاد في حسناته،

(١) «صحيح مسلم» (١/ ١٢١ ـ ١٢٢).
(٢) «المستدرك» (٤/ ٢٥٢).

ومن كثرتْ سيئاتُه يُقَلَّلُ من حسناتِه، فحديثُ أبي ذرٍّ صريحٌ في ردِّ هذا، وأنه يُعطى مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً.

وأما قولُه: يلزمُ من ذلكَ أن يكونَ من كثرت سيئاتُه أحسنَ حالاً ممن قلَّت سيئاتُهُ، فيقالُ: إنما التبديلُ في حقِّ مَنْ ندمَ على سيئاته، وجعلَهَا نصبَ عينيهِ، فكلَّما ذكرَه ازدادَ خوفًا ووجلاً وحياءً من اللَّه، ومسارعةً إلى الأعمالِ الصالحةِ المكفرةِ كَمَا قالَ تعالى: ﴿**إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا**﴾ [الفرقان: ٧٠]، وما ذكرناهُ كلُّه داخلٌ في العملِ الصالحِ، ومن كانتْ هذه حالُهُ، فإنَّه يتجرَّعُ من مرارةِ الندمِ والأسفِ على ذنوبِهِ أضعاف ما ذاق من حلاوتها عند فعلها، ويصير كل ذنبٍ من ذنوبه سببًا لأعمالٍ صالحةٍ ماحيةٍ له، فلا يُستنكرُ بعد هذا تبديلُ هذه الذنوبِ حسنات.

وقد وردت أحاديثُ صحيحةٌ صريحةٌ في: أن الكافرَ إذا أسلم وحَسُنَ إسلامُه تبدّلت سيئاتُه في الشِّرك حسنات، فخرَّج الطبرانيُّ[1] من حديثِ عبدِ الرحمنِ بنِ جبيرِ بنِ نفيرٍ عن أبي فروةَ شطبٍ: أنه أتى النبيَّ ﷺ فقالَ: أرأيتَ رجلاً عَمِلَ الذنوبَ كُلَّها، ولم يتركْ حاجةً ولا داجةً، فهل له مِنْ توبة؟ فقالَ: «**أسلمتَ؟**» قال: نَعم، قال: «**فافعل الخيرات، واترك السيئات، فيجعلُها اللَّهُ لك خيرات كلَّها**»، قالَ: وغَدَرَاتي وفَجَرَاتي؟ قالَ: «**نعم**»، قال: فما زال يُكبِّرُ حتَّى توارَى. وخرَّجه[2] من وجهٍ آخرَ بإسنادٍ ضعيفٍ عن سلمةَ بنِ نفيلٍ، عن النبيِّ ﷺ.

وخرَّج ابنُ أبي حاتمٍ نحوَهُ من حديثِ مكحولٍ مرسلاً، وخرجَ البزار[3]

(١) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (٧/ ٣١٤).
(٢) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (٧/ ٥٣). (٣) (٣٢٤٤ ـ كشف الأستار).

الحديثَ الأوَّل. وعندهُ: عن أبي طويلٍ شطبٍ الممدودِ: أنه أتى النبيَّ ، فذكرَهُ بمعناهُ.

وكذا خرَّجه أبو القاسمِ البغويُّ في «معجمه»، وذكرَ: أن الصوابَ عن عبدِ الرحمنِ بن جُبيرِ بنِ نفيرٍ مرسلاً أنَّ رجلاً أتى النبيَّ ﷺ، طويل شَطْب، والشطبُ في اللغةِ: الممدودُ، فصحفه بعضُ الرواةِ، وظنَّه اسمَ رجلٍ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾

قال اللَّهُ تعالىَ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].

[قال البخاريُّ][2]: ومعنى الدعاء في اللغة: الإيمانُ.

اعلم؛ أنَّ أصلَ الدعاءِ في اللغة: الطلبُ، فهو استدعاءٌ لما يطلبهُ الداعِي، ويُؤْثِرُ حصولَه.

فتارةً يكونُ الدعاءُ بالسؤالِ من اللَّهِ عز وجل والابتهالِ إليه، كقولِ الداعِي: اللهمَّ اغفرْ لي، اللهم ارحمْني.

وتارةً يكونُ بالإتيانِ بالأسبابِ التي تقتضي حصولَ المطالبِ، وهو الاشتغالُ بطاعةِ اللَّهِ وذكرِه، وما يحبُّ من عبدِه أن يفعَله، وهذا هو حقيقةُ الإيمانِ.

وفي «السنن الأربعة»[3]، عن النعمان بنِ بشيرٍ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**إنَّ الدُّعاءَ هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ**

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٢٩٤ ـ ٣٠١).

(٢) «صحيح البخاري» (٦/١).

(٣) أخرجه: أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٩/ ٣٠)، وابن ماجه (٣٨٢٨).

عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]».

فما استجلبَ العبدُ من اللَّهِ ما يحبُّ، واستدفعَ منه ما يكره، بأعظمَ من اشتغالِهِ بطاعةِ اللَّهِ وعبادتِهِ وذكرِهِ، وهو حقيقةُ الإيمانِ، فإن اللَّهَ يدفعُ عنِ الذين آمنوا.

وفي «الترمذيِّ»(١)، عن أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**يقُولُ الربُّ عزَّ وجلَّ: مَن شغلَهُ القرآنُ وذكرِي عن مسألتِي أعطيتهُ أفضلَ ما أُعطِي السائلِينَ**».

وقال بعضُ التابعينَ: لو أطعتمُ اللَّهَ ما عصاكُم.

يعني: ما منعكُم شيئًا تطلبونَهُ منه.

وكان سفيانُ يقولُ: الدعاءُ تركُ الذنوبِ.

يعني: الاشتغالَ بالطَّاعَةِ عن المعصية.

وأما قولُه تعالى: ﴿**مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ**﴾ [الفرقان: ٧٧]، فيه للمفسرينَ قولان:

أحدهما: أن المرادَ: لولا دعاؤُكم إيَّاه، فيكونُ الدعاءُ بمعنى الطاعةِ، كما ذكرنَا.

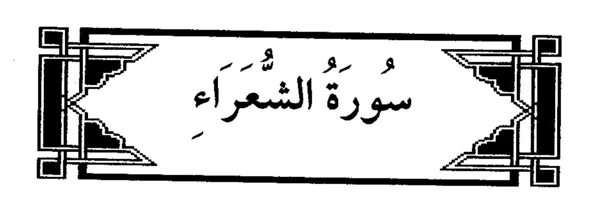
والثاني: لولا دعاؤُه إياكُم إلى طاعتِهِ، كما في قولِهِ تعالَى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي: لأدعوهُم إلى عبادَتي.

وإنما اختلف المفسرون في ذلكَ لأنَّ المصدرَ يضافُ إلى الفاعلِ تارةً، وإلى المفعولِ أُخرى(٢).

* * *

(١) «الجامع» (٢٩٢٦).

(٢) «فتح الباري» (١/١٨ - ١٩).



سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾

وقد استدلَّ إبراهيمُ الخليلُ ـ عليه السلامُ ـ بتفرُّدِ اللَّه بهذه الأمورِ على أنَّه لا إلهَ غيرُهُ، وأنَّ كُلَّ ما أشركَ معهُ باطلٌ، فقالَ لقومه: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٨٢]، فإنَّ من تفرَّد بخلقِ العبد وبهدايته وبرزقِه وإحيائه وإماتته في الدُّنيا، وبمغفرةِ ذنوبِهِ في الآخرةِ مستحقٌّ أن يتفرَّد بالإلهيةِ والعبادةِ والسؤالِ والتضرُّعِ إليه والاستكانة لهُ. قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠][1].

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٢).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

القلبُ واللسانُ هـمَا عبارةٌ عن الإنسانِ؛ كما يُقالُ: الإنسانُ بأصغريه؛ قلبِه، ولسانِه.

وخرَّجَ ابنُ سعدٍ من روايةِ عروةَ بنِ الزبيرِ مرسلاً: أَنَّ النبيَّ ﷺ لما رأى أَشجّ عبدَ القيسِ، وكانَ رجُلاً دميمًا، فقالَ للنبيِّ ﷺ: إنه لا يُستقى في مُسُوكِ الرجال، إنما يُحتاجُ من الرجلِ إلى أصغريه؛ لسانه، وقلبه. وقال المتنبي:

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ ... ولم يبقَ إلا صورةَ اللحمِ والدمِ

فمن استقامَ قلبُه ولسانُه استقامَ شأنُهُ كلُّه، فالقلبُ السليمُ هوَ الذي ليسَ فيه محبةُ شيءٍ مِمَّا يكرهُهُ اللَّهُ، فدخلَ في ذلكَ: سلامتُهُ من الشركِ الجليِّ، والخفيِّ، ومن الأهواءِ والبدعِ، ومن الفسوقِ والمعاصِي؛ كبائرِهَا وصغائرِهَا الظاهرةِ والباطنةِ: كالرياءِ والعجبِ والغلِّ والغشِّ والحقدِ والحسدِ وغيرِ ذلكَ وهذا القلبُ السليمُ هو الذي لا ينفعُ يومَ القيامةِ سواهُ؛ قالَ تعالىَ: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩]. إذا سلمَ القلبُ لم يسكنْ فيه إلا الربُّ. في بعضِ الآثارِ، يقولُ اللَّهُ: «وما وسعنِي سمائِي ولا أَرضِي، ولكن وسعنِي قلبُ عبدِي المؤمنِ»[1].

* * *

(١) «شرح حديث شداد بن أوس» (٤٨ ـ ٤٩).

وقوله ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسـد مضغـةً، إذا صلَحت، صلحَ الجسـدُ كلُّه، وإذا فسدتْ فسـدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ**»[١]، فيه إشارةٌ إلى: أنَّ صلاحَ حركاتِ العبدِ بجوارِحِه، واجتنابِه للمحرَّمـاتِ واتِّقائِه للشُّبهاتِ بحسبِ صلاحِ حركةِ قلبِه.

فإنْ كانَ قلبُه سليمًا، ليسَ فيه إلا محبـةُ اللَّهِ ومحبةُ ما يُحبُّه اللَّهِ، وخشيةُ اللَّهِ وخشيةُ الوقـوعِ فيما يكرهُهُ، صلحَتْ حركاتُ الجـوارحِ كلِّها، ونشأَ عن ذلكَ اجـتنابُ المحـرَّمـاتِ كلِّهـا، وتوقِّي الشـبهـاتِ حـذرًا مِنَ الوقـوعِ في المحرَّماتِ.

وإن كانَ القلبُ فاسِدًا، قدِ استولى عليه اتِّباعُ هواه، وطلبُ ما يحبُّه، ولو كـرِهَهُ اللَّهُ، فسـدتْ حـركاتُ الجـوارحِ كلِّهـا، وانبعـثتْ إلى كلِّ المعـاصِي والمشتبهاتِ بحسبِ اتِّباعِ هوى القلبِ.

ولهذا يقالُ: القلبُ ملكُ الأعضـاء، وبقيَّةُ الأعضاءِ جنودُه، وهم مع هذا جنودٌ طائعونَ لهُ، منبعثونَ في طاعتِـهِ، وتنفيذِ أوامرِهِ، لا يخالفونَهُ في شيءٍ من ذلكَ، فإنْ كـانَ الملكُ صالحًا كانـتْ هذه الجنودُ صالحةً، وإن كان فـاسدًا كانت جنوده بهـذه المثابةِ فـاسدةً، ولا ينفع عندَ اللَّهِ إلا القلبُ السليمُ، كـما قالَ تعالَى: ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]، وكان النبيُّ ﷺ يقولُ في دعائِه: «**أسألكَ قلبًا سليمًا**»[٢].

فـالقلبُ السليمُ: هو السـالمُ من الآفـاتِ والمكروهاتِ كلِّهـا، وهوَ القلبُ

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٢٠)، ومسلم (٥/ ٥٠) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٥)، والترمذي (٣٤٠٧)، والنسائي (٣/ ٥٤) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

الذي ليسَ فيه سوى محـبةِ اللَّهِ وما يحبُّهُ اللَّهُ وخشية اللَّهِ، وخشـية ما يُباعدُ منهُ.

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ»[1] عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتى يستقيمَ قلبُه**».

والمرادُ باستقـامةِ إيمانه: استقامـةُ أعمالِ جوارِحِه، فإنَّ أعـمالَ الجوارحِ لا تستقيمُ إلا باستقامةِ القلبِ، ومعنى اسـتقامةِ القلبِ: أن يكونَ ممتلئًا مِنْ محبَّةِ اللَّهِ، ومحبَّةِ طاعتهِ، وكراهةِ معصيتهِ.

قال الحسنُ لرجلٍ: داوِ قلبكَ؛ فإنَّ حاجةَ اللَّهِ إلى العبادِ صلاحُ قلوبِهم.

يعني: أنَّ مرادَهُ منهُم ومطـلوبَهُ صلاحُ قلوبِهِم، فلا صـلاحَ للقلوبِ حتَّى تستقـرَّ فيها معـرفةُ اللَّهِ وعظمتُه ومـحبَّتُهُ وخشـيتُهُ ومهابتُـه ورجاؤهُ والتوكلُ عليه، وتمتـلئَ مِنْ ذلك، وهذا هو حقيـقةُ التـوحيدِ، وهو مـعنى «لا إله إلا اللَّهُ»، فلا صلاحَ للقلوبِ حتَّى يكونَ إلهُها الذي تألهُـه وتعرفُه وتحبُّه وتخشاه هو اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، ولو كـانَ في السماواتِ والأرضِ إلهٌ يُؤَله سوى اللَّهِ، لفسدتْ بذلكَ السماواتُ والأرضُ، كما قالَ تعالَى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء:٢٢].

فعلم بذلكَ أنَّه لا صلاحَ للعالَمِ العُلويِّ والسُّفلـيِّ معًا حتى تكونَ حركاتُ أهلِهَا كـلُّها للَّهِ، وحركـاتُ الجسـدِ تابعةً لحـركةِ القلبِ وإرادته، فـإن كانتْ حركتُـه وإرادتُه للَّهِ وحدَه، فقـدْ صَلَحَ وصلحتْ حركاتُ الجسـدِ كلُّها، وإنْ كانتْ حركةُ القلبِ وإرادتُهُ لغـيرِ اللَّهِ تعالَى، فسدَ، وفسدتْ حـركاتُ الجسدِ

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٩٨).

بحسبِ فسادِ حركةِ القلبِ.

وروى الليثُ عن مجاهدٍ في قولهِ تعالَى: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦] قال: لا تحبُّوا غيرِي.

وفي «صحيحِ الحاكمِ»(١) عن عائشةَ رضي الله عنها عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**الشِّركُ أخفَى من دبيبِ الذرِّ على الصفا في الليلةِ الظَّلْماءِ، وأدناهُ: أن تُحبَّ على شيءٍ من الجورِ، وأن تُبغضَ على شيءٍ من العدلِ، وهل الدِّينُ إلا الحبُّ والبغضُ؟ قال اللَّهُ عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾** [آل عمران:٣١]».

فهذا يدلُّ على أنَّ محبةَ ما يكرهُهُ اللَّهُ، وبغضَ ما يُحبه اللَّهُ متابعةٌ للهوى، والموالاةُ على ذلك والمعاداةُ عليه من الشركِ الخفيِّ، ويدلُّ على ذلكَ قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، فجعلَ علامةَ الصدقِ في محبته اتباعَ رسولِهِ، فدلَّ على أن المحبةَ لا تتمُّ بدونِ الطاعةِ والموافقةِ.

قال الحسنُ: قال أصحابُ رسولِ اللَّهِ ﷺ: يا رسولَ اللَّهِ، إنَّا نُحبُّ ربنا حبًّا شديدًا. فأحبَّ اللَّهُ أن يجعل لحبِّه علمًا، فأنزلَ اللَّهُ هذه الآيةَ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]. ومن هنا قالَ الحسنُ: اعْلم أنكَ لن تُحبَّ اللَّهَ حتى تُحبَّ طاعتَه(٢).

وسُئِلَ ذو النونِ: متى أُحِبُّ ربِّي؟ قال: إذا كانَ ما يُبغضُهُ عندكَ أمرَّ من الصبرِ. وقالَ بشرُ بن السَّري: ليسَ من أعلامِ الحبِّ أن تحبَّ ما يُبغضُه

(١) «المستدرك» (٢/ ٢٩١).

(٢) راجع: «التفسير» لابن جرير الطبري (٣/ ٢٣٢).

حبيبُك. وقـال أبو يعقوبَ النهرجوريُّ: كلُّ من ادَّعى محـبةَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، ولم يُوافقِ اللَّهَ في أمرِه، فدعواهُ باطلٌ. وقـالَ رُويمٌ: المحبةُ: الموافقةُ في كلِّ الأحوالِ، وقالَ يحيى بنُ معاذ: ليسَ بصـادقٍ من ادَّعى محبةَ اللَّهِ ولم يحفظْ حدودَهُ، وعن بعضِ السلفِ قالَ: قرأتُ في بعضِ الكتبِ السالفةِ: من أحبَّ اللَّهَ لم يكنْ عندهُ شيءٌ آثرَ من مرضاتِهِ، ومن أحبَّ الدنيا لم يكنْ عندَهُ شيءٌ آثرَ من هوى نفسهِ.

وفي «السننِ»[1] عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**مَنْ أعطَى للَّهِ، ومنـعَ للَّهِ، وأحبَّ لـلَّهِ، وأبغضَ للَّهِ، فقـد استكملَ الإيمانَ**» ومعنـى هذا أن حركاتِ القـلبِ والجوارحِ إذا كانتْ كلُّها للَّـهِ فقدْ كمُلَ إيمانُ العبـدِ بذلكَ ظاهرًا وباطنًا، ويلزمُ من صلاحِ حركاتِ القلبِ صلاحُ حركاتِ الجوارحِ، فـإذا كانَ القلبُ صالحًا ليسَ فيه إلا إرادةُ اللَّهِ وإرادةُ ما يريدُه لم تنبعثِ الجوارحُ إلا فيما يُريدُه اللَّهُ، فسارعتْ إلى ما فـيه رضاهُ وكَفَّتْ عـما يكرَهُهُ، وعمَّا يُـخشى أن يكونَ مما يكرههُ وإن لم يتيقنْ ذلكَ.

قال الحسنُ: مـا نظرتُ ببصرِي، ولا نطقتُ بلسـانِي، ولا بطشتُ بيدي، ولا نهضتُ على قـدمِي؛ حتى أنظرَ على طاعةٍ أو على مـعصيةٍ؟ فـإن كانتْ طاعةٌ تقدمتُ، وإن كانتْ معصيةٌ تأخَّرتُ.

وقال محـمدُ بنُ الفضلِ البَلخيُّ: ما خطوتُ منذ أربعينَ سـنةً خطوةً لغيرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ. وقيلَ لداودَ الطائيِّ: لو تنحيتَ من الظلِّ إلى الشمسِ؟ فقالَ: هذه خُطًا لا أدرِي كيفَ تكتبُ.

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٤٠)، والترمذي (٢٥٢١) من حديث سهل بن معاذ رضي الله عنه.

فهؤلاءِ القـومُ لما صلحتْ قلوبُهم، فلم يبقَ فيها إرادةٌ لغـيرِ اللَّهِ، صلحتْ جوارحُهم، فلم تتحرَكْ إلا للَّهِ عزَّ وجلَّ، وبما فيهِ رضاهُ، واللَّهُ أعلم[١] .

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾

وقولُه: «**إني لأرى منْ خلفي كما أرى منْ بين يدي**»[٢] ، هو فضيلةٌ للنبيِّ ﷺ خصَّهُ اللَّهُ بهـا، فكانَ ينظرُ ببصيرتِهِ كمـا ينظرُ ببصرِهِ، فيرى من خلفَـه كمَا يرَى من بينَ يديهِ.

وقد فـسَّرهُ الإمامُ أحمـدُ بذلكَ في روايةِ ابنِ هانئ[٣] ، وتأولَ عليـه قولَهُ تعالَى: ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾ [الشعراء:٢١٩].

كما روى ابنُ أبي نجيحٍ، عن مجاهدٍ في قوله: ﴿**الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾ [الشعراء:٢١٨-٢١٩]، أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يرى أصحابَهُ في صلاتهِ من خلفِهِ، كما يَرى من بين يديهِ.

وتأويلُ الآيةِ على هذا القولِ: أن اللَّه تعـالى يَرَى نبيَّه ﷺ حين يقومُ إلى صلاتهِ، ويَرَى تقلبَ نظرِهِ إلى الساجدينَ معه في صلاتهِ.

وقال الأثرمُ: قلتُ لأحمـدَ: قولُ النبيِّ ﷺ: «**إني لأراكم من وراء ظهـري**»؟ قال: كانَ يرى من خلفَهُ كما يَرى من بينَ يديهِ. قلتُ: إن إنسانًا قال لي: هو

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٩٧ ـ ٢٠١).

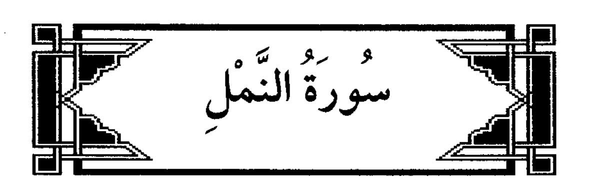
(٢) أخرجـه: البخـاري (١/ ١١٤ ـ ١٨٩)، (٨/ ٦٤)، ومسلم (٢/ ٢٧ ـ ٢٨) من حـديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) «مسائل ابن هانئ» (٢/ ١٩٣).

فِي ذلكَ مثل غيرِهِ، وإنما كانَ يراهُم كما ينظرُ الإمامُ عن يمينِهِ وشمالِهِ؟ فأنكرَ ذلكَ إنكارًا شديدًا[1] .

* * *

(١) «فتح الباري» (٢/ ٣٥٩).



سُورَةُ النَّمْلِ

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس» سمعت الوزير[1] يقول في قوله تعالى: ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩] قال: هذا من تمام برّ الوالدين. كأنَّ هَذا الوَلَدَ خَافَ أَنْ يكون وَالِدَاهُ قَصَّرا فِي شُكْرِ الرَّبِّ عز وجل، فسأل اللَّه أن يُلْهِمَهُ الشُّكْرَ على ما أنعم به عليه وعليهما؛ لِيَقُوم بما وَجَبَ عَلَيْهِما من الشُّكر إن كانا قَصَّرا[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾

وقال ابنُ عيينةَ: «لا إله إلا اللَّهُ لأهلِ الجنةِ كالماءِ الباردِ لأهلِ الدُّنيا»، وكذلكَ ترنُّمهم بالقرآنِ وسماعهُم لهُ، وأعلاه: سماعُه من اللَّهِ جلَّ جلالُه وتقدستْ أسماؤُه، فأينَ هذا من تلاوةِ أهلِ الدنيا وذكرِهم؟ وأمَّا سائرُ العباداتِ: فما كانَ منها فيه مشقةٌ على الأبدانِ فإنَّ أهلَ الجنةِ قد أُسقطَ ذلك عنْهم؛ وكذلكَ ما فيه نوعُ ذلٍّ وخضوعٍ كالسجودِ ونحوهِ.

(١) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

(٢) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٨).

وأما ما في العبادات من النعيم الحاصل بها لأهل المعرفة في الدُّنيا، فإنَّه يحصلُ في الجنةِ أضعافًا مع راحةِ البدنِ من مشقةِ التكليفِ التي في الدُّنيا فتجتمعُ لهم راحةُ القلبِ والبدنِ على أكملِ الوجوه.

وهذا مثلُ الصلاة، فإن العارفينَ في الدُّنيا إنما يتنعمونَ بما فيهَا منَ المناجاةِ وآثارِ القربِ، وما يردُ عليهم من الواردات في تلاوة الكتاب ونحو ذلكَ من نعيم القلوب، وربما يستغرقونَ به عن الشعورِ بتعبِ الأبدانِ فهذا القدرُ الذي حصلَ لهم به التنعمُ في الدنيا يتزايدُ في الجنةِ بلا ريبٍ، لاسيَّما في أوقاتِ الصلوات، فإنَّ أكملَهُم من ينظرُ إلى وجهِ اللَّهِ عز وجل كلَّ يومٍ مرتينِ، بكرةً وعشيةً، في وقتِ صلاةِ الصبحِ وصلاةِ العصرِ، لما جاءَ في حديثِ ابنِ عمرَ مرفوعا وموقوفًا[1]، وإلى ذلك أشارَ النبيُّ ﷺ بالمحافظة على هاتينِ الصلاتينِ عقيبَ ذكرِه رؤيةَ الربِّ سبحانَهُ في حديثِ جريرٍ البجلي[2].

فالنعيمُ الحاصلُ لأهلِ الجنَّة بالرؤيةِ والمخاطبةِ في هذينِ الوقتينِ أكملُ مما كانَ حاصلاً في الدنيا، وكذلكَ صلاةُ الجمعةِ: فإنهم يجتمعونَ في وقتِها في يومِ المزيدِ ويتجلَّى لهم سبحانَهُ ويحاضرُهم محاضرةً، وكذلكَ في العيدينِ.

فهذا؛ أكملُ مما كانَ يحصلُ لهم في الدنيا في صلاتِهم من آثارِ القربِ وحلاوةِ مع راحةِ البدنِ ونعيمهِ أيضًا. فتبينَ بهذا أن نعيمَ الجنةِ أكملُ من نعيمِ

---

(١) الحديث روي مرفوعًا وموقوفًا.

أما الرواية المرفوعة، أخرجها: أحمد (٢/ ١٣ ـ ٦٤)، والترمذي (٢٥٥٣) بلفظ: «**إن أدنى أهل الجنة منزلاً من ينظر إلى جناحه وأزواجه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على اللَّه: من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية..**» الحديث.

أما روايته موقوفًا، فقد أخرجها: الطبري في «تفسيره» (٢٩/ ١٢٠).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٤٥ ـ ١٥٠)، (٦/ ١٧٣)، (٩/ ١٥٦)، ومسلم (٢/ ١١٣).

الدنيا مطلقًا، وسواءٌ في ذلكَ نعيمُ الأبدانِ بالأكلِ والشربِ والجماعِ، ونعيمُ القلوبِ والأرواحِ بالمعارفِ والعلومِ والقربِ والاتصالِ والأنسِ والمشاهدةِ، فظهرَ بهذا أن قولَهُ تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٥] هو على ظاهرِهِ من غيرِ حاجةٍ إلى تأويلٍ ولا تكلُّفٍ فإنَّ كثيرًا من المفسرينَ فسروا الحسنةَ بكلمةِ التوحيدِ والجزاءَ عليهم بالجنةِ، ثم استشكلُوا تفضيلَ الجنَّةِ على التوحيدِ، وبما ذكرناه يزولُ الإشكالُ.

ويتبين؛ أن التوحيدَ الذي في الجنةِ أكملُ من التوحيدِ الذي في الدنيا وهو جزاءٌ له، وكذلكَ المعرفةُ والمحبةُ والشوقُ أيضًا، فقد جاءَ في بعضِ أحاديثِ يومِ المزيدِ: أنَّهم ليسُوا إلى شيءٍ أشوقَ منهم إلى يومِ الجمعةِ، وسبب بهذا الغلطِ الذي أشرنَا إليه من قولِ من قالَ: إنَّ العارفينَ لا يشتاقونَ إلى اللَّه عز وجل في الدُّنيا لأنَّهم يشهدونهُ بقلوبِهِم حاضرًا، وتباشرُ قلوبَهُم أنوارُه ويتجلَّى لها فيستأنسونَ بِهِ ويطمئنونَ إليه. وهذا؛ وإنْ كانَ نُقِلَ عن بعضِ السلفِ المتقدمينَ فهو أيضًا غلطٌ، ولعلَهُ صدرَ من قائلِهِ في حالِ استغراقه في مشاهدة ما شاهدَهُ فظنَّ أنه ليسَ وراءَ ذلك مطلبٌ، وهذا كما قالَ بعضُهم: «إنه تمرُّ بي أوقاتٌ أقولُ: إنْ كانَ أهلُ الجنةِ في مثلِ ما أنا فيه، إنَّهم لِفي عيشٍ طيبٍ».

ومعلومٌ أنَّ أهلَ الجنةِ في أضعافِ أضعافِ ما هو فيه من النعيمِ واللذةِ، ولكنَّه لما استعظمَ ما حصلَ له من النعيمِ ظنَّ أنه ليسَ وراءَهُ شيءٌ، وعند التحقيقِ يتبينُ أنَّ ما حصلَ في الدنيا للقلوبِ من تجلِّي أنوارِ الإيمانِ يدلُّ على عظمةِ ما يحصلُ في الجنةِ، وليسَ بينهما نسبةٌ فيتزايدُ بذلكَ الشوقُ إلى ما وراءَه، ولهذا كان النبيُّ ﷺ يسألُ ربه الشوقَ إلى لقائِهِ، مع أنَّه أكملُ الخلقِ مشاهدةً ومعرفةً، وكانَ يقولُ في الوصالِ: «**إني لستُ كهيئتكُمْ، إنِّي أظَلُّ عندَ ربِّي**

يُطعمُني ويسقِيني»(١). ويشيرُ إلى ما تجلَّى لقلْبِهِ من آثارِ القربِ والأنسِ بما يقوِّيهِ ويغذِّيهِ ويُغْنِيهِ عنِ الطعامِ والشرابِ(٢).

* * *

وإنَّما شرعَ اللَّهُ إقامَ الصَّلاةِ لذكرِه، وكذلكَ الحجَّ والطَّوافَ. وأفضلُ أهلِ العباداتِ: أكثرهم للَّهِ ذكراً فِيها، فهذا كلُّه ليسَ من الدنيا المذمومة، وهو المقصودُ من إيجادِ الدُّنيا، وأهلِها، كمَا قالَ تعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وقد ظنَّ طوائفُ منَ الفقهاءِ والصُّوفيَّةِ أنَّ ما يُوجدُ في الدُّنيا من هذه العباداتِ أفضلُ ممَّا يُوجدُ في الجنَّة مِنَ النَّعيمِ، قالُوا: لأنَّ نعيمَ الجنَّة حظُّ العبدِ، والعباداتُ في الدُّنيا حقُّ الربِّ، وحقُّ الربِّ أفضلُ من حظِّ العبد.

وهذا غلطٌ، ويقوِّي غلطهم قولُ كثيرٍ منَ المفسِّرين في قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل:٨٩] قالُوا: الحسنةُ: لا إله إلا اللَّه، وليس شيء خيرًا منها. ولكن الكلام على التَّقديم والتَّأخير، والمراد: فله منها خيرٌ، أي: له خيرٌ بسببها ولأجلها.

والصَّوابُ: إطلاقُ ما جاءت به نصوصُ الكتابِ والسنةِ، أنَّ الآخرةَ خيرٌ منَ الأُولى مطلقًا.

وفي «صحيحِ الحاكمِ»(٣) عن المُستوردِ بن شدَّادٍ، قالَ: كنَّا عندَ النبي ﷺ، فتذاكرُوا الدُّنيا والآخرةَ، فقالَ بعضُهم: إنَّما الدنيا بلاغٌ للآخرةِ، وفيها

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ٤٨)، (٨/ ٢١٦)، (٩/ ١١٩)، ومسلم (٣/ ١٣٣ ـ ١٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس» (١٣٧ ـ ١٤٠).
(٣) «المستدرك» (٤/ ٣١٩).

العملُ، وفيها الصَّلاةُ، وفيها الزَّكاةُ. وقالتْ طائفةٌ منهم: الآخرةُ فيها الجنَّةُ، وقالوا ما شاءَ اللَّـهُ، فقالَ رسولُ اللَّه، ﷺ: «**ما الدُّنيا في الآخـرةِ إلا كما يمشي أحدُكم إلى اليمِّ، فـأدخلَ أصبعَهُ فيـه، فما خرجَ منه فـهو الدُّنيا**»، فهذا نصٌّ بتفضيلِ الآخرةِ على الدنيا، وما فيها من الأعمالِ.

ووجه ذلك: أنَّ كـمالَ الدُّنيا إنما هو في العـلمِ والعملِ، والعلمُ مقـصودُ الأعمالِ، يتضاعفُ في الآخرةِ بما لا نسـبةَ لما في الدُّنيا إليه، فإنَّ العلمَ أصلُه العلمُ باللَّهِ وأسـمائهِ وصفـاتهِ، وفي الآخرةِ ينكشفُ الغطاءُ، ويـصيرُ الخـبرُ عيانًا، ويصيرُ علمُ اليقينِ عينَ اليقينِ، وتصيرُ المعرفةُ باللَّهِ رؤيةً له ومشاهدةً، فأينَ هذا مما في الدنيا؟

وأما الأعمالُ البدنيةِ، فإنَّ لها في الدُّنيا مقصدينِ:

أحدهما: اشتغالُ الجوارحِ بالطَّاعةِ، وكدُّها بالعبادةِ.

والثاني: اتِّصالُ القلوبِ باللَّهِ وتنويرُها بذكرِه.

فالأولُ؛ قـد رُفعَ عن أهلِ الجنَّة، ولهذا رُوي أنَّهم إذا همُّوا بالسُّـجودِ للَّه عند تجلِّيه لهُم يقالُ لهم: ارفعوا رؤوسكُم فإنَّكم لسْتُم في دارِ مجاهدةٍ.

وأما المقصـودُ الثاني؛ فحاصلٌ لأهلِ الجنَّة على أكـملِ الوُجُوه وأتمِّها، ولا نسبةَ لما حصلَ لقلوبِهم في الدُّنيا من لطائفِ القُرْبِ والأُنسِ والاتِّصالِ إلى ما يُشاهدونه في الآخرةِ عيانًا، فتتنعَّمُ قلوبُهم وأبصارُهم وأسماعُهم بقرْبِ اللَّهِ، ورؤيته، وسـماعِ كلامـهِ، لا سيَّمـا في أوقاتِ الصلواتِ في الدُّنيا، كـالجُمع والأعيـادِ، والمقرَّبون منهم يحصُلُ ذلك لـهم كلَّ يومٍ مرَّتينِ بكرةً وعشـيًا في وقتِ صلاةِ الصُّبحِ وصلاةِ العصرِ.

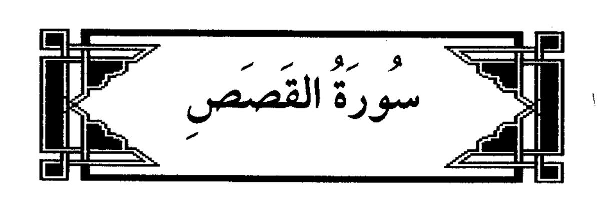
ولهذا، لَمَّا ذكَر النَّبيُّ ﷺ أنَّ أهلَ الجنةِ يرونَ ربَّهم، حضَّ عقيبَ ذلكَ على المحافظةِ على صلاةِ العصرِ وصلاة الفجرِ؛ لأنَّ وقتَ هاتينِ الصَّلاتينِ وقتٌ لرؤيةِ خواصِّ أهلِ الجنةَ ربَّهم وزيارتهم لهُ، وكذلكَ نعيمُ الذِّكرِ وتلاوةُ القرآنِ لا ينقطعُ عنهُم أبدًا، فيُلهمونَ التَّسبيحَ كَما يُلهمونَ النَّفسَ. قال ابنُ عيينة: لا إله إلا اللَّه لأهلِ الجنَّةِ كالماءِ البارِدِ لأهلِ الدُّنيا، فأينَ لذَّةُ الذِّكرِ للعارفينَ في الدُّنيا مِنْ لذَّتهم بهِ في الجنَّةِ؟!.

فتبيَّن بهذا أن قولَهُ تعالَى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل:٨٩]، على ظاهرِه، فإنَّ ثوابَ كلمةِ التَّوحيدِ في الدُّنيا أن يصِلَ صاحبُها إلى قولها في الجنَّةِ على الوجهِ الذي يختصُّ به أهلُ الجنَّةِ.

وبكلِّ حالٍ، فالذي يحصُلُ لأهلِ الجنةِ مِن تفاصيلِ العلمِ باللَّه وأسمائه وصفاتهِ وأفعالهِ، ومن قُربهِ ومشاهدتهِ ولذَّة ذكرِه هو أمرٌ لا يمكنُ التَّعبيرُ عن كُنْهِهِ في الدُّنيا، لأنَّ أهلَها لم يُدركوه على وجهِه، بل هو ممَّا لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ، واللَّهُ تعالى المسئولُ أن لا يحرمنا خير ما عنده بشرِّ ما عندنا، بمنِّه وكرمِه ورحمته، آمين.

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٠٤ ـ ٢٠٧).



سُورَةُ القَصَصِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعت الوزير[1] يقول في قوله تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:٧١] وفي الآية التي تليها ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧٢] قال: إنما ذكر السماع عند ذكر الليل والإبصار عند ذكر النهار؛ لأن الإنسان يدرك سمعه في الليل أكثر من إدراكه بالنهار، ويرى بالنهار أكثر مما يرى بالليل.

قال المبرد: سلطان السمع في الليل، وسلطان البصر في النهار[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعت الوزير[1] يقول في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ﴾ [القصص:٨٠]: قال: إيثار

---

(١) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

(٢) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٧٠).

ثواب الآجل على العاجل حالة العلماء، فمن كان هكذا فهو عالم. ومن آثر العاجل على الآجل فليس بعالم[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

مدحَ اللَّهُ تعالَى في كتابِه منْ لا يُريدُ العلوَّ في الأرضِ ولا الفسادَ، فقالَ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]. وروى ابنُ جريرٍ[2] بإسنادٍ فيه نظرٌ عن عليٍّ رضي الله عنه، قالَ: إنَّ الرجلَ ليعجبُه من شراكِ نعلِه أن يكونَ أجودَ من شراكِ صاحبِه، فيدخلُ في قولِه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] وكذا رُويَ عن الفضيلِ بنِ عياضٍ في هذه الآيةِ.

قالَ: لا يُحِبُّ أن يكونَ نعلُه أجودَ من نعلِ غيرِه، ولا شراكُه أجودَ مِنْ شراكِ غيره.

وقد قيل: إن هذا محمولٌ على أنه أرادَ الفخرَ على غيرِه لا مجرَّدَ التجملِ، قال عكرمةُ وغيرُه من المفسرينَ في هذه الآيةِ: العلوُّ في الأرضِ: التكبُّر، وطلبُ الشرفِ والمنزلةِ عندَ ذي سلطانِها، والفسادُ: العملُ بالمعاصِي.

وقد وردَ ما يَدُلُّ على أنه لا يأثمُ مَنْ كره أن يفوقَه أحدٌ من الناس في الجمالِ، فخرَّج الإمامُ أحمدُ ـ رحمه اللَّه ـ والحاكم في «صحيحِه»[3] من

---

(١) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٨). (٢) «التفسير» (٢٠/ ٧٩).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٥)، والحاكم (٤/ ١٨٢).

حـديثِ ابنِ مسـعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قـالَ: أتيتُ النبيَّ ﷺ وعندَه مالـكُ بنُ مرارةَ الرَّهاويُّ، فأدركـتُه وهو يقـولُ: يا رسول اللَّه، قد قُـسمَ لي من الجمـالِ ما ترى، فما أحبُّ أحدًا من النَّاسِ فضلني بشِراكين فما فوقَهُما، أليسَ ذلكَ هو من البغيِ؟ فقالَ: «**لا، ليسَ ذلك بالبغْيِ، ولكنَّ البغيَ مَنْ بطرَ** ـ أو قال: سفه ـ **الحقَّ وغمط الناسَ**».

وخرَّج أبو داود[1] من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ معناه، وفي حديثه: «**الكبرُ**» بدل «**البغيِ**».

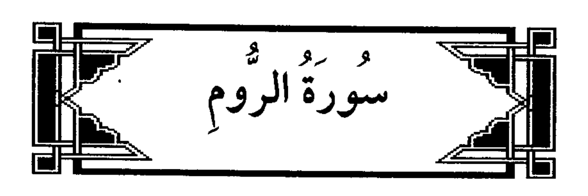
فنفى أن تكونَ كراهتُـه لأن يفوقَهُ في الجـمالِ بغيًـا أو كبرًا، وفسَّـر الكبرَ والبغيَ ببـطرِ الحقِّ، وهو التكبُّر عليـه، والامتناعُ من قبـوله كبـرًا إذا خالفَ هواهُ.

ومن هنا قالَ بعضُ السلفِ: التَّواضعُ: أن تقبلَ الحقَّ من كلِّ من جاءَ به، وإن كانَ صـغيرًا، فـمن قبلَ الحقَّ ممَّن جاءَ به، سـواءٌ كانَ صغـيرًا أو كبـيرًا وسواءٌ كـان يحبُّه أو لا يحبُّـه، فهو متـواضعٌ، ومن أبى قبُولَ الحقِّ تعـاظُمًا عليه، فهو متكبِّرٌ. وغـمصُ الناسِ: هو احتقارُهم وازدراؤُهم، وذلك يحصُلُ مِنَ النَّظرِ إلى النَّفسِ بعينِ الكمالِ، وإلى غيرِه بعينِ النَّقصِ[2].

* * *

(١) «السنن» (٤٠٩٢).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/٣٠٧ ـ ٣٠٩).



سُورَةُ الرُّومِ

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾

قالت بعضُ العارفاتِ من السلفِ: مَنْ عملَ للَّه على المُشاهدةِ، فهو عارفٌ، ومن عملَ على مشاهدةِ اللَّه إيَّاه فهو مخلصٌ. فأشارتْ إلى المقامينَ اللذين تقدَّم ذكرهُما:

أحدَهما: مقامُ الإخلاصِ، وهو: أن يعملَ العبدُ على استحضارِ مُشاهدةِ اللَّه إياهُ، واطّلاعهِ عليه، وقربِهِ منهُ، فإذا استحضرَ العبدُ هذا في عملِه، وعَملَ عليه، فهو مخلص للَّه، لأنَّ استحضارَهُ ذلكَ في عملِه يمنعُهُ من الالتفاتِ إلى غيرِ اللَّه وإرادتِهِ بالعملِ.

والثاني: مقامُ المشاهدةِ، وهو: أن يعملَ العبدُ على مقتضى مشاهدتِهِ للَّه تعالى بقلبِهِ، وهو أن يتنوَّرَ القلبُ بالإيمانِ، وتَنْفُذُ البصيرةُ في العرفان، حتَّى يصيرَ الغيبُ كالعيانِ.

وهذا هو حقيقةُ مقامِ الإحسانِ المشارِ إليه في حديثِ جبريلَ عليه السلامُ، ويتفاوت أهلُ هذا المقامِ فيه بحسبِ قوةِ نفوذِ البصائرِ.

وقد فسَّر طائفةٌ منَ العُلماءِ المثلَ الأعلى المذكورَ في قولِهِ عزَّ وجل: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧] بهذا المعنى، ومثلُه: قولُه تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥]، والمرادُ:

مثلُ نورِه في قلبِ المؤمنِ، كذا قاله أُبيُّ بنُ كعبٍ وغيرُه منَ السَّلف.

وقد سبقَ حديثُ: «أفضلُ الإيمانِ أن تعلمَ أنَّ اللَّه معكَ حيثُ كنت»[(١)]، وحديثُ ما تزكيةُ المرءِ نفسه؟، قال: «أن يعلمَ أنَّ اللَّهَ معه حيثُ كانَ»[(٢)].

وخرَّج الطبرانيُّ[(٣)] من حديثِ أبي أُمامةَ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ثلاثةٌ في ظلِّ اللَّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه: رجلٌ حيثُ توجَّه عَلِمَ أنَّ اللَّه معه»، وذكر الحديث.

وقد دلَّ القرآنُ على هذا المعنى في مواضعَ متعدِّدةٍ، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:٦١]، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء:١٠٨][(٤)].

* * *

وبهذا[(٥)] فُسِّر المثلُ الأعلَى المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧].

ومثلُه: قولُه تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ

---

(١) أخرجه: الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٧٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٢٤) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: البيهقي (٤/ ٩٥، ٩٦).

(٣) «المعجم الكبير» (٨/ ٢٤٠).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٠٨ - ١٠٩).

(٥) يعني: الإحسان.

الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥].

قال أبيُّ بنُ كعبٍ وغيرُه من السلفِ: مَثَلُ نوره في قلبِ المؤمنِ.

فمن وصلَ إلى هذا المقامِ فقد وصلَ إلى نهايةِ الإحسانِ، وصارَ الإيمانُ لقلبهِ بمنزلةِ العيانِ، فعرفَ ربَّه، وأنسَ به في خلوتهِ، وتنعَّمَ بذكره ومناجاتهِ ودعائه، حتَّى ربَّما استوحشَ من خلقهِ.

كما قالَ بعضُهم: عجبتُ للخليقة، كيفَ أنستْ بسواكَ؟! بل عجبتُ للخليقةِ كيف استنارت قلوبُها بذكرِ سواك[1]؟!.

وقيلَ لآخرَ: أما تستوحشُ؟ قال: كيفَ أستوحشُ، وهو يقولُ: أنا جليسُ من ذكرني؟![2].

وقيل لآخرَ: أما تستوحشُ وحدَك؟ قالَ: ويستوحشُ مع اللَّهِ أحدٌ؟!

وكان حبيب أبو محمدٍ يخلُو في بيتِهِ، ويقولُ: من لم تقرَّ عينُه بكَ فلا قرَّت عينُه، ومن لمْ يأنسْ بكَ فلا أنسَ.

وقال الفضيلُ: طوبَى لمن استوحشَ من الناسِ وكان اللَّه جليسَه.

وقال معروفٌ لرجلٍ: توكلْ على اللَّهِ، حتَّى يكونَ جليسَك وأنيسَك وموضعَ شكواكَ.

---

(١) «الحلية» لأبي نعيم (٦/ ١٩٥).

(٢) أخرجه: البيهقي في «الشعب» (٧٠٩)، والذهبي في «السير» (٨/ ١٧٥) من قول محمد بن النضر.

وقال ذو النونِ: علامـةُ المحبينَ للَّه: أن لا يأنسُوا بسواهُ، ولا يستـوحشُوا مـعـهُ، ثم قـالَ: إذا سكـنَ القلبَ حبُّ اللَّهِ أنسَ باللَّـهِ؛ لأن اللَّهَ أجلُّ في صدورِ العارفينَ أن يحبُّوا غيرَه[١] .

* * *

ثبتَ في «الصحيحين»[٢] و«السننِ» و«المسانيـدِ» من غيرِ وجهٍ أن جـبريلَ ـ عليه السلامُ ـ سـألَ النبيَّ ﷺ عن الإحسانِ، فـقالَ النبيُّ ﷺ: «**الإحسانُ: أنْ تعبدَ اللَّهَ كأنكَ تراهُ، فإن لم تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ**».

وقال بعضُ العارفينَ من السلفِ: «منْ عملَ للَّهِ على المشاهدةِ فهو عارفٌ، ومنْ عملَ على مشاهدةِ اللَّهِ إياه فهو مخلِصٌ».

فهذان مقامان: **أحدهما**: الإخلاصُ، وهو أن يعملَ العبـدُ على استحضارِ مشـاهدةِ اللَّهِ إياه، واطلاعِهِ عليه وقـربِهِ منه، فإذا استـحضَرَ العـبدُ ذلكَ في عملِه، وعملَ على هذا المقامِ فهو مخلصٌ للَّه، لأنَّ استحضارَهُ ذلكَ يمنعُهُ من الالتفاتِ إلى غيرِ اللَّهِ وإرادتِه بالعملِ.

والثاني: المعرفـةُ التي تستلزمُ المحبةَ الخـاصةَ، وهو: أن يعملَ العـبدُ على مشاهدةِ اللَّهِ بقلبِه، وهو أنْ يتنورَ قلبُه بنورِ الإيمانِ وتنفذَ بصيرتُه في العرفانِ، حتَّى يصـيرَ الغـيبُ عنده كالعيـانِ، وهذا هو مقامُ الإحـسانِ المشـارُ إليه في حديثِ جبريلَ ـ عليه السلامُ ـ، ويتفاوتُ أهلُ هذا المقامِ فيه بحسبِ قوةِ نفوذِ البصائرِ.

وقد فـسَّرَ طائفةٌ من العلمـاءِ المثلَ الأعلى المذكورَ في قـولِه تعالى: ﴿وَلَهُ

(١) «فتح الباري» (١/ ١٩٤ ـ ١٩٥).

(٢) البخاري (١/ ١٩ ـ ٢٠)، ومسلم (١/ ٢٨ ـ ٢٩).

الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧] بهذا ومثلُه قولُه تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥] الآية، وقد فسَّرها أبيُّ ابنُ كعبٍ وغيرُه من السلفِ بأنَّ المرادَ: مثلُ نورِ اللَّهِ في قلبِ المؤمنِ.

ومِن هذا حديثُ حارثةَ المشهورُ لما قالَ للنبيِّ ﷺ: «وكأنِّي أنظرُ إلى عرشِ ربِّي بارزًا؛ وكأنِّي أنظرُ إلى أهلِ الجنةِ يتزاورونَ فيها، وإلى أهلِ النارِ يتعاوونَ فيها» فقال النبيُّ ﷺ: «عرفتَ فالزمْ، عبدٌ نوَّرَ اللَّهُ الإيمانَ في قلبه»[(١)]، وهذا الحديثُ مروي مرسلاً، ورُويَ مسندًا متَّصلاً لكن من وجوهٍ ضعيفةٍ.

وخطبَ عروةُ إلى ابنِ عمرَ ابنتَهُ وهما في الطوافِ فلم يجبْهُ بشيءٍ، ثم رآهُ بعدَ ذلك فاعتذرَ إليه وقال: «كنَّا في الطوافِ نتخايلُ اللَّه بين أعيننا». خرجَّهُ أبو نعيمٍ وغيرُه.

ويتولَّدَ من هذينِ المقامينِ للعارفينَ مقامُ الحياءِ من اللَّهِ ـ عز وجل ـ، وقد أشارَ النبيُّ ﷺ إلى ذلكَ في حديث بهزِ بنِ حكيمٍ عن أبيه عن جدِّه أنه سئلُ عن كشفِ العورةِ خاليًا؟ فقال: «اللَّهُ أحقُّ أنْ يُستحيَا منه»[(٢)] وقد ندبَ النبيُّ ﷺ إلى دوامِ استحضارِ معيةِ اللَّهِ وقربِهِ وإلى الحياء منه بذلكَ في غيرِ حديثٍ، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية [يونس:٦١]. وخرج البزار[(٣)] من حديثِ عبدِ اللَّهِ

(١) رواه البزار «كشف الأستار» (٣٢)، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٥٩٠، ١٠٥٩١).

(٢) رواه البخاري معلقًا (١/ ٧٨)، والترمذي (٢٧٦٩)، وأبو داود (٤٠١٧)، وابن ماجه (١٩٢٠)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٣، ٤).

(٣) أخرجه: البيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٩٦، ١٠٩) والحديث أوله عند أبي داود (١٥٨٢) دون الشاهد المذكور ولم نجده في «مسند البزار».

بن معاويةَ الغاضريِّ أنَّ رجلاً قالَ: يارسـولَ اللَّهِ، ما تزكيةُ المرءِ نفسَهُ؟ قالَ: «**أن يعلمَ أنَّ اللَّه حيثُ كانَ معهُ**».

وخرجَ الطبرانيُّ[(١)] من حديثِ عبادةَ بنِ الصامتِ رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قالَ: «**أفضلُ الإيمانِ: أنْ تعلمَ أنَّ اللَّه معكَ حيثُ كُنتَ**»، وبإسنادٍ فيه نظرٌ من حديثِ أبي أمامةَ رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «**ثلاثةٌ في ظلِّ اللَّه تعالى يومْ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ: رجُلٌ حيثُ توجَّهَ علمَ أنَّ اللَّه معهُ**» إلخ[(٢)].

ومن حـديثِ سعـيدِ بنِ يزيدَ الأزديِّ أنه قـال للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال: «**أُوصيكَ أنْ تستَحي منَ اللَّه كمَا تستَحي رَجُلاً صالحًا منْ صالحِي قومِكَ**»[(٣)]، ورويناه بإسنادٍ فـيه ضعفٌ من حـديثِ أبي أمامـةَ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**استَحِ منْ اللَّه استحياؤُكَ منْ رجُلينِ منْ صالحِي عشيرتكَ هُما معكَ لا يُفارقانكَ**»[(٤)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[قال البخاري]: بـاب: ﴿**مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [الروم: ٣١].

قال تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ**

(١) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٨٧٩٦).
(٢) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٨٦ ح ٧٩٣٥).
(٣) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (٦/ ٦٩ ـ ٧٠ ح ٥٥٣٩).
(٤) «استنشاق نسيم الأنس» (٩٥ ـ ١٠٣).

لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣٠].

فأمره بإقامة وجهِهِ، وهو إخلاصُ قصدِه وعزمِه وهمِّه للدينِ الحنيفِ، وهوَ الدينُ القيِّم، وهو فطرةُ اللَّهِ التي فطرَ العبادَ عليها، فإنَّ اللَّهَ ركَّب في قلوبِ عبادِه كلِّهم قبولَ توحيدِه والإخلاصِ لَه، وإنَّما يغيرهم عن ذلك تعليمُ منْ علمهم الخروج عنه.

ولَمَّا كان الخطابُ له ﷺ لم تدخل فيه أمتُهُ معه قالَ بعدَ ذلكَ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣١]، فجعلَ ذلكَ حالاً له ولأمتِهِ، وهو إنابتُهُم إليه، ويعني به: رجوعَهم إليهِ، وأمرهم بتقواه، والتقوى تتضمنُ فعلَ جميعِ الطاعاتِ وتركَ المعاصِي والمخالفاتِ.

وخصَّ من ذلكَ إقامَ الصلاةِ، فلم يذكرْ من أعمالِ الجوارحِ باسمِهِ الخاصِ سواها، والمرادُ بإقامتها: الإتيانُ بها قائمةً على وجهِها التامِّ، وفي ذلكَ دليلٌ على شرَفِ الصلاةِ وفضلها، وأنها أهمُّ أعمالِ الجوارحِ.

ومن جملة إقامتِهَا المأمورِ به: المحافظةُ على مواقيتِهَا، فمن صَلَّى الصلاةَ لغير مواقيتِهَا التي وَقَّتها اللَّهُ فلم يُقم الصلاةَ، بل ضيَّعها وفرَّط فيها وسَها عنها.

قال ابنُ عبَّاسٍ في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ [المائدة: ٥٥]، قال: يقيمون الصلاةَ بفرضِهَا[1].

وقال قتادة: إقامةُ الصلاةِ: المحافظةُ على مواقيتها ووضوئِها،

---

(١) الطبري في «التفسير» (١/ ١٠٤).

ورُكُوعِها وسجُودِها.

وقال مُقاتل بنُ حيَّان: إقامتُها: المحافظةُ على مواقيتِهَا، وإسباغُ الطهورِ فيها، وتمامُ ركوعِها وسجودِها، وتلاوةُ القرآنِ فيها، والتشهدُ، والصلاةُ على النبيِّ ﷺ، فهذا إقامتُها.

خرَّجه كلَّه ابنُ أبي حاتم.

ولهذا مدَحَ سبحانهُ الذين هُم على صلاتِهم يحافظونَ والذينَ هم على صلاتِهم دائمونَ، وقد فسَّره ابنُ مسعودٍ وغيرُه بالمحافظةِ على مواقيتِهَا، وفسَّره بذلك مسروقٌ والنخعيُّ وغيرُهما.

وقيل لابنِ مسعودٍ: إن اللَّهَ يكثر ذكرَ الصلاةِ في القرآن: ﴿**الَّذينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ**﴾ [المعارج:٢٣]، و﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**﴾ [المعارج:٣٤]؟ قال: ذاكَ على مواقيتِها. قيل لهُ: ما كنَّا نرَى ذلكَ إلا على تركِها؟ قال: تركُها الكفرُ.

خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ ومحمدُ بنُ نصرٍ المروزي وغيرُهما[١].

وكذلك فسَّرَ سعدُ بنُ أبي وقاص ومسروقٌ وغيرُهما السَّهوَ عن الصلاةِ بالسهوِ عن مواقيتها.

ورُويَ عن سعدٍ مرفوعًا، والموقوفُ أصحُّ[٢] .[٣]

---

(١) في «تعظيم قدر الصلاة» (٦٢)، (٩٣٨).

(٢) وكذا رجح الوقف فيه البزار والبيهقي والحاكم.

انظر: تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (٤٢)، (٤٣)، و«السنن الكبرى» (٢/ ٢١٤ - ٢١٥)، و«كشف الأستار» (٣٩٢).

(٣) «فتح الباري» (٣/ ٢٧ - ٢٨).

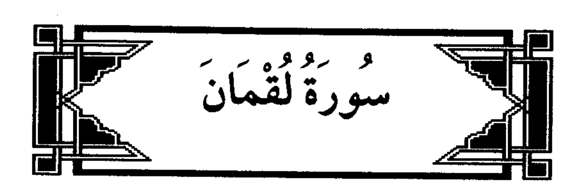
قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾

قال اللَّهُ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦]، وقالَ تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

قال بعضُ السلفِ: في القبرِ، يعني: أن العملَ الصالحَ يكونُ مِهادًا لصحابِه في القبرِ، حيث لا يكونُ للعبدِ من متاعِ الدنيا فراشٌ ولا وسادٌ ولا مهادٌ، بل كلُّ عاملٍ يفترشُ عملَهَ ويتوسَّده من خيرٍ أو شرٍّ[1].

* * *

(١) رسالة «يتبع الميت ثلاث» (ص ٤٠).



سورة لقمان

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾

فأمّا تحريمُ الغناءِ: فقد استُنبطَ من القرآنِ من آياتٍ متعدّدةٍ. فمن ذلكَ: قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ**﴾ [لقمان:٦] الآية.

قالَ ابن مسعود رضي الله عنه: هوَ ـ واللَّه ـ الغناءُ[١]. وقال ابنُ عباسٍ: هو الغناءُ وأشباهُهُ[٢]، وفسّره أيضًا بالغناء خَلْقٌ من التابعينَ منهُم: مجاهدٌ وعكرمةُ والحسنُ وسعيدُ بنُ جبيرٍ وقتادةُ والنَّخعيُّ وغيرُهم[٣]، وقال مجاهدٌ في قولِهِ تعالى: ﴿**وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ**﴾ [الإسراء:٦٤]: قالَ: الغناءُ والمزاميرُ. وقالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما في قولِهِ تعالى: ﴿**وَأَنتُمْ سَامِدُونَ**﴾ [النجم:٦١] قال: هو الغناءُ ـ بالحِمْيَرِيةِ[٤].

وقال بعضُ التابعينَ في قولِهِ تعالى: ﴿**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا**﴾ [الفرقان:٧٢] قالَ: إنَّ اللغوَ هنا: الغناءُ. وعن أبي أمامةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**لا تبيعُوا القَيْنات، ولا تشتروهُنَّ، ولا تُعلِّموهُنَّ، ولا خير في تجارة فيهنَّ، وثمنهُنَّ حَرامٌ، في مثلِ هذا أُنزلتْ هذه الآيةُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان:٦] الآية**».

---

(١) أخرجه: الطبري في «التفسير» (٢١/ ٦١).

(٢) أخرجه: البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٢٣).

(٣) راجع: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٢)، والبيقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٢٣).

(٤) أخرجه: البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٢٣).

خرّجه الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ[1] من روايةِ عبيْدِ اللَّهِ بن زحرٍ عن عليٍّ بن يزيد عن القاسمِ عن أبي أمامةَ، وقال: قد تكلمَ بعضُ أهلِ العلمِ في عليٍّ بنِ يزيدَ وضعَّفهُ، وهوَ شاميّ. وذكرَ في كتابِ «العللِ» أنه سأل البخاريَّ عن هذا الحديثِ فقالَ: عليُّ بنُ يزيدَ ذاهبُ الحديثِ، ووثّقَ عبيدَ اللَّهِ بنَ زحرٍ والقاسمَ ابنَ عبدِ الرحمنِ، وخرّجه محمدُ بنُ يحيى الهمذانيُّ الحافظُ الفقيهُ الشافعيُّ في «صحيحِهِ»، وقالَ: عبيدُ اللَّهِ بن زحر: قال أبو زرعةَ: لا بأسَ به صَدوقٌ.

قلتُ: عليُّ بنُ يزيدَ لم يتفقوا علي ضَعْفِهِ. بل قالَ فيه أبو مُسْهِرٍ - وهوَ من بلدِهِ وهو أعلمُ بأهلِ بلدِهِ من غيرِهِم - قالَ فيه: ما أعلمُ فيه إلا خيراً. وقال ابنُ عديٍّ: هو في نفسه صالحٌ، إلا أنْ يروي عنه ضعيفٌ فيُؤتَى من قبلِ ذلكَ الضعيفِ. وهذا الحديثُ قد رواه عنه غيرُ واحدٍ من الثقاتِ. وقد خرّجَ الإمامُ أحمدُ من روايةِ فرجِ بنِ فضالةَ عن علي بنِ يزيدَ عن القاسمِ عن أبي أمامةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: **«إن اللَّه بعثَني رحمةً وهدًى للعالمينَ، وأمرَني أن أمحقَ المزاميرَ والبرابطَ والمعازفَ والأوثانَ»**: وذكرَ بقيةَ الحديثِ، وفي آخرِهِ: **«ولا يحلُّ بيعُهُنَّ، ولا شراؤهنَّ، ولا تعليمُهنَّ، ولا تجارةٌ فيهنَّ، وثمنُهنَّ حرام»**[2]. يعني: الضاربات. وفرجُ بنُ فضالةَ مختلفٌ فيه أيضًا. ووثقه الإمامُ أحمدُ وغيرُهُ. وخرّجَ الإسماعيليُّ وغيرُهُ، من حديثِ عمرَ بنِ الخطابِ ﷺ عن النبي ﷺ قالَ: **«ثمنُ المغنيةِ حرامٌ، وغناؤُها حرامٌ»**[3]. وإسنادُه كلُّهم ثقاتٌ متفقٌ عليهِم، سوى يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ النوفليِّ. فإنه مُختلفٌ في أمرِهِ. وخرّجَ حديثَه هذا محمدُ بنُ يحيى الهمذاني في صحيحِهِ وقال: في النفسِ مِنْ يزيدَ بنِ

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٢٦٤)، والترمذي في «الجامع» (١٢٨٢).
(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٢٥٧، ٢٦٨).
(٣) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (١/ ٧٣ ح ٨٧) بلفظ «ثمن القينة سحت، وغناؤها حرام».

عبدِ الملكِ. مع أن ابن معين قالَ: ما كانَ به بأسٌ. وبوَّبَ الهمذانيُّ هذا في «صحيحِهِ» على: تحريمِ بيعِ المغنياتِ وشرائِهنَّ. وهو من أصحابِ ابنِ خزيمةَ وكانَ عالمًا بأنواعِ العلومِ. وهو أولُ منْ أظهرَ مذهبَ الشافعيِّ بهمذانَ واجتهدَ في ذلكَ بمالِهِ ونفسِهِ. وكانَ وفاتُه سنةَ سبعٍ وأربعينَ وثلاثمائةٍ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ. وخرّجَ في بابِ تحريمِ ثمنِ المغنيةِ من روايةِ أبي نعيمٍ الحلبيِّ عن ابنِ المباركِ عن مالكٍ عن ابنِ المنكدرِ عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**من قعدَ إلى قينةٍ يستمعُ منها، صُبَّ في أُذنيهِ الآنُكُ يومَ القيامة**».

وقال: أبو نعيم الحلبيُّ اسمه عبيدُ بنُ هشامٍ.

قلتُ: قد وثقه أبو داودَ وقالَ: إنه تغيَّر بآخرةٍ. وقد أنكرَ عليه أحاديثَ تفردَ بها، منها هذا الحديثُ. وفي النهي عن بيعِ المغنياتِ أحاديثُ أُخرُ عن عليّ وعائشةَ ﵄ وغيرِهما، وفي أسانيدِهَا مقالٌ.

وروى عامرُ بنُ سعدٍ البجليُّ قال: دخلتُ على قرظةَ بنِ كعبٍ وأبي مسعودٍ الأنصاريِّ في عُرْسٍ، فإذا جواري يتغنينَ، فقلتُ: أنتم أصحابُ محمدٍ وأهلُ بدرٍ، ويُفعلُ هذا عندكُم؟! قال: اجلسْ إن شئْتَ واسمعْ، وإن شئتَ فاذهبْ؛ فإنَّه قد رُخِّصَ لنا في اللهوِ عندَ العرسِ. خرّجه النسائيُّ والحاكمُ[1] وقال: صحيحٌ على شرطِهما.

والرخصةُ في اللهوِ عند العرسِ تدلُّ على النهيِّ عنهُ في غيرِ العُرسِ، ويدلُّ عليه قولُ النبيِّ ﷺ في حديثِ عائشةَ المتفقِّ عليه في «الصحيحين»[2] : لَمَّا دخلَ عليها وعندَها جاريتانِ تغنيانِ وتدفانِ، فانتهرهُما أبو بكرٍ الصِّديقُ ﵁،

(١) أخرجه: النسائي (٦/ ١٣٥)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ١٨٤).
(٢) البخاري (٢/ ٢٩)، (٤/ ٢٢٥)، ومسلم (٣/ ٢١).

وقالَ: مَزمورُ الشيطانِ عندَ رسولِ اللَّه ﷺ؟! فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**دعهُما، فإنَّها أيامُ عيدٍ**». فلم يُنكرْ قولَ أبي بكرٍ رضي الله عنه.

وإنّما علَّل الرخصةَ بكونهِ في يومِ عيدٍ؛ فدلَّ على أنَّه يُباحُ في أيامِ السرورِ: كأيامِ العيدِ، وأيامِ الأفراحِ: كالأعراسِ وقدومِ الغُيَّابِ، ما لا يُباحُ في غيرِها من اللهوِ. وإنما كانتْ دفوفُهم نحوَ الغرابيلِ وغناؤُهم بإنشادِ أشعارِ الجاهليةِ في أيامِ حروبِهِم وما أشبهَ ذلكَ.

فمن قاسَ على ذلكَ سماعَ أشعارِ الغزلِ مع الدفوفِ المصلصلةِ، فقدْ أخطأَ غايةَ الخطأ،وقاسَ مع ظهورِ الفرقِ بين الفرعِ والأصلِ.

وقال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: الغناءُ يُنبتُ النفاقَ في القلبِ، كما ينبتُ الماءُ البقلَ[1]. وقد رُوي عنه مرفوعًا. خرّجه أبو داود[2] في بعضِ نسخِ السننِ، وخرّجه ابنُ أبي الدنيا والبيهقيُّ وغيرُهما. وفي إسنادِ المرفوعِ من لا يُعرفُ، والموقوفُ أشبهُ.

وأما تحريمُ آلاتِ الملاهي: فقد تقدَّم عن مجاهدٍ أنَّه أدخلَها في صوتِ الشيطانِ المذكورِ في قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿**وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ**﴾ [الإسراء:٦٤][3].

* * *

(١) أخرجه: البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٢٣).

(٢) «السنن» (٤٩٢٧).

(٣) «نزهة الأسماع» (ص ٢٩ ـ ٣٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

وأما قولُ جبريلَ: «أخبرني عن الساعةِ؟ فقال: ما المسئولُ عنها بأعلمَ من السائلِ».

فمعناه: أن الناسَ كلَّهم في وقتِ الساعةِ سواءٌ، وكلُّهم غيرُ عالمينَ به على الحقيقةِ.

ولهذا قال: «خمسٌ لا يعلمُهنَّ إلا اللَّهُ»، ثم تلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان:٣٤].

وهذه مفاتيحُ الغيبِ، الذي لا يعلمُها إلا اللَّهُ.

وقد جاءَ عن ابنِ مسعودٍ: «أن نبيَّنا أوتِيَ علمَ كلِّ شيءٍ سوى هذه الخمسِ».

ورُوِي ذلك مرفوعًا من حديثِ ابنِ عمرَ.

وكلاهُما في «مسندِ الإمامِ أحمدَ»[1].

وذُكِرَ عندَ عَمرِو بنِ العاصِ العلمُ بوقتِ الكسوفِ قبلَ ظهورِه، فأنكرهُ بعضُ مَن حضرَه، فقال عَمرٌو: إنَّما الغيبُ خمسٌ، ثم تلا هذه الآيةَ. قال: وما سوى ذلك يعلمُه قومٌ ويجهلُه قومٌ.

خرجه حميدُ بنُ زنجويه.

وقد زعمَ بعضُهم كالقرطبيِّ، أن هذه الخمسَ لا سبيلَ لمخلوقٍ إلى علمٍ بها

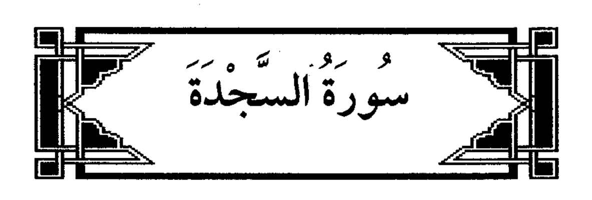
---

(١) «المسند» (١/ ٣٨٦، ٤٣٨، ٤٤٥) من حديث ابن مسعود، (٢/ ٢٤، ٢٥) من حديث ابن عمر.

قاطعٍ، وأما الظنُّ بشيءٍ منها بأمارةٍ قد يخطئُ ويصيبُ، فليسَ ذلكَ بممتنعٍ، ولا نفيه مراد من هذه النصوص[1] .

* * *

(١) «الفتح» (١/ ١٩٦، ١٩٧).



سُورَةُ السَّجْدَةَ

قوله تعالى: ﴿وبدأَ خلْقَ الإنسَانِ من طينٍ ۝٧ ثُمَّ جعلَ نسْلَهُ من سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهينٍ ۝٨ ثُمَّ سوَّاهُ ونفخَ فيه من رُّوحِه﴾

وقولُه تعالى: ﴿وبدأَ خلْقَ الإنسانِ من طينٍ ۝٧ ثُمَّ جعلَ نسْلَهُ من سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهينٍ ۝٨ ثُمَّ سوَّاهُ ونفخَ فيه من رُّوحِه﴾ [السجدة:٧-٩]، والمرادُ بالإنسانِ: آدمُ ـ عليه السلامُ ـ، ومعلومٌ أنَّ تسويتَهُ، ونفخَ الرُّوحِ فيه، كان قبلَ جعلِ نسلِه من سُلالةٍ من ماءٍ مـهينٍ، لكنْ لما كانَ المقصودُ ذكرَ قدرةِ اللَّه عـزَّ وجلَّ في مبدأ خلقِ آدمَ وخلقِ نسلِهِ، عطفَ ذكرَ أحدِهما على الآخـرِ، وأخَّر ذكرَ تسويةِ آدمَ ونفخِ الرُّوحِ فـيه، وإن كـانَ ذلك مـتوسطًا بـين خلقِ آدمَ من طينٍ وبينَ خلقِ نسلِهِ. واللَّهُ أعلمُ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿تتجافَىٰ جنُوبُهُمْ عنِ الْمضَاجعِ يدْعُونَ ربَّهُمْ خوْفًا وطمعًا ومِمَّا رزقْنَاهُمْ ينفقُونَ ۝١٦ فلا تعْلَمُ نفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لهُم مِّن قُرَّةِ أعْيُنٍ جزاءً بمَا كانُوا يعْملُونَ﴾

عنْ مُعـاذ ﷺ قالَ: قلتُ: يا رسـولَ اللَّه، أخبرني بعـملٍ يُدخلُني الجنَّةَ ويُباعدُني منَ النَّارِ.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٥١).

قالَ: «لقدْ سألتَ عنْ عظيمٍ، وإنَّهُ ليسيرٌ على من يسرهُ اللَّه عليه: تعبدُ اللَّه لا تُشركُ بهِ شيئًا، وتقيمُ الصلاةَ، وتؤتي الزَّكاةَ، وتصومُ رمضانَ، وتحجُّ البيتَ».

ثُمَّ قالَ: «ألا أدُلكَ على أبوابِ الخيرِ؟ الصَّومُ جنَّةٌ، والصدقةُ تُطفئُ الخطيئةَ كما يُطفئُ الماءُ النَّارَ، وصلاةُ الرَّجُلِ منْ جوفِ اللَّيلِ، ثُمَّ تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٦-١٧]».

ثم قال: «ألا أُخبرُكَ برأسِ الأمرِ وعمودِه وذروةِ سنامِه؟».

قُلتُ: بلى يا رسولَ اللَّه.

قال: «رأسُ الأمرِ: الإسلامُ، وعمودُهُ: الصلاةُ، وذروةُ سنامِه: الجهادُ».

ثُمَّ قالَ: «ألا أُخبركَ بملاكِ ذلكَ كُلِّه؟».

قُلتُ: بلى يا رسولَ اللَّه.

فأخذَ بلسانِه، قالَ: «كُفَّ عليكَ هذَا».

قُلتُ: يا نَبيَّ اللَّه، وإنَّا لمؤاخذُونَ بما نتكلَّمُ بهِ؟.

فقال: «ثكلتكَ أُمُّكَ، وهل يكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ على وجوهِهِم، - أوْ على مناخرِهم -، إلا حصائدُ ألسنتِهم».

رواهُ الترمذيُّ وقالَ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

هذا الحديثُ، خرَّجه: الإمامُ أحمدُ، والترمذيُّ، والنسائيُّ، وابنُ ماجه[1]، من روايةِ معمرٍ، عن عاصمِ بنِ أبي النجودِ، عن أبي وائلٍ، عن مُعاذِ بنِ جبلٍ، وقالَ الترمذيُّ: «حسنٌ صحيحٌ».

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٢٣٧، ٢٣٣)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

وفيما قالهُ ـ رحمه اللَّهُ ـ نظرٌ من وجهينِ:

أحدهما: أنَّه لم يثبتْ سماعُ أبي وائلٍ من معاذٍ، وإن كان قد أدركهُ بالسِّنِّ، وكانَ معاذٌ بالشَّام، وأبو وائلٍ بالكوفةِ، وما زالَ الأئمةُ ـ كأحمدَ وغيرِه ـ يستدلُّون على انتفاءِ السّماعِ بمثلِ هذا، وقد قال أبو حاتمٍ الرازيُّ في سماعِ أبي وائلٍ من أبي الدرداءِ: قد أدركهُ، وكان بالكُوفةِ، وأبو الدُّرداءِ بالشامِ ـ يعني: أنه لم يصحَّ له سماعٌ منهُ. وقد حكَى أبو زُرعةَ الدِّمشقيُّ عن قومٍ أنَّهم توقَّفُوا في سماعِ أبي وائل من عمرَ، أو نفوه، فسماعُه من معاذٍ أبعدُ.

والثاني: أنَّه قد رواهُ حمَّادُ بنُ سلمةَ عن عاصمِ بنِ أبي النَّجودِ عن شهرِ ابن حوشبٍ عن معاذ، خرَّجه الإمامُ أحمدُ مختصرًا، قال الدارقطني: وهو أشبهُ بالصَّوابِ؛ لأنَّ الحديثَ معروفٌ من رواية شهرٍ على اختلافٍ عليه فيه.

قلت: ورواية شهرٍ عن معاذٍ مرسلةٌ يقينًا، وشهرٌ مختلفٌ في توثيقهِ وتضعيفهِ. وقد خرَّجه الإمامُ أحمدُ من روايةِ شهرٍ عن عبدِ الرحمنِ بن غنمٍ عن معاذٍ. وخرَّجه الإمامُ أحمدَ ـ أيضًا ـ من روايةِ عُروة بن النزال ـ أو النزال ابنِ عروةَ ـ، وميمونِ بنِ أبي شبيبٍ، كلاهما: عن معاذ. ولم يسمعْ عروةُ ولا ميمونُ من معاذٍ. وله طرقٌ أخرى عن معاذٍ كلُّها ضعيفةٌ.

وقولُه: «ثم تلا: ﴿**تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة: ١٦ ـ ١٧]»، يعني: أن النبيَّ ﷺ تلا هاتينِ الآيتينِ عندَ ذكرِه فضلَ صلاةِ الليلِ، ليبيِّنَ بذلكَ فضلَ صلاةِ الليلِ.

وقد رُويَ عن أنسٍ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في انتظارِ صلاةِ العشاءِ، خرَّجه الترمذيُّ وصححه[١]، ورُويَ عنه أنه قالَ في هذه الآيةِ: كانُوا يتنفلونَ بينَ المغربِ والعشاءِ. خرَّجه أبو داود[٢]. ورويَ نحوُه عن بلالٍ، خرَّجه البزارُ بإسنادٍ ضعيفٍ[٣].

وكلُّ هذا يدخلُ في عمومِ لفظِ الآيةِ، فإنَّ اللَّهَ مدحَ الذين تتجافَى جنوبُهم عن المضاجعِ لدعائه، فيشملُ ذلكَ كلَّ من تركَ النَّومَ بالليلِ لذكرِ اللَّهِ ودُعائه، فيدخلُ فيه مَن صلَّى بينَ العشاءينِ، ومن انتظرَ صلاةَ العشاءِ فلم ينَمْ حتَّى يُصلِّيَهَا، لاسيَّما مع حاجتِه إلى النومِ ومجاهدةِ نفسهِ على تركهِ لأداءِ الفريضة، وقد قالَ النبيُّ ﷺ لمنِ انتظرَ صلاةَ العشاءِ: «**إنَّكم لن تزالوا في صلاةٍ ما انتظرتُمُ الصَّلاةَ**»[٤].

ويدخلُ فيه من نامَ ثمَّ قامَ مِن نومه باللَّيلِ للتهجُّد، وهو أفضلُ أنواعِ التطوُّع بالصلاةِ مطلقًا.

وربما دخلَ فيهِ من تركَ النوم عندَ طلوعِ الفجرِ، وقامَ إلى أداء صلاةِ الصُّبح، لاسيما مع غلبةِ النَّوم عليهِ، ولهذا يُشرعُ للمؤذِّن في أذانِ الفجرِ أن يقولَ في أذانهِ: الصلاةُ خيرٌ من النومِ.

وقوله ﷺ: «**وصلاةُ الرَّجُلِ من جوفِ الليلِ**» ذكرَ أفضلَ أوقاتِ التهجُّدِ بالليلِ، وهو جوفُ الليلِ، وخرَّج النسائيُّ والترمذيُّ من حديثِ أبي أمامةَ،

---

(١) الترمذي (٣١٩٦).

(٢) أبو داود (١٣٢١).

(٣) البزار (٢٢٥٠ ـ كشف).

(٤) قطعة من حديث، أخرجه: البخاري (١/ ١٥٠، ١٦٨، ٢١٤)، ومسلم (٢/ ١١٦).

قالَ: قيلَ: يا رسولَ اللَّهِ، أيُّ الدُّعاءِ أسمعُ؟ قال: «**جوفُ اللَّيلِ الآخرِ، ودُبرُ الصَّلواتِ المكتوباتِ**»[(١)].

وخرَّجه ابنُ أبي الدنيا، ولفظُه: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، قال: أيُّ الصلاةِ أفضلُ؟ قال: «**جوفُ اللَّيلِ الأوسطِ**»، قالَ: أيُّ الدُّعاءِ أسمعُ؟ قالَ: «**دبرُ المكتوباتِ**».

وخرَّجَ النسائيُّ من حديثِ أبي ذرٍّ قالَ: سألتُ النبيَّ ﷺ: أيُّ الليلِ خيرٌ؟ قال: «**خيرُ الليلِ: جوفُه**»[(٢)].

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ من حديثِ أبي مسلمٍ قالَ: قلتُ لأبي ذرٍّ: أيُّ قيامِ الليلِ أفضلُ؟ قال: سألتُ النبيَّ ﷺ كما سألْتَني، فقالَ: «**جوفُ اللَّيلِ الغابرِ أو نصفُ اللَّيلِ، وقليلٌ فاعلُه**»[(٣)].

وخرجهُ البزارُ، والطبرانيُّ[(٤)] من حديثِ ابنِ عمرَ، قالَ: سُئلَ النبيُّ ﷺ: أيُّ الليلِ أجوبُ دعوةً؟ قالَ: «**جوفُ الليلِ**» زادَ البزارُ في روايتِه: «**الآخرِ**».

وخرَّجَ الترمذيُّ[(٥)] من حديثِ عمرِو بنِ عبسةَ سمعَ النبيَّ ﷺ يقولُ: «**أقربُ ما يكونُ الرَّبُّ من العبدِ: في جوفِ الليلِ الآخرِ، فإنْ استطعتَ أن تكونَ ممَّن يذكرُ اللَّهَ في تلكَ الساعةِ فكنْ**»، وصححهُ.

وخرَّجه الإمامُ أحمدُ، ولفظُه: قالَ: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، أيُّ الساعاتِ

---

(١) أخرجه: الترمذي (٣٤٩٩)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠٨).

(٢) أخرجه: النسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١١٩٠٢).

(٣) أحمد في «المسند» (٥/ ١٧٩).

(٤) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٣٤٢٨)، والبزار (٣١٥١ ـ كشف).

(٥) أخرجه: الترمذي (٣٥٧٩)، وأحمد (٤/ ١١٢، ١١٤، ٣٨٥، ٣٨٧)، وكذا ابن ماجه (١٢٥١)، (١٣٦٤).

أفضل؟ قالَ: «**جوفُ الليلِ الآخرِ**» وفي روايةٍ لهُ ـ أيضًا ـ: قالَ: «**جوفُ الليلِ الآخرِ أجوبُه دعوةً**»، وفي روايةٍ له: قلتُ: يا رسولَ اللَّه، هل مِنْ ساعةٍ أقربُ إلى اللَّه من أُخرى؟ قال: «**جوفُ الليلِ الآخرِ**». وخرَّجه ابنُ ماجه، وعندَهُ: «**جوفُ اللَّيلِ الأوسط**»، وفي روايةٍ للإمامِ أحمدَ عن عمرِو بنِ عبسةَ، قالَ: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، هل منْ ساعةٍ أفضلُ من ساعةٍ؟ قالَ: «**إنَّ اللَّهَ ليتدلَّى في جوفِ الليلِ، فيغفرُ، إلا ما كانَ من الشركِ**»[1].

وقد قيلَ: إنَّ جوفَ اللَّيلِ إذا أطلقَ فالمرادُ به: وسطُه، وإن قيلَ: جوفُ الليلِ الآخرِ، فالمرادُ وسطُ النِّصفِ الثاني، وهو السُّدسُ الخامسُ من أسداسِ الليلِ، وهو الوقتُ الذي ورد فيه النُّزولُ الإلهي[2].

* * *

وروَى عطيةُ، عن أبي سعيد، قال: إنَّ اللَّهَ خَلَق جنَّة عدنٍ من ياقوتةٍ حمراءَ، ثم قال لها: تزيَّني فتزينت، ثم قال لها: تكلَّمي، فقالت: طُوبى لمن رضيتَ عنه؛ ثم أطبقها وعلَّقها بالعرشِ، فهي تُفتحُ في كلِّ سحرٍ، فذلك بردُ السحرِ.

وعن ابن عبَّاس، قال: كان عرشُ اللَّه على الماءِ، ثم اتخذَ لنفسه جنَّةً، ثم اتخذَ دونها أخرى، وطبَّقهما بلؤلؤة واحدةٍ لا يعلمُ الخلائقُ ما فيهما وهما اللتانِ: ﴿**فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[السجدة: ١٧].

وذكرَ صفوانُ بنُ عمرٍو، عن بعضِ مشايخه، قال: الجنةُ مائةُ درجةٍ: أولها: درجةُ فضةٍ، وأرضُها فضةٌ، ومساكنُها فضةٌ، وترابها المسكُ.

---

(١) أخرجه: الترمذي (٣٥٧٩)، وأحمد (٤/ ١١٢، ١١٤، ٣٨٥، ٣٨٧)، وابن ماجه (١٢٥١)، (١٣٦٤).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٢٦ ـ ١٤٠) باختصار.

والثانية: ذهبٌ، وأرضُها ذهبٌ، وآنيتها ذهبٌ، وترابُها المسكُ.

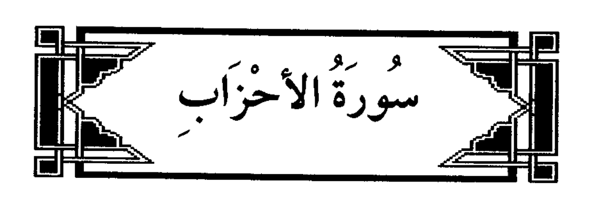
والثالثة: لؤلؤ، وأرضُها لؤلؤ، وآنيتُها لؤلؤ، وترابُها المسكُ، وسبعٌ وتسعونَ بعد ذلك ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ، ثم تلا: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

وفي «الصحيحين»[١] عن أبي هريرةَ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «يقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: أعددتُ لعبادي الصَّالحينَ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ». ثم يقولُ أبو هريرةَ: اقرءُوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

وفي «صحيحِ مسلمٍ» [٢] عن المغيرةِ بنِ شعبة ـ يرفعه: «سألَ موسى ربَّه، قال: يارِبِّ، ما أدنى أهلِ الجنةِ منزلةً؟ قال: هو رجلٌ يجيءُ بعدما أُدخلَ أهلُ الجنَّة الجنَّةَ، فيقالُ له: ادخُلِ الجنَّةَ، فيقولُ: يارِبِّ، كيفَ وقد أخذَ النَّاسُ منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقالُ له: أترضى أن يكون لكَ مثلُ مُلْك ملك من مُلُوكِ الدُّنيا؟ فيقولُ: رضيتُ يارِبِّ، فيقولُ: لك ذلك ومثلُهُ ومثلُهُ ومثلُهُ ومثلُهُ، فقال له في الخامسة: رضيتُ يارِبِّ، فيقالُ: هذا لكَ وعشرةُ أمثاله، ولكَ ما اشتهتْ نفسُك ولذَّت عينُك، فيقولُ: رضيتُ ربِّ. قال: فأعلاهُم منزلةً؟ قال: أولئك الذينَ أردتُ، غرستُ كرامتهُم بيدي، وختمتُ عليها، فلم ترَ عينٌ، ولم تسمعْ أذنٌ، ولم يخطرْ على قلبِ بشرٍ. قال: ومصداقُهُ في كتابِ اللَّه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]»[٣].

* * *

(١) البخاري (٦/ ١٤٥)، ومسلم (٨/ ١٤٣).
(٢) أخرجه: مسلم (١/ ١٢٠ ـ ١٢١).
(٣) «لطائف المعارف» (٦٤، ٦٥).



سُورَةُ الأحْزَابِ

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾

كانت مجالسُ النبيِّ ﷺ مع أصحابه عامتُهـا مجالسَ تذكيرٍ باللَّهِ وترغيبٍ وترهيبٍ، إمَّـا بتلاوةِ القـرآنِ، أو بما آتاهُ اللَّه من الحكـمة والموعظة الحـسنة، وتعليمِ مـا ينفعُ في الدِّين، كـما أمَـرَه اللَّهُ تعالى في كـتابه أن يذكِّـرَ ويعظَ ويقُصَّ، وأن يدعوَ إلى سبيل ربِّه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يبشِّر ويُنذرَ، وسمَّاه اللَّهُ: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

والتبـشيـر والإنذارُ هو الترغيبُ والـترهيبُ، فلذلك كانـتْ تلك المجالسُ توجبُ لأصحابِهِ رِقَّةَ القلوبِ والزُّهدَ في الدُّنيا والرَّغبةَ في الآخرةِ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

و«الجِلْباب»: قال ابن مسعودٍ ومجاهدٌ وغيرُهما: هو الرِّداءُ، ومعنى ذلك: أنه للمرأة كـالرداءِ للرجلِ، يسترُ أعـلاها، إلا أنه يُقَنِّعُها فـوقَ رأسِهَا، كـما

---

(١) «لطائف المعارف» (٤٥ ـ ٤٦).

يضعُ الرجلُ رداءَه على منْكِبَيْه.

وقد فسَّر عَبِيدةُ السَّلْماني قولَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩]: بأنها تُدنيه من فوقِ رأسِهَا، فلا تُظْهِر إلا عَيْنَها، وهذا كانَ بعد نزولِ الحجابِ، وقد كُنَّ قبلَ الحجابِ يَظهرن بغيرِ جلبابٍ، ويُرى من المرأةِ وجهُها وكَفَّاها، وكان ذلك ما ظهرَ منها من الزينة في قولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور:٣١].

ثم أُمِرَتْ بسترِ وجهِها وكفيها، وكان الأمْرُ بذلك مختصًا بالحرائرِ دونَ الإماءِ، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب:٥٩]، يعني: حتى تُعرفَ الحرةُ فلا يتعَرَّضُ لها الفُسَّاقُ، فصارتِ المرأةُ الحرةُ لاتخرج بين الناسِ إلا بالجلبابِ، فلهذا سُئل النبيُّ ﷺ لما أمَرَ النساءَ بالخروجِ في العيدين، وقيل له: المرأةُ منا ليسَ لها جلبابٌ؟ فقال: «لِتُلْبِسْها صاحبتُها من جلبابها»[1] يعني: تُعِيرُها جلبابًا تخرجُ فيه[2].

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾

خرَّج البخاريُّ من حديثِ: مَعْمَر، عنْ همَّامِ بنِ مُنبِّه، عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ، قال: «كان بنو إسرائيل يغْتَسِلُونَ عُراةً، ينظرُ بعضُهُم إلى بعضٍ، وكان مُوسى ـ عليه السلامُ ـ يَغْتسلُ وحْدَهُ، فقالوا: واللَّهِ، ما يمنعُ مُوسَى أنْ يغْتَسِلَ معنا، إلا

---

(١) البخاري (١/ ٨٨/ ٨٩)، ومسلم (٣/ ٢٠ ـ ٢١).

(٢) «فتح الباري» (٢/ ١٣٨).

أنَّهُ آدَرُ، فذهبَ مرَّةً يغتسلُ، فوضعَ ثوبَهُ على حَجَرٍ، فـفرَّ الحجَرُ بثَوْبِهِ، فخَرَجَ مُوسَى في إثْرِه، يقولُ: ثَوْبَي يا حَجَـرُ، ثَوْبي يا حجرُ، حتَّى نظرتْ بَنُو إسرائيل إلى مُـوسى، فقالوا: واللَّه، ما بمُوسَى بأسٌ، وأخَذَ ثوْبَهُ، فطَفِقَ بالحَجَرِ ضرْبًا»[1] .

قال أبو هريرة: واللَّهِ، إنَّهُ لندَبٌ بالحَجَرِ - ستَّةٌ أوْ سبْعَةٌ - ضربًا بالحَجَرِ.

وعن أبي هريرة، عـن النبيِّ ﷺ، قال: «بيْنَا أيُّوبُ - عليـه السـلامُ - يغْتَسِلُ عُرْيَانًا فخرَّ عليه جَرَادٌ مـن ذَهَبٍ، فجعل أيُّوبُ يَحْتَثِي في ثوبه، فناداهُ ربُّه: يا أيُّوبُ، ألم أكُنْ أغْنَيتُك عمَّا ترى؟ قال: بلى وعِزَّتِكَ، ولكنْ لا غِنَى بي عنْ بَرَكَتِكَ».

ورواه إبراهيمُ، عن موسى بن عُقْبَةَ، عن صفْوَانَ بنِ سُلَيْمٍ، عن عطاءِ بنِ يســارٍ، عن أبي هريــرة، عن النبيِّ ﷺ: «بَيْنَا أيُّوبُ - عليـه السـلامُ - يغْـتَسِلُ عُرْيَانًا»[2] .

وخرَّجَ البخاريُّ في «أخبار الأنبـياءِ» من «صحيحِهِ»[3] هذا قصـةَ موسى - عليــه السلامُ - من وجــهٍ آخر، من روايـةِ عوفٍ، عن ابنِ سـيرينَ والحسنِ وخلاسٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ موسى - عليه السـلام - كان رجلاً حيِّيًا ستيرًا، لا يُرى من جلدِهِ شيءٌ، استحياءً منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستترُ هذا السترَ إلا من عيبٍ بجلدِهِ، إما برصٌ وإما أدرةٌ وإمـا آفةٌ، وإن اللَّه أرادَ أن يُبرِّئَه، فخلا يومًـا وحدَه، فوضعَ ثيابَه على الحَجَرِ، ثم اغتسلَ، فلمـا فرغَ أقبلَ إلى ثيابِهِ، ليأخذها، وإن الحجرَ عدا بثوبِهِ، فأخذَ مـوسى عصاهُ، وطلبَ الحجرَ، فجعلَ يقولُ: ثوبي حجرُ، ثوبي حجرُ، حتى انتهى إلى مـلإٍ بني إسرائيلَ، فرأوْهُ عُريانًا، أحسنَ ما خلَقَ اللَّهُ،

---

(١) البخاري (١/ ٧٨).

(٢) السابق.

(٣) البخاري (٤/ ١٩٠).

وأبرأَهُ اللَّه مما يقولونَ، وقامَ الحجرُ، فأخذَ ثوبَهُ فلبسَهُ، وطفقَ بالحجر ضربًا ـ ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا ـ، فذلك قولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾» [الأحزاب: ٦٩].

«الأدرةُ»: انتفاخُ الخصيةِ.

و«الندبُ»: الأثرُ الباقي في الحجرِ، من ضربِ موسى ـ عليه السلامُ ـ له.

قال الخطابيُّ: وفيه من الفقهِ: جوازُ الاطلاعِ على عوراتِ البالغينَ؛ لإقامة حقٍّ واجبٍ كالختانِ ونحوِهِ.

قلتُ: هذا فيه نظرٌ؛ فإن موسى ـ عليه السلامُ ـ لم يقصدِ التعرِّي عندَ بني إسرائيل؛ لينظرُوا إليه، وإنَّما قدَّر اللَّهُ له ذلك حتى يبرئَه عندهم مما آذوْه به.

وقد يقالُ: إنَّ اللَّهَ لا يقدِّرُ لنبيِّه ما ليسَ بجائزٍ في شرعِهِ.

وأما الاستدلالُ به على جوازِ الاغتسالِ في الخلوةِ عُريانًا، فهو مبنيٌّ على القولِ بأن شرعَ مَنْ قبلَنا شرعٌ لنا، ما لم يأتِ شرْعُنا بخلافِهِ.

وقد استدلَّ بهذا على جوازِ الغسلِ في الخلوةِ عُريانًا: إسحاقُ بنُ راهويه ـ أيضًا ـ، وذكر أنه وإنْ كان شرعَ من قبلنا، إلا أنه لم يردْ شرعُنا بخلافِهِ.

وقد يمنعُ هذا من يقولُ: قد ورد شرعُنا بالتسترِ في الخلوةِ ـ أيضًا ـ، وسيأتي بيانُ ذلك في البابِ الآتي ـ إن شاء اللَّه تعالى.

وقد روى حمادُ بنُ سلمةَ، عن عليِّ بنِ زيدٍ، عن أنسٍ، عن النبيِّ ﷺ، قال: **«إنَّ موسى بنَ عمران ـ عليه السلامُ ـ كان إذا أراد أن يدخلَ الماءَ لم يُلقِ ثوبَهُ، حتى يواريَ عورتَهُ في الماء»**.

خرَّجه الإمامُ أحمدُ[١] .

وعليُّ بنُ زيدٍ، هو: ابنُ جُدْعَانٍ، متكلَّمٌ فيه.

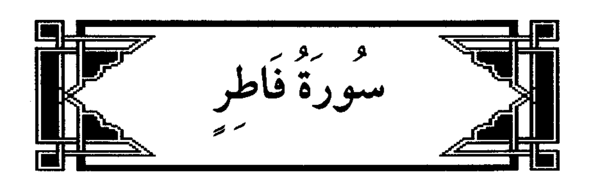
وكذا القولُ في الاحتجاج بحديثِ أيوبَ ـ عليه السلامُ ـ عُريانًا.

وأمَّا الطريق الذي ذكره البخاريُّ تعليقًا لحديثِ اغتسالِ أيوبَ ـ عليه السلامُ ـ؛ فخرَّجه الإمامُ[٢] .

* * *

(١) «المسند» (٣/ ٢٦٢).

(٢) «فتح الباري» (١/ ٣٣٠ ـ ٣٣٣). وهَاهُنا انتهى البابُ في الأصلِ، والظَّاهِرُ: أنَّ سقطًا وقع يَطول أو يَقصُر. واللّهُ أعلمُ.



قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾

قال ابنُ الجَوزي في «المُقتَبَسِ»: سَمعتُ الوَزير[1] يقولُ في قَولِه تَعالى ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر:٣] قال: فَطَلَبتُ الفِكرَ في المُناسَبَةِ بَين ذكْرِ النِّعمَةِ وبَين قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر:٣] فرأيت أنَّ كُلَّ نعمةٍ ينالها العبدُ فاللَّه خالقُها، فقد أنعمَ بخلقِهِ لتلك النعمةِ، وبِسَوقِهَا إلى المُنعَمِ عليه[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾

وقولُهُ: «والطيباتُ»[3]، فُسرتْ بالكلماتِ الطيباتِ، كما في قولِه تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[فاطر:١٠] فالمعنى: إنَّ ما كان من الكلامِ فإنَّه للَّه، يُثنَى به عليه ويُمجَّدُ به.

وفُسرتِ «الطيبات» بالأعمال الصالحة كلِّها، فإنها توصفُ بالطيِّب، فتكونُ كلُّها للَّه، بمعنى: أنه يُعبدُ بها ويُتقرَّبُ بها إليه[4].

* * *

(١) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.
(٢) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٨).
(٣) هذه الكلمة جزء من حديث التشهد المعروف.
(٤) «فتح الباري» (٥/ ١٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾

أما سماعُ الموتى لكلامِ الأحياءِ: ففي «الصحيحين»[١] عن أنسٍ، عن أبي طلحةَ، قال: لَّما كانَ يومُ بدرٍ وظهرَ عليهم رسولُ اللَّهِ ﷺ أمرَ ببضعةٍ وعشرينَ رجلاً، وفي روايةٍ أربعةً وعشرينَ رجلاً من صناديدِ قريشٍ، فألقُوا في طوىً من أطواءِ بدرٍ، وإنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ ناداَهم قالَ: «**يا أبا جهلِ بنَ هشامٍ، يا أميَّة بنَ خلف، يا عتبةَ بنَ ربيعةَ، يا شيبةَ بنَ ربيعةَ، أليسَ قدْ وجدتُم ما وعدَ ربُّكم حقًّا؟ فإنِّي قد وجدتُ ما وعدنِي ربِّي حقًّا**» فقال عمرُ: يا رسولَ اللَّه ما تُكلِّم من أجسادٍ لا أرواحَ فيها، فقالَ: «**والذي نفسِي بيدِهِ ما أنتُم بأسمعَ لَمَا أقولُ منهم**».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[٢] من حديث أنسٍ نحوُهُ من غيرِ ذكرِ أبي طلحةَ، وفي حديثِهِ قال: «**والذي نفسِي بيدِهِ، ما أنتُم بأسمعَ لَمَا أقولُ منهم، ولكنهم لا يقدرونَ أن يجيبُوا**».

وفيه ـ أيضًا ـ عن أنسٍ، عن عمرَ بنِ الخطابِ ﷺ عن النبيِّ ﷺ هذه القصة بمعناها[٣].

وفي «الصحيحينِ»[٤] عن ابنِ عمرَ ﷺ، قال: اطَّلع رسولُ اللَّهِ ﷺ على أهلِ القَليبِ، فقالَ: «**وجدتُم ما وعدَكُم حقًّا؟**» فقيلَ له: أتدعُو أمواتًا؟ قال: «**ما أنتُم بأسمعَ منهم، ولكنَّهم لا يجيبون**» وفي روايةٍ قالَ: «**إنهم الآنَ يسمعونَ ما أقولُ**».

وقد أنكرتْ عائشةُ ﷺ ذلك، كما في «الصحيحينِ»[٥] عن عروةَ، عن

(١) البخاري (٤/ ٨٩)، (٥/ ٩٧)، ومسلم (٨/ ١٦٤).
(٢) مسلم (٨/ ١٦٣ ـ ١٦٤).
(٣) مسلم (٨/ ١٦٣).
(٤) البخاري (٥/ ٩٨)، ومسلم (٣/ ٤٤).
(٥) السابق.

عائشة ﷺ، أنها قالتْ: ما قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**إنهم ليسمعونَ الآنَ ما أقولُ**»، وقد وهِمَ - يعني ابن عمرَ - إنما قال: «**إنَّهم ليعلمونَ الآنَ ما كنت أُقولُ لهُم إنه حقٌّ**» ثم قرأت قولَه: ﴿**إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ**﴾ [النمل:٨٠]، و[الروم:٥٢]، ﴿**وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾ [فاطر:٢٢].

وقد وافقَ عائشةَ على نفي سماعِ الموتى كلامَ الأحياءِ طائفةٌ من العلماءِ، ورجَّحَهُ القاضي أبو يعْلى من أصحابِنا، في كتابِ «الجامعِ الكبيرِ» له، واحتجُّوا بما احتجتْ به عائشةُ ﷺ، وأجابُوا عن حديثِ قليبِ بدرٍ بما أجابتْ به عائشة ﷺ وبأنه يجوزُ أن يكونَ ذلك معجزةً مختصةً بالنبيِّ ﷺ دون غيرِهِ، وهو سماعُ الموتى لكلامِهِ.

وفي «صحيحِ البخاريِّ»[1] عن قتادةَ قالَ: أحياهُم اللَّهُ تعالى يعني أهلَ القليبِ حتى أسمعَهُم قولَه، توبيخًا وتصغيرًا ونقمةً وحسرةً وندمًا.

وذهب طوائفُ من أهلِ العلمِ إلى سماعِ الموتى في الجملةِ، قالَ ابنُ عبدِ البرِّ: ذهبَ إلى ذلكَ جماعةٌ من أهلِ العلمِ - وهم الأكثرونَ - وهو اختيارُ الطبريِّ وغيرِهِ، ويعني بالطبريِّ: ابنَ جريرٍ، وكذلكَ ذكرَهُ ابنُ قتيبةَ وغيرُه من العلماءِ، وهؤلاءِ يحتجونَ بحديثِ القليبِ، كما سبق، وليسَ هو بوهمٍ ممن رواه، فإن عمرَ وأبا طلحةَ وغيرَهما ممن شهدَ القصةَ حكاه عن النبيِّ ﷺ. وعائشةُ لم تشهدْ ذلك، وروايتُها عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «**إنهم ليعلمونَ الآنَ أن ما كنتُ أقولُ لهم حقٌ**» يؤيِّد روايةَ من رَوى: «**إنهم ليسمعون**»، ولا ينافيه، فإن الميِّتَ إذا جازَ أن يعلمَ جازَ أن يسمعَ، لأنَّ الموتَ ينافي العلمَ، كما ينافي

---

(١) البخاري (٥/ ٩٨).

السمعَ والبصرَ، فلو كان مانِعًا من البعضِ لكانَ مانعًا من الجميعِ.

وروى أبو الشيخِ الأصبهانيُّ بإسناده عن عبيدِ بنِ مرزوقٍ، قالَ: كانت امرأةٌ بالمدينةِ يقالُ لها: أمُّ محجنٍ، تقمُّ المسجدَ، فماتتْ، فلم يعلمْ بها النبيُّ ﷺ فمرَّ على قبرِها، فقال: **«ما هذا القبرُ؟»** فقالوا: قبرُ أمِّ محجنٍ، فقال النبيُّ ﷺ: **«التي كانتْ تقمُّ المسجدَ؟»** قالوا: نعم، فصفَّ الناسَ وصلَّى عليها، ثم قالَ: **«أيَّ العملِ وجدتِ أفضل؟»** قالوا: يا رسول اللَّهَ أتسمع؟ قال: **«ما أنتم بأسمعَ منها»**، فذكرَ أنها أجابتْهُ، قَمُّ المسجدِ، وهذا مرسلٌ.

وأمَّا أنَّ ذلك خاصٌّ بكلامِ النبيِّ ﷺ فليسَ كذلكَ، وقد ثبت في الصحيحينِ[1] عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ قال: **«إن العبدَ إذا وُضِعَ في قبرِه وتولَّى عنه أصحابُهُ، إنه ليسمعُ قَرْعَ نعالِهم»**، وقد سبقَ ذكرُهُ، وسنذكرُ الأحاديثَ الواردةَ بسماعِ الموتى سلامَ من يسلِّمُ عليهم فيما بعدُ إن شاء اللَّه تعالى.

وأما قولُهُ تعالى: ﴿**إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى**﴾ [النمل:٨٠] و[الروم:٥٢]، وقولُه: ﴿**وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾ [فاطر:٢٢]، فإنَّ السماعَ يطلقُ ويرادُ به إدراكُ الكلامِ وفهمُهُ، ويرادُ به أيضًا الانتفاعُ به، والاستجابة لهُ، والمرادُ بهذه الآية: نفيُ الثاني دون الأولِ، فإنَّها في سياقِ خطابِ الكفَّارِ الذينَ لا يستجيبونَ للهُدى ولا للإيمانِ إذا دُعوا إليه، كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ [الأعراف:١٧٩]، الآيةُ في نفي السماعِ والإبصارِ عنهم، لأنَّ الشيءَ قد ينفى لانتفاءِ فائدتهِ وثمرتِهِ، فإذا لم ينتفعِ المرءُ بما سمعَهُ وأبصرَهُ، فكأنَّه لم

---

(١) البخاري (٢/ ١١٣، ١٢٣)، ومسلم (٨/ ١٦٢).

يسمعْ ولم يبصرْ، وسماعُ الموتى هو بهذه المثابةِ، وكذلكَ سماعُ الكفَّارِ لمن دعاهُم إلى الإيمانِ والهُدى.

وقولُ قتادةَ في أهلِ القليبِ: أحياهُمُ اللَّهُ تعالى حتى أسمعَهُم، قولُهُ يدلُّ على أنَّ الميتَ لا يسمعُ القولَ إلا بعد إعادةِ الروحِ إلى جسده، وكذلك قال طوائفُ من السلفِ كثيرةٌ أنه لا يُسأل في قبرِهِ إلا بعد إعادةِ الروحِ إلى جسدِهِ، كما جاء ذلك مصرَّحًا به في حديثِ البراءِ بنِ عازبٍ عن النبيِّ ﷺ الطويل، وقد سبقَ ذكرُ بعضِهِ، وفيه في حقِّ الكافرِ: **«وتُعَاد روحُهُ إلى جسدِهِ»**[1].

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ»[2] من حديث الأعمشِ عن المنهالِ، عن زاذانَ، عن البراءِ، في حقِّ المؤمنِ والكافرِ في كلٍّ منهما، قال: **«وتُعادُ روحُهُ إلى جسدِهِ»**.

وكذلك عند ابنِ منده، إعادتُها إلى جسدِهِ عند ضربِ الملَكِ له، بعد أن يضربه فيصيرُ ترابًا، من روايةِ يونسَ بنِ خبابٍ، عن المنهالِ، وقد سبقَ ذلك كلُّه.

وخرَّج ابنُ ماجه وغيرُهُ[3]، من حديثِ أبي هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ في صفةِ قبضِ الروحِ والمسألةِ، وقال في روحِ الكافرِ: **«فتصيرُ إلى القبرِ»** وقد سبقَ أيضًا.

وخرَّج ابنُ منده بإسنادٍ ضعيفٍ جداً ـ عن ابنِ عباسٍ عن النبيِّ ﷺ في

---

(١) أحمد في «المسند» (٤/ ٢٩٥)، وابن ماجه (١٥٤٨)، (١٥٤٩).

(٢) «المسند» (٤/ ٢٩٥).

(٣) أحمد في «المسند» (٢/ ٣٦٤/ ٣٦٥)، وابن ماجه (٤٢٦٢).

صفةِ قبضِ الروح، وفيه قالَ: «**فيهبطونَ بها** - يعني الروح - **على قدرِ فراغهم من غسلهِ وأكفانهِ، فيدخلونَ ذلك الروحَ بين جسدهِ وأكفانهِ**» وهذا لا يثبتُ.

وخرَّج الخلالُ في كتابِ «شرحِ السنة» من طريقِ أبي هاشمٍ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوصِ، عن عبدِ اللَّهِ، قال: إنَّ المؤمنَ إذا نزلَ به الموتُ أتاهُ ملَكُ الموتِ يناديه: يا روح طيبة اخرجي من الجسدِ الطيبِ، قال: فإذا خرجتْ روحُه لفّتْ في خرقةٍ حمراءَ، فإذا غسِّل وكفِّن، وحملَ على السريرِ وارتفعتِ الروحُ فوقَ السريرِ حيثُ تحولَ السريرُ، تحولتْ حتى يوضعَ في قبرهِ، فإذا وُضعَ في قبرهِ أُجْلسَ، وجيءَ بالروحِ، فَجُعلَتْ فيه، فقيل له: من ربُّك، وما دينُك، ومن نبيُّك؟ فيقولُ: ربي اللَّهُ، وديني الإسلامُ، ونبيي محمدٌ ﷺ فيقالُ له: صدقتَ، فيوسَّعُ له في قبرهِ مدَّ البصرِ، ثم ترفعُ روحُه، فتجعلُ في أعلَى عليينَ، ثم تلا عبدُ اللَّهِ هذه الآيةَ: ﴿**إنَّ كتابَ الأبْرَارِ لَفِي علِّيِّينَ**﴾ [المطففين: ١٨].

وخرَّج ابنُ أبي الدنيا، من طريقِ سالمِ بنِ أبي الجعدِ، قال: قال حذيفةُ: الروحُ بيدِ ملَكٍ، وإن الجسدَ ليغسَّلَ، وإنَّ الملَكَ ليمشي معه إلى القبرِ، فإذا سُوي عليه سلَكَ فيه، فذلكَ حين يخاطبُ.

ومن طريقِ عبدِ الرحمنِ بنِ أبي الزنادِ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ أبي ليلى، قال: الروحُ بيد ملَكٍ يمشي مع الجنازةِ، يقولُ: اسمعْ ما يقالُ لك، فإذا بلغ حفرتَهُ دفنَ معه.

ومن طريقِ داودَ العطارِ، عن أبي نجيحٍ، قال: ما منْ ميِّت يموتُ إلا روحُهُ في يد مَلَكٍ ينظرُ إلى جسدهِ، كيف يغسلُ ويكفَّنُ، وكيف يُمشَى به إلى قبرِهِ، ثم تُعاد إليه روحُه، فيجلسُ في قبرِهِ.

وكذا قال أبو صالحٍ وغـيرُه من السلفِ في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨]، فدلَّ على أنَّ الحياةَ الأولى هي القبرُ للسؤالِ، وإنْ كانَ الأكثرونَ خالفُوا في ذلك.

فهـؤلاء السلفُ كلُّهم صـرَّحُوا بأنَّ الروح تعـادُ إلى البدنِ عند الـسؤالِ، وصـرَّح بمثلِ ذلك طوائـفُ مـن الفقهاءِ والمتكلمينَ مـن أصحابِنا وغيرِهـم، كالقـاضي أبي يعْلى وأصحابِهِ، وأنكـر ذلك طائفةٌ منهم ابنُ حزمٍ وغـيرُه، وذكرَ أن السؤال للروحِ خاصةً، وكذلك سماعُ الخطابِ، وأنكر أن تعادَ الروحُ إلى الجسدِ في القبرِ للعـذابِ وغيرِه، وقالُوا: لو كان ذلك حقًّا للزمَ أن يموتَ الإنسانُ ثلاثَ مـراتٍ ويحيى ثلاثَ مـراتٍ، والقرآنُ دلَّ على أنَّهـما مـوتتانِ وحياتانِ فقط، وهذا ضعيفٌ جدًّا، فإنَّ حياةَ البرزخ ليستْ حـياةً تامةً مستقلة كحيـاةِ الدنيا وكالحياةِ الآخـرةِ بعدَ البعثِ، وإنَّما فيـها نوعُ اتصالِ الروحِ في البدنِ بحيثُ يحصلُ بذلكَ شعورُ البدنِ وإحساسٌ بالنعيمِ والعذابِ وغيرِهما، وليستْ هي حياةً تامةً حتى يكونَ انفصالُ الروحِ به موتًا تامًّا، وإنَّما هو شبيهٌ بانفصالِ روحِ النائمِ عنه، ورجوعِها إليه، فإنَّ ذلك يسمَّى موتًا وحياةً.

كما كان النبيُّ ﷺ يقولُ إذا استيقظَ من منامِهِ: «الحمدُ للَّهِ الذي أحيانَا بعد ما أماتنا، وإليـه النشور»[١] وسمـاه اللَّهُ تعالى وفـاةً، لقوله تـعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾ الآيـة [الزمر:٤٢]، مع هذا فـلا ينافـي ذلكَ أن يكونَ الـنائمُ حيًّا، وكذلك اتصـالُ روحِ الميتِ ببدنه وانفصـالها عنه لا يوجبُ أن يصيـرَ للميتِ

(١) البـخاري (٨/ ٨٥، ٨٨)، (٩/ ١٤٦)، وأبو داود (٥٠٤٩)، وابن مـاجه (٣٨٨٠)، والتـرمذي (٣٤١٧).

حياةً مطلقةً.

وممن رجَّح هذا القولَ - أعني السؤالَ والنعيمَ والعذابَ للروحِ خاصةً - من أصحابِنا ابنُ عقيلٍ وأبو الفرج ابن الجوزيِّ في بعضِ تصانيفِهما، واستدلَّ ابنُ عقيلٍ بأنَّ أرواحَ المؤمنينَ تنعمُ في حواصلِ طيرٍ خضرٍ، وأرواحُ الكافرينَ تعذَّب في حواصلِ طيرٍ سودٍ، وهذه الأجسادُ تبْلَى فدلَّ ذلك على أنَّ الأرواحَ تعذبُ وتنعمُ في أجسادٍ أخرَ، وهذا لا حجةَ فيه لأنَّه لا ينافي اتصالَ الروحِ ببدنِها أحيانًا مع بقائِهِ واستحالتِهِ.

واستدل طائفةٌ ممن ذهبَ إلى هذا القول بما روى منصورُ بنُ عبدِ الرحمنِ، عن أبي أُمامة قال: دخلَ ابنُ عمرَ المسجدَ، وابنُ الزبيرِ قد قتلَ وصلبَ، فقيلَ له: هذه أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ في المسجدِ، فقال لها: اصبري فإنَّ هذه الجثث ليستْ بشيءٍ، وإنَّما الأرواحُ عند اللَّهِ، فقالت: وما يمنعنِي من الصبرِ، وقد أُهدِيَ رأسُ يحيى بنِ زكريا إلى بغيٍّ من بَغايا بني إسرائيلَ.

وروى ابنُ أبي الدنيا، من طريقِ ابنِ عمرَ - صاحبِ السقيا - قال: نزلَ ابنُ عمرَ إلى جانبِ قبورٍ قد درستْ، فنظرَ إلى قبرٍ منها، فإذا بجمجمةٍ باديةٍ، فأمرَ رجلاً فواراهَا، ثم قال: إنَّ هذه الأبدانَ ليست يضرُّها هذا الثرى شيئًا، وإنَّما الأرواح التي تُعاقَبُ وتثابُ إلى يوم القيامةِ.

وروى محمدُ بنُ سعدٍ، عن الواقديِّ، حدثني ثورُ بنُ يزيدَ، عن خالدِ بنِ معدانَ قال: لما انهزمتِ الرومُ يومَ أجنادينَ، انتهَوا إلى موضعٍ لا يعبرُه إلا إنسانٌ، فجعلت الروم تقاتل عليه، فتقدَّم هشام بن العاصِ فقاتلهم حتى قُتِل، ووقع على تلك الثلمة فسدَّها، فلما انتهى المسلمون إليها، هابوا أن

يوطئه الخيل، فقال عمرو بنُ العـاص: إنَّ اللَّهَ قد استشهدَهُ ورفعَ روحَهُ وإنما هو جثةٌ فأوطِئوهُ الخيلَ، ثم أوطأه وتبعَهُ الناسُ حتى قَطَّعوهُ.

وهذه الآثارُ لا تدلُّ على أنَّ الأرواح لا تتصلُ بالأبدانِ بعد الموتِ، وإنَّما تدلُّ على أنَّ الأجسادَ لا تتضررُ بما ينالها من عذابِ الناسِ لها ومن أكل الترابِ لها، وهذا حقٌّ، فإنَّ عذابَ القبرِ ليسَ من جنسِ عذابِ الدنيا، وإنَّما هو نوعٌ آخرُ يصلُ إلى الميتِ بمشيئةِ اللَّهِ وقدرتِهِ.

وقولهم: إنَّ الأرواحَ عندَ اللَّهِ تعالى تعاقَبُ وتثابُ لا ينافي أنْ تتصلَ بالبدنِ أحيانًا، فيحصلُ بذلكَ إلى الجسدِ نعيمٌ أو عذابٌ، وقد تستقلُّ الروحُ أحيانًا بالنعيمِ والعذابِ، إما عند استحالةِ الجسدِ أو قبلَ ذلك.

وقد أثبتَ طائفةٌ أخرى النعيمَ والعذابَ للجسدِ بمجرَّدِهِ، من غيرِ اتصالِ الروحِ به، وممن ذكرَ ذلك من أصحابِنا: ابنُ عقيلٍ في كتابِ «الإرشاد» له وابنُ الزاغوني، وحُكي عن ابنِ جريرٍ الطبريِّ - أيضًا - وذكرَ القاضي أبو يعْلى أنه ظاهرُ كلامِ الإمامِ أحمدَ، فإنه قال في روايةِ حنبلٍ: أرواحُ المؤمنينَ في الجنةِ، وأرواحُ الكفارِ في النارِ، والأبدانُ في الدنيا يعذِّب اللَّهُ من يشاءُ، ويرحمُ من يشاءُ منها بعفوِهِ.

قال القاضي: ظاهرُ هذا أن الأرواحَ تعذَّبُ وتنعمُ على الانفرادِ وكذلكَ الأبدانُ إذا كانتْ باقيةً أدَّى إلى الأجزاءِ التي استحالتْ، قال: فلا يمتنعُ أن يُخلقَ في الأبدانِ إدراكٌ تحسُّ به النعيمَ والعذابَ، كما خُلقَ في الجبلِ لما تجلَّى له ربُّه ثم جعلَهُ دكًّا.

وقال ابنُه القاضي أبو الحسين: ولأنه لَمَّا لم يستحِلْ نطقُ الذراعِ المسمومةِ،

لم يستحلْ عذابُ الجسدِ البالي وإيصالُ العذابِ إليه بقدرةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

وقد يستدلُّ لهذا أيضًا بأنَّ عمرَ بن الخطابِ قال للنبيِّ ﷺ يوم كلَّم أهلَ القليب: كيف تكلِّمُ أجسادًا لا أرواحَ فيها؟ فلم ينكر النبيُّ ﷺ ذلك، وإنَّما قالَ: «**ما أنتُم بأسمعَ لما أقولُ منهم**» فدلَّ على أنَّ سماعَهُم حصل مع أجسامِهِم والأرواح فيها.

وقد دلَّ القرآنُ على سجودِ الجماداتِ وعلى تسبيحها للَّهِ عزَّ وجلَّ، وخشوعِها له، فدلَّ على أنَّ فيها حياةً وإدراكًا، فلا يمتنعُ مثلُ ذلك في جسدِ ابنِ آدمَ بعد مفارقة الروحِ له، واللَّهُ أعلم.

ويدلُّ على ذلكَ: ما أخبرَ اللَّهُ عن شهاداتِ الجلودِ والأعضاءِ يومَ القيامة وما رُويَ عن ابن عباسٍ في اختصامِ الروحِ والجسدِ يومَ القيامةِ، فيدلُّ على أنَّ الجسدَ يخاصمُ الروحَ ويكلِّمها وتكلِّمُه، وممّا يدلُّ على وقوعِ العذابِ على الأجسادِ، الأحاديثُ الكثيرةُ في تضييقِ القبرِ على الميتِ، حتى تختلفَ أضلاعُهُ، ولأنه لو كانَ العذابُ على الروحِ خاصّةً لم يختصَّ العذابُ بالقبرِ ولم يُنسبْ إليه[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

في قولِه تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر:٢٨] دلَّتْ هذه الآيةُ على إثباتِ الخشيةِ للعلماءِ بالاتفاقِ وعلى نفيِها عنْ غيرِهم على أصح القولينِ، وعلى نفيِ العِلْمِ عنْ غيرِ أهلِ الخشيةِ أيضًا.

---

(١) «أهوال القبور» (١٠٠ ـ ١٠٨).

أما الأول: فلا ريبَ فيه فإنَّ صيغة «إنما» تقتضي تأكد ثبوتِ المذكورِ بالاتِّفاق؛ لأنَّ خصوصيةَ «إنَّ» إفادةُ التأكيد وأمَّا «ما»: فالجمهورُ على أنَّها كافةٌ، ثُمَّ قالَ جمهورُ النحاةِ: هيَ الزائدةُ التي تدخلُ على إنَّ، وأنَّ، وليتَ، ولعلَّ، وكأنَّ، فتكفُّها عن العملِ لأنَّ الأصلَ في الحروفِ العاملة أن تكونَ محضةً فإذا اختصتْ بالاسمِ أو الفعلِ ولم يكنْ كالجزءِ منهُ عملتْ فيه، وإنَّ وأخواتُها مختصةٌ بالاسمِ فتعملُ فيه فإذا دخلتْ عليها «ما» زالتْ اختصاصُها فصارَتْ تدخلُ على الجملة الإسميةِ والفعليةِ فبَطَلَ عملُها وإنَّما عملتْ «ما» النافيةُ على اللغةِ التي نَزَلَ بها القرآنُ وهي لغةُ أهل الحجازِ استحْسانًا لمشَابَهتِها لـ «ليس» وذهبَ بعضُ الكوفيينَ، وابنُ درستويه إلى أنَّ «ما» مع هذه الحروفِ اسمٌ مبهمٌ بمنزلةِ ضميرِ الشأنِ في التفخيمِ والإبهامِ وفي أنَّ الجملةَ بعدَهُ مفسرةٌ له ومخبَرٌ بها عنْهُ، وذهبتْ طائفةٌ من الأصوليينَ وأهلِ البيانِ إلى أنَّ «ما» هذه نافيةٌ واستدلُّوا بذلكَ على إفادتِها الحصرَ.

وأنَّ «إنَّ» أفادت الإثباتَ في المذكورِ، و«ما» النفيَ فيما عداهُ وهذا باطلٌ باتفاقِ أهلِ المعرفةِ باللسانِ فإنَّ «إنَّ» إنما تفيدُ توكيدَ الكلامِ إثباتًا كان أو نفيًا لا يفيدُ الإثباتَ.

و«ما» زائدةٌ كافةٌ لا نافيةٌ وهي الداخلةُ على سائر أخواتِ إنَّ: لكنَّ وكأنَّ وليتَ ولعلَّ، وليستْ في دخولها على هذه الحروفِ نافيةً بالاتفاقِ فكذلكَ الداخلةُ على إنَّ وأنَّ، وقد نُسِبَ القولُ بأنها نافيةٌ إلى أبي علي الفارسي لقولِهِ في كتابِ «الشيرازيات»: إنَّ العربَ عاملُوا «إنما» معاملةَ النفيِّ و«إلا» في فصلِ الضميرِ لقولِهِ:

«وإنَّما يدافعُ عن أحسابِهِم أنا أوْ مِثْلِي».

وهذا لا يدلُّ على أنَّ «ما» نافيةٌ على مـا لا يخفَى وإنَّما مرادُه أنَّهم أجرَوا «إنما» مَجْرى الـنفي و«إلاَّ» في هذا الحكمِ لما فيها مـعنى النفيِ ولم يصرِّحْ بأنَّ النفيَ مسـتفادٌ منْ «مـا» وحْدَهَا، وقيلَ: إنه لا يمتـنعُ أنْ يكون «ما» في هذه الآيةِ بمعنى الذي والعلماءُ خبرٌ والعائدُ مستترٌ في يخشى.

وأُطلقتْ «ما» على جمـاعةِ العقلاءِ كمـا في قولِهِ تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء:٣]، و﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء:٣].

وأما دلالةُ إلا على التأكـيد وهو نفيُ الخشيـةِ عنْ غيرِ العلماءِ فمِنْ صـيغةِ «إنَّما» أمَّـا على قولِ الجـمهورِ وأنَّ «مـا» هي الكافةُ فـيقـولُ إذا دخلتْ «ما» الكافةُ على «إنَّ» أفـادت الحصرَ هذا هو الصحيحُ، وقـدْ حكاهُ بعضُ العلماءِ عن جمـهورِ الناسِ وهو قولُ أصحـابِنا كالقاضي، وابنِ عـقيلٍ، والحلواني، والشيخِ موفق الدين، وفخرِ الدِّين إسماعيلَ بنِ عليٍّ صاحبِ ابن المَنّي، وهوَ قولُ أكثرِ الشافعيةِ كأبي حامدٍ وأبي الطيِّب، والغزالي والهرَّاسي، وقولُ طائفةٍ من الحنفيةِ كالجرجاني، وكثيرٌ من المتكلمينَ كالقاضي أبي بكرٍ، وغيرِهِ، وكثيرٌ من النحـاةِ وغيـرِهِم، بلْ قدْ حكاهُ أبو عليٍّ فـيمـا ذكرَهُ الرازيُّ عن النـحاةِ جـملةً، ولكن اختلفُـوا في دلالتـها على النفـي هلْ هُوَ بطريقِ المنطوقِ، أو بطريقِ المفهوم؟ فقال كثيرٌ من أصحابِنا، كالقاضي في أحدِ قوليه وصاحبُ ابنِ المنّي والشيخُ مـوفَّقُ الدِّين: إنَّ دلالتَها علـى النفي بالمنطوقِ كالاستـثناءِ سواء وهو قولُ أبي حـامدٍ، وأبي الطيِّب منَ الشـافعيـة، والجرجاني من الحنفـية، وذهبتْ طائفةٌ من أصحـابِنا كالقاضِي في قولِهِ الآخـرِ وابنِ عقيلٍ والحلوانيِّ، إلى أنَّ دلالتـهـا على النفي بطريقِ المفـهـومِ وهُوَ قولُ كـثيرٍ من الحـنفيـةِ،

والمتكلمينَ، واختلفُوا أيْضًا هلْ دلالتُها على النفي بطريقِ النَّصِ، أوْ الظاهر؟ فقالتْ طائفةٌ: إنَّما تدلُّ على الحصرِ ظاهِرًا، أو يحتملُ التأكيد، وهذا الذي حكاهُ الآمديُّ عن القاضي أبي بكْرٍ، والغزاليِّ، والهرَّاسيِّ، وغيرِهم من الفقهاء وهُوَ يشبهُ قولَ من يقولُ إنَّ دلالتَها بطريقِ المفهومِ فإنَّ أكثرَ دلالاتِ المفهومِ بطريقِ الظاهرِ لا النَّص، وظاهرُ كلامِ كثيرٍ من أصحابنا وغيرِهم، أنَّ دلالتَها على النَّفي والإثباتِ كليهما بطريقِ النَّصِ لأنَّهم جعلُوا «إنَّما» كالمسْتَثْنى والمستثنى منه سواء وعندهم أنَّ الاستثناءَ منَ الإثباتِ نفْيٌ ومنَ النفيِ إثْباتٌ، نصًّا لا محلاً.

وأمَّا من قالَ: إنَّ الاستثناءَ ليسَ لإثباتِ النقيضِ بَلْ لرفعِ الحُكْمِ إما مطلقًا أوْ في الاستثناءِ منَ الإثباتِ وحده كما يُذكرُ عن الحنفيةِ وجعلُوه من بابِ المفهومِ الذي ينفونَهُ، فهُوَ يقولُ ذلكَ في «إنَّما» بطريقِ الأوْلَى فظَهَرَ بهذا أنَّ المخالفَ في إفادَتِهَا الحصرَ هوَ من القائلينَ بأنَّ دلالتَها على النفيِ بالمفهومِ وهم قسمانِ:

أحدهما: مَنْ لا يَرى كونَ المفهومِ حُجَّةً بالكليةِ كالحنفيةِ، ومَنْ وافقَهُم منَ المتكلمينَ.

والثاني: مَنْ يراهُ حجةً من الجملةِ، ولكنْ ينفيه هَاهُنا لقيامِ الدليلِ عندَهُ على أنَّه لا مفهومَ لها، واختارَهُ بعضُ المتأخرينَ منْ أصحابِنا، وغيرِهم، وبيانُ ذلكَ أنَّ «إنَّما» مركبةٌ منْ «إنَّ» المؤكدةِ و«ما» الزائدة الكافة فيُستفادُ التوكيدُ منْ «إنَّ» والزائدُ لا معنى له نعم أكثرُ ما يُقالُ «إنَّ» تفيدُ تقويةَ التوكيدِ كما في الباءِ الزائدةِ ونحوها، فأمَّا أنْ يُحدثَ معنًى آخرَ فلا، وقد يعدم بيان بطلانِ

قولِ منْ ادَّعى أنَّ «ما» نافية وأنَّ النفيَ فيمَا عدا المذكورِ مُستفادٌ منها.

وأيضًا فورودُها لغيرِ الحصرِ كثيرٌ جدًا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]، وقولِ النبيِّ ﷺ: «إنَّما الرِّبا في النسيئة»[١] وقوله: «إنَّما الشهرُ تسعٌ وعشرونَ»[٢] وغيرِ ذلكَ منَ النصوصِ ويُقالُ: «إنَّما العالمُ زيدٌ» ومثلُ هذا لو أُريدَ به الحصرُ لكانَ هذا، وقد يُقالُ: إنَّ أغلبَ مواردِهَا لا تكونُ فيها للحصرِ فإنَّ قولَهَ تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء:١٧١] لا تفيدُ الحصرَ مُطْلقًا فإنَّه سبحانَهُ وتعالَى لهُ أسماءٌ وصفاتٌ كثيرةٌ غيرَ توحُّدِه بالإلهيةِ، وكذلك قولُهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [فصلت:٦] فإنَّه لم ينحصر الوحيُ إليه في هذا وحده، وكذلكَ قوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد:٧] ومثلُ هذا كثيرٌ جدًّا وممَّا يبيِّنُ عدمَ إفادتِها للحصرِ قولُه ﷺ: «ما منْ نبيٍّ من الأنبياء إلا قد أُوتيَ منَ الآياتِ ما آمنَ على مثله البشرُ، وإنَّما كان الذي أوتيتُهُ وحيًا أوحاهُ اللَّهُ إليَّ، فأرجُو أنْ أكونَ أكثرَهُم تابعًا يومَ القيامة»[٣] فلَوْ كانتْ «إنَّما» للحصرِ لبَطَلَتْ أنْ تكونَ سائرُ آياتِ النبيِّ ﷺ ومعجزاتِه سوى القرآنِ آيات لهُ تدلُّ على صدقه لاعْترافِه بِنَفْي ذلكَ وهذا باطلٌ قطْعًا فدلَّ على أنَّ «إنَّما» لا تفيدُ الحصرَ في مثلِ هذا الكلامِ وشبهِهِ.

والصوابُ: أنَّها تدلُّ على الحصرِ، ودلالَتَها عليه معلومٌ بالاضطرارِ منْ لغةِ العربِ، كما يُعلمُ منْ لغتِهِم بالاضطرارِ معانِي حروفِ الشرطِ والاستفهامِ

---

(١) مسلم (٥/ ٤٩)، والنسائي (٧/ ٢٨١)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٢٠٤).

(٢) أخرجه: البخاري (٣/ ٣٤)، ومسلم (٣/ ١٢٢) من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) البخاري (٦/ ٢٢٤)، (٩/ ١١٣)، ومسلم (١/ ٩٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والنفيِ والنَّهْيِ وغيرِ ذلكَ ولهذا يَتواردُ «إنَّما» وحروفُ الشرطِ والاستفهامُ والنَّفْيُ الاستثناء كما في قولِه تعالى: ﴿**إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الطور:١٦] وقولُه: ﴿**إِنَّمَا إِلهكم إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ [الأنبياء:١٠٨] وقوله: ﴿**إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ [النساء:١٧١]، ﴿**إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [طه:٩٨].فإنَّه كقولِه: ﴿**وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [ص:٦٥] وقولِه: ﴿**مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف:٥٩]، ونحوِ ذلكَ، ولهذا كانتْ كُلُّها واردةً في سياقِ نفْيِ الشركِ وإبطالِ إلهيةِ سوى اللَّهِ سبحانَهُ، وأمَّا أنَّها مركبةٌ من «إنَّ» و«ما» الكافة فمُسلَّمٌ، ولكنَّ قولَهُم إنَّ «ما» الكافةَ أكثرُ ما تفيدُهُ قوةُ التوكيدِ لا تُثْبتُ مَعْنى زائدًا، يجابُ عنهُ مِنْ وجوهٍ:

أحدها: أنَّ «ما» الكافَّةَ قدْ تُثْبتُ بدخولِهَا على الحروفِ معْنىً زائدًا، وقدْ ذكرَ ابنُ مالكٍ أنَّها إذا دَخَلتْ على الباءِ أحدثَتْ معنى التقليلِ، كقولِ الشاعرِ:

فالآن صِرْتَ لا تَحِيدُ جوَابًا　　　بِما قدْ يُرى وأنتَ حَطِيبُ

قالَ: وكذلك تُحدِثُ في «الكافِ» معْنَى التعْليلِ، في نحوِ قولِه تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ**﴾ [البقرة:١٩٨]، ولكنْ قد نُوزِعَ في ذلك وادَّعى أنَّ «الباءَ» و«الكافَ» للسببيةِ، وأنَّ «الكافَ» بمجردِهَا تفيدُ التعليلَ.

والثاني: أن يُقالَ: لا ريبَ أنَّ «إنَّ» تفيدُ توكيدَ الكلامِ، و«ما» الزائدةُ تُقوِّي هذا التوكيدَ وتثبتُ مَعْنى الكلامِ فتفيدُ ثبوتَ ذلكَ المعْنى المذكورِ في اللفظِ خاصةً ثبوتًا لا يشاركه فيه غيرُهُ واختصَاصُهُ به، وهَذا منْ نوعِ التوكيدِ والثبوتِ ليسَ معنىً آخرَ مغايرًا لهُ وهوَ الحصرُ المدَّعى ثبوتُهُ بدخولِ «ما» يخرجُ عنْ إفادةِ قوَّةِ معنى التوكيدِ وليسَ ذلكَ بمُنْكرٍ إذ المستنكرُ ثبوتُ مَعْنى آخرَ بدخولِ الحرفِ الزائدِ منْ غيرِ جنسِ ما يُفيدُهُ الحرفُ الأوَّلُ.

الوجه الثالث: أنَّ «إنَّ» المكفوفةُ «بما» استُعْملتْ في الحصرِ فصارتْ حقيقةً عرفيَّةً فيه، واللفظُ يصيرُ لَهُ بالاستعمالِ مَعْنى غيرَ مَا كانَ يقْتضيه أصلُ الوضعِ، وهكذا يُقالُ في الاستثناءِ فإنَّه وإنْ كانَ في الأصلِ للإخراجِ منَ الحُكْمِ لكنْ صارَ حقيقةً عرفيَّةً في مناقضةِ المستَثْنى فيه، وهذا شبيهٌ بنقلِ اللفظِ عنِ المعنى الخاصِ إلى العامِ إذا صارَ حقيقةً عرفيةً فيه لِقَوْلِهِم «لا أشربُ له شربةَ ماءٍ» ونحوِ ذلكَ، ولنقلِ الأمثالِ السائرةِ ونحوِهَا مما ليسَ هذا موضعُ بَسْطِهِ، وهذا الجوابُ ذكرَهُ أبو العباسِ ابنِ تيميةَ في بعضِ كلامِهِ القديمِ وهوَ يقْتضِي أنَّ دلالةَ «إنَّما» على الحصرِ إنَّما هوَ بطريقِ العُرفِ والاستعمالِ لا بأصلِ وضْعِ اللغةِ، وهو قولٌ حكاهُ غيرُهُ في المسألةِ.

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢].

وقولُهُ ﷺ: «إنَّما الرِّبا في النسيئة»، و«إنَّما الشهرُ تسعٌ وعشرونَ» وقولُهُم: «إنَّما العالِمُ زيدٌ» ونحوُ ذلك، فيُقالَ: معلومٌ منْ كلامِ العربِ أنَّهم ينفونَ الشيءَ في صِيغِ الحصْرِ وغيرِهَا تارةً لانتفاءِ ذاتِه وتارةً لانتفاءِ فائدتِه ومقصودِه، ويحصرونَ الشيءَ في غيرِه تارةً لانحصارِ جميعِ الجنسِ فيه وتارةً لانحصارِ المفيدِ أو الكاملِ فيه، ثمَّ إنَّهم تارةً يعيدونَ النفيَ إلى المسمَّى وتارةً إلى الاسمِ وإنْ كان ثابتًا في اللغةِ إذا كان المقصودُ الحقيقيُّ بالاسْمِ منتَفِيًا عنه ثابتًا لغيرِه لقولِه تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة:٦٨]، فنَفَى عنهُم مسمَّى الشيءِ معَ أنَّه في الأصلِ شاملٌ لكلِّ موجودٍ مِنْ حقٍّ وباطلٍ كما كانَ ما لا يفيدُ ولا منفعةَ فيه يَؤُولُ إلى الباطلِ الذي هو العدمُ فيصيرُ بمنزلةِ المعدومِ بلْ قدْ يكونُ أولَى بالعدمِ منْ المعدَمِ المستمرِ عدمُهُ لأنَّه قدْ يكونُ فيه ضررٌ فمنْ قالَ الكذبَ فلم يَقُل شيئًا

ولم يعملْ ما ينفعُهُ بلْ مـا يضرُّه، ولهذا لمَّا سُئِلَ النبيُّ ﷺ عن الكفارِ فقالَ: «ليسُوا بشيءٍ»[١] ، ويقولُ أهلُ الحديثِ عنْ بعضِ الرواةِ المجروحينِ والأحاديثِ الواهيةِ: «ليسَ بشيءٍ» إذا لم يكنْ مما يُنتفعُ بِهِ في الروايةِ لظهورِ كذبِهِ عـمْدًا أوْ خطأً، ويقال أيضًـا لمن خرجَ عنْ موجبِ الإنسانيةِ فـي الأخلاقِ ونحوِهَا: هذا ليسَ بآدميٍّ ولا إنسانٍ وما فيه إنســانية، ومنه قولُ النِّسوَةِ في يوسفَ عليه السلامُ: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١] ، وكذلكَ قـولُ اللَّه تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦] وقولُ النبيِّ ﷺ: «ليس المسكينُ بهـذا الطوَّافُ الذي تردُّه اللقمةُ واللقْـمتان والتـمرةُ والتمرتانِ إنَّما المسكينُ الذي لا يجد ما يُغنيه ولا يُفْطَنُ له فيُتصدَّقُ عليه ولا يسْألُ الناسَ إلْحافًا»[٢] وكذلك قال: «ما تعـدُّونَ المفلسَ فيكُم؟» قالُوا: الذي لا دِرْهَم له ولا دِينار قالَ: «ليس ذلكَ بالمفلسِ، ولكنَّ المفـلسَ من يأتي يومَ القيـامةِ بحـسناتٍ أمثـالِ الجبالِ ويـجيءُ وقد شتمَ هذا وضرَبَ هذا وأخـذَ مالَ هذا فيأخُـذُ هذا منْ حسناته وهذا منْ حسَنَاتِهِ فإذا لم يتبقَّ لَهُ حسنةٌ أُخِذَ منْ سيئـاتِهِم فطُرِحَتْ عليه ثمَّ أُلقي في النارِ»[٣] وقالَ: «ما تعُدُّون الرقوبَ فيكُم؟» قالُوا: الرقوبُ منْ لا يُولدُ لهُ. قال: «الرقوبُ منْ لم يُقدِّم منْ ولدِهِ شيئًا»[٤] .

وكذلك قولُهُ ﷺ: «ليسَ الشـديد بالصُّرعةِ ولكنَّ الـشديدَ الذي يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ»[٥] وقولُهُ ﷺ: «ليسَ الغنَى عن كثْرةِ العَرَضِ وإنَّما الغنَى غِنَى النَّفْسِ»[٦] .

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ٥٨)، ومسلم (٧/ ٣٥) من حديث عائشة ﵂.
(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ١٥٣)، ومسلم (٣/ ٩٥) من حديث أبي هريرة ﵁.
(٣) أخرجه: مسلم (٨/ ١٨) من حديث أبي هريرة ﵁.
(٤) أخرجه: مسلم (٨/ ٣٠) من حديث عبد اللَّه بن مسعود.
(٥) أخرجه: البخاري (٦/ ٣٤)، ومسلم (٨/ ٣٠) من حديث أبي هريرة ﵁.
(٦) أخرجه: البخاري (٨/ ١١٨)، ومسلم (٣/ ١٠٠) من حديث أبي هريرة ﵁.

وأمثـالُ ذلك، فهذا كلُّـه نفيٌ لحقيـقةِ الاسمِ منْ جهَـةِ المُضِيِّ الذي يجب اعتبارُه، فـإنَّ اسمَ الرقوبِ والمفلسِ والغني والشديدِ ونحوِ ذلك إنَّما يـتعارفُه الناسُ فيمنْ عَدِمَ مالَهُ وولدَهُ أوْ حصلَ له مالٌ أو قوَّةٌ في بدنه، والنفوسُ تجزعُ من الأوَّلَيْن وترغب في الآخرَيْنِ، فـيعتـقدُ أنَّه هو المستـحقُّ لهذا الاسمِ دونَ غيرِه فبيَّن ﷺ أنَّ حقيقةَ ذلك المعْنَى ثابتةٌ لغـير هذا المتوهمِ على وجْهٍ ينبغي بعلو الاعتقاد والقصدِ بذلكَ الغيـرِ فإنَّ مَنْ عدمَ المالَ والولدَ يومَ القيامةِ حيثُ يضرُّ عدمُهُ أحقُّ باسمِ المفلس والرقوبِ ممن يُعدمهُمَا حيثُ قدْ لا يتضرر بذلكَ تضررًا معتبرًا ولذلك وجـودُ غِنى النفسِ وقوتها أحقُّ بالمدحِ والطلبِ منْ قوةِ البدنِ وغِنَى المـالِ وهكذا قولُه ﷺ: **«إنَّمـا الرِّبَا في الـنسـيـئـةِ»** أوْ لا **«ربَا إلا في النسيئة»**. فإنَّ الرِّبَا العام الشاملُ للجنسينِ، والجنسُ الواحدُ المتـفقةُ صفاتُهُ إنَّما يكونُ في النسيـئةِ وأمَّا ربَا الفضلِ فلا يكونُ إلا في الجنـسِ الواحدِ ولا يفعلُهُ أحدٌ إلا إذا اختلفت الصـفاتُ، كالمضروب بالتِّبْرِ، والجيـدِ بالرديءِ، فأمَّا مع استواءِ الصفاتِ فلا يبيعُ أحـد درْهمًا بدرهمينِ، وأيضًا فربَا الفضلِ إنَّما حُرِّمَ لأنه ذريعةٌ إلى ربا النسيئة كما في «المسند»[1] عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«لا تبيعُوا الدرهمَ بالدرهمين؛ إنِّي أخافُ عليكُمُ الرِّبا»**.

فالرِّبَا المقصود بـالقصد الأولِ هُوَ رِبَا النسيئةِ، فإذا بِيعَ مـائةٌ بمائة وعشرينَ مع اتِّفاقِ الصفـاتِ ظهرتْ أن الزِّيادةَ قابلتِ الأجلَ الذي لا منفعة فـيه وإنَّما دخل فيه للحاجة، ولهذا لا يضمنُ الآجالَ باليد فلو بقيت العينُ في يَدِه، أو المالُ في ذمتهِ مدةً لم يضمن الأجلَ بخلافِ زيادة الصـفةِ؛ فإنَّها مضمونةٌ في الإتلافِ والغصْبِ وفي المبيعِ إذا قابلتْ غيرَ الجنسِ، فلهذا قِيلَ: إنَّما الرِّبا في

(١) «المسند» (٢/ ١٠٩) من حديث عبد اللَّه بن عمر ﷺ.

النَّسيئةِ ولا رِبَا إلا في النسيئةِ، فـإنَّ المستحقَّ لاسم الرِّبا في الحقـيقةِ هو رِبَا النسيـئةِ ولذلكَ نَفى الأسماءَ الشـرعيةَ لانتـفاءِ بعضِ واجباتِهَـا لقولِه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ..﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:٢-٤] فهؤلاءِ همُ المستحقونَ لهذا الاسمِ على الحقيقةِ الواجبةِ دونَ منْ أخلَّ بشيءٍ من واجباتِ الإيمانِ والإسلامِ عمن انتفَى عنهُ بعضُ واجباتِهما لقولِهِ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[(١)] الحديث، وقولِهِ: «المسلمُ مَنْ سلِمَ المسلمونَ من لسـانِه ويدِه، والمهاجرُ من هَجَـرَ ما نهى اللّه عنه»[(٢)] وقولِه: «المؤمن من أمنَهُ الناس على دمائِهم وأمـوالِهم، والمجاهدُ من جاهدَ نفـسَهُ في ذاتِ اللّه»[(٣)]، ومثلُ هذا كثيـرٌ، وكذلك قولُهُ ﷺ: «إنَّما الشـهرُ تسْعٌ وعـشرون» فإنَّ هذا هـو عددُ الشَّـهـرِ اللازمِ الدائمِ، واليـومُ الزائدُ على ذلكَ أمـر جـائزٌ يكونُ في بعضِ الشهورِ ولا يكونُ في بعضِها، بخلافِ التـسعةِ والعشرين، فإنَّه يجبُ عددُها واعتبـارُها بكلِّ حالٍ، وهذا كما يُقال: الإسـلامُ شهادةُ أن لا إله إلا اللّهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللّه.

فهذا هو الذي لا بدَّ منه، وما زاد على ذلك فقدْ يجبُ على الإنسانِ، وقد يموتُ قبلَ التمكنِ، فلا يكونُ الإسلامُ في حقِّه إلاما تكلَّمَ به، وحاصلُ الأمرِ أنَّ الكلامَ الخبريَّ هو إمَّا إثباتٌ أو نفيٌ فكمـا أنهم في الإثباتِ يثبتونَ للشيءِ اسمَ الشيءِ إذا حصلَ فيه مقـصودُ الاسمِ وإن انتفتْ صورةُ المسمَّى، فكذلكَ

---

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ١٧٨)، (٧/ ١٣٦)، (٨/ ١٩٥ ـ ١٩٧)، ومسلم (١/ ٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ٩)، (٨/ ١٢٧) من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص ﷺ.

(٣) أخـرجه: أحـمد (٢/ ٣٧٩)، والتـرمـذي (٢٦٢٧)، والنسائي (٨/ ١٠٤ ـ ١٠٥) من حـديث أبي هريرة ﷺ.

في النَّفي، فإنَّ أدواتِ النَّفي تدلُّ على انتفاءِ الاسمِ بانتفاءِ مسمَّاه فذلك، تارةً لأنه لم يُوجدْ أصلاً، وتارةً لأنه لم توجدِ الحقيقةُ المقصودةُ بالمسمَّى، وتارةً لأنه لم تكنْ تلكَ الحقيقةُ، وتارةً لأن ذلك المسمَّى مما لا ينبغي أنْ يكونَ مقصودًا بل المقصودُ غيرُه، وتارةً لأسبابٍ أُخرَ وهذا كلُّه إنَّما يظهرُ من سياقِ الكلامِ وما اقترنَ به من القرائنِ اللفظية التي لا تخرجُهُ عن كونِهِ حقيقةً عندَ الجمهورِ ولكونِ المركبِ قد صارَ موضوعًا لذلكَ المعْنى، أوْ مِنَ القرائنِ الحاليةِ التي تجعلُه مجازًا عند الجمهور، وأمَّا إذا أطلقَ الكلامُ مجرَّدًا عن القرينتينِ فمعناهُ السلبُ المطلقُ وهوَ أكثرُ الكلامِ وهذا الجوابُ ملَّخصٌ من كلامِ شيخِ الإسلام أبي العباسِ ابن تيمية ـ رحمه اللَّه.

وأما قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء:١٧١]، وقولُهُ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد:٧]، ونحو ذلك، فالجواب عنهُ أن يُقال: الحصر تارةً يكونُ عامًا كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [طه:٩٨] ونحوِ ذلك، وتارةً يكونُ خاصًّا بما يدلُّ عليه سياقُ الكلامِ فليسَ الحصرُ أن ينفيَ عن الأوَّل كل ما سوى الثاني مطلقًا، بلْ قد ينفِي عنه ما يُتوهَمُ أنه ثابتٌ لهُ مِنْ ذلك النوعِ الذي أثبتَ له في الكلامِ.

فقولُه: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء:١٧١] فيه نفيُ تعددِ الإلهيّةِ في حقِّه سبحانَهُ وأنَّه لا إله غيره، ليسَ المرادُ أنه لا صفةَ له سوى وحدانيةِ الإلهيةِ، وكذلك قولُهُ: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠] فإنَّ المرادَ به أنه لم يُوحَ إليَّ في أمرِ الإلهيةِ إلا التوحيدَ لا الإشراكَ.

والعجبُ أنَّ أبا حيَّان الأندلسيّ أنكر على الزمخشريِّ ادعاءَه الحصرَ في هذه الآيةِ لاستلزامهِ عندَهُ أنَّه لم يوحَ إليه غيرَ التوحيدِ، قالَ: لأنَّ الحصرَ إنما

يلقى من جهة: «أنما» المفتوحةِ الهمزةِ، قالَ: ولا يُعرفُ القولُ بإفادتها الحصرَ إلا عندَ الزمخشريِّ وحده.

وردَّ ذلك عليه شيخُنا أبو محمـدِ بنِ هشامٍ بناءً على أنَّ (أنَّ) المفتوحةَ فرعٌ عن «إن» المكسورةِ على الصحيحِ، قال: ولهذا صحَّ للزمخشريِّ أن يدَّعي أنها تفيدُ الحصرَ «إنَّما» انتهى.

وهذا كلُّه لا حاجةَ إلـيه في هذه الآيةِ فإنَّ الحصرَ مـستفادٌ فـيها مِنْ «إنما» المكسـورةِ التي في أولِ الآيةِ فلو فـرض أن «أنما» المفتوحةَ لا تفـيدُ الحصرَ لم ينتفِ بذلكَ الحصـرُ في الآيةِ على ما لا يخْفى، وكذلكَ قـولُهُ تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ**﴾ [الرعد:٧] أي لستَ ربًّا لهم ولا مُجازيًا ولا محـاسبًا، وليسَ عليكَ أن تجـبرَهُم على الإيمانِ، ولا أن تتكلفَ لـهم طلبَ الآياتِ التي يقتـرحونَهـا عليكَ ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ**﴾ [الرعد:٧] فليسَ عليكَ إلا الإنذارُ، كمـا قال: ﴿**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ**﴾ [الرعد:٤٠] وقالَ: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ**﴾ [الغاشية:٢١، ٢٢].

ومنْ هَا هُنا يظهرُ الجوابُ عن قولِه: «**إنما كان الذي أوتيتُه وحيًا أوحاهُ اللَّهُ إليَّ**» فإنَّه قالَ: «**ما منْ نبيٍّ إلا وقد أُوتي من الآيات ما آمنَ على مثله البشرُ، وإنَّما كانَ الذي أوتيتُه وحيًا أوحاهُ اللَّهُ إليَّ، فأرجُو أنْ أكونَ أكثرُهم تابعًا يومَ القيامة**»[1] فالكلامُ إنما سِيقَ لبيانِ آياتِ الأنبياءِ العظامِ الذي آمن لهم بسببها الخَلْقُ الكثيرُ، ومعلومٌ أن أعظمَ آياتِ النبيِّ ﷺ التي آمن عليهـا أكثرُ أُمَّتـهِ هي الوحيُ وهوَ الذي كان يدعو به الخلقَ كلَّهم، ومنْ أسلمَ في حـياتِه خوفًا فأكـثرُهم دخلَ الإيمانُ في قلبِه بعد ذلك بسببِ سماعِ الوحي لمسلـمي الفتحِ وغيرِهِم، فالنفيُ توجَّه إلى

---

(١) تقدم تخريجه.

أنه لم تكنْ آياتُهُ التي أوجبتْ إســلامَ الخلقِ الكثيرِ من جنسِ ما كــانِ لمن قبله مثلَ ناقــةِ صالحٍ وعصــا موسى ويدِه وإبراءِ المســيحِ الأكمه والأبرصَ وإحــياءِ الموتى ونحو ذلك، فــإنَّ هذه أعظمَ آياتِ الأنبيــاءِ قبلَه وبها آمن البــشرُ لهم، وأمَّا آيتُه هو ﷺ التي آمنَ البشرُ عليها في حياتِه وبعدَ وفاتِه فهيَ الوحيُ التي أُوحِي إليه وهيَ التــي توجبُ إيمانَ البشرِ إلى يومِ القــيامــةِ كما قــال تعالى: ﴿**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ**﴾ [الأنعام:١٩] ولهذا قــيل: إنَّ آياتِ الأنبياءِ انقطعتْ بموتِهِم وآياتِه ﷺ باقيةً إلى يومِ القيــامةِ، ومما يبيِّنُ أنَّ الحصرَ لم ينتفِ عنْ «إنَّما» في شيءٍ من هذه الأنواعِ التي توهمُــوها، أنَّ الحصــرَ قد جاءَ فيها وفي مــثلِها بإلاَّ كما جاء بـ«إنَّما» فإنه جاء «**لا ربا إلا في النسيــئة**» كما جاء «**إنما الربا في النسيئة**» وجاءَ في القرآن ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ [آل عمران:١٤٤]، كما جاء: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ**﴾ [الرعد:٧] وكذلك قوله: ﴿**مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ [المائدة:٧٥].

ومثلُ ذلك كثيرٌ فهذا وجهُ إفادتِهَا الحصر في هذهِ الآيةِ على القولِ المشهور وهو «إنما» في قولِهِ: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر:٢٨] هي الكافةُ، وأما على قولِ منْ جعلَهَا موصولةً فتــفيدُ الحصرَ منْ جهةٍ أُخرى وهو أنَّها إذا كانتْ موصولةً فتقديرُ الكلامِ «إن الذين يخشون الله هم العلماء» وهذا أيضًا يفيدُ الحــصرَ؛ فإنَّ الموصولَ يقتــضي العمومَ لتعــريفِهِ، وإذا كان عامًّا لزمَ أنْ يكونَ خبرُهُ عامًّا أيضًــا لئلا يكونَ الخــبرُ أخــصَّ من المبتــدأ، وهذا النوعُ من الحصرِ يسمَّى حــصرَ المبتدأ في الخبرِ، ومــتى كان المبتدأ عامًّا فلا ريبَ إفادتهُ الحصرَ، وأمَّا دلالة الآيةِ على الثالثِ، وهو نفي العلمِ مــن غيرِ أهلِ الخشيةِ، فمن جهةِ الحصرِ أيضا فإنَّ الحصرَ المعروفَ المطردَ فهو حصرُ الأولِ في الثاني،

وهو هَاهُنا حصرُ الخشـيةِ في العلماءِ، وأما حصرُ الثـاني في الأولِ فقد ذكره الشيخُ أبو العباسِ ابنِ تيـمية ـ رحمه اللَّه ـ وأنه قدْ يكونُ مرادًا أيضًـا فيصيرُ الحصـرُ من الطرفينِ ويكونانِ متلازمينِ، ومـثـلُ ذلك كـقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس:١١]، و﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات:٤٥]، و﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة:١٥، ١٦] قالَ: وكذلك الحصـرُ في هذه الآيةِ أعني قولِه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فتقتضي أنَّ كلَّ من خشيَ اللَّهَ فهو عالِمٌ، وتقتضي أيضًا أنَّ العالِمَ منْ يخشى اللَّهَ، وبيانُ الحصرِ الذي ذكره الشيخُ ـ رحمه اللَّه ـ في هذهِ الآياتِ أنَّ قولَه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس:١١] فيه الحـصرُ من الطرفينِ، فـإن اقتـضى أن إنذارَهُ مـخـتصٌّ بمن اتبع الذكـر وخشيَ الرحـمنَ بالغيبِ فـإن هذا هو المختصُّ بقبولِ الإنذارِ، والانتـفاعِ به فلذلك نفَى الإنذارَ عن غيرِهِ، والقرآنُ مملوءٌ بأنَّ الإنذارَ إنما هو للعاقلِ له خاصةً، ويقتضي أنه لا يتبعُ الذكرَ ويخشى الرحمنَ بالغيبِ إلا منْ أنذره أيْ مَنْ قَبِلَ إنذارَهُ وانتفعَ به فإنَّ اتباعَ الذكرِ، وخشيةَ الرحمنِ بالغيبِ مختصةٌ بمن قَبِلَ الإنذارَ كما يختصُ قبولُ الإنذارِ والانتفاعُ بأهلِ الخشيةِ واتباعِ الذكرِ.

وكذلك قولُه: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات:٤٥] وقولُه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ [السجدة:١٥] الآية فإن انحصارَ الإنذارِ في أهلِ الخشيةِ، كانحصارِ أهلِ الخشيةِ في أهلِ الإنذارِ، والذين خرُّوا سجدًا في أهلِ الإيمانِ ونحوِ ذلك فكذلكَ قولُه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وقد فسَّرها السلفُ بذلك أيضًا كما سنذكرُهُ ـ إن شاءَ اللَّهُ تعالى ـ ونذكرُ شواهدَهُ.

وهَاهُنا نكتـةٌ حـسنةٌ، وهيَ أنَّ قـولَهُ تعـالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قد عُلِمَ أنه يقـتضي ثبوتَ الخشيـةِ للعلماءِ للرهلِ[1] يقتضِي ثبوتَها لجنسِ العلمـاءِ، كـما يُقـال: إنما يحج المسلمـونَ، أو: لا يحج إلا مـسلم، فيقـتضي ثبوتَ الحجّ لجنسِ المسلمينَ لا لكلٍّ فردٍ فردٍ منهم أو يقـتضي ثبوتَ الخشيةِ لكلٍّ واحدٍ من العلماءِ، هذا الثاني هو الصحيحُ وتقريرُه من جهتين:

الجهة الأولى: أن الحصرَ هَاهُنا من الطرفينِ، حصـرُ الأول في الثاني وحصرُ الثاني في الأول، كما تقدَّم بيانُه، فحصْـرُ الخشيةِ في العلماءِ يفيدُ أنَّ كلَّ من خشيَ اللَّهَ فهو عالِمٌ وإنْ لم يُفِدْ لمجردِهِ أنَّ كلَّ عالِمٍ فهو يخشى اللَّهَ وتفيدُ أنَّ من لا يخشى فليسَ بعالمٍ، وحصْرُ العلماءِ في أهلِ الخـشيةِ يفيدُ أنَّ كلَّ عالِمٍ فهو خاشٍ، فاجـتمعَ من مجموعِ الحصرينِ ثبوتُ الخـشيةِ لكلِّ فردٍ من أفرادِ العلماءِ.

والجهة الثانية: أن المحصورَ هلْ هوَ مـقتضٍ للمحصورِ فـيه أوْ هوَ شرطٌ له؟ قال الشيخُ أبو العباس ـ رحمه اللَّه ـ: وفي هذه الآيةِ وأمثالها هو مقتضٍ فهو عامٌّ فـإنَّ العلمَ بما أنذرتْ به الرسلُ يوجبُ الخوفَ، ومرادُه بالمقـتَضي ـ العلة المقتضيةَ ـ وهي التي يتوقفُ تأثيرُها على وجودِ شروطٍ وانتفاءِ موانعَ كأسبابِ الوعدِ والوعـيدِ ونحوِهمـا فإنها مقـتضيـاتٌ وهي عامةٌ، ومرادُهُ بالشـرطِ ما يتوقفُ تأثيـرُ السببِ عليه بعـد وَجودِ السببِ وهو الذي يلزمُ من عدمـهِ عدمُ المشروطِ ولا يلزمُ من وجـودِهِ وجودُ المشروطِ، كالإسلامِ بالنـسبةِ إلى الحجِّ، والمانعُ بخلافِ الـشرطِ، وهوَ ما يلزمُ من وجـودِهِ العدمُ ولا يلزمُ من عـدمه الوجودُ وهذا الفرقُ بين السببِ والشـرطِ وعدمِ المانِعِ إنَّما يتمُ على قولِ من

(١) كذا بالأصل، ولعل الصواب: «للرب فهل».

يُجوِّزُ تخصيصَ العلةِ وأما من لا يُسمِّي علةً إلا ما استلزمَ الحكمَ ولزمَ من وجودِها وجودُه على كلِّ حالٍ، فهؤلاءِ عندهم الشرطُ وعدمُ المانعِ من جملةِ أجزاءِ العلةِ، والمقصودُ هنا أنَّ العلمَ إذا كان سببًا مقتضيًا للخشيةِ كان ثبوتُ الخشيةِ عامًا لجميعِ أفرادِ العلماءِ لا يتخلفُ إلا لوجودِ مانعٍ ونحوهِ.

وقد تقدَّم بيانُ دلالةِ الآية على أنَّ منْ خَشِي اللَّهَ وأطاعه وامتثل أوامره واجتنب نواهيه فهو عالِمٌ لأنه لا يخشاه إلا عالِمٌ، وعلى نفي الخشيةِ عن غيرِ العلماءِ، ونفي العلْمِ عن غير أولي الخشيةِ أيضًا، وأنَّ من لم يخشَ اللَّهَ فليسَ بعالِمٍ وبذلك فسَّرها السلفُ.

فعنِ ابنِ عباسٍ قال: «يريدُ: إنما يخافُني مِنْ خلقِي مَنْ عَلِمَ جبروتِي وعزَّتي وجَلالِي وسلْطَاني».

وعنْ مجاهدٍ والشعبيِّ: «العالِمُ من خافَ اللَّهَ».

وعن ابنِ مسعودٍ قالَ: «كفى بخشيةِ اللَّهِ علمًا وكفَى بالاغترارِ باللَّهِ جهلاً».

وذكرَ ابنُ أبي الدنيا عن عطاءٍ الخراسانيِّ في هذه الآيةِ: «العلماءُ باللَّهِ الذين يخافونَهُ».

وعن الربيع بنِ أنسٍ في هذه الآيةِ قالَ: منْ لم يخشَ اللَّهَ فليسَ بعالِمٍ، ألا ترى أنَّ داود قال: ذلكَ بأنَّك جعلتَ العلمَ خشيتَكَ، والحكمةَ والإيمانَ بك وما عَلِمَ منْ لم يخشَكَ وما حكم من لم يؤمنْ بك .

وعن الربيعِ عن أبي العاليةِ في قولِه تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٦٩]. قال: «الحكمةُ الخشيةُ فإنَّ خشيةَ اللَّهِ رأسُ كلِّ حكمةٍ».

وروى الدارميُّ من طريقِ عكرمة عن ابنِ عباسٍ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: «مَنْ خشيَ اللَّهَ فهو عالمٌ».

وعن يحيى بن جعدةَ، عن عليٍّ قالَ: «يا حملةَ العلمِ، اعملُوا به فإنَّما العالمُ من عملَ بما علمَ فوافقَ علمهُ عملَه، وسيكونُ أقوامٌ يحملونَ العلمَ ولا يجاوزُ تراقيهم، يخالفُ علمهُم عملَهم، وتخالفُ سريرتُهم علانيتَهم، يجلسونَ حِلَقًا فيُباهي بعضُهم بعضًا، حتَّى إنَّ الرجلَ ليغضبُ على جليسِه أنْ يجلسَ إلى غيرِه ويدعَهُ، أولئك لا تصعدُ أعمالُهم في مجالسِهِم تلكَ إلى اللَّه عزَّ وجلَّ».

وعن مسروقٍ قالَ: «كفى بالمرءِ علمًا أن يخشى اللَّهَ عزَّ وجلَّ وكفى بالمرءِ جهْلاً أنْ يُعجبَ بعلمه».

وعن ابنِ عمرَ ﷺ قالَ: «لا يكونُ الرجلُ عالمًا حتَّى لا يحسدَ من فوقَهُ ولا يحقرَ من دونَهُ، ولا يبتغي بعلمهِ ثمنًا»، وعن أبي حازمٍ نحوه.

منه قولُ الحسنِ: «إنما الفقيهُ الزاهدُ في الدُّنيا، الراغبُ في الآخرةِ، البصيرُ بدينِه، المداومُ على عبادةِ ربِّه».

وعن عبيدِ اللَّهِ بنِ عمرَ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ سألَ عبدَ اللَّهِ بنَ سلامٍ: «مَنْ أربابُ العلمِ؟ قال: الذين يعملونَ بما يعلمُونَ».

وقال رجلٌ للشعبيِّ: أفتني أيها العالم فقال: «إنما العالمُ من يخافُ اللَّهَ».

وعن الربيعِ بنِ أنس عن بعضِ أصحابِهِ قال: «علامةُ العلمِ: خشيةُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ».

وسئلَ سعدُ بنُ إبراهيم: من أفقهُ أهلِ المدينة؟ قال: «أتقاهم لربِّه».

وسئل الإمامُ أحمدُ عن معروفٍ، وقيلَ له: هلْ كان معه علمٌ؟ فقال: «كان معه أصلُ العلمِ، خشيةُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ».

ويشهد لهذا قولُه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، وكذلك قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧].

وقولُهُ: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقولُهُ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٩].

قال أبو العاليةَ: «سألتُ أصحابَ محمدٍ عن هذه الآيةِ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧]، فقالُوا: كلُّ منْ عَصَى اللَّهَ فهو جاهلٌ، وكلُّ من تاب قبلَ الموتِ فقدْ تابَ من قريبٍ».

وعن قتادةَ قالَ: «أجمع أصحابُ رسولِ اللَّهِ ﷺ على أنَّ كلَّ من عصى ربَّه فهو جاهلٌ جهالةً، عمدًا كان أو لم يكنْ، وكلُّ من عَصَى ربَّه فهو جاهلٌ».

وقال مجاهدٌ: «منْ عملَ ذنبًا من شيخٍ أو شابٍ فهو بجهالةٍ»، وقالَ أيضًا: «من عصى ربَّه فهو جاهلٌ حتى ينزعَ عن معصيتِهِ»، وقال أيضًا: «من عملَ سوءًا خطأً أو إثمًا فهو جاهلٌ حتى ينزعَ منه»، وقال أيضًا هو وعطاء: «الجهالةُ: العمدُ»، رواهنَّ ابنُ أبي حاتمٍ وغيرُه، وقال: ورُوي عن قتادةَ،

وعمرِو بنِ مرةَ، والثوريِّ نحو ذلك.

ورُوي عن مجاهدٍ، والضحاكِ، قالا: «ليسَ من جهالتِه أن لا يعلَمَ حلالاً ولا حرامًا، ولكن مِنْ جهالتِه حينَ دخلَ فيه».

وقال عكرمةُ: «الدنيا كلُّها جهالةٌ».

وعن الحسنِ البصريِّ أنَّه سُئلَ عنها فقال: «هم قومٌ لم يعلمُوا ما لهم مما عليهم، قيل له: أرأيتَ لو كانوا علموا؟ قال: فليخرجُوا منها فإنها جهالةٌ».

ومما يبيِّنُ أنَّ العلمَ يوجبُ الخشيةَ وأنَّ فقدَهُ يستلزمُ فقْدَ الخشيةَ وجوه:

إحداها: أن العلم باللَّه تعالى وما لَـهُ من الأسماءِ والصفات كالكبرياء والعظمةِ والجبروتِ، والعزةِ وغيرِ ذلك يوجبُ خشيتَـهُ، وعدمُ ذلك يستلزمُ فقْدَ هذه الخشيةِ، وبهذا فسَّرَ الآيةَ ابنُ عباسٍ، فقال: «يريدُ إنما يخافني مَنْ علِمَ جبروتِي، وعِزَّتي، وجلالِي، وسلْطَاني»، ويشهدُ لهذا قولُ النبيِّ ﷺ: «**إني لأعلمكم باللَّهِ وأشدُّكم له خشيةً**»[1] وكذلك قولُهُ ﷺ: «**لو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتُم قليلاً ولبكيتُم كثيرًا**»[2] وفي «المسند» وكتابِ الترمذيِّ وابنِ ماجه[3] منْ حديثِ أبي ذرٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إني أرَى ما لا ترونَ وأسمعُ ما لا تسمعونَ، إنَّ السماءَ أطَّتْ وحُقَّ لها أن تئطَّ، ليسَ فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلا وملكٌ واضعٌ جبهتَهَ ساجدٌ للَّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ واللَّه لو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتُم قليلاً ولبكيتُم كثيرًا، وما تلذذتُم بالنساءِ على الفُرشِ، ولخرجتُم إلى الصعداتِ تجأرونَ إلى اللَّه عزَّ**

(١) أخرجه: البخاري (٧/ ٢)، ومسلم (٤/ ١٢٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٩ ـ ٨٢)، (٦/ ٦٨ ـ ٦٩)، (٧/ ٤٥)، (٨/ ١٦٠)، ومسلم (٣/ ٢٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠).

وجلّ»، وقال الترمذيُّ: حسنٌ غريبٌ.

قال: ويُروى عن أبي ذرٍ موقوفًا وذكر أبو نعيمٍ وغيرُه بالإسنادِ عن ابنِ عباسٍ، أنه قالَ للنفرِ الذين كانوا يختصمون ويتمارون: «أو ما علمتُم أنَّ للَّه عبادًا أصمتَتْهم خشيةُ اللَّهِ من غير بكمٍ ولا عَيٍّ، وإنهم لَهُمُ العلماءُ والفصحاءُ والطلقاءُ والنبلاءُ، العلماءُ بأيامِ اللَّه غيرَ أنهم إذا تذكَّروا عظمةَ اللَّهِ طاشتْ لذلكَ عقولُهم، وانكسرتْ قلوبُهم، وانقطعتْ ألسنتُهم، حتَّى إذا استفاقُوا من ذلك، تسارعُوا إلى اللَّه عزَّ وجلَّ بالأعمالِ الزكيَّةِ، يعدونَ أنفسهم مع المفرطين، وإنهم لأكياسٌ أقوياءُ مع الظالمينَ والخاطئين، وإنهم لأبرارٌ بُرءاءُ، إلا أنهم لا يستكثرونَ إلا الكثيرَ، ولا يرضونَ له بالقليلِ، ولا يدلون عليه بالأعمالِ هم حيثُ ما لقيتموهُم مهتمُّونَ مشفقونَ وجِلُونَ خائفون».

وروى ابنُ أبي الدنيا أثرًا عن زنادِ بن أبي حبيبٍ أنه بلغه: «أن من حملةِ العرشِ من سالَ من عينه أمثالُ الأنهارِ من البكاءِ فإذا رفعَ رأسَهُ قالَ: سبحانَك ما تُخشى حقَّ خشيتِكَ، قال تعالى ذكرُه: لكن الذين يحلفونَ باسمي كاذبين لا يعلمونَ ذلك».

وعن يزيد الرقاشيِّ قالَ: «إن للَّه تبارك وتعالى ملائكةً حول العرشِ، تجري أعينهم مثلَ الأنهارِ إلى يومِ القيامةِ، يميدونَ كأنَّهم ينفضهم الريحُ من خشيةِ اللَّهِ، فيقول الربُّ عزَّ وجلَّ: يا ملائكتي، ما الذي يُخيفكُم وأنتم عِنْدِي؟ فيقولون: يا ربِّ، لو أنَّ أهلَ الأرضِ اطَّلعوا من عزَّتك وعظمتكَ على ما اطَّلعنا عليها، ما أساغوا طعامًا ولا شرابًا، ولا انبسطُوا في فُرُشِهِم، ولخرجُوا إلى الصَّحاري يخورونَ كما تخورُ البقرُ». ومثل هذا كثيرٌ جدًّا،

والمقصود أنَّ العلمَ باللَّهِ وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه منْ قدرِه، وخلقِه، والتفكيرَ في عـجـائبِ آياتـهِ المسـموعـةِ المتلوةِ، وآياتِه المشـاهدةِ المرئـيـةِ من عجـائبِ مصنوعاتِهِ، وحِكَمِ مبتدعاتِهِ ونحو ذلك مما يوجبُ خشيتَهُ وإجلالَهُ، ويمنعُ من ارتكابِ نهيِهِ، والتفريطِ في أوامـرِهِ؛ هو أصلُ العلمِ النافعِ، ولهذا قال طائفةٌ من السلفِ لعمـرَ بنِ عبدِ العـزيزِ وسفيان بن عـيينةَ: «أعجبُ الأشـياءِ قلبٌ عَرَفَ ربَّه ثمَّ عصاهُ».

وقال بشرُ بنُ الحارثِ: «لو يفكرُ الناسُ فـي عظمةِ اللَّهِ لما عصوا اللَّه» وفي هذا المعنى يقولُ الشاعرُ:

فـواعـجـبًـا كـيف يُعـصى الإلـ ـهُ وكـيـفَ يجـحـدُهُ الجـاحـدُ
ولـلَّـهِ في كـلِّ تحـريـكـةٍ وتـسـكـيـنـةٍ أبـدًا شـاهـدُ
وفـي كـلِّ شـيءٍ لـه آيـةٌ تـدلُّ عـلـى أنَّـه واحـدُ

الوجه الثاني: أنَّ العلمَ بتفاصيلِ أمرِ اللَّهِ ونهيه، والتـصديقَ الجازمَ بذلك، ومما يترتبُ عليه من الوعـدِ والوعيدِ والثوابِ والعقابِ، مع تيـقنِ مراقبةِ اللَّهِ واطِّلاعهِ، ومـشاهدَتِهِ، ومـقتـهِ لعاصيـهِ وحضـورِ الكرامِ الكاتبينَ، كلُّ هذا يوجبُ الخشـيةَ، وفـعلَ المأمورِ وتركَ المحظورِ، وإنَّمـا يمنعُ الخشـيةَ ويوجبُ الوقوعَ في المحظوراتِ الغفلةُ عن استحـضارِ هذه الأمورِ، والغفلةُ من أضدادِ العلمِ، والغفلةُ والشهـوةُ أصلُ الشرِّ، قال تعالى: ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف:٢٨]، والشهوةُ وحـدُها، لا يستقلُّ بفعلِ السيـئاتِ إلا مع الجهلِ، فإنَّ صـاحبَ الهوى لو استحـضرَ هذه الأمورَ المذكورةَ وكانتْ موجودةً في ذكرِه، لأوجبتْ له الخـشيةَ القامعةَ لهواهُ، ولكنَّ غفلتَـه عنها مما يوجبُ نقصَ إيمانِهِ الذي أصلُه التـصديقُ الجـازمُ المترتبُ على

التصورِ التامِ، ولهذا كان ذكرُ اللَّهِ وتوحيدُه والثناءُ عليه يزيدُ الإيمانَ، والغفلةُ والإعراضُ عن ذلك يضعفُهُ وينقصُهُ، كما كان يقولُ منْ يقولُ من الصحابةِ: «اجلسُوا بنا نؤمنُ ساعة».

وفي الأثرِ المشهورِ عن حماد بنِ سلمةَ عن أبي جعفرٍ الخطميِّ عن جدِّه عميرِ بن حبيبٍ وكان من الصحابةِ، قال: «الإيمانُ يزيدُ وينقصُ قيلَ: وما زيادتُهُ ونقصانُهُ؟ قال: إذا ذكرَنا اللَّهَ ووحَّدْناه وسبَّحْنَاهُ، فتلك زيادتُهُ، وإذا غفلنا ونسينا، فذلك نقصانُهُ».

وفي مسندي الإمام أحمدَ والبزارِ(١) من حديث أبي هريرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: **«جدِّدُوا إيمانكُم»** قالُوا: وكيفَ نجددُ إيمانَنا يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: **«قولُوا: لا إله إلا اللَّه»**.

ولهذا كان الصحيحُ المشهورُ عن الإمامِ أحمدَ الذي عليه أكثرُ أصحابِهِ وأكثرُ علماءِ السنة من جميعِ الطوائف؛ أنَّ ما في القلبِ من التصديقِ والمعرفةِ يقبلُ الزيادةَ والنقصانَ، فالمؤمنُ يحتاجُ دائمًا كلَّ وقتٍ إلى تجديدِ إيمانِهِ وتقويةِ يقينِهِ، وطلبِ الزيادةِ في معارفِهِ، والحذرِ من أسبابِ الشكِّ والريبِ والشبهةِ، ومنْ هُنا يُعلمُ معنى قولِ النبيِّ ﷺ: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السارقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمن»**(٢) فإنه لو كان مستحضِرًا في تلك الحال لاطِّلاعِ اللَّه عليه ومقتِهِ له مع ما توعَّدَهُ اللَّهُ به من العقابِ المجملِ والمفصلِ استحضارًا تامًّا لامتنعَ منه بعدَ ذلكَ وقوعُ هذا المحظورِ وإنما وقعَ فيما وقعَ فيه لضعفِ إيمانِهِ ونقصِهِ.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/٣٥٩)، والبزار (٦٦٤ ـ كشف الأستار).

(٢) تقدم تخريجه.

الوجهُ الثالث: أنَّ تصورَ حقيقةِ المخوفِ يوجبُ الـهربَ منه، وتصورَ حقيقةِ المحبـوبِ توجبُ طلبَهُ فإذا لم يهـربْ منْ هذا ولم يطلبْ هذا دلَّ على أنَّ تصـورَهُ لـذلك ليسَ تامًّا، وإن كـانَ قد يصـور الخبـر عنه، وتصـورُ الخبـرِ وتصديقِـهِ وحفظُ حروفِهِ غـيرُ تصورِّ المخبَرِ بـه فإذا أخبر بما هو مـحبوبٌ أو مكروهٌ له، ولم يكذِّبِ الخبرَ بل عرفَ صدقَهُ لكن قلبَـهُ مشغولٌ بأمور أخرى عن تصورِ ما أخبرَ به، فهذا لا يتحركُ للهربِ ولا للطلبِ، في الأثر المعروف عن الحسن وروي مـرسلاً عن النبيِّ ﷺ: «**العلمُ علمان، فـعلمٌ في القلب، فذاك العلمُ النافعُ، وعلمٌ على اللسانِ، فذاك حجةُ اللَّهِ على ابنِ آدم**»[1].

الوجه الرابع: أنَّ كثيرًا من الذنوبِ قد يكونُ سببُ وقوعِهِ جهلَ فاعلِهِ بحقيقةِ قبحه وبُغضِ اللَّهِ له وتفاصيل الوعيـدِ عليه وإنْ كانَ عالمًا بأصل تحريمه وقبحه لكنَّه يكونُ جاهـلاً بما وردَ فيه من التـغليظ والتشديد ونهـايةِ القبح، فـجهلُه بذلكَ هو الذي جرَّأهُ عليه وأوقعـه فيه، ولو كان عالمًا بحقيقـةِ قبحِهِ لأوجبَ ذلك العلمُ تركَهُ خـشيةً من عـقابِهِ، ولهذا كـان القولُ الصحـيحُ الذي عليه السلفُ وأئمـةُ السنة أنـه يصحُّ التـوبةُ من بعضِ الذنوبِ دون بعضٍ خـلافًـا لبعضِ المعتزلةِ، فـإنَّ أحدَ الذنبينِ قد يَعلمُ قبحَهُ فيتـوبُ منه ويستهينُ بالآخرِ لجهلِهِ بقبحِهِ وحـقيقةِ مرتبتِه فلا يقلعُ عنه، ولذلك قـد يقهرُهُ هواهُ ويغلبُه في أحدِهما دون الآخر فيقلعُ عما لم يغلبْه هواه دون ما غلبه فيه هواهُ، ولا يقالُ لو كانت الخـشية عندَهُ مـوجودةً لأقلعَ عن الجـميع، لأن أصلَ الخشـيةِ عنده موجـودةٌ؛ ولكنها غـيرُ تامةٍ،وسـبب نقصـهـا إمـا نقـصُ علمِه، وإمـا غلبةُ هواه، فتبعُّـضُ توبتِه نشأ من كونِ المقتضِي للتـوبةِ من أحدِ الذنبين أقوى من المقتضي للتوبـةِ من الآخـرِ، أو كـونِ المانع من التوبـةِ من أحـدِهما أشـدَّ من

(١) أخـرجه: ابن أبي شـيبـة (٧/ ٨٢)، وذكره ابن الجـوزي في «العلل المتناهيـة» (١/ ٨٣) ووهّاه.

المانعِ من الآخرِ.

الخامس: أنَّ كلَّ ما علمَ علمًا تامًّا جازمًا بأنَّ فعلَ شيئًا يضرُّه ضررًا راجحًا لم يفعلْه، فإنَّ هذا خاصة العاقلِ، فإنَّ نفسه تنصرفُ عمَّا يعلمُ رجحانَ ضرره بالطبع، فإنَّ اللَّه جعلَ في النفس حبًّا لما ينفعُها وبغْضًا لما يضرُّها، فلا يفعلُ ما يجزم بأنه يضرُّها ضررًا راجحًا، ولا يقعُ ذلك إلا معَ ضعيفِ العقلِ؛ فإنَّ السقوطَ مَنْ موضعٍ عالٍ، أو في نهرٍ مغرقٍ، والمرورَ تحت حائطٍ يُخشى سقوطُه، ودخولَ نارٍ متأججةٍ، ورميَ المالِ في البحرِ، ونحو ذلك، لا يفعلهُ من هو تامُّ العقل لعلمِه بأن هذا ضررٌ ولا منفعةَ فيه، وإنما يفعلُه من لم يعلمْ ضررَهُ كالصبيِّ، والمجنونِ، والسَّاهي، والغافلِ، وأمَّا العاقلُ فلا يُقدمُ على ما يضرُّه مع علمه بما فيه من الضررِ إلا لظنِّه أنَّ منفعتَهُ راجحةٌ إمَّا بأن يجزمَ بأن ضررَهُ مرجوحٌ، أو يظنُّ أن خيرَهُ راجحٌ، كالذي يركبُ البحرَ ويسافرُ الأسفارَ الخطرةَ للربحِ فإنه لو جزمَ بأنه يغرقُ أو يخسرُ لما فعلَ ذلكَ وإنَّما أقدمَ عليه لترجيحِ السلامةِ عندَهُ والربحِ، وإن كانَ قد يكونُ مخطئًا في هذا الظنِّ.

وكذلك الزاني والسارقُ ونحوُهما، لو حصلَ لهم جزمٌ بإقامةِ الحدودِ عليهم من الرجمِ والقطْعِ ونحو ذلك، لم يُقدموا على ذلكَ، فإذا عُلم هذا فأصلُ ما يوقعُ الناسَ في السيئاتِ الجهلُ وعدمُ العلم بأنها تضرُّهم ضررًا راجحًا، أو ظنُّ أنها تنفعُهم نفعًا راجحًا، وذلك كلُّه جهلٌ إما بسيطٌ وإمَّا مركبٌ، ولهذا يسمَّى حالُ فعلِ السيئاتِ الجاهليةَ، فإن صاحبَها في حالِ جاهليةٍ، ولهذا كانَ الشيطانُ يزيِّنُ السيئاتِ ويأمرُ بها، ويذكرُ ما فيها من المحاسنِ التي يُظنُّ أنها منافعُ لا مضارّ كما أخبرَ اللَّهُ عنه في قصة آدمَ أنه ﴿**يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا**﴾

[طه:١٢٠] قال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف:٢٠]، وقال تعالى ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٣٦، ٣٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر:٨]، وقال: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٠٨] وتزيينُ أعمالِهم يكونُ بواسطةِ الملائكةِ والأنبياءِ والمؤمنينَ للخيرِ، وتزيينُ شياطينِ الإنسِ والجنِّ للشرِّ، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام:١٣٧].

ومثلُ هذا كثيرٌ فالفاعلُ للذنبِ لو جزمَ بأنه يحصلُ له به الضررُ الراجحُ لم يفعلْه، لكنه يزينُ له ما فيه من اللذةِ التي يظنُّ أنها مصلحة، ولا يجزمُ بوقوعِ عقوبتِه، بل يرجو العفوَ بحسناتٍ أو توبةٍ أو بعفوِ اللَّهِ ونحوِ ذلك، وهذا كلُّه من اتباعِ الظنِّ وما تهوى الأنفسُ، ولو كان له علمٌ كاملٌ لعرفَ به رجحانَ ضررِ السيئة، فأوجبَ له ذلك الخشيةَ المانعةَ له من مواقعتِها، ونبينُ هذا بـ:

الوجه السادس: وهو أن لَذَّاتِ الذنوبِ لا نسبةَ لها إلى ما فيها من الآلامِ والمفاسد البتةَ فإنَّ لذاتها سريعةُ الانقضاء وعقوباتها وآلامها أضعافُ ذلك ولهذا قيل: «إن الصبرَ على المعاصِي أهونُ من الصبرِ على عذابِ اللَّه» وقيل: «ربَّ شهوةِ ساعةٍ أورثتْ حزنًا طويلاً» وما في الذنوبِ من اللذاتِ كما في الطعامِ الطيبِ المسمومِ من اللذةِ، فهي مغمورةٌ بما فيه من المفسدةِ ومؤثرُ لذة الذنبِ كمؤثر لذة الطعامِ المسمومِ الذي فيه من السموم ما يمرضُ أو يقتلُ ومن هاهنا يُعلمُ أنه لا يُؤثِرُ لذاتِ الذنوبِ إلا من هو جاهلٌ بحقيقةِ عواقبِها، كما لا يؤثرُ أكلَ الطعامِ المسمومِ لِلذَّتِه إلا من هو جاهلٌ بحالِه أو غيرِ عاقلٍ، ورجاؤه التخلصَ من شرِّها بتوبةٍ أو عفوٍ أو غيرِ ذلك كرجاءِ آكلِ الطعامِ

المسمومِ الطيب للخلاصِ من شرِّ سُمِّـه بعلاجٍ أو غيرِه، وهو في غايةِ الحمقِ والجهلِ، فـقدْ لا يتـمكنُ من التخلصِ منه بالكليـةِ، فيقـتلُهُ سمُّـه، وقد لا يتخلصُ منـه تخلصًا تامًّا فيطـولُ مرضُهُ، وكـذلكَ المذنبُ قد لا يتـمكنُ من التوبـةِ، فإنَّ من وقعَ في ذنبٍ تجـرَّأ عليه عمـرَهُ وهان عليه خـوضُ الذنوبِ وعَسُرَ عليه الخلاصُ منها ولهذا قيل: «من عقوبةِ الذنب: الذنبُ بعدَهُ».

وقد دلَّ على ذلك القـرآنُ في غيرِ موضعٍ، وإذا قُدِّرَ أنه تـابَ منه فقدْ لا يتمكنُ من التوبةِ النصوحِ الخالصـةِ التي تمحو أثرَه بالكليةِ، وإنْ قدِّر أنه تمكنَ من ذلكَ، فلا يقـاومُ اللذةَ الحاصلةَ بالمعصيـةِ ما في التوبةِ النصوحِ المشـتملةِ على النَّدمِ والحـزنِ والخـوفِ والبكاءِ وتجشمِ الأعـمالِ الصـالحـةِ؛ من الألمِ والمشـقةِ، ولهـذا قال الحسنُ: «تركُ الذنبِ أيسـرُ من طلبِ التـوبةِ» ويكفي المذنبُ ما فاته في حالِ اشتغـالِهِ بالذنوبِ من الأعمالِ الصالحةِ الَّتي كانَ يمكنُه تحصيلَ الدرجاتِ بها.

وقـد اختلفَ الناسُ في التـائبِ، هل يمكنُ عـودُهُ إلى ما كـانَ عليه قـبل المعصيةِ؟ على قولينِ معـروفينِ، والقولُ بأنه لا يمكنُ عودُهُ إلى ما كانَ عليه قولُ أبي سليـمان الدَّارانيّ وغيرِه، وكـذلكَ اختلفُوا في التـوبةِ إذا استكملتْ شروطَهـا، هل يُجزمُ بقـبولهـا؟ على قولَينِ: فـالقاضي أبو بكرٍ وغـيرُهُ من المتكلمينِ على أنَّه لا يُجزمُ بذلك، ولكـنَّ أكثرَ أهلِ السنةِ والمعتـزلةِ وغيرَهم على أنه يُقطعُ بقـبولها، وإنْ قُـدِّر أنه عفِيَ عنه من غـيرِ توبةٍ فـإنْ كانَ ذلك بسـببِ أمرٍ مكفـرٍ عنه كالمصـائبِ الدنيـويةِ، وفتنةِ القـبرِ، وأهوالِ البـرزخِ، وأهوالِ الموقفِ، ونحـوِ ذلكَ، فلا يستـريبُ عاقلٌ أن مـا في هذه الأمورِ من الآلامِ والشدائدِ أضعاف ما حصلَ في المعصيةِ من اللذةِ.

وإنْ عُفِيَ عنه بغيرِ سببٍ من هذه الأسـباب المكفرةِ ونحوِها، فإنه لابُدَّ أن

يلحقَهُ عقوباتٌ كثيرةٌ منها: ما فاتَهُ من ثوابِ المحسنينِ، فإن اللَّه تعالى وإن عفا عن المذنبِ فلا يجعلْه كالذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ، كما قال تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ [الجاثية:٢١] وقال: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾ [ص:٢٨].

ولهذا قالَ بعضُ السلفِ: عُدّ أن المسيءَ قد عُفِيَ عنه، أليسَ قدْ فاتَهُ ثوابُ المحسنينَ؟ ولولا أنَّ اللَّه تعالى رضَّى أهلَ الجنةِ كلَّهم بما حصلَ لهم من المنازلِ لتقطعتْ أصحابَ اليمينَ حسراتٌ مما فاتَهُم من منازلِ المقربينَ مع إمكانَ مشاركتِهِم لهم في أعمالِهِم التي نالُوا بها منازلَهُم العاليةَ، وقد جاء في الأحاديثِ والآثارِ أنهم يقولون: ألم نكن مع هؤلاءِ في الدنيا؟ فيقالُ: كنتُم تفطرونَ، وكانوا يصومونَ، وكنتُم تنامونَ، وكانوا يقومون، وكنتم تبخلون، وكانوا ينفقون، ونحوُ ذلك.

وكذلكَ جاءَ: «**أنَّ الرجلَ من أهلِ عليين ليخرجُ فيسيرُ في ملكِهِ فما تبقى خيمةٌ من خيمِ الجنةِ إلا دخلَها من ضوءِ وجهه، فيستبشرونَ بريحه فيقولونَ: واهًا لهذه الريح، هذا رجلٌ من أهلِ عليينَ قدْ خرجَ يسيرُ في ملكِه**». هذا قد رُوي من حديثِ ابنِ مسعودٍ مرفوعًا[1]، ورُويَ من كلامِ كعبٍ.

ومنها: ما يلحقُهُ من الخجلِ والحياءِ منَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ عند عرضِه عليه، وتقريره بأعمالِه، وربما كان ذلك أصعبُ عليه من دخولِ النارِ ابتداءً، وقد أخبرَ بذلكَ بعضُ المحتضرينَ في زمانِ السلفِ عند احتضارِه وكان أُغميَ عليه حتَّى ظُنَّ أنه مات، ثم أفاقَ فأخبرَ بذلك.

(١) أخرجه الحاكم (٤/٥٨٩) وهو جزء من حديث طويل.

وجاء تصديقُ ذلكَ في الأحاديثِ والآثارِ كما روى عبدُ اللَّهِ بنُ الإمامِ أحمدَ في كتابِ «الزهدِ» بإسنادِهِ عن أبي هريرةَ ﷺ قال: «يُدْني اللَّه عزَّ وجلَّ العبدَ يومَ القيامةِ، فيضعُ عليه كنفَهُ، فيسترُهُ من الخلائقِ كلِّها، ويدفعُ إليه كتابَهُ في ذلكَ الستر، فيقولُ: اقرأْ يا ابنَ آدمَ كتابَكَ، قال: فيمرُّ بالحسنةِ، فيبيضُّ لها وجْهُه ويُسَرُّ بها قلبُهُ قال: فيقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: أتعرفُ يا عبدي؟ فيقولُ: نعم، يا ربِّ أعرفُ، فيقول: إني قد قبلتُها منك، قال: فيخرُّ للَّه ساجدًا، قال: فيقول اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ارفع رأسَك يا ابنَ آدمَ وعُدْ في كتابِكَ، قال: فيمرُّ بالسيئةِ فيسودُّ لها وجْهُه، ويوجلُ منها قلبُه وترتعدُ منها فرائصُه، ويأخذه من الحياءِ من ربه ما لا يعملُه غيرُهُ، قال: فيقولُ اللَّه عزَّ وجلَّ: أتعرفُ يا عبدِي؟ قال: فيقولُ: نعم، يا ربِّ أعرفُ، قال: فيقول: إني قد غفرتُها لك؟ قال: فلا يزالُ حسنةٌ تُقبلُ فيسجدُ، وسيئةٌ تُغفرُ فيسجدُ، فلا ترى الخلائقُ منه إلا السجودَ، قال: حتى تنادي الخلائقُ بعضَها بعضًا: طوبى لهذا العبدِ الذي لم يعصِ اللَّهَ قط، ولا يدرونَ ما قدْ لقي فيما بينه وبين اللَّهِ عزَّ وجلَّ».

ومما قدْ وقفه عليه ورُوي معنى ذلك عن أبي موسى، وعبدِ اللَّهِ بنِ سلامٍ، وغيرِهما، ويشهدُ لهذا حديثُ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرَ الثابتُ في «الصحيحِ»[1] - حديثُ النجوى - أن النبيَّ ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة دعا اللَّهُ بعبدِه فيضعُ عليه كنَفَهَ فيقولُ: ألم تعملْ يومَ كذا وكذا ذنبَ كذا وكذا؟ فيقولُ: بلى يا ربِّ، فيقول: فإني قد سترتُها عليك في الدنيا وغفرتُ ذلك لك اليومَ**» وهذا كلُّه في حقِّ من يريدُ اللَّهُ أن يعفوَ عنه ويغفرَ له فما الظنُّ بغيرِهِ، ولهذا في «مراسيل الحسنِ» عن النبيِّ

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ١٦٨)، (٦/ ٩٣)، (٨/ ٢٤)، (٩/ ١٨١)، ومسلم (٨/ ١٠٥).

ﷺ: «**إذا أرادَ اللَّهُ أن يسترَ على عبده يومَ القيامة أراه ذنوبَهُ فيما بينه وبينه ثمَّ غفرَهَا له**» ولهذا كانَ أشهرُ القولينِ أنَّ هذا الحكمَ عـامٌّ في حقِّ التائبِ وغيرِه، وقد ذكرَهُ أبو سليمانَ الدمشـقيُّ عن أكثرِ العلماء، واحتجُّـوا بعمومِ هذه الأحاديثِ مع قوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً**﴾ [الكهف:٤٩]، وقد نُقِلَ ذلك صريحـًا عن غيرِ واحدٍ من السلفِ كالحسنِ الـبصريِّ وبلالِ بنِ سعدٍ ـ حكيمِ أهلِ الشـامِ ـ كما روى ابنُ أبي الدنيا، وابنُ المنادي وغيرُهُما عن الحسنِ: «أنه سُئِل عن الرجلِ يذنبُ ثم يتوبُ هل يُمـحى من صحيفتـهِ؟ قال: لا، دون أن يوقِفَهُ عليـه ثم يسألُهُ عنه» ثم في رواية ابنِ المنادي وغـيرِه: «ثـم بكى الحسنُ، وقـال: لو لم تبكِ الأحياءُ من ذلكَ المقامِ لكانَ يحقُّ لنا أن نبْكِي فنطيلَ البكاءَ».

وذكرَ ابنُ أبي الدنيا عنْ بعضِ السلفِ أنه قال: «ما يمرُّ عليَّ أشدُّ من الحياءِ من اللَّهِ عزَّ وجلَّ».

وفي الأثرِ المعروفِ الـذي رواه أبو نعيمٍ وغيـرُهُ عن علقمـةَ بنِ مرثدٍ: «أنَّ الأسودَ بنَ يزيدَ لمـا احتُضِـرَ بكى، فقيلَ له: مـا هذا الجزعُ؟ قـالَ: ما لي لا أجـزعُ، ومن أحقُّ بذلكَ منِّي، واللَّه لو أُتيتُ بـالمغفـرةِ من اللَّه عـزَّ وجلَّ، لهـمَّني الحيـاءُ منه مما قدْ صنعـتُه، إنَّ الرجلَ لـيكونُ بينه وبين الرجلِ الذنبُ الصغيرُ فيعفو عنه فلا يزالُ مستَحيًا منه».

ومن هذا قولُ الفضيلِ بنِ عياضٍ: «بالموقفِ واسوءتاهُ منكَ وإنْ عفوتَ».

المقـصود هنا أن آلام الذنوبِ ومـشاقَّـها وشـداتها التي تزيدُ على لذاتـها أضعافًا مضاعفةً، لا يتـخلفُ عن صاحبِها، لا مع توبةٍ ولا عفوٍ، فكيفَ إذا لم يُوجدْ واحدٌ منهما، ويتضحُ هذا بما نذكرُهُ في الوجهِ السابعِ.

الوجه السابع: وهو أن المقْدِمَ على مواقعةِ المحظورِ إنما أوجبَ إقدامَهُ عليه ما فـيه من اللذةِ الحـاصلةِ له به، فظنَّ أنَّه يحـصلُ له لذتُهُ العـاجلةُ، ورجَى أنْ يتخلصَ من تبـعتِهِ بسـببٍ من الأسبابِ ولـو بالعفوِ المجـردِ فينالُ به لذةً ولا يلحقُهُ به مضرةٌ، وهذا من أعظمِ الجهلِ، والأمر تجلس[1] باطنه، فإن الذنوبَ تتـبعُهـا ولابدَّ من الهـمومِ والآلامِ وضـيقِ الصدرِ والنكدِ، وظلمـةِ القلبِ، وقسوتِهِ أضعافُ أضعافُ ما فـيها منَ اللذةِ، ويفوتُ بها من حلاوةِ الطاعاتِ، وأنوارِ الإيمانِ، وسرورِ القلبِ ببهجةِ الحقائقِ والمعارفِ، ما لا يُوازي الذرةَ منه جميعُ لذَّاتِ الدنيا، فيحصلُ لصاحبِ المعـصيةِ العيشةُ الضنكُ، وتفوتُهُ الحياةُ الطيبةُ، فينعكسُ قصدُهُ بارتكابِ المعصـيةِ، فإنَّ اللَّهَ ضمنَ لأهلِ الطاعةِ الحياةَ الطيبةَ، ولأهلِ المعصيةِ العـيشةَ الضنكَ، قالَ تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾ [طه:١٢٤] وقال: ﴿**وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الطور:٤٧] وقال: ﴿**وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [السجدة:٢١] وقال في أهلِ الطاعةِ: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾ [النحل:٩٧].

قال الحـسنُ وغيرُهُ من السلفِ: «لنرزقنَّه عـبادةً يجدُ حلاوتَهـا في قلبِهِ». ومن فسَّـرها بالقناعةِ، فهـو صحيحٌ أيضًـا، ومن أنواعِ الحياةِ الطيـبةِ الرِّضَى بالمعيـشةِ فإنَّ الرِّضى، كمـا قالَ عبدُ الـواحدِ بنُ زيدٍ: «جنةُ الدنيا ومسـتراحُ العابدين»، وقال تعالى: ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ**﴾ [هود:٣].

---

(١) هكذا في المطبوع، ولعلها: «تُحِسُّ».

وقال: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

كما قالَ عن إبراهيمَ عليه السلام: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] ومثلُ هذا كثيرٌ في القرآنِ، فما في الطاعةِ من اللذةِ والسرورِ والابتهاجِ والطمأنينةِ وقرّةِ العينِ؛ أمرٌ ثابتٌ بالنصوصِ المستفيضة وهو مشهودٌ محسوسٌ يدركُهُ بالذوقِ والوجدِ مَنْ حصلَ له ولا يمكنُ التعبيرُ بالكلامِ عن حقيقتِهِ، والآثارُ عن السلفِ والمشايخِ العارفينَ في هذا البابِ كثيرةٌ موجودةٌ حتَّى كان بعضُ السلفِ يقولُ: لو يعلمُ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه لجالدُونا عليه بالسيوفِ».

وقال آخرُ: «لو علِموا ما نحن فيه لقتلُونا ودخلوا فيه».

وقال أبو سليمانَ: «أهلُ الليلِ في ليلهم ألذُّ من أهلِ اللهو في لهوهِم، ولولا الليلُ ما أحببتُ البقاءَ في الدُّنيا».

وقال: «إنه ليمرُّ على القلبِ أوقاتٌ يضحكُ فيها ضحِكًا».

وقال ابنُ المباركِ وغيرُهُ: «مساكينُ أهلِ الدنيا خرجُوا منها ولم يذوقوا أطيبَ ما فيها، قيل: ما أطيب ما فيها؟ قال: معرفةُ اللَّهِ».

وقال آخرُ: «أوجدني اللَّه قلبًا طيبًا حتى قلتُ: إن كان أهلُ الجنةِ في مثلِ هذا فإنَّهم في عيشٍ طيبٍ».

وقال مالكُ بنُ دينارٍ: «ما تنعمَ المتنعمونَ بمثلِ ذكرِ اللَّهِ».

وهذا بابٌ واسعٌ جدًّا، والمعاصي تقطعُ هذه الموادَّ، وتغلقُ أبوابَ هذه الجنةِ المعجلةِ، وتفتحُ أبوابَ الجحيمِ العاجلةِ من الهمِّ والغمِّ، والضيقِ والحزنِ

والتكدرِ وقسوةِ القلبِ وظلمتِهِ وبعدِهِ عن الربِّ - عزَّ وجلَّ - وعن مواهبِهِ السَّنِيَّةِ الخاصةِ بأهلِ التقوى.

كما ذكر ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ عن عليٍّ ﷺ قال: «جزاءُ المعصيةِ الوهنُ في العبادةِ، والضيقُ في المعيشةِ، والتعسُ في اللذةِ، قيل: وما التعسُ في اللذةِ؟ قال: لا ينالُ شهوةً حلالاً، إلا جاءَه ما يبغِّضُهُ إيَّاها».

وعن الحسنِ قال: «العملُ بالحسنةِ نورٌ في القلبِ وقوةٌ في البدنِ، والعملُ بالسيئةِ ظلمةٌ في القلبِ ووهنٌ في البدن».

وروى ابن المنادي وغيرُهُ عن الحسنِ، قال: «إن للحسنةِ ثوابًا في الدنيا وثوابًا في الآخرةِ، وإنَّ للسيئةِ ثوابًا في الدنيا، وثوابًا في الآخرةِ، فثوابُ الحسنةِ في الدنيا البصرُ في الدِّين، والنورُ في القلبِ، والقوةُ في البدنِ مع صحبةٍ حسنةٍ جميلةٍ، وثوابُها في الآخرةِ رضوانُ اللَّه عزَّ وجلَّ وثوابُ السيئةِ في الدنيا العمَى في الدنيا، والظلمةُ في القلبِ، والوهنُ في البدنِ مع عقوباتٍ ونقماتٍ، وثوابُها في الآخرةِ سخطُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ والنارُ».

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ عن مالكِ بن دينارٍ، قال: «إن للَّه عقوباتٍ فتعاهدُوهنَّ من أنفسكم في القلوبِ والأبدانِ: ضنكٌ في المعيشةِ، ووهنٌ في العبادةِ، وسخطٌ في الرزقِ».

وعنه أنه قال: «ما ضُرِبَ عبدٌ بعقوبةٍ أعظمُ من قسوةِ القلبِ».

ومثلُ هذا كثيرٌ جدًّا، وحاصلُ الأمر ما قاله قتادةُ وغيرُهُ من السلفِ: «إن اللَّهَ لم يأمرْ العبادَ بما أمرَهُم به لحاجتِهِ إليه، ولا نهاهُم عمَّا نهاهُم عنه بخلاً به، بل أمرهُم بما فيه صلاحُهم، ونهاهُم عمَّا فيه فسادُهُم، وهذا هو الذي

عليه المحققون من الفقهاءِ من أصحابِنا وغيرُهُم، كالقاضي أبي يَعْلَى وغيرِه، وإن كان بينهم في جوازِ وقوعِ خلافِ ذلكَ عقلاً نزاعٌ مبنيٌّ على أن العقلَ هل له مدخلٌ في التحسينِ والتقبيح أم لا؟

وكثيرٌ منهم كأبي الحسنِ التميمي وأبي الخطابِ على أنَّ ذلك لا يجوزُ عقْلاً أيضًا وأما منْ قال بوقوعِ مثلِ ذلك شرعًا فقولُهُ شاذٌ مردودٌ.

والصوابُ: أنَّ ما أمرَ اللَّهُ به عبادَهُ فهو عينُ صلاحِهِم وفلاحِهِم في دنياهُم وآخرتِهم، فإنَّ نفسَ الإيمانِ باللَّهِ ومعرفتِهِ وتوحيدِهِ وعبادتِهِ ومحبتِهِ وإجلالِه وخشيتِهِ وذكره وشكرِهِ؛ هو غذاءُ القلوبِ وقوتُها وصلاحُها وقوامُها، فلا صلاحَ للنفوسِ، ولا قرةَ للعيونِ ولا طمأنينةَ، ولا نعيمَ للأرواحِ ولا لذةَ لها في الدنيا على الحقيقةِ، إلا بذلكَ، فحاجتُها إلى ذلك أعظمُ من حاجةِ الأبدانِ إلى الطعامِ والشرابِ والنَّفَسِ، بكثيرٍ، فإنَّ حقيقةَ العبدِ وخاصيتِهِ هي قلبُه وروحُهُ ولا صلاحَ له إلا بتألهِهِ لإلهِهِ الحقّ الذي لا إله إلا هو، ومتى فقدَ ذلكَ هلكَ وفسدَ، ولم يصلحْهُ بعد ذلك شيءٌ البتة، وكذلكَ ما حرَّمه اللَّهُ على عبادِهِ وهو عينُ فسادِهِم وضررِهم في دينِهِم ودنياهم، ولهذا حرَّم عليهم ما يصدُّهم عن ذكرِهِ وعبادتِهِ كما حرَّم الخمرَ والميسرَ، وبيَّن أنه يصدُّ عن ذكرِهِ وعن الصلاة مع مفاسدَ أُخرَ ذكرَها فيهما، وكذلك سائرُ ما حرَّمه اللَّه فإنَّ فيه مضرةً لعبادِهِ في دينهم ودنياهم وآخرتِهم، كما ذكر ذلك السلفُ، وإذا تبيَّن هذا وعُلِمَ أنَّ صلاحَ العبادِ ومنافعِهم ولذاتِهم في امتثالِ ما أمرهُم اللَّهُ به، واجتنابِ ما نهاهم اللَّهُ عنه تبيَّن أن من طلبَ حصولَ اللذةِ والراحةِ مِنْ فعلِ المحظورِ أو تَرْكِ المأمورِ، فهو في غايةِ الجهلِ والحمقِ، وتبيَّن أنَّ كلَّ من عصى اللَّهَ هو جاهلٌ، كما قاله السلفُ ودلَّ عليه القرآنُ كما

تقدم، ولهذا قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢، ١٠٣]، فأخبر أنهم علموا أنَّ من اشتراه أي تعوَّضَ به في الدنيا فلا خَلاقَ له في الآخرةِ ثم قالَ: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢] فيدلُّ هذا على أنَّهم لم يعلموا سوء ما شرَوا به أنفسَهُم، وقد اختلفَ المفسرونَ في الجمعِ بين إثباتِ العلمِ ونفيه هاهنا، فقالت طائفةٌ منهم: الذين علموا لمن اشتراه ما له في الآخرةِ من خلاق، هم الشياطينُ الذين يُعلِّمونَ الناسَ السحرَ، والذين قيلَ فيهم: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ هم الناسُ الذين يتعلمون. قال ابنُ جريرٍ: وهذا القولُ خطأٌ مخالفٌ لإجماعِ أهلِ التأويلِ على أنَّ قولَهُ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ عائدٌ على اليهودِ الذين اتبعوا ما تتلو الشياطينُ على ملكِ سليمانَ ـ ثم أخبرَ ابنُ جريرٍ أنَّ الذين علموا أنه لا خلاقَ لمن اشتراه هم اليهودُ، والذين قيل فيهم: لو كانوا يعلمون، هم الذين يتعلمون من الملكينِ، وكثيرًا ما يكون فيهم الجهالُ بأمرِ اللَّه ووعدِهِ ووعيدِه، وهذا أيضًا ضعيفٌ فإنَّ

الضميرَ فيهما عائدٌ إلى واحدٍ، وأيضًا فإنَّ الملكينِ يقولانِ لمن يعلمانِه: إنما نحن فتنةٌ فلا تكفر، فقد أعلماه تحريمَه وسوءَ عاقبتِه.

وقالتْ طائفةٌ: إنما نفىَ عنهم العلمَ بعدما أثبته لانتفاءِ ثمرتِه وفائدتِه، وهو العملُ بموجبِهِ ومقتضاهُ، فلمَّا انتفَى عنهم العملُ بعلمِهِم جعلَهم جُهَّالاً لا يعلمونَ، كما يقالُ: لا عِلْمَ إلا ما نفعَ وهذا حكاه ابنُ جريرٍ وغيرُهُ، وحكى الماورديُّ قولاً بمعناه، لكنه جعلَ العملَ مضمرًا، وتقديرُهُ لو كانوا يعملون بما يعلمون.

وقيلَ: إنهم علموا أنَّ منْ اشتراه فلا خلاقَ له، أي لا نصيبَ له في الآخرةِ من الثوابِ، لكنهم لم يعلموا أنه يستحق عليه العقاب مع حرمانِه الثوابَ، وهذا حكاه الماورديُّ وغيرُهُ، وهو ضعيفٌ أيضًا، فإنَّ الضميرَ إن عادَ إلى اليهودِ، فاليهودُ لا يخفى عليهم تحريمُ السحرِ واستحقاقِ صاحبِه العقوبةَ، وإن عادَ إلى الذين يتعلمونَ من الملكينِ فالملكانِ يقولانِ لهم: ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ**﴾ والكفرُ لا يخْفَى على أحدٍ أن صاحبَه يستحقُّ العقوبةَ، وإن عادَ إليهما، وهو الظاهرُ، فواضحٌ، وأيضًا فإذا علموا أنَّ من اشتراهُ ما لهُ في الآخرةِ من خلاقٍ فقدْ علمُوا أنه يستحقُّ العقوبةَ؛ لأنَّ الخلاقَ: النصيبُ من الخيرِ، فإذا علِمَ أنه ليس له نصيبٌ في الخيرِ بالكليةِ فقدْ علم أن له نصيبًا من الشرِّ، لأنَّ أهلَ التكليفِ في الآخرةِ لا يخلو واحدٌ منهم عن أن يحصلَ له خيرٌ أو شرٌّ لا يمكنُ انتكاله عنهما جميعًا البتة.

وقالتْ طائفةٌ: علموا أنَّ من اشتراه فلا خلاقَ له في الآخرةِ، لكنهم ظنُّوا أنهم ينتفعونَ به في الدنيا، ولهذا اختاروه وتعوَّضُوا به عن بوارِ الآخرةِ وشرَوا به أنفسَهُم، وجهلُوا أنه في الدنيا يضرُّهم أيضًا ولا ينفعُهم، فبئسَ ما

شروا به أنفسَهُم لو كانوا يعلمـون ذلك، وأنَّهم إنما باعُوا أنفسَهم وحظَّهم من الآخرةِ بما يضـرُّهم في الدنيا أيضًـا ولا ينفعهم، وهـذا القولُ حكاه الماورديُّ وغيرُهُ، وهو الصحيحُ، فإنَّ اللَّه تعالى قال: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي هو في نفس الأمـرِ يضرُّهم ولا ينفـعُهم بحـالٍ في الدنيا وفـي الآخرةِ، ولكنَّهم لم يعلمـوا ذلك لأنهم لم يُقـدِمُـوا عليه إلا لظنِّهـم أنه ينفعُـهم في الدنيا.

ثمَّ قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ أي قد تيقَّنوا أنَّ صاحبَ السـحرِ لا حظَّ له في الآخـرةِ، وإنما يختـارُهُ لما يرجو من نفـعهِ في الدنيا، وقدْ يسمُّون ذلك العقلَ المعـيشي أي العقلَ الذي يعيشُ به الإنسانُ في الدنيا عيشةً طيبةً، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢]، أي: إنَّ هذا الذي يعوضـوا به عن ثوابِ الآخرةِ في الدنيـا أمرٌ مذمومٌ مُـضِرٌّ لا ينفعُ لو كانوا يعلمـونَ ذلك ثمَّ قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٣]، يعني: أنهم لو اخـتارُوا الإيمانَ والتقْـوى بدلَ السِّحرِ لكانَ اللَّهُ يثـيبُهم على ذلكَ ما هو خـيرٌ لهم مما طلبُوه في الدنيـا لو كانوا يعلمون، فيحـصُلُ لهم في الدنيا من ثوابِ الإيمانِ والتـقْـوى من الخيـرِ الذي هُو جلبُ المنـفعـةِ ودفعُ المضـرَّةِ مـا هو أعظمُ مما يُحَصِّلُونَهُ بالسِّحرِ من خيرِ الدنيا مع ما يُدَّخَرُ لهم من الثوابِ في الآخرةِ.

والمقصودُ هنا: أن كلَّ من آثرَ معـصيةَ اللَّهِ على طاعتهِ ظانًّا أنه ينتفعُ بإيثارِ المعصـيةِ في الدنيا، فهُـوَ من جنسِ من آثرَ السحرَ ـ الذي ظنَّ أنه ينفـعُه في الدنيا ـ على التـقوى والإيمانِ، ولو اتَّقى وآمنَ لكانَ خيرًا له وأرجـى لحصولِ مقاصدِه ومطالبِهِ ودفعِ مضارِّه ومكروهاتـِه، ويشهدُ كذلك أيضًا ما في «مسندِ

البزار»(١) عن حذيفةَ قال: «قامَ النبيُّ ﷺ فدعا الناسَ فقال: هلمُّوا إليَّ، فأقبلوا إليه فجلسُوا، فقال: «**هذا رسولُ ربِّ العالمين جبريلُ ـ عليه السلامُ ـ نفثَ في رُوعي: أنَّه لا تموتُ نفسٌ حتَّى تستكملَ رزقَها وإن أبْطأ عليها، فاتقوا اللَّهَ وأجملُوا في الطلبِ ولا يحملنَّكُم استبطاءُ الرِّزْقِ أنْ تأخذُوه بمعصيةِ اللَّهِ، فإنَّ اللَّهَ لا يُنالُ ما عندَه إلا بطاعتِه**».

إذا تبيَّن هذا؛ فقدْ عُلِمَ أن العلمَ مستلزِمٌ للخشيةِ منْ هذه الوجوهِ كُلِّها، لكن على الوجهِ الأولِ يستلزمُ الخشيةَ العلمُ باللَّهِ وجلالِه وعظمتِه، وهو الذي فسرَ الآيةَ به جماعةٌ من السلفِ، كما تقدَّم، وعلى الوجوهِ الأُخرِ تكون الخشيةُ ملازمةٌ للعلمِ بأوامرِ اللَّهِ ونواهيهِ وأحكامِه وشرائعِه وأسرارِ دينه وشرعِه وخلقِه وقَدَرِه، ولا تَنافي بينَ هذا العلمِ والعلمِ باللَّه؛ فإنَّهما قد يجتمعانِ وقد ينفردُ أحدُهما عن الآخرِ، وأكملُ الأحوال اجتماعُهُما جميعًا وهي حالةُ الأنبياءِ ـ عليهم السلامُ ـ وخواصُّ الصديقينَ ومتى اجتمعا كانت الخشيةُ حاصلةٌ من تلكَ الوجوهِ كلِّها، وإن انفردَ أحدُهما حصلَ من الخشيةِ بحسبِ ما حصَّل من ذلك العلمِ، والعلماءُ الكُمَّلُ أولو العلمِ في الحقيقةِ الذين جمعُوا الأمرين.

وقد ذكر الحافظُ أبو أحمدَ بنُ عديٍّ: ثنا أحمدُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ صالحِ بنِ شيخِ بنِ عميرةَ: ثنا إسحاقُ بن بهلول قال: قال لي إسحاقُ بنُ الطباعِ: قال لي سفيانُ بن عيينةَ: «عالمٌ باللَّه عالِمٌ بالعلمِ، عالمٌ باللَّه ليس بعالِمٍ بالعلمِ، عالمٌ بالعلمِ ليس بعالمٍ باللَّه»، قال: قلتُ لإسحاقَ: فهمنيه واشرحه لي،

(١) «البحر الزخَّار» (٢٩١٤)

قال: عالمٌ باللَّهِ عالمٌ بالعلمِ، حمـادُ بنُ سلمةَ، عالمٌ باللَّه ليس بعالمٍ بالعلمِ مثل أبي الحـجاج العابدِ، عـالمٌ بالعلمِ ليسَ بعالمٍ باللَّه فلانٌ وفـلانٌ وذكر بعضَ الفقهاءِ.

وروى الثوريُّ عن أبي حيَّان التميمي سـعيدِ بنِ حيَّانَ عن رجلٍ قال: كانَ يُقال: العلماءُ ثلاثةٌ: «فعالمٌ باللَّه ليـس عالمًا بأمرِ اللَّهِ، وعالمٌ بأمرِ اللَّهِ ليس عالمًا باللَّهِ، وعالمٌ باللَّه عالمٌ بأمرِ اللَّهِ».

فالعالمُ باللَّهِ وبأوامر اللَّه: الذي يخشى اللَّهَ ويعلمُ الحدودَ والفرائضَ.

والعـالمُ باللَّه ليس بعـالمٍ بأمرِ اللَّه: الذي يـخشى اللَّهَ ولا يعلمُ الحـدودَ والفرائضَ.

والعـالمُ بأمرِ اللَّهِ لـيس بعالمٍ باللَّهَ: الـذي يعلمُ الحدودَ والفـرائضَ، ولا يخشى اللَّهَ عزَّ وجلَّ.

وأما بيانُ أنَّ انتفاءَ الخشيةِ ينتفي مع العلمِ، فإنَّ العلمَ له موجبٌ ومقتضى، وهو اتباعُـهُ والاهتداءُ به وصدُّه الجـهلَ، فإذا انتفتْ فـائدتُهُ ومقتضـاهُ، صارَ حـالُهُ كحـالِهِ عند عـدمِهِ وهو الجـهلُ، وقد تقـدَّم أن الذنوبَ إنَّمـا تقعُ عن جهالةٍ، وبيَّنا دلالةَ القرآنِ على ذلكَ وتفسيرَ السلفِ له بذلكَ، فيلزمُ حينئذٍ أن ينتفي العلمُ ويثبتُ الجـهلُ عند انتفاءِ فائدةِ العلمِ ومقتـضاهُ وهو اتباعُهُ، ومن هذا البابِ قولُهُ تعالى: ﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا**﴾ [الفرقان:٦٣] وقولُ النبيِّ ﷺ: «**إذا كان أحـدُكُم صائمًـا فلا يرفثْ ولا يجـهلْ فإن امـرؤٌ شاتَمَه أو قـاتَلَهُ فليقلْ: إني امرؤٌ صائمٌ**»[(١)] وهذا كما يوصفُ من لا ينتفعُ بسمْعِهِ وبصرِهِ وعقلِهِ

(١) أخـرجه: الـبخـاري (٣/ ٣٤)، (٩/ ١٧٥)، ومـسلم (٣/ ١٥٧ ـ ١٥٨) من حـديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في معرفةِ الحقِّ والانقيـادِ له بأنه أصمُ أبكمُ أعْمَى قالَ تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١] ، ويُقال أيضًـا: إنه لا يسمعُ ولا يبصـرُ ولا يعقلُ كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩] فسَلْبُ العلمِ والعقلِ والسمعِ والبصرِ وإثباتُ الجهلِ والبكمِ والصمِ والعَمَى في حقِّ مَنْ فقدَ حقائقَ هذه الصفاتِ وفوائدَها من الكفَّارِ أو المـنافقينَ أو مَنْ يشركُـهم في بعضِ ذلك كلِّه؛ من باب واحـدٍ وهو سلْبُ اسمِ الشيءِ أو مسمَّاهُ لانتفاءِ مـقصودِهِ وفائدتِهِ وإنْ كان موجودًا، وهو بابٌ واسعٌ وأمثلته كثيرةٌ في الكتاب والسنةِ(١) .

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَى﴾

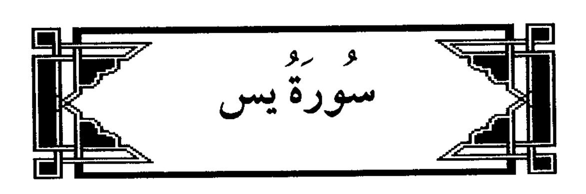
قال ابن الجوزي في «المقتـبس»: سمعت الوزير(٢) يقول: في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَى﴾ [فاطر:٤٦] قال: المعنى: أن يكون قـيامكم خـالصًـا للَّه عـزَّ وجلّ، لا لغلبـة خصـومكم، فـحيـنئذ تفـوزون بالهدى(٣).

* * *

(١) رسالة «إنما يخشى اللَّه من عباده العلماء».

(٢) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

(٣) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩).



سُورَةُ يس

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

[قال البخاري]: «باب احتساب الآثار»: حدثنا محمد بن عبد الله بن حوشب: ثنا عبد الوهاب، قال: حدثني حميد عن أنس، قال: قال النبي ﷺ: **«يا بني سلمة، ألا تحتسبون آثاركم؟»**.

وقال ابن أبي مريم: أنا يحيى بن أيوب: حدثني حميد: حدثني أنس، أن بني سلمة أرادوا أن يتحولوا عن منازلهم فينزلوا قريبًا من النبي ﷺ قال: فكَرِهَ النبي ﷺ أن يُعْرُوا مَنَازِلَهم، فقال: **«ألا تحتسبون آثاركم؟»**[1].

قال مجاهد: خطاهم: آثار المشي في الأرض بأرجلهم.

ساقه أولاً من حديث عبد الوهاب الثقفي، عن حميد مختصرًا، ثم ذكر من رواية يحيى بن أيوب المصري ـ وهو ثقة، عن حميد مختصرًا، ثم ذكر من رواية يحيى بن أيوب المصري وهو ثقة، لكنَّه كثير الوهم ـ مطوَّلاً، وزاد فيه تصريح حميد بالسماع له من أنسٍ فإن حميداً قد قيل: إنه لم يسمع من أنس إلا قليلاً وأكثر رواياته عنه مرسلة، وقد سبق ذكر ذلك، وما قاله الإسماعيلي في تسامح المصريين والشاميين في لفظة «حدثنا» وأنهم لا يضبطون ذلك.

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٦٧)، (٣/ ٢٩).

وقد خرَّجه في «كتاب الحج» من طريق الفزاري، عن حميد، عن أنس، قال: أراد بَنُو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد، فكره رسول اللَّه ﷺ أن تعرى المدينة، فقال: **«يا بني سلمة، ألا تحتسبون آثاركم؟»**.

وبنو سلمة: قوم من الأنصار، كانت دورهم بعيدة من المسجد، فأرادوا أن يتحولوا إلى قرب المسجد، فأمرهم النبي ﷺ بملازمة دورهم، وأخبرهم أنَّ خطاهم يُكتب لهم أجرها في المشي إلى المسجد.

وخرَّج مسلم في «صحيحه»(١) من حديث أبي الزبير، عن جابر، قال: كانت دارنا نائيةً من المسجد، فأردنا أن نبيع بيوتَنَا فنقترب من المسجد، فنهانا رسول اللَّه ﷺ، فقال: **«إن لكم بكل خطوةٍ درجةً»**.

ومن حديث أبي نضرة، عن جابر، قال: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد، والبقاع خالية. قال: فبلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ، فقال: **«يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم»**. فقالوا: ما يسرنا أنا كنَّا تحولنا.

وقوله: **«ديارَكم»** بفتح الراء على الإغراء، أي الزموا دياركم.

وخرَّجه الترمذيُّ(٢) من حديثِ أبي سُفيانَ السعدي، عن أبي نضرةَ عن أبي سعيدٍ، قالَ: كانتْ بنو سَلمةَ في ناحيةِ المدينةِ، فأرادوا النُّقلةَ إلى قُرْبِ المَسْجدِ، فنزلتْ هذه الآيةُ: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ**﴾ [يس:١٢] فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«إنَّ آثارَكُمْ تُكْتَبُ»**، فلَمْ ينتقلُوا.

وأبو سفيانُ، فيه ضعفٌ.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢/ ١٣١).
(٢) «الجامع» (٣٢٢٦).

والصحيحُ: رواية مسلمٍ، عن أبي نضْرةَ عن جابرٍ، وكـذا قالَهُ الدارقطنيُّ وغيرُهُ.

وخرَّج ابنُ ماجه[١] من روايةِ سِماكٍ، عن عِكْرمـةَ، عن ابنِ عباسٍ، قال: كـانت الأنصارُ بَعـيـدةً منازلُهم مِنَ المسـجدِ، فـأرادوا أنْ يَقْـربوا، فنزلتْ: ﴿نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس: ١٢] قال: فَثَبَتُوا.

وقـد ذكرَ البـخاريُّ عن مـجاهد، أنـه فسَّـر الآثار ـ يعني: في هذه الآيةِ بالخُطا، وزاد ـ أيضًا ـ بقوله: آثارُ المَشْي في الأرضِ بأرْجُلهم.

وفي حديثِ أنسٍ: «فكَرِهَ رسولُ اللَّهِ ﷺ أنْ يُعرُوا المدينةَ أو منازلَهم».

يَعني: يُخلوها فتصيرُ عراةً منَ الأرضِ.

والعَرَاءُ: الفضاءُ الخالي مِنَ الأرضِ، ومنه: قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ [الصافات: ١٤٥].

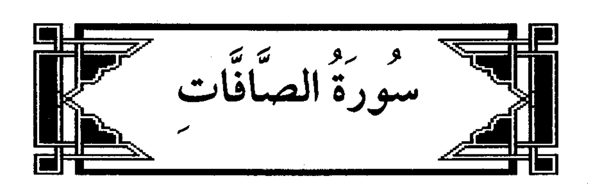
وروى يحيى بن سـعيدٍ الأنصـاريُّ هذا الحديثَ، عن حمـيدٍ، عن أنسٍ، وقال: «فكَرِهَ أن يُعروا المسجدَ».

قال الإمامُ أحمدُ: وَهِمَ فيه، إنما هو: «كرِهَ أن يُعرْوا المدينةَ»[٢].

* * *

(١) «السنن» (٨٧٥).

(٢) «فتح الباري» (٤/ ٤٢ ـ ٤٤).



سُورَةُ الصَّافَّاتِ

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾

واعلمْ أنَّ الصفوفَ في الصلاةِ ممَّا خصَّ اللَّهُ به هذه الأمةَ وشرَّفها به؛ فإنهم أشبَهوا بذلك صُفوفَ الملائكةِ في السَّماءِ، كما أخبر اللَّهُ عنهم أنَّه قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات:١٦٥]، وأقْسَمَ بالصافّاتِ صفًّا، وهُم الملائكة.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[1] عن حذيفةَ عن النبيِّ ﷺ، قال: «**فُضِّلنا على الناسِ بثلاثٍ: جُعلت صفُوفُنا كصفوفِ الملائكة**» الحديث.

وفيه ـ أيضًا[2] ـ عن جابرِ بنِ سَمُرَةَ، قال: خرجَ علينا رسولُ اللَّهِ ﷺ، فقال: «**ألا تصفُّون كما تصفُّ الملائكةُ عندَ ربِّها؟**» فقلنا: يا رسولَ اللَّه، وكيف تصفُّ الملائكةُ عندَ ربِّها؟ قال: «**يُتمُّون الصفوفَ الأولَى، ويتراصُّون في الصفِّ**».

وروى ابنُ أبي حاتمٍ من روايةِ أبي نضرةَ، قال: كان ابنُ عمرَ إذا أُقيمتِ الصلاةُ استقبلَ الناسَ بِوَجْهِه، ثم قال: أقيموا صفُوفكم، استَوُوا قيامًا، يريدُ اللَّهُ بِكُمْ هدْيَ الملائكةِ. ثم يقول: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات:١٦٥]، تأخَّرْ فُلانٌ، تقدَّمْ فلانٌ، ثم يتقدَّمُ فيُكَبِّرُ.

---

(١) (٢/ ٦٣).

(٢) (٢/ ٢٩).

وروى ابنُ جُريجٍ، عن الوليـدِ بنِ عبدِ اللَّهِ بن أبي مغـيثٍ، قال: كانوا لا يَصُفُّون في الصلاةِ، حتَّى نزلتْ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾[١] [الصافات: ١٦٥].

وقد رُوي أن مِنْ صِفَةِ هذه الأُمَّةِ في الكتبِ السـالفةِ: صفَّهم في الصلاةِ، كصفِّهم في القتالِ[٢].

* * *

(١) أخرجه: عبد الرزاق في «المصنف» (٢/ ٤٣).
(٢) «فتح الباري» (٤/ ٢٥٠ ـ ٢٥١).

سُورَةُ ص

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

خرَّج الإمامُ أحمدُ[1] رحمه اللَّه تعالى منْ حديثِ معاذِ بنِ جبلٍ ﷺ قال: «احتبسَ عنَّا رسولُ اللَّه ﷺ ذاتَ غداةٍ في صلاةِ الصبحِ، حتى كدنا نتراءى قرن الشمسِ، فخرج رسولُ اللَّهِ ﷺ سريعًا، فثوبَ بالصلاةِ وصلَّى وتجوَّزَ في صلاته، فلما سلَّم قال: «كما أنتُم على مَصَافِّكم» ثم أقبلَ إلينا فقال: «إني سأحدِّثُكُم ما حبسني عنكم الغداة، إني قمتُ منَ الليلِ فصليتُ ما قُدِّر لي، فنعستُ في صلاتي حتى استثقلتُ فإذا أنا بربِّي عزَّ وجلَّ في أحسنِ صورةٍ فقال: يا محمدُ أتدري فيم يختصمُ الملأُ الأعلى؟. قلتُ: لا أدري ربِّ، قال: يا محمدُ فيم يختصم الملأُ الأعلى؟. قلتُ: لا أدري ربِّ، قال: يا محمدُ فيم يختصمُ الملأُ الأعلى؟. قلتُ: لا أدري ربِّ فرأيتُه وضعَ كفَّه بينَ كتفي حتى وجدتُ بَرْدَ أناملِه في صدري وتجلَّى لي كلُّ شيءٍ وعرفتُ، فقال: يا محمد فيم يختصمُ الملأُ الأعلى؟. قلتُ: في الكفَّاراتِ والدرجاتِ، قال: وما الكفَّاراتِ؟. قلتُ: نقْلُ الأقدامِ إلى الجمعاتِ، والجلوسُ في المساجدِ بعدَ الصلواتِ، وإسباغُ الوضوءِ عند الكريهاتِ، قال: وما الدرجاتُ؟. قلتُ: إطعامُ الطعامِ، ولينُ الكلامِ، والصلاةُ والناسُ نيامٌ، قال: سَلْ؟. قلتُ: اللَّهُمَّ إنِّي أسألكَ إطعامُ الطعامِ، ولينُ الكلامِ، والصلاةُ والناسُ نيامٌ، قال: سَلْ؟ قلت: قلتُ:اللَّهم إنِّي

---

(١) «المسند» (٥/٢٤٣).

أسألكَ فِعْلَ الخيراتِ، وتركَ المنكراتِ، وحبَّ المساكينِ، وأنْ تَغْفِرَ لي وترْحمني، وإذا أردتَ فتنةً في قومٍ فتوفَّني غيرَ مفتونٍ، وأسألك حُبَّكَ وحبَّ مَنْ يحبُّك، وحبَّ عملٍ يُقَرِّبُني إلى حبِّكَ» وقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «إنها حقٌّ فادْرسوها وتعلَّمُوها» وخرَّجه الترمذيُّ[1]، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، قال: وسألتُ محمدَ بنِ إسماعيلِ البخاريَّ عَنْ هذا؟ فقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

قلتُ: وفي إسنادِهِ اختلافٌ، وله طرقٌ متعددةٌ، وفي بعضها زيادةٌ وفي بعضها نُقصانٌ، وقد ذكرتُ عامةَ أسانيدِهِ ونعضَ ألفاظه المختلفةِ في كتابي «شرح الترمذي»، وفي بعض ألفاظه عند الإمامِ أحمدَ، والترمذي أيضًا: «المشيُ على الأقدامِ إلى الجماعاتِ» بدل: «الجُمُعات» وفيه أيضًا عندهما بعد ذكْر الكفَّاراتِ زيادةُ: «ومَنْ فعلَ ذلك عاشَ بخيرٍ، وماتَ بخيرٍ، وكان مِنْ خطيئتِهِ كيوم ولدتْه أُمُّه» ، وفيه أيضًا عندهما: «والدرجاتُ إفشاءُ السلامِ» بدل: «لين الكلامِ» وفي بعض رواياتِهِ: «فعلمتُ ما في السماءِ والأرضِ، ثم تلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥]» وفي رواية أخرى: «فتجلَّى لي ما بيْنَ السماءِ والأرضِ»، وفي رواية: «ما بيْنَ المشرقِ»، وفي بعضها زيادة في الدعاء وهي: «وتتوب عليَّ» ، وفي بعضِها: «إسباغُ الوضوءِ في السبراتِ» وفي بعضها: «وقال: يا محمد إذا صليتَ، فقُلْ: اللَّهُمَّ إني أسألك فعْلَ الخيراتِ» فذكره.

والمقصودُ هنا شرحُ الحديثِ وما يُستنبطُ منه مِنَ المعارفِ والأحْكامِ وغيرِ ذلك. ففي الحديثِ دلالةٌ على أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن من عادتِهِ تأخيرُ صلاةِ

---

(١) «الجامع» (٣٢٣٥).

الصبحِ إلى قـريبِ طلوعِ الشمسِ، وإنَّمـا كانتْ عـادتُهُ التغليسَ بهـا، وكان أحيانًا يُسْفِرُ بها عند انتشارِ الضوءِ على وجهِ الأرض، وأما تأخيرُها إلى قريبِ طلوعِ الشمسِ فلم يكنْ مِنْ عـادتِهِ، ولهذا اعتـذرَ لهم عَنْهُ في هذا الحديث. وقد قيـل: إن تأخيرَها إلى هذا الإسْفـارِ الفاحشِ لا يجوزُ لغيـرِ عذرٍ، وأنَّه وقتُ ضرورةٍ، كتأخير العصر إلى بعد اصفرار الشمسِ وهو قولُ القاضي من أصحابِنا في بعضِ كتبه، وقد أوَمأ إليه الإمامُ أحمدُ وقال: هذهِ صلاةُ مفرط، إنَّما الإسْفارُ أن ينتشرَ الضوءُ على الأرضِ.

وفي الحديثِ دلالةٌ على أنَّ من أخَّرَ الصلاةَ إلى آخـر الوقتِ لعذرٍ أو غيرِهِ وخافَ خروجَ الوقتِ في الصلاةِ إنْ طَوَّلها أنْ يخفـفها حتَّى يُدْركها كُلَّها في الوقتِ.

وأمَّا قولُ أبي بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنه لَمَّا طوَّل في صلاةِ الفجرِ وقرأ بالبقرةِ فقيل له: كادت الشمسُ أنْ تطلعَ، فقـال: لو طلعتْ لم تجدْنَا غافلين، فإن أبا بكر رضي الله عنه لم يتعمَّـدِ التأخيرَ إلى طلوعِ الشمسِ ولا أنْ يمدَّها ويُطـيلها حتَّى تطلعَ الشمسُ؛ لأنه دخلَ فيـها بغلسٍ، وأطالَ القراءةَ، وربما كان قد اسـتغرقَ في تلاوتِهِ، فلو طلعتِ الشمسُ حـينئذٍ لم يضرَّه، لأنه لم يكنْ متـعمدًا لذلك، وهذا يدلُّ على أنَّه كان يرى صحةَ الصـلاةِ لمن طلعتْ عليه الشمسُ وهو في صلاتِهِ كما أمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم منْ طلعت عليه الشمسُ وقد صلَّى ركعة من الفجرِ أنْ يُضيفَ إليها أُخرى.

وفي حـديثِ معـاذٍ دليلٌ على أنَّ من رأى رُؤيا تَـسُرُّه فـإنَّه يقَـصُهُّـا على أصحابِهِ وإخوانه المُحبينَ له، ولا سيَّما إنْ تضمنتْ رُؤياه بشارةً لهم وتعليمًا لما

ينفعهم، وقد كان النبيُّ ﷺ إذا صلَّى الفجرَ يقـولُ لأصحابِه: «**من رأى منكم الليلة رؤيا**»[(١)] وفيه أيضًا: أن من استثقل نومه في تهجده بالليلِ حتَّى رأى رؤيا تَسُرُّه، فـإنَّ في ذلك بُشْرى لـه. وفي «مراسيـلِ الحسنِ»: «**إذا نامَ العـبدُ وهو ساجدٌ باهى اللَّهُ الملائكةَ يقول: يا ملائكتي انظرُوا إلى عـبدِي، جسَدُهُ في طاعتِي وروحُهُ عندي**»[(٢)] وفيـه دلالةٌ على شرفِ النبيِّ ﷺ وتفضيلِه بتعليـمِهِ ما في السماواتِ والأرضِ، وتجلَّى ذلك له مما تختصمُ فـيه الملائكةُ في السماء وغيـر ذلك كما أُري إبراهيمُ ملكوتَ السماواتِ، وقد وردَ في غيرِ حـديثٍ مرفوعًا، وموقوفًا أنَّه ﷺ أُعْطِي عِلْمَ كلِّ شيءٍ خلا مفاتيح الغيبِ الخمسِ التي اختصَّ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بعلمِهـا، وهي المذكورةُ في قـولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[لقمان: ٣٤].

وأمَّا وصفُ النبيِّ ﷺ لربِّه عزَّ وجلَّ بما وصفَهُ به فكُلُّ ما وصف النبيُّ ﷺ ربَّه عزَّ وجلَّ به فهو حقٌّ وصدقٌ يجبُ الإيمـانُ والتصديقُ به كما وصفَ اللَّه عزَّ وجلَّ به نفْسَهُ، مع نَفْي التمثيل عنه، ومَنْ أشكِلَ عليه فهْمُ شيءٍ مِنْ ذلك واشتبه عليـه فليقل كما مدحَ اللَّهُ تعالى به الراسـخينَ في العلمِ وأخبرَ عنهم أنهم عند المتشابه ﴿**آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾ [آل عمران: ٧]، وكما قال النبي ﷺ في القرآن: «**ومـا جهلتُمْ منه فَـكِلُوهُ إلى عالمِـه**» خرَّجه الإمامُ أحمدُ[(٣)] والنسائيُّ وغيرُهُما، ولا يتكلَّفُ ما لا عِلْمَ له به، فإنه يخشى عليه مِنْ ذلك الهلكة.

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٢١٤)، (٢/ ٦٥ ـ ١٢٥)، (٣/ ٧٧)، (٦/ ٨٦)، (٨/ ٣٠)، (٩/ ٥٥)، ومسلم (٧/ ٥٨) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٢) راجع: «السلسلة الضعيفة» (٩٥٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨١ ـ ١٨٥ ـ ١٩٥) من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

سمعَ ابنُ عباسٍ يومًا منْ يروي عن النبيِّ ﷺ شيئًا مِنْ هذه الأحاديث، فانتفضَ رجلٌ استنكارًا لذلك فقال ابنُ عباسٍ: ما فرقُ هؤلاءِ يجدونَ رِقَّةً عندَ مُحْكمه ويهلكونَ عندَ مُتَشابِهه» خرَّجه عبدُ الرزاقُ في كتابه عن معمرٍ عن ابنِ طاوسٍ عن أبيه عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، كلما سمعَ المؤمنونَ شيئًا منْ هذه الكلامِ قالوا: هذا ما أخبرنا اللَّهُ ورسولُه وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليمًا.

وفيه دلالةٌ على أنَّ الملأَ الأعْلى وهُم الملائكةُ أو المُقرَّبونَ منهم يختصمونَ فيما بينهم ويتراجعونَ القولَ في الأعمالِ التي تُقربُ بني آدمَ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ وتُكَفَّرُ بها عنهم خطاياهُم وقد أخبرَ اللَّهُ عنهم بأنهم يستغفرون للذين آمنوا ويدْعون لهُمْ. وفي الحديثِ الصحيحِ: «**إنَّ اللَّهَ إذا أحبَّ عبْدًا نادى إنِّي أحبُّ فلانًا فأحبَّه، فيحبُّه جبريلُ ثم ينادِي في السماءِ أنَّ اللَّهَ يحبُّ فلانًا فأحبُّوه فيحبَّه أهلُ السماءِ، ثم يوضعُ له القَبولُ في الأرضِ**».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إذا ماتَ ابنُ آدمَ قال الناسُ: ما خلفَ؟ وقالتْ الملائكةُ: ما قدَّمَ؟ فالملائكةُ يسألون عن أعمالِ بني آدمَ ولهُمْ اعتناءٌ بذلك واهتمامٌ به، وبقي الكلامُ على المقصودِ من الحديثِ، وهو ذِكْرُ الكفَّاراتِ والدرجاتِ والدعواتِ، ونعقدُ لكلٍّ واحدةٍ منها فصْلاً مُفْردًا.

الفصل الأول: في ذكر الكفَّاراتِ:

وهو إسباغُ الوضوءِ في الكريهاتِ، ونقْلُ الأقدامِ إلى الجُمعاتِ أو الجَماعاتِ، والجلوسُ في المساجدِ بعدَ الصلواتِ، وسُمِّيتْ هذه كفَّاراتٌ لأنها تُكَفِّرُ الخطايا والسيئاتِ، ولذلك جاء في بعضِ الرواياتِ: «**مَنْ فعل ذلك عاشَ**

بخيرٍ، وماتَ بخيرٍ، وكان مِنْ خطيئتِه كيوم ولدتْهُ أمُّه»[١] وهذه الخصالُ المذكورةُ الأغلبُ عليها تكفيرُ السيئات، ويحصلُ بها أيضًا رفعُ الدرجات كما في «صحيح مسلمٍ»[٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قالَ: «**ألا أدُلُّكم على ما يمحُو اللَّهُ به الخطايا ويرفعُ به الدرجاتِ؟**» قالُوا: بلى يا رسول اللَّه، قال: «**إسباغُ الوضوءِ على المكارِه، وكثرة الخطا إلى المساجدِ، وانتظارُ الصلاةِ بعدَ الصلاةِ، فذلكُم الرباطُ فذلكُم الرباط**».

وقد رُوي هذا المعنى عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم من وجوهٍ متعددة، فهذه ثلاثةُ أسبابُ يُكفِّرُ اللَّهُ بها الذنوبَ:

أحدها: الوضوء، وقد دلَّ القرآنُ على تكفيره الذنوب في قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**﴾ إلى قوله: ﴿**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ**﴾ [المائدة:٦]، فقولُهُ تعالى: ﴿**لِيُطَهِّرَكُمْ**﴾ يشمل طهارةَ ظاهرِ البدنِ بالماءِ، وطهارةَ الباطنِ من الذنوبِ والخطايا، وإتمامُ النعمةِ إنما يحصلُ بمغفرةِ الذنوبِ وتكفيرها كما قال تعالى لنبيِّه صلى الله عليه وسلم: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ**﴾ [الفتح:٢] وقد استنبط هذا المعنى محمدُ بنُ كعبٍ القرظيُّ، ويشهدُ له الحديثُ الذي خرَّجه الترمذيُّ وغيرُه[٣]، عن معاذٍ أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم سمعَ رجلاً يدْعو يقول: اللَّهُمَّ إني أسألُك تمامَ النعمة، فقال له: «**أتدري ما تمامُ النعمةِ؟**» قال: دعوةٌ دعوتُ بها أرْجو بها الخيرَ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ تمامَ النعمة: النجاةُ منَ النارِ**

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/٦٦).

(٢) (١/١٥١). (٣) «الجامع» (٣٥٢٧).

ودخولُ الجنة» ، فلا تتم نعمةُ اللَّهِ على عبدِهِ إلا بتكفيرِ سيئاتِهِ .

وقد تكاثرتِ النصوصُ عن النبيِّ ﷺ بتكفيرِ الخطايا بالوضوءِ كما في «صحيحِ مسلمٍ»[1] عن عُثمانَ رضي الله عنه : أنه توضأ، ثم قال: رأيتُ رسولَ اللَّه ﷺ توضَّأ مِثْلَ وضوئي هذا، ثم قال: «من توضَّأ هكذا غُفر له ما تقدَّمَ من ذنبه، وكانتْ صلاتُهُ ومَشْيُهُ إلى المسجدِ نافلةً»، وفيه أيضًا[2] عن النبيِّ ﷺ قال: «منْ توضّأ فأحْسنَ الوضوءَ خرجتْ خطاياهُ منْ جَسَدِهِ حتَّى تخرجَ منْ تحتِ أظْفارِه» وفيه أيضًا[3] عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا توضَّأ العبدُ المسلمُ أو المؤمنُ، فغَسَلَ وجهَهُ خرَجَ من وجههِ كلُّ خطيئةٍ نظر إليها بعينيه مع الماءِ أو مع آخرِ قَطْرِ الماء، فإذا غَسَلَ يديه خرجَ منْ يديه كلُّ خطيئةٍ بطشتْها يداهُ مع الماءِ أو مع آخر قطرِ الماء، فإذا غَسَلَ رجْليه خرجتْ كلُّ خطيئةٍ مشتْها رِجْلاه مع الماءِ أو مع آخرِ قطْرِ الماءِ، حتى يخرجَ نقيًّا من الذنوبِ» وفيه أيضًا[4] عن عمرو بنَ عَبْسةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «ما منكُم من رجلٍ يقربُ وضوءَه فيمضمضُ ويستنشقُ فينتثرُ إلا خرجتْ خطايا وجههِ وفيه وخياشيمِه، ثُمَّ إذا غسلَ وجههُ كما أمره اللَّهُ إلا خرجتْ خطايا وجهه من أطرافِ لحيته مع الماءِ، ثم يغسلُ يديه إلى المرفقينِ إلا خرجتْ خطايا يديه من أناملِهِ مع الماءِ، ثم يمسحُ رأسَهُ إلا خرجتْ خطايا رأسِهِ من أطرافِ شعرِهِ مع الماءِ ثم يغسلُ قدميه إلى الكعبينِ إلا خرجتْ خطايا رجليه من أناملِهِ مع الماءِ، فإنْ هو قامَ فصلَّى فحمدَ اللَّهَ وأثنى عليه ومجَّدَهُ بالذي هو له أهلٌ، وفرَّغَ قلبَهُ للَّهِ إلا انصرفَ من خطيئته كهيئتِهِ يومَ ولدتْهُ أمُّهُ».

---

(١) (١/ ١٤٢).

(٢) «صحيح مسلم» (١/ ١٤٩) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٣) «صحيح مسلم» (١/ ١٤٨ ـ ١٤٩).

(٤) «صحيح مسلم» (٢/ ٢٠٨) في حديث طويل.

وفي «الموطأ»، و«مسندِ الإمـامِ أحمدَ» و«سننِ النسائيِّ» وابن مـاجه[١] عن الصنابحيِّ عن النبيِّ ﷺ: «إذا توضأ العبدُ المؤمنُ فمضمضَ خرجت الخطايا من فيه، فإذا استنشقَ خرجتِ الخطايا من أنفه، فإذا غسلَ وجهَه خرجتِ الخطايا من وجهه حتَّى تخرجَ من تحتِ أشفارِ عينيه، فإذا غسلَ يديه خرجتِ الخطايا من يديه حتَّى تخرجَ من تحتِ أظفارِ يديه، فإذا مسحَ برأسِه خرجت الخطايا من رأسِه حتَّى تخرجَ من أذنيه، فإذا غسلَ رجليه خرجتِ الخطايا من رجليْه حتَّى تخرجَ من تحتِ أظفارِ رجليه، ثمَّ كان مشيُه إلى المسجدِ وصلاتُه نافلةً له».

وفي «المسندِ»[٢] عن أبي أُمامة عن النبيِّ ﷺ قالَ: «ما من مسلمٍ يتوضأ فيغسلُ يديه ويمضمضُ فاه ويتوضأُ كما أُمِرَ إلا حطَّ اللَّهُ عنه يومئذٍ ما نطقَ به فمُه، وما مسَّ بيده، وما مشى إليه، حتَّى إنَّ الخطايا تحادَرُ من أطرافِه، ثم هو إذا مشى إلى المسجدِ فَرِجْلٌ تكتبُ حسنةً، وأُخرى تمحُو سيئة».

وفيه أيضًا[٣] عن النبيِّ ﷺ قال: «أيُّما رجلٍ قامَ إلى وضوئِه يريدُ الصلاةَ ثم غسلَ كفَّيه، نزلتْ خطيئتُه من كفيه مع أولِ قطرةٍ، فإذا مضمضَ واستنشقَ واستنثرَ نزلتْ خطيئتُه من لسانِه وشفتيه مع أولِ قطرةٍ، فإذا غسلَ وجهَهُ نزلتْ خطيئتُه من سمعِه وبصرِه مع أولِ قطرةٍ، فإذا غسلَ يديه إلى المرفقين ورجليه إلى الكعبينِ سلم من كلِّ ذنبٍ هو له وكان من كلِّ خطيئةٍ كهيئتِه يومَ ولدتْه أمُّه فإذا قامَ إلى الصلاةِ رفعَ اللَّهُ درجتَه وإن قعدَ قعدَ سالمًا».

وفي المعنى أحاديثُ أُخرُ وفيما ذكرناه كفايةٌ وللَّه الحمدُ والمنة.

---

(١) أخرجه: مالك في «الموطأ» (ص٤٥)، وأحمد (٤/ ٣٤٨، ٣٤٩)، والنسائي (١/ ٧٤)، وابن ماجه (٢٨٢).

(٢) (٥/ ٢٦٣).

(٣) «المسند» (٥/ ٢٥٢ ـ ٢٥٦ ـ ٢٦٣ ـ ٢٦٤).

وقد وردتِ النصوص أيضًا بحصول الثوابِ على الوضوء وهذا زيادةٌ على تكفيرِ السيئاتِ، ففي «صحيحِ مسلمٍ»[١] عن عمرَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**من توضَّأ فأحسنَ الوضوءَ ثم قالَ: أشهدُ أن لا إله إلا اللَّهُ وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، فتحتْ له أبوابُ الجنةِ الثمانيةِ يدخلُ من أيِّها شاءَ**». وفيه أيضًا[٢] عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ يقولُ: «**تبلغُ الحليةُ من المؤمن حيث يبلغُ الوضوءُ**»، وفيه أيضًا[٣] عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قالَ: **أنتم الغرُّ المحجلونَ يومَ القيامةِ من إسباغِ الوضوءِ**».

وخرَّجه البخاريُّ[٤] ولفظُهُ: «**إن أمَّتي يُدعون يوم القيامةِ غرًّا محجلينَ من آثارِ الوضوءِ**».

واعلمْ أن حديثَ معاذِ بنِ جبلٍ في المنامِ إنما فيه ذكرُ إسباغِ الوضوءِ على الكريهاتِ: وكذا في حديثِ أبي هريرةَ المبدوءِ بذكرِهِ في هذا الفصلِ فههنا أمرانِ:

أحدهما: إسباغُ الوضوءِ، وهو: إتمامُهُ وإبلاغُهُ مواضعَهُ الشرعيةَ كالثوبِ السابغِ المغطي للبدنِ كلِّه. وفي «مسند البزارِ»[٥] عن عثمانَ مرفوعًا: «**من توضَّأ فأسبغَ الوضوءَ غفرَ له ما تقدَّم من ذنبِهِ وما تأخَّرَ**» وإسنادُهُ لا بأس به وخرَّجه ابنُ أبي عاصمٍ من وجهٍ آخرَ عن عثمانَ، وخرجَ النسائيُّ وابنُ ماجه[٦] من حديثِ أبي مالكٍ الأشعريِّ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إسباغُ الوضوءِ شطرُ الإيمانِ**» وخرَّجه

(١) (١/ ١٤٤). (٢) «صحيح مسلم» (١/ ١٥١).
(٣) «صحيح مسلم» (١/ ١٤٩).
(٤) «صحيح البخاري» (١/ ٤٦).
(٥) «البحر الزخار» (٤٣٧) بلفظ: «**من توضأ فأسبغ الوضوء ثم مشى إلى صلاة مكتوبة غفر له**».
(٦) أخرجه: النسائي (٥/ ٥)، وابن ماجه (٢٨٠).

مسلم[١] ولفظُهُ: «الطهورُ شطرُ الإيمانِ».

وثانيهما: أن يكونَ إسباغُهُ على الكريهاتِ، والمرادُ أن يكونَ على حالةٍ تكرهُ النفسُ فيها الوضوءَ وقد فُسِّرَ بحالِ نزولِ المصائبِ فإن النفسَ حينئذٍ تطلبُ الجزعَ فالاشتغالُ عنه بالصبرِ والمبادرةِ إلى الوضوءِ والصلاةِ من علامةِ الإيمانِ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾ [البقرة:٤٥] وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[البقرة:١٥٣].

والوضوءُ مفتاح الصلاة وقد يُطفأ به حرارةُ القلبِ الناشئةِ عن ألمِ المصائبِ كما يُؤمرُ مَنْ غضبَ بإطفاءِ غضبِهِ بالوضوءِ، وفسرتِ الكريهاتُ بالبردِ الشديدِ ويشهدُ له أنَّ في بعضِ رواياتِ حديثِ معاذٍ «**إسباغُ الوضوءِ على السبرات**» والسبرةُ: شدةُ البردِ، ولا ريبَ أنَّ إسباغَ الوضوءِ في شدةِ البردِ يشقُّ على النفسِ وتتألمُ به، وكلُّ ما يؤلمُ النفسَ ويشقُّ عليها فإنه كفارةٌ للذنوبِ وإنْ لم يكنْ للإنسانِ فيه صنعٌ ولا تسببٌ، كالمرضِ ونحوِه كما دلتِ النصوصُ الكثيرةُ على ذلك.

وأما إن كان ناشئًا عن فعلٍ هو طاعةٌ للَّه تعالى، فإنه يكتبُ لصاحبِهِ به أجرٌ وترفعُ به درجاتُهُ كالألمِ الحاصلِ للمجاهدِ في سبيلِ اللَّهِ تعالى قال اللَّهَ عزَّ وجلَّ: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [التوبة:١٢٠] وكذلك ألم الجوعِ والعطشِ الذي يحصلُ

(١) «صحيح مسلم» (١/ ١٤٠).

للصائم، فكذا التألمُ بإسباغِ الوضوءِ في البردِ، ويجبُ الصبرُ على الألمِ بذلك، فإن حصلَ به رضى، فذلك مقامُ خواصِّ العارفين المحبينَ، وينشأ الرضى بذلكَ عن ملاحظةِ أمورٍ:

أحدها: تَذَكُّرُ فضلِ الوضوءِ من حطِّه الخطايا ورفعِهِ الدرجاتِ، وحصولِ الغرة والتحجيل به وبلوغِ الحليةِ في الجنّة إلى حيث يبلغ، وهذا كما انكسرَ ظفرُ بعضِ الصالحاتِ من السلفِ من عثرة عثرتْها فضحكتْ وقالتْ: أنسانِي حلاوةُ ثوابِهِ مرارةَ وجعِهِ. وقال بعضُ العارفينَ: من لم يعرفْ ثوابَ الأعمالِ ثقلتْ عليه في جميعِ الأحوالِ.

الثاني: تَذَكُّرُ ما أعدَّه اللَّه عزَّ وجلَّ لمن عصاهُ من العذابِ بالبردِ والزمهريرِ في الآخرةِ، فإنَّ شدةَ بردِ الدنيا يذكرُ زمهريرَ جهنم، وفي الحديث الصحيح: «**إنَّ أشدَّ ما تجدونَ من البردِ من زمهريرِ جهنَّم**»[1] فملاحظةُ هذا الألمِ الموعود يهونُ الإحساسَ بألمِ بردِ الماءِ كما رُوي عن زبيد الياميِّ أنه قام ليلةً للتهجدِ وكان البردُ شديدًا، فلمَّا أدخلَ يده في الإناءِ وجدَ شدةَ بردِهِ فذكرَ زمهرير جهنم، فلم يشْعُر ببردِ الماءِ بعد ذلك، وبقيتْ يدُه في الماءِ حتى أصبح، فقالتْ له جاريتُهُ: مالَكَ لم تصلِّ الليلةَ كما كنتَ تصلِّي؟ فقال: إني لما وجدتُ شدةَ بردِ الماءِ ذكرتُ زمهريرَ جهنَّم فما شعرتُ به حتىَ أصبحتُ، فلا تخبري بهذا أحدًا ما دمتُ حيًّا.

الثالث: ملاحظةُ جلالِ مَنْ أمرَ بالوضوءِ، ومطالعةُ عظمته وكبريائه، وتذكرُ التهيئ للقيامِ بين يديه ومناجاتِهِ في الصلاةِ، فذلك يهونُ كلَّ ألمٍ ينالُ العبدَ

(١) أخرجه: البخاري (٤/١٤٦)، ومسلم (٢/١٠٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

في طلبِ مرضاتِه من بردِ الماءِ وغيرِه وربَّما لم يشعر بالماءِ بالكليةِ، كما قال بعضُ العارفين: بالمعرفة هانتْ على العاملينَ العبادةُ قال سعيدُ بنُ عامرٍ: بلغَني أنَّ إبراهيمَ الخليلَ ﷺ كانَ إذا توضأ سُمِعَ لعظامِه قعقعةٌ.

وكان عليُّ بن الحسينُ إذا توضأ اصفرَّ، فيقال له: ما هذا الذي يعتريكَ عندَ الوضوءِ؟ فيقولُ: أتدرونَ بين يدي منْ أريدُ أن أقومَ له؟.

وكان منصورُ بنُ زاذانَ إذا فرغَ من وضوئِه يبكي حتَّى يرتفعَ صوتُه، فقيلَ له: ما شأنُك؟ فقالَ: وأيُّ شيءٍ أعظم من شأني إني أريد أن أقومَ بين يدي من لا تأخذُهُ سنةٌ ولا نومٌ، فلعله يرضى عنِّي.

وكان عطاءٌ السلميُّ إذا فرغَ من وضوئه ارتعد وانتفضَ وبكى بكاءً شديدًا، فقيلَ له في ذلك، فقال: إني أريدُ أن أتقدَّمَ إلى أمرٍ عظيمٍ، إني أريدُ أن أقومَ بين يدي اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

الرابع: استحضارُ اطلاعِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ على عبدِه في حالِ العملِ له، وتحملُ المشاقِ لأجلِه فمن تيقنَ أن البلاءَ بعينِ من يحبُّه هانَ عليه الألمُ كما أشارَ تعالى إلى ذلك بقولِه عزَّ وجلَّ لنبيِّه ﷺ: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ [الطور:٤٨] وقولُهُ تعالى لموسى وهارونَ عليهما السلامُ: ﴿**لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**﴾ [طه:٤٦] وقال ﷺ: «**اعبد اللَّه كأنك تراهُ فإن لم تكنْ تراهُ فإنه يراك**» قال أبو سليمانَ: قرأتُ في بعضِ الكتبِ، يقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: بعيني ما تحمَّلَ المتحملونَ من أجلي، وكابدَ المكابدونَ في طلبِ مرضَاتِي، فكيفَ بهم وقد صارُوا في جوارِي وتبحبَحُوا في رياضِ خلدِي؟ فهنالك فليستبشرِ المصفونَ للَّه أعمالهم بالمنظرِ العجيبِ من الحبيبِ القريبِ، أترونَ أنِّي أضيعُ لهم عملاً؟ فكيف وأنا أجود على المولِّين عنِّي فكيفَ بالمقبلينَ إليَّ.

فإسباغُ الوضوءِ في البردِ لاسيَّما في الليل يطلعُ اللَّهُ عليه ويرضَى به ويباهي به الملائكةَ، فاستحضارُ ذلك يهونُ ألم بردِ الماءِ.

وفي «المسندِ» و«صحيحِ ابن حبانَ»[1] عن عقبةَ بنِ عامرٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «**رجلانِ من أمَّتي، يقومُ أحدُهُما من الليلِ يعالجُ نفسَهُ إلى الطهورِ وعليه عقدٌ فيتوضأ، فإذا وضَّأ يديه انحلتْ عقدةٌ، وإذا وضَّأ وجهَهُ انحلتْ عقدةٌ، وإذا مسحَ رأسَهُ انحلتْ عقدةٌ، وإذا وضَّأ رجليه انحلتْ عقدةٌ، فيقول الربُّ عزَّ وجلَّ للذي وراء الحجابِ: انظرُوا إلى عبدِي هذا يعالجُ نفسَهُ يسألني، ما سألني عبدِي هذا فهو لَهُ**» وذكرَ بقيةَ الحديثِ. ورُوي عن عطيةَ عن أبي سعيدٍ عن النبيِّ ﷺ: «**إن اللَّه يضحكُ إلى ثلاثةِ نفرٍ، رجلٌ قامَ من جوفِ الليلِ فأحسنَ الطهورَ فصلَّى**»[2] وذكر الحديث.

كان بعضُ السلف له وِرْدٌ بالليلِ فـفترَ عنهُ فـهتفَ به هاتفٌ: ينظرُ اللَّه في الليلِ لما يصنعُ خدامُهُ إذا قامُوا أوحشتهم على الخدمةِ أحكامُهُ.

الخامس: الاستغراقُ في محبةِ من أمرَ بهذه الطاعةِ وأنَّه يرضَى بها ويحبُّها، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٢٢] فمن امتلأ قلبُه من محبةِ اللَّه عزَّ وجلَّ أحبَّ ما يحبُّهُ وإنْ شقَّ على النفسِ وتألَّمتْ به، كما يُقال: المحبةُ تهونُ الأثقالَ.

وقال بعضُ السلفِ في مرضِهِ: أحبُّه إليَّ أحبُّه إليه.

وكما قيل:

فَمَا لِجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُم أَلَمٌ

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٥٩ ـ ٢٠١)، وابن حبان في «صحيحه» (١٠٥٢ ـ ٢٥٥٥).

(٢) أحمد في «المسند» (٣/ ٨٠).

وكما قيل أيضًا:

فِي حبِّكم يهونُ ما قد ألقَى يسعدُ بالنعيم من لا يشقَى

من خدَمَ من يحبُّ تلذذَ بشقائهِ في خدمـتـه. وقال بعضُهم: القلبُ المحبُّ للَّهِ يحبُّ النصبَ له، وقالَ عبدُ الصمد: أوجدَ لهم في عذابهِ عذوبةً.

إسباغُ الوضـوءِ على المكاره من علاماتِ المحبينَ، كمـا في كِتابِ «الزهدِ» للإمامِ أحـمدَ عن عطاء بن يسـارٍ قال: قـال موسى عليه الـسلام: «يارب من أهلُكَ الذينَ هم أهلُكَ الذينَ تظلّهم في ظلِّ عرشِكَ؟ قالَ: هم البريئةُ أبدانُهم الطاهرةُ قلوبُهم الذينَ يتحابُّون بجلالي، الذين إذا ذُكرتُ ذُكرُوا بي وإذا ذُكِروا ذكرتُ بذكـرِهم، الذينَ يسبغونَ الوضـوءَ في المكارهِ وينيبونَ إلى ذكْـري كما تنيبُ النسورُ إلـى أوكارِها، ويكلفُون بحـبِّي كما يكلفُ الـصبيّ بحبِ الناسِ ويغضبُونَ لمحارِمي إذا استحلَّت، كما يغضبُ النمرُ إذا حربَ».

وقد يخـرقُ اللَّهُ العادةَ لبعضِ المحبـينَ له فلا يجدُ ألمَ بردِ الماءِ، كمـا كانَ بعضُ السلفِ قد دعَـا اللَّهَ أن يهوِّن عليه الطهورُ في الشـتاءِ فكانَ يؤتى بالماء وله بخارٌ، وربما سُلِبَ بعضهُم الإحسـاسَ في الحرِّ والبردِ مطلقًا، وكانَ عليُّ ابنُ أبي طالبٍ ﵁ قد دعَا له النبيُّ ﷺ أن يذهبَ اللَّهُ عنه الحرَّ والبردَ فكانَ يلبسُ في الصيفِ لباسَ الشتَاءِ وفي الشتاءِ لباسَ الصيفِ وقالَ ﷺ فيه: **«إنـه يحبُّ اللَّهَ ورسولَهُ ويحبُّه اللَّهُ ورسولُهُ»** (١).

ورأى أبو سليمانَ الدارانيُّ في طريقِ الحجِّ في شدّةِ بردِ الشتـاءِ شيخًا عليه أخلاقٌ رثةٌ وهو يرشحُ عرَقًا فسألهُ عن حـالِهِ فقالَ: إنما الحرُّ والبردُ خلقانِ للَّهِ

(١) أخرجه: البزار: (٢٥٤٦ ـ كشف).

عز وجل، فإنْ أمرَهما أن يغشيـاني أصاباني وإن أمرهمَا أن يتركاني تركاني، وقالَ: أنا في هذِه البـريةِ منذُ ثلاثينَ سنة يلبسُني في البـردِ فيحًـا من محبـتهِ ويلبسُني في الصيفِ بردًا من محبَّتهِ، وقيلَ لآخرَ وعليه خرقتان في بردٍ شديدٍ لو استترتْ في موضعٍ يكنُّكَ من البردِ فأنشدَ:

ويحسن ظنِّي أنني في فنائـهِ   وهلْ أحدٌ في كنِّهِ يجد البردَا

السبب الثاني: من مكفراتِ الذنوبِ المشيُ على الأقدامِ إلى الجماعاتِ وإلى الجمعـاتِ، ولاسيَّما إن توضَّـأ الرجلُ في بيتِهِ ثم خرجَ إلى المسـجدِ لا يريدُ بخروجِه إلا الصلاةَ فيه، كـما في «الصحيحينِ»[1] عن أبي هـريرةَ ﷺ عن النـبيِّ ﷺ قـال: «**صلاةُ الرجلِ في الجماعةِ تضعفُ عـلى صلاتِه في بيتِهِ وفي سوقِه خمسًـا وعشرينَ ضعفًـا، وذلك أنه إذا توضَّأ فأحسَنَ الوضوءَ، ثم خـرجَ إلى المسجدِ لا يخرجـهُ إلا الصلاةُ، لم يخط خطوةً إلا رُفـعت له بها درجةٌ وحُطَّ عنـه بها خطيئـةٌ، فإذا صلَّى لم تزلِ الملائكةُ تصلِّي عليـهِ مادام في مصـلاَّه، اللَّهم صلِّ عليه اللّهم ارحـمه، ولا يزالُ أحدُكم في صلاةٍ ما انتظر الصلاةَ**».

وفي «صحيح مسلمٍ»[2] عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «**منْ تطهَّـرَ في بيتـه، ثمَّ مشى إلى بيتٍ من بيـوتِ اللَّه ليقضِي فـريضةً من فرائضِ الـلَّه، كانتْ خطوتاهُ إحداهُما تحطُّ خطيئةً والأخرى ترفَعُ درجةً**»، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**كلُّ خطوةٍ مشيهَـا إلى الصلاة صدقةٌ**»، وفي «المسندِ» و«صحيحِ ابنِ حبانَ»[3] عن عقبةَ بنِ عامرٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إذَا تطهـرَ الرجلُ ثمَّ أتَى**

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٢٩ ـ ١٦٦)، (٣/ ٨٦)، ومسلم (٢/ ١٢٨ ـ ١٢٩).

(٢) (٢/ ١٣١).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٥٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٠٤٥).

المسجدَ يرعى الصلاةَ كتبَ له كاتباهُ بكلِّ خطوةٍ يخطوهَا إلى المسجدِ عشرَ حسناتٍ».

وفيهما أيضًا [(١)] عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو عن النبيِّ ﷺ قالَ: « من راحَ إلى مسجدِ جماعةٍ فخطوتاهُ خطوةٌ تمحو سيئةً وخطوةٌ تكتبُ حسنةً ذاهبًا وراجعًا» وفي «سنن أبي داودَ»[(٢)] عن أبي أمامةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «من خرجَ من بيتِه متطهراً إلى صلاةٍ مكتوبةٍ فأجرُه كأجرِ الحاجِّ المحرمِ» وفيه أيضًا[(٣)] عن رجلٍ من الأنصارِ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «منْ توضَّأَ فأحسنَ الوضوءَ ثم خرجَ إلى الصلاةِ، لم يرفع قدمَهُ اليمنى إلا كتبَ اللَّهُ له بها حسنةً، ولم يضعْ قدمَهُ اليُسرى إلا حطَّ اللَّهُ عنه بها خطيئةً، فليقرب أو ليبعد، فإنْ أتَى المسجدَ فصلَّى في جماعةٍ غُفِرَ لهُ» والأحاديثُ في هذا المعنى كثيرةٌ جدًّا.

فالمشي إلى الجمعاتِ له مزيدُ فضلٍ لاسيَّما إن كانَ بعد الاغتسالِ كما في «السنن»[(٤)] عن أوسِ بنِ أوسٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «من غسَّلَ يومَ الجمعةِ واغتسلَ، وبكَّرَ وابتكَرَ، ومشى ولم يركبْ، ودنا من الإمامِ واستمعَ ولم يلغُ، كان لهُ بكلِّ خطوةٍ أجرُ سنةٍ صيامُها وقيامُها».

كلما بعُدَ المكانُ الذي يمشي منه إلى المسجدِ كانَ أفضل لكثرةِ الخُطا، وفي «صحيح مسلمٍ»[(٥)] عن جابرٍ قال: «كانتْ دارُنا نائيةً عن المسجدِ، فأردْنا أن نبيعَ بيوتَنَا فنقرب من المسجدِ، فنهانا رسولُ اللَّهِ ﷺ وقال: «إنَّ لكم بكلِّ

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٠٣٩).
(٢) «السنن» (٥٥٨، ١٢٨٨).
(٣) «السنن» (٥٦٣).
(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٩ ـ ١٠، ١٠٤)، وأبو داود (٣٤٥)، والترمذي (٤٩٦)، والنسائي (٣/ ٩٥ ـ ٩٧) وابن ماجه (١٠٨٧).
(٥) (٢/ ١٣١).

خطوة حسنة» وفي «صحيح البخاري»[١] عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**يابني سلمةَ ألا تحتسبونَ آثارَكُم**»، وفي «الصحيحين»[٢] عن أبي موسى أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ أعظمَ الناسِ أجراً في الصلاة أبعدُهم إليها ممشى فأبعدُهم**»، ومع هذا فنفسُ الدارِ القريبةِ من المسجدِ أفضلُ من الدارِ البعيدةِ عنه، لكنَّ المشي من الدار البعيدةِ أفضلُ، ففي «المسندِ»[٣] عن حذيفةَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**فضلُ الدارِ القريبةِ من المسجدِ على الدارِ البعيدةِ الشاسعةِ، كفضلِ الغازي على القاعدِ**» وإسنادُه منقطعٌ.

والمشيُّ إلى المسجدِ أفضلُ من الركوبِ كما تقدَّم في حديثِ أوسٍ في الجمعِ، ولهذا جاءَ في حديثِ معاذ ذكرُ المشي على الأقدامِ، وكانَ النبيُّ ﷺ لا يخرجُ إلى الصلاة إلا ماشيًا حتَّى العيد يخرجُ إلى المصلَّى ماشيًا، فإنَّ الآتي للمسجدِ زائرُ اللَّهِ، والزيارةُ على الأقدامِ أقربُ إلى الخضوعِ والتذللِ، كما قِيل:

لو جئتكم زائرًا أسْعى على بصرِي ... لم أؤدِّ حقا وأيَّ الحقِّ أديتُ

وفي «صحيح البخاريِّ»[٤] عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**من غدا إلى المسجدِ أو راحَ، أعدَّ اللَّهُ له نزلاً في الجنةِ كلَّما غدا أو راحَ**» والنزلُ هو ما يعدُّ للزائرِ عندَ قدومهِ، وفي الطبراني[٥] من حديثِ سلمانَ مرفوعًا: «**من توضَّأ في بيتهِ فأحسنَ الوضوء ثمَّ أتى المسجدَ فهو زائرُ اللَّهِ تعالي وحقٌّ على المزورِ أن يكرمَ الزائرَ**»

(١) (١/ ١٦٧)، (٣/ ٢٩).
(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٦٦)، ومسلم (٢/ ١٣٠).
(٣) (٥/ ٣٨٧، ٣٩٩).
(٤) (١/ ١٦٨).
(٥) «المعجم الكبير» (٧/ ٢٥٤، ٢٥٥).

وفي «صحيح مسلمٍ»[١] عن أبيٍّ بن كعبٍ قال: كانَ رجلٌ لا أعلمُ رجلاً أبعدَ من المسجدِ منهُ وكانَ لا تخطئُهُ صلاةٌ في المسجدِ، قالَ: فقيل له: أو قلت لهُ: لو اشتريتَ حمارًا تركبُه في الظلماءِ أو في الرمضاءِ فقال: ما يسرّني أن منزلي إلى جنبِ المسجدِ، إني أريدُ أنْ يكتبَ لي ممشاي إلى المسجدِ، ورجوعي إذا رجعتُ إلى أهلي، فقال: رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«قد جمعَ اللَّهُ لكَ ذلك كلَّه»**.

وكلما شقَّ المشيُ إلى المسجدِ كانَ أفضل ولهذا فُضِّلَ المشيُ إلى صلاةِ العشاءِ وصلاةِ الصبحِ وعدلَ بقيامِ الليلِ كله كما في «صحيح مسلمٍ»[٢] عن عثمانَ عن النبيِّ ﷺ قال: **«من صلى العشاءَ في جماعة فكأنَّما قامَ نصفَ الليل، ومن صلي الصبح في جماعةٍ فكأنما قامَ الليلَ»**، وفي «الصحيحين»[٣] عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: **«أثقلُ صلاةٍ على المنافقينَ صلاةُ العشاءِ وصلاةُ الفجرِ، ولو يعلمونَ ما فيهمَا لأتوهُما ولو حبوًا»**.

وإنما ثقلتْ هاتان الصلاتانِ على المنافقينَ لأنَّ المنافقَ لاينشطُ للصلاةِ إلا إذا رآهُ الناسُ، كما قالَ تعالى: ﴿**وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [النساء:١٤٢] وصلاة العشاءِ والصبحِ يقعان في ظلمةٍ فلا ينشطُ للمشي إليهما إلا كلُّ مخلصٍ يكتفي برؤيةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ وحده لعلمهِ بهِ.

وثوابُ المشي إلي الصلاة في الظُّلَمِ النورُ التامُّ في ظُلَم القيامةِ، كما في

(١) (٢/ ١٣٠).
(٢) (٢/ ١٢٥).
(٣) أخرجه: البخاري (١/ ١٦٧)، ومسلم (٢/ ١٢٣).

«سنن أبي داودَ»، والترمذي [1] عن بريدةَ عنَ النبيِّ ﷺ قالَ: « **بشِّر المشائينَ في الظلم إلي المساجدِ بالنورِ التامِّ يومَ القيامةِ** » وخرَّجهُ ابنُ ماجه[2] من حديثِ سهلِ بن سعدٍ ، وقد رُوي من وجوهٍ كثيرةٍ. وفي بعضهَا زيادةٌ «**يفزعُ النَّاس ولا يفزعونَ**» قال النخعيُّ: وكانُوا يرونَ أنَّ المشيَ في الليلةِ الظلماء إلى الصلاة موجبةٌ - يعني: توجبُ المغفرةَ.

ورويِنا عن الحسنِ قالَ: أهلُ التوحيدِ في النار لايقيدونَ فيقولُ الخزنةُ بعضُهم لبعضٍ: ما بالُ هؤلاءِ لا يُقيَّدون، وهؤلاءِ يُقيَّدون؟ فيناديهم مُنادٍ: إنَّ هؤلاءِ كانوا يمشونَ في ظُلَمِ الليل إلى المساجدِ، كما أنَّ مواضعَ السجودِ من عصاةِ الموحدينَ في النارِ لا تأكلهَا النَّارُ، فكذلك الأقدامُ التي تمشي إلى المساجدِ في الظلمِ لا تقيدُ في النار. ولا يسوِّي في العذابِ بينَ من خدمَهُ وبين من لم يخدِمه وإن عذَّبه.

ومن كانَ في سخطهِ محسنًا فكيف يكونُ إذا ما رضِي

لـمَّا كانتِ الصلاةُ صلةً بين العبدِ وبينَ ربِّه، ومناجاةً تظهرُ فيها آثارُ تجلِّيه لقلوبِ العارفينَ وقربِهِ شرعَ قبلَ الدخولِ فيها الطهارةُ، فإنَّه لا يصلحُ للوقوفِ بين يدي اللَّه عز وجل والخلوةِ بمناجاتِهِ إلا طاهرٌ، فأمَّا المتلوثُ بالأوساخِ الظاهرةِ والباطنةِ فلا يصلحُ للقربِ، فشرعَ اللَّهُ عز وجل للمصلِّي غسلَ أعضائِهِ بالماءِ ورتبَ عليها طهارةً ظاهرةً وباطنةً، ثمَّ شرعَ المشي إلى المساجدِ.

وفيه أيضًا تكفيرُ الخطايا حتَّى تكملَ طهارةُ الذنوبِ إن بقي منها شيءٌ بعد الوضوءِ حتَّى لا يقفَ العبدُ في مقامِ المناجاةِ إلا بعدَ كمالِ طهارةٍ ظاهرةٍ

(١) أخرجه: أبو داود (٥٦١)، والترمذي (٢٢٣).
(٢) «السنن» (٧٨٠).

وباطنة من درنِ الأوساخِ والذنوبِ، ولهـذا شَرَعَ لهُ تجديدَ التوبةِ والاستغفارَ عقبَ كلِّ وضوءٍ حتَّى تكملَ طهارةُ ذنوبه، كما خرَّج النسائيُّ[١] من حديثِ أبي سعيدٍ مرفوعًا وموقوفًا: «**من توضَّأ فأسبغَ الوضوءَ ثمَّ قالَ عندَ فراغه من وضوئه: سبحانكَ اللهمَّ وبحمدكَ أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ، ختمَ عليها بخاتمٍ فوضعتْ تحتَ العرشِ فلم تُكسرْ إلى يومِ القيامة**».

ومتى اجتهدَ العبدُ على تكميلِ طهارتهِ ومشيهِ إلى المسجدِ ولم يقوَ ذلكَ على تكفير ذنوبهِ، فإنَّ الصلاةَ يكملُ بها التكفيرُ، كما في «الصحيحين»[٢] عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**أرأيتُم لو أنَّ نهراً ببابِ أحدكُم يغتسلُ فيه كلَّ يومٍ خمسَ مراتٍ، هل يبقى من درنه شيء؟**» قالوا: لايبقى من درنهِ شيءٌ، قال: «**فذلكَ مثلُ الصلواتِ الخمس يمحو اللَّهُ بهنَّ الخطايا**».

وإنْ قويَ الوضوءُ وحدهُ على تكفيرِ الخطايا، فالمشيُ إلى المسجدِ والصلاةُ بعده تكونُ زيادةُ حسناتٍ وهذا هو المرادُ من قولِ النبيِّ ﷺ في حديث عثمانَ والصنابحي «**وكان مشيهُ إلى المسجدِ وصلاتُه نافلةً**»، وقد سبقَ ذكرُ الحديثين.

واعلم أنَّ جمهورَ العلماءِ على أنَّ هذهِ الأسبابَ كلَّها إنما تكفِّر الصغائرَ دونَ الكبائرِ وقد استدلَّ بذلكَ عطاءٌ وغيرهُ من السلفِ في الوضوءِ، وقال سلمانُ الفارسيُّ ﷺ: الوضوءُ يكفِّرُ الجراحاتِ الصغارَ، والمشيُ إلى المسجدِ يكفِّرُ أكثرَ من ذلكَ والصلاة تكفر أكثر من ذلك. خرجهُ محمدُ بن نصر المروزيُّ، ويدلُّ على أنَّ الكبائرَ لا تكفَّرُ بذلكَ ما في «الصحيحينِ»[٣] عن أبي

(١) «عمل اليوم والليلة» (٨٣).
(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٤٠)، ومسلم (٢/ ١٣١).
(٣) أخرجه: مسلم (١/ ١٤٤) وليس هو عند البخاري.

هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «الصلواتُ الخمسُ والجمعةُ إلى الجمعةِ ورمضانُ إلي رمضانَ، مكفراتٌ لـما بينهنَّ إذا اجتنبت الكبائرُ».

وفي «صحيح مسلمٍ»[1] عن عثمانَ عن النبيِّ ﷺ قال: «ما منْ امريءٍ مسلمٍ تحضُرهُ صلاةٌ مكتوبةٌ فيحسنُ وضوءها وخشوعَها وركوعَها وسجودَها، إلا كانتْ كفارةً لما قبلَها من الذنوبِ ما لم تؤتَ كبيرةٌ وذلكَ الدهرَ كلَّهُ».

فانظرْ إلى كم تيسرَ لك أسبابُ تكفيرِ الخطايا لعلكَ تُطهَّرُ منها قبلَ الموتِ فتلقاهُ طاهرًا فتصلحُ لمجاورتِه في دارِ السلام، وأنتَ تأبى إلا أن تموتَ على خبثِ الذنوبِ فتحتاجُ إلى تطهيرها في كيرِ جهنَّم، يا هذا أما علمتَ أنه لا يصلحُ لقربنا إلا طاهرٌ، فإذا أردت قربَنا ومناجاتنا اليومَ فطهِّر ظاهرَكَ وباطنَكَ لتصلُحَ لذلكَ، وإن أردتَ قربَنا ومناجاتَنا غدًا فطهِّرْ قلبك من سوانَا لتصلحَ لمجاورتنَا ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨،٨٩] والقلبُ السليمُ الذي ليسَ فيه غيرُ محبةِ اللَّهِ ومحبَّةِ ما يحبُّه اللَّهُ «إن اللَّهَ طيبٌ لا يقبلُ إلا طيبًا»[2] فما كلُّ أحدٍ يصلُح لمجاورةِ اللَّهِ تعالى غدًا، ولا كلُّ عبدٍ يصلحُ لمناجاةِ اللَّهِ اليوم ولا على كلِّ الحالات تحسنُ المناجاةُ.

النـاسُ من الهـوَى علَى أصنافِ   هذا نَقضُ العهـدِ وهـذا وافي
هيـهاتَ من الكدورِ تبغي الصافي   مـا يصلحُ للحضرةِ قلبٌ جَافي

السبب الثالث: من مكفراتِ الذنوبِ الجلوسُ في المساجدِ بعد الصلواتِ، والمرادُ بهذا الجلوسِ انتظارُ صلاةٍ أخرى كما في حديثِ أبي هريرةَ «وانتظارُ

---

(١) (١/ ١٤٢).

(٢) أخرجه: مسلم (٣/ ٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الصلاة بعد الصلاةِ فذلكُمُ الرباطُ فذلكُمُ الرباطُ» فجعل هذا من الرباطِ في سبيلِ اللَّه عز وجل، وهذا أفضلُ من الجلوسِ قبلَ الصلاة لانتظارهَا ، فإنَّ الجالسَ لانتظارِ الصلاةِ ليؤدِّيها ثم يذهبُ تقصرُ مدةُ انتظارِه بخلافِ من صلَّى صلاةً ثمَّ جلسَ ينتظرُ أخرى فإنَّ مدَّتَهُ تطولُ فإن كانَ كلما صلَّي صلاةً جلسَ ينتظرُ ما بعدَهَا استغرقَ عمرَهُ بالطاعةِ وكانَ ذلكَ بمنزلةِ الرباطِ في سبيلِ اللَّه عزوجل.

وفي «المسندِ»، و«سننِ ابنِ ماجه»(١) عن عبدِ اللّهِ بن عمرٍو ﷺ قالَ: «صلَّيتُ مع رسول الله ﷺ المغربَ فرجعَ منْ رجعَ وعقبَ من عقبَ ، فجاءَ رسولُ اللَّهِ ﷺ مسرعًا قد حفزهُ النفَسُ وقد حسر عن ركبتيه فقالَ: «**أبشرُوا هذا ربُّكم قد فتحَ باباً من أبواب السماءِ، يباهِي بكُمُ الملائكةَ ، يقولُ : انظُروا إلي عبادِي قد قضَوا فريضةً وهم ينتظرونَ أُخري** ».

وفي «المسندِ»(٢) عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «**منتظرُ الصلاة بعدَ الصلاةِ كفارسٍ اشتدَّ به فرسُهُ في سبيلِ الله على كشحهِ تصلِّي عليهِ ملائكةُ الله ما لم يحدثْ أو يقوم ، وهو في الرباط الأكبر** ».

و يدخلُ في قولهِ: «**والجلوسُ في المساجدِ بعدَ الصلوات** » الجلوسُ للذكرِ والقراءةِ وسماعِ العلمِ وتعليمهِ ونحوِ ذلكَ لاسيَّما بعدَ صلاة الصبحِ حتى تطلعَ الشمسُ؛ فإنَّ النصوصَ قد وردتْ بفضلِ ذلكَ ، وهو شبيهٌ بمن جلسَ ينتظرُ صلاةً أخرى، لأنهَّ قد قضى ما جاءَ إلى المسجدِ لأجلِه من الصلاةِ وجلسَ ينتظر طاعةً أخرى، وفي «الصحيح» عن النبيِّ ﷺ قال: «**ما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ**

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/١٨٦ ـ ١٨٧ ـ ١٩٧)، وابن ماجه (٨٠١).

(٢) (٢/٣٥٢).

من بيوتِ اللَّه تعالى يتلونَ كتابَ اللَّه ، ويتدارسونَهُ بينَهُم ، إلاَّ نزلتْ عليهم السكينةُ، وغشيتهُم الرحمةُ، وحفتهُمُ الملائكةُ، وذكرهُمُ اللَّهُ فيمنْ عندَهُ» .

وأما الجالسُ قبلَ الصلاةِ في المسجدِ لانتظار تلكَ الصلاةِ خاصةً فهو في صلاةٍ حتَّى يصلِّي .

وفي «الصحيحينِ»[1] عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ «أنه لما أخَّرَ صلاةَ العشاءِ الآخرةَ، ثمَّ خرجَ فصلَّى بهم، قالَ لهم: «**إنكم لم تزالُوا في صلاةٍ ما انتظرتُمُ الصلاةَ**».

وفيهما أيضًا[2] عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**الملائكةُ تصلِّي على أحدِكم ما دام في مصلاَّه ما لم يحدثْ، اللهمَّ اغفرْ لهُ اللهمَّ ارحمْهُ، ولا يزال أحدُكم في صلاةٍ ما كانتِ الصلاةُ تحبسُهُ لا يمنعهُ أن ينقلبَ إلى أهله إلا الصلاةُ**» وفي روايةٍ لمسلمٍ «**ما لم يؤذِ فيه ما لم يحدثْ فيه**».

وهذا يدلُّ على أنَّ المرادَ بالحدثِ حدثُ اللسانِ ونحوِه من الأذَى، وفسرهُ أبو هريرةَ بحدثِ الفرجِ، وقيلَ: إنه يشملُ الحدثينِ .

وفي «المسندِ»[3] عن عقبةَ بن عامرٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «**القاعدُ يراعِي الصلاةَ كالقانتِ ويكتُبُ من المصلينَ من حين يخرجُ من بيتِهِ حتَّى يرجعَ إليه**» وفي روايةٍ له: «**فإذا صلَّى في المسجد ثمّ قعدَ فيه كانَ كالصائمِ القانتِ حتَّى يرجع**».

وفي هذا المعنى أحاديثُ كثيرةٌ، وبالجملةِ فالجلوسُ في المساجدِ للطاعاتِ له فضلٌ عظيمٌ .

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٥٠ ـ ١٦٨ ـ ٢١٤)، (٧/ ٢٠١)، ومسلم (٦/ ١٥٢).
(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٦٨)، ومسلم (٢/ ١٢٩).
(٣) (٤/ ١٥٩).

وفي حديثِ أبي هريرةَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا يوطِّن رجلٌ المساجدَ للصلاةِ والذكرِ إلا تبشبشَ اللَّهُ عز وجل به كما يتبشبشُ أهلُ الغائبِ إذا قدمَ عليهم غائبُهم**»(١). ورَوى دراجٌ عن أبي الهيثم عن أبي سعيدٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «**من ألِفَ المسجدَ ألِفَهُ اللَّه**»(٢).

وقال سعيدُ بنُ المسيبِ: من جلسَ في المسجدِ فإنَّما يجالسُ اللَّه عز وجلَّ.

وصحَّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه عدَّ من السبعةِ الذينَ يظلُّهُمُ اللَّه في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه رجلٌ قلبُهُ معلَّقٌ بالمسجدِ إذا خرجَ منه حتى يعودَ إليه(٣).

وإنَّما كانتْ ملازمةُ المسجدِ للطاعاتِ مكفرةً للذنوبِ؛ لأنَّ فيها مجاهدةَ النفسِ وكفا لها عن أهوائِها؛ فإنَّها لا تميلُ إلا إلى الانتشار في الأرضِ لابتغاء الكسب؛ أو لمجالسةِ الناس، أو لمحادثتهم، أو للتنزه في الدورِ الأنيقةِ والمساكنِ الحسنةِ ومواطنِ النزهِ، ونحو ذلكَ. فمن حبسَ نفسَهُ في المساجدِ على الطاعةِ فهوَ مرابطٌ لها في سبيلِ اللَّه مخالِفٌ لهواهَا، وذلكَ من أفضلِ أنواعِ الصبرِ والجهادِ.

وهذا الجنسُ ـ أعني ما يؤلمُ النفسَ ويخالفُ هواهَا ـ فيه كفارةٌ للذنوبِ وإنْ كانَ لا صنعَ فيه للعبدِ كالمرضِ ونحوِه فكيفَ بما كانَ حاصلاً عن فعلِ العبدِ واختيارِه إذا قصدَ به التقربَ إلي اللَّه عزَّ وجل، فإنَّ هذا من نوعِ الجهادِ في سبيلِ اللَّه الذي يقتضِي تكفيرَ الذنوبِ كلِّها ولهذا المعنى كانَ المشيُ إلى

(١) أخرجه: أحمد (٢/٣٠٧ ـ ٣٤٠ ـ ٤٥٣).
(٢) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٦٣٨٣).
(٣) أخرجه: البخاري (٢/١٣٨ ـ ١٦٨)، ومسلم (٣/٩٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

المساجدِ كـفارةً للذنوبِ أيضًا هو نوعٌ منَ الجـهادِ في سبيلِ اللَّه أيضًـا ، كما خرجـهُ الطبراني[1] من حديثِ أبي أمـامةَ عن النبيِّ ﷺ « **الغـدوُّ والرواحُ إلي المساجد من الجهادِ في سبيلِ اللَّه عزَّ وجلَّ** ».

كان زيادٌ مولَى ابن عباس أحد العبادِ الصالحينَ ، وكانَ يلازمُ مسجدَ المدينةِ فسمعوهُ يومًا يعاتب نفسَهُ ويقولُ لها : أين تريدينَ أنْ تذهبي، إلي أحسنَ من هذا المسجدِ؟ تريدينَ أن تبصرِي دارَ فلانٍ ودار فلانٍ.

لَّما كانت المساجد فـي الأرضِ بيوتَ اللَّه أضافَها اللَّهُ إلى نفسـهِ تشريفًا لها وتعلقتْ قلوبُ المحبينَ للَّهِ عز وجلَّ بها لنسبتها إلي محبوبِهِم، وارتاحتْ إلى ملازمتِها لإظهارِ ذكرهِ فيها، قالَ تعالى : ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ**﴾ [النور:٣٦، ٣٧].

أين يذهبُ المحبـونَ عن بيوتِ مـولاهُم؟ قلوبُ المحبينَ ببيـوتِ محـبوبهِم متعلقةٌ، وأقدامُ العابدينَ إلي بيوتِ معبودِهم مترددةٌ.

يا حـبَّـذَا العرعـرُ النَّجـديُّ والبـانُ ... ودارُ قــومٍ بـأكناف الحِـمـى بانُوا

وأطيبُ الأرضِ ما للقلبِ فـيه هوى ... سَمُّ الخـياطِ مع الأحـبـابِ ميـدانُ

لا يُذْكـرُ الرَّملُ إلا حـنَّ مـغـتـربٌ ... لـه بـذي الـرمـل أوطـارٌ وأوطـانُ

يهـفُـو إلى البـانِ من قلبي نوازعـهُ ... ومـا بـي البـانُ بل مَنْ دارُه الـبـانُ

---

(١) «المعجم الكبير» (٨/ ٢٠٨).

الفصل الثاني: في ذكرِ الدرجاتِ المذكورة في حديثِ معاذٍ:

وهي ثلاثٌ:

أحدها: إطعامُ الطعامِ وقد جعلَهَ اللَّه في كتابه من الأسبابِ الموجبة للجنة ونعيمِهَا، قالَ اللَّهُ عز وجل: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٨ - ٢١] فوصفَ فاكهتَهُم وشرابَهُم جزاءً لإطعامِهِمُ الطعامَ.

وفي الترمذيِّ من حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ قال: «أيمّا مؤمن أطعمَ مؤمنًا على جوعٍ، أطعمَهُ اللَّهُ منْ ثمارِ الجنة، ومنْ سقَى مؤمنًا على ظمإٍ سقاهُ اللَّهُ من الرحيقِ المختومِ» وفي «المسندِ» و«الترمذيِّ»[1] عن عليٍّ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ في الجنة غرفاً يُرى ظاهرُها من باطنِها وباطنُها من ظاهرِهَا، قالوا: لمن هيَ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: لمن أطعمَ الطعامَ، وأطابَ الكلامَ، وصلَّى بالليلِ والناسُ نيامٌ».

وفي حديثِ عبدِ اللَّه بنِ سلامٍ الذي خرجهُ أهلُ السننِ[2] أنه سمعَ النبيَّ ﷺ أولَ قدومِهِ المدينةَ يقولُ: «أيها الناسُ، أفشوا السلامَ، وأطعمُوا الطعامَ، وصلوا

(١) أحمد (١/ ١٥٥)، والترمذي (١٩٨٤ - ٢٥٢٧).

(٢) أخرجه: الترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤، ٣٢٥١).

الأرحامَ، وصلُّوا بالليل والناسُ نيامٌ، تدخلُوا الجنةَ بسلامٍ ».

وفي حديث عبادةَ عن النبيِّ ﷺ: «أنه سُئلَ أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟قال: « إيمانٌ باللّهِ وجهادٌ في سبيلِهِ وحجٌّ مبرورٌ، وأهونُ من ذلكَ إطعامُ الطعامِ ولينُ الكلامِ »خرجهُ الإمامُ أحمدُ[(١)].

وفي حديثِ هانئ بن يزيد أنَ رجلاً قال: يارسولَ اللّه، دلَّني على عملٍ يدخلني الجنةَ ويباعدُني من النارِ، قال: «تطعم الطعامَ وتفشي السلامَ»[(٢)].

وفي حديثِ حُذيفةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «من خُتم لهُ بإطعامِ مسكينٍ دخلَ الجنةَ»[(٣)].

وفي «الصحيحين»[(٤)] من حديثِ عبد اللّهِ بن عمروٍ أنَّ رجلاً قالَ: يا رسولَ اللّه، أيُّ الإسلامِ خيرٌ؟ قالَ: «تطعمُ الطعامَ وتقرئُ السلامَ على من عرفتَ ومن لم تعرفْ».

وفي حديثِ صهيبٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «خيرُكم من أطعمَ الطعامَ» خرجهُ الإمامُ أحمدُ[(٥)].

فإطعامُ الطعامِ يوجبُ دخولَ الجنةِ، ويباعدُ من النارِ، وينجي منها كَما قالَ تعالى: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١-١٦]

---

(١) (٥/٣١٨).

(٢) أخرجه: أبو داود (٤٩٥٥)، والنسائي (٨/ ٢٢٦).

(٣) راجع: «السلسلة الصحيحة» (١٦٥٤).

(٤) أخرجه: البخاري (١/ ١٠ ـ ١٤)، (٨/ ٦٥)، ومسلم (١/ ٤٧).

(٥) «المسند» (٦/ ١٦).

وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشقِّ تمرة**»[١] وكان أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه يقولُ لولدِهِ : اذكـرُوا صاحبَ الرغـيفِ، ثم ذكرَ أنَّ رجلاً من بني إسـرائيلَ عبدَ اللَّهَ سبـعينَ سنةً ثمَّ إنَّ الشيطانَ حسَّنَ في عـينيهِ امرأةً فأقامَ مـعها سبعةَ أيامٍ ثمَّ خـرجَ هارباً فأقامَ مع مساكينَ فتُـصُدِّقَ عليهِ برغـيفٍ، كان بعضُ أولئكَ المسـاكين يريدهُ فـآثره بهِ ثم ماتَ، فـوزِنَ عبـادتُهُ بالسبعـةِ الأيام التي مع المرأةِ فرجحتِ الأيامُ السبعةُ بعـبادَتِهِ، ثم وزِنَ الرغيفُ بالسبعةِ الأيامِ فرجحَ بها.

ويتأكدُ إطعامُ الطعامِ للجائعِ وللجيرانِ خصوصًا، وفي «الصحيح»[٢] عن أبي موسى الأشعريِّ عن النبيِّ ﷺ قـالَ: «**أطعموا الجائعَ وعودُوا المريضَ وفكُّوا العاني**».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[٣] عن أبي ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ قال لهُ: «**إذا طبختَ مرقةً فأكثرْ ماءها وتعاهدْ جيرانَكَ**».

وفي المسندِ، وصحيحِ ابن حِبانَ عن عمرَ عن النبيِّ ﷺ قال: «**أيُّما عرصة أصبحَ فيهم امرؤٌ جائعًـا، فقد برئتْ منهم ذمةُ اللَّه عزَّ وجلَ**». وقال ﷺ: «**لا يشـبعُ المؤمنُ دونَ جارِهِ**»، وفي «صحيحِ الحاكمِ»[٤] عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: «**ليسَ بالمؤمنِ الذي يشبعُ وجـارُه جائعٌ**» وفي رواية: «**ما آمن من بات شبـعانا وجاره طـاويًـا**». فأفضلُ أنواعِ إطعامِ الطعامِ الإيثارُ مـع الحاجةِ كما وصفَ اللَّهُ تعالى

---

(١) أخرجـه: البخـاري (٢/ ١٣٦)، (٨/ ١٢٩)، (٩/ ١٦٢ ـ ١٨١)، ومسلم (٣/ ٨٦) من حـديث عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه.

(٢) «صحيح البخاري» (٤/ ٨٣)، (٧/ ٣١ ـ ٨٧ ـ ١٥٠)، (٩/ ٨٨).

(٣) (٨/ ٣٧).

(٤) «المستدرك» (٤/ ١٦٧).

بذلك الأنصار رضي الله عنهم فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] وقدْ صحَّ أنَّ سبَبَ نزولها أنَّ رجلاً منهم أخذ ضيفاً من عند النبيِّ ﷺ يضيفُه فلم يجدْ عندَهُ إلا قوتَ صبيانِه، فاحتالَ هوَ وامرأتُهُ حتَّى نوَّما صبيانَهُمَا وقامَ إلى السراج كأنه يصلحُهُ فأطفأهُ، ثمَّ جلسَ مع الضيفِ يريه أنه يأكلُ معهُ ولم يأكلْ فلمَّا غدَا على رسول اللَّه ﷺ قال لهُ: «عجبَ اللَّهُ من صنيعكُما الليلةَ» ونزلتْ هذه الآيةُ.

وكان كثيرٌ من السلفِ يؤثرُ بفطوره غيرَه وهو صائمٌ ويصبحُ صائمًا، منهم عبدُ اللَّه بنُ عمرَ رضي الله عنهما، وداودُ الطائيُّ، وعبدُ العزيز بنُ سليمانَ، ومالك بنُ دينارٍ، وأحمدُ بنُ حنبلٍ، وغيرُهم، وكان ابنُ عمرَ لايفطرُ إلامع اليتامَى والمساكينِ وربما علَمَ أن أهلَهُ قد ردُّوهم عنه فلم يفطرْ تلكَ الليلةَ.

ومنهم من كانَ لا يأكلُ إلاَّ مع ضيفٍ له، قال أبو السوارِ العدويُّ: كانَ رجالٌ من بني عدي يصلُّون في المسجدِ ما أفطرَ أحدٌ منهُم على طعامٍ قطّ وحدَهُ، إن وجدَ من يأكلُ معه أكلَ، وإلا أخرجَ طعامَهُ إلى المسجدِ فأكلهُ مع الناسِ وأكلَ الناسُ معهُ.

وكانَ منهُم من يطعمُ إخوانهُ الطعامَ وهو صائمٌ ويجلسُ يخدمهُم، ويروحهُم، منهمُ الحسنُ، وابنُ المباركِ، وكان ابنُ المباركِ ربما يشتهي الشيءَ فلايصنعهُ إلا لضيفٍ ينزلُ به فيأكلُهُ مع ضيفه، وكانَ كثيرٌ منهُم يفضلُ إطعامَ الإخوانِ على الصدقةِ على المساكينِ، وقد رُويَ هذا المعنى مرفوعًا من حديث أنسٍ بإسنادٍ ضعيفٍ، ولاسيَّما إن كان الإخوانُ لا يجدونَ مثل ذلكَ الطعامِ.

كانَ بعضُهم يعملُ الأطعمةَ الفاخرةَ ثم يطعمُها إخوانَهُ الفقراءَ ويقولُ: إنهم

لا يجدونَها، وبعضُهم يُصنَعُ له طعامٌ ولا يأكلُ ويقولُ: إني لا أشتهيه وإنما صنعتُهُ لأجلِكمُ، وبعضُهم اتخذَ حلاوةً فأطعمَهُا المعتوهَ، فقالَ له أهلهُ: إن هذا لا يدري ما يأكلُ، فقال: لكنَّ اللَّهَ يدرِي .

واشتَهى الربيعُ بنُ خثيمٍ حلواءَ، فلما صنعتْ لهُ دعَا بالفقراءِ فأكلُوا، فقالَ له أهلُه: أتعبتَنا ولم تأكل، فقالَ: ومن أكلَهُ غيرِي، وقالَ آخرُ منهُم وجَرَى له نحوٌ من ذلكَ: إذا أكلتُهُ كانَ في الحشِّ وإذا أطعمتُهُ كانَ عندَ اللَّهِ مدخوراً .

ورُوِي عن عليٍّ قالَ: لأنْ أجمعَ أناسًا من إخواني على صاع من طعامٍ أحب إليَّ من أن أدخلَ سوقَكُم هذه فأبتاعُ نسمةً فأعتقُها .

وعن أبي جعفرٍ محمد بن عليٍّ قالَ: لأن أدْعُو عشرةً من أصحابي فأطعمهُمُ طعامًا يشتهونَهُ، أحبَّ إليَّ منْ أن أعتقَ عشرةً من ولد إسماعيل.

أأصفُ الإيثارَ لمن يبخلُ بأداء الحقوقِ الواجبةِ عليه، أأطلبُ الشجاعةَ من الجبانِ، وأستشهِدُ على رؤيةِ الهلالِ من هوَ من جملةِ العميانِ، كم بينَ من قيلَ فيه: ﴿**فلما آتاهم من فضله بخلوا به**﴾ [التوبة:٧٦] وبين من قيلَ فيه: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ [الحشر:٩] بيننا وبين القومِ كما بينَ اليقظةِ والنوم.

لا تعرضنَّ لذكرِنَا في ذكرِهم ... ليسَ الصحيحُ إذا مشَى كالمقعدِ

فيا من يطمعُ في علوِّ الدرجاتِ من غيرِ عملٍ صالحٍ هيهاتَ هيهاتَ ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [الجاثية:٢١]

نزلواُ بمكةَ في قبائلِ نوفلٍ ... ونزلت بالبيداءِ أبعدَ منزلِ

الفصل الثالث من الدرجاتِ: لينُ الكلامِ وفي رواية: «**إفشاءُ السلام**» وهو

داخلٌ في لينِ الكلامِ ،وقد قالَ اللَّهُ عز وجل: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣] وقال تعــالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإســراء:٥٣] وقالَ تعــالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤، ٣٥]، وقالَ تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، وقالَ تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦]، ولما قالَ النبيُّ ﷺ: «الحجُّ المبرورُ ليسَ له جزاءٌ إلا الجنةَ، قالوا له: وما الحجُّ المبرورُ يارسول اللَّه؟ قال: إطعامُ الطعـامِ ولينُ الكلام » خرجهُ الإمـامُ أحمدُ[1]،وقد تقدَّم في ذكـر إطعامِ الطعامِ أحاديثُ أخرُ في طيبِ الكلامِ.

وفي الحديث الصحيحِ عن النبيِّ ﷺ «والكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ» وفيه أيضًا «اتقوا النارَ ولو بشقِّ تمرةٍ فمن لم يجدْ فبكلمةٍ طيبةٍ».

وأما كونُ إفشاء السلامِ من موجباتِ الجنةِ ففي «صحيحِ مسلمٍ»[2] عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «والذي نفسي بيدِه لا تدخلُوا الجنةَ حتى تؤمنُوا ولا تؤمنُوا حتى تحابُّوا ألا أدلُّكُم على شيءٍ إذا فعلتُمُوه تحابَبـتُم أفشوا السلامَ فيما بينكُم» وخـرجَ أبو داودَ[3] من حديثِ أبي أُمامةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ أوْلَى الناسِ باللَّه تعالي منْ بدأهُم بالسلامِ» ويُروَي من حديثِ ابن مسعودٍ مرفوعًا وموقوفًا «إذا مرَّ الرجلُ بالقومِ فسلَّم عليهِم فردُّوا عليه كـانَ لهُ عليهم فضلُ درجةٍ، لأنَّه ذكَّرهُم بالسلامِ، وإن لم يردُّوا عليهِ ردَّ عليه ملأٌ خيرٌ منهُم وأطيبُ».

(١) «المسند» (٣/ ٣٢٥) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه.
(٢) (١/ ٥٣).
(٣) «السنن» (٥١٩٧).

وقد رُويَ من حديثِ عمرانَ بن حـصينٍ وغيرِه «أنَّ رجلاً دخلَ على النبيِّ ﷺ فقالَ: السلامُ عليكم، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**عشر**»، ثم جاءَ آخرُ فقالَ: السلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّه، فقالَ رسول اللَّه ﷺ «**عشرونَ**»، ثم جاءَ آخرُ فقالَ: السلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتهُ، فقالَ رسول اللَّه ﷺ «**ثلاثـون**» خرجهُ الترمذيُّ[1] وغيرُه، وخـرجهُ أبو داود[2] وزادَ «ثمَ جاءَ آخرُ فقـالَ: السلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتهُ ومغفرتهُ، فقالَ النبيُّ ﷺ «**أربعون**»، ثم قالَ: «**هكذا تكون الفضائلُ**».

وقد سبقَ حديثُ «**أنْ تقرأ السلامَ على مـن عرفتَ ومن لم تعرفْ**» وفي حديثِ ابن مسعود مرفوعًا «**من أشراطِ الساعة السلامُ بالمعرفة**» خرجهُ الإمامُ أحمدُ[3].

وإنما جمعَ بينَ إطعامِ الطعامِ ولين الكلامِ ليكملَ بذلكَ الإحسانُ إلى الخلقِ بالقـولِ والفعلِ فـلا يتمُّ الإحـسانُ بإطعـامِ الطعـامِ إلا بلينِ الكلامِ وإفشـاءِ السلامِ، فإنْ أساءَ بالقولِ بطلَ الإحسانُ بالفعلِ من الإطعامِ وغيرِه كما قالَ اللَّهُ تعالي: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى** ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وربما كـانَ معـاملةُ الناسِ بالقـولِ الحسنِ أحبَّ إليهم مـن إطعامِ الطعـامِ والإحسانِ بإعطاءِ المالِ، كـما قالَ لقمانُ لابنِه: يا بنيَّ لأن تكنْ كلمـتُكَ طيبةً ووجهُكَ منبسطًا تكنْ أحبَّ إلى الناسِ ممن يعطيـهم الذهبَ والفضةَ، وقد كانَ النـبيُّ ﷺ يلينُ القولَ حتى لمن يشهدُ له بالشـرِّ فينتفي بذلكَ شرُّهُ، وكانَ ﷺ لايواجهُ أحداً بما يكرهُ في وجههِ ولم يكنْ ﷺ فحاشًا ولا متفحشًا، ورُويَ عن ابن عمرَ أنَّه كانَ ينشدُ:

---

(١) «الجامع» (٢٦٨٩).

(٢) «السنن» (٥١٩٥).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٧ ـ ٤٠٥).

بنيَّ إنَّ البرَّ شـــيءٌ هيـنُ وجـهٌ طـليـقٌ وكــلامٌ لينُ

ولبعضهم:

خـذِ العـفـوَ وأمـرْ بعـرفٍ كَـمـا أُمِـرْتَ وأعـرضْ عن الجـاهلينَ
ولِـنْ فـي الـكـلامِ لـكـلِّ الأنـامِ فـمـستـحـسنٌ من ذوي الجـاهِ لينِ

وقد وصفَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في كتابِه أهلَ الجنة بمعاملةِ الخلقِ بالإحسانِ بالمالِ واحتمالِ الأذَى فقالَ تعالى: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران:١٣٣,١٣٤] فالإنفـاقُ في السراءِ والضراءِ يقتـضي غاية الإحسان بالمالِ من الكثرةِ والقلَّة، وكظم الغـيظ والعفوِ عن الناسِ يقتضِي عدمَ المقابلةِ على السيئةِ من قولٍ وفعلٍ وذلك يتضمنُ إلانةَ القولِ واجـتنابَ الفحشِ والإغـلاظَ في المقالِ، ولو كانَ مـباحًـا، وهذا نهايةُ الإحسانِ فلهذا قالَ تعالَى: ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران:١٣٤].

ومن هذا قولُ بعضهم وقد سُـئِلَ عن حُسنِ الخلقِ فقالَ: بذلُ النَّدى وكفُّ الأذَى.

وهذا الوصفُ المذكورُ في القرآنِ أكملُ مـن هذا، لأنَّه وصفهُم ببذلِ الندى واحتمالِ الأذى، وحُسنِ الخلقِ يبلغُ به العبـدُ درجاتِ المجتهدينَ في العبادة، كـما قـالَ النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الرجلَ ليـدرِكُ بحسنِ خلقـهِ درجةَ الصـائمِ النهارَ القـائمِ الـليـلَ**»(١)، ورؤيَ بعضُ السلفِ في المنامِ فـسئلَ عن بعضِ إخـوانِه الصالحينَ فقالَ: وأينَ ذلكَ رُفعَ في الجنةِ بحسنِ خلقِه.

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣٣ ـ ١٨٧).

ومما يندبُ إلى إلانةِ القولِ فيه الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ وأنْ يكونَ برفقٍ، كما قالَ تعالَى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

قال بعضُ السلفِ: ما أغضبتَ أحدًا فقَبِلَ منْكَ، وكانَ أصحابُ ابنِ مسعودٍ إذا رأوا قومًا على ما يكرهُ يقولونَ لهم: مهلاً مهلاً باركَ اللَّهُ فيكم. ورأى بعضُ التابعينَ رجلاً واقفًا مع امرأةٍ فقالَ لهما: إن اللَّهَ يراكما سترنا اللَّهُ وإيَّاكم، ودُعي الحسنُ إلى دعوةٍ فجيء بآنيةِ فضةٍ فيها حلواءُ، فأخذَ الحسنُ الحلواءَ فقلبهَا على رغيفٍ وأكلَ منهَا، فقالَ بعضُ من حضرَ: هذا نهيٌ في سكونٍ، ورأى الفضيلُ رجلاً يعبثُ في صلاتِهِ فزبرهُ، فقالَ له الرجلُ: يا هذا ينبغي لمنْ يقومُ للهِ أن يكونَ ذليلاً، فبكى الفضيلُ وقالَ له: صدقتَ.

قال شعيبُ بنُ حربٍ: ربما مرَّ سفيانُ الثوريُّ بقومٍ يلعبونَ بالشطرنجِ فيقولُ: ما يصنعُ هؤلاءِ؟ فيقالُ له: يا عبد اللَّهِ ينظرونَ في كتابٍ، فيطاطئ رأسَهُ ويمضي، وإنما يريدُ بذلكَ ليُعلمَ أنَّه قد أنكرَ.

وقالَ سفيانُ: لا يأمرُ بالمعروفِ ولا ينهى عن المنكرِ إلا من كانَ فيهِ خصالٌ ثلاثٌ: رفيقٌ بما يأمرُ، رفيقٌ بما ينهى، عدلٌ بما يأمرُ، عدلٌ بما ينهى، عالمٌ بما يأمرُ، عالمٌ بما ينهَى. وقالَ الإمامُ أحمدُ: الناسُ يحتاجونَ إلى مداراةٍ ورفقٍ في الأمر بالمعروفِ بلا غلظةٍ إلا رجلاً معلنًا بالفسقِ، فإنَّهُ لا صبرَ عليه.

وكانَ كثيرٌ من السلفِ لا يأمرُ بالمعروفِ ولا ينهى عن المنكرِ إلا سرًّا فيما بينه وبينَ من يأمُرُه وينهاهُ. وقالَ أبو الدرداءِ: من وعظَ أخاهُ سرًّا فقد زانهُ ومن وعظه علانيةً فقد شانهُ.

وكذلك مقابلةُ الأذى بإلانةِ القولِ كما قالَ تعالَى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون:٩٦] وقالَ تعالَى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٢] قال بعضُ السلفِ: هو الرجلُ يسبُّه الرجلُ، فيقولُ له: إن كنتَ صادقًا فغفر اللَّهُ لي، وإن كنتَ كاذبًا فغفرَ اللَّهُ لكَ.

قالَ رجلٌ لسالمِ بنِ عبد اللَّهِ وقد زحمتْ راحلتُه في سفر: ما أراك إلا رجلَ سوءٍ، فقال له سالمٌ: ما أراكَ أبعدتَ.

وقالت امرأةٌ لمالكِ بن دينارٍ: يا مُرائي، قال: متى عرفتِ اسمي؟ ما عرفَه أحدٌ من أهلِ البصرةِ غيرُكِ.

ومرَّ بعضُهم على صبيانٍ يلعبونَ بجوزٍ فوطيءَ على بعضِ الجوز بغير اختيارِه فكسرَهُ، فقالَ له الصبيّ: يا شيخُ، النارَ، فجلسَ الشيخُ يبكي ويقولُ: ما عرَّفني غيرُهُ. ومر بعضُهم مع أصحابِه في طريقٍ فرموا عليهم رمادًا، فقالَ الشيخ لأصحابِه: من يستحقّ النَّارَ فصالحُوه على الرمادِ، يعني فهو رابحٌ.

ورأى جنديٌّ إبراهيمَ بنَ أدهمَ خارج البلدِ فسألهُ عن العمرانِ فأشارَ له إلى القبورِ فضربَ رأسهُ ومضَى فقيلَ له: إنَّه إبراهيمُ بنُ أدهمَ فرجعَ يعتذرُ إليه، فقالَ له إبراهيم: الرأسُ الذي يحتاجُ إلى اعتذاركَ تركتُه ببلخٍ، ومرَّ به جنديٌّ آخر وهو ينظرُ بستانًا لقومٍ بأجرةٍ فسألهُ أن يناولَهُ شيئًا فلم يفعلْ وقالَ: إنَّ أصحابَهُ لم يأذنوا في ذلك، فضربَ رأسَهُ فجعلَ إبراهيمُ يطأطيءُ رأسَهُ وهو يقولُ: اضربْ رأسًا طالمًا عَصى اللَّهَ.

من أجلكَ قد جعلتُ خدِّي أرضًا للشامتِ والحسودِ حتى ترضَى

الثالثُ من الدرجات:

الصلاةُ بالليلِ والناسُ نيامٌ: فالصلاةُ بالليلِ من موجباتِ الجنةِ كما سبقَ ذكرُه

في غيرِ حديثٍ، وقد دلَّ عليه قولُه عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات:١٥-١٩]. فوصفَهم بالتيقظِ بالليلِ والاستغفارِ بالأسحارِ وبالإنفاقِ من أموالِهم.

كانَ بعضُ السلفِ نائمًا فأتاه آتٍ في منامِه فقالَ له: قُمْ فصلِّ أما علمتَ أن مفاتيحَ الجنةِ مع أصحابِ الليلِ هم خزانهَا؟!

وقيام الليلِ يوجب علو الدرجات في الجنة قالَ اللَّهُ تعالَى لنبيه ﷺ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩] فجعلَ جزاءَهُ على التهجدِ بالقرآنِ بالليلِ أن يبعثَهُ المقامَ المحمودَ وهو أعلى درجاتِه ﷺ.

قال عونُ بنُ عبدِ اللَّهِ: «إنَّ اللَّهَ يُدخلُ الجنةَ أقوامًا فيعطيهم حتى يملُّوا وفوقَهم ناسٌ في الدرجاتِ العلى، فلمَّا نظروا إليهم عرفوهُم فقالُوا: ربنا، إخواننا كنَّا معهُم فبم فضَّلْتَهم علينا؟ فيقولُ: هيهاتَ هيهاتَ إنَّهم كانُوا يجوعونَ حين تشبعونَ، ويظمؤونَ حين تروونَ، ويقومونَ حينَ تنامون، ويشخصونَ حينَ تخفضونَ»، ويوجبُ أيضًا نعيمَ الجنة ما لم يطلعْ عليه العبادُ في الدنيا قالَ اللَّهُ عز وجل: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦-١٧]، وفي «الصحيحِ» عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**يقول اللَّهُ عز وجل: أعددتُ لعبادِي الصالحينَ ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ اقرؤوا إن شئتمُ: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا**

يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]». قالَ بعضُ السلفِ: أخفَوا للَّهِ العملَ فأخفَى اللَّهُ لهم الجزاءَ فلو قدموا عليهِ لأقرَّ تلكَ الأعينَ عندَهُ.

ومما يجزي به المتهجدينَ في الليلِ كثرةَ الأزواجِ من الحورِ العين في الجنةِ فإنَّ المتهجدَ قَد تركَ لذةَ النومِ بالليلِ ولذةَ التمتعِ بأزواجِهِ طلبًا لما عندَ اللَّهِ عز وجل فعوَّضَهُ اللَّهُ تعالَى خيرًا مما تركَهُ وهوَ الحورُ العينِ في الجنةِ، ومن هُنا قالَ بعضُهم: طولُ التهجدِ مهورُ الحورِ العينِ في الجنةِ.

وكانَ بعضُ السلفِ يُحيي الليلَ بالصلاة، فَفَتُرَ عن ذلك فأتاهُ آتٍ، فقال له: قد كنتَ يا فلانُ تدأبُ في الخطبةِ، فما الذي قصرَ بكَ عن ذلكَ؟ كنتَ تقومُ من الليلِ أوَ ما علمتَ أن المتهجدَ إذا قامَ إلى التهجدِ قالتِ الملائكةُ: قد قامَ الخاطبُ إلى خطبتِهِ؟!

ورأى بعضُهم في منامِه امرأةً لا تشبهُ نساءَ الدُّنيا فقالَ لها: من أنتِ؟ قالتْ: حوراءُ أمةُ اللَّهِ، فقالَ لها: زوِّجيني نفسَكِ، قالتْ: اخطُبني إلى سيِّدي وامهُرني، قالَ: وما مهرُكِ؟ قالتْ: طولُ التهجدِ.

قامَ بعضُ المتهجدينَ ذاتَ ليلةٍ فرأى في منامِهِ حوراءَ تنشدُ:

أتخطبُ مثْلي وعني تنامُ ... ونومُ المحبينَ عنَّا حرامُ
لأنا خلقْنَا لكلِّ امريءٍ ... كثيرِ الصلاةِ براهُ الصيامُ

وكانَ لبعضِ السلفِ وِرْدٌ من الليلِ فنَامَ عنهُ ليلةً فرأى في منامه جاريةً كأنَّ وجهها القمرُ، ومعَها رقٌّ فيه كتابٌ فقالتْ: أتقرأ؟ قالَ: نعم، فأعطتهُ إياهُ ففتحهُ فإذا فيه مكتوبٌ:

أتلهُو بالكَرَى عن طيبِ عيشٍ ... مع الخيراتِ في غرفِ الجنانِ

تعـيش مـخلَّـدًا لا مـوت فـيـهِ وتنـعمُ في الجنـانِ مع الحسـانِ
تيـقظ من منـامِكَ إنَّ خـيـراً من النـومِ التـهـجـد بالقـرآنِ

فاستيقظَ قالَ: فواللّهِ ما ذكرتُها إلا ذهبَ عنِّي النومُ.

كان بعضُ الصالحينَ له وِرْدٌ فنامَ عنه فوقفَ عليـه فتى في منامِهِ فـقال لهُ بصوتٍ محزونٍ:

تيـقظْ لسـاعـاتٍ من الليلِ يا فـتى لعلـكَ تحظَى في الجنـانِ بحـورِها
فـتـنعمُ في دارٍ يدومُ نعـيـمُـهَـا مـحـمـدٌ فـيـهـا والخـليلُ يزورهَا
فـقم فـتيـقظْ سـاعـةً بعد سـاعـةٍ عـساكَ توفَّـى ما بقيَ من مـهـورِها

كان بعضُ السلفِ الصالحينَ كثيرُ التعبدِ، فبكى شوقًا إلى اللَّهِ عز وجل ستينَ سنةً فرأى في منامِهِ كأنّهُ على ضفةِ نهرٍ يجرِي بالمسكِ حافتاهُ شجرُ لؤلؤ ونبتٌ من قضبانِ الذهبِ، فإذا بجوارٍ مُـزَيَّنات يقلنَ بصوتٍ واحدٍ: سبحانَ المسبِّحُ بكلِّ لسانٍ سبحانَهُ. سبحان الموحِّدِ بكلِّ مكانٍ سبحانه. سبحان الدائمِ في كلِّ الأزمانِ سبحانه. فقال لهنَّ: ما تصنعن ههنا؟ فقلن:

برانَا إلـهُ الناسِ ربُّ مـحـمـدٍ لقـومٍ على الأقـدامِ بالليلِ قـوّمُ
يناجـونَ ربَّ العـالمينَ إلـهـهم وتسـري همـومُ القـومِ والناسُ نوّمُ

فقال: بَخٍ بَخٍ لهـؤلاءِ، من هم، لقد أقرَّ اللَّهُ أعينهُم بـكنَّ؟ فقلنَ: أو ما تعرفَهم؟ قالَ: لا، فقلنَ: بلى هؤلاءِ المتهجدونَ أصحابُ القرآنِ والسهرِ.

وكـان بعضُ الصالحـينَ ربما نامَ في تهجـدِه، فـتوقظُـه الحوراءُ في منامـه فيسـتيقظُ بإيقاظها، ورُويَ عن أبي سليـمان الداراني أنه قالَ: ذهبَ بي النومُ

ذاتَ ليلةٍ في صلاتي فـإذا بها - يعني الحوراء - تنبهني وتقـولُ: يا أبا سليمانَ أترقدُ وأنا أُربَّى لك في الخدرِ منذ خمسمائة سنة؟ وفي رواية عنهُ: أنه نام ليلةً في سجودهِ قـالَ: فإذا بها قدْ ركضـتني بِرِجْلِهَا وقالتْ: حبيـبي أترقدُ عيناكَ والملكُ يقظانُ ينظرُ إلى المتـهجـدينَ في تهـجدِهم؟ بؤسًـا لعينٍ آثرتْ لذةَ نومٍ على مناجاةِ العزيزِ، قمْ فقدْ دنا الفراغُ ولقيَ المحبـونَ بعضهم بعضًا، فما هذا الرقـادُ يا حبـيبي وقـرةَ عـيني؟ أترقدُ عـيناكَ وأنا أُربَّى لكَ في الخـدورِ منذ خمـسمائةِ عـامٍ؟ فوثبَ فزعًـا وقد عرقَ من توبيـخهَا له، قـالَ: وإن حلاوةَ منطقها لفي سمعي وقلبي.

وكـان أبو سليـمـانَ يقـولُ: أهلُ الليلِ في ليلـهِم ألذُّ من أهل اللهـو في لهوهم، ولولا الليلُ ما أحببتُ البقاءَ في الدنيا.

وقال يزيدُ الرقاشيُّ لحبيبٍ العجميِّ: ما أعـلمُ شيئًا أقرّ لعيونِ العابدينَ في الدنيا من التهـجدِ في ظلمةِ الليلِ، وما أعلم شيئًـا من نعيمِ الجنانِ وسرورها ألذُّ عند العابدينَ ولا أقرَّ لعيونِهم من النظرِ إلى ذي الكبرياءِ العظيمِ إذا رُفعتْ تلكَ الحجب، وتجلَّى لهم الكريمُ، فصاحَ حبيبٌ عندَ ذلكَ وخرَّ مغشيا عليه.

وكانَ السريُّ يقول: رأيتُ الفوائدَ تردُ في ظلامِ الليلِ.

وقالَ أبو سليمان: إذا جنَّ الليلُ وخلا كلُّ محبٍّ بحبيبهِ افترشَ أهلُ المحبةِ أقدامَهُم، وجرتْ دموعُهم على خدودهِم، أشرفَ الجليلُ جل جلالهُ فنادَى يا جبريلُ بعيني من تلذذَ بكلامي واستروحَ إلى مناجـاتي، نادِ فيهم يا جبريلُ ما هذا البكاءُ هل رأيتُم حبيبًا يعذِّب أحباءَهُ أم كيفَ يجملُ بي أن أعذِّبَ قومًا إذا جنَّهُمُ الليلُ تملَّقُوني، فـبي حلفتُ، إذا قدموا عليَّ يوم القيامـةِ لأكشفنَّ لهمْ

عن وجهي، ينظرونَ إليَّ وأنظر إليهم.

وسئلَ الحسنُ البصريُّ لم كانَ المتهجدون أحسنُ الناس وجوهًا؟ قالَ: لأنَّهُم خلَوا بالرحمنِ فألبسَهُم نورًا من نوره.

رأتِ امرأةٌ من الصالحاتِ في منامِهَا كأنَّ حللاً قد فرِّقتْ على أهلِ مسجدِ محمدِ بنِ جحادةَ، فلما انتهَى الذي يفرِّقها إليه دعَا بسفطٍ مختومٍ فأخرجَ منه حلةً صفراء، قالت: فلم يقُمْ لها بصرِي فكساهُ إياها وقالَ: هذه لكَ بطولِ السهرِ، قالتْ: فواللَّهِ لقد كنتُ أراه - تعني محمدَ بن جحادةَ - بعد ذلكَ فأتخايلُها عليهِ - تعني: تلكَ الحلةَ - .

قالَ كرزُ بنُ وبرةَ: بلغَنِي أنَّ كعباً قالَ: إنَّ الملائكةَ ينظرونَ من السماءِ إلى الذينَ يتهجدونَ بالليلِ كما تنظرونَ أنتم إلى نجومِ السماء.

يا نفسُ فازَ الصالحونَ بالتُّقى وأبصرُوا الحقَّ وقلبي قد عمِي
يا حُسنَهُم والليلُ قد أجنَّهُم ونورُهُم يفوقُ نورَ الأنجمِ
ترنَّمُوا بالذكرِ في ليلِهم فعيشُهُم قدْ طابَ بالترنمِ
قلوبُهُم للذِّكْرِ قد تفرغتْ دموعُهم كلؤلؤٍ منظَّمِ
أسحارُهُم بهم لهم قد أشرقتْ وخلَعُ الغفرانِ خيرُ المقسمِ

في بعضِ الآثارِ يقولُ اللَّهُ عز وجل كلَّ ليلةٍ: ياجبريلُ أقمْ فلاناً وأنمْ فلاناً. قام بعضُ الصالحينَ في ليلةٍ باردةٍ وكانَ عليه خلقانُ رثةٌ فضربهُ البردُ فبكى فسمعَ هاتفاً يقولُ: أقمناكَ وأنمناهُم ثمَّ تبكي علينا.

تنبهوا يا أهلَ وادي المنحنى كم ذا الكرى هبَّ نسيم وجدي
كم بين خالٍ وجوٍ وساهرٍ وراقدٍ وكاتمٍ ومبدي

قيلَ لابنِ مسعودٍ: ما نستطيع قيامَ الليلِ، قالَ: أبعدَتْكُم ذنوبُكُم .

وقيلَ للحسنِ: أعـجزنا قيامُ الليل، قالَ: قـيدتْكُم خطاياكُم، إنما يؤهِّلُ الملوكُ للخلوةِ بهم ومخاطبتِهِم منْ يخلصُ في ودادِهِم ومـعاملتِهِم، فأمَّا من كانَ من أهلِ مخالفتِهِم فلا يرضونَهُ لذلكَ.

الليـلُ لي ولأحــبَــابي أحـادثُهُم	قد اصـطفيتُـهُم كَي يسـمعُوا ويـعُوا
لَهم قـلوبٌ بأســرارٍ لَهـا مُـلئتْ	على ودادي وإرشَادِي لهُم طُبـعُـوا
قد أثمـرتْ شجراتُ الفـهمِ عندهُمُ	فـمـا جَنوا إذ جَنوا مما به ارتفـعُـوا
سرَوا فمـا وهَنُوا عجزاً وما ضـعُفُوا	وواصلُوا حبلَ تقـرِيبي فمـا انقطَعُوا

الفصل الثالث: في ذكرِ الدعواتِ المذكورةِ في هذا الحديثِ:

وهيَ:

« اللهم إني أسـألكَ فعلَ الخـيراتِ، وتركَ المنكراتِ، وحبَّ المسـاكين، وأن تغفـرَ لي وترحمني،وإذا أردتَ بقـومٍ فتنةً فـاقبضْني إليكَ غـيرَ مفـتونٍ وأسـألكَ حُبَّكَ وحبَّ من يحبُّك وحبَّ العـملِ الذي يبلغُني حبَّك»، فقالَ النبيُّ ﷺ: **«تعلمـوهنَّ وادرُسُوهنَّ فإنهنَّ حقٌّ»**.

هذا دعاءٌ عظيمٌ من أجـمعِ الأدعيةِ وأكملِهَـا، فقولهُ ﷺ: **«أســألُكَ فــعلَ الخـيـراتِ وتركَ المنكراتِ »** يتضمنُ طلبَ كلِّ خيـرٍ وتركَ كلِّ شرٍّ، فإنَّ الخيراتِ تجمعُ كلَّ ما يحبُّه اللَّهُ تعالَى ويقـربُ منهُ منَ الأعمالِ والأقوالِ من الواجباتِ والمسـتحبـاتِ، والمنكراتِ تشـملُ كلَّ ما يكرههُ اللَّهُ تعـالَى ويباعـدُ عنهُ من الأقوالِ والأعمالِ، فمنْ حصلَ له هذا المطلوبُ حصلَ له خيرُ الدنيا والآخرةِ، وقد كانَ النبيُّ ﷺ يحبُّ مثلَ هذه الأدعيةِ الجامعةِ، قالتْ عائشةُ: «كانَ النبيُّ

ﷺ يعجبهُ الجوامعَ من الدعاءِ ويدعُ ما بينَ ذلكَ». خرجه أبو داود.

وقوله: «**وحب المساكين**» هذا قد يقالُ إنهُ من جملةِ فعلِ الخيراتِ وإنَّما أفرده بالذكرِ لشرفهِ وقوةِ الاهتمامِ به، كما أفردَ أيضًا ذكرَ حبِّ اللَّهِ تعالى وحبِّ من يحبُّه وحبِّ عملٍ يبلِّغهُ إلى حبِّه، وذلكَ أصلُ فعلِ الخيراتِ كلِّها، وقد يُقالُ: إنه طلبَ من اللَّهِ عز وجل أن يرزقهُ أعمالَ الطاعاتِ بالجوارحِ، وتركَ المنكراتِ بالجوارحِ، وأن يرزقَهُ ما يوجبُ له ذلكَ وهو حبُّه وحبُّ من يحبُّه، حبُّ عملٍ يبلغهُ حبَّه، فهذه المحبةُ بالقلبِ موجبةٌ لفعل الخيراتِ بالجوارحِ ولتركِ المنكراتِ بالجوارحِ، وسألَ اللَّهَ تعالى أن يرزقَهُ المحبةَ فيه، فقد تضمنَ هذا الدعاءُ سؤال حبِّ اللَّهِ عز وجل وحبِّ أحبابِهِ، وحبِّ الأعمالِ التي تقرِّبُ من حبِّه والحبِّ فيه، وذلكَ يقتضي فعلَ الخيراتِ كلِّها ويتضمنُ تركَ المنكراتِ، والسلامةَ من الفتنِ، وذلكَ يتضمنُ اجتنابَ الشرِّ كلِّه فجمعَ هذا الدعاءُ طلبَ خير الدنيا وتضمنَ سؤالَ المغفرةِ والرحمةِ وذلكَ يجمعُ خيرَ الآخرةِ كلَّه فجمعَ هذا الدعاءُ خيري الدنيا والآخرةِ.

والمقصودُ أنَّ حبَّ المساكين أصل الحبِّ في اللَّهِ تعالى؛ لأنَّ المساكينَ ليسَ عندهم من الدنيا ما يوجبُ محبتَّهم لأجلِه فلا يحبونَ إلا للَّهِ عز وجل والحبُّ في اللَّهِ من أوثقِ عُرى الإيمان، ومن علاماتِ ذوقِ حلاوةِ الإيمانِ، وهو صريحُ الإيمانِ، وهو أفضلُ الإيمانِ، وهذا كلُّه مرويٌّ عن النبيِّ ﷺ أنه وصفَ به الحبَّ في اللَّهِ تعالى، ورُويَ عن ابن عباسٍ أنه قال: «به تنالُ ولايةُ اللَّهِ وبه يوجدُ طعم الإيمانِ».

وحبُّ المساكين قد أوصَى به النبيُّ ﷺ غيرَ واحدٍ من أصحابِهِ، قالَ

أبــو ذرٍّ: «أوصانِي رسولُ اللَّهِ ﷺ أنْ أحبَّ المساكينَ وأنْ أدنوَ منهُم» خــرجهُ الإمامُ أحمدُ[١].

وخرَّج الترمذيُّ[٢] عن عائشةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ لها: **«يا عائشةُ أحبِّي المساكينَ وقرِّبيهم فإنَّ اللَّهَ يقربكِ يومَ القيامةِ»**.

ويروى أن داودَ عليه الســلام كانَ يجالسُ المساكين ويقــولُ: ياربِّ مسكينٌ بين مساكين. ولم يزلِ السلفُ الصالحُ يوصونَ بحبِّ المساكينِ - كتبَ سفيانُ الثوريُّ إلى بعضِ إخــوانِهِ - عليكَ بالفقراءِ والمساكينِ والدنو منــهمُ فإنَّ رسولَ اللّه ﷺ كانَ يسأل ربه حبَّ المساكين، وحبَّ المساكينِ مستلزمٌ لإخلاصِ العمل للَّهِ تعالَى، والإخلاصُ هو أساسُ الأعمالِ الــذي لاتثبتُ الأعمالُ إلاعليه، فإنَّ حبَّ المساكين يقتضِي إسداءَ الــنفع إليهِم بما يمكنُ من منافعِ الدينِ والدنيا، فإذا حصلَ إسداءُ النفع إليهِم حبًّا لَهُم، والإحسانُ إليهم كان هذا العملُ خالصًا وقد دلَّ القرآنُ على ذلكَ، قــالَ اللَّهُ تعالَى: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** ﴿٨﴾ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا**﴾ [الأنسان:٨،٩]، وقالَ عز وجل: ﴿**وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنعام:٥٢]، وقالَ تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [الكهف:٢٨].

قــالَ ســعــدُ بنُ أبي وقــاصٍ: نزلتْ هذه الآيــةُ في ســتــةٍ: فيَّ، وفي ابن مسعودٍ، وصهيبٍ، وعمارٍ، والمقدادِ، وبلالٍ. قالتْ قريشٌ لرسولِ اللَّهِ ﷺ: إنا

(١) أخرجه: أحمد (٥/١٥٩) بلفظ: «أمرني خليلي بسبعٍ: أمرني بحبِّ المساكين والدنوِّ منهم..».
(٢) أخرجه: الترمذي (٢٣٥٢).

لا نرضى أن نكونَ أتباعًا لَهُم فاطردْهُم عنكَ، فأنزلَ اللَّهُ عز وجل: ﴿**وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ [الأنعام:٥٢] الآية(١).

وقالَ خبابُ بنُ الأرتِ في هذه الآيةِ «جاء الأقرعُ بنُ حابسٍ وعيينةُ بنُ حصنٍ، فوجدَا رسول اللَّهِ ﷺ مع صهيبٍ وعمارٍ وبلالٍ وخبابٍ قاعداً في ناسٍ من الضعفاءِ منَ المؤمنينَ، فلما رأوهُم حولَ النبيِّ ﷺ حقروهُم، فأتوه فخَلوا بهِ وقالوا: إناَّ نريدُ أن نجعلَ لنا منكَ مجلسًا تعرفُ لنا به العربُ فضلَنَا، فإنَّ وفودَ العربِ تأتيكَ فنستحي أن ترانا مع هولاءِ الأعبدِ، فإذَا نحنُ جئناكَ فأقمهُم عنكَ، فإذا نحنُ فرغنَا فاقعدْ معهم إن شئت، قالَ: «نعم»، قالوا: فاكتبْ لنا عليكَ كتاباً، قالَ فدعا بصحيفةٍ، ودعا عليًا ليكتبَ ونحن قعودٌ في ناحيةٍ فنزلَ جبريلُ ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿**وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنعام:٥٢] ثم ذكرَ الأقرعَ بنَ حابسٍ، وعيينةَ ابنَ حصنٍ فقالَ: ﴿**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾ [الأنعام:٥٣] ثم قالَ: ﴿**وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾ [الأنعام:٥٤]. قالَ: فدنونَا منهُ حتَّى وضعْنَا رُكَبَنَا عَلَى رُكْبَتَيهِ، وكانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يجلسُ معنا فإذا أرادَ أنَّ يقومَ قامَ وتركنَا، فأنزلَ اللَّهُ عز وجل ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ**﴾ [الكهف:٢٨] ولاتجالسِ الأشرافَ ﴿**وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا**﴾ [الكهف:٢٨] يعني عيينةَ، والأقرع قالَ خبابٌ: فكنَّا

(١) أخرجه: مسلم (٧/ ١٢٧)، وابن ماجه (٤١٢٨).

نقعدُ مع النبيِّ ﷺ فإذا بلغنَا الساعةَ التي يقومُ قمنا وتركناهُ حتى يقومَ» خرجه ابنُ ماجَه(١)، وغيرهُ.

وكان النبيُّ ﷺ يعودُ المرضَى من مساكينِ أهلِ المدينةِ ويشيعُ جنائزهُم وكان لايأنفُ أن يمشيَ مع الأرملةِ والمسكينِ حتى يقضيَ حاجتَهُما وعلى هذا الهَدْي كانَ أصحابُهُ مِن بعدهِ والتابعون لهم بإحسانٍ.

وروي عن أبي هريرة قال: «كان جعفر بن أبي طالبٍ يحبُّ المساكينَ ويجلسُ إليهم ويحدِّثهم ويحدِّثونه، وكان النبيُّ ﷺ يكنيه أبا المساكين». وفي رواية «أنهُ كان يعمهم وربما أخرج لهم عكةً فيها العسل فشقُّوها ولعقوها».

وكانتْ زينبُ بنْتُ خزيمةَ أمُّ المؤمنينَ تسمَّى أمَّ المساكينَ لكثرةِ إحسانِها إليهم وتوفيتْ في حياةِ النبيِّ ﷺ.

وقالَ ضرارُ بن مُرَّةَ في وصف عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه في أيامِ خلافتهِ: كان يعظمُ أهلَ الدينِ ويحبُّ المساكينَ، ومرَّ ابنهُ الحسنُ رضي الله عنه على مساكينَ يأكلونَ فدعُوه فأجابهمُ وأكلَ معهُم، وتلا ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:٢٣]، ثم دعاهم إلى منزلِه فأطعمهم وأكرمهمُ وكان ابنُ عمر لا يأكلُ غالبًا إلا معَ المساكينِ وكانَ يقُولُ لعلَّ بعضَ هؤلاءِ أن يكونَ ملكًا يومَ القيامةِ.

وجاءَ مسكينٌ أعمى إلى ابن مسعودٍ وقد ازدحَم الناسُ عندَهُ فناداَهُ يا أبا عبدِ الرحمنِ آويتَ أربابَ الخزِّ واليمنيةِ وأقصيتني لأجلِ أنِّي مسكينٌ، فقالَ له: أُدْنُهْ فلم يزلْ يُدْنِيهِ حتى أجلسهُ إلى جانبهِ أو بِقُرْبهِ.

وكانَ مطرفُ بنُ عبدِ اللَّهِ يلبسُ الثيابُ الحسنةَ ثم يأتِي المساكينَ ويجالسهم.

---

(١) «السنن» (٤١٢٧).

وكان سفيانُ الثوريُّ يعظمُ المساكينَ ويجفو أهلَ الدنيا فكانَ الفقراءُ في مجلسه همُ الأغنياءُ والأغنيـاءُ همُ الفقراءُ، وقالَ سليـمانُ التيـميُّ: كنَّا إذَا طلبنَا علية أصحابنا وجدْناهُم عندَ الفقراءِ والمســاكينِ. وقالَ الفضيلُ: من أراد عزَّ الآخرة فليكن مجلسهُ مع المساكينِ، ومن فضـائلِ المساكينِ أنهُم أكثرُ أهلِ الجنةِ، كما قالَ النبيُّ ﷺ : **«قمتُ على بابِ الجنة فإذا عامةُ من دخلَها المساكينُ»**[(١)] وقالَ ﷺ: **«تحاجت الجنةُ والنارُ، فقالت الجنةُ: لا يدخلني إلا الضعفاءُ والمساكينُ»**[(٢)].

وسئلَ النبيُّ ﷺ عن أهل الجنةِ فقالَ: **«كلُّ ضعيفٍ مستضعفٍ»**[(٣)] وهم أولُ الناسِ دخولاً الجنةَ كـما صحَ عنه ﷺ : **«إن الفقـراءَ يسبقـونَ الأغنياءَ إلى الجنةِ بأربعين عـامًـا»**[(٤)] ـ وفي روايـةٍ ـ **«أنهم يدخلون الجنةَ بنصفِ يومٍ وهو خـمسمائة سنـةٍ»**[(٥)] وهم أولُ الناسِ إجازةً على الصراطِ كما صحَّ عنه ﷺ أنهُ سئلَ من أولُ الناسِ إجازةً على الصـراط؟ فقالَ: **«فقراءُ المهـاجرينَ»**[(٦)] وهم أولُ الـناسِ ورودًا على الحوضِ كما قالَ ﷺ : **«أولُ الناسِ ورودًا عليه فقراءُ المهاجرينَ الدَّنسةُ رءوسُهم، الشعـثةُ ثيابهُم**[(٧)] **الذينَ لا ينْكِحونَ المتنعمـاتِ ولا تفتحُ لهم السددُ»**[(٨)]وهم

(١) أخرجه: البخاري (٧/ ٣٩)، (٨/ ١٤١)، ومسلم (٨/ ٨٨)، كلاهما عن أسامة بن زيد.
(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ١٧٣)، ومسلم (٨/ ١٥٠ ـ ١٥١).
(٣) أخرجه: البخاري (٦/ ١٩٨).
(٤) أخرجه: الترمذي (٢٣٥٢)، (٢٣٥٥).
(٥) أخرجه: الترمذي (٢٣٥١)، (٢٣٥٣)، (٢٣٥٤)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٥١٣).
(٦) أخرجه: مسلم (١/ ١٧٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ١٦٩)، وابن خزيمة (٢٣٢).
٧) كذا بالأصل، والصحيح كما في مصادر التخريج: **«الدنسُ ثيابًا، والشعـثُ رؤوسًا»** على وصفِ الثيابِ بالدنَسِ، والشعرِ بالشعَثِ.
٨) أخرجـه: أحمد في «المسند» (٥/ ٢٧٥)، والتـرمذي (٢٤٤٤)، وابن ماجـه (٤٣٠٣) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

أتباعُ الرسلِ كما أخبرَ اللّهُ تعالى عن نوحٍ عليه السلامُ أن قومَهُ عيرُوهُ باتباع الضعفاءِ له فقالُوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١].

وكذلكَ قالَ هرقلُ لأبي سفيانَ لما سألهُ عن النبيِّ ﷺ وهل يتبعهُ أشرافُ الناسِ أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، قالَ هرقلُ: هم أتباعُ الرسلِ[١].

وهم أفضلُ من الأغنياءِ عندَ كثيرٍ من العلماءِ أو أكثرهم، وقد دلَّ على ذلكَ أدلةٌ كثيرةٌ منها قولُ النبيِّ ﷺ حينَ مرَّ به الغنيُّ والمسكينُ في المسجدِ: «**هذا ـ يعني المسكينَ ـ خيرٌ من ملءِ الأرضِ مثلَ هذا ـ يعني الغنيَّ**» وقد خرَّجه البخاريُّ وغيرُهُ[٢].

ومنهُم من لو أقسمَ على اللّهِ لأبرهُ كما في «الصحيحِ»[٣] عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ في أهلِ الجنةِ: «**كلُّ ضعيفٍ مستضعفٍ لو أقسمَ على اللّهِ لأبَرَّهُ**» وفي روايةٍ «**أشعثَ ذو طمرينِ**» وفي روايةٍ خرجَها ابنُ ماجه[٤] «**أنَّهم ملوكُ أهلِ الجنةِ**» وفي الحديثِ المشهورِ «**ربَّ أشعثَ أغبرَ ذي طمرينِ مدفوعٌ بالأبوابِ لو أقسمَ على اللّهِ لأبَرَّهُ**» خرجهُ الحاكمُ وغيرهُ[٥].

ربَّ ذي طمرينِ نضوٍ ... يأمنُ العالمُ شرَّهُ
لا يُرى إلا غنيًّا ... وهوَ لا يملكُ ذرَّهْ
ثم لو أقسمَ في شيءٍ ... على اللّهِ أبرَّهُ

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٦).

(٢) أخرجه: البخاري (٧/ ٩)، (٨/ ١١٨)، وابن ماجه (٤١٢٠).

(٣) أخرجه: البخاري (٦/ ١٩٨).

(٤) أخرجه: ابن ماجه (٤١١٥).

(٥) أخرجه: مسلم (٨/ ٣٦)، والحاكم (٤/ ٣٢٨) من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه.

قال ابنُ مسعودٍ: كونُوا جدَدَ القلوبِ، خلقانَ الثيابِ، سرجَ الليلِ مصابيحَ الظلامِ، تعرفونَ في أهلِ السماءِ وتخفونَ على أهلِ الأرضِ.

طُوبى لعبدٍ بحبلِ اللَّهِ معتصمه على صراطٍ سويٍّ ثابتٌ قدمُه

رثِّ اللباسِ جديد القلبِ مستترٍ في الأرضِ مشتهرٌ فوقَ السماء وسمُه

ما زالَ يستحقرُ الأولى بهمتهِ حتَّى يرقى إلى الأخرى به هممُه

فذاكَ أعظمُ من التاجِ متكئًا على النمارقِ محتفا به خدمُهُ

واعلم؛ أنَّ محبةَ المساكينِ لها فوائدٌ كثيرةٌ:

منها: أنَّها توجبُ إخلاصَ العملِ للهِ عز وجل، لأنَّ الإحسانَ إليهم لمحبَّتهم لا يكونُ إلا للَّهِ عز وجل، لأنَّ نفعهُم في الدنيا لا يُرجَى غالبًا فأما من أحسنَ إليهم ليمدحَ بذلكَ فما أحسنَ إليهم حبًا لهم بل حبًا لأهلِ الدُّنيا وطلبًا لمدحهِم له بحبِّ المساكينِ.

ومنها: أنها تزيلُ الكِبْرَ، فإن المتكبرَ لا يرضى مجالسةَ المساكينِ كما سبقَ عن رؤساءِ قريشٍ والأعرابِ، ومن حذا حذوهم من هذه الأمة ممن تشبهَ بهم حتى أنَّ بعضَ علماءِ السوءِ كان لا يشهدُ الصلاةَ في جماعةٍ خشيةَ أن تزاحمَهُ المساكينُ في الصفِّ، ويمتنعُ بسببِ هذا الكبرِ فيفوتُهُ خيرٌ كثيرٌ جدا، فإنَّ مجالسَ الذكرِ والعلمِ تقعُ فيها كثيرًا مجالسةُ المساكينِ فإنهم أكثرُ هذه المجالسِ فيمتنعُ المتكبرُ من هذه المجالسِ بتكبرِهِ، وربما كانَ المسموعُ منه الذكرُ والعلمُ من جملةِ المساكينِ فيأنف أهلُ الكبرِ من التردد إلى مجلسه كذلكَ فيفوتهُم خيرٌ كثيرٌ، وقد أخبرَ اللَّهُ تعالى عن المشركينَ أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

يشيرونَ إلى عظماءِ مكةَ والطائفِ كعتبةَ بنِ ربيعةَ وأخيهِ شيبةَ ونحوهما من صناديد قريشٍ وثقيفٍ ذوي الأموالِ والشرفِ فيهم ممن كانَ أكثرَ مالاً من محمد ﷺ وأعظمَ رياسةً عندهُم، وردَّ عليهم سبحانهُ بأنهُ يقسِّم رحمتَهُ كما يشاءُ وأنه كما رفَع درجاتِ بعضهم على بعضٍ في الدنيا، فكذلكَ يرفَعُها في الآخرةِ بالنبوةِ والعلمِ والإيمانِ خيرٌ مما يجمعونَهُ من الأموالِ التي تَفْنَى، فهو يخصُّ بهذه الرحمةِ الدينيةِ من يشاءُ ويرفعُهُ على أهلِ النعمِ الدنيويةِ وقد خصَّ محمداً ﷺ بما لم يشركهُ فيه غيرهُ من هذه النعم كما قالَ تعالَى له: ﴿**وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**﴾ [النساء:١١٣].

وكانَ عليُّ بنُ الحسينِ يجلسُ في مجلسِ زيدِ بنِ أسلمَ فيعاتَبُ على ذلكَ فيقولُ: إنما يجلسُ المرء حيثُ يكونُ له فيه نفعٌ، أو كما قالَ يشيرُ إلى أنَّه ينتفعُ بسماعِ ما يسمعُهُ من العلمِ والحكمةِ، وزيدُ بنُ أسلمَ أبوه مولى لعمرَ، وعليُّ بنُ الحسينِ سيدُ بني هاشمٍ وشريفِهم.

ولما اجتمع الزهريُّ وأبو حازمٍ الزاهدُ بالمدينةِ عند بعضِ بني أميةَ - لما حجَّ - وسمعَ الزهريُّ كلامَ أبي حازمٍ وحكمتهُ أعجبهُ ذلكَ، وقالَ: هو جاري منذُ كذا وكَذا وما جالستُهُ ولا عرفتُ أن هذا عندَهُ، فقالَ له أبو حازم: أجلْ إنِّي من المساكينِ ولو كنتُ من الأغنياءِ لعرفتني، فوبخهُ بذلكَ، وفي رواية عنه أنه قالَ له: لو أحببتَ اللَّهَ أحببتني ولكنَّكَ نسيتَ اللَّهَ فنسيتني، يشيرُ إلى أنَّ من أحبَّ اللَّهَ تعالى أحبَّ المساكينَ من أهلِ العلمِ والحكمةِ لأجلِ محبتهِ للهِ تعالى ومن غفلَ عن اللَّهِ تعالَى غفلَ عن أوليائه من المساكينِ فلمْ يرفعْ لهم رأسًا، ولم ينتفعْ بما اختصَّهمُ اللَّهُ عز وجل بهِ من الحكمةِ والعلومِ النَّافعةِ

التي لا توجدُ عند غيرِهم من أهلِ الدُّنيا.

وقد كانَ علماءُ السلفِ يأخذونَ العلمَ عن أهلِهِ والغالبِ عليهمُ المسكنةُ وعدمُ المالِ والرفعةِ في الدنيا ويَدَعُونَ أهلَ الرياساتِ والولاياتِ فلا يأخذونَ عنهم ما عندهُم من العلم بالكليةِ.

ومنها: أنَّه يوجبُ صلاحَ القلبِ وخشوعِهِ، وفي «المسندِ»[١] عن أبي هريرةَ أنَّ رجلاً شكى إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ قسوةَ قلبهِ فقال له: **«إن أحببتَ أن يلينَ قلبُكَ فأطعِمِ المسكينَ وامْسحْ رأس اليتيمِ»**.

ومنها: أنَّ مجالسةَ المساكينِ توجبُ رضى من يجالسُهُم برزقِ اللَّهِ عز وجل وتعظمُ عنده نعمةُ اللَّهِ عز وجل عليهِ بنظرِهِ في الدنيا إلى من دونَه، ومجالسةُ الأغنياءِ توجبُ التسخطَ بالرزقِ ومدَّ العينِ إلى زينتهم وما هم فيه، وقد نهى اللَّهُ عز وجل نبيَّه ﷺ عن ذلكَ فقال تعالَى: ﴿**وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾ [طه:١٣١] وقالَ النبيُّ ﷺ: **«انظرُوا إلى من دونكمُ ولا تنظرُوا إلى منْ فوقكم فإنَّه أجدر أن لا تزدرُوا نعمةَ اللَّهِ عليكم»**[٢] قال أبو ذرٍّ: «أوصاني رسولُ اللَّهِ ﷺ أن أنظر إلى من دوني ولا أنظرَ إلى من فوقِي وأوصانِي أن أحبَّ المساكينَ وأن أدنوَ منهم»[٣].

وكان عونُ بنُ عبدِ اللَّهِ بن عتبةَ بنِ مسعودٍ يجالسُ الأغنياءَ فلا يزالُ في غمٍّ؛ لأنَّه لا يزال يَرَى من هو أحسنُ منه لباسًا ومركبًا ومسكنًا وطعامًا، فتركَهُم وجالسَ المساكينَ فاستراحَ من ذلك.

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٢٦٣).

(٢) أخرجه: مسلم (٨/ ٢١٣)، والترمذي (٢٥١٣)، وابن ماجه (٤١٤٢)، وأحمد (٢/ ٤٨٢).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ١٧٣). والطبراني في «الأوسط» (٧٧٣٩).

وقــد رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه نهَى عائشةَ عن مــخالطةِ الأغنياءِ[1]. وقــالَ عمر: إيَّاكم والدخولَ على أهلِ السعةِ فإنَّه مسخطةٌ للرزقِ.

واعلمْ؛ أن المسكينَ إذا أُطلقَ يرادُ به غالبًا من لا مال لهُ يكفيه، فإنَّ الحاجةَ توجبُ السكونَ والتواضعَ بخلافِ الغنِي فإنَّه يُوجبُ الطغيانَ، ولهذا ذمَّ الفقيرَ المختالَ وعظَّم وعيدهُ؛ لأنَّهُ عصَى بما ينافي فقرهُ وهو الاختيالُ والزهو والكبرُ، ولما كــانَ المسكينُ عندَ الإطلاقِ لا ينصــرفُ إلا إلى من لا كــفــايةَ لهُ من المال وصى اللَّهُ تعالى بإيثارِ المساكينِ وإطعامــهم الطعامَ، ومدحَ من يطعمُهم، وذمَّ من لا يحضُّ على إطعامــهِم، وجعلَ لهم حقًّا في أموالِ الصــدقاتِ والفيء وخمسِ الغنائمِ وحضورِ قمسةِ الأموالِ.

وهؤلاءِ المساكينُ على قسمينِ:

أحدُهما: من هو محتاجٌ في الباطنِ وقد أظهرَ حاجتَهُ للنَّاس.

والثاني: من يكتُم حاجتَهُ ويظهرُ للناسِ أنه غَني فهذا أشرَفُ القسمينِ، وقد مدحَ اللَّهُ عز وجل هذا فــي قولِه تعالى: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا**﴾ [البقرة:٢٧٣] وقــالَ النبيُّ ﷺ: «**ليس المسكينُ بهــذا الطواف الذي تردُّه اللقمةُ واللقــمتانِ والتمرةُ والتمرتانِ، ولكن المسكينَ مــن لا يجدُ ما يغنيه، ولا يفطنُ له فــيتــصدَّقُ عليــه**»[2] وقالَ بعــضُهم: هذا المحرومُ المذكورُ في قــولِه عز وجل: ﴿**لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾ [الذاريات:١٩].

فأخــبرَ النبيُّ ﷺ أن من كتمَ حاجــتَهُ فلم يفطنْ لهُ أحقُّ باسم المسكين من

---

(١) أخرجه: الترمذي (١٧٨٠).

(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ١٥٣)، (٦/ ٤٠)، ومسلم (٣/ ٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الذي أظهرَ حـاجتَهُ بالسؤالِ وأنَّه أحقُّ بالبـرِّ منه وهذا يدلُّ على أنَّهم كانُوا لا يعرفـونَ من المساكينِ إلا من أظهـرَ حاجـتَهُ بالسـؤالِ، وبهذا فرقَ طـائفةٌ من العلماءِ بين الفقيرِ والمسكينِ فقالوا: من أظهرَ حاجـتَهُ فهو مسكينٌ ومن كتمَها فهـو فقيـرٌ، وفي كلامِ الإمامِ أحـمدَ إيماءٌ إلى ذلك وإن كانَ المشـهورُ عنه أن التفريقَ بينهما بكثرةِ الحاجةِ وقلَّتِهَا كقولِ كثيرٍ من الفقهاءِ.

وهذا حيثُ جمعَ بينَ ذِكْرِ الفقيرِ والمسكينِ كما في آيةِ الصدقاتِ، فأمَّا إذا أفردَ أحدُ الاسمينِ دخلَ فـيه الآخر عنَد الأكثرينَ، وقد كـانَ كثيرٌ من السلف يكتمُ حاجتَهُ ويظهرُ الغِنى تعفُّفًا وتكرمًا، منهم إبراهيم النخعيّ كانَ يلبسُ ثيابًا حسناءَ ويخرجُ إلى الناسِ وهم يرونَ أنه تحلُّ له الميتةَ من الحاجةَ.

كانَ بعضُ الصالحينَ يلبسُ الثـيابَ الجميلةَ وفي كمه مفتـاحُ دارٍ كبيرةٍ ولا مأوى لهُ إلا المساجدُ، وكـانَ آخرُ لا يلبسُ جبةً في الشتاءِ لـفقرهِ ويقولُ: بي علةٌ تمنعني من لبسِ المحشو وإنَّما يعني بها الفقرَ - شعر:

إن الكريمَ لُيخفي عنك عسرتَهُ حتى تراهُ غنيًّا وهـوَ مجهـودُ

وكان بعكس هؤلاءِ من يلبسُ ثيابَ المساكينِ مع الغِنَى تواضعًا للَّه عز وجل وبُعْدًا من الكبرِ كما كانَ يفعلُهُ الخلفاءُ الراشدونَ الأربعةُ وبعدَهم عمرُ بنُ عبد العزيز، وكذلكَ كانَ جماعةٌ من الصحابةِ منهم عبدُ اللَّه بنُ عمرَ وعبدُ اللَّه بنُ عمرو بن العاصِ وغيرُهما رضي الله عنهم، ورويَ أنَ أبا بكرٍ الصدِّيقِ رضي الله عنه كانَ ينشدُ:

إذا أردتَ شـــريفَ النـاسِ كلِّـهم فـانـظرْ إلى ملكٍ في زي مـسكينِ
ذاكَ الذي حسنت في الناسِ سيرتُهُ وذاكَ يصـلحُ لـلدُّنـيـــا وللـدينِ

وكان عليٌّ رضي الله عنه يُعاتَبُ على لبـاسهِ فيقولُ: هو أبعـدُ عن الكبرِ وأجدرُ أن يقتـدي بي المسلمُ. وعوتبَ عمرُ بنُ عـبد العزيزِ على ذلكَ فقـالَ: إنَّ أفضلَ

القصدِ عندَ الجدةِ، يعني أفضلَ ما اقتصدَ الرجلُ في لباسِهِ مع قدرتِهِ ووجدانه.

وفي «سنن أبي داودَ» وغيرِهِ[1] عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: **«البذاذةُ من الإيمانُ»** يعني: التقشفَ. وفي الترمذيِّ[2] عن النبيِّ ﷺ **«من تركَ اللباسَ تواضعًا للَّه عز وجل وهو يقدرُ عليهِ دعاهُ اللَّهُ يومَ القيامةِ حتَّى يخيِّرهُ من أيِّ حللِ الجنةِ شاء يلبسُهَا»** وخرجهُ أبو داود[3] من وجه آخرَ ولفظه: **«من تركَ ثوبَ جمالٍ وهويقدرُ عليه - أحسبهُ قالَ: تواضعًا - كساهُ اللَّهُ حلَّة الكرامةِ»**.

وإنَّما يذمُّ من تركَ اللباسَ مع قدرتِهِ عليهِ بخلاً على نفسه أو كتمانًا لنعمةِ اللَّهِ عز وجل وفي هذا جاءَ الحديثُ المشهورُ: **«إنَّ اللَّهَ إذا أنعم على عبدٍ أحبَّ أن يرَى أثرَ نعمتهِ على عبدِهِ»**[4] ومن لبسَ لباسًا حسنًا إظهارًا لنعمةِ اللَّهِ ولم يفعلْهُ اختيالاً كانَ حسنًا.

وكان كثيرٌ من الصحابةِ والتابعينَ يلبسونَ لباسًا حسنًا، منهم: ابنُ عباسٍ، والحسنُ البصريُّ، وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه سُئِلَ عن الرجلِ يحبُّ أن يكونَ لباسهُ حسنًا ونعلُه حسنًا، قالَ: **«ليس ذلك بالكبر، إنما الكبر بطر الحق وغمط الناس»**[5] يعني التكبرَ عن قبولِ الحقِّ والانقيادِ لهُ واحتقارَ الناسِ وازدراءهمُ فهذا هُوَ الكبرُ وأمَّا مجردُ اللباسِ الحسنِ الخالي عن الخيلاءِ فليسَ

(١) أخرجه: أبو داود (٤١٦١)، وابن ماجه (٤١١٨)، والحاكم (١/ ٩) كلهم عن أبي أمامة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه: الترمذي (٢٤٨١)، وأحمد في «المسند» (٣/ ٤٣٩)، والحاكم (١/ ٦١)، (٤/ ١٨٣) كلهم عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه.
(٣) أخرجه: أبو داود (٤٧٧٨).
(٤) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٤٧٣)، والحاكم (٤/ ١٨١)، وأبو داود (٤٠٦٣)، والنسائي (٨/ ١٨٠، ١٨١) كلهم عن مالك بن نضلة رضي الله عنه.
(٥) أخرجه: مسلم (١/ ٦٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

بكبرٍ، واحتقارُ الناسِ مع رثاثةِ اللباسِ كبرٌ.

وقد رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه كانَ ماشيًا في طريقٍ وهناكَ أمةٌ سوداءُ، فقالَ لها رجلٌ: الطريقَ الطريقَ للنبيِّ ﷺ فقالتْ: الطريقُ يمنةً ويسرةً، فقال النبيُّ ﷺ: «**دعُوهَا فإنَّها جبَّارةٌ**» خرجهُ النسائيُّ[1] وغيرُه، وفي روايةِ الطبرانيِّ قالُوا: يا رسولَ اللَّهِ إنها يعني مسكينة، قالَ: «**إنَّ ذاكَ في قلبِها**» يعني أنَّ الكبرَ في قلبهَا وإنْ كانَ لباسهَا لباسَ المساكينِ.

وقالَ الحسنُ: إنَّ قومًا جعلوا التواضعَ في لباسِهم والكبرَ في صدورهم إن أحدَهم أشدُّ كبرًا بمدرعتهِ من صاحبِ السريرِ بسريرِهِ، وصاحبِ المنبرِ بمنبرِهِ، قالَ أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ: قالَ لي سليمانُ بنُ أبي سليمانَ وكانَ يعدلُ بأبيه: أيَّ شيءٍ أرادوا بثيابِ الصوفِ؟ قلت: التواضعَ، قالَ: وما يتكبرُ أحدُهم إلا إذا لبسَ الصوفَ؟

وقالَ أبو سليمانَ: يكونُ ظاهرُكَ قطنيا وباطنكَ صوفيًا، وقالَ أبو الحسينِ ابن بشارٍ: صوِّف قلبَكَ والبس القوهيَ على القوهي يعني رفيعَ الثيابِ، فمتَى أظهرَ الإنسانُ لباسَ المساكينِ لدعوى الصلاحِ ليشتهرَ بذلكَ عندَ الناسِ كانَ ذلكَ كبرًا ورياءً، ومن هُنا تركَ كثيرٌ من السلفِ المخلصينَ اللباسَ المختصَّ بالفقراءِ والصالحينَ وقالُوا: إنه شهرةٌ، ولما قدمَ سيارُ أبو الحكمِ البصرةَ لزيارةِ مالكِ بنِ دينارٍ، لبسَ ثيابًا حسنةً ثمَّ دخلَ المسجدَ فصلَّى صلاةً حسنةً فرآه مالكٌ ولم يعرفْهُ فقالَ له: يا شيخُ إنِّي أرغبُ بك عن هذه الثيابِ مع هذه الصلاةِ، فقالَ له: يا مالك ثيابي هذه تضعُني عندكَ أم ترفعُني؟ قالَ: بل

---

(١) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٨١٦٠).

تضعكَ، فقالَ: نِعمَ الثوبُ ثوبٌ يضعُ صاحبهُ عندَ الناسِ، ولكن انظرْ يا مالكُ لعلَّ ثوبيكَ هذين يعني الصوفَ أنزلاكَ عندَ الناسِ ما لم ينزلاكَ من اللَّهِ، فبكى مالكٌ وقام إليه واعتنقهُ وقال له: أنشدكَ اللَّهَ أنت سيارُ أبو الحكم؟ قالَ: نعم.

فلهذا كرهَ من كرهَ من السلفِ كابنِ سيرينَ وغيره لباسَ الصوفِ حيثُ صارَ شعارَ الزاهدينَ فيكونُ لباسُهُ إشهاراً للنفسِ وإظهاراً للزهدِ، وأما النبيُّ ﷺ فكانَ يلبسُ لباسَ الأغنياءِ من حللِ اليمنِ وثيابِ الشامِ ونحوهَا، وتارةً يلبسُ لباسَ المساكينِ، فيلبسُ جبةً من صوفٍ أحياناً وأحياناً يتزر بعباءةٍ، ويهيءُ إبلَ الصدقةِ بيدهِ يعني أنه يطليَها بيدِهِ ويصلحهَا كما يفعلُ أربابُ الإبلِ بها، ولم يبعثِ اللَّهُ نبيًا من أهلِ الكبرِ، وإنما يبعثُ من لا كبرَ عندَهُ ولا يتكبرُ عن معالجةِ الأشياءِ التي يأنفُ منها المتكبرونَ كرعايةِ الإبلِ والغنمِ، وإجارةِ نفسهِ عندَ الحاجةِ إلى الاكتسابِ، ومن أعطاهُ اللَّهُ منهم مُلكًا فإنهُ لم يزلْ دأبهُ التواضعَ للَّهِ عز وجل كداودَ وسليمانَ ومحمدٍ صلَّى اللَّهُ عليهم وسلَّم تسليمًا كثيراً.

وقد يطلقُ اسمُ المسكينِ ويرادُ بهِ من استكانَ قلبُه للَّهِ عز وجل وانكسر لهُ وتواضعَ لجلالهِ وكبريائهِ وعظمتهِ وخشيتِهِ ومحبتِهِ ومهابتِهِ، وعلى هذا المعنى حملَ بعضُهم الحديثَ المرويَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «**اللَّهم أحيني مسكينًا وأمتْني مسكينًا واحشرني في زمرةِ المساكينِ**» خرجهُ الترمذيُّ من حديثِ أنسٍ[1] وخرجهُ ابنُ ماجه من حديثِ ابنِ عباسٍ[2]، وفي حملهِ على ذلكَ نظرٌ؛ لأنَّ

(١) أخرجه: الترمذي (٢٣٥٢).

(٢) وأخرجه: ابن ماجه (٤١٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري، وليس من حديث ابن عباس كما =

في تمامِ حديثيهما ما يدل على أنّ المرادَ به المساكينُ من المال؛ لأنهُ ذكرَ سبقَهم الأغنياء إلى الجنةِ مع أنَّ في إسنادِ الحديثين ضعفًا، وقد خُيِّرَ النبيُّ ﷺ بينَ أن يكونَ نبيًّا ملكًا أو عبدًا رسولاً فأشارَ إليهِ جبريلُ أنْ تواضعَ، فقالَ: بل عبدًا رسولاً، وكانَ بعدَ ذلكَ لا يأكـلُ متكئًا ويقولُ: «**آكل كما يأكلُ العبدُ وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ**»[1].

قالَ الحسنُ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**فأعطاني اللَّهُ لذلكَ أن جعلَني سيدَ ولد آدمَ وأولَ شافعٍ وأولَ مشفعٍ وأولَ من تنشقُّ عنه الأرضُ**» وصحَّ عنه ﷺ أنه قالَ: «**إنَّما أنا عبدٌ فقولوا عبدُ اللَّه ورسولُه**»[2] فأشرفُ أسمائه عـبدُ اللَّهِ ولهذا سُمِّي بهذا الاسم في القرآنِ في أفخرِ مقـاماتِه، فلمَّا حققَ ﷺ عبوديتـه لربِّه حصلتْ له السيادةُ على جميعِ الخلقِ.

كانَ كثيرٌ من العارفينَ يقولُ في مناجـاتِه لربِّه: كفى بي فخرًا أنِّي لكَ عبدٌ وكفَى بي شرفًا أنكَ لي ربٌّ، وكانَ بعـضُهُم يقولُ: كلَّما ذكرتُ أنه ربِّي وأنا عبدُه حصلَ لي من السرور ما يصلحُ به بدَني:

شرفُ النفوسِ دخولُها في رقِّهم   والعبدُ يحـوِي الفخـرَ بالمتمـلكِ

وكان أبو يزيدِ البسطاميُّ ينشدُ:

يا ليـتنـي صـرتُ شـيـئًـا   من غــيـــرِ شيء أعـــد
أصـبــحتُ للكلِّ مــولًى   لأنَّنـي لكَ عـــبـــدُ

= قال المصنف ـ رحمه اللَّه .

(١) أخرجه: أبو يعلى في «مسنده» (٨/ ٤٩٢٠)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣/ ٢٤٧) برقم (٣٦٨٣).

(٢) أخرجه: البخاري (٤/ ٢٠٤)، (٨/ ٢١٠).

فمنِ انكسرَ قلبُه للَّهِ عز وجل واستكانَ وخشع وتواضعَ جبرهُ اللَّهُ عز وجل رفعهُ بقدرِ ذلكَ، وفي الأثرِ المشهورِ أنَّ اللَّهَ عز وجل قالَ لموسى على نبيِّنا وعليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلامِ حينَ سألَهُ أينَ أجدكَ؟ قالَ: عندَ المنكسرةِ قلوبُهُم من أجلي، فإني أدْنو منهُم كلَّ يوم باعًا ولولا ذلكَ انهدَموا.

ورويَ عن عبدِ اللَّهِ بي سلامٍ أنه فسرهُ فقال: هم المنكسرة قلوبُهُم بحبِّ اللَّهِ عن حبِّ غيرهِ، وفي الحديثِ المشهورِ المرفوعِ: «**أنَّ اللَّهَ تعالى إذا تجلَّى لشيء من خلقهِ خشعَ له**»[1] فإذا تجلَّى لقلوبِ العارفينَ عظمةُ اللَّهِ وجلالهُ وكبرياؤه اندكت قلوبهم من هيبتِهِ وخشعتْ وانكسرتْ من محبَّتِهِ ومخافتِهِ:

مساكينُ أهلِ الحبِّ حتى قبورُهم   عليها ترابُ الذلِّ بينَ المقابرِ

فالمسكينُ في الحقيقةِ من استكانَ قلبُهُ لربه وخشعَ من خشيتِهِ ولا يكونُ المسكينُ ممدوحًا بدونِ هذه الصفةِ، فإنَّ من لم يخشعْ قلبُهُ معَ فقرهِ وحاجتهِ فهوَ جبارٌ كتلكَ الأمةِ السوداءِ التي قالَ فيها النبيُّ ﷺ: «**إنَّها جبارةٌ**» وهو إما عائلٌ مستكبرٌ أو فقيرٌ مختالٌ وكلاهما لا ينظرُ اللَّهُ إليه يومَ القيامةِ، فالمؤمنُ من يستكينُ قلبُهُ لربِّه ويخشعُ له ويتواضعُ ويظهرُ مسكنتهُ وفاقتَه إليهِ في الشدَّةِ والرخاءِ، أما في حالِ الرخاءِ فإظهارُ الذلِّ والعبوديةِ والفاقةِ والحاجةِ إلى كشفِ الضرِّ قالَ تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ**﴾ [المؤمنون:٧٦]، فذمَّ من لا يستكينُ لربِّه عندَ الشدةِ، وكانَ النبيُّ ﷺ يخرجُ عندَ الاستسقاءِ متخشعًا متمسكنًا.

وحُبسَ لمطرفِ بنِ عبدِ اللَّهِ قريبٌ له لبسَ خلقانَ ثيابهِ، وأخذ بيدهِ قصبةً

---

(١) أخرجه: النسائي (٣/ ١٤٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٣٣٣) وهو جزء من حديث طويل.

وقالَ: أتمسكنُ لربِّي لعلَّهُ يشفعني فيه.

ومما يشرعُ فيه التمسكنُ للَّهِ عـز وجل حالَ الصلاةِ كما في حديثِ الفضلِ بنِ عباسٍ عن النبيِّ ﷺ قـالَ: «**الصلاةُ مثْنَي مثْنَي تشـهدُ في كلِّ ركعتينِ وتخشعُ وتضرع وتمسكنُ وتقنعْ يديكَ ـ يقولُ ترفعهُـما ـ وتقولُ: ياربِّ ثلاثاً، فمن لم يفعلْ ذلكَ فهي خداجٌ**» خرجهُ الترمذيُّ وغيرهُ[1].

وكذلكَ يشـرعُ إظهارُ المسكنةِ في الدعاءِ، خرجَ الطبـرانيُّ من حديثِ ابنِ عـبـاسٍ قـالَ: «رأيتُ النبيَّ ﷺ يدعوُ بعـرفةَ ويداهُ إلى صـدرِهِ كاسـتطعامِ المسكينِ». ومن حديثـهِ أيضاً أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ في دعائه عشـيةَ عرفةَ: «**أنـا البائسُ الـفقيـرُ المسغيثُ المستـجيرُ الوجلُ المشـفقُ المقرُّ المعـترفُ بذنبـه، أسألكَ مـسألةَ المسكينِ، وأبتهلُ إليكَ ابتهالَ المذنبِ الذليلِ، وأدعوكَ دعاءَ الخائفِ الضرير**»[2].

وكان بعضُ السلفِ يجلسُ بالليلِ مطرقًا رأسَهُ ويمدُّ يديهِ وهو ساكتٌ كحالِ المسكينِ المستـعطِي، وقالَ طاوسٌ: دخلَ عليُّ بنُ الحـسينِ الحِجْرَ لـيلةً فصلَّى فســمعتُـهُ يقولُ في سـجودِهِ: عُبـيدُكَ بفنائكَ، مـسكينُكَ بفنائكَ، فقـيرُكَ بفنائكَ، سائلُكَ بفنائكَ، قـالَ طاوس: فحفظتُهنَّ فمـا دعوتُ بهنَّ في كربٍ إلاَّ فرجَ عنِّي، وكان بعضُ العبـادِ قد حجَّ ثمانينَ حجةً على قدميـهِ فبينَما هوَ في الطوافِ وهوَ يقـولُ: ياحبيـبي ياحبـيبي، فهـتفَ هاتفٌ: ليسَ ترضَى أن تكونَ مـسكينًا حـتى تكون حبـيـبًا فـغـشيَ عليه، فكـانَ بعد ذلكَ يقـولُ: مسكينُك، مسكينُك.

---

(١) أخرجه: الترمذي (٣٨٥)، وأحمد في «المسند» (١/ ٢١١)، (٤/ ١٦٧)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١١٠٤٣).

(٢) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (١١/ ١٧٤).

شعرٌ لابنِ تيميةَ شيخِ الإسلامِ رحمهُ اللَّه:

أنا الفقيرُ إلى ربِّ السماواتِ أنا المسكينُ في مجموعِ حالاتي

أنا الظلومُ لنفسي وهي ظالمتي والخيرُ إن جاءَهَا من عندهِ ياتي

قولهُ ﷺ: «**وأن تغفر لي وترحمني**» المغفرةُ والرحمةُ يجمعانِ خيرَ الآخرةِ كلَّهُ؛ لأن المغفرةَ سترُ الذنبِ مع وقايةِ شرِّه، وقد قيلَ: إنه لا تجتمعُ المغفرةُ مع عقوبةِ الذنبِ حيثُ كانتِ المغفرةُ وقايةً لشرِّ الذنبِ، وهذا لا يكونُ مع عقوبةٍ عليهِ، ولذلكَ سمِّي المغفرُ مغفرًا لأنه يسترُ الرأسَ ويقيهِ الأذى، وهذا بخلافِ العفوِ فإنَّه يكونُ تارةً قبلَ العقوبةِ وتارةً بعدها، وأمَّا الرحمةُ فهيَ دخولُ الجنةِ، وعلو درجاتِها، وجميع ما في الجنةِ من النعيمِ بالمخلوقاتِ ومنْ رضَى اللَّهِ عزَّ وجلَّ وقربِهِ ومشاهدتِهِ وزيارتِه فإنَّه من رحمةِ اللَّه تعالَى، وفي الحديثِ الصحيح: «**إنَّ اللَّهَ عز وجل يقولُ للجنة: أنت رحمتي أرحمُ بك من أشاءُ من عبادي**»[1] فكلُّ ما في الجنةِ فهُو من رحمةِ اللَّه عزَّ وجلَّ وإنما تنالُ برحمته لا بالعملِ كما قالَ ﷺ: «**لن يدخلَ أحدٌ منكُمُ الجنةَ بعملِه، قالُوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللَّهِ، قالَ: ولا أنا إلا أن يتغمَّدَنِي اللَّهُ برحمته**»[2].

قولُه ﷺ: «**وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً فاقبضْني إليكَ غيرَ مفتونٍ**»، المقصودُ من هذا الدعاءِ سلامةُ العبدِ من فتنِ الدنيا مدةَ حياتِهِ فإنْ قدَّر اللَّهُ عز وجل على عبادهِ فتنةً قبضَ عبدَهُ إليهِ قبلَ وقوعها وهذا من أهمِّ الأدعيةِ فإنَّ المؤمنَ إذا عاشَ سليمًا من الفتنِ ثم قبضَهُ اللَّهُ قبل وقوعِهَا وحصولِ الناسِ فيها كانَ في ذلكَ نجاةٌ له من الشرِّ وقد أمرَ النبيُّ ﷺ أصحابَهُ أن يتعوَّذوا من الفتنِ ما ظهرَ منها

---

(١) أخرجه: مسلم (٨/ ١٥٠ ـ ١٥١).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ١٢٢، ١٢٣)، ومسلم (٨/ ١٤١).

وما بطَنَ، وفي حـديثٍ آخرَ «**وجنِّبنا الفواحـشَ والفتنَ ما ظهرَ منهـا وما بطنَ**»[١]، وكانَ يخصُّ بعضَ الفتنِ الـعظيمةِ بالذكـرِ، وكان يتعـوذُ باللَّهِ في صلاتهِ من أربعٍ ويأمرُ بالتـعوذِ منها «**أعوذُ باللَّهِ من عـذابِ جهنمَ، ومن عذابِ القبـرِ، ومن فتنةِ المحيـا والممات، ومن فـتنةِ المسيـحِ الدجال**»[٢] ففـتنةُ المحيا تدخلُ فيـها فتنُ الدينِ والدنيا كلُّها كالكفرِ والبدعِ والفسوقِ والعصيانِ، وفتنُ المماتِ يدخلُ فيها سوءُ الخاتمةِ، وفتنةُ الملكينِ في القبرِ فإنَّ الناسَ يفـتنونَ في قبورهـم مثلَ أو قريبًا من فتنةِ الدجـالِ، ثم خصَّ فتنةَ الدجـالِ بالذكرِ لعظمِ موقِـعهَا فـإنه لم يكن في الدُّنيا فتنةٌ قـبل يومِ القيامةِ أعظمُ منهـا وكلما قربَ الزمانُ من الساعـةِ كثُرتِ الفتن.

وفي حديثِ مـعاويةَ عن النبيِّ ﷺ أنّهُ قـالَ: «**إنه لم يبقَ مـن الدنيـا إلا بلاءٌ وفتنةٌ**»[٣] وأخبرَ النبيُّ ﷺ عن الفتنِ التي كقطعِ الليلِ المظلمِ يصبحُ الرجلُ فيها مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبحُ كافرًا يبيعُ دينَهُ بعرضٍ من الدنيا[٤]، وكان أولُ هذه الفتنِ ما حدثَ بعدَ عمـرَ ﷺ ونشأ من تلكَ قتلُ عثمانَ ﷺ ومـا ترتبَ عليـهِ من إراقةِ الدمـاءِ وتفـرق القلوبِ وظهـورِ فتنِ الدينِ كبـدعِ الخوارجِ المارقينَ مـن الدينِ وإظهارهم مـا أظهروا، ثم ظهورُ بـدعِ أهلِ القدرِ والرفضِ ونحـوِهم، وهذه هي الفتنُ التي تموجُ كـمـوجِ البـحرِ المذكـورةُ في حديثِ حذيفةَ المشهورِ[٥] للنبيِّ ﷺ حينَ سألَهُ عنها عمرُ وكان حذيفةُ ﷺ

(١) أخرجه: أبو داود (٩٦٩).
(٢) أخرجه: مسلم (٢/ ٩٣).
(٣) أخرجه: ابن ماجه (٤٠٣٥).
(٤) أخرجه: مسلم (١/ ٧٦)، والترمذي (٢١٩٥).
(٥) الحديث أخرجه: البخاري (١/ ١٤٠)، ومسلم (٨/ ١٧٣).

من أكثرِ الناسِ سؤالاً للنبيِّ ﷺ عن الفتنِ خوفًا من الوقوعِ فيها، ولما حضرهُ الموتُ قال: حبيبٌ جاءَ على فاقةٍ لا أفلَحَ من ندِمَ، الحمدُ للَّهِ الذي سبقت بي الفتنة قادتها وعلوجها.

وكان موتُه قبلَ قتلِ عثمانَ بنحوٍ من أربعين يومًا وقيلَ: بل ماتَ بعدَ قتلِ عثمانَ. وكانَ في تلكَ الأيامِ رجلٌ من الصحابةِ نائمًا فأتاهُ آتٍ في منامهِ فقالَ له: قمْ، فاسألِ اللَّهَ أن يعيذَكَ من الفتنةِ التي أعاذَ منها صالحَ عبادِهِ، فقام فتوضَّأَ وصلَّى ثم اشتكَى وماتَ بعد قليلٍ.

وقد رويَ عن النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ لرجلٍ: «**إذا متُّ أنا وأبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ فإن استطعتَ أنْ تموتَ فمُتْ**»(1) وهذا إشارةٌ إلى هذه الفتنِ التي وقعتْ بمقتلِ عثمانَ ؓ.

والدعاءُ بالموتِ خشيةَ الفتنةِ في الدينِ جائزٌ وقد دعا به الصحابةُ ؓ والصالحونَ بعدَهم، ولما حجَّ عمرُ ؓ آخرَ حجَّةٍ حجَّها استلقى بالأبطحِ ثم رفعَ يديهِ وقالَ: اللهمَّ إنه قد كبرَ سنِّي ورقَّ عظمي وانتشرتْ رعيتي فاقبضني إليكَ غيرَ مضيِّعٍ ولا مفتون، ثم رجع إلى المدينة، فما انسلخَ حتى قتلَ ؓ.

ودعا عليٌّ ربَّهُ أن يريحهُ من رعيتهِ حيثُ سئمَ منهم فقتلَ عن قريبٍ، ودعتْ زينبُ بنتُ جحشٍ لما جاءَها عطاءُ عمرَ من المالِ فاستكثرتْهُ وقالتْ: اللهمَّ لا يدركني عطاءٌ لعمرَ بعدَها فماتت قبلَ العطاءِ الثاني.

ولما ضجرَ عمرُ بنُ عبدُ العزيزِ من رعيتهِ حيثُ ثقلَ عليهم قيامُهُ فيهم بالحقِّ

---

(1) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٨٠).

طلبَ من رجلٍ كان معروفًا بإجابةِ الدعوةِ أن يدعوَ له بالموتِ فدعَا له ولنفسه بالموتِ فماتا.

ودُعي طائفةٌ من السلفِ الصالحِ إلى ولايةِ القضاءِ فاستُمهلوا ثلاثةَ أيامٍ فدعَوا اللَّهَ لأنفسِهِم بالموتِ فماتوا.

واطَّلعَ على حالِ بعضِ الصالحينَ ومعاملاتِهِ التي كانتْ سرًا بينه وبينَ ربِّه، فدعا اللَّهَ أن يقبضهُ إليه خوفًا من فتنةِ الاشتهارِ، فماتَ فإنَّ الشهرةَ بالخيرِ فتنةٌ، كما جاءَ في الحديثِ **«كفَى بالمرءِ فتنة أن يشارَ إليه بالأصابعِ فإنَّها فتنةٌ»**[1] وكان سفيانُ الثوريُّ يتمنَّى الموتَ كثيرًا فسئلَ عن ذلكَ فقال: ما يدريني لعلِّي أدخلُ في بدعةٍ، لعلِّي أدخلُ فيما لا يحلُّ لي، لعلي أدخلُ في فتنةٍ أكون قدْ متُّ فسبقتُ هذا.

واعلم أن الإنسانَ لا يخلُو من فتنةٍ، قالَ ابن مسعودٍ ﷺ: لا يقلْ أحدُكم أعوذُ باللَّهِ من الفتنِ ولكن ليقلْ: أعوذُ باللَّهِ من مضلاتِ الفتنِ ثم تلا قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ**﴾ [التغابن:١٥] يشيرُ إلى أنه لا يستعاذُ من المالِ والولدِ وهما فتنةٌ، وفي «المسند» أنَّ النبيَّ ﷺ أمرَ أمَّ سلمةَ أن تقولَ: **«اللهمَّ ربَّ النبيِّ محمدٍ اغفرْ لي ذنبي، وأذهبْ غيظ قلبي، وأجرني من مضلاتِ الفتنِ ما أبقيتَني»**[2] وقد جعلَ النبيُّ ﷺ النساءَ والأموالَ فتنةً ففي «الصحيح»[3] عنه ﷺ قالَ: **«ما تركتُ بعدِي فتنةً أضرُّ على الرجالِ من النساءِ»** وفيه أيضًا[4] أنهُ ﷺ

---

(١) أخرجه: الطبراني في «الكبير» عن عمران بن حصين بلفظ: **«كفى بالمرء من الإثم أن يشار إليه بالأصابع»**.

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٦/ ٣٠٢).

(٣) أخرجه: البخاري (٧/ ١١)، ومسلم (٨/ ٨٩) عن أسامة بن زيد ﷺ.

(٤) أخرجه: البخاري (٤/ ١١٧)، ومسلم (٨/ ٢١٢) من حديث عمرو بن عوف ﷺ.

قالَ: «واللَّه ما الفقرُ أخشَى عليكم، ولكنْ أخشَى أن تبسطَ عليكُم الدُّنيا كما بسطَتْ على من كانَ قبلَكم، فتنافسوها كما تنافسوهَا فتهلكهمُ كما أهلكتهُم».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(1) عنه ﷺ قالَ: «اتَّقوا النساءَ فإنَّ أولَ فتنةَ بني إسرائيلَ كانتْ في النساء» وفي الترمذيّ(2) أنه ﷺ قالَ: «لكلِّ أمة فتنةٌ، وفتنةُ أمَّتي المالُ» وقد قالَ اللَّهُ عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ [الفرقان:٢٠].

فالرجلُ فتنةٌ للمرأةِ، والمرأةُ فتنةٌ للرجلِ، والغنيُّ فتنةٌ للفقير، والفقيرُ فتنةٌ للغنيِّ، والفاجرُ فتنةٌ للبرِّ، والبرُّ فتنةٌ للفاجرِ، والكافرُ فتنةٌ للمؤمنِ، والمؤمنُ فتنةٌ للكافرِ، كما قالَ اللَّهُ تعالىَ: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣]. وقالَ عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

فجعلَ كلَّ ما يصيبُ الإنسانَ من شرٍّ أو خيرٍ فتنةً يعني أنهُ محنةٌ يمتحنُ بها فإنْ أصيبَ بخيرٍ استحقَّ به شكرَه، وإن أصيبَ بسوءٍ استحقَّ به صبره، وفتنةُ السراءِ أشدُّ من فتنةِ الضراءِ، قالَ عبدُ الرحمنِ بن عوف رضي الله عنه: بُلينا بفتنةِ الضراءِ فصبرنَا، وبُلينا بفتنةِ السراءِ فلم نصبرْ، قالَ بعضُهُم: فتنةُ الضراءِ يصبرُ عليها البر والفاجرُ ولا يصبرُ على فتنةِ السراءِ إلاَّ صدِّيقٌ.

ولما ابتليَ الإمامُ أحمدُ بفتنةِ الضراءِ صبرَ ولم يجزعْ وقالَ: كانتْ زيادةً في إيماني، فلما ابتلي بفتنةِ السراءِ جزعَ وتَمَنَّى الموتَ صباحاً ومساءً وخَشيَ أنْ يكونَ نقصًا في دينهِ.

(1) أخرجه: مسلم (٧/ ٤٧)، (٨/ ٨٩) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(2) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ١٦٠)، والترمذي (٢٣٣٦) عن كعب بن عياض رضي الله عنه.

ثمَّ إن المؤمنَ لابدَّ أنْ يفتنَ بشيءٍ من الفتنِ المؤلمةِ الشاقةِ عليه ليمتحنَ إيمانهُ، كما قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣].

ولكنَّ اللَّهَ يلطفُ بعبادِهِ المؤمنينَ في هذهِ الفتنِ ويصبرُهُم عليها، ويثيبهُم فيها، ولا يلقيهم في فتنةٍ مهلكةٍ مضلةٍ تذهبُ بدينِهم، بل تمرُّ عليهِم الفتنُ وهم منها في عافية.

وأخرجَ ابنُ أبي الدنيا من حديثِ ابنِ عمرَ مرفوعاً «**إنَّ لله ضنائنُ منْ عبادهِ يغذُوهُم في رحمتهِ ويحييهم في عافيةٍ ويتوفَّاهُم إلى جنتهِ أولئكَ الذينَ تمرُّ عليهِم الفتنُ كقطعِ الليل المظلمِ، وهم منهَا في عافيةٍ**»(١) والفتنُ الصغارُ التي يُبْتلى بها المرءُ في أهلِهِ ومالِهِ وولدِهِ وجارِهِ تكفِّرُها الطاعاتُ من الصلاةِ والصيامِ والصدقةِ، لذا جاءَ في حديثِ حذيفةَ، ورُويَ عنهُ أنَّه سألَ النبيَّ ﷺ قالَ: إن في لساني ذرباً وإنَّ عامةَ ذلكَ على أهلي؟ فقالَ لهُ: «**أينَ أنتَ منَ الاستغفارِ؟**»(٢).

وأما الفتنُ المضلةُ التي يُخشَى منها فسادُ الدينِ فهيَ التي يُستعاذُ منهَا ويسألُ الموتُ قبلَهَا، فمنْ ماتَ قبلَ وقوعِهِ في شيءٍ من هذهِ الفتنِ فقدْ حفظَهُ اللَّهُ تعالَى وحماهُ، وفي «المسندِ» عن محمودِ بن لبيدٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**اثنتان يكرهُهُمَا ابنُ آدمَ: يكرهُ الموتَ، والموتُ خيرٌ للمؤمنِ من الفتنِ، ويكرهُ قلةَ المالِ، وقلة المالِ أقلُّ للحسابِ**»(٣).

---

(١) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٣٨٥).
(٢) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٣١٧٣) عن أنس بن مالك ﷺ.
(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٤٢٧، ٤٢٨).

قولهُ ﷺ «وأسألكَ حبَّك وحبَّ من يحبُّك وحبَّ العملِ الذّي يُبلغُني حبَّك» هذا الدعاءُ يجمعُ كلَّ خيرٍ، فإنَّ الأفعالَ الاختياريةَ من العبادِ إنما تنشأُ عن محبةٍ وإرادة، فإنْ كانتْ محبةُ اللَّه ثابتةً في قلبِ العبدِ نشأتْ عنهَا حركاتُ الجوارحِ فكانتْ بحسبِ ما يحبُّه اللَّهُ ويرتضيه، فأحبَّ ما يحبُّه اللَّهُ عز وجلَّ من الأعمالِ والأقوالِ كُلِّها، ففعلَ حينئذٍ الخيراتِ كُلَّها وتركَ المنكراتِ كلَّها، وأحبَّ من يحبُّه الله من خلقِه، وهذا الدعاءُ كانتِ الأنبياءُ عليهم السلامُ يدعونَ به كما في الترمذي(١) عن النبيِّ ﷺ: «أن داودَ عليه السلامُ كان يقولُ: اللهمَّ إنِّي أسألكَ حبَّكَ وحبَّ من يحبُّكَ، وحبَّ عملٍ يبلغني إلى حبِّك، اللَّهُم اجعلْ حبَّك أحبَّ إليَّ من نفسي وأهلِي ومن الماء البارد» وفيه أيضًا أن النبيَّ ﷺ كان يدعو: «اللهمَّ ارزقني حبَّكَ، وحبَّ من يحبُّكَ، وحبَّ عملٍ يبلغني إلى حبِّك، اللهمَّ ما رزقتَني مما أُحبُّ فاجعلهُ قوةً لي فيما تحبُّ، وما زويتَ عنِّي مما أحبُّ فاجعلْهُ فراغًا لي فيما تحبُّ».

وفي حديثٍ مرسلٍ خرجهُ ابنُ أبي الدنيا وغيرُه أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ: «اللّهمَّ اجعلْ حبَّكَ أحبَّ الأشياءِ إليَّ، وخشيتَكَ أخوفُ الأشياءِ عنْدي. واقطعْ عنِّي حاجاتِ الدُّنيا بالشوقِ إلى لقائكَ وإذا أقررتَ أعينَ أهلِ الدنيا من دنياهم فأقررْ عيني في عبادتكَ» ومن كانَ همُّه طلبَ محبةِ اللَّهِ عز وجل أعطاهُ اللَّهُ فوقَ ما يريدُهُ من الدُّنيا تبعًا.

قال بعضُ السلفِ: لما توفِّي داودُ عليه السلامُ أرسلَ اللَّهُ عز وجل إلى سليمانَ عليه السلامُ ألكَ حاجةٌ تسألني إيَّاها؟ فقالَ سليمانُ: أسألُ اللَّهَ أن يجعلَ قلبِي يحبُّه كما كانَ قلبُ أبي داودَ يحبُّه، وأن يجعلَ قلبِي يخشاهُ كما

(١) الجامع (٣٤٩٠).

كانَ قلبُ أبي داودَ يخشاهُ، فشكرَ اللَّهُ لهُ ذلكَ وأعطاهُ مُلْكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده.

ومحبةُ اللَّهِ تعالَى على درجتينِ:

إحداهما: واجبةٌ وهيَ المحبةُ التي توجبُ للعبدِ محبةَ ما يحبُّه اللَّهُ من الواجباتِ وكراهةِ ما يكرهُهُ من المحرماتِ، فإنَّ المحبةَ التامةَ تقتضِي الموافقةَ لمن يحبُّه في محبةِ ما يحبُّه وكراهةِ ما يكرههُ خصوصًا فيما يحبُّه ويكرهُهُ من المحبِّ نفسِهِ، فلا تصحُّ المحبةُ بدونِ فعلِ ما يحبُّه المحبوب من مُحبِّه وكراهةِ ما يكرهُهُ المحبوبُ من محبيهِ، وسئلَ بعضُ العارفينَ عن المحبةِ فقالَ: الموافقةُ في جميعِ الأحوالِ وأنشدَ:

ولو قلتَ لي مُتْ مُتُّ سمعًا وطاعةً ... وقلتُ لداعي الموتِ أهلاً ومرحبًا

وأنشدَ بعضُهُم:

تعصِي الإلهَ وأنتَ تزعمُ حبَّهُ ... هذا لعمري في القِياسِ فظيعُ

لو كانَ حبُّكَ صادقًا لأطعتَهُ ... إنَّ المحبَّ لمنْ يحبُّ مطيعُ

ومتى أخلَّ العبدُ ببعضِ الواجباتِ أو ارتكبَ بعضَ المحرماتِ فمحبَّتُه لربِّهِ غيرُ تامَّةٍ، فالواجبُ عليهِ المبادرةُ بالتوبةِ، والاجتهادُ في تكميلِ المحبةِ المفضيةِ لفعلِ الواجباتِ كلِّها، واجتنابِ المحرماتِ كلِّها، وهذا معنى قولِ النبيِّ ﷺ **«لا يزني الزانِي حينَ يزني وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السارقُ حينَ يسرقُ وهوَ مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حينَ يشربُها وهو مؤمنٌ»**(١) فإنَّ الإيمانَ الكاملَ يقتضِي محبَّة ما يحبُّه اللَّهُ، وكراهةَ ما يكرهُهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ، والعملَ بمقتضَى ذلكَ فلا يرتكبُ أحدٌ

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ١٧٨)، ومسلم (١/ ٥٥).

شيئًا من المحرماتِ أو يخلُّ بشيءٍ من الواجباتِ إلا لتقديمِ هوى النفسِ المقتضي لارتكابِ ذلكَ على محبةِ اللَّهِ تعالَى المقتضيةِ لخلافِهِ.

الدرجةُ الثانيةُ من المحبةِ: درجةُ المقربينَ وهيَ: أنْ يمتليءَ القلبُ بمحبةِ اللَّهِ تعالَى حتى توجبَ له محبةَ النوافلِ والاجتهادَ فيها وكراهةَ المكروهاتِ والانكفافَ عنها، والرِّضا بالأقضيةِ والأقدارِ المؤلمةِ للنفوسِ لصدورِها عن المحبوبِ، كما قالَ عامرُ بنُ قيسٍ: أحببتُ اللَّهَ حبًا هوَّنَ عليَّ كلَّ مصيبةٍ ورضَّاني بكلِّ بليةٍ، فلا أبالي معَ حبِّي إياهُ على ما أصبحتُ ولا على ما أمسيتُ.

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيز لما ماتَ ولدُهُ الصالحُ: إن اللَّهَ أحبَّ قبضَهُ، وإني أعوذُ باللَّهِ أن يكونَ لي محبةٌ في شيءٍ من الأمورِ يخالفُ محبةَ اللَّهِ، وكانَ يقولُ: إذا أصبحتُ فما لي سرورٌ إلا في مواقعِ القضاءِ والقدرِ.

يا من يعَزُّ علينا أن نفارقَهم ... وجدانُنَا كلَّ شيءٍ بعدَكُم عدمُ

إن كانَ سرَّكم ما قد بليتُ بهِ ... فما لجُرحٍ إذا أرضَاكمُ ألمُ

وحسبُ سلطانِ الهوى أن يلذَّ فيه كلُّ ما يؤلمُ.

كان عمارُ بنُ ياسرٍ يقولُ: اللهمَّ لو أعلمُ أنَّه أرْضَى لك أن أرمي بنفسِي من هذا الجبلِ فأتردَّى فأسقطُ فعلتُ، ولو أعلمُ أنَّه أرضى لكَ أن أوقدَ نارًا عظيمَةً فأقعُ فيها فعلتُ، ولو أعلمُ أنَّه أرْضى لكَ عنِّي أن ألقِي نفسي في الماءِ فأغرِق نفسي فعلتُ، ولا أقولُ هذا إلا وأريدُ وجهَكَ وأنا أرجو أن لا تخيبني وأنا أريدُ وجهَكَ.

وقُتِلَ لبعضِ الصالحينَ ولدانِ في الجهادِ فعزاهُ الناسُ فيهما فبكى وقالَ:

إنِّي ما أبْكِي لفقدهـمَا إنما أبكانِي كيفَ كانَ رضاهُما عن اللَّهِ حـيثُ أخذَتهُما السيوفُ.

وكانَ بعضُ العارفينَ يطوفُ بالبيتِ فتـجمعتِ القرامطةُ على الناس قتلُوهم في الطوافِ فـوصلُوا إليه فلم يقـطعِ الطوافَ حتى سـقطَ من ظربِ السيـوفِ صريعًا وأنشدَ:

واللَّهِ لـو حلفَ العـشـاقُ أنـهُمُ   موتى من الحبِّ ما مـاتُوا وما حنثُوا
ترى المحـبِّين صـرْعى في ديارِهمُ   كفـتيـةِ الكهفِ لا يدرونَ كم لبِـثوا

أقلُّ ثمنِ المحبةِ بذلُ الروحِ.

بـدمِ المحبِّ يُـبَـاعُ وصلُهُـم   فـمـن الذي يبْـتَـاعُ بالثـمنِ

قالَ بعضُ العارفينَ: إن كنت تسمحُ ببذلِ روحكَ في هذه الطريقِ وإلا فلا تشتغلْ بالتُّرَّهَات:

خـاطرْ بروحكَ في هَوانَا واسـترحْ   إنْ شـئتَ تحظى بالمحلِّ الأعـظمِ
لا يشـغلنَّكَ شـاغِلٌ عن وصـلِنا   وانهضْ على قـدمِ الرجـاءِ واقـدمِ

ولما كانتْ محبةُ اللَّهِ عز وجل لها لوازمٌ وهي مـحبةُ ما يحبُّه اللَّهُ عز وجل من الأشخاصِ والأعمـالِ، وكراهةِ ما يكرههُ من ذلكَ سألَ النبيُّ ﷺ اللَّـهَ تعالَى مع محبته محبةَ شيئينِ آخرينِ:

أحدُهما: محبةُ من يحبُّ ما يحبُّه اللَّهُ تَعالى فإنَّ من أحبَّ اللَّهَ أحبَّ أحباءَهَ فيهِ ووالاهم وأبغضَ أعداءَهُ وعاداهم، كما قالَ النبيُّ ﷺ: **«ثلاثٌ من كنَّ فـيه وجـدَ بهنَّ حلاوةَ الإيمانِ، أن يكونَ الـلَّهُ ورسولُه أحبَّ إليـه مما سـواهُـمـا، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا للَّهِ، وأن يكـرَه أنْ يعـودَ في الـكفـرِ بعـدَ إذ أنقـذهُ اللَّهُ منـه كما يكرهُ**

أن يلقَى في النار»(١).

وأعظم من تجبُ محبَّتُهُ في اللَّه تعالَى أنبيـاؤهُ ورسلهُ وأعظمُهم نبيُّه محمدٌ ﷺ الذي افترضَ اللَّهُ على الخلقِ كلِّهم متابعتَهُ، وجعلَ مـتابعتَهُ علامةً لصحة محبتِه، كـما قالَ تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾ [آل عمران:٣١] وتوعدَ من قدَّم محبـةَ شيءٍ من المخلوقينَ على محبته ومحبـةِ رسولِه ﷺ ومحبة الجهـادِ في سبيلِه في قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا**﴾ [التوبة:٢٤] ووصفَ المحبينَ لهُ باللينِ للمؤمنينَ والرأفة بهم والمحبةِ لهم والشدة على الكافرينَ والبغضِ لهم والجهـادِ في سبيله فقال: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ**﴾ [المائدة:٥٤] الآية.

والثـاني: محبة ما يحبُّه اللَّهُ تعالى من الأعمالِ وبها يبلغُ إلى حبِّه وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ درجـةَ المحبةِ للَّه تعـالَى إنَّما تنالُ بطاعتـه وبفعلِ ما يحبُّـه فإذا امتـثلَ العبدُ أوامـرَ مولاهُ وفعلَ مـا يحبُّه أحـبَّهُ اللَّهُ تعالَى ورقَّـاه إلى درجة محبتِه، كما في الحديثِ الإلهي الذي خرجهُ البخاريُّ(٢): **«وما تقربَ إليَّ عبدي بمثلِ ما افترضتُ عليهِ ولا يزالُ عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافلِ حتى أحبَّه»**.

فـأفضلُ مـا تُسـتـجلبُ به محـبـةُ اللَّهِ عـز وجل فعلُ الـواجبـاتِ وتركُ المحرماتِ، ولهذا جعلَ النبيُّ ﷺ من علاماتِ وجدانِ حلاوةِ الإيمان أن تكرَهَ

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٠)، (٩/ ٢٥)، ومسلم (١/ ٤٨).
(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ١٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أنْ ترجعَ إلى الكفرِ كما تكرهُ أن تُلقَى في النار، وسئلَ ذو النونِ متى أحبُّ ربِّي؟ قالَ: إذا كان ما يكرههُ عندكَ أمرُّ من الصبرِ، ثمَّ بعدَ ذلكَ الاجتهادُ في نوافلِ الطاعاتِ وتركُ دقائقِ المكروهاتِ والمشتبهاتِ، ومن أعظمِ ما تحصُلُ به محبةُ اللَّهِ من النوافلِ تلاوةُ القرآنِ وخصوصًا مع التدبرِ، قال ابنُ مسعود ﷺ: لا يسألُ أحدُكم عن نفسِه إلا القرآنَ، فمنْ أحبَّ القرآنَ فهو يحبُّ اللَّهَ ورسولَه، ولهذا قالَ النبيُّ ﷺ لمنْ قالَ إني أحبُّ سورةَ «قلْ هو اللَّهُ أحدٌ» لأنَّها صفةُ الرحمنِ فقالَ: «**أخبروه أنَّ اللَّهَ يحبُّه**»(١)، وقالَ أبو سلمةَ بنُ عبد الرحمنِ: لما قدِم النبيُّ ﷺ المدينةَ خطبَ فقالَ في خطبته: «**إنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللَّه، قد أفلحَ من زينَهُ اللَّهُ في قلبِه وأدخلَهُ في الإسلامِ بعدَ الكفرِ، واختارَهُ على ما سواهُ من الأحاديثِ، إنه أحسنُ الحديثِ وأبلغهُ، أحبُّوا من أحبَّ اللَّهَ وأحبُّوا اللَّه من كلِّ قلوبكم**»(٢).

وكان بعضُهم يكثرُ من تلاوةِ القرآنِ ثمَّ فترَ عن ذلك فرأى في المنامِ قائلاً يقولُ له:

إن كنتَ تزعمُ حبِّي ... فلم جفوتَ كتابي
أمَا تدبرتَ ما فيه ... من لطيف عِتابِي

فاستيقظ وعادَ إلى تلاوتِه:

ومن الأعمالِ التي توصِّلُ إلى محبةِ اللَّهِ تعالَى وهيَ من أعظمِ علاماتِ المحبينَ كثرةُ ذكرِ اللَّهِ عز وجل بالقلبِ واللسانِ، قالَ بعضُهم: ما أدمنَ أحدٌ ذكرَ اللَّهِ إلا أفادتْهُ منهُ محبةَ اللَّهِ تعالَى، وقالَ ذو النونِ: من أدمنَ ذكرَ اللَّهِ

(١) أخرجه: البخاري (٩/ ١٤١)، ومسلم (٢/ ٢٠٠).
(٢) أخرجه: البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥).

قذفَ اللَّهُ في قلبِه نورَ الاشـتياقِ إليه، وقالَ بعضُ التـابعينَ: علامةُ حبِّ اللَّه كثرةُ ذكرِه، فإنكَ لن تحبَّ شيئًا إلا أكثرتَ ذكرَهُ، وقالَ فتحٌ الموصليُّ: المحبُّ للهِ لا يجـدُ مع حبِّ اللَّهِ لـلدنيـا لذةً ولا يغـفلُ عن ذكـرِ اللَّهِ طرفَـة عينٍ، المحبونَ إن نطقوا نطقُوا بالذكرِ، وإن سكتُوا اشتغلوا بالفكرِ:

فإن نطقتُ فلـم ألفـظْ بغيـركم وإن سكتُّ فأنتم عند إضْمارِي

ومن علامات المحبينَ للَّهِ وهو مما يحصلُ به المحبةُ أيضًا حبُّ الخلوةِ بمناجاةِ اللَّهِ تعالى وخصوصًا في ظلمةِ الليلِ:

الليلُ لي ولأحبـابي أسـامـرُهـم قد اصطفيتُهم كي يسمعوا ويعوا

قالَ الفضيلُ: يقولُ اللَّهُ عز وجل: كـذبَ من ادَّعَى محبَّتي فإذا جَنَّهُ الليلُ نام عنِّي، أليسَ كلُّ حبيبٍ يحبُّ الخلوةَ بحبيبِهِ؟ ها أنا مُطَّلعٌ على أحبابي إذا جنَّهُمُ اللـيلُ جـعلتُ أبصـارهُم في قـلوبهم، ومـثلتُ نفـسي بـينَ أعـينِهم فخاطبوني على المشاهدةِ، وكلَّموني على حضوري، غدًا أقرُّ عينَ أحبَابي في جنَّاتي:

تنامُ عيناكَ وتشكُو الـهـوى لو كنتَ صبًّا لـم تكنْ نائمًا

قلوبُ المحـبينَ جمرةٌ تحـتَ فحمـةِ الليلِ كلمـا هبَّ عليهـا نسيمُ السـحرِ التهبَتْ، وأنشد:

يذكِّـرُني مـرُّ النسيمِ عـهـودكمُ فـأزدادُ شـوقًـا كلَّمـا هبتِ الريحُ
أرَاني إذا مـا أظلمَ الليلُ أشـرقتْ بقلبِـي منْ نارِ الغـرامِ مـصـابيحُ

كلما جنَّ الغاسقُ حنَّ العاشقُ.

لو أنَّـكَ أبصـرتَ أهلَ الهـوى إذا غـابتِ الأنجمُ الـطلـعُ

فـــهـــذا يـنوحُ عـلى ذنبِـــهِ   وهـــذا يـصلِّـي وذا يـركـعُ

من لم يكنْ له مثلُ تقواهُم لم يدرِ ما الذي أبكاهُم، ومن لم يشاهدْ جمالَ يوسفَ لم يدرِ ما الذي آلمَ قلبَ يعقوبَ، وسئلَ السّريُّ السقَطيُّ عن حالِهِ فأنشدَ:

من لم يبتْ والحبُّ حشوَ فؤادِهِ   لـم يـدرِ كيـفَ تفتتُ الأكبادُ

أين رجالُ الليلِ؟ أين ابنُ أدهمَ والفضيلُ؟ ذهبَ الأبطالُ وبقيَ كلُّ بطالٍ، يا من رضِيَ من الزهدِ بالزي، ومن الفقرِ بالاسم، ومن التصوفِ بالصوفِ، ومن التسبيحِ بالسبحِ، أينَ فضلُ الفضيل؟ أين جدُّ الجنيدِ؟ أين سرُّ السريِّ؟ أينَ بشر أين إبراهيم بن أدهمَ؟ ويحَكَ إن لم تقدرْ على معرفةِ معروفٍ فاندُبْ على ربع رابعةَ وأنشد:

هاتيكَ رُبـوعَـهم وفـيـهـا كـانُوا   بانُوا عـنْهَـا فَلَيْـتَّـهم مـا بانوا
ناديتُ وفي حـشَـاشتي نيـرانُ   يا دارُ مـتى تحـوَّلَ السكانُ

يا من كان له قلبٌ فانقلبَ، يامن كان له وقتٌ مع اللَّهِ فذهبَ، قيامُ الأسحارِ يستوحشُ لكَ، صيامُ النهارِ يسألُ عنكَ، ليالي الوصالِ تعاتبكَ على انقطاعكَ:

تشَاغلتمُ عنَّا بصحبـةِ غيـرِنا   وأظهـرتُم الهـجْرَانَ مـا هكذا كنَّا
وأقسمتُم أن لا تحولُوا عَنِ الهوى   فـقد وحياةِ الحبِّ حلتُم ومـا حُلنا
ليـالي كنَّـا نجتَنـي من ثمـارِكم   فـقلبي إلى تلكَ الليـالي لقـدْ حنَّا

إخواني مجَالسُ الذكرِ شرابُ المحبينَ وترياقُ المذنبينَ، قد علمَ كلُّ أناسٍ مشربَهم، مجالسُ الذكرِ مآتمُ الأحزانِ فهذا يبكي لذنوبِه، وهذا يندبُ

لعيوبِه، وهذا يتـأسفُ على فواتِ مطلوبه، وهذا يتلهفُ لإعراضِ محبوبِه، وهذا يبوحُ بوجودِه وهذا ينوحُ على فقدِه وأنشدَ:

مـا أذكـر عـيـشَنَا الذي قـد سلفـا إلا وجفَّ القلبُ وكـم قـد وَجَـفـا

واهًا لزمـانِنَا الذي كـان صـفَـا بل وأسـفًـا لفـقـدِه وأسـفـا

غيره:

يا لـيـتَنَا بزمـزم والحـجـر يا جـيـرتَنَا قـبـيلَ يومِ النفـرِ

فـهلْ يعـودُ ما مـضَى من عـمـري مـا كنتُ أدْرِي يا ليـتَني لا أدرِي

كـأنِّي أرَى الخلعَ قد خُلِعَتْ على المـقبـولينَ، كأنِّي أرَى الملائكةَ تصـافحُ التائبينَ، فتعالوا نجتمعُ نبْكي على المطرودينَ:

مـا زلتُ دهرًا لـلِّقَـا متـعـرضًـا ولَطَالما قـد كنتَ عنَّـا مـعـرِضًـا

جـانبـتَنا دهـرًا فلمَّـا لم تجـدْ عوضًـا سوانَا صرتَ تبْكي محـرضًا

واحـسـرتَاهُ عليـكَ من مـتـقلبٍ حقَّ الوبالُ عليـهِ من سـوءِ القـضَـا

لو كنـتَ من أحـبَـابِنَا للزمـتَنَا فكُسـيتَ من إحسَـانِنا خلعَ الرِّضـا

لكنْ غـمـطتَ حـقـوقَنَا وتـركـتنَا فلذاكَ ضاقَ عليـكَ متسعُ الفـضَا[1]

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتـبس»: سمعت الوزير[2] يقول في قـوله تعالى:

---

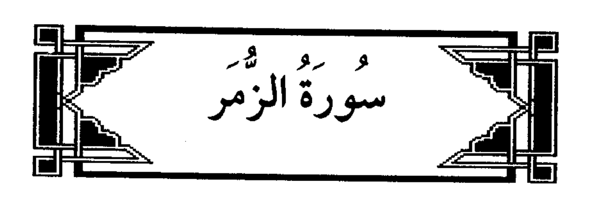
(١) رسالة «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى».

(٢) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [ص:٨٠] قال: ليس هذا بإجابة سؤاله وإنَّما سألَ الإنظار، فقيلَ لهُ: كذا قُدِّرَ، لا أنَّه جواب سؤالك، لكنَّه مما فُهِم[1].

* * *

(١) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥).



سُورَةُ الزُّمَر

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

والصبرُ ثلاثةُ أنواعٍ: صبرٌ على طاعةِ اللَّهِ، وصبْرٌ عن محارمِ اللَّهِ، وصبرٌ على أقدارِ اللَّهِ المؤلمةِ. وتجتمعُ الثلاثةُ كلُّها في الصوم، ؛ فإنَّ فيه صَبرًا على طاعةِ اللَّهِ، وصَبرًا عمَّا حرَّمَ اللَّهُ على الصائمِ من الشَّهواتِ، وصبرًا على ما يحصُلُ للصَّائمِ فيه من ألمِ الجوعِ والعطشِ، وضعْفِ النفسِ والبدنِ.

ثبتَ في «الصحيحين»[1] عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قالَ: «**كلُّ عملِ ابنِ آدمَ له؛ الحسَنةُ بعشْرِ أمثالها إلي سبعمائةِ ضعفٍ، قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: إلا الصِّيامَ فإنَّه لي وأنا أجزِي به، إنَّه ترَكَ شهوتَه وطعامَه وشرابَه من أجلي. للصَّائمِ فرحتانِ: فَرْحَةٌ عند فطرِه، وفَرْحَةٌ عند لقاءِ ربِّه، ولَخَلُوفُ فَمِ الصائمِ أطيبُ عندَ اللَّهِ من ريحِ المِسْكِ**».

وفي روايةٍ «**كلُّ عَمَلِ ابنِ آدمَ له إلا الصِّيامَ فإنَّه لي**» وفي روايةٍ للبخاريِّ «**لكلِّ عملٍ كفَّارةٌ، والصَّوم لي وأنا أجزي به**». وخرَّجهُ الإمامُ أحمدُ[2] من هذا الوجهِ، ولفظُهُ: «**كلُّ عملِ ابنِ آدمَ له كفارةٌ إلا الصَّومَ، والصَّومُ لي، وأنا أَجْزِي به**»

فعلى الروايةِ الأولى: يكونُ استثناءُ الصومِ من الأعمالِ المُضَاعَفَةِ، فتكونُ الأعمالُ كلُّها تُضاعَفُ بعَشرِ أمثالِها إلى سبعمائةِ ضعفٍ إلا الصيامَ فإنَّه لا

(١) أخرجه: البخاري (٩/ ١٧٥)، ومسلم (٣/ ١٥٨).

(٢) «المسند» (٢/ ٢٥٧، ٢٧٣).

ينحصرُ تضعيفُه في هذا العددِ، بل يُضاعِفُـه اللَّهُ عزَّ وجلَّ أضعافًا كثيرةً بغير حَصْرِ عددٍ؛ فإنَّ الصيامَ من الصَّبرِ.

ولهـذا وَرَدَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه سمَّى شهـرَ رمضانَ شهـرَ الصَّبر[١] وفـي حديثٍ آخرَ عنه ﷺ، قالَ: «**الصَّومُ نصفُ الصَّبْرِ**» خَرَّجهُ الترمذيُّ[٢].

وهذا الألمُ الناشئُ من أعمالِ الطَّاعَـاتِ يُثابُ عليه صاحبُه، كـما قالَ اللَّهُ تعالى في المجاهدينَ: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [التوبة:١٢٠]. وفي حديثِ سلمـانَ المرفوعِ الذي أخرَجَهُ ابنُ خُزيمةَ في «صحيحِهِ»[٣] في فضلِ شهرِ رمضانَ «**وهو شهرُ الصَّبرِ، والصَّبْرُ ثوابُه الجَنَّةُ**». وفي الطبراني[٤] عن ابنِ عُمَرَ مرفوعاً: «**الصِّيامُ للّهِ لا يَعْلَمُ ثَوابَ عملِه إلا اللَّهُ عزَّ وجلَّ**». ورُوي مرسلاً وهو أصحُّ[٥].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾

وأما سـعةُ جـهَنم طولاً وعرضًا، فـروى مجـاهدٌ عن ابنِ عبـاسٍ، قالَ: أتدرونَ ما سعةُ جهنَّم؟ قلنا: لا، قالَ: أجلْ واللَّهِ ما تدرونَ أنَّ ما بينَ شحمةِ

(١) أخرجه: أبو داود (٢٤٢٨)، وابن ماجه (١٧٤١).
(٢) «الجامع» (٣٥١٤).
(٣) أخرجه: ابن خزيمة في «صحيحه» (١٨٨٧).
(٤) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٨٦٥).
(٥) «لطائف المعارف» (٢٨٣ ـ ٢٨٤).

أذن أحدِهم وأنفِـهِ مسيرةُ سـبعينَ خريفًا تجـري في أوديةُ القيحِ والدمِ، قلنا: أنهارٌ؟ قال: لا، بل أوديةٌ، ثمَّ قالَ: أتدرونَ ما سـعةُ جهنَّمَ؟ قلنا: لا، قالَ: حدثتني عائشةُ أنها سألتْ رسولَ اللَّهِ ﷺ عن قوله تعالى: ﴿**وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**﴾ [الزمـر:٦٧]، فأين الناسُ يومئذٍ؟ قـال: «**على جسر جهنَّم**» خرجهُ الإمامُ أحمـدُ، وخرجَ النسائيُّ والترمذيُّ منه المرفوعَ وصححهُ الترمذيُّ وخرجهُ الحاكمُ وقالَ صحيحُ الإسنادِ[1]. [2].

* * *

وقالَ - أي ابن الجـوزي -: كانَ أبو القـاسمِ بنِ السَّمرقـندي يقولُ: إنَّ أبا بكرٍ بنَ الخاضبةِ كـانَ يُسَمِّي ابنَ الفاعوسِ الحجَرِيَّ؛ لأنَّه كـانَ يقولُ: الحجرُ الأسودُ يمينُ اللهِ حقيقةً.

قلت: إنْ صحَّ عن ابنِ الفاعـوسِ أنَّه كانَ يقولُ: الحجـرُ الأسودُ يمينُ اللَّهِ حقيـقةً، فأصلُ ذلكَ: أنَّ طائفَةً من أصـحابنا وغيرِهم نَفـوا وقُوعَ المجاز في القـرآنِ، ولكنْ لا يعلمُ منهم مَن نفَى المجـاز في اللُّغـةِ كقـولِ أبي إسحـاقَ الإسفرائيني. ولكنْ قد يسمعُ بعضُ صالحيهم إنكارَ المجازِ في القرآنِ، فيعتقدُ إنكارَهُ مطلقًا.

ويؤيدُ ذلكَ : أنَّ الـمُتبـادرَ إلى فهمِ أكثرِ النَّاسِ مِن لفظِ الحقـيقةِ والمجازِ: المعَاني والحقائقُ دونَ الألفاظِ.

---

(١) أخرجـه: أحمد في «المسند» (٦/ ١١٦)، والترمـذي (٣٢٤١)، والنسائي في «الكبرى» كـما في «تحفة الأشراف» (١١٤٥٣).

(٢) «التخويف من النار» (٥٧).

فإذَا قيلَ: «إنَّ هذا مجازٌ» فهمُوا إنَّه ليسَ تحتَه معنى، ولا له حقيقةٌ، فينكرونَ ذلك، وينفّرون منه. ومن أنكرَ المجازَ من العلماءِ فقدْ ينكرُ إطلاقَ اسمِ المجازِ؛ لئلا يوهم هذا المعنى الفاسد، ويصيرَ ذريعةً لمن يريدُ حقائقَ الكتابِ والسنةِ ومدلولاتِهما.

ويقولُ: غالبُ من تكلمَ بالحقيقةِ والمجازِ همُ المعتزلةُ ونحوهم من أهلِ البدعِ وتطرقُوا بذلكَ إلى تحريفِ الكلمِ عن مواضعِه، فيمنعُ من التسميةِ بالمجاز، يجعلُ جميع الألفاظِ حقائقَ، ويقولُ: اللّفظُ إن دلَّ بنفسه فهو حقيقةٌ لذلكَ المعنى، وإن دلَّ بقرينةٍ فدلالتُه بالقرينةِ حقيقةٌ للمعنى الآخرِ، فهو حقيقةٌ في الحالينِ. وإن كانَ المعنى المدلولُ عليه مختلفًا فحينئذٍ يُقَالُ: لفظ اليمينُ في قولِه سبحانَه وتعالى: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧] حقيقةٌ. وهو دالٌ على الصفةِ الذاتيةِ. ولفظُ اليمينِ في الحديثِ المعروفِ: «**الحجرُ الأسودُ يمينُ اللَّهِ في الأرضِ. فمنْ صافَحهُ فكأنَّمَا صَافَحَ اللَّهَ عز وجلَّ**»[1].

وقيلَ: يمينُه يُرادُ به - مع هذهِ القرائنِ المحتفة بهِ - محلُّ الاستلام والتقبيل. وهو حقيقةٌ في هذا المعنى في هذه الصورةِ، وليسَ فيه ما يُوهم الصفَةَ الذاتية أصلاً، بل دلالتُه على معناه الخاصِ قطيعةٌ لا تحتملُ النقيضَ بوجهٍ، ولا تحتاجُ إلى تأويلٍ ولا غيرِه.

وإذا قيلَ: فابنُ الفاعوسِ لمْ يكن من أهلِ هذا الشأنِ - أعني: البحثَ عن مدلولاتِ الألفاظ؟

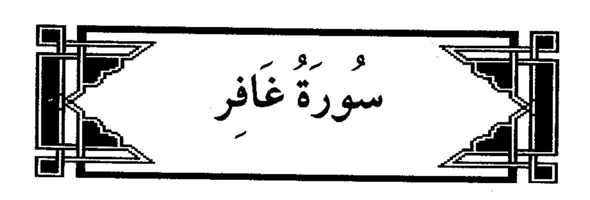
قيلَ: ولا ابنُ الخاضبة كانَ من أهلِه، وإن كانَ محدثًا. وإنَّما سمعَ من ابنِ

(١) أخرجه: الخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/٣٢٨).

الفاعوسِ، أو بلغَه عنه إنكارُ أن يكونَ هذا مجازٌ، لِما سمعَه من إنكارِ لفظِ المجازِ، فحملهُ السامعُ لقصورِهِ أو لهواه على أنَّه إذا كانَ حقيقةً لزمَ أن يكونَ هو يدُ الربِّ عزَّ وجلَّ، التي هي صفتُه. وهذا باطلٌ. واللَّهُ أعلمُ[1].

* * *

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٣/ ١٧٤ ـ ١٧٥).



سُورَةُ غَافِر

قوله تعالى: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعتُ الوَزيرَ[1] يقولُ في قَولِهِ تعالَى: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر:٧].

قال: علمتِ المَلائكةُ أَنَّ اللَّهَ عز وجل يحبُّ عبادَهُ المُؤمنِينَ، فَتَقَرَّبُوا إليه بالشفاعةِ فِيهِم. وأَحْسَنُ القُرَبِ: أن يسأل المُحبُّ إكرامَ حَبِيبِه، فإنكَ لَوْ سألتَ شَخصًا أن يزيدَ في إكرامِ وَلَدِهِ لارتَفَعْتَ عِندَه، حَيْثُ تَحُثُّهُ عَلَى إِكْرَامِ مَحْبُوبِهِ[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى:١٦، ١٧]. وقالَ تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨].

---

(١) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

(٢) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢).

وقالَ اللَّهُ تعالى عن مؤمن آل فرعونَ أنّه قالَ لقومِه: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٨].

والمَتَاعُ: هو ما يتمتَعُ به صاحبُه برْهَةً ثم ينقطِعُ ويفنَى. فما عِيبَتِ الدُّنيا بأبلغَ من ذكر فنائها وتقلُّبِ أحوالِهَا، وهو أدلُّ دليلٍ على انقضائها وزوالِهَا، فتتبدَّلُ صحتُها بالسُّقمِ، ووجودُها بالعدمِ، وشبيبتُها بالهرَمِ، ونعيمهَا بالبؤسِ، وحياتُها بالموتِ، فتفارِقُ الأجسامُ النفوسَ، وعمارتُها بالخرابِ، واجتماعها بفرقةِ الأحبابِ، وكُلُّ ما فوق التُّرابِ تراب»[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾

قال اللَّه تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦] قال قتادةُ في هذه الآيةِ: يقالُ لهم: يا آلَ فرعونَ هذه منازلكم، توبيخًا وصغارًا ونقيصةً.

وقالَ ابنُ سيرين: كان أبو هريرةَ يأتِينا بعد صلاةِ العصرِ، فيقولُ: عرجت ملائكةٌ، وهبطتْ ملائكةٌ وعُرِضَ آلُ فرعونَ على النارِ، فلا يسمعُه أحدٌ إلا يتعوَّذ باللَّهِ من النار.

وقال شعبةُ، عن يعلَى بنِ عطاء، سمعتُ ميمونَ بنَ مهرانَ يقولُ: كانَ أبو هريرةَ إذا أصبحَ يُنادي: أصبحْنا والحمدُ للَّهِ، وعُرِضَ آلُ فرعونَ على النارِ، فلا يسمعُه أحدٌ إلا يتعوَّذ باللَّهِ من النارِ.

(١) «لطائف المعارف» (٧٠).

ورواهُ هشيمٌ عن يعْلى، عن ميـمون، قالَ: كانَ لأبي هريرةَ صيـحتانِ كلَّ يومٍ، أوَّلُ النهارِ يقولُ: ذهبَ الليلُ وجاءَ النهارُ وعرضَ آلُ فرعونَ على النارِ، وإذا كان العـشيُّ يقول: ذهبَ الـنهارُ وجاءَ الـليل، وعُرِضَ آلُ فرعـونَ على النار، فلا يسمعُ أحد صوتَهُ إلا استجارَ باللَّهِ من النارِ.

ويُروى من حـديثِ الليث، عن أبي قيسٍ، عن هُذيلٍ، عـن ابنِ مسـعودٍ قالَ: أرواحُ آلِ فرعـونَ في أجواف طيرٍ سودٍ، فيـعرضونَ على النارِ كلَّ يومٍ مرتينِ، فيقـالُ لهم: هذه داركم فذلك قوله تعالى: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾.

ورواهُ غيرُه عن أبي قيسٍ، عن هذيلٍ، من قولِه.

لكن خرَّجه الإسماعيليُّ من طريقِ ابـنِ عيينةَ، عن مسروقٍ عن أبي قيسٍ، عن هذيلٍ، عن ابنِ مسعودٍ أيضًا.

قال ابنُ أبي الدنيـا: حدثنا حـمادُ بنُ محـمدٍ الفزَاريُّ، قـالَ: بلغني عن الأوزاعيِّ، أنه سألهُ رجلٌ بعسقلانَ على السـاحلِ، فقال له: يا أبا عمرو، إنَّا نرَى طيرًا سـودًا تخرجُ من البحرِ، فـإذا كانَ العشيُّ عـادَ مثلها بيضًـا. قالَ: وفطنتم لذلكَ؟ قالوا: نعم. قالَ: فتلك طيرٌ في حواصِلها أرواحُ آل فرعونَ، فـتلفـحُـها النارُ، فـيسـودُّ ريشُـها، ثـم يُلقى ذلك الريشُ، ثم تعـودُ إلى أوكارِها، يعرضونَ على النارِ فـتلفحُها النارُ؛ فذلك دأبُها حـتى تقومَ الساعةُ، فيقال: ﴿**أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾.

وفي «الصحيحين»[1] من حديثِ ابنِ عمرَ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إذا**

---

(١) أخرجه: البخاري (٢/ ١٢٤)، (٤/ ١٤٢)، (٨/ ١٣٤)، ومسلم (٨/ ١٦٠).

ماتَ أحدُكم عُرِضَ عـليه مقعدُ بالغداةِ والعـشيِّ، إن كانَ من أهلِ الجنةِ فمن أهلِ الجنة، وإن كان من أهلِ النارِ فمن أهلِ النارِ، حتَّى يبعثَه ربُّه، يقالُ: هذا مقعدُكَ حتى يبعثكَ اللَّهُ إلى يوم القيامة».

ورواه الفـضيلُ بن غـزوان، عن نافعٍ عن ابنِ عمـرَ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ ولفظه: «ما من عبدٍ يموتُ إلا عرِضَ عليه مقعدُه، إن كان من أهلِ الجنةِ على الجنة، وإن كان من أهلِ النارِ على النار»[(١)] [(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدْهمَ رحـمهُ اللَّهُ تعالى في موعظتِه حـينَ سألُه عن قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وإنَّا ندعُوه فلم يستجبْ لنا. فقالَ: عرفـتم اللَّه فلم تطيـعُوه، وقرأتُم القـرآنَ فلم تعملـوا به، وعرفتُمُ الشـيطانَ فوافقْتمُـوه، وادَّعيتُم حبَّ رسولِ اللَّه ﷺ وتركتُم سنَّته وادَّعـيتم حبَّ الجنةِ ولم تعملوا لها وادَّعيتم خوفَ النارِ ولم تنتهوا عن الذنوبِ، وقلتُم: إن الموتَ حقٌّ ولم تستـعدُّوا له، واشتـغلتم بعيوبِ غـيركم ولم تنظروا إلى عـيوبكم، وتأكلونَ رزقَ اللَّهِ ولا تشكرونَ، وتدفنون أمواتكم ولا تعتبرون[(٣)].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٩).

(٢) «أهوال القبور» (٥٥ ـ ٥٧).

(٣) «الذل والانكسار» (٩٠ ـ ٩١).

الدعاء مأمورٌ به، وموعودٌ عليه بالإجابةِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وفي «السننِ الأربعة»[١] عنِ النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الدعاءَ هو العبادةُ» ثم تلا هذه الآيةَ.

وفي حديثٍ آخرَ خرَّجه الطبرانيُّ[٢] مرفوعًا: «منْ أُعْطيَ الدُّعاءَ، أُعْطيَ الإجابة، لأنَّ اللَّه تعالى يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾».

وفي حديثٍ آخرَ: «مَا كان اللَّهُ ليفتَحَ على عبدٍ بابَ الدُّعاءِ، ويُغْلِقَ عنه بابَ الإجابةِ»[٣].

لكنَّ الدعاءَ سببٌ مقتضٍ للإجابةِ مع استكمالِ شرائطِه، وانتفاءِ مَوانعِه، وقد تتخلَّف إجابتُه، لانتفاءِ بعضِ شروطِهِ، أو وجودِ بعضِ موانعِه.

ومن أعظمِ شرائطِه: حضورُ القَلبِ، ورجاءُ الإجَابةِ من اللَّه، كما خرَّجه الترمذيُّ من حديثِ أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «ادعوا اللَّه وأنتُم موقنونَ بالإجابةِ، فإنَّ اللَّه لا يَقبلُ دُعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ»[٤].

وفي «المسندِ»[٥] عن عبدِ اللَّه بنِ عمرٍو، عنِ النبيِّ ﷺ، قال: «إنَّ هذه القلوبَ أوعيةٌ، فبعضُها أوعى من بعضٍ، فإذا سألتم اللَّه فاسألوهُ وأنتُم موقنونَ بالإجابة،

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ٢٦٧ ـ ٢٧١ ـ ٢٧٦)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٤٧)، (٣٣٧٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٦٤٣)، وابن ماجه (٣٨٢٨).

(٢) أخرجه: الطبراني في «الصغير» (١٠٠٠)، والخطيب (١/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨).

(٣) أخرجه: العقيلي (١/ ٢٤٢)، وابن عدي (٢/ ٣٢٢).

(٤) أخرجه: الترمذي (٣٤٧٩)، وابن عدي (٤/ ٦٢)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٦٨)، والحاكم (١/ ٤٩٣).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٧).

فإنَّ اللَّه لا يستجيبُ لعبدٍ دعاءً من ظهرِ قلبٍ غافلٍ».

ولهذا نُـهيَ العبدُ أنْ يقـولَ في دعائِه: اللَّـهم اغفرْ لي إنْ شـئت، ولكنْ ليَعزِمَ المسألةَ، فإنَّ اللَّه لا مُكْرِهَ له[1] .

ونُهِيَ أن يسـتعجلَ، ويتـركَ الدعاءَ لاسـتبطاءِ الإجابةِ، وجـعلَ ذلك من موانعِ الإجـابةِ حتَّى لا يقطعَ العبـدُ رجاءَه من إجابـةِ دُعائِه ولو طالتِ المدةُ، فإنَّه سبحانه يُحبُّ المُلحِّين في الدعاءِ.

وجاء في الآثارِ: إنَّ العـبدَ إذا دعا ربَّه وهو يحـبُّه، قال: «يا جـبريل، لا تَعجَلْ بقضاءِ حاجة عبدي، فإنِّي أحبُّ أن أسمع صوتَه».

وقال تعالى: ﴿**وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الأعراف:٥٦] فما دام العـبدُ يُلحُّ في الدُّعاءِ، ويَطمعُ في الإجابـةِ من غيرِ قطعِ الرَّجاءِ، فهو قريبٌ من الإجابةِ، ومنْ أدْمَنَ قرْعَ البابِ، يُوشك أن يُفتح له.

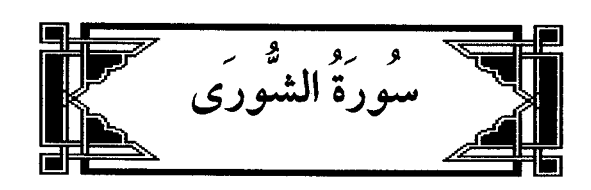
وفي «صحيحِ الحاكمِ»[2] عن أنس مرفـوعًا: «**لا تعْجـزُوا عن الدُّعاءِ، فـإنَّه لن يَهلِكَ مع الدُّعاءِ أحَدٌ**»[3] .

* * *

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ٩٢)، ومسلم (٨/ ٦٣) من حديث أبي هريرة وأنس.

(٢) أخرجه: الحاكم (١/ ٤٩٣ - ٤٩٤).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٤٣ - ٤٤٥).



سورة الشورى

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾

[قال البخاريُّ][1]: وقال مجاهدٌ: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ**﴾ [الشورى:١٣] أوصيناكَ وإيَّاهُ يا مُحَمَّد دِينًا واحدًا.

روى ورقاءُ، عن ابنِ أبي نجيحٍ، عن مجاهدٍ، في قوله: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا**﴾ [الشورى:١٣]، قال: وصَّاك به وأنبياءَهُ كلَّهم دينًا واحدًا.

ومعنى ذلك أنَّ دينَ الأنبياءِ كلِّهم دينٌ واحدٌ، وهو الإسلامُ العامُّ، المشتملُ على الإيمانِ باللَّه وملائكته وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ، وعلى توحيدِ اللَّه وإخلاصِ الدِّين له، وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاة.

كما قال تعالى: ﴿**وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ** ﴿٤﴾ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾ [البينة:٤، ٥].

والدينُ هو الإسلامُ، كما صرحَ به في مواضعَ أُخرَ، وإذا أُطلقَ الإسلامُ دخلَ فيه الإيمانُ، وبالعكس.

---

(١) «صحيح البخاري» (١/٩)

وقد استدلَّ على أنَّ الأعمالَ تدخلُ في الإيمانِ بهذه الآيةِ وهي قولُه: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥] طوائفُ من الأئمةِ، منهم: الشافعيُّ وأحمدُ والحميديُّ.

وقال الشافعيُّ: ليسَ عليهم أحجُّ من هذه الآيةِ.

واستدلَّ الأوزاعيُّ بقولِه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ إلى قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ [الشورى:١٣].

وقال: الدِّينُ: الإيمانُ والعملُ.

واستدلَّ بقولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة:١١].

وقد ذكرَ الخلاَّلُ في كتابِ «السُّنَّةِ» أقوالَ هؤلاءِ الأئمةِ بألفاظِهِمْ، بالأسانيدِ إليهم[١].

* * *

قول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾

وقد مدحَ اللَّهُ من يغفرُ عندَ غضبِهِ، فقالَ: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧]؛ لأنَّ الغضبَ يحملُ صاحبه على أنْ يقولَ غيرَ الحقِّ، ويفعلَ غيرَ العدلِ، فمن كانَ لا يقولُ إلا الحقَّ في الغضبِ والرِّضا دلَّ ذلك على شدةِ إيمانِه وأنَّه يملكُ نفسَهُ.

وخرَّج الطبرانيُّ[٢] من حديثِ أنسٍ مرفوعًا: «ثلاثٌ من أخلاقِ الإيمانِ: مَنْ إذا

(١) «الفتح» (١/ ١٥ ـ ١٦).

(٢) أخرجه: الطبراني في «الصغير» (١/ ٦١).

غضِبَ لا يُدْخِلُهُ غضبُه في باطلٍ، ومَنْ إذا رَضِي لا يُخْرِجُهُ رضاه من حقٍّ، ومنْ إذا قدرَ لا يتعاطَى ما ليسَ له».

فهذا هو الشديدُ حقًّا كما قال النبيُّ ﷺ: «**ليسَ الشديدُ بالصُّرَعَةِ إنَّما الشديدُ الذي يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ**»[(١)] .

ولمسلمٍ[(٢)] : «**ما تعدون الصُّرَعَةَ فيكم؟**» قلنا: الذي لا تَصْرَعُهُ الرِّجالُ، قال: «**ليس كذلك، ولكنَّه الذي يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ**» .

وقال رجلٌ للنبيِّ ﷺ: أوصِني، قال: «**لا تغضَبْ**» فرددَ مراراً، قال: «**لا تغضبْ**» أخرجه البخاريُّ[(٣)] .

وفي «المسندِ» أنَّ رجلاً قال: يا رسولَ اللَّه، ما يباعدني عن غضَبِ اللَّهِ؟ قال: «**لا تغضَبْ**».

قال مُورِّقٌ العِجْلِي: ما قلتُ في الغضبِ شيئًا إلا ندمتُ عليه في الرِّضا.

قال عطاءٌ: ما أبكَى العلماءَ بكاءٌ آخرَ العمرِ إلا من غضبةٍ قدْ أقحمتْ صاحبَها مقحمًا ما استقاله.

كان الشعبيُّ ينشدُ:

ليستِ الأحلامُ في حالِ الرِّضا　　　إنَّما الأحلامُ في حالِ الغضَبْ

وكان ابنُ عونٍ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ إذا اشتدَّ غضبُه على أحدٍ قال: باركَ اللَّه فيك، ولم يزدْ.

---

(١) أخرجه: مسلم (٨/ ٣٠) عن أبي هريرة.
(٢) السابق، عن ابن مسعود.
(٣) البخاري (٨/ ٣٥).

وقال الفضيلُ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ : أنا منذُ خمسينَ سنةً أطلبُ صديقًا إذا غضبَ لا يكذبُ عليَّ ما أجدُه.

فإنَّ منْ لا يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ إذا غضبَ قال فيمَنْ غضبَ عليه ما ليسَ فيه من العظائمِ، وهو يعلمُ أنَّه كاذبٌ، وربَّما علِمَ الناسُ بذلك ويحملُهُ حقدُهُ وهوى نفسِهِ على الإصرارِ على ذلك.

وقال جعفرُ بنُ محمدٍ رضي الله عنه : الغضبُ مِفتاحُ كلِّ شرٍّ.

وقيلَ لابنِ المباركِ: اجمَعْ لنا حسنَ الخلقِ في كلمةٍ قال: تركُ الغضَبِ.

وقال مالكٌ بن دينارٍ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ : منذ عرفتُ الناسَ لم أبالِ بمدحِهِم وذمهم لأنِّي لم أرَ إلا مادحًا غاليًا، أو ذامًّا غاليًا.

يعني: أنه لم يرَ مَنْ يقتصدُ فيما يقولُ في رضاه وغضبِهِ.

* * *

(١) رسالة: «شرح حديث: اللهم بعلمك الغيب» (ص ٢٨ ـ ٣٠).

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾

ومما أنكره السلفُ: الجدالُ والخصامُ والمراءُ في مسائلِ الحلالِ والحرامِ، ولم يكنْ ذلكَ طريقةَ أئمةِ الإسلامِ، وإنَّما أحدثَ ذلكَ بعدَهُم كما أحدَثَهُ فقهاءُ العراقيينَ في مسائل الخلافِ بين الشافعيةِ والحنفية، وصنفوا كتبَ الخلافِ ووسَّعُوا البحثَ والجدالَ فيها، وكلُّ ذلك لا أصلَ له وصارَ ذلكَ علمُهُم، حتى شغَلَهم عن العلمِ النافع. وقد أنكرَ ذلك السلفُ ووردَ في الحديث المرفوعِ في «السنن»: **«ما ضلَّ قومٌ بعدَ هدى كانُوا عليه إلا أوتوا الجدلَ»**. ثم قرأ: **﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾** [الزخرف:٥٨].

وقال بعضُ السلفِ: إذا أرادَ اللَّهُ بعبدٍ خيراً فتحَ له بابَ العملِ وأغلقَ عنه باب الجدلِ، وإذا أراد اللَّهُ بعبدٍ شرًّا أغلقَ عنه بابَ العملِ، وفتحَ له بابَ الجدلِ.

وقال مالكٌ: أدركتُ أهل هذه البلدةِ وإنَّهم ليكرهونَ هذا الإكثارَ الذي عليه الناسُ اليومَ، يريدُ المسائلَ. وكان يعيبُ كثرةَ الكلامِ والفُتيا ويقولُ: يتكلمُ أحدُهُم كأنَّه جملٌ مغتلم، يقولُ: هو كذا هو كذا، يهدرُ كلامَهُ، وكان يكرهُ الجوابَ في كثرةِ المسائلِ، ويقولُ: قالَ اللَّه عزَّ وجلَّ: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾** [الإسراء:٨٥]، فلم يأتِه في ذلكَ جوابٌ.

وقيل له: الرجلُ يكونُ عالمًا بالسنةِ يجادلُ عنها، قالَ: لا، ولكنْ يخبرُ بالسنةِ، فإمَّا قُبِلَ منه وإلا سكتَ. وقال: المراءُ والجدالُ في العلمِ يذهبُ بنورِ العلمِ. وقالَ: المراءُ في العلمِ يُقَسِّي القلبَ ويورثُ الضغْنَ. وكان يقولُ في المسائلِ التي يسألُ عنها كثيرًا: لا أدْرِي. كان الإمام أحمدُ يسلك سبيلَه في ذلك.

وقد وردَ النهيُ عن كثرة المسائلِ وعن أغلوطاتِ المسائلِ، وعن المسائلِ قبلَ وقوعِ الحوادثِ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾

وعذابُ الكفارِ في النَّارِ لا يُفَتَّرُ عنهم ولا ينقطعُ ولا يُخففُ بل هو متواصلٌ أبدًا، قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف:٧٤، ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]، وقال تعالى: ﴿فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ [غافر:٤٩، ٥٠].

---

(١) رسالة: «فضل علم السلف» (ص ٤٨ ـ ٥٠).

وقالَ أحـمدُ بنُ أبي الحـواريِّ: سمعـتُ إسحاقَ بنَ إبراهيمَ يـقولُ ـ على منبـرِ دمشقَ ـ: لا يأتي على صـاحبِ الجنَّةِ ساعـةٌ إلا وهو يزدادُ ضِعـفًا من النَّعيمِ لم يكنْ يـعرفُه، ولا يأتي على صـاحبِ النَّارِ ساعةٌ إلا وهو مـستنكرٌ لنوعٍ من العذابِ لم يكنْ يعرفُـه، قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿**فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا**﴾ [النبأ:٣٠].

قالَ جِسرُ بنُ فَرْقَدٍ عن الحـسنِ: سألتُ أبا بَرْزَةَ عن أشدِّ آيةٍ في كتابِ اللَّه على أهلِ النَّارِ، قال: سـمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ قرأ: ﴿**فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا**﴾ [النبأ:٣٠]، فقـالَ: «**أُهلِكَ القـومُ بمعاصيهم للَّه تعـالى**» خرَّجَـه ابنُ أبي حاتمٍ، وجِسرٌ ضـعيفٌ، وخرَّجَه البيهقيُّ ولمْ يرفـعْهُ ولفظُهُ: سألت أبا برزة عن أشدِّ آيةٍ عـلى أهلِ النارِ، قال: قـولُه عزَّ وجلَّ: ﴿**فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا**﴾ [النبأ:٣٠].

وقالَ مجـاهدٌ: بلغني أنَّ استراحـةَ أهـلِ النَّـارِ أنْ يضـعَ أحـدُهـم يدَهُ على خـاصِرَتِهِ، ولأهـلِ النَّارِ أنـواعٌ مـن العـذابِ لم يطلعِ اللَّهُ عليـها خلقَـهُ في الدنيـا.

قال مبـاركٌ عن الحسنِ: ذكرَ اللَّهُ السلاسلَ والأغـلالَ والنَّارَ وما يكونُ في الدنيا، ثمَّ قرأ: ﴿**وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ**﴾ [ص:٥٨].

قال آخرُ: لا تُرى في الدُّنيا. خرَّجَهُ ابنُ أبي حاتمٍ.

وقال أبو يَعلى الموصلي: حـدثَنا شُريحٌ، حدثنا إبراهيمُ بنُ سليـمانَ، عن الأعمشِ عـن الحسنِ، عن ابنِ عـباسٍ في قولِه تـعالى: ﴿**زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ**﴾ [النحل:٨٨]. قال: هي خمـسةُ أنهارٍ تحتَ العرشِ يُعذَّبون ببعـضها في

الليل وبعضها في النَّهار(١) .

* * *

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾

قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ [الزخرف:٧٧] ومالكٌ هو خازنُ جهنَّمَ، وهو كبيرُ الخزنةِ ورئيسهم، وقدْ رآه النبيُّ ﷺ ليلةَ الإسراءِ، وبدأَهُ مالكٌ بالسلامِ، خرَّجَه مسلمٌ من حديثِ أنسٍ.

ورآه النبيُّ ﷺ في منامِهِ وهو كريهُ المِرآةِ، أي: كريهُ المنظرِ، كأكرهِ ما أنتَ راءٍ من الرِّجال(٢) .

* * *

قال اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٦-١٠٨].

وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر:٤٩ . ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ

---

(١) «التخويف من النار» (١٥٤، ١٥٥).

(٢) «التخويف من النار» (ص ١٧٧).

﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٧].

وفي حديثِ الأعمشِ عن شمرِ بنِ عطيةَ عن شهرِ بنِ حوشبٍ عن أمِّ الدَّرداءِ عن أبي الدَّرداءِ عن النبيِّ ﷺ: في ذكرِ أهلِ النَّارِ قال: «فيقُولونَ: ادعُوا خزنةَ جهنمَ، فيقولون: ﴿أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر:٥٠]». قال: «فيقُولونَ ادعُوا مالكًا فيقُولُونَ: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧].»

قال الأعمشُ: نُبئتُ أنَّ بينَ دُعائِهم وبين إجابةِ مالكٍ لهم ألفَ عامٍ، قال: فيقُولُون: ادعُوا ربَّكم فإنَّه ليس أحدٌ خيرًا من ربِّكم فيقُولُون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٦، ١٠٧]، قال فيُجيبُهم: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨].

قال: «فعندَ ذلك يئسُوا من كلِّ خيرٍ وعندَ ذلك يأخذونَ في الحسرةِ والزفيرِ والويلِ».

خرَّجه الترمذيُّ مرفوعًا وموقوفًا على أبي الدرداء.

وروى أبو معشرٍ عن محمدِ بن كعبٍ القُرظيِّ قال: لأهلِ النارِ خمسُ دعواتٍ يُكلَّمونَ في أربعٍ منها ويُسكتُ عنهم في الخامسةِ فلا يُكلَّمونَ يقولون: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر:١١].

فيردُّ عليهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ [غافر:١٢].

ثمَّ يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢].

فيردُّ عليهم: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:١٣] إلى آخر الآيتين.

ثمَّ يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ [إبراهيم:٤٤].

فيردُّ عليهم: ﴿أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم:٤٤].

ثمَّ يقولُون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر:٣٧].

فيردُّ عليهم: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٧].

ثمَّ يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٦، ١٠٧].

فيردُّ عليهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٨-١١٠].

قال: فلا يتكلَّمونَ بعدَ ذلك، خرَّجَه آدمُ بنُ أبي إياسٍ وابنُ أبي حاتمٍ.

وخرَّجَ ابنُ أبي حاتمٍ من روايةِ قتادةَ عن أبي أيوبَ العتكيِّ، عن عبدِ اللَّهِ ابنِ عمرٍ قال: نادى أهلُ النَّارِ: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] قال: فخلَّى عنهم أربعين عامًا ثمَّ أجابهم: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧] فقالُوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧] قال: فخلَّى عنهم مثلَ الدُّنيا ثمَّ أجابَهم: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨] قال: فأُطبِقَتْ عليهم فبئسَ القومُ بعدَ تلك الكلمةِ، وإنْ كان إلا الزفيرُ والشهيقُ.

وعن عطاءِ بنِ السائبِ عن أبي الحسنِ عن ابنِ عباسٍ في قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ قال: فيتركُهم ألفَ سنةٍ ثم يقولُ: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾، وخرَّجَهُ البيهقيُّ وعندَه عن عطاءٍ عن عكرمةَ عن ابنِ عباسٍ.

وقال سُنَيدٌ في «تفسيره»: حدثنا حجاجٌ، عن ابنِ جريجٍ قال: نادَى أهلُ النَّارِ خزنـةَ جهنمَ أنْ ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩] فلم يجيبُـوهم ما شاءَ اللَّهُ، ثمَّ أجابُوهم بعـدَ حينٍ وقالُوا لهُم: ﴿فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ [غافر:٥٠].

ثمَّ نادَوا: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيسكُتُ عنهم مـالكٌ خازنُ جهنمَ أربعينَ سنةً ثمَّ أجابَهم: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ ثمَّ نادَى الأشقـياء ربَّهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون:١٠٦] الآيتين، فسكتَ عنهم مثلَ مـقدارِ الدُّنيا ثمَّ أجابَهم بعدُ ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨].

ورَوى صفوانُ بنُ عـمرٍو قال: سمعتُ أيفعَ بنَ عبـدٍ الكُلاعي يقولُ: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «إذا دخلَ أهلُ الجنَّة الجـنةَ وأهلُ النَّارِ النارَ، قـالَ اللَّـهُ: يا أهلَ الجنَّة: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنون:١١٢، ١١٣] قال: نعم مـا اتَّجرتُم في يومٍ أو بعضِ يومٍ رحمـتي ورضواني وجنَّتي امكثُوا فيـها خالدين مـخلدينَ. ثم يقولُ لأهلِ النَّارِ: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فـيـقول: بـئسَ ما اتَّـجرتُم بـه في يومٍ أو بعضِ يومٍ سـخطِي ومعصيتي وناري، امكثُوا فيـها خالدين مخلدينَ فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فيقولُ: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾، فيكـونُ ذلك آخرُ عهـدهِم بكلامِ ربِّهم عزَّ وجلَّ» خرَّجه أبو نعيمٍ[1]. وقال: كذا رواه أيفعُ مرسلاً.

وقال أبو الزَّعْراءِ عن ابنِ مسعودٍ: إذا أرادَ اللَّهُ أن لا يُخرِجَ منها أحدًا غيرَ وجوهِـهِم وألوانِهم، فيـجيءُ الرجلُ من المؤمنين فيـشفـعُ فيقـولُ: يا ربِّ،

---

(١) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٣٢).

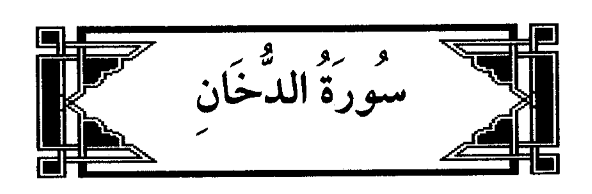
فيقالُ: من عرفَ أحدًا فليُخرِجْهُ، قال: فيجيءُ الرجلُ من المؤمنينَ فينظرُ فلا يعرفُ أحدًا فيناديَهُ الرجلُ فيقولُ: يا فلانُ، أنا فلانٌ، فيقولُ: ما أعرفك قال: فعندَ ذلك يقولون في النَّارِ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فيقولُ عندَ ذلك: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فإذا قال ذلك أُطبِقَتْ عليهم فلم يخْرجْ منهم أحدٌ.

وفي روايةٍ قال ابنُ مسعودٍ: ليسَ بعدَ هذه الآيةِ خروجٌ: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

وذكَرَ عبدُ الرزاقِ في «تفسيرِهِ» عن عبدِ اللَّهِ بنِ عيسى عن زيادٍ الخُرسانيِّ أسندَهُ إلى بعضِ أهلِ العلمِ: قال: إذا قيلَ لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ سكتُوا فلا يُسمَعُ لهم فيها حسٌّ إلا كطنينِ الطَّستِ[1].

* * *

(١) «التخويف من النار» (١٦٢ ـ ١٦٥).



سُورَةُ الدُّخَانِ

قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾

وقد رُوي عن عكرمةَ وغيرِه من المفسِّرين في قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤] أنَّها ليلةُ النِّصْفِ من شعبانَ. والجمهورُ على أنَّها ليلةُ القدْرِ، وهو الصحيحُ.

وقال عطاءُ بنُ يسارٍ: إذا كان ليلةُ النِّصْفِ من شعبانَ دُفعَ إلى ملكِ الموتِ صحيفةٌ، فيُقالُ: اقبض من في هذه الصحيفةِ، فإنَّ العبدَ ليَغْرِسُ الغِرَاسَ، وينكحُ الأزواجَ، ويبني البُنيانَ، وإنَّ اسمَه قد نُسِخَ في الموتى ما ينتظرُ به ملَكُ الموتِ إلا أن يؤمَرَ به فيقبضَه..

يا مغروراً بطول الأمل، يا مسروراً بسوءِ العملِ، كُنْ مِن الموتِ على وَجَلٍ، فما تدري متى يهجُمُ الأجَلُ.

كُلُّ امْرِئٍ مُصبّحٌ في أهْلِـهِ والمَوْتُ أدْنَى من شِراكِ نَعْلِه

قال بعضُ السلفِ: كم من مُستقبلٍ يومًا لا يستكملُهُ، ومن مُؤمِّلٍ غدًا لا يدرِكُه، إنَّكم لو رأيتمُ الأجَلَ ومسيرَهُ لأبغضتُمُ الأمَلَ وغُرورَهُ.

أؤمِّـلُ أنْ أُخَلَّـدُ والمنـايـا تـدُورُ علـيَّ من كُـلِّ النَّـواحِـي
ومـا أدرِي وإنْ أمْسَـيْتُ يومًـا لَعلِّـي لا أعـيشُ إلى الصبـاحِ
كمْ ممَّن راحَ في طلبِ الدنيـا أو غدَا أصـبَحَ مِنْ سكانِ القُبـورِ غـدَا

كـأنـكَ بالمضيِّ إلـى سـبـيـلكْ وقـدْ جـدَّ المُجَـهِّـزُ في رحِـيلكْ
وجيءَ بِغـاسلٍ فـاسْـتَـعْـجَلُوهُ بقـولِهم لهُ افْـرغْ من غَـسِـيلكْ
ولم تحْـمِلْ سِـوَى كـفَـنٍ وقُطْنٍ إليـهم من كـثـيـركَ أو قليلكْ
وقـد مـدَّ الرِّجـالُ إليكَ نَعْـشًـا فـأنْتَ عليـه مَـمْـدُودٌ بطولك
وصـلَّوا ثـمَّ إنَّـهم تـداعَـوا لحَـمْلكَ من بُـكورِكَ أو أصـيلكْ
فلمَّـا أسْـلَمُـوك نزلْتَ قـبْـرًا ومن لكَ بـالسَّـلامـةِ فـي نُزولكْ
أعـانَـكَ يومَ تدخُـلُهُ رحـيـمٌ رءوفٌ بالعـبـادِ عـلى دُخُـولكْ
فـسَـوفَ تُجـاوِر المَوْتَـى طويلاً فـذَرْني من قَـصـيـركَ أو طويلكْ
أُخَيَّ لقَـدْ نَصـحتُـكَ فاسْـتَـمِعْ لِي وباللَّه اسْـتَـعَنْـتُ على قـبـولكْ
ألـسْـتَ تَـرى المـنـايـا كُـلَّ حـينٍ تُصـيبُكَ في أخِـيكَ وفي خَليلكْ[(١)]

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعت الوزير[(٢)] يقول في قوله تعالى: **﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾** [الدخان: ٣٤ ـ ٣٦] قال: ربَّما توهَّم جاهلٌ أنهم لم يُجَابُوا عما سألوا، وليسَ كذلك؛ فإن الذين سألوا لا يصلح أن يكون دليلاً على البعث؛ لأنهم لو أُجيبوا إلى ما سألوا لم يكُنْ ذلك حجةً على مَنْ تقدَّم، ولا على

(١) «اللطائف» (ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩).

(٢) هو: محمد بن يحيى بن هبيرة.

من تأخَّرَ، ولم يَزد على أنْ يكونَ لمن تقدَّم وعدًا، ولمن تأخر خبرًا، اللهم إلا أن يجيء لكل واحدٍ أبوه، فتصير هذه الدارُ دارَ البعثِ. ثمَّ لو جازَ وقوع مثل هذه كان إحياءُ ملكٍ يُضْرَبُ به الأمثالُ أولى، كـ: تُبَّعٍ، لا أنتم يا أهلَ مكَّةَ، فإنكم لا تُعرفون في بقاع الأرض(١) .

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٣ ـ ٤٦]. وقال: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٢ ـ ٦٨]، وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة:٥١ ـ ٥٧]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٦٠].

وخرَّجَ الترمذيُّ وابنُ ماجهَ وابنُ حبانَ في «صحيحِهِ»(٢) من حديثِ ابنِ

---

(١) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٩).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠٠)، وابن ماجه (٤٣٢٥)، والترمذي (٢٥٨٥)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٦٣٩٨).

عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ هذه الآيةَ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]. فقال رسولُ اللَّه ﷺ: «لو أنَّ قطرةً من الزقومِ قُطِرَتْ في دارِ الدنيا لأفسدتْ على أهلِ الدنيا معايشَهُم، فكيفَ بمَن تكونُ طعامَهُ؟!».

وقال الترمذيُّ: صحيح، ورُوي موقوفًا على ابنِ عباسٍ.

وقال ابنُ إسحاقَ: حدثني حكيمُ بنُ حكيم، عن عكرمةَ، عن ابنِ عباسٍ، قال: قال أبو جهلٍ لَمَّا ذكرَ رسولُ اللَّه ﷺ شجرةَ الزقومِ: يُخوِّفُنا بها محمدٌ، يا معشرَ قريشٍ أتدرُون ما شجرةُ الزقومِ التي يُخوِّفُكم بها محمدٌ؟ قالُوا: لا، قال: عجوةُ يثربَ بالزبدِ، واللَّه لئنِ اهتمكنا منها لنتزقمنَّها تزقمًا، فأنزلَ اللَّه فيه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ الآية [الدخان:٤٣، ٤٤]، أي ليس كما تقول، وأنزلَ اللَّه ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيراً﴾ [الإسراء:٦٠].

وقالَ عبدُ الرزاقِ، عن معمرٍ، عن قتادةَ، في قوله: ﴿فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ [الصافات:٦٣] قال: زادتُهم تكذيبًا حينَ أخبرَهم أنَّ في النَّارِ شجرةً، قال: يخبرُهم أنَّ في النَّارِ شجرةً والنَّارُ تحرقُ الشجرَ، فأخبرَهم أنَّ غذاءَها من النارِ.

وقد تقدمَ عن ابنِ عباسٍ أنَّ شجرةَ الزقومِ نابتةٌ في أصلِ سقرَ، ورُوي عن الحسنِ أنَّ أصلَها في قعرِ جهنمَ وأغصانَها ترتفعُ إلى دركاتِها.

وقالَ سلامُ بنُ مسكينٍ: سمعتُ الحسنَ تلا هذه الآيةَ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الأَثِيمِ ۝٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ قالَ: إنَّها هناك قد حُميت عليها جهنمُ.

وقال مغيرةُ، عن إبراهيمَ وأبي رزينٍ: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾: قال: الشجرُ يغلي.

قال جعفرُ بنُ سليمانَ: سمعتُ أبا عمرانَ الجوني يقولُ: بلغَنا أنَّه لا ينهشُ منها نهشةً إلا نهشتْ منه مثلَها.

وقد دلَّ القرآنُ على أنَّهم يأكلونَ منها حتى تمتلئَ منها بطونُهم، فتغلي في بطونِهم كما يغلي الحميمُ، وهو الماءُ الذي قدْ انتهى حرُّهُ، ثمَّ بعدَ أكلهم منها يشربُونَ عليه من الحميمِ شربَ الهيمِ.

قال ابنُ عباسٍ في روايةِ علي بنِ أبي طلحة: الهيمُ: الإبلُ العطاشُ.

وقال: السديُّ: هو داءٌ يأخذ الإبلَ فلا تُروى أبدًا حتى تموت، فكذلك أهلُ جهنم لا يُروونَ من الحميم أبدًا، وعن مجاهدٍ نحوُه.

وعن الضحاكِ في قولِه: ﴿شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة:٥٥]، قال: من العربِ مَن يقولُ: هو الرملُ، ومنهم مَنْ يقولُ: الإبلُ العطاشُ، وقد رُوي عن ابنِ عباسٍ كلا القولين، ودلَّ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات:٦٨] على أنَّ الحميمَ يشابُ به ما في بطونِهم من الزَّقوم فيصيرُ شوبًا له، وقال عطاءٌ الخراسانيُّ في هذه الآيةِ: يقالُ: يُخلطُ طعامُهُم ويشابُ بالحميمِ. وقال قتادةُ: ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾: مِزاجًا من حميمٍ.

وعن سعيدِ بنِ جبيرٍ قال: إذا جاعَ أهلُ النَّارِ استغاثُوا من الجوعِ فأُغيثُوا بشجرةِ الزَّقومِ فأكلوا منها فانسلختْ وجوهُهُم حتى لو أنَّ مارًّا مرَّ عليهم يعرفُهم لعَرفِ جلودِ وجوهِهم، فإذا أكلُوا منها أُلقي عليهم العطشُ، فاستغاثُوا من العطشِ فأُغيثوا بماءٍ كالمهلِ، والمهلُ: الذي قد انتهى حرُّهُ، فإذا

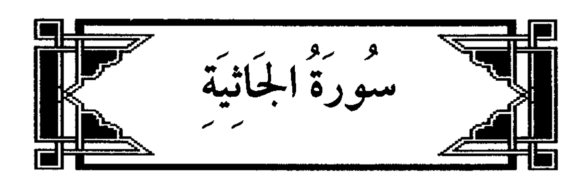
أدنَوه من أفواهِهم أنضجَ حرُّهُ الوجوهَ فيُصهرُ به ما في بطونِهم، ويُضربُون بمقامعَ من حديدٍ فيسقطُ كلُّ عضوٍ على حيالِه يدعُونَ بالثبورِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٨]. أي: بعدَ أكل الزقومِ وشربِ الحميمِ عليه، ويدلُّ هذا على أنَّ الحميمَ خارجٌ من الجحيمِ فهم يردُونَه كما تَرِدُ الإبلُ الماءَ، ثمَّ يَرِدُون إلى الجحيمِ، ويدلُّ على هذا أيضًا قولُه تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن:٤٣، ٤٤] والمعنى أنَّهم يتردَّدُون بينَ جهنمَ والحميمِ فمرةٌ إلى هذا، ومرةٌ إلى هذا قالَهُ قتادةُ وابنُ جريجٍ، وغيرُهما.

وقال القرطبيُّ في قولِه: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن:٤٤]، قالَ: إنَّ الحميمَ دونَ النَّارِ، فيُؤخذُ العبدُ بناصيتِه فيُجرُّ في ذلك الحميم حتى يذوبَ اللحمُ ويبقى العظمُ والعينان في الرأسِ، وهذا الذي يقول اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:٧٢].[١]

* * *

(١) «التخويف من النار» (١١٢ ـ ١١٤).



سُورَةُ الجَاثِيَة

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾

وجاء من مراسيلِ الحسنِ عن النبيِّ ﷺ: «**مَنْ قالَ: لا إله إلا اللَّه مخلصًا دخلَ الجنَّة**» قيلَ: وما إخلاصُها؟ قال: «**أن تحجُزَك عمَّا حرَّم اللَّهُ**» ورُوي ذلك مسندًا من وجوهٍ أُخرَ ضعيفةٍ.

ولعلَّ الحسنَ أشارَ بكلامِه الذي حكيناه عنه من قبلُ إلى هذا، فإنَّ تحقيقَ القلبِ بمعنى: «لا إله إلا اللَّه» وصدقَه فيها وإخلاصَهُ بها يقتضي أن يرسخَ فيه تألُّه اللَّه وحدَهُ، إجلالاً، وهيبةً، ومخافةً، ومحبَّةً، ورجاءً، وتعظيمًا، وتوكُّلاً، ويمتلئَ بذلك، وينتفيَ عنه تألُّه ما سواه من المخلوقينَ، ومتى كانَ كذلك لم يبقى فيه محبَّةٌ ولا إرادةٌ، ولا طلبٌ لغيرِ ما يُريدُهُ اللَّهُ ويحبُّه ويطلبُه، وينتفي بذلك من القلبِ جميعُ أهواءِ النفوسِ وإرادتها ووساوسُ الشيطان، فمَنْ أحبَّ شيئًا وأطاعَهُ، وأحبَّ عليه وأبغضَ عليه، فهو إلهُهُ، فمن كان لا يحبُّ ولا يُبغضُ إلا للَّه، ولا يُوالي ولا يُعادي إلا له، فاللَّه إلهُهُ حقًّا، ومن أحبَّ لهواه، وأبغضَ له ووالَى عليه، وعادَى عليه، فإلهه هواه، كما قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال الحسنُ: هو الذي لا يَهوى شيئًا إلا ركبَهُ، وقال قتادةُ: هو الذي كلما هَوِيَ شيئًا ركبَهُ، وكلَّما اشتهى شيئًا أتاه، لا يَحجزُهُ عن ذلك ورعٌ ولا تقوى، ويُروى من حديث أبي أمامةَ مرفوعًا: «**ما تحت ظلِّ السماء إلهٌ يُعبد أعظمَ عند**

اللَّه من هوىً متَّبع»(1) .

وكذلك مَنْ أطاعَ الشيطانَ في معصيةِ اللَّه، فـقد عبدَهُ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [يس:٦٠].

فتبيَّن بهذا أنَّه لا يصحُّ تحـقيقُ معنى قولِ: لا إله إلا اللَّه، إلا لمن لم يكنْ في قلبِهِ إصْـرارٌ على محبةِ مـا يكرهُهُ اللَّهُ، ولا على إرادةِ ما لا يُريدهُ اللَّهُ، ومتى كان في القلبِ شيءٌ منْ ذلك، كانَ ذلك نقـصًا في التوحيدِ، وهو مِنْ نوعِ الشِّركِ الخفيِّ، ولهذا قال مـجاهدٌ في قولِهِ تعالى: ﴿**لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ [النساء:٣٦] قال: لا تحبُّوا غيري.

وفي «صحيحِ الحاكمِ»(2) عن عـائشـةَ ﵂، عن النبيِّ ﷺ قال: «**الشِّركُ أخْفى من دبيبِ الذَّرِّ عـلى الصَّـفا في الليلةِ الظَّلمـاء، وأدناهُ أنْ تُـحبَّ على شيءٍ منَ الجـوْرِ، وتُبـغضَ على شيءٍ من العـدلِ، وهل الدِّينُ إلا الحبُّ والبـغض؟ قـال اللَّهُ عـزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾** [آل عمران:٣١]».

وهذا نصٌّ في أنَّ محـبةَ ما يكرهُه اللَّه، وبغضَ ما يُحـبُّه متابعـةٌ للهوى، والموالاةُ على ذلك والمعاداةُ عليه من الشركِ الخفي(3) .

* * *

وقد ورد إطلاقُ الإلهِ على الهوى المتَّبع، قالَ اللَّه تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ [الجاثية:٢٣].

قال الحسنُ رحمه اللَّهُ: هو الذي لا يَهْوى شيـئًا إلا ركبه. وقال قتادةُ: هو

---

(1) أخرجه: الطبراني (٨/ ١٠٣)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٣٠١).

(2) أخرجه: الحاكم (٢/ ٢٩١).

(3) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥٥٤ ـ ٥٥٦).

الذي كلَّما هَوِيَ شيئًا ركبه، وكلَّما اشْتهى شيئًا أتاهُ، لا يحجزُهُ عن ذلك ورعٌ ولا تقْوى.

ورُوِي من حديث أبي أمامة بإسنادٍ ضعيف: **«ما تحت ظلِّ سماءٍ إلهٌ يعبدُ أعظمُ عند اللَّهِ من هوى متَّبع»**(١).

وفي حديثٍ آخرَ: **«لا تزالُ لا إله إلا اللَّهُ تدْفَعُ عن أصحابها حتَّى يؤثِرُوا دنياهم على دينهم، فإذا فعلُوا ذلكَ رُدَّتْ عليهم، ويقالُ لهم: كذبْتُم»**(٢).

ويشهدُ لهذا: الحديث الصحيحُ عن النبيِّ ﷺ: **«تَعِسَ عبدُ الدينارِ، تعِسَ عبد الدرهم، تعِسَ عبدُ القطيفةِ، تعِسَ عبدُ الخميصةِ، تعِسَ وانتكسَ، وإذا شِيكَ فلا انتقشَ»**(٣) فدلَّ هذا على أنَّ كلَّ من أحبَّ شيئًا وأطاعه وكانَ غايةَ قصدِه ومطلوبِه، ووالى لأجله، وعادى لأجلِه، فهو عبدُهُ، وكان ذلك الشيءُ معبودَهُ وإلههُ.

ويدلُّ عليه أيضًا أنَّ اللَّه تعالى سمَّى طاعةَ الشيطانِ في معصيتِه عبادةً للشيطانِ، كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**﴾ [يس:٦٠] وقال تعالى حاكيًا عن خليله إبراهيمَ عليه السلامُ لأبيه: ﴿**يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا**﴾ [مريم:٤٤]، فمنْ لم يتحققْ بعبوديةِ الرحمنِ وطاعتِه فإنَّه يعبدُ الشيطانَ بطاعتِه له، ولم يخلُصْ من عبادةِ الشيطانِ إلا من أخلصَ عبوديةَ الرحمنِ، وهم الذين قال فيهم: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾ [الحجر:٤٢]. فهم الذين حقَّقُوا قولَ: «لا إله إلا اللَّه»،

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه: أبو يعلى في «مسنده» (٧/ ٤٠٣٤).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ١١٥).

وأخلصُوا في قولِها، وصدَّقُوا قولَهم بفعلِهم، فلم يلتفتوا إلى غيرِ اللَّهِ محبةً ورجاءً وخشيةً وطاعةً وتوكُّلاً، وهم الذين صدَقُوا في قولِ: «لا إله إلا اللَّه» وهم عبادُ اللَّه حقًا، فأمَّا من قالَ: «لا إله إلا اللَّه» بلسانه، ثم أطاعَ الشيطانَ وهواه في معصيةِ اللَّهِ ومخالفتِه فقدْ كذَّبَ فعلُه قولَهُ، ونقصَ من كمالِ توحيدِه بقدرِ معصيةِ اللَّهِ في طاعةِ الشيطانِ والهوى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]، ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

فيا هذا كنْ عبدًا للَّه لا عبدًا للهوى، فإنَّ الهوى يهوِي بصاحبِه في النارِ: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩].

تعسَ عبدُ الدرهمِ! تعسَ عبدُ الدينارِ! واللَّهِ لا ينجُو غدًا من عذابِ اللَّه إلا من حقَّقَ عبوديةَ اللَّه وحدَهُ، ولم يلتفتْ إلى شيءٍ من الأغيارِ، من علِمَ أنَّ إلهه فردٌ، فليُفْرِدْهُ بالعبوديةِ ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

كان بعضُ العارفينَ يتكلَّم على أصحابِه على رأسِ جبلٍ، فقالَ في كلامِه: لا ينالُ أحدٌ مرادَه حتى ينفردَ فردًا بفردٍ، فانزعجَ واضطربَ، حتى رأى أصحابُهُ أنَّ الصخورَ قد تدكْدكتْ، وبقي على ذلك ساعةً، فلمَّا أفاقَ فكأنَّه نُشِرَ من قبرِه.

قولُ: «لا إله إلا اللَّهُ» تقتَضِي أنْ لا يُحبَّ سواهُ، فإنَّ الإلهَ هو الذي يُطاعُ، فلا يعصى محبةً وخوفًا ورجاءً، ومن تمام محبته محبَّةُ ما يحبُّه، وكراهةِ ما يكرَهُهُ، فمنْ أحبَّ شيئًا مما يكرهُهُ اللَّهُ، أو كرِهَ شيئًا مما يحبه اللَّهُ لم يكملْ توحيدُه وصدقه في قولِ: «لا إله إلا اللَّهُ»، كان فيه من الشركِ الخفيِّ بحسبِ ما كرههُ مما يحبُّه اللَّه، وما أحبَّه مما يكرهُهُ اللَّهُ،

قال اللَّهُ تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:٢٨].

قال الليث عن مجاهدٍ في قوله: ﴿لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور:٥٥]. قال: لا يحبون غيري.

وفي «صحيحِ الحاكم»[1] عن عائشة رضي الله عنها عن النبيِّ ﷺ قال: «**الشركُ في هذه الأُمَّةِ أخْفَى من دبيبِ النملِ على الصَّفا في الليلةِ الظلماءِ، وأدناهُ أن تحبَّ على شيءٍ من الجورِ، أو تُبغضَ على شيءٍ من العدلِ، وهل الدِّينُ إلا الحبُّ والبغضُ؟ قال اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾** [آل عمران:٣١]».

وهذا نصٌّ في أنَّ محبةَ ما يكرهُه اللَّه، وبغضَ ما يحبُّه متابعةٌ للهَوى، والموالاةُ على ذلك والمعاداةُ فيه من الشِّركِ الخفِيِّ.

وقال الحسنُ: اعلمْ أنَّكَ لن تحبَّ اللَّهَ حتَّى تحبَّ طاعتَهُ.

وسُئل ذو النونِ: متى أُحبُّ ربِّي؟ قال: إذا كان ما يبغضه عندكَ أمرَّ من الصبر.

وقال بشرُ بنُ السريِّ: ليس من أعلامِ الحبِّ أن تحبَّ ما يبغضُ حبيبُك.

وقال أبو يعقوب النَّهْرجوْرِي: كلُّ من ادَّعى محبةَ اللَّهِ ولم يوافقِ اللَّهَ في أمرِه فدعواه باطلةٌ.

وقال يحيى بن معاذٍ: ليس بصادقٍ من ادَّعى محبةَ اللَّهِ ولم يحفظْ حدودَهُ.

وقال رويمٌ: المحبةُ: المُوافقةُ في جميعِ الأحوالِ، وأنشد:

---

(١) أخرجه: الحاكم (٢/ ٢٩١).

ولو قلتَ لي: مُتْ، قلتُ: سمعًا وطاعةً وقلتُ لداعي الموتِ: أهلاً ومرحبًا

ويشهدُ لهذا المعنى أيضًا قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال الحسنُ: قالَ أصحابُ رسولِ اللَّه ﷺ: إنَّا نحبُّ ربَّنا حبًّا شديدًا، فأحبَّ اللَّهُ أن يجعلَ لحبِّه عَلَمًا، فأنزلَ اللَّهُ تعالى هذه الآيةَ.

ومن هاهُنا يُعلم أنه لا تتمُّ شهادةُ أن لا إله إلا اللَّهُ إلا بشهادة أن محمدًا رسولُ اللَّه، فإنَّه إذا علمَ أنه لا تتمُّ محبةُ اللَّهِ إلا بمحبَّةِ ما يحبُّه، وكراهةِ ما يكرهُه، فلا طريقَ إلى معرفةِ ما يحبُّه وما يكرَهُهُ إلا من جهةِ محمدٍ المبلِّغ عن اللَّهِ ما يحبُّه وما يكرهُهُ باتِّباعِ ما أمرَ به، واجتنابِ ما نَهى عنه، فصارتْ محبةُ اللَّه مستلزمةٌ لمحبةِ رسولِه ﷺ وتصديقِه ومتابعته، ولهذا قرَنَ اللَّهُ بين محبتِه ومحبةِ رسولِه في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٢٤].

كما قرنَ طاعتَهُ وطاعةَ رسولِه ﷺ في مواضعَ كثيرةٍ.

وقال ﷺ: «**ثلاثٌ من كنَّ فيه وجدَ بهنَّ حلاوةَ الإيمان: أن يكونَ اللَّهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهُما، وأنْ يحبَّ الرجلَ لا يحبُّه إلا للَّه، وأنْ يكرهَ أن يرجعَ إلى الكفر بعد أن أنقذه اللَّهُ منه كما يكرهُ أن يُلقَى في النار**»[1].

هذه حالُ السحرةِ لمَّا سكنتِ المحبةُ قلوبَهُم سمحُوا ببذلِ النفوسِ وقالُوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] ومتى تمكنتِ المحبةُ في القلبِ لم

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٠، ١٢)، ومسلم (١/ ٤٨).

تنبعثِ الجوارحُ إلا إلى طاعةِ الربِّ، وهذا هو معنى الحديثِ الإلهيِّ الذي خرَّجه البخاريُّ في «صحيحه» وفيه: **«ولا يزالُ عبدِي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّى أحبَّه، فإذا أحببتُهُ كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ به وبصرَهُ الذي يبصرُ به، ويدَهُ التي يبطشُ بها، ورجْلَهُ التي يمشِي بها»** وقد قيل: إنَّ في بعضِ الرواياتِ: **«فبي يسمعُ وبي يبصرُ وبي يبطشُ وبي يمشي»**[1] .

والمعنى: أن محبةَ اللَّه إذا استغرقَ بها القلبُ واستولتْ عليه لم تنبعثِ الجوارحُ إلا إلى مراضِي الربِّ، وصارتِ النفسُ حينئذٍ مطمئنةً بإرادةِ مولاها عن مرادِها وهواها.

يا هذا، اعبدِ اللَّهَ لمرادِهِ منكَ لا لمرادِكَ منه، فمنْ عبدَهُ لمرادِهِ منه فهوَ ممن يعبدُ اللَّهَ على حرْفٍ، إن أصابَهُ خيرٌ اطمأنَّ به، وإن أصابتْهُ فتنةٌ انقلبَ على وجهه خسرَ الدنيا والآخرةَ، ومتى قويتِ المعرفةُ والمحبةُ لم يُرِدْ صاحبُها إلا ما يريدُ مولاهُ.

وفي بعضِ الكتبِ السالفةِ: من أحبَّ اللَّهَ لم يكنْ شيءٌ عندَهُ آثرُ من رضاهُ، ومن أحبَّ الدنيا لم يكنْ شيءٌ عندَه آثرُ من هوى نفسِهِ.

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ عن الحسنِ قال: ما نظرتُ ببصرِي ولا نطقتُ بلساني، ولا بطشتُ بيدي، ولا نهضتُ على قدمِي، حتى أنظر على طاعةِ اللَّهِ أو على معصيتِهِ، فإنْ كانتْ طاعةً تقدمتُ، وإن كانتْ معصيةً تأخَّرْتُ.

هذا حالُ خَواصِّ المحبينَ الصادقينَ، فافهمُوا رحمكُمُ اللَّهُ هذا، فإنَّه من دقائقِ أسرارِ التوحيدِ الغامضةِ.

---

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ١٣١).

وإلى هذا المقامِ أشارَ النبي ﷺ في خطبتِهِ لما قدِمَ المدينةَ حيثُ قال: «أحبُّوا اللَّهَ من كلِّ قلوبِكُم».

وقد ذكرها ابنُ إسحاقَ وغيرُه، فإنَّ من امتلأَ قلبُه من محبةِ اللَّه، لم يكنْ فيه فراغٌ لشيءٍ من إراداتِ النفسِ والهوى، وإلى ذلكَ أشارَ القائلُ، بقولِهِ:

أروحُ وقدْ ختمتَ على فؤادِي ... بحبِّك أن يحلَّ به سواكَا
فلو أنِّي استطعتُ غضضْتُ طرْفِي ... فلم أنظرْ به حتَّى أراكَا
أحبُّك لا ببعضِي بلْ بكلِّي ... وإنْ لم يُبقِ حُبُّك لي حِرَاكَا
وفي الأحبابِ مخصوصٌ بوجدٍ ... وآخر يدَّعي معه اشْتِرَاكَا
إذا اشتبكتْ دموعٌ في خدودٍ ... تبيَّن من بكى ممن تباكى
فأمَّا منْ بكَى فيذوبُ وجْدًا ... وينطقُ بالهوى من قدْ تشَاكَا

متى بقي للمحبِّ حظٌّ من نفسِهِ فما بيدِهِ من المحبةِ إلا الدَّعْوى، إنما المحبُّ من يفْنى عن هوى نفسِهِ كلِّه، ويبْقى بحبيبِهِ، فبي يسمعُ وبي يبصرُ.

وفي الإسرائيلياتِ يقولُ اللَّهُ: «ما وسِعَنِي سمائي ولا أرضِي، ووسعنِي قلبُ عبدِي المؤمنِ» فمتى كان القلبُ فيه غيرُ اللَّه فاللَّهُ أغنى الأغنياءِ عن الشِّركِ، وهو لا يَرضى بمزاحمة أصنامِ الهوى.. الحقُّ غيورٌ يغارُ على عبدِهِ المؤمنِ أن يسكنَ في قلبِهِ سواهُ، أو يكنَّ فيه شيئًا ما يرضاه.

أردناكُمُ صِرْفًا فلمَّا مزجتُمُ ... بَعدتُم بمقدارِ التفاتِكُم عنَّا
وقلنا لكُم: لا تُسْكِنُوا القلبَ غيرَنا ... فأسكنْتُم الأغيارَ، ما أنتُمُ مِنَّا

لا ينجو غدًا إلا من لقي اللَّهَ بقلبٍ سليمٍ ليسَ فيه سواه، قال اللَّه تعالى: ﴿يوْمَ لا ينفعُ مَالٌ ولا بَنُونَ (٨٨) إلاَّ منْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨. ٨٩].

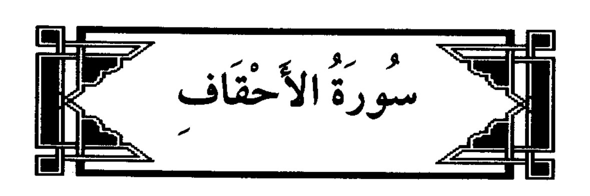
القلبُ السليمُ: هو الطاهرُ من أدناسِ المخالفاتِ، فأمَّا المتلطخُ بشيءٍ من المكروهاتِ فلا يصلُحُ لمجاورةِ حضرةِ القدوسِ إلا بعدَ أن يطهرَ في كيرِ العذابِ، فإذا زالَ عنه الخبثُ صلَحَ حينئذ للمجاورةِ.

«إن اللَّه طيِّب لا يقبلُ إلا طيِّبًا» . فأما القلوبُ الطيبةُ فتصلحُ للمجاورةِ من أولِ الأمرِ: ﴿**سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ [الرعد:٢٤] ، ﴿**سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾ [الزمر:٧٣] ، ﴿**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ**﴾ [النحل:٣٢].

من لم يُحرِق اليومَ قلبَهُ بنارِ الأسفِ على ما سلفَ أو بنار الشوقِ إلى لقاءِ الحبيبِ فنار جهنَّمَ له أشدُّ حرًّا [١] .

* * *

(١) رسالة: «كلمة الإخلاص وتحقيق معناها» (ص ٣٥ ـ ٤٥).



سُورَةُ الأَحْقَافِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

قولُ سفيانَ بنِ عبدِ اللَّهِ للنبي ﷺ: «**قُلْ لي في الإسلامِ قولاً لا أسألُ عنه أحدًا بعدَك**» طلبَ منه أن يُعلِّمَه كلامًا جامعًا لأمرِ الإسلامِ كافيًا حتَّى لا يحتاجَ بعدَه إلى غيرِه، فقال له النبيُّ ﷺ: «**قلْ: آمنتُ باللَّهِ، ثمَّ استقمْ**» وفي الروايةِ الأخرى: «**قلْ: ربيَّ اللَّهُ، ثمَّ استقمْ**»(1).

هذا منتزعٌ من قولهِ عزَّ وجلَّ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾** [فصلت: ٣٠]، وقولهِ عزَّ وجلَّ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [الأحقاف: ١٣-١٤].

وخرج النسائيُّ في «تفسيرِه» من روايةِ سهيلِ بنِ أبي حزمٍ: حدثنا ثابتٌ، عن أنسٍ أن النبيَّ ﷺ قرأَ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** فقالَ: «**قدْ قالَها الناسُ، ثمَّ كفرُوا، فمن ماتَ عليها فهو من أهلِ الاستقامةِ**»(2).

---

(1) أخرجه: مسلم (١/ ٤٧).

(2) رواه النسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٤٣٣)، والترمذي (٣٢٥٠).

وخرَّجه الترمذيُّ، ولفظهُ: فقال: «**قد قالَها الناسُ، ثمَّ كفرَ أكثرُهم، فمن ماتَ عليها، فهو ممَّنِ استقامَ**»، وقالَ: حسنٌ غريبٌ، و«سهيل» تُكُلِّمَ فيه من قِبَلِ حفظِه.

وقال أبو بكرٍ الصديقُ في تفسيرِ ﴿**ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ قالَ: لم يشركُوا باللَّه شيئًا. وعنه قالَ: لم يلتفتوا إلى إله غيرِه. وعنه قالَ: ثم استقامُوا على أنَّ اللَّهَ ربُّهم.

وعن ابنِ عباسٍ بإسنادٍ ضعيفٍ قالَ: هذه أرخصُ آيةٍ في كتابِ اللَّهِ: ﴿**قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ على شهادةِ أنْ لا إلهَ إلا اللَّهَ.

ورُويَ نحوهُ عن أنسٍ ومجاهدٍ والأسودِ بنِ هلالٍ، وزيدِ بنِ أسلمَ، والسُّدِّيِّ وعكرمةَ وغيرِهم. ورُويَ عن عمرَ بن الخطابِ أنَّه قرأَ هذه الآيةَ على المنبرِ ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾، فقالَ: لم يَروغوا رَوَغَانَ الثعالبِ.

وروى عليُّ بنُ أبي طلحةَ عنِ ابنِ عباسٍ في قولِه تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ قالَ: استقامُوا على أداءِ فرائضِه.

وعن أبي العاليةَ، قالَ: ثمَّ أخلَصُوا له الدين والعملَ.

وعن قتادةَ قالَ: استقامُوا على طاعةِ اللَّهِ، وكانَ الحسنُ إذا قرأَ هذه الآيةَ قالَ: اللهمَّ أنت ربُّنا فارزقنا الاستقامةَ.

ولعلَّ من قالَ: «إنَّ المرادَ الاستقامةُ على التوحيدِ» إنَّما أرادَ التوحيدَ الكاملَ الذي يُحرِّمُ صاحبَه على النارِ، وهو تحقيقُ معنى لا إلهَ إلا اللَّهَ، فإنَّ الإلهَ هو الذي يُطاعُ، فلا يُعصى خشيةً وإجلالاً ومهابةً ومحبةً ورجاءً وتوكُّلاً ودعاءً، والمعاصِي كلُّها قادحةٌ في هذا التوحيدِ، لأنَّها إجابةٌ لداعي الهوى

وهو الشيطانُ، قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:٢٣] قال الحسنُ وغيرُه: هو الذي لا يهوى شيئًا إلا ركبَه.

فهذا يُنافي الاستقامةَ على التوحيدِ.

وأما على روايةِ من روى: «قُلْ آمنْتُ باللَّه»، فالمعنى أظهرُ، لأنَّ الإيمانَ يدخلُ فيه الأعمالُ عندَ السلفِ وَمن تابعَهم من أهلِ الحديثِ، وقالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود:١١٢]، فأمرَه أن يستقيمَ هو ومن تابعَه، وأن لا يُجاوزُوا ما أُمروا به، وهو الطغيانُ، وأخبرَ أنَّه بصيرٌ بأعمالِهم، مطَّلعٌ عليها، قال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى:١٥]. وقالَ قتادةُ: أُمرَ محمدٌ ﷺ أن يستقيمَ على أمرِ اللَّهُ. وقالَ الثوريُّ: على القرآنِ.

وعن الحسنِ قال: لَمَّا نزلتْ هذه الآيةُ شَمَّرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، فما رؤي ضاحكًا. خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ. وذكر القُشَيريُّ وغيرُه عن بعضِهم: أنَّه رأى النبيَّ ﷺ في المنامِ، فقالَ له: يا رسولَ اللَّه قلتَ: «شَيَّبتني هُودٌ وأخواتُها»، فما شيَّبك منها؟ قال: «قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢]»[(١)].

وقالَ عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦].

وقد أمرَ اللَّهُ تعالى بإقامةِ الدِّين عمومًا كما قالَ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدين

---

(١) راجع: «العلل» للدارقطني (١/١٩٣ ـ ٢١١).

ولا تتفرقوا فيه﴾ [الشورى:١٣]، وأمرَ بإقامِ الصلاةِ في غيرِ موضعٍ من كتابه، كما أمرَ بالاستقامةِ على التوحيدِ في تلك الآيتين.

والاستقامةُ: هي سلوكُ الصِّراطِ المستقيمِ، وهو الدِّينُ القيِّمُ من غيرِ تعريجٍ عنه يمنةً ولا يَسرةً، ويشملُ ذلك فعلَ الطَّاعاتِ كلِّها، الظاهرةِ والباطنة، وتركَ المنهيات كلِّها كذلك، فصارت هذه الوصيةُ جامعةً لخصالِ الدِّينِ كُلِّها.

وفي قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦] إشارةٌ إلى أنَّه لا بُدَّ من تقصيرٍ في الاستقامةِ المأمورِ بها، فيجبُرُ ذلك الاستغفارُ المقتضي للتَّوبةِ والرُّجوعِ إلى الاستقامةِ، فهو كقولِ النبيِّ ﷺ لمعاذ: «**اتَّقِ اللَّهَ حيثُما كُنتَ، وأتبعِ السَّيِّئةَ الحسنةَ تَمْحُها**»[1]. وقد أخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ الناسَ لن يُطيقُوا الاستقامةَ حقَّ الاستقامةِ، كما خرَّجه الإمامُ أحمدُ وابنُ ماجه[2] من حديث ثوبانَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**استقيموا و لن تُحْصوا، واعلمُوا أنَّ خيرَ أعمالكُم الصَّلاةُ، ولا يُحافظُ على الوضوءِ إلا مؤمنٌ**»، وفي روايةٍ للإمامِ أحمدَ: «**سَدِّدُوا وقاربُوا، ولا يحافظُ على الوضوءِ إلا مؤمنٌ**».

وفي «الصحيحين»[3] عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**سدِّدُوا وقاربُوا**».

فالسَّدادُ: هو حقيقةُ الاستقامةِ، وهو الإصابةُ في جميعِ الأقوالِ والأعمالِ والمقاصِدِ، كالذي يرمي إلى غرضٍ فيُصيبُه. وقد أمرَ النبيُّ ﷺ عليًّا أن يسألَ اللَّهَ عزَّ وجلَّ السَّدادَ والهُدى، وقالَ له: «**اذكرْ بالسَّدادِ تسديدَكَ السَّهْمَ، وبالهدى هدايتك الطَّريق**».

---

(١) أخرجه: الترمذي (١٩٨٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧ ـ ٢٨٢)، وابن ماجه (٢٧٧).

(٣) أخرجه: البخاري (١/ ١٦)، ومسلم (٨/ ١٣٩ ـ ١٤٠).

والمقاربةُ: أن يُصيبَ ما قَربَ منَ الغرضِ إذا لم يُصبِ الغرضَ نفسه، ولكنْ بشرطِ أن يكونَ مصممًا على قصدِ السَّدادِ وإصابةِ الغرضِ، فتكونُ مقاربتُه عن غيرِ عمدٍ.

ويدلُّ عليه قولُ النبيِّ ﷺ في حديثِ الحكمِ بنِ حزنٍ الكُلَفي: «**أيّها النَّاس إنَّكم لنْ تعملُوا ـ أو لن تُطيقوا ـ كلَّ ما أمرتُكم، ولكنْ سدِّدُوا وأبشرُوا**»(١).

والمعنى: اقصِدُوا التَّسديدَ والإصابةَ والاستقامةَ، فإنَّهم لو سدَّدُوا في العمل كلِّه، لكانوا قد فعلُوا ما أُمِرُوا به كُلِّه.

فأصلُ الاستقامةِ استقامةُ القلب على التوحيدِ، كما فسر أبو بكر الصدِّيق وغيرُه قولَه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ [الأحقاف:١٣] بأنَّهم لم يلتفتُوا إلى غيرِه، فمتى استقامَ القلبُ على معرفةِ اللَّه، وعلى خشيتِه، وإجلالِه، ومهابتِه، ومحبتِه، وإرادتِه، ورجائِه، ودعائِه، والتوكُّلِ عليه، والإعراضِ عما سِواه، استقامت الجوارحُ كلُّها على طاعتِه، فإن القلبَ هو ملكُ الأعْضاء، وهي جنودُه، فإذا استقامَ الملكُ، استقامت جنودُه ورعاياه، وكذلك فسِّر قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا**﴾ [الروم:٣٠] بإخلاصِ القصدِ للَّهِ وإرادتِه وحدَه لا شريكَ له.

وأعظمُ ما يُراعى استقامتُه بعدَ القلبِ منَ الجوارح: اللسانُ، فإنَّه ترجمانُ القلب والمعبِّرُ عنه، ولهذا لما أمرَ النبي ﷺ بالاستقامةِ، وصَّاه بعدَ ذلك بحفظِ لسانِه، وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ»(٢) عن أنسٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتَّى يستقيمَ قلبُه، ولا يستقيمُ قلبُه حتَّى يستقيمَ لسانُه**».

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ٢١٢)، وأبو داود (١٠٩٦).
(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ١٩٨).

وفي «الترمذيِّ»(١) عن أبي سعيدٍ الخدري مرفوعًا وموقوفًا: «**إذا أصبحَ ابنُ آدمَ، فإن الأعضاءَ كلَّها تكفرُ اللِّسانَ، فتقولُ: اتق اللَّهَ فينا، فإنما نحنُ بك، فإن استقمتَ استقمنا، وإن اعوجَجْتَ اعوججنا**»(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾

[قال البخاري](٣) بَابٌ إِذَا هَبَّتِ الرِّيحُ: حدثنا سعيدُ بنُ أبي مريمَ: أنا محمدُ بنُ جعفرٍ: أخبرني حُميدٌ، أنَّهُ سمعَ أنس بن مالكٍ يقولُ: كانتِ الرِّيحُ الشديدَةُ إذا هَبَّتْ عُرِفَ ذلكَ في وَجهِ النَّبيِّ ﷺ.

إنما كان يظهرُ في وجهِ النبيِّ ﷺ الخوفُ من اشتدادِ الريحِ؛ لأنه كان يخشَى أن تكونُ عذابًا أُرسلَ إلى أمَّتِهِ.

وكان شدةُ خوفِ النبيِّ ﷺ على أُمته شفقةً عليهم، كما وصفَهُ اللَّهُ سبحانه وتعالى بذلكَ في قولِهِ: ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة:١٢٨].

ولما تلاَ عليه ابنُ مسعودٍ: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ [النساء:٤١] بكَى.

ولما تلاَ قولَه: ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ**﴾ الآية [المائدة:١١٨] بكى، وقالَ: «**اللهمَّ، أُمَّتي، أُمَّتي**»، فأرسلَ اللَّهُ جبريلَ يقولُ له: «**إن اللَّهَ يقولُ: إنَّا سنُرضيكَ في**

(١) «الجامع» (٢٤٠٧)، ورجح الترمذي الموقوف.
(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥٣٦ _ ٥٤١).
(٣) أخرجه: البخاري (٢/ ٤٠).

أمتك ولا نَسُوءُكَ»[1] .

وكان يقولُ: «**شيَّبتني هودٌ وأخواتُها**».

وجاءَ في روايةٍ مرسلةٍ: «**قَصَّفْنَ عليَّ الأُمَم**».

يشيرُ إلى أنَّ شيبهُ منها ما ذُكر مِن هلاكِ الأممِ قبلَ أمَّته وعذابهم.

وكانَ عندَ لقاءِ العدوِّ يخافُ على مَن معه من المؤمنينَ، ويستغفرُ لهم، كما فعلَ يومَ بدرٍ، وباتَ تلكَ الليلةَ يصلِّي ويبكي ويستغفرُ لهُم، ويقولُ: «**اللهمَّ، إن تُهلكْ هذه العِصَابةَ لا تُعبدُ في الأرض**»[2] .

وكلُّ هذا مِن خوفِه وشفقتهِ عليْهِم.

وقد جاءَ في رواياتٍ متعددةٍ: التصريحُ بسببِ خوفهِ من اشتدادِ الريحِ:

ففي «الصحيحينِ»[3] من حديثِ سليمانَ بنِ يسارٍ، عن عائشةَ: أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذا رأى غيمًا أو ريحًا عُرِفَ ذلكَ في وجهِهِ، فقلتُ: يا رسولَ اللَّهِ: أرى الناسَ إذا رأوُا الغيمَ فرِحوا؛ رجاءَ أن يكونَ فيه المطرُ، وأراكَ إذا رأيته عَرفتُ في وجهِك الكراهيةَ؟ فقالَ: «**يا عائشة، ما يُؤمِّني أن يكونَ فيه عذابٌ، قد عُذبَ قومٌ بالريحِ، وقدْ رأى قومٌ العذابَ، فقالُوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾** [الأحقاف: ٢٤]».

وخرَّجَا ـ أيضًا ـ من روايةِ ابنِ جريجٍ، عن عطاءٍ، عن عائشةَ، قالتْ كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا رأى مخيلةً في السماءِ أقبلَ وأدبرَ، ودخلَ وخرجَ، وتغيَّر

---

(١) أخرجه: مسلم (١/ ١٣٢).

(٢) أخرجه: مسلم (٥/ ١٥٦)، وأحمد (١/ ٣٢)، والترمذي (٣٠٨١).

(٣) أخرجه: البخاري (٦/ ١٦٧)، ومسلم (٣/ ٢٦ ـ ٢٧).

وجهُه، فإذا أمطرتِ السماءُ سُرِّي عنه، فعرَّفْته عائشةُ ذلكَ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «وما أَدْري لعلَّه كما قالَ قومٌ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ٢٤]» الآية.

وزاد مسلمٌ ـ في أولِه ـ: كانَ النبيُّ ﷺ إذا عصفتِ الريحُ قال: «**اللهمَّ، إنِّي أَسأَلُكَ خيرَها وخيرَ ما فيها وخيرَ ما أُرسِلَت به، وأعوذُ بكَ مِن شرِّها وشرِّ ما فيها وشرِّ ما أُرسلتُ به**»[1].

وخرجهُ النسائيُّ[2]، ولفظُه: «كانَ إذا رأَى ريحًا»، بدل: «مخيلة».

وخرجَ مسلمٌ ـ أيضًا[3] ـ من حديثِ جعفرِ بنِ محمدٍ، عن عطاءٍ، عن عائشةَ، قالتْ: كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إذَا كانَ يومُ الريحِ والغيمِ عُرِفَ ذلكَ في وجهِهِ، فأقبلَ وأدبرَ، فإذَا مطرَ سُرَّ بِه، وذهبَ عنه ذلكَ. قالتْ عائشةُ: فسألته، فقالَ: «**إنِّي خشيتُ أن يكونَ عذابًا سُلِّطَ على أُمتي**».

وخرجَ الإمامُ أحمدُ وابنُ ماجه[4] من حديثِ المقدامِ بنِ شريحٍ، عن أبيهِ، عنْ عائشةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذَا رأى سحابًا مقبلاً منْ أفقٍ من الآفاقِ تركَ ما هُوَ فيه وإن كانَ في صلاتِهِ، حتى يستقبلَه، فيقولُ: «**اللهمَّ، إنا نعوذُ بكَ من شرِّ ما أُرْسلَ**»، فإنْ أمطرَ قالَ: «**اللهمَّ سقيًا نافعًا**» ـ مرتينِ أو ثلاثًا ـ، فإنْ كشفَه اللَّهُ ولم يُمطِرْ حمدَ اللَّهَ على ذلكَ.

ولفظهُ لابنِ ماجَه.

---

(١) أخرجه: البخاري (٤/ ١٣٢ ـ ١٣٣)، ومسلم (٣/ ٢٦).

(٢) في «عمل اليوم والليلة» (٩٤٦).

(٣) في «صحيحه» (٣/ ٢٦).

(٤) أخرجه: أحمد في «المسند» (٦/ ١٩٠)، وابن ماجه (٣٨٨٩).

وخرجه أبو داود[1]، ولفظُه: كانَ إذا رأى ناشئًا في أفقِ السماءِ تركَ العملَ، وإن كانَ في صلاةٍ، ثم يقولُ: «**اللهمَّ، إني أعوذُ بكَ من شرِّها**».

وخرَّجه ابنُ السني[2]، ولفظُه: كان إذا رأى في السماءِ ناشئًا، غبارًا أو ريحًا، استقبلَهُ مِن حيثُ كانَ، وإن كانَ في الصلاةِ تعوذَ باللَّهِ من شرِّه.

وكذا خرَّجه ابنُ أبي الدنيا.

وخرجَ الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ والنسائيُّ في «اليومِ والليلةِ» وابنُ ماجه وابنُ حبانَ في «صحيحه»[3] من حديثِ أبي هريرةَ، عنِ النبيِّ ﷺ، قالَ: «**الريحُ من روحِ اللَّهِ، تأتي بالرحمةِ، وتأتي بالعذابِ، فإذا رأيتمُوها فلا تسبُّوها، واسألُوا اللَّهَ خيرَها، واستعيذُوا باللَّهِ من شرِّها**».

وخرجَ الترمذيُّ[4] من حديثِ أبيِّ بنِ كعبٍ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**لا تسبُّوا الريحَ، فإذا رأيتُمْ ما تكرهونَ فقولُوا: اللَّهُمَّ، إنَّا نسألُكَ من خيرِ هذهِ الريحِ وخيرِ ما فيها، وخيرِ ما أُمرتْ به، ونعوذُ بكَ من شرِّ هذه الريحِ، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُمرتْ به**».

وقال: حسنٌ صحيحٌ.

وخرَّجه النسائيُّ في «اليومِ والليلةِ»[5] مرفوعًا وموقوفًا على أبيِّ بنِ كعبٍ رضي الله عنه.

---

(١) «السنن» (٥٠٩٩).

(٢) في «عمل اليوم والليلة» (٣٠٢).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٢٦٨ ـ ٥١٨)، وأبو داود (٥٠٩٧)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٣٧)، وابن ماجه (٣٧٢٧)، وابن حبان (١٠٠٧).

(٤) «الجامع» (٢٢٥٢).

(٥) «عمل اليوم والليلة» (٩٣٩)، (٩٤٠)، (٩٤١)، (٩٤٢).

وفي البابِ: أحاديثُ أخرُ متعددةٌ.

ورُوِيَ عن ابنِ مسعودٍ، قال: لا تسبُّوا الريحَ؛ فإنها بشرٌ ونَذْرٌ ولواقحُ، ولكنِ استعيذُوا باللَّهِ من شرِّ ما أُرسلَتْ به.

وعن ابنِ عباسٍ، قال: لا تسبُّوا الريحَ؛ فإنها تجيءُ بالرحمةِ، وتجيء بالعذاب، وقولوا: اللهمَّ، اجعلْهَا رحمةً، ولا تجعلْها عذابًا.

خرَّجهما ابنُ أبي الدنيا.

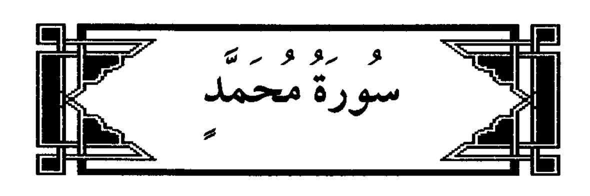
وخرَّج - أيضًا - بإسنادِهِ، عن عليٍّ، أنه كانَ إذَا هبَّتِ الريحُ قالَ: اللهمَّ، إن كنتَ أرسلْتَها رحمةً فارحمْنِي فيمنْ ترحَمُ، وإن كنتَ أرسلتَها عذابًا فعافِني فيمنْ تعافي.

وبإسنادِهِ، عنِ ابنِ عمرَ، أنه كان يقولُ إذَا عصفتِ الريحُ: شدُّوا التكبيرَ؛ فإنَّها تذهبُ.

وعن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، أنه لما وُلِّيَ هبتْ ريحٌ، فدخلَ عليه رجلٌ وهو مُنْتقعُ اللونِ، فقال: ما لكَ يا أميرَ المؤمنينِ؟ قال: ويحَك، وهل هلكتْ أمةٌ إلا بالرِّيح؟[1]

* * *

(١) «فتح الباري» (٦/ ٣١٧ - ٣٢١).



سُورَةُ مُحَمَّدٍ

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾

منْ حفظَ حدودَ اللَّهِ وراعَى حقوقَهُ، تولَّى اللَّهُ حفظَهُ في أمورِ دينهِ ودنياهُ، وفي دنياهُ وآخرتِهِ.

وقد أخبرَ اللَّهُ تعالَى في كتابِهِ أنه وليُّ المؤمنينَ وأنه يتولَّى الصالحينَ، وذلكَ يتضمنُ أنه يتولَّى مصالحَهُم في الدنيا والآخرةِ، ولا يكلُهُم إلى غيرِهِ قالَ تعالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وقالَ تعالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:١١].

وقالَ تعالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣].

وقالَ تعالَى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦].

فمن قامَ بحقوقِ اللَّهِ عليهِ فإنَّ اللَّهَ يتكفلُ له بالقيامِ بجميعِ مصالحِهِ في الدنيا والآخرةِ، ومن أرادَ أن يتولَّى اللَّهُ حفظَهُ ورعايتَهُ في أمورِهِ كلِّها فليراعِ حقوقَ اللَّهِ عليهِ، ومن أرادَ ألا يصيبَهُ مما يكرهُ فلا يأتِ شيئًا مما يكرهُهُ اللَّهُ.

كانَ بعضُ السلفِ يدورُ على المجالسِ ويقولُ: من أحبَّ أن تدومَ له العافيةُ فليتقِ اللَّهَ.

وقالَ العمريُّ الزاهدُ لمن طلبَ منه الوصـيةَ: كما تحبُّ أن يكونَ اللَّهُ لكَ، فهكذَا كنْ للَّهِ عز وجل.

وفي بعضِ الآثار: يقولُ اللَّهُ: **«وعزتي وجَلالي لا أطلعُ على قلبِ عبدٍ فأعلمُ أن الغالبَ عليه حبُّ التمسكِ بطاعتي، إلا توليتُ سياستَهُ وتقويمهُ»**.

وفي بعضِ الكتبِ المتقدمةِ: يقولُ اللَّهُ عز وجلَّ «يا ابنَ آدمَ، ألا تعلمُني ما يضحككَ، يا ابنَ آدمَ، اتقني . . .[1] ونم حيثُ شئتَ».

والمعنى: أنكَ إذا قمتَ بما عليكَ للَّهِ من حقوقِ التـقوى فلا تهتمَّ بعدَ ذلكَ بمصالحكَ، فإن اللَّهَ هو أعلمُ بهـا منكَ، وهو يوصلُّهَا إليكَ على أتمِّ الوجوهِ من غيرِ اهتمامٍ منكَ بِهَا.

وفي حديث جـابرٍ رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قالَ: **«من كانَ يحبُّ أن يعـلمَ منزلتَهُ عندَ اللَّهِ، فلينظرْ كيفَ منزلةُ اللَّهِ عندَهُ، فإنَّ اللَّهَ ينزلُ العبدَ منه حيث أنزلَهُ من نفسه»**[2].

فهذا يدل عـلى أنَّه على قدرِ اهتمامِ العـبدِ بحقوقِ اللَّهِ ومـراعاةِ حدودِه، واعتنائه بذلكَ وحـفظهِ لهُ يكونُ اعتناؤُه به وحـفظُهُ لهُ، فمن كانَ غـايةُ همِّه رِضَا اللَّهِ عنهُ وطلبَ قربِهِ ومعـرفتِهِ ومحبتِهِ وخـدمتِه، فإنَّ اللَّهَ يكونُ له على حسبِ ذلكَ كما قالَ تعالَى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة:١٥٢]، ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾ [البقرة:٤٠]، بل هو سبحانَهُ أكرمُ الأكرمينَ. فهو يجازي بالحسنةِ عشرًا ويزيدُ، ومن تقـرّبَ منه شبرًا تقرّبَ منه ذراعًـا. ومن تقرّبَ منه ذراعًا تقرّبَ منه باعًا، ومن أتاهُ يمشِي أتاهُ هرولةً.

---

(١) قال محققه: بياض بالأصل.

(٢) أخرجه: الحاكم (١/ ٤٩٤ ـ ٤٩٥).

ما يُؤتَى الإنسانُ إلا من قِبَل نفسِه ولا يصيبُهُ المكروهُ إلا من تفريطِهِ في حقِّ ربِّه عز وجل.

قال عليٌّ ﷺ: لا يَرْجوَنَّ عبدٌ إلا ربَّهُ، ولا يخافنَّ إلا ذنبَهُ.

وقال بعضُهم: من صَفَى صُفِّي لهُ، ومن خلطَ خُلِّط عليه.

وقال مسروقٌ: من راقبَ اللَّهَ في خطراتِ قلبِهِ عصمَهُ اللَّهُ في حركاتِ جوارِحِهِ.

وبسطُ هذا المعنى يطولُ جدًّا، وفيمَا أشرْنَا إليه كفايةٌ، ولِلَّهِ الحمد[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾

ثم قال البخاري ـ رحمه اللَّه ـ: وَيَزِيدُ وينقصُ.

قال اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح:٤]، ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣]، ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم:٧٦]، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧]، ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر:٣١]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة:١٢٤]، وقوله: ﴿فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ [آل عمران:١٧٣]، وقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢].

زيادة الإيمان ونقصانه؛ قولُ جمهورِ العلماءِ.

وقد رُوِي هذا الكلامُ عن طائفةٍ من الصحابةِ، كأبي الدرداءِ، وأبي هريرةَ، وابنِ عباسٍ، وغيرِهم من الصحابةِ.

---

(١) رسالة: «نور الاقتباس» (ص٣٨ ـ ٤٠).

ورويَ معناه عن عليٍّ وابنِ مسعودٍ ـ أيضًا.

وعن مجاهدٍ وغيرِهِ من التابعينَ.

وتوقَّف بعضُهُم في نقصِهِ، فقالَ: يزيدُ، ولا يقالُ: ينقصُ. ورويَ ذلكَ عن مالكٍ، والمشهورُ عنه كقولِ الجماعةِ.

وعن ابنِ المباركِ، قالَ: الإيمانُ يتفاضلُ.

وهو معنى الزيادة والنقصِ.

وقد تلا البخاريُّ الآياتِ التي فيهـا ذكرُ زيادةِ الإيمانِ، وقد استدلَّ بِهَا علَى زيادةِ الإيمانِ أئمةُ السَّلفِ قديمًا، منهُم: عطاءُ بنُ أبي رباح فمن بعدَه.

وتلا البخاريُّ ـ أيضًا ـ الآياتِ التي ذكَرَ فيهَا زيادةَ الهُدَى؛ فإنَّ المرادَ بالهُدَى هنا فعلُ الطاعاتِ، كما قالَ تعالى بعد وصفِ المتقينَ بالإيمانِ بالغيبِ، وإقامِ الصلاةِ، والإنفاقِ مما رزقَهُم، وبالإيمانِ بما أُنزلَ إلى محمدٍ وإلى مَنْ قبلَهُ، وباليقينِ بالآخرةِ، ثم قالَ: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥].

فسمَّى ذلكَ كلَّه هدًى؛ فمن زادتْ طاعاتُهُ فقد زادَ هداهُ.

ولما كانَ الإيمانُ يدخلُ فيه المعرفةُ بالقلبِ، والقولُ والعملُ كلُّه؛ كانتْ زيادتُهُ بزيادةِ الأعمالِ، ونقصانُهُ بنقصانِهَا.

وقد صرَّح بذلك كثيرٌ من السلفِ، فقالُوا: يزيد بالطاعةِ، وينقصُ بالمعصية[1].

* * *

(١) «الفتح» (١/ ٦ ـ ٨).

قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾

فصل : في فضائل لا إله إلا اللَّه.

وكلمةُ التوحيدِ لها فضائلُ عظيمةٌ لا يمكنُ هاهنا استقصاؤُها، فلنذكر بعضَ ما وردَ فيها:

١ ـ فهيَ كلمةُ التقوى كما قالَ عمرُ رضي الله عنه وغيرُه من الصحابة.

٢ ـ وهي كلمةُ الإخلاصِ.

٣ ـ وشهادةُ الحقِّ.

٤ ـ ودعوةُ الحقِّ.

٥ ـ وبراءةٌ من الشركِ، ونجاةُ هذا الأمرِ.

٦ ـ ولأجلِهَا خُلِقَ الخلقُ. كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

٧ ـ ولأجلِهَا أُرسلتِ الرُّسلُ وأنزلتِ الكتبُ، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقالَ تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل:٢]. ونحو هذه الآيات.

وهذه الآيةُ أولُ ما عددَ اللَّهُ من النعمِ في سورةِ النحلِ التي تُسمَّى سورةُ النعمِ. ولهذا قال ابنُ عيينةَ: ما أنعمَ اللَّهُ على عبدٍ من العبادِ نعمةً أعظمُ من أن عرَّفهم «لا إلهَ إلا اللَّهُ».

وأن «لا إلهَ إلا اللَّه» لأهلِ الجنةِ كالماءِ الباردِ لأهلِ الدنيا.

٨ ـ ولأجلِهَا أُعدَّتْ دارُ الثوابِ ودارُ العقابِ.

٩ ـ ولأجلِهَا أُمِرتِ الرسلُ بالجهادِ، فمنْ قالَها عصمَ مالَه ودمَه، ومن أباها فمالُه ودمُه هدرٌ.

١٠ـ وهي مفتاحُ الجنةِ.

١١ـ ومفتاحُ دعوةِ الرسلِ.

١٢ـ وبها كلّمَ اللَّهُ موسى كِفاحًا.

وفي «مسندِ البزار»(١) وغيرِه عن عياضِ الأنصاريِّ عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ لا إلهَ إلا اللَّهُ كلمةُ حقٍّ على اللَّهِ كريمةٌ، ولها من اللَّهِ مكانٌ، وهي كلمةٌ من قالَها صادقًا أدخلَهُ اللَّهُ بها الجنةَ، ومن قالَها كاذبًا حقنتْ دمَهُ، وأحرزتْ مالَه، ولقِي اللَّهَ غدًا فحاسَبَهُ**».

وهي مِفتاحُ الجنةِ كما تقدم.

١٣ـ وهي: ثمنُ الجنةِ(٢):

قاله الحسنُ، وجاءَ مرفوعًا من وجوهٍ ضعيفةٍ: «**ومن كانتْ آخرَ كلامِه دخلَ الجنةَ**»(٣).

١٤ـ وهي: نجاةٌ من النارِ:

وسمعَ النبيُّ ﷺ مؤذنًا يقولُ: أشهد أن لا إلهَ إلا اللَّهُ، فقالَ: «**خرجَ من النارِ**». خرَّجه مسلم(٤).

---

(١) أخرجه: البزار (٤ ـ كشف الأستار).

(٢) حديث «ثمن الجنة لا إله إلا اللَّه». أخرجه: ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٣٤٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٣٣، ٢٤٧)، وأبو داود (٣١٦٦)، والحاكم (١/ ٣٥١، ٥٠٠).

(٤) أخرجه: مسلم (٢/ ٣ ـ ٤).

١٥- وهي: توجبُ المغفرةَ:

في «المسندِ»[١] عن شدَّادِ بن أوسٍ وعبادةَ بنِ الصامتِ: أن النبيَّ ﷺ قال لأصحابِهِ يومًا: **«ارفعُوا أيديكم وقولُوا: لا إلهَ إلا اللَّهُ»**. فرفعْنا أيدينا ساعةً، ثم وضعَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يدَهُ، ثم قالَ: **«الحمدُ للَّهِ، اللهُمَّ بعَثْتَني بهذهِ الكلمةِ، وأمرْتَني بها، ووعدتنِي بها الجنةَ، وإنَّك لا تخلفُ الميعادَ»**، ثم قالَ: **«أبشِرُوا فإنَّ اللَّهَ قدْ غفَرَ لكُم»**.

١٦- وهي: أحسنُ الحسناتِ:

قال أبو ذرٍّ: قلتُ يا رسولَ اللَّهِ! كلِّمْني بعملٍ يقرِّبُني من الجنةِ، ويباعدُني من النارِ، قالَ: **«إذا عملتَ سيئةً فاعملْ حسنةً، فإنها عشرُ أمثالِها»**. قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، «لا إله إلا اللَّه» من الحسناتِ؟ قالَ: **«هيَ أحسنُ الحسناتِ»**[٢].

١٧- وهي: تمحو الذنوبَ والخطايا:

وفي «سننِ ابنِ ماجه»[٣] عن أُمِّ هانئٍ عن النبيِّ ﷺ قال: **«لا إلهَ إلا اللَّهُ لا تتركُ ذنبًا، ولا يسبقُها عملٌ»**.

رُئِي بعضُ السلفِ بعدَ موتِهِ في المنامِ فسُئِلَ عن حالِهِ، فقالَ: ما أبقتْ لا إلهَ إلا اللَّهُ شيئًا.

١٨- وهي: تجدد ما درسَ من الإيمانِ في القلبِ:

وفي «المسند»[٤] أن النبيَّ ﷺ قالَ لأصحابِهِ: **«جدّدوا إيمانَكم»**. قالوا: كيفَ

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٤)، والحاكم (١/ ٥٠١).
(٢) أخرجه: أحمد في «مسنده» (٥/ ١٦٩).
(٣) أخرجه: ابن ماجه (٣٧٩٧).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٩)، والحاكم (٤/ ٢٥٦).

نجدِّدُ إيمانَنَا؟ قال: «قولُوا: لا إله إلا اللَّه، وهي لا يعـدلُها شيءٌ في الوزنِ، فلو وُزنتْ بالسماواتِ والأرضِ رجحْت بهنَّ».

كما في «المسندِ»[1] عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو عن النبيِّ ﷺ: «أنَّ نوحًا قالَ لابنهِ عندَ موته: آمرُكَ بلا إلـهَ إلا اللَّهُ، فإنَّ السماواتِ السبعَ والأرضينَ السـبعَ لو وُضعتْ في كِـفَّةٍ ووضِـعَتْ لا إلهَ إلا اللَّهُ في كفـةٍ، رجحـتْ بهنَّ لا إلهَ إلا اللَّهُ، ولو أن السمـاوات السبعَ والأرضينَ السبعَ كنَّ في حلْقةٍ مبهمةٍ قصَمتهُنَّ لا إلهَ إلا اللَّه».

وفيه أيضًا[2] عن عـبدِ اللَّهِ بن عـمـرٍو عن النبيِّ ﷺ: «أنَّ مـوسى ـ عليه السلامُ ـ قالَ: يا ربِّ علِّمني شيئًا أذكـرُك وأدعوكَ به، قال: يا موسى قلْ: لا إله إلا اللَّه، قـالَ: يا ربِّ! كلُّ عـبادكَ يقـولون هذا. قـال: قل: لا إله إلا اللَّه، قـال: لا إله إلا أنت يا ربِّ، إنما أُريد شيئًا تخصُّني به، قال: يا مُوسى، لو أنَّ السـماوات السبعَ وعامرَهنَّ غيري والأرضينَ السبعَ في كفةٍ، ولا إلهَ إلا اللَّهُ في كفةٍ، مالتْ بهنَّ لا إله إلا اللَّه».

وكذلك ترجحُ بصحـائفِ الذنوبِ، كما في حديثِ السـجلاتِ والبطاقةِ، وقد خرَّجهُ أحمدُ والنسائيُّ والترمذيُّ أيضًا من حديثِ عبدِ اللَّهِ بن عمرٍو عن النبيِّ ﷺ[3].

١٩ـ وهي: التي تخرقُ الحجبَ حتَّى تصلَ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

وفي الترمذيِّ[4] عن عبدِ اللَّهِ بن عـمرٍو عن النبيِّ ﷺ قال: «لا إله إلا اللَّهُ

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٠، ٢٢٥).

(٢) أخرجه: النسـائي في «اليوم والليلة» (٨٤٠)، والحاكم (١/ ٢٥٨)، وعـزو الحديث إلى «المسند» خطأ، وهو من حديث أبي سعيد وليس من حديث عبد اللَّه بن عمرو.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمـذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، والحديث لم أجده عند النسائي، ولم يعزه المزي في «تحفة الأشراف» للنسائي.

(٤) أخرجه: الترمذي (٣٥١٨).

ليسَ لها دونَ اللَّهِ حجابٌ حتى تصلَ إليه».

وفيه أيضًا[١] عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ: **«ما قالَ عبدٌ: لا إله إلا اللَّه مخلصًا إلا فُتحتْ له أبوابُ السماءِ حتى تُفضِي إلى العرشِ ما اجتُنِبَت الكبائرُ».**

ويروى عن ابنِ عباسٍ مرفوعًا: **«ما منْ شيءٍ إلا بينه وبينَ اللَّهِ حجابٌ، إلا قولَ: لا إلهَ إلا اللَّه كما أنَّ شَفَتَيْكَ لا تحجبُهما كذلكَ لا يحجبُها شيءٌ حتى تنتهي إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ».**

وقال أبو أمامةَ: ما مِنْ عبدٍ يهلِّلُ تهليلةً فينهنهها شيءٌ دونَ العرشِ.

٢٠- وهي الَّتي ينظرُ اللَّهُ إلى قائلِها، ويجيبُ دعاه:

خرَّجَ النسائيُّ في كتابِ «اليومِ والليلة»[٢] من حديثِ رجلينِ من الصحابة عن النبيِّ ﷺ: **«منْ قالَ: لا إلهَ إلا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، مخلصًا بها روحُه مصدِّقًا بها لسانُه، إلا فَتَقَ له السماءَ فتقًا، حتَّى ينظرَ إلى قائلِها مِنْ أهلِ الأرضِ، وحُقَّ لعبدٍ نظرَ إليه أن يعطيَهُ سؤلَهُ».**

٢١- وهي: الكلمةُ الَّتي يصدِّقُ اللَّهُ قائلَهَا:

كما أخرجَ النسائيُّ والترمذيُّ وابنُ حبان[٣] من حديثِ أبي هريرةَ وأبي سعيد عن النبيِّ ﷺ قال: **«إذا قالَ العبدُ: لا إلهَ إلا اللَّهُ واللَّهُ أكبرُ، صدَّقَهُ ربُّه، وقالَ: لا إلهَ إلا أنا وأنا أكبرُ. وإذا قالَ: لا إلَه إلا اللَّهُ وحدَهُ، لا شريكَ لهُ، يقولُ اللَّهُ: لا إلهَ إلا أنا وحدي لا شريكَ لي. وإذا قالَ: لا إلهَ إلا اللَّهُ وحدَه، لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، قال اللَّهُ: لا إلهَ إلا أنا، لي الملكُ، ولي الحمدُ. وإذا قالَ: لا إلهَ إلا اللَّهُ، ولا حولَ**

(١) «جامع الترمذي» (٣٥٩٠).

(٢) «اليوم والليلة» (٢٨).

(٣) النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٣١)، والترمذي (٣٤٣٠)، وابن حبان (٨٥١).

ولا قوةَ إلا باللَّهِ، قالَ اللَّهُ: لا إلهَ إلا أنا، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بي». وكان يقولُ: «**من قالها في مرضِهِ ثم ماتَ لم تَطْعمهُ النارُ**».

٢٢ـ وهي: أفضلُ ما قاله النبيونَ:

كما وردَ ذلكَ في دعاءِ يومِ عرفة[١].

٢٣ـ وهي: أفضلُ الذِّكْرِ:

كما في حديثِ جابرٍ المرفوعِ: «**أفضلُ الذكرِ لا إلهَ إلا اللَّهُ**»[٢].

وعن ابنِ عباسٍ: أحبُّ كلمةٍ إلى اللَّهِ لا إلهَ إلا اللَّه، لا يقبلُ اللَّهُ عملاً إلا بِها.

٢٤ـ وهي: أفضلُ الأعمالِ وأكثرُها تضعيفًا، وتعدلُ عتقَ الرقابِ، وتكونُ حِرزًا من الشيطانِ:

وكما في «الصحيحينِ»[٣] عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «**من قالَ: لا إله إلا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، لهُ الملكُ وله الحمدُ وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، في يومٍ مائةَ مرةٍ كانتْ له عدلَ عشرِ رقابٍ، وكُتبَ له مائةُ حسنةٍ، ومُحيَ عنه مائةُ سيئةٍ، ولم يأتِ أحدٌ بأفضلَ مما جاءَ بهِ، إلا أحدٌ عملَ أكثرَ من ذلكَ**».

وفيهما أيضًا[٤] عن أبي أيوبٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**من قالَها عشرَ مراتٍ كانَ كمنْ أعتقَ أربعَ أنفسٍ من ولَدِ إسماعيلَ**».

---

(١) أخرجه: مالك في «موطئه» مرسلاً (٤٤٢)، وأخرجه: البغوي (٧/ ١٥٧).
(٢) أخرجه: الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٣٧).
(٣) أخرجه: البخاري (٤/ ١٥٣)، ومسلم (٨/ ٦٩).
(٤) أخرجه: البخاري (٨/ ١٠٧)، ومسلم (٨/ ٦٩).

وفي الترمذي[1] عن ابنِ عمرَ مرفوعًا: «منْ قالها إذا دخل السـوقَ، وزادَ فيها: يُحيي ويميتُ وهوَ حيٌّ لا يموتُ بيدِه الخيرُ وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، كتبَ اللَّهُ له ألفَ ألفَ حسنةٍ، ومحا اللَّهُ عنه ألفَ ألفَ سيئةٍ، ورفعَ اللَّهُ له ألفَ ألفَ درجةٍ»، وفي روايةٍ: «ويُبْنى له بيتٌ في الجنةِ».

٢٥ـ ومن فضائِلها: أنها أمانٌ من وحشةِ القبرِ وهولِ الحشرِ:

كما في «المسندِ»[2] وغيرِه عن النبيِّ ﷺ قالَ: «ليسَ على أهـلِ لا إلهَ إلا اللَّهُ وحشةٌ في قبورهم ولا في نشورهم، وكأنِّي بأهلِ لا إلهَ إلا اللَّهُ قد قامُوا ينفضونَ الترابَ عن رؤوسِهم، ويقولونَ: الحَمْدُ للَّه الَّذي أذهبَ عنَّا الحزنُ».

وفي حديثٍ مرسلٍ: «من قـالَ: لا إلهَ إلا اللَّهُ الملكُ الحقُّ المبينُ، كلَّ يومٍ مائـةَ مرةٍ كانتْ له أمـانًا من الفقرِ، وأنسًا من وحـشةِ القبرِ، واسـتجلبتْ له الغنى، واسـتقرعتْ له بابَ الجنَّةِ»[3].

٢٦ـ وهيَ: شعارُ المؤمنينَ إذا قامُوا من قبورِهم:

قال النضرُ بنُ عربي: بلغَنِي أنَّ الناسَ إذا قامُوا من قبورِهم كانَ شعارُهم: لا إلَه إلا اللَّهُ.

وقد خرج الطبرانيُّ[4] حديثًا مرفوعًا: «إنَّ شعارَ هذه الأُمـةِ على الصراطِ: لا إلهَ إلا أنتَ».

---

(١) أخرجه: الترمذي (٣٤٢٩)، وابن ماجه (٢٢٣٥).

(٢) الحديث ليس في «مسند أحمد»، ولكن رواه ابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٥٨٢)، والطبراني في «الأوسط» (٩٤٧٨)، والبيهقي في «الشعب» (١/ ٩٩).

(٣) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٨٠).

(٤) «المعجم الأوسط» (١٦٠).

٢٧ـ ومن فضائلها: أنَّها تفتحُ لقــائلِها أبوابَ الجنةِ الثمانيةَ، يدخلُ من أيِّها شاءَ:

كما في حــديثِ عمرَ عن النبيِّ ﷺ فيمَنْ أتَى بالشــهادتينِ بعد الوضوءِ، وقدْ خرَّجهُ مسلمٌ[١] .

وفي «الصحيحينِ»[٢] عن عبادةَ بن الصامتِ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**من قالَ: أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ له، وأنَّ محــمدًا عبدُه ورسولُه، وأنَّ عيسى عبدُ اللَّهِ ورسولِه وكلمــتُه ألقَاها إلى مريمَ وروحٌ منه، وأنَّ الجنةَ حقٌّ، والنارَ حقٌّ، أدخلَهُ اللَّهُ من أيِّ أبوابِ الجنَّةِ الثمانيةِ شاء**».

وفي حديثِ عبد الرحمنِ بنِ سمرةَ عن النَّبيِّ ﷺ في قصةِ منامِه الطويل، وفيه قالَ: «**ورأيتُ رجــلاً من أُمَّــتِي انتــهى إلى أبوابِ الجنة، فــأُغلقت الأبوابُ دونَه، فجاءتْه شهادةُ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ، فتحتْ له الأبوابَ، وأدخلتْهُ الجنةَ**»[٣] .

٢٨ـ ومن فضائلها أنَّ أهلَها وإنْ دخلُوا النارَ وبتقصيرِهم في حقوقِها فإنهم لابد أن يخرجُوا منها.

وفي «الصحيحينِ»[٤] عن أنــسٍ عن النــبيِّ ﷺ قالَ: «**يقــولُ اللَّهُ عــز وجلَّ: وعِزَّتي وجلالِي وكبريائِي وعظمتِي لأُخرجنَّ منها منْ قالَ: لا إله إلا اللَّهُ**».

وأخرجَ الطبراني[٥]عن أنس عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إنَّ ناسًا منْ أهلِ لا إلهَ إلا اللَّهُ**

---

(١) أخرجه: مسلم (١/ ١٤٤).

(٢) أخرجه: البخاري (٤/ ٢٠١)، ومسلم (١/ ٤٢).

(٣) أخرجه: الطبراني في الأحاديث الطوال (٣٩)، كما قال محقق رسالة «كلمة الإخلاص».

(٤) أخرجه: البخاري (٩/ ١٧٩ ـ ١٨٠).

(٥) أخرجه: الهـيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٧٩)، وقال: رواه الطبـراني في «الأوسط»، وفيه من لم أعرفهم.

يدخلونَ النارَ بذنوبهم، فيقولُ لهم عبدةُ اللات والعزَّى: ما أغْنى عنكُم قولُ: لا إله إلا اللَّه، فيغضبُ اللَّهُ لهم فيخرِجُهُم من النارِ، فيدخلونَ الجنةَ».

ومن كان في سخطه يُحسنُ فكيفَ يكونُ إذا ما رضي؟

لا يسوي بين من وحَّده وإن قصَّر في حقوقِ توحيدِه، وبينَ من أشركَ به.

قال بعضُ السلفِ: كان إبراهيمُ ـ عليه السلامُ ـ يقولُ: اللهمَّ لا تشركْ من كان يشركُ بكَ شيئًا بمن كانَ لا يشركُ بكَ.

كان بعضُ السلفِ يقولُ في دعائه: اللهمَّ إنَّك قلتَ عن أهلِ النارِ: إنَّهم أقسمُوا باللَّهِ جهدَ أَيمانِهم لا يبعثُ اللَّه من يموتُ، ونحنُ نقسمُ باللهِ جَهدَ أيمانِنا ليبعثنَّ اللَّهُ من يموتُ، اللهمَّ لا تجمع بينَ أهلِ القَسَمَيْنِ في دارٍ واحدةٍ.

كان أبو سليمانَ يقولُ: إن طالَبني ببخلِي طالبتُه بجودِه، وإن طالَبني بذنوبي طالبتُه بعفوِه، وإن أدخلَني النارَ أخبرتُ أهلَ النارِ أنِّي أُحبُّه.

ما أطيبَ وصلَه وما أعذبَه! وما أثقلَ هجرَه وما أصعبَه!
وفي السخطِ والرِّضى ما أهيبَه! القلبُ يحبُّ وإنْ عذَّبَه

وكان بعضُ العارفينَ يبْكي طولَ ليلهِ ويقولُ: إن تعذِّبْني فإنِّي لك محبٌّ، وإنْ ترحمْني فإنِّي لك محبٌّ.

العارفونَ يخافونَ من الحجابِ أكثرَ مما يخافونَ من العذابِ.

قال ذو النونِ: خوفُ النارِ عند خوفِ الفراقِ كقطرةٍ في بحرٍ لُجي.

كان بعضُهم يقولُ: إلهِي وسيدِي ومولاي! لو أنَّك عذبْتنِي بعذابِكَ كلِّه، كانَ ما فاتَني من قربِكَ أعظمُ عنْدي من العذابِ.

قيلَ لبعضِهم: لو طردكَ ما كنتَ تفعلُ؟

قالَ:

إِذَا أنا لم أجْـد من الحبِّ وصْـلاً رمتُ في النـارِ مُنْزلاً ومـقِـيـلا

ثم أزعـجتُ أهلَـهَـا بنـدَائِي بكرةً في عـرصَاتِـهـا وأصِـيـلا

مـعشـرَ المشـركينَ ناحُـوا على منْ يـدَّعِي أنَّـه يـحبُّ الجلـيـلا

لم يـكنْ في الـذي ادَّعـاه محقًّا فـجـزاهُ به العـذابَ الـطَّوِيلا!

إخوانِي!

اجتهدُوا الـيومَ في تحقيقِ التوحيـدِ، فإنَّه لا يُنجي من عذابِ اللَّهِ إلا إيَّاه، وما نطقَ الناطقونَ إذْ نطقُوا أحسنَ من: لا إلهَ إلا اللَّه.

مـا نطـقَ الناطقـونَ إذْ نـطقُـوا أحـسـنَ مـن لا إلهَ إلا هُـو

تبـاركَ اللَّهُ ذو الجـلالِ ومنْ أشـهـدُ أن لا إلهَ إلا هُـو

مَن لذنـوبِي ومنْ يمحّـصُـهـا غـيـرُك يَا منْ لا إلـهَ إلا هُو

جـنان خـلـدٍ لمـنْ يوحِّـدُه أشـهـدُ أن لا إلهَ إلا هُـو

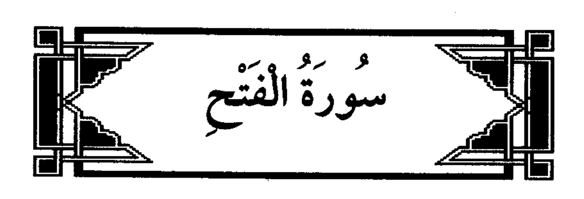
نـيـرانُه لا تحـرقُ مـنْ يشـهـدُ أن لا إلـهَ إلا هُو

أقـولُهـا مـخلِصًـا بِـلا بُخلٍ أشـهـدُ أن لا إلهَ إلا هُـو

والحمد للَّه رب العالمين[1]

* * *

(١) «كلمة الإخلاص» (٥٦ ـ ٨١).



سُورَةُ الْفَتْحِ

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاستَوىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾

إن الزرعَ وإنْ كانَ له طاقةٌ منه ضعيفةٌ ضـئيلةٌ إلا أنه يتقوَّى بما يخرجُ معه وحولَهُ ويعتضدُ به، بخلافِ الشجرةِ العظامِ فإنَّ بعضَها لا يشدُّ بعضًا.

وقد ضربَ اللَّهُ تعـالى مثلَ النبيِّ ﷺ وأصحابِهِ بالزرعِ لـهذا المعنى قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ [الفتح:٢٩].

قوله: ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي: فِراخَهُ.

﴿فَآزَرَهُ﴾ أي: ساواه وصارَ مثلَ الأمِّ وقوي به.

﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أي: غَلُظَ.

فالزرعُ مثلُ النبيِّ ﷺ إذ خرجَ وحدهُ فأمدَّه بأصـحابِهِ وهُم شطأُ الزرعِ كما قَوَّى الطاقةَ من الزرعِ بما نَبَتَ منها حتَّى غلظتْ واستحكمتْ.

﴿فَاسْتَوىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾: جمعُ ساقٍ.

وفي الإنجيلِ: «سَيَخْرُجُ قومٌ يَنْبُتُونَ نَباتَ الزَّرعِ».

وقد قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١].

وقال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٦٧].

فالمؤمنونَ بينَهُم ولايةٌ وهي مودةٌ ومحبةٌ باطنةٌ.

ثم قالَ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

لأن المؤمنينَ قلوبُهم على قلبِ رجلٍ واحدٍ فيما يعتقدونَهُ من الإيمانِ وأما المنافقونَ فقلوبُهم مختلفةٌ.

كما قالَ: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

فأهواؤُهُم مختلفةٌ.. إلخ. ولا ولايةَ بينَهُم في الباطنِ وإنما بعضُهم من جنس بعض في الكفر والنفاقِ.

وفي «الصحيحينِ» عن النبيِّ ﷺ: «المؤمنُ للمُؤْمنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بعضُهُ بعضًا» وشبَّكَ بينَ أصابعهِ[1].

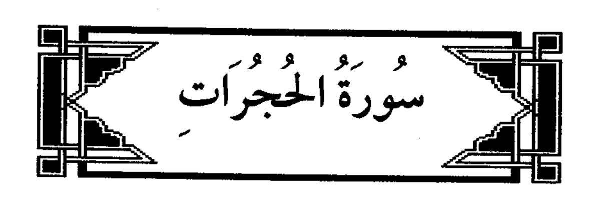
وفيهما أيضًا عن النبيِّ ﷺ: «مثل المُؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمهمْ وتعاطُفهِم كمثَلِ الجسَدِ الواحِدِ، إذَا اشتكَى منهُ عضوٌ تداعَى سائرُهُ بالحُمَّى والسَّهَرِ»[2] [3].

* * *

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٢٩)، (٣/ ١٦٩)، (٨/ ١٤)، ومسلم (٨/ ٢٠) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ١١)، ومسلم (٨/ ٢٠) من حديث النعمان بن بشير.

(٣) «غاية النفع في شرح حديث: تمثيل المؤمن بخامة الزرع» (ص ٣٢ ـ ٣٤).



سُورَةُ الحُجُرَاتِ

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وقال الحسنُ في قولِه تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات:١] قالَ: لا تذبَحُوا قبلَ الإمامِ. خرّجه ابنُ أبي حاتمٍ[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾

فإن علامةَ محبَّةِ اللَّهِ ورسولِه محبةُ ما يحبُّهُ اللَّهُ ورسولُه، وكراهةُ ما يكرهُه اللَّهُ ورسولُه ـ كما سبقَ ـ، فإذا رسخَ الإيمانُ في القلبِ وتحققَ بِهِ، ووجدَ حلاوتَهُ وطعمَه، أحبَّه وأحبَّ ثباتَهُ ودوامَهُ، والزيادةَ منه، وكره مفارقتَه، وكانَ كراهتُه لمفارقتِه أعظمَ عندَه من كراهةِ الإلقاءِ في النارِ.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧].

والمؤمنُ يحبُّ الإيمانَ أشدَّ من حبِّ الماءِ البارِدِ في شدَّةِ الحرِّ للظمآنِ،

(١) «رسالة: في رؤية الهلال» (ص ٣٠، ٣١).

ويكره الخروجَ منه أشدَّ من كراهةِ التحريقِ بالنيرانِ.

كما في «المسندِ»[١] عن أبي رزينٍ العقيلي، أنه سألَ النبيَّ ﷺ عن الإيمانِ، فقالَ: «أنْ تشهدَ أنْ لا إله إلا اللَّهُ، وحدَه لا شريكَ لَهُ، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، وأنْ يكونَ اللَّهُ ورسولُه أحبَّ إليكَ مما سواهُمـا، وأن تحرَّق في النَّارِ أحبُّ إليكَ من أنْ تشركَ باللَّهِ، وأن تحبَّ غيرَ ذي نسبٍ لا تحبه إلا للَّه، فإذَا كنتَ كذلكَ فقد دخلَ حبُّ الإيمانِ في قلبك، كما دخلَ حبُّ الماءِ للظمآنِ في اليوم القائظ».

وفي «المسندِ»[٢] ـ أيضًا ـ: أن النبيَّ ﷺ وصَّى معاذَ بن جبل، فقال له ـ فيما وصاه به ـ: «لا تشركْ باللَّهِ شيئًا، وإن قُطِّعْتَ وحُرِّقت»[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾

وقوله ﷺ: «المسلمُ أخو المسلمِ، لا يظلمُه ولا يَخذُلُه، ولا يكذبُه، ولا يَحقرُه»[٤]. هذا مأخوذٌ من قـولِه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠]، فـإذا كانَ المـؤمنونَ إخوةً أُمـروا فـيـمَا بينَـهُم بما يُوجبُ تآلُفَ القلوبِ واجتمـاعَها، ونُهوا عـمَّا يوجبُ تنافرَ القلوبِ واختـلافَها، وهذا من ذاكَ.

وأيضًا: فإنَّ الأخَ مِنْ شأنِه أن يوصِلَ إلى أخـيه النَّفعَ، ويكفَّ عنه الضَّررَ، ومن أعظمِ الضرِّ الـذي يجبُ كَفُّه عَنِ الأخِ المسلم الظُّـلم، وهذا لا يختصُّ

---

(١) «المسند» (٤/ ١١ ـ ١٢).

(٢) «المسند» (٥/ ٢٣٨).

(٣) «فتح الباري» (١/ ٥١، ٥٢).

(٤) جزء من حديث أخرجه: مسلم (٨/ ١٠/ ١١).

بالمسلمِ، بل هـو محـرمٌ في حـقِّ كلِّ أحدٍ، وقـد سـبق الكـلامُ على الظُّلْمِ مسـتوفيًا عند ذكـرِ حديث أبي ذرٍّ الإلهي: «يا عبـادي، إنِّي حـرَّمتُ الظُّلم على نفسِي، وجعلتُه بينكُم مُحرَّمًا فلا تَظَالَمُوا»[1] .

ومِنْ ذلكَ: خِذْلانُ المسلمِ لأخيه، فإنَّ المؤمنَ مأمورٌ أن يَنْصُـرَ أخاهُ، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «انصرْ أخاكَ ظالمًا أو مظلومًا»، قيلَ: يا رسولَ اللَّه، أنصرُهُ مظلومًا، فكيفَ أنصرُهُ ظالمًا؟ قالَ: «تمنعُه عَنِ الظُّلمِ، فذلكَ نَصْرُك إيَّاهُ». خرجهُ البخاريُّ[2] بمعناهُ من حديثِ أنسٍ. وخرَّجهُ مسلمٌ[3] بمعناه من حديثِ جابرٍ.

وخرَّج أبو داود[4] من حديثِ أبي طلحـةَ الأنصاريِّ وجابرِ بنِ عـبدِ اللَّه، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «ما مِنْ امـرئٍ مسلمٍ يَخذُلُ امْرءًا مُـسلمًا في موضعٍ تُنتهـكُ فيه حُرمتُه، ويُنتقصُ فيه من عِرضـه إلا خذلهُ اللَّهُ في موطنٍ يُحبُّ فيه نُصرتهُ، وما من امرئٍ ينصرُ مُسلمًا في موضعٍ يُنتقصُ فيه من عِـرضِه، ويُنتهكُ فيه من حُرمتهِ إلا نصرَه اللَّه في موطنٍ يُحبُّ فيه نُصرتَهُ».

وخرَّج الإمامُ أحمدُ[5] من حديثِ أبي أمامـةَ بنِ سهلٍ، عن أبيه عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ أُذلَّ عندهُ مـؤمنٌ فلم ينصُـرْه وهو يَقْـدِرُ على أنْ ينصُـره أذلَّهُ اللَّهُ على رءوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ».

وخرَّج البزارُ[6] من حديثِ عمرانَ بنِ حُصينٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ نصرَ

---

(١) جزء من حديث أخرجه: مسلم (٨/ ١٦ ـ ١٧).

(٢) أخرجه: البخاري (٥/ ٩٨).

(٣) أخرجه: مسلم (٨/ ١٩).

(٤) «السنن» (٤٨٨٤).

(٥) «المسند» (٣/ ٤٨٧).

(٦) «كشف الأستار» (٣٣١٥، ٣٣١٧).

أخاهُ بالغَيبِ وهو يستطيعُ نصرَه نصرهُ اللَّهُ في الدُّنيا والآخرةِ».

ومن ذلكَ: كذبُ المسلمِ لأخيه، فلا يُحلُّ له أن يُحدِّثه فيكذبهُ، بل لا يُحدِّثه إلا صدقًا. وفي «مسندِ الإمام أحمدَ»(١) عن النَّوَّاس بنِ سَمعانَ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «كَبُرَت خيانةً أنْ تُحدِّثَ أخاكَ حديثًا هو لك مُصدِّقٌ وأنتَ به كاذبٌ».

ومن ذلكَ: احتقارُ المسلمِ لأخيهِ المسلمِ، وهو ناشئٌ عن الكِبْرِ، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ النَّاسِ». خرَّجه مسلمٌ من حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، وخرَّجهُ الإمامُ أحمدُ، وفي روايةٍ لهُ: «الكِبْرُ سَفَهُ الحَقِّ، وازدراءُ الناسِ»، وفي روايةٍ: «وغمصُ الناسِ»، وفي روايةٍ زيادةٌ: «فلا يَراهم شيئًا»(٢).

وغمصُ النَّاسِ: الطَّعْنُ عليهم وازدراؤهُم، وقالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات:١١]، فالمتكبرُ ينظرُ إلى نفسهِ بعينِ الكمالِ، وإلى غيرِهِ بعينِ النَّقصِ، فيحتقرُهُم ويزدريهم، ولا يراهمُ أهلاً لأنْ يقومَ بحقوقِهم، ولا أن يقبلَ مِنْ أحدٍ منهمُ الحقَّ إذا أوردَهُ عليهِ(٣).

* * *

قوله تعالى : ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾

[قَال البخاريُّ]: بَابٌ إذا لم يكُنِ الإسلامُ علَى الحقيقةِ وكان على

(١) «المسند» (٤/ ١٨٣).

(٢) مسلم (١/ ٦٥)، وأحمد (١/ ٣٨٥ ـ ٣٩٩ ـ ٤٢٧)، والترمذي (١٩٩٩).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٩٠ ـ ٢٩٤).

الاستسلامِ أوِ الخوْفِ مِنَ القَتْلِ:

لقولِـهِ عـزَّ وجـلَّ: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤].

فَإِذَا كـانَ على الحقيـقةِ فهُـوَ علَى قولِهِ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[آل عمران:١٩]، وَقولِهِ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

معنى هذا الكلامِ: أن الإسلامَ يُطلقُ باعتبارينِ.

أحدُهما: باعتبـارِ الإسلامِ الحقيقيِّ، وهو دينُ الإسلامِ الذي قـالَ اللَّهُ فيهِ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

والثاني: باعتبـارِ الاستسلامِ ظاهراً، مع عدمِ إسلامِ البـاطنِ إذا وقَع خوفًا، كإسلامِ المنافقينَ.

واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤].

وحملَهُ على الاستسلامِ خوفًا وتقيةً.

وهذا مرويٌّ عن طائفـةٍ من السلفِ، منهم: مجاهدٌ وابنُ زيدٍ ومـقاتلُ بنُ حيانَ وغيرُهم.

وكذلك رجَّحه محمدُ بنُ نصرٍ المروزيُّ، كـما رجَّحه البخاريُّ؛ لأنهما لا يفرقانِ بينَ الإسلامِ والإيمانِ، فإذا انتفى أحدُهما انتفَى الآخرُ.

وهو اختيارُ ابنِ عبدِ البـرِّ، وحكاهُ عن أكثرِ أهلِ السنةِ من أصحابِ مالكٍ

والشافعيِّ وداودَ.

وأما من يفـرقُ بين الإسلامِ والإيمانِ، فإنه يـستدلُّ بهـذه الآيةِ على الفرقِ بينهُما، ويقول: نفيُ الإيمانِ عنهـم لا يلزمُ منه نفيُ الإسلامِ، كما نَفَى الإيمانَ عن الزاني والسارقِ والشاربِ، وإن كان الإسلامُ عنهم غيرَ منفيٍّ.

وقد وردَ هذا المعنى في الآيةِ عن ابنِ عباسٍ وقتادَة والنخَعيِّ.

ورُوي عن ابنِ زيدٍ ـ معناه ـ أيضًا.

وهو قولُ الزهريِّ وحمادِ بنِ زيدٍ وأحمدَ.

ورجَّحه ابنُ جريرٍ وغيرُه.

واستدلُّوا به على التفريقِ بينَ الإسلامِ والإيمانِ.

وكذا قال قتادةُ في هذه الآيةِ، قال: ﴿**قُولُوا أَسْلَمْنَا**﴾: شهادةَ أن لا إله إلا اللَّهُ، وهو دينُ اللَّهِ، والإسلامُ درجـةٌ، والإيمانُ تحقيقٌ في القلبِ. والهـجرةُ في الإيمانِ درجةٌ، والجهادُ في الهجرةِ درجةٌ، والقتلُ في سبيل اللَّه درجةٌ.

خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ.

فجعل قتادة الإسـلام الكلمة، وهي أصلُ الدينِ، والإيمان ما قام بالقلوبِ من تحقـيقِ التصديقِ بالغـيبِ، فهؤلاء القـومُ لم يحقِّقُـوا الإيمانَ في قلوبِهم، وإنما دخلَ في قلوبِهم تصديقٌ ضعيفٌ، بحيثُ صحَّ به إسلامُهم.

ويدلُّ عليه: قولُه تعالى: ﴿**وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا**﴾ [الحجرات: ١٤].

واختلفَ مَنْ فرَّق بين الإسلامِ والإيمانِ، في حقيقة الفرقِ بينهما:

فقالت طائفةٌ: الإسلامُ كلمةُ الشهادتينِ، والإيمانُ العملُ.

وهذا مرويٌّ عن الزهريِّ وابنِ أبي ذئبٍ، وهوَ روايةٌ عن أحمدَ، وهي المذهبُ عند القاضي أبي يعلَى وغيرِه من أصحابِه.

ويشبه هذا: قولَ ابنِ زيدٍ في تفسير هذه الآية، قال: لم يصدِّقُوا إيمانَهم بأعمالهم، فردَّ اللَّه عليهم، وقال: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤]، فقال: الإسلامُ إقرارٌ والإيمانُ تصديقٌ.

وهو قولُ أبي خيثمةَ وغيرِه من أهلِ الحديثِ.

وقد ضعَّفَ ابنُ حامدٍ من أصحابِنا هذا القولَ عن أحمدَ، وقال: الصحيحُ أن مذهَبَه أن الإسلامَ قولٌ وعملٌ، روايةً واحدةً، ولكن لا تدخلُ كلُّ الأعمالِ في الإسلامِ كما تدخلُ في الإيمانِ.

وذكر: أنَّ المنصوصَ عن أحمدَ، أنه لا يكفرُ تاركُ الصلاةِ، فالصلاةُ من خصالِ الإيمانِ دونَ الإسلامِ، وكذلك اجتنابُ الكبائرِ من شرائطِ الإيمانِ دونَ الإسلامِ.

كذا قالَ، وأكثرُ أصحابنا: أن ظاهرَ مذهبِ أحمدَ تكفيرُ تاركِ الصلاةِ، فلو لم تكنِ الصلاةُ من الإسلامِ، لم يكنْ تاركُها عندَه كافرًا.

والنصوصُ الدالةُ على أن الأعمالَ داخلةٌ في الإسلامِ كثيرة جدًّا.

وقد ذهَب طائفةٌ إلى أن الإسلامَ عامٌّ، والإيمانَ خاصٌّ، فمنِ ارتكبَ الكبائرَ خرجَ من دائرةِ الإيمانِ الخاصةِ إلى دائرةِ الإسلامِ العامَّةِ.

هذا مرويٌّ عن أبي جعفرٍ محمدِ بنِ عليٍّ.

وضعفه ابنُ نصرِ المروزيُّ، من جهة راويه عنه، وهو فضيلُ بنُ يسارٍ،

وطعنَ فيه.

ورُوي عن حمادِ بنِ زيدٍ نحو هذا ـ أيضًا.

وحُكي روايةً عن أحمدَ ـ أيضًا ـ؛ فإنه قال ـ في رواية الشالنجيِّ ـ في مرتكبِ الكبائرِ: يخرجُ من الإيمانِ، ويقعُ في الإسلامِ.

ونقل حنبلٌ، عن أحمدَ ـ معناه.

وقد تأولَ هذه الروايةَ القاضي أبو يعلَى، وأقرَّها غيرَه، وهي اختيارُ أبي عبدِ اللَّهِ ابن بطةَ وابنِ حامدٍ، وغيرِهما من الأصحابِ.

وقالت طائفةٌ: الفرقُ بينَ الإسلامِ والإيمانِ: أن الإيمانَ هو التصديقُ، تصديقُ القلبِ، فهو علمُ القلبِ وعملُه، والإسلامُ الخضوعُ والاستسلامُ والانقيادُ، فهو عملُ القلبِ والجوارحِ.

وهذا قولُ كثيرٍ من العلماءِ، وقد حكاهُ أبو الفضلِ التميميُّ عن أصحابِ أحمدَ، وهو قولُ طوائفَ منَ المتكلمينَ.

لكن المتكلمونَ عندَهُم أن الأعمالَ لا تدخلُ في الإيمانِ، وتدخلُ في الإسلامِ، وأما أصحابُنا وغيرُهم من أهلِ الحديثِ، فعندهم أن الأعمالَ تدخل في الإيمانِ، مع اختلافِهم في دخولِها في الإسلامِ، كما سبق.

فلهذا قالَ كثيرٌ من العلماءِ: إن الإسلامَ والإيمانَ تختلفُ دلالتُهما بالإفراد والاقترانِ، فإن أُفردَ أحدُهما دخلَ الآخرُ فيه، وإن قُرنَ بينهما كانا شيئينِ حينئذٍ.

وبهذا يجمعُ بينَ حديثِ سؤالِ جبريلَ عن الإسلامِ والإيمانِ، ففرَّق النبي ﷺ بينهما، وبينَ حديثِ وفدِ عبدِ القيسِ حيث فسَّر فيه النبيُّ ﷺ الإيمانَ

المنفرد بما فسَّر به الإيمانَ المقرونَ في حديثِ جبريلَ.

وقد حكى هذا القولَ أبو بكرٍ الإسماعيليُّ عن كثيرٍ من أهلِ السنةِ والجماعة. ورُويَ عن أبي بكرِ بنِ أبي شيبة ما يدلُّ عليه.

وهو أقربُ الأقوالِ في هذه المسألةِ وأشبهُها بالنصوصِ. واللَّهُ أعلمُ.

والقولُ بالفرقِ بين الإسلام والإيمانِ مرويٌّ عن الحسنِ وابنِ سيرينَ وشريكٍ وعبدِ الرحمنِ بنِ مهديٍّ ويحيى بنِ معينٍ، ومؤمَّلِ بنِ إهابٍ، وحُكي عن مالكٍ - أيضًا.

وقد سبقَ حكايتُه عن قتادةَ، وداودَ بنِ أبي هندٍ، والزهريِّ، وابنِ أبي ذئبٍ، وحمادِ بنِ زيدٍ، وأحمدَ، وأبي خيثمةَ.

وكذلك حكاهُ أبو بكرِ بنُ السمعانيِّ عن أهلِ السنةِ والجماعةِ جملةً.

فحكايةُ ابنِ نصرٍ وابنِ عبدِ البرِّ عن الأكثرينَ التسويةَ بينهما غيرُ جيِّدٍ.

بل قد قيلَ: إن السلفَ لم يُروَ عنهم غيرُ التفريقِ. واللَّهُ أعلمُ.

وخرج البخاريُّ[1] في هذا البابِ:

حديثَ: الزُّهريِّ، عن عامرِ بن سعدٍ، عَن أبيهِ، أنَّ النبيَّ ﷺ أعطَى رهطًا، وسعدٌ جَالسٌ، فتركَ رسولُ اللَّهِ ﷺ رجُلاً، هُو أعجبُهُم إليَّ، فقلتُ: يَا رسُولَ اللَّهِ، مَا لكَ عن فُلانٍ، فواللَّهِ، إنِّي لأراهُ مُؤمنًا؟ فقالَ: «أَو مسلمًا»، فسكتُّ قليلاً، ثمَّ غلبني ما أعلمُ منهُ، فقلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، ما لك عن فلانٍ؟ فواللَّهِ إنِّي لأراهُ مُؤمنًا؟ قالَ: «أو مُسلمًا»، فسكتُّ قليلاً، ثمَّ غلبني ما أعلمُ منهُ، فعدتُ لمقالتِي، وعادَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، ثمَّ قالَ: «يا سعدُ، إنِّي

(١) (١/١٣) (٢/١٥٣).

لأعطي الرَّجُل، وغيرهُ أعجبُ إلي منهُ، خشيةَ أن يكبَّهُ اللَّهُ في النَّارِ».

خرجه من طريقِ: شعيبٍ، عن الزهريِّ.

ثم قال: رواهُ يُونسُ وصالحٌ ومعمرٌ وابنُ أخي الزُّهريِّ، عن الزُّهريِّ.

وقد رواهُ ابنُ أبي ذئبٍ ـ أيضًا ـ، عن الزهريِّ ـ كذلك[1] .

ورواه العباسُ الخلالُ، عن الوليدِ بنِ مسلمٍ، عن ابنِ وهب ورشدينَ بنِ سعدٍ، عن يونُسَ، عن الزهريِّ، عن إبراهيمَ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ.

وأخطأ في ذلكَ ـ: نقلَه ابنُ أبي حاتمٍ الرازيُّ، عن أبيهِ[2] .

فهذا الحديثُ محمولٌ عند البخاريِّ على أن هذا الرجلَ كانَ منافقًا، وأن الرسولَ ﷺ نفى عنه الإيمانَ، وأثبتَ له الاستسلامَ دونَ الإسلامِ الحقيقيِّ، وهو ـ أيضًا ـ قولُ محمدِ بنِ نصرٍ المروزيِّ.

وهذا في غايةِ البعدِ، وآخرُ الحديثِ يردُّ على ذلك، وهو قولُ النبيِّ ﷺ: «**إني لأعطي الرجلَ وغيرُه أحبُّ إليَّ منه**»؛ فإن هذا يدلُّ على أن النبيَّ ﷺ وكَلَه إلى إيمانه، كما كان يعطي المؤلفةَ قلوبَهم، ويمنعُ المهاجرينَ والأنصارَ.

وزعمَ عليُّ بنُ المدينيِّ في كتابِ «العللِ» له: أن هذا من بابِ المزاحِ منَ النبيِّ ﷺ فإنه كانَ يمزحُ ولا يقولُ إلا حقًّا، فأوهم سعدًا أنه ليس بمؤمنٍ بل مسلمٌ، وهما بمعنًى واحدٍ، كما يقول لرجلٍ يمازحُه ـ وهو يدَّعي أنه أخٌ لرجلٍ ـ، فيقول: إنما أنتَ ابنُ أبيه، أو ابنُ أمِّه، وما أشبَه ذلكَ، مما يوهمُ

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (١/ ١٨٢) من حديث يزيد، أبنا ابن أبي ذئب، عن الزهري ـ به.

(٢) «العلل» لابن أبي حاتم (١٩٤٦).

الفرقَ، والمعنَى واحدٌ.

وهذا تعسفٌ شديدٌ.

والظاهرُ ـ واللَّهُ أعلمُ ـ: أن النبيَّ ﷺ زجرَ سعدًا عن الشهادةِ بالإيمانِ؛ لأن الإيمانَ باطنٌ في القلبِ لا اطلاعَ للعبدِ عليه، فالشهادةُ به شهادةٌ على ظنٍّ، فلا ينبغي الجزمُ بذلك، كما قال: «**إن كنتَ مادحًا لا محالةَ، فقل: أحسِبُ فلانًا كذا، ولا أزكِّي على اللَّهِ أحدًا**»[1].

وأمرَه أن يشهدَ بالإسلامِ؛ لأنه أمرٌ مطَّلع عليه.

كما في «المسندِ»[2] عن أنسٍ ـ مرفوعًا ـ: «**الإسلامُ علانيةٌ، والإيمانُ في القلبِ**».

ولهذا كرِه أكثرُ السلفِ أن يطلقَ الإنسانُ على نفسه أنه مؤمنٌ، وقالوا: هو صِفةُ مدحٍ، وتزكيةٌ للنفسِ بما غابَ من أعمالِها، وإنما يشهدُ لنفسِه بالإسلامِ؛ لظهورِه.

فأما حديثُ: «**إذا رأيتمُ الرجلَ يعتادُ المسجدَ، فاشهدُوا له بالإيمانِ**».

فقد خرجهُ أحمدُ والترمذيُّ وابنُ ماجه[3] من حديثِ درَّاجٍ، عن أبي الهيثمِ عن أبي سعيدٍ ـ مرفوعًا.

وقال أحمد: هو حديثٌ منكرٌ.

ودراجٌ له مناكيرُ. واللَّهُ أعلمُ.

---

(١) البخاري (٣/ ٢٣١)، ومسلم (٨/ ٢٢٧) من حديث أبي بكرة.

(٢) (٣/ ١٣٤ ـ ١٣٥).

(٣) أحمد في «المسند» (٣/ ٦٨، ٧٦)، والترمذي (٢٦١٧)، و(٣٠٩٣)، وابن ماجه (٨٠٢).

وهذا الذي ذكرَه البـخاريُّ في هذا البابِ، من الآيـة والحديثِ، إنما يطابق التبويبَ، على اعتقادِه: أنه لا فرقَ بين الإسلامِ والإيمانِ.

وأما على قولِ الأكثرينَ بالتفريقِ بينهما، فإنما ينبغي أن يُذكرَ في هذا البابِ قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا** ﴾ [آل عمران: ٨٣].

فإنَّ الجمهورَ على أنه أرادَ استسلامَ الخلقِ كلِّهم له وخضوعَهم، فأما المؤمنُ فيستسلمُ ويخضعُ طوعًا، وأمـا الكافرُ فإنه يضطرُ إلى الاستسلام عند الشدائد ونزولِ البلاءِ به كرهًا، ثم يعودُ إلى شركِه عندَ زوالِ ذلك كلِّه، كما أخبرَ اللَّهُ عنهم بذلكَ في مواضعَ كثيرةٍ من القرآنِ.

والحديثُ الذي يطابقُ البابَ ـ على اختيارِ المفرقينَ بينَ الإسلام والإيمانِ ـ قولُ النبيِّ ﷺ ـ في ذكر قرينهِ من الجنِّ ـ: «**ولكنَّ اللَّهَ أعانني عليه، فأسلَمُ**»[١].

وقد رُوي بضمِّ الميمِ وفتحِها:

فمن رواهُ بضمِّها، قال: المرادُ: أي: أنا أسلمُ من شرِّه.

ومن رواه بفتحها، فمنهم من فسَّره بأنه أسلمَ من كفرِه، فصار مسلمًا.

وقد وردَ التصـريحُ بذلكَ في روايةٍ خرَّجها البـزارُ في «مسندِه»[٢]، بإسنادٍ فيه ضعفٌ.

ومنهم من فسَّره بأنه اسـتسلمَ وخضعَ وانقادَ كرهًا. وهو تفسـير ابنِ عيينة وغيرِه. فيطابقُ على هذا ترجمةَ البابِ. واللَّهُ أعلم[٣].

* * *

---

(١) أخرجه: مسلم في «صحيحه» (٨/ ١٣٩).
(٢) (٥/ ٢٥٤).
(٣) «فتح الباري» (١/ ١١٦ ـ ١٢٣).

قال المحقِّقون مِنَ العُلماءِ: كلُّ مؤمنٍ مُسلمٌ، فإنَّ من حقَّق الإيمانَ، ورسخَ في قلبِه، قـام بأعمالِ الإسلامِ، كـما قالَ ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسـدِ مُضـغةً، إذا صلحتْ، صلَّحَ الجسـدُ كلُّه، وإذا فسـدتْ، فسدَ الجسـدُ كلُّه، ألا وهيَ القلبُ**»(١) ، فلا يتحـقَّقُ القلبُ بالإيمانِ إلا وتنبعِثُ الجـوارحُ في أعمـالِ الإسلامِ، وليسَ كلُّ مسلمٍ مؤمنًا، فإنَّه قد يكونُ الإيمانُ ضعيـفًا، فلا يتحقَّقُ القلبُ به تحقُّقًا تامًّا، معَ عملِ جوارحِـهِ بأعمالِ الإسلامِ، فيكونُ مـسلمًا وليس بمؤمنِ الإيمانَ التامَّ كما قالَ تعالَى: ﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ [الحجرات:١٤]، ولم يكونُوا مُـنافـقينَ بالكُلِّيَّـةِ على أصحِّ التفسيرينِ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ وغـيرِه، بل كانَ إيمانُهم ضعيفًا، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿**وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا**﴾ [الحجرات:١٤]، يعني: لا ينقُـصُكم من أجورِها، فدلَّ على أنَّ مـعهم من الإيمانِ مـا تُقبلُ به أعمالُهم.

وكذلك قولُ النبيِّ ﷺ لسعد بن أبي وقَّاص لَمَّا قال له: لمْ تعطِ فلانًا وهو مؤمنٌ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**أو مسلمٌ؟**»(٢) يُشيرُ إلى أنَّه لم يُحـقِّق مقامَ الإيمانِ، وإنما هو في مقامِ الإسلامِ الظَّاهرِ، ولا ريـبَ أنَّه متى ضعفَ الإيمانُ الباطنُ، لزمَ منه ضـعفُ أعمالِ الجـوارحِ الظاهرةِ أيضًا، لكن اسمَ الإيمانِ يُـنفى عمَّن تركَ شيئًا مِن واجباتِه، كَمَا في قوله: «**لا يزني الزَّاني حينَ يزني وهو مؤمنٌ**»(٣).

وقد اخـتلفَ أهلُ السُّنَّةِ: هل يُسمَّى مؤمنًـا ناقصَ الإيمانِ، أو يقالُ: ليسَ

---

(١) جزء من حديث أخرجه: البخاري (١/ ٢٠)، ومسلم (٥/ ٥٠).
(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٣)، ومسلم (٣/ ١٠٤).
(٣) البخاري (٣/ ١٧٨)، ومسلم (١/ ٥٤).

بمؤمنٍ، لكنَّهُ مسلمٌ، على قولينِ، وهمَا روايتانِ عن أحمدَ.

وأمَّا اسمُ الإسلامِ، فلا ينتفِي بانتفاءِ بعضِ واجباتِه، أو انتهاكِ بعضِ محرَّماتِهِ، وإنما يُنفَى بالإتيانِ بما يُنافيهِ بالكُلِّيَّةِ، ولا يُعرَفُ في شيءٍ من السُّنَّةِ الصَّحيحةِ نفيُ الإسلامِ عمَّن تركَ شيئًا من واجباتِه، كما يُنفَى الإيمانُ عمَّن تركَ شيئًا من واجباتِهِ، وإنْ كانَ قد وردَ إطلاقُ الكُفرِ على فعلِ بعضِ المحرَّماتِ، وإطلاقُ النِّفاقِ أيضًا.

واختلفَ العلماءُ: هل يُسمَّى مرتكبُ الكبائرِ كافرًا كفرًا أصغر أو منافقًا النِّفاق الأصغرَ، ولا أعلمُ أنَّ أحدًا منهم أجازَ إطلاقَ نفي اسمِ الإسلامِ عنهُ، إلا أنه رُوي عن ابنِ مسعودٍ أنَّه قالَ: ما تاركُ الزَّكاةِ بمسلمٍ[1]. ويُحتملُ أنَّه كان يراه كافرًا بذلكَ، خارجًا عنِ الإسلام.

وكذلكَ رُوي عن عمرَ فيمن تمكَّن مِنَ الحجِّ، ولم يحجَّ أنهم ليسُوا بمسلمينَ، والظَّاهرُ أنَّه كانَ يعتقدُ كفرَهم، ولهذا أرادَ أن يضربَ عليهمُ الجزيةَ، يقولُ: لم يدخلُوا في الإسلامِ بعدُ، فهُم مستمرُّونَ على كتابيتِهِم[2].

وإذا تبيَّن أنَّ اسمَ الإسلامِ لا ينتفي إلا بوجودِ ما ينافيه، ويُخرجُ عن الملَّةِ بالكلِّيَّةِ، فاسمُ الإسلامِ إذا أُطلِقَ أو اقترنَ به المدحُ، دخلَ فيهِ الإيمانُ كلُّه منَ التَّصديقِ وغيرِه.

وخرَّج النَّسائيُّ[3] مِن حديثِ عقبةَ بنِ مالكٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ بعثَ سريَّةً،

(١) أخرجه: ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣/ ١١٤).
(٢) ذكره ابن كثير في «مسند الفاروق» (١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣).
(٣) أخرجه: النسائي في «الكبرى» (١٣ ـ ١٠٠٠ ـ تحفة الأشراف) وأحمد في «المسند» (٤/ ١١٠)، (٥/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩).

فغـارت على قومٍ، فـقالَ رجلٌ منهم: إنِّي مُـسلمٌ، فقتلُه رجـلٌ منَ السَّريَّة، فنُمي الحديثُ إلى رسولِ اللَّه ﷺ، فقالَ فيه قولاً شديدًا، فقالَ الرجلُ: إنَّما قالها تعوُّذًا مِنَ القـتلِ، فقالَ النبيُّ ﷺ: **«إنَّ اللَّه أَبَى عليَّ أن أقـتلَ مـؤمنًا»** ثلاثَ مرَّاتٍ.

فلولا أنَّ الإسلامَ المطلقَ يدخُلُ فيه الإيمانُ والتَّصديقُ بالأصولِ الخمسةِ، لم يصِر من قالَ: «أنا مسلمٌ» مؤمنًا بمجـرَّدِ هذا القولِ، وقد أخبرَ اللَّهُ تعالى عن ملكةِ سبإٍ أنَّها دخلتْ في الإسلامِ بهذهِ الكلمةِ وقالت: ﴿**رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [النمل:٤٤]، وأخبرَ عن يوسفَ عليه السَّلامُ أنه دعَا بـالموتِ على الإسلامِ. وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ الإسـلامَ المطلقَ يدخُلُ فيهِ ما يدخلُ في الإيمان مِنَ التَّصديق.

وفي «سننِ ابنِ ماجه»[1] عن عديٍّ بنِ حـاتمٍ؛ قالَ: قـالَ لي رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«يا عديُّ، أسلمْ تسلمُ»**، قلتُ: وما الإسلامُ؟ قال: **«تشهدُ أنْ لا إله إلا اللَّه، وتشهدُ أنِّي رسولُ اللَّه، وتؤمنُ بالأقدارِ كلِّها، خيرِها وشرِّها حلوِها ومرِّها»**.

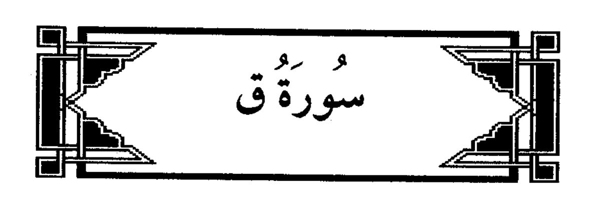
فهذا نصٌّ في أنَّ الإيمانَ بالقدرِ مِنَ الإسلامِ[2].

* * *

---

(١) أخرجه: ابن ماجه (٨٧).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٨٢ ـ ٨٦).



سُورَةُ ق

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

وقد قال كثير من السلف في قول اللَّه عز وجل: **﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾** [ق:١٧]: إن الذي عن اليمينِ كاتبُ الحسناتِ، والذي عن الشمالِ كاتبُ السيئاتِ، منهم: الحسنُ، والأحنفُ بنُ قيسٍ، ومجاهدٌ، وابنُ جريجٍ، والإمامُ أحمدُ.

وزادَ ابنُ جريجٍ، قالَ: إن قعدَ فأحدُهُما عن يمنيهِ، والآخرُ عن شمالهِ، وإن مَشَى فأحدُهُما أمامَهُ والآخرُ خلفَهُ، وإن رقدَ فأحدُهُما عندَ رأسِهِ والآخرُ عند رجليهِ.

وعلى هذا، فقد يخلو اليمينُ عن الملكِ إذا مَشى أو رقدَ.

وحديثُ أبي أمامةَ فيه أن الذي على الشمالِ هو القرينُ.

يريد به: الشيطانَ الموكلُّ بالعبدِ، كما في «صحيحِ مسلمٍ»[1] عن ابن مسعودٍ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: **«ما منكُم من أحدٍ إلا وقد وُكِّل به قرينُهُ من الجنِّ وقرينُه من الملائكة»**. قالوا: وإياك يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: **«وإياي، ولكنَّ اللَّه أعانني عليه، فلا يأمُرُني إلا بخيرٍ»**.

---

(١) (٨/ ١٣٩).

وقد وردَ في حديثٍ خرجهُ الطبرانيُّ[1] من حديثِ أبي مالكٍ الأشعريِّ ـ مرفوعًا ـ: «إنَّ القرينَ هو كاتبُ السيئاتِ».

وإسنادُه شاميٌّ ضعيفٌ[2] .

* * *

قالَ اللَّهُ عز وجلَّ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧-١٨].

وقد أجمعَ السَّلفُ الصَّالحُ على أنَّ الذي عن يمينه يكتُبُ الحسناتِ، والذي عن شماله يكتبُ السيئاتِ، وقد رُويَ ذلكَ مرفوعًا من حديثِ أبي أمامةَ بإسنادٍ ضعيفٍ[3] .

وفي «الصحيحِ» عن النبيِّ ﷺ: «إذا كانَ أحدُكُم يُصلِّي، فإنه يُناجي ربَّه والملكُ عن يمينِه»[4] .

ورُويَ من حديثِ حُذيفةَ مرفوعًا: «إنَّ عن يمينِه كاتبُ الحسناتِ»[5] .

واختلفُوا: هل يكتبُ كلَّ ما تكلَّم به، أو لا يكتبُ إلا ما فيه ثوابٌ أو عِقابٌ؟ على قولينِ مشهورينِ.

وقال عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ: يُكتبُ كلُّ ما تكلمَ به من خيرٍ أو

(١) في «الكبير» (٣/ ٢٩٦)، وفي «مسند الشاميين» (١٦٧٣)، ولفظه: «إذا نام ابن آدم، قال الملك للشيطان: أعطني صحيفتك فيعطيه إياها، فما وجد في صحيفته من حسنة محا بها عشر سيئات من صحيفة الشيطان» ـ الحديث.

(٢) «فتح الباري» (٢/ ٣٤٠ ـ ٣٤١).

(٣) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (٨/ ١٨٥، ١٩١، ٢٤٧)، وفي «مسند الشاميين» (٤٦٨)، (٥٢٦)، والبيهقي في «الشعب» (٧٠٤٩)، (٧٠٥٠)، (٧٠٥١).

(٤) أخرجه: البخاري (١/ ١١٣).

(٥) أخرجه: ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٣٦٤).

شرٍّ حتى إنه ليكتبُ قولَهُ: أكلتُ وشربتُ، وذهبتُ وجئتُ، حتى إذا كانَ يومُ الخميسِ عُرِضَ قولُه وعملُه، فأقرَّ منه ما كانَ فيه من خيرٍ أو شرٍّ، وألقىَ سائرَهُ، فذلكَ قولُه تعالى: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾(١) [الرعد:٣٩].

وعن يحيى بنِ أبي كثيرٍ، قالَ: ركبَ رجلٌ الحمارَ، فعثرَ بهِ، فقال: تعسَ الحمارُ، فقالَ صاحبُ اليمينِ: ما هيَ حسنةٌ أكتبُها، وقال صاحبُ الشمالِ: ما هي سيئةٌ فأكتبها، فأوحَى اللَّه إلى صاحبِ الشمالِ: ما تركَ صاحبُ اليمينِ من شيء، فاكتبهُ، فأثبتَ في السيئاتِ «تَعِسَ الحمارُ»(٢).

وظاهرُ هذا أنَّ ما ليسَ بحسنةٍ، فهو سيئةٌ، وإن كانَ لا يُعاقبُ عليها، فإنَّ بعضَ السيئاتِ قد لا يُعاقبُ عليهَا، وقد تقعُ مكفَّرةً باجتنابِ الكبائرِ، ولكنَّ زمانَهـا قد خسرهُ صاحبُها حيثُ ذهبتْ باطلاً فيحصلُ له بذلكَ حسرةٌ في القيامةِ وأسفٌ عليه وهو نوعُ عقوبةٍ(٣).

* * *

وروى عليُّ بنُ أبي طلحةَ، عن ابنِ عباسٍ في قولِه عز وجل: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ [ق:١٨]، قال: يُكتبُ كلُّ ما تكلَّم به من خيرٍ وشرٍّ، حتَّى إنَّه ليُكتبُ قولُه: أكلتُ، وشربتُ، وذهبتُ، وجئتُ، ورأيتُ، حتَّى إذا كانَ يومُ الخميسِ عُرِضَ قولُه وعملُه فأُقرُّ منه ما كانَ فيهِ من خيرٍ أو شرّ.

(١) ذكره ابن كثير في «التفسير» (٧/ ٣٧٧).
(٢) أخرجه: ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٥٧٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٧٦).
(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٤١ ـ ٣٤٢).

وأُلقيَ سائرُه، فذلكَ قولُه تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩]. خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ وغيرُه. فهذا يدلُّ على اختصاصِ يومِ الخميسِ بعرضِ الأعمالِ لا يوجدُ في غيرِه.

وكانَ إبراهيمُ النَّخعيُّ يبكي إلى امرأتِه يومَ الخميسِ وتبكي إليه، ويقولُ: اليومَ تُعرضُ أعمالُنا على اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

فهذا عرضٌ خاصٌّ في هذينِ اليومينِ غيرُ العرضِ العامِّ كلَّ يومٍ، فإنَّ ذلكَ عرضٌ دائمٌ كلَّ يومٍ بكرةً وعشيًّا. ويدلُّ على ذلك ما في «الصحيحين»(١) عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**يتعاقبُونَ فيكُم ملائكةٌ باللَّيلِ، وملائكةٌ بالنَّهارِ، فيجتمعونَ في صلاةِ الصُّبحِ، وصلاةِ العصرِ، فيسألُ الذينَ بأتوا فيكُم، وهو أعلمُ: كيفَ تركتُم عِبادي؟ فيقولونَ: أتيناهُم وهم يُصلُّون، وتركنَاهُم وهم يُصلُّون**».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(٢) عن أبي موسى الأشعريِّ، قال: قامَ فينا رسولُ اللَّهِ ﷺ بخمسِ كلماتٍ، فقالَ: «**إنَّ اللَّه لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينامَ، يخفضُ القسطَ ويرفعه، يُرفعُ إليه عملُ الليلِ قبلَ النَّهارِ وعملُ النَّهار قبلَ اللَّيلِ، حجابُه النُّورُ، لو كشفه لأحرقتْ سُبحاتُ وجهِه ما انتهَى إليه بصرُه من خلقِه**».

ويُروى عن ابنِ مسعودٍ، قالَ: إنَّ مقدارَ كُلِّ يومٍ من أيامكم عند ربِّكم ثنتا عشرةَ ساعةً، فتُعرضُ عليه أعمالُكُم بالأمسِ أوَّلَ النَّهارِ اليومَ، فينظرُ فيها ثلاثَ ساعاتٍ، وذكر باقيهُ.

كان الضحَّاكُ يبكِي آخرَ النَّهارِ، ويقولُ: لا أدري ما رُفِعَ من عملِي.

يا مَن عملُه معروضٌ على مَن يعلمُ السِّرَّ وأخفى، لا تُبهرجْ فإنَّ

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٤٥ ـ ١٤٦)، ومسلم (٢/ ١١٣).

(٢) مسلم (١/ ١١١).

النَّاقدَ بصيرٌ.

السُّـقـمُ على الجِـسـمِ لهُ ترداد ُ والعُـمـرُ مـضَى وزلَّـتي تزدادُ
مـا أبعـدَ شُـقَّـتِـي ومـا لي زَادُ مـا أكـثـرَ بهـرجي ولي نقَّـادُ[1]

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

فقوله ﷺ فيـما يرويهِ عن ربِّه: «**يا عـبادي إنِّي حـرمتُ الظُّلمَ على نفسـي**»، يعني: أنَّه منعَ نفـسَهُ من الظلمِ لعبـادِه، كمَا قـالَ عزَّ وجلَّ: ﴿**وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ [ق:٢٩]، وقالَ: ﴿**وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ**﴾ [غافر:٣١]، وقال: ﴿**وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران:١٠٨]، وقال: ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ [فصلت:٤٦]، وقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا**﴾ [يونس:٤٤]، وقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**﴾ [النساء:٤٠]، وقال: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا**﴾ [طه:١١٢]، والهضمُ: أن يُنقَصَ من جزاءِ حسناتِهِ، والظُّلمُ: أن يُعاقب بذنوبِ غيرِه، ومثلُ هذا كثيرٌ في القرآنِ.

وهو مما يدلُّ على أنَّ اللَّهَ قـادرٌ على الظلمِ، ولـكنَّهُ لا يفعلُـه فضـلاً منه وجُودًا، وكرمًا وإحسانًا إلى عبادِهِ.

وقد فسـرَ كثيرٌ من العلماءِ الظلمَ: بأنه وضعُ الأشـياءِ في غيرِ موضـعِهَا. وأمَّا من فسَّره بـالتَّصرُّفِ فِي ملك الغيرِ بغيـرِ إذنِهِ ـ وقد نقلَ نحوه عن إياسِ ابنِ معاويةَ وغيرِه ـ فإنهم يقولون: إنَّ الظُّلْمَ مستحيلٌ عليه، وغيرُ متصورٍ في حقِّهِ، لأن كلَّ ما يفعلُه فهو تصرُّفٌ في ملكه، وبنحو ذلكَ أجابَ أبو الأسودِ

(١) «لطائف المعارف» (٢٤٤ ـ ٢٤٥).

الدؤليُّ لعمران بنِ حصينٍ حين سألهُ عن القدرِ[1] .

وخرَّج أبو داودَ، وابنُ مـاجه من حديثِ أبي سنان سعـيدِ بنِ سنانٍ، عن وهبِ بنِ خالدٍ الحمصيِّ، عن ابنِ الدَّيلـميِّ أنَّه سمعَ أُبيَّ بنَ كعبٍ يقولُ: لو أنَّ اللَّهَ عذَّب أهلَ سـماواتِهِ وأهلَ أرضه؛ لعذَّبهُم وهو غـيرُ ظالمٍ لهُم، ولو رحمهُم، لكانتْ رحمتُه خيرًا لهم مـن أعمالِهِم. وأنه أتى ابنَ مسعودٍ، فقالَ لهُ مثلَ ذلكَ، ثم أتى زيدَ بن ثابت، فحدَّثه عن النبيِّ ﷺ بمثلِ ذلك[2] .

وفي هذا الحديثِ نظرٌ، ووهبُ بنُ خالدٍ ليسَ بذاكَ المشـهورِ بالعلمِ، وقد يُحملُ على أنَّه لو أرادَ تعذيبَهُم لقدَّرَ لهم مـا يعذِّبُهم عليهِ، فيكونُ غيرَ ظالمٍ لهُم حينئذٍ.

وكونه خلقَ أفـعالَ العبادِ وفـيها الظلمُ لا يقتـضِي وصفَه بالظُّلمِ سبـحانه وتعالى، كـما أنَّه لا يُوصَفُ بسائرِ القـبائحِ التي يفـعلُها العبـادُ، وهي خلقُه وتقريرُه، فإنَّه لا يُوصفُ إلا بأفعاله لا يُوصفُ بأفعالِ عبادِه، فإنَّ أفعالَ عبادِهِ مخلوقاتُه ومفعولاتُه، وهو لا يُوصفُ بشيءٍ منها، إنَّما يوصَفُ بما قامَ بهِ من صفاتِهِ وأفعالِهِ، واللَّهُ أعلمُ[3] .

* * *

قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾

قوله: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة:١١٢]، وقال تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ

(١) كما في «صحيح مسلم» (٨/٤٨ ـ ٤٩).
(٢) أخرجه: أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧).
(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/٧ ـ ٩).

لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٣٢، ٣٣]
وُفسِّرَ «الحفيظُ» ههُنا بالحافظ لأوامرِ اللَّهِ، وفُسِّرَ بالحافظِ لذنوبهِ حتَّى يرجعَ عنهَا، وكلاهُما يدخلُ في الآية.

ومن حفظَ وصيَةَ اللَّهِ لعبادِهِ وامتثلَهَا فهوَ داخلٌ أيضًا، والكلُّ يرجعُ إلى معنى واحدٍ.

وقد وردَ في بعضِ ألفاظِ حديثِ يومِ المزيدِ في الجنةِ، «أن اللَّهَ تعالَى يقولُ لأهلِ الجنةِ، إذا استدعاهُم إلى زيارتِهِ وكشفَ لهم الحجَبَ: «**مرحبًا بعبادي الذين حفظُوا وصيَّتي، ورعَوا عهدِي، وخافوني بالغيبِ، وكانُوا منِّي على كلِّ حالٍ مشفقينَ**».

فأمرُه ﷺ لابنِ عباسٍ أن يحفظَ اللَّهَ، يدخلُ فيهِ هذا كلُّه.

ومن أعظمِ ما يجبُ حفظُه من المأموراتِ الصلواتُ الخمسُ. قالَ اللَّه تعالى: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ**﴾ [البقرة:٢٣٨]، وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**﴾ [المعارج:٣٤].

وقال النبيُّ ﷺ: «**من حافظَ عليها كانَ له عندَ اللَّهِ عهدًا أن يدخلَهُ الجنةَ**»[1]. الحديث.

وفي حديثٍ آخرَ: «**من حافظَ عليهنَّ كنَّ له نورًا وبرهانًا ونجاةً يومَ القيامة**»[2]. الحديث.

---

(١) أخرجه: مالك «الموطأ» (٩٦)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٣١٥، ٣١٩)، وأبو داود (١٤٢٠)، وابن ماجه (١٤٠١) عن عبادة بن الصامت ﷺ.

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ١٦٩)، والدارمي (٢٧٢٤) عن عبد اللَّه بن عمرو.

وكذلكَ الطهارةُ، فإنها مفتاحُ الصلاةِ، وقالَ النبيُّ ﷺ: «**لا يحافظُ على الوضوءِ إلا مؤمنٌ**»(١).

ومما أمرَ اللَّهُ بحفظه الأيمانُ، لما ذكرَ كفارةَ اليمينِ قالَ: ﴿**ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**﴾ [المائدة:٨٩] فإن الأيمانَ كثيرًا ما تقعُ من الناسِ وموجباتها مختلفةٌ. فتارة يجبُ فيها كفارةُ يمينٍ، وتارةً يجبُ بها كفارةٌ مغلظةٌ، وتارةً يلزمُ بها المحلوفُ عليهِ من طلاقٍ ونحوِه. فمن حفظَ أيمانَهُ دلَّ على دخولِ الإيمانِ في قلبِه.

وكانَ السلفُ كثيرًا يحافظونَ على الأيمانِ. فمنهم من كانَ لا يحلفُ باللَّهِ البتة، ومنهم من كانَ يتورعُ حتى يكفرَ فيما شكَّ فيه من الحنثِ. ووصى الإمامُ أحمدُ رحمه اللَّه عند موتِهِ أن يخرجَ عنه كفارةُ يمينٍ. وقال: أظنُّ أنِّي حنثتُ في يمينٍ حلفتُها.

وقد رُويَ عن أيوبَ عليه السلامُ أنه كان إذا مرَّ باثنينِ يحلفانِ باللَّهِ ذهب فكفرَ عنهُما، لئلا يأثمانِ وهما لا يشعرانِ.

ولهذا لما حلفَ على ضربِ امرأتِهِ مائةَ جلدةٍ، أفتاهُ اللَّهُ بالرخصةِ لحفظِهِ لأيمانِهِ وأيمانِ غيرِه.

وقد اختلفَ العلماءُ: هل تتعدَّى الرخصةُ إلى غيرِه أم لا؟

وقال يزيدُ بنُ أبي حبيبٍ: بلغَني أنَّ من حملةِ العرشِ من يسيلُ من عينيهِ أمثالُ الأنهارِ من البكاءِ، فإذا رفعَ رأسَهُ قالَ: سبحانكَ ما تُخشى حقَّ خشيتكَ، فيقولُ اللَّهُ تعالى: لكنَّ الذينَ يحلفونَ باسمي كاذبينَ لا

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/٢٧٦، ٢٨٢)، وابن ماجه (٢٧٧) من حديث ثوبان ﷺ.

يعلمونَ ذلكَ.

وقد وردَ التشديدُ العظيمُ في الحلفِ الكاذبِ باللَّهِ، ولا تصدرُ كثرةُ الحلفِ باللَّهِ إلامن الجهلِ باللَّهِ تعالَى، وقلةِ هيبتهِ في الصدورِ.

ومما يلزمُ المؤمن حفظَهُ رأسهُ وبطنَهُ، كما في حديثِ ابنِ مسعودٍ ﷺ المرفوع: **«الاستحياءُ من اللَّهِ حقَّ الحياءِ أن يحفظَ الرأسَ وما وعَى، ويحفظَ البطنَ وما حوَى»**[1]. خرجهُ الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ.

وحفظُ البطنِ وما حَوى: يتضمَّنُ حفظَ القلبِ عن الإصرارِ على محرمٍ. وقد جمَع اللَّهُ ذلكَ كلَّه في قولِه تعالى: **﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾** [الإسراء:٣٦].

ويدخلُ في حفظِ البطنِ وما حَوى: حفظُه من إدخالِ الحرامِ إليهِ من المأكولاتِ والمشروباتِ.

ومما يجبُ حفظُه من المنهياتِ: حفظُ اللسانِ والفرجِ. وفي حديثِ أبي هريرةَ ﷺ: **«من حفظ ما بين لحييهِ وما بينَ رجليهِ دخلَ الجنةَ»**. خرجه الحاكم[2].

وخرجه البخاريُّ من حديثِ سهلِ بنِ سعدٍ ﷺ عن النبيِّ ﷺ ولفظه: **«من يضمنُ لي ما بينَ لحييهِ ورجليهِ، أضمنُ له الجنةَ»**.

وفي «مسند الإمام أحمد»[3] عن أبي موسى عن النبيِّ ﷺ قالَ: **«من حفظَ ما بين فقميه وفرجيهِ دخلَ الجنةَ»**.

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (١/ ٣٨٧)، والترمذي (٢٤٥٨).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٣٦٢)، والترمذي (٢٤٠٩)، والحاكم (٤/ ٣٥٧).

(٣) «المسند» (٤/ ٣٩٨).

وقد أمرَ اللَّهُ بحفظِ الفرجِ خاصةً ومدحَ الحافظين له قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ الآية [النور:٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:٥، ٦].

وقد روى عن أبي إدريس الخولاني أن أول ما وصَّى اللَّهُ آدمَ عندَ إهباطِهِ إلى الأرضِ بحفظِ فرجِهِ، وأن لا يضعَهُ إلا في حلالٍ[1].

* * *

وقوله ﷺ: «يحفظكَ» يعني: أنَّ من حفظَ حدودَ اللَّه، وراعَى حقوقَه، حفظَهُ اللَّهُ، فإنَّ الجزاءَ من جنسِ العملِ، كمَا قالَ تعالى: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠]، وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢]، وقال: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد:٧].

وحفظُ اللَّهِ لعبدِهِ يدخلُ فيه نوعانِ:

أحدُهما: حفظُه له في مصالحِ دنياهُ، كحفظِهِ في بدنِهِ وولدِهِ وأهلِهِ ومالِهِ، قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد:١١]. قال ابنُ عباسٍ: هم الملائكةُ يحفظونَهُ بأمرِ اللَّهِ فإذَا جاءَ القدرُ خلَّوا عنهُ.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: إنَّ مع كلِّ رجلٍ ملكينِ يحفظانِهِ مما لم يقدَّر فإذا جاءَ القدرُ خلَّيا بينهُ وبينهُ، وإنَّ الأجل جُنَّةٌ حصينةٌ.

---

(١) «الاقتباس» (ص ٢٤ ـ ٢٧).

وقال مـجاهدٌ: ما مِن عبـدٍ إلا له ملكٌ يحفظُه في نومِـهِ ويقظتِه من الجنِّ والإنسِ والهوامِّ، فمـا من شيءٍ يأتيهِ إلا قالَ: وراءَك، إلا شيئًـا أذنَ اللَّهُ فيه فيصيبُهُ.

وخرَّج الإمامُ أحمدُ، وأبو داودَ، والنسائيُّ[1] من حديثِ ابنِ عمرَ، قالَ: لم يكنْ رسولُ اللَّهِ ﷺ يدعُ هؤلاءِ الدَّعواتِ حين يُمسي وحين يُصبحُ: «**اللهمّ إني أسألُكَ العافيةَ في الدنيا والآخرةِ، اللهمَّ إني أسـألك العفوَ والعافيةَ في ديني ودنيايَ وأهلِي ومالِي، اللهمَّ استُر عورتي، وآمن روعاتي، واحـفظْني من بين يديَّ ومن خلفِي، وعن يميني وعن شمالِي ومن فوقِي، وأعوذُ بعظمتِكَ أن أُغتَالَ من تحتِي**».

ومَن حفظَ اللَّهَ في صباهُ وقوّتِه، حفـظَهُ اللَّهُ في حالِ كبرِهِ وضعفِ قوّته، ومتَّعهُ بسمعِهِ وبصرِهِ وحولِهِ وقوَّته وعقلِهِ.

كان بعضُ العلماءِ قـد جاوزَ المئةَ سنةٍ وهو ممتَّعٌ بقوَّته وعـقلِهِ، فوثب يومًا وثبةً شديدةً، فعُوتبَ في ذلكَ، فقالَ: هذه جوارحُ حفظناهَا عن المعاصِي في الصِّغر، فحفظَهَا اللَّهُ علينا في الكبرِ.

وعكسُ هذا: أنَّ بعضَ السلف رأى شـيخًـا يسألُ الناسَ، فـقالَ: إنَّ هذا ضيَّع اللَّهَ في صغرِه، فضيَّعهُ اللَّهُ في كبرِهِ.

وقد يحـفظُ اللَّهُ العبدَ بصـلاحِهِ بعدَ موتِهِ في ذريَّـته، كَما قِـيل في قولِه تعالى: ﴿**وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا**﴾ [الكهف:٨٢]: **إنَّهما حُفظا بصلاحِ أبيهما**.

قال سـعيـدُ بن المسـيب لابنِهِ: لأزيدنَّ في صلاتِي مِن أجلـكَ، رجاءَ أن

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٥٢)، وأبو داود (٥٠٧٤)، والنسائي (٨/ ٢٨٢).

أُحفظَ فيكَ، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾، وقالَ عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: ما منْ مؤمنٍ يموتُ إلا حفظَهُ اللَّهُ في عقبِهِ وعقبِ عقبِهِ.

وقال ابنُ المنكدرِ: إنَّ اللَّهَ ليحفظُ بالرجلِ الصالحِ ولدَه وولدَ ولده والدويراتِ التي حولَهُ، فما يزالونَ في حفظٍ من اللَّهِ وسترٍ.

ومتى كانَ العبدُ مشتغلاً بطاعة اللَّهِ، فإنَّ اللَّهَ يحفظُهُ في تلكَ الحالِ، وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ» عن النبيِّ ﷺ، قالَ: **«كانت امرأةٌ في بيت، فخرجتْ في سريَّةٍ من المسلمينَ، وتركتْ ثنتي عشرة عنزًا وصيصيتها كانتْ تنسجُ بِهَا، قالَ: ففقدتْ عنزًا لها وصيصيتها، فقالتْ: يا ربِّ، إنَّكَ قد ضَمنتَ لمنْ خرجَ في سبيلِكَ أن تحفظَ عليهِ، وإنِّي قد فَقدتُ عنزًا من غنمي وصيصيتي، وإنِّي أنشُدُكَ عنزي وصيصيتي»**. قالَ: وجعلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يذكر شدَّة مناشدتِهَا ربَّها تباركَ وتعالَى، قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«فأصبحتْ عنزُها ومثلُها، وصيصيتُها ومثلُها»**[1].

والصيصيةُ: هي الصِّنارةُ التي يُغزلُ بها ويُنسجُ.

فمن حفظَ اللَّهَ حفظهُ اللَّهُ من كلِّ أذى. قال بعضُ السلفِ: من اتقى اللَّهَ، فقد حفظَ نفسَهُ، ومن ضيَّع تقواهُ، فقد ضيَّع نفسَهُ، واللَّهُ الغنيُّ عنهُ.

ومن عجيبِ حفظِ اللَّهِ لمن حفظَهُ أن يجعلَ الحيواناتِ المؤذيةِ بالطبعِ حافظةً له من الأذَى، كما جرى لسفينةَ مولَى النبيِّ ﷺ حيث كُسرَ به المركبُ، وخرج إلى جزيرة، فرأى الأسدَ، فجعلَ يمشي معهُ حتَّى دلَّه على الطريقِ، فلمَّا أوقفَهُ عليها، جعلَ يُهمهِمُ كأنَّه يُودِّعُهُ، ثم رجعَ عنه[2].

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٦٧).

(٢) أخرجه: الحاكم (٣/ ٦٠٦)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٨٠ ـ ٨١).

ورُوي أنَّ إبراهيمَ بنَ أدهم كانَ نائمًا في بستانٍ وعنده حـيَّةٌ في فمها طاقةُ نرجسٍ، فما زالت تذبُّ عنه حتَّى استيقظ.

وعكسُ هذا، أن من ضيعَ اللَّه، ضيَّعهُ اللَّهُ، فضاع بين خلقِهِ حتى يدخلَ عليه الضـررُ والأذى ممنَ كانَ يرجُو نفعَـهُ من أهلِهِ وغيرِهم، كمـا قالَ بعضُ السلفِ: إني لأعصِي اللَّهَ، فأعرِفُ ذلكَ في خُلُقِ خادمِي ودابَّتي.

النوعُ الثـانِي من الحـفظِ: وهو أشـرفُ النوعينِ: حـفظُ اللَّهِ للعـبـدِ في دينهِ وإيمانهِ، فيـحفظُه في حيـاتهِ من الشبهـاتِ المُضلَّةِ، ومن الشهواتِ المحـرَّمةِ، ويحفظُ عليه دينه عند موتهِ، فيتوفَّاه على الإيمانِ.

قال بعضُ السلفِ: إذا حضرَ الرجلُ الموتَ يقالُ للملكِ: شمَّ رأسَهُ، قالَ: أجدُ في رأسِهِ القرآنَ، قالَ: شمَّ قلبه، قال: أجد في قلبِهِ الصيامَ، قال: شمَّ قدميهِ، قالَ: أجد في قدميه القيامَ، قالَ: حفظَ نفسَه، فحفظهُ اللَّهُ.

وفي «الصحيحينِ»[1] عن البراءِ بن عـازبٍ عن النبيِّ ﷺ أنه أمرَهُ أن يقولَ عندَ منامِهِ: **«إن قبضتَ نفسي، فارحمْهَا، وإنْ أرسلتَـها، فاحفظْهَا بما تحـفظُ به عبادَك الصالحينَ»**.

وفي حديثِ عـمرَ أنَّ النبيَّ ﷺ علَّمَـهُ أن يقولَ: **«اللَّهمَّ احفـظنِي بالإسلامِ قـائمًا، واحـفظنِي بالإسـلامِ قاعـدًا، واحفظـنِي بالإسلامِ راقـدًا،ولا تُطعْ فيَّ عدوًّا ولا حاسدًا»**. خرّجه ابنُ حبانَ في «صحيحه»[2].

وكان النبيُّ ﷺ يودِّع من أرادَ سفرًا، فـيقولُ: **«أستـودعُ اللَّه دينكَ وأمانتَكَ**

(١) أخرجـه: البخاري (٨/ ٧٨)، ومـسلم (٨/ ٧٩) من حديث أبي هريرة ﷺ ولـيس من حديث البراء، أما حديث البراء، فهو بلفظ آخر، أخرجه: البخاري (١/ ٧١)، ومسلم (/ ٧٧٨).

(٢) أخرجه: ابن حبان (٩٣٤).

وخواتِيمَ عملك»[1] ، وكان يقولُ: «إن اللَّهَ إذَا استُودِعَ شيئًا حفظهُ». خرّجهُ النسائيُّ وغيرُه[2] .

وفي الجملـةِ، فإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يحـفظُ على المؤمنِ الحافـظِ لحدودِ دينه، ويحُولُ بينه وبين مـا يُفسدُ عليه دينَه بأنواعٍ منَ الحـفظ، وقد لا يشعرُ الـعبدُ ببـعضِـهَا، وقـد يكونُ كارهًا له، كـما قـالَ في حقِّ يوسُف عليه الـسلام: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف:٢٤].

قال ابنُ عباسٍ في قوله تعالَى: ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال:٢٤]، قال: يحولُ بين المؤمنِ وبين المعصيةِ التي تجرهُ إلى النارِ.

وقال الحسنُ ـ وذكرَ أهلَ المعاصِي ـ: هانُوا عليهِ، فعَصوْه، ولو عزُّوا عليه لعصمَهُم.

وقال ابنُ مسعودٍ: إنَّ العبدَ ليهمُّ بالأمرِ من التجارةِ والإمارةِ حتى يُيسر لهُ، فينظرُ اللَّهُ إليه فيقولُ للملائكة: اصرفوه عنهُ، فإنهُ إن يسرتُهُ له أدخلتُه النارَ، فيصرفـه اللَّهُ عنهُ، فيظلُّ يتطيَّرُ يقولُ: سبقنِـي فلانٌ دهانِي فلانٌ، وما هو إلا فضلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

وخرَّج الطبرانيُّ من حديثِ أنسٍ عن النبيِّ ﷺ: «يقولُ اللَّـهُ عزَّ وجلَّ: إن من عبادِي من لا يُصلحُ إيمانَهُ إلا الفقرُ، وإن بسطتُ عليه أفسدَهُ ذلكَ، وإن من عبادِي من لا يصلحُ إيمانَه إلا الغِنى، ولو أفقرتُه، لأفسدَهُ ذلكَ، وإنّ من عبادِي من لا يصلحُ إيمانَهُ إلا الصِّحَّةُ، ولو أسقمتُـهُ لأفسدَهُ ذلكَ، وإنَّ من عبـادِي مَن لا يصلحُ إيمانُه إلا السقمُ، ولو

(١) أخـرجه: التـرمذي (٣٤٤٢)، (٣٤٤٣)، وابـن ماجـه (٢٨٢٦)، وأحمـد (٢/ ٧، ٢٥، ٣٨، ١٣٦، ٣٥٨)، والحاكم (٢/ ٩٧).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٨٧)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٥٢٠).

أصححتُه لأفسدَهُ ذلكَ، وإنَّ من عبادِي من يطلبُ بابًا من العبادة فأكُفُّه عنه، لكيلا يدخلهُ العُجبُ، إني أدبرُ عبادِي بعلمِي بما في قلوبِهم، إنِّي عليمٌ خبيرٌ»(١) (٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾

قال الفضيلُ في قولِهِ تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق:٣٣] قال: «هو الرجلُ يذكرُ ذنوبَهُ في الخلاءِ فيستغفرُ اللَّهَ منهَا»(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾

وقال الحكمُ: سُئِل أبو مجلز عن الرجلِ يضعُ إحْدَى رجليهِ على الأُخْرَى؟ فقالَ: لا بأسَ بِهِ، إنَّما هذا شيءٌ قالهُ اليهودُ: إنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ السماواتِ والأرضَ استراحَ، فجلسَ هذه الجلسةَ، فأنزلَ اللَّهُ عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨].

خرَّجه أبو جعفر ابنُ أبي شيبةَ في «تاريخه»(٤).

وقد ذكرَ غيرُ واحدٍ من التابعينَ: أنَّ هذه الآيةَ نزلت بسببِ قولِ اليهود: إنَّ اللَّهَ خلقَ السماواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ ثم استراحَ في اليومِ السابعِ، منهُم: عِكرمةُ وقتادةُ.

---

(١) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣١٨ - ٣١٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص١٢١)، والطبراني في «الأوسط» (٩٣٥٢) مختصراً.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٨٧ - ٤٩٤). (٣) «شرح حديث شداد بن أوس» (٦٨).

(٤) وكذا أبو بكر بن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٢٢٨).

فهذا كلامُ أئمةِ السلفِ في إنكارِ ذلكَ ونسبتهِ إلى اليهودِ، وهذا يدلُّ على أنَّ الحديثَ المرفوعَ المرويُّ في ذلكَ لا أصلَ لرفعهِ، وإنما هو متلقى عن اليهودِ، ومَن قالَ: إنَّه على شرطِ الشيخينِ فقدْ أخطأَ.

وهو من روايةِ محمدِ بنِ فُليح بنِ سليمانَ، عن أبيه، عن سعيدِ بنِ الحارثِ، عن عُبيدِ بنِ حُنين: سمعَ قتادةَ بنَ النعمانِ يحدثُهُ، عن النبيِّ ﷺ ـ بمعنى قولِ أبي مُجلز. وفي آخرِه: وقالَ عزَّ وجلَّ: «**إنها لا تصلحُ لبشرٍ**».

وعُبيد بنُ حُنين، قيلَ: إنه لمْ يسمعْ من قتادةَ بنِ النعمانِ ـ: قالَهُ البيهقيُّ[1].

وفُليحٌ، وإن خرَّج له البخاريُّ فقد سبقَ كلامُ أئمةِ الحفاظِ في تضعيفِهِ، وكان يحيى بنُ سعيدٍ يقشعرُّ من أحاديثِه، وقال أبو زُرعةَ ـ فيما رواه عنه سعيد البرذعيُّ ـ: فُليحٌ واهي الحديثِ، وابنُهُ محمدٌ واهي الحديثِ.

ولو كان النبيُّ ﷺ يروي عن ربِّه أنه قالَ: «**إنها لا تصلحُ لبشرٍ**» لم يفعله رسول اللَّه ﷺ، ولو كان قد انتسخ فِعله الأول بهذا النهي لم يستمر على فعله خلفاؤه الراشدون الذين هم أعلمُ أصحابِه به، وأتبعهم لهديه وسنته.

وقد رُوي عن قتادَة بنِ النعمانِ من وجه آخر منقطعٍ، من روايةِ سالمٍ أبي النضر، عن قتادةَ بنِ النعمانِ ـ ولم يدركْهُ ـ، أنه رَوَى عن النبي ﷺ، أنه نهى عن ذلكَ. خرَّجه الإمامُ أحمدُ[2].

وهذا محتملٌ، كما رواه عنه جابرٌ وغيرُه. فأما هذه الطَّامةُ، فلا تحتملُ أصلاً.

---

(١) «الأسماء والصفات» (ص ٣٥٦). (٢) «المسند» (٣/ ٤٢).

وقد قيلَ: إن هذا مما اشتبهَ على بعضِ الرواةِ فيه ما قالَهُ بعضُ اليهود، فظنه مرفوعًا فرفَعَهُ، وقد وقَعَ مثلُ هذا لغيرِ واحدٍ من متقدمي الرواةِ، وأُنكرَ ذلك عليهِم، وأنكرَ الزبيرُ على من سَمِعَهُ يحدثُ عن النبيِّ ﷺ، وقالَ: إنَّما حكاه النبي ﷺ عن بعضِ أهلِ الكتابِ.

فروَى مسلمُ بنُ الحجاجِ في «كتابِ التفصيلِ» والبيهقيُّ في «المدخلِ»[1] من روايةِ ابنِ أبي الزِّناد، عن هشامِ بن عُروةَ، عن عبدِ اللَّهِ عُروةَ، عن عُروةَ، أن الزبيرَ سمع رجلاً يحدثُ حديثًا عن النبيِّ ﷺ، فاستمعَ الزبيرُ له، حتَّى إذا قَضَى الرجلُ حديثَه قال لهُ الزبيرُ: أنتَ سمعتَ هذا من رسولِ اللَّهِ ﷺ؟ قال الرجلُ: نعم. فقالَ الزبيرُ: هذا وأشباهه مما يمنعَنا أن نحدثَ عن رسولِ اللَّه ﷺ، قد - لعمري - سمعتُ هذا من رسولِ اللَّهِ ﷺ وأنا يومئذٍ حاضرٌ، ولكنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ ابتدأَ هذا الحديثَ، فحدثناهُ عن رجلٍ من أهلِ الكتابِ حدَّثه إياه، فجئتَ أنتَ بعد أن تقضَّى صدرُ الحديثِ وذكرُ الرجلِ الذي من أهلِ الكتابِ، فظننتَ أنه من حديث رسولِ اللَّه ﷺ.

وروى مسلمٌ - أيضًا - في «كتابِ التفصيلِ»[2] بإسنادٍ صحيحٍ، عن بُكيرِ ابنِ الأشَجِ، قالَ: قال لنا بُسر بنُ سعيدٍ: أيها الناسُ، اتقوا اللَّه، وتحفظُوا في الحديثِ، فواللَّهِ لقد رأيتُنَا نجالسُ أبا هريرةَ، فيحدثنا عن رسول اللَّه ﷺ، ويحدثُنا عن كعبٍ، ثم يقومُ، فأسمعُ بعضَ من كانَ معنا يجعلُ حديثَ رسول اللَّهِ ﷺ عن كعب، ويجعل حديثَ كعبٍ عن رسولِ اللَّهِ ﷺ.

---

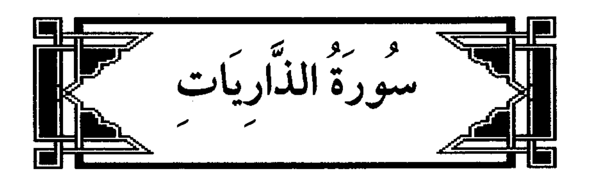
(١) و«الأسماء والصفات» (ص ٣٥٧).

(٢) وكذا في «التمييز» (ص ١٧٥).

ولو ذكرنا الأحاديثَ المرفوعةَ التي أُعِلَّتْ بأنها موقوفة: إمَّا على عبدِ اللَّهِ ابن سلام، أو على كعبٍ، واشتبهتْ على بعضِ الرواةِ فرفَعَها، لطالَ الأمرُ [1].

* * *

(١) «فتح الباري» (٢/ ٥٧٥ ـ ٥٧٧).



قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

وقال سفيانُ الثوريُّ: قرأ واصِلٌ الأحدبُ هذه الآية: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢]، فقالَ: ألا إنَّ رزقي في السماءِ وأنا أطلبُه في الأرضِ؟ فدخل خَرِبةً، فمكث ثلاثًا لا يُصيب شيئًا، فلمَّا كان اليومُ الرابعُ، إذ هو بدوخَلَّةٍ من رُطَبٍ، وكانَ له أخٌ أحسن نيةً منه، فدخلَ معه فصارتَا دوخَلَّتَينِ، فلم يزلْ ذلك دأبُهما حتَّى فرَّق الموتُ بينهما(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾

إن اللَّهَ تعالى خلقَ الخلقَ وأوجدَهُم لعبادَتِه الجامعةِ لخشيتِه ورجائه ومحبته كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] وإنَّما يُعبدُ اللَّهُ سبحانه بعد العلمِ به ومعرفتهِ، فبذلكَ خلقَ السمواتِ والأرضَ وما فيهما للاستدلالِ بهمَا على توحيده وعظمته كما قالَ تعالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢].

وقد عُلِمَ أنَّ العبادةَ إنما تُبنى على ثلاثةِ أصولٍ: الخوفِ، والرجاءِ،

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٦١).

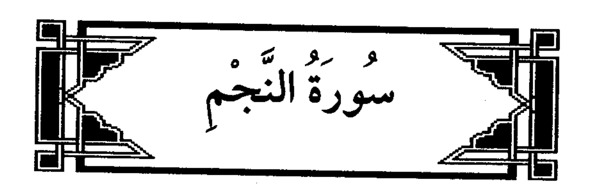
والمحبةِ. وكلٌّ منهما فرضٌ لازِمٌ، والجمعُ بين الثلاثةِ حتمٌ واجبٌ، فلهذا كانَ السلفُ يذمونَ من تعبَّدَ بواحدٍ منها وأهملَ الآخَرَيْنِ، فإنَّ بدعَ الخوارجِ ومن أشبهَهُم إنما حدثتْ من التشديدِ في الخوفِ والإعراضِ عن المحبةِ والرجاءِ، وبدعُ المرجئةِ نشأتْ من التعلقِ بالرجاءِ وحدَهُ والإعراض عن الخوفِ، وبدعُ كثيرٍ من أهلِ الإباحةِ والحلولِ ممن يُنسبُ إلى التعبدِ نشأتْ من إفرادِ المحبةِ والإعراضِ عن الخوفِ والرجاءِ.

وقد كثُرَ في المتأخرينَ المنتسبينَ إلى السلوكِ تجريدُ الكلامِ في المحبةِ وتوسيعُ القولِ فيها بما لا يُساوي على الحقيقةِ مثقالَ حبةٍ، إذ هو عارٍ عن الاستدلالِ بالكتابِ والسنةِ، وخالٍ من ذكرِ كلامِ مَنْ سلفَ من سلفِ الأمةِ وأعيانِ الأئمةِ، وإنَّما هو مجردُ دعاوى، قد تُشرفُ بأصحابِهَا على مَهَاوِي، وربما استشهدُوا بأشعارِ عشاقِ الصورِ، وفي ذلكَ ما فيه من عظيمِ الخطرِ، وقد يحكونَ حكاياتِ العشاقِ، ويشيرونَ إلى التأدبِ بما سلكُوه من الآدابِ والأخلاقِ، وكلُّ هذا ضررُه عظيمٌ، وخطرُه جسيمٌ، وقد يُكثِر ذكرَ المحبةِ، ويعيدُها ويبديها مَنْ هو بعيدٌ عن التلبسِ بمقدماتِها ومباديها، وما أحسنَ قولَ ذي النونِ رحمه اللَّهُ تعالى وقد ذُكِرَ عنده الكلامُ في المحبةِ فقال: «اسكتُوا عن هذه المسألةِ لا تسمعُهَا النفوسُ فتدَّعيها»، فإنَّ النفوسَ ممتلئةٌ من الكبرِ والفخرِ والغرورِ، **«والمتشبعُ بما لم يُعطَ كلابسِ ثوبي زورٍ»**[١]، وكثيرٌ ما تقترنُ دعوى المحبةِ بالشطحِ والإدلالِ وما ينافي العبوديةَ من الأقوالِ والأفعالِ[٢].

* * *

(١) البخاري (٧/ ٤٤ ـ ٤٥)، ومسلم (٦/ ١٦٩) من حديث أسماء ﵄.

(٢) «استنشاق نسيم الأنس» (ص ٢٥ ـ ٢٧).



سُورَةُ النَّجْم

قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾

وقدْ أفْتَى قاضي القضاة أبو بكرٍ محـمدُ بنُ المظفرِ الشاميُّ الشافعيُّ - وكانَ أحـدَ العُلماء الصَّـالحينَ الزُّهاد، الحاكـمينَ بالعـدلِ وكانَ يُقـالُ عنْهُ: لو رُفِعَ مذهبُ الشافعيِّ من الأرضِ لأمْلاهُ من صـدرِه - بتحريمِ الغناء، وهذه صورةُ فُتياهُ بحروفِهَا، قالَ: لا يجُوزُ الضربُ بالقضيبِ ولا الغناءُ ولا سماعُه، ومن أضافَ هذا إلى الشافعيِّ فقدْ كذبَ علـيهِ. وقد نصَّ الشافعيُّ في كتابِ «أدبِ القـضاء»: أنَّ الـرجلَ إذا داوَم على سمـاعِ الغناء، رُدَّتْ شـهـادتُه، وبطلتْ عدالتُه. وقـالَ اللَّه تعالى: ﴿**أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ**﴾ [النجم:٥٩ - ٦١] قالَ ابنُ عبـاسٍ: معناه تُغَنُّون بلغةِ حمير. وقال اللَّهُ عزَّ جلَّ: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ [لقمان:٦] جاءَ في التفسير: أنه الغناءُ والاستماعُ إليه. ورُوي عن رسُولِ اللَّه ﷺ أنَّه قالَ: «**إنَّ اللَّهَ كَرِهَ صوتينِ أحـمقَينِ فاجرَين: صـوتٌ عند نعمة، وصوتٌ عندَ مصيبة**»[1]. يُريد بذلكَ الغناءَ والنوحَ. وقـالَ ابنُ مسـعود: الغناءُ خطبةُ الزِّنا. وقال مكحولٌ: الغناءُ ينبتُ النفـاقَ في القلبِ، كما ينبتُ السَّيلُ البقْلَ. واللَّه أعلم.

---

(١) أخرجه: الترمذي (١٠٠٥).

هذا جوابُ محمـدِ بنِ المظفرِ الشاميِّ الشافعيِّ. ثم كتبَ بعـدَهُ موافقةً له على فُتياه، جماعةٌ من أعيانِ فقـهاءِ بغدادَ: من الشافعيةِ والحنفيّةِ والحنبليَّةِ في ذلكَ الزَّمانِ، وهو عصرُ الأربعِ مـئةَ. وهذا يخالفُ قولَ كثيرٍ من الشـافعيَّةِ، في حمل كلامِ الشافعي على كراهةِ التنزيهِ.

والمعنى المقتضِي لتحريمِ الغناءِ: أنَّ النفـوسَ مجبولةٌ على حُبِّ الشهواتِ، كما قالَ تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ**﴾ الآيةَ [آل عمران: ١٤] فجعلَ النساءَ أوّلَ الشهـواتِ المزينةِ. والغناءُ المشتملُ على وصفِ مـا جُبلتِ النفوسُ على حُبِّه، والشَّـغفِ به ـ من الصُّوَرِ الجميلةِ ـ يُثيرُ مـا كمنَ في النفوسِ من تلك المحبّةِ ويُشـوِّقُ إليها، ويُحرِّكُ الطبعَ ويزعجُه، ويخـرجُه عن الاعتدالِ، ويؤُزُّه إلى المعاصِي أزًّا. ولهذا قِيلَ: إنه رقيةُ الزنا.

وقد افتُتِنَ بسماعِ الغناءِ، خلقٌ كثيرٌ فأخرجهُم استماعُه إلى العشقِ، وفُتنوا في دينهِم. فلو لم يرِدْ نصٌّ صريحٌ في تحريمِ الغناءِ بالشـعرِ الذي تُوصفُ فيه الصُّورُ الجميلة لكانَ محرّمًا بالقياسِ على النظرِ إلى الصُّورِ الجميلةِ التي يحرمُ النظرُ إليها بالشـهوةِ، بالكتابِ والسنةِ وإجماعِ من يُعتـدُّ به من علماءِ الأمةِ. فإنَّ الفـتنةَ كَما تحصُلُ بالنظـرِ والمشاهدةِ، فكذلك تحصُلُ بسمـاعِ الأوصافِ، واجتلائِها من الشعرِ الموزونِ المحرّكِ للشهواتِ.

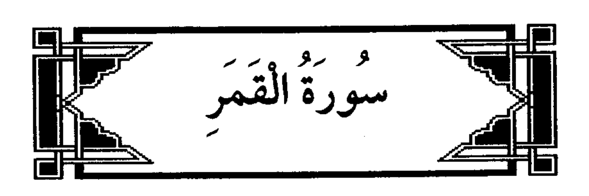
ولهذا نهى النبيُّ ﷺ أن تصفَ المرأةُ المرأةَ لزوجها، كـأنّه ينظرُ إليها[1]. لِمَا يُخشى من ذلكَ من الفـتنةِ. وقد جعلَ النبيُّ ﷺ زنا العينينِ النظرَ، وزنا الأذنينِ الاستماعَ[2]. وقالَ أبو هريرةَ رضي الله عنه: ثلاثٌ فاتناتٌ مُـفتناتٌ يُكبنَ في

(١) أخرجه: البخاري (٧/ ٤٩)، وأبو داود (٢١٥٠)، والترمذي (٢٧٩٣).
(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٦٧)، ومسلم (٨/ ٥٢).

النارِ: رجلٌ ذُو صورةٍ حسنة، فاتنٌ مفتونٌ به يُكبُّ في النار، ورجلٌ ذو شعرٍ حسنٍ، فاتن مفتونٌ به يُكَبُّ في النارِ. ورجلٌ ذو صـوتٍ حسنٍ، فاتنٌ مفتون به يُكبُّ في النارِ. خرّجه حميد بن زنجويه في «كتابِ الأدبِ»[1].

* * *

(١) «نزهة الأسماع» (ص ٦٤ ـ ٦٧).



سُورَةُ الْقَمَرِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾

ومن أنواعِ عذابِهم سحبُـهم في النَّارِ على وجوهِهم، قالَ اللَّهُ تعالى: **﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾** [القمر:٤٧، ٤٨]، وقالَ تعـالى: **﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾** [غافر:٧٠-٧٢] قالَ قتادةُ: يسـحبُونَ في النارِ مرةً وفي الحميمِ مـرةً، وقالَ تعالى: **﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾** [الأحزاب:٦٦].

وقالَ قتادةُ: قالَ ابنُ عباسٍ **﴿صَعُودًا﴾** [المدثر:١٧]: صخرةٌ في جهنمَ يُسحَبُ عليها الكافرُ على وجهِه.

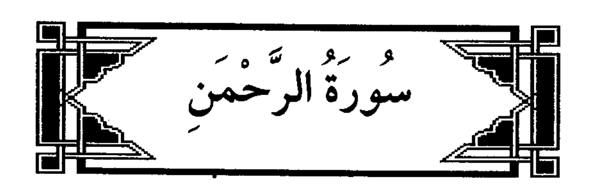
وقالَ كـعبٌ: يقولُ اللَّـهُ عزَّ وجلَّ للإمـامِ الجائرِ: **﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾** [الحاقة:٣٠، ٣١] فيُـسحَبُ على وجـهِه في النَّارِ، فينـتثرُ لحـمهُ وعظامُه ومخُّهُ.

وقالَ ثابتٌ أبو زيدٍ القـيسيُّ، عن عاصمٍ الأحول، عن أبي منصـورٍ مَولى سليم أنَّ ابنَ عباسٍ قالَ: **﴿يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ﴾** [غافر:٧١، ٧٢]. قالَ أبو زيدٍ: أُراه قالَ: ينسلخُ كلُّ شيءٍ عليه من جلدٍ ولحمٍ وعـروقٍ وأعصابٍ حتَّى

يصيرَ في عقـبيهِ جسدٌ من لحمِهِ مثلُ طـولِهِ، وطولُهُ ستونَ ذراعًا، ثمَّ يُكسَى جلدًا آخرَ، ثمَّ يسجرُ في الحميمِ. خرَّجُه كلَّه ابنُ أبي حاتمٍ[1].

* * *

(١) «التخويف من النار» (ص ١٤٧ ـ ١٤٨).



سُورَةُ الرَّحْمَنِ

قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾

إنَّ الشتاء له مشرقٌ ومغربٌ، والصيفَ كذلك، ولهذا ثَنَّاهما اللَّه تعالى في قولِه: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن:١٧] وجمعَهما في قولِهِ: ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج:٤٠] باعتبار مشارق الشتاءِ والصيفِ والخريفِ والربيعِ؛ فإنَّ لكلِ يومٍ من السنةِ مطلعًا مشرقًا خاصا ومغربًا خاصا، وأفردَهما في قوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء:٢٨] باعتبار الجنسِ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾

وقد ضمِنَ اللَّهُ سبحانَهُ الجنةَ لمن خافَهُ من أهلِ الإيمانِ، فقالَ تعالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦] قال مجاهدٌ: في هذهِ الآيةِ: اللَّهُ قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبتْ، فمن أرادَ أن يعملَ شيئًا فخافَ مقامَ ربِّه عليه، فله جنتانِ.

وعنه أنه قالَ: هو الرجلُ يذنبُ فيذكرُ مقامَ اللَّهِ فيدعهُ. وعنه قالَ: هو الرجلُ يهمُّ بالمعصيةِ فيذكرُ اللَّهَ فيتركُها.

---

(١) «فتح الباري» (٢/ ٢٩٣).

وقال عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ: وعد اللَّهُ المؤمنينَ الذين خافُوا مقامَهُ وأدَّوا فرائِضَهُ الجنةَ.

وعن الحسنِ، قالَ: قالتِ الجنةُ: يا ربِّ لمنْ خلقْتني، قالَ: لمن يعبدُني وهو يخافُني.

وقال يزيدُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ الشخيرِ: كنَّا نحدَّثُ أنَّ صاحبَ النارِ الذي لا تمنعُهُ مخافةُ اللَّهِ من شيءٍ خفي له.

وعن وهبِ بنِ منبهٍ، قال: ما عُبدَ اللَّهُ بمثلِ الخوفِ.

وقال أبو سليمانَ الدارانيُّ: أصلُ كلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرةِ الخوفُ من اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وكلُّ قلبٍ ليسَ فيه خوفُ اللَّهِ فهو قلبٌ خربٌ.

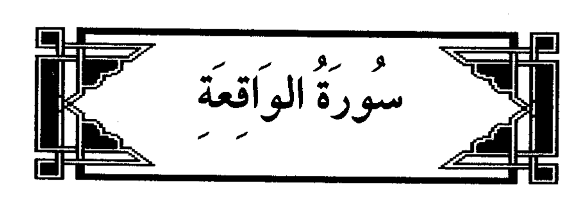
وقال وهيبُ بنُ الوردِ: بلغنا أنَّه ضُرب لخوفِ اللَّه مثلٌ في الجسدِ، قيلَ: إنما مثلُ خوفِ اللَّهِ، كمثلِ الرجلِ يكونُ في منزِلِه فلا يزالُ عامرًا ما دامَ فيه ربُّه، فإذا فارقَ المنزلَ ربُّه وسكنَهُ غيرُه خربَ المنزلُ، وكذلكَ خوفُ اللَّهِ تعالَى، إذا كانَ في جسدٍ لم يزلْ عامرًا ما دامَ فيه خوفُ اللَّهِ، فإذا فارقَ خوفُ اللَّهِ الجسدَ خربَ، حتى إنَّ المارَّ يمرُّ بالمجلسِ من الناسِ فيقولونَ: بئسَ العبدُ فلانٌ، فيقولُ بعضُهم لبعضٍ: ما رأيتم منه؟ فيقولونَ: ما رأينا منه شيئًا غيرَ أنَّا نبغضه، وذلك أن خوفَ اللَّهِ فارقَ جسدَه، وإذا مرَّ بهم الرجلُ فيه خوفُ اللَّهِ، قالُوا: نعمَ واللَّهِ الرجلُ، فيقولونَ: أيَّ شيءٍ رأيتم منه؟ فيقولونَ: ما رأينا منه شيئًا غيرَ أنَّا نحبُّه.

وقال الفضيلُ بنُ عياضٍ: الخوفُ أفضلُ من الرجاءِ ما كانَ الرجلُ صحيحًا، فإذا نزلَ الموتُ فالرجاءُ أفضلُ.

وسئلَ ابنُ المباركِ عن رجلينِ، أحدُهما خـائفٌ والآخرُ قتيلٌ في سبيلِ اللَّهِ عز وجل، قال: أحبُّهما إليَّ أخوفُهُما[1] .

* * *

(١) «التخويف من النار» (ص ٤ ـ ٥).



سُورَةُ الوَاقِعَة

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾

وقال محمدُ بن كعبٍ القُرظِيُّ في قولهِ تَعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ١ - ٣]، قال: تخفضُ رجالاً كانُوا في الدُّنيا مرتفعينَ، وترفعُ رجالاً كانوا في الدُّنيا مخفوضين[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۝٤١ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۝٤١ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٤].

قالَ ابنُ عباسٍ: ظـلٌّ من دخانٍ، وكذا قالَ مجاهدٌ وعكرمـةُ وغيرُ واحدٍ، وعن مجـاهدٍ قالَ: ظلٌّ من دخـانِ جهنمَ، وهو السَّـمُومُ؛ وقـالَ أبو مالكٍ: اليحـمومُ: ظلٌّ من دخانِ جهنـمَ، قالَ الحسنُ وقتـادةُ في قولهِ: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٤] لا باردُ المدخلِ، ولا كـريمُ المنظـرِ؛ والسَّـمُـومُ: هو الريحُ

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٩٦).

الحارةُ، قالَه قتادةُ وغيرُه.

وهذه الآيةُ تضمنتْ ذكرَ ما يُتبردُ به في الدُّنيا من الكربِ والحرِّ وهو ثلاثةٌ: الماءُ والهواءُ والظلُّ، فهواءُ جهنمَ: السمومُ وهو الريحُ الحارَّةُ الشديدةُ الحرِّ، وماؤُها الحميمُ الذي قدْ اشتدَّ حرُّهُ، وظلُّها اليحمومُ وهو قطعُ دخانِها، أجارَنا اللَّهُ من ذلك كلِّه بكرمِه ومنِّه.

وقالَ تعالى: ﴿**انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ**﴾ [المرسلات: ٣٠] قالَ مجاهدٌ: هو دخانُ جهنمَ: اللهبُ الأخضرُ والأسودُ والأصفرُ الذي يعلو النَّارُ إذا أُوقِدتْ.

قالَ السديُّ في قولِه: ﴿**إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ**﴾ [المرسلات: ٣٢] قال: زعمُوا أن شررَها ترمي به، كأصولِ الشجرِ ثمَّ يرتفعُ فيمتدُّ، وقالَ القرظيُّ: على جهنمَ سورٌ فما خرج من وراءِ سورِها يخرجُ منها في عظمِ القصورِ ولونِ القارِ.

وقال الحسنُ والضحاكُ في قوله: ﴿**كَالْقَصْرِ**﴾ هو كأصولِ الشجرِ العظامِ، وقالَ مجاهدٌ: قطعُ الشجرِ والجبلِ. وصحَّ عن ابنِ مسعودٍ قالَ: شررٌ كالقصورِ والمدائنِ. وروَى عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ قالَ: ﴿**بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ**﴾ يقولُ: كالقصرِ العظيمِ.

وفي «صحيح البخاريِّ»[1] عن ابنِ عباسٍ، قالَ: كنا نرفعُ من الخشبِ بقصرِ ثلاثةَ أذرعٍ أو أقلَّ نرفعُه للشتاءِ، نُسميه القصرَ.

وقولُه: ﴿**كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ**﴾ [المرسلات: ٣٣] قالَ ابنُ عباسٍ: حبالُ السفنِ يُجمَعُ بعضُها إلى بعضٍ تكونُ كأوساطِ الرجالِ، وقالَ مجاهدٌ: هي حبالُ

(١) البخاري (٦/ ٢٠٤).

الجسورِ، وقالتْ طائفةٌ: هي الإبلُ، منهم الحسنُ وقتادةُ والضحاكُ، وقالوا: الصفرُ هي السودُ. ورُوي عن مجاهدٍ أيضًا.

وقالَ عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ في قولِه: ﴿جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ قالَ: يقولُ: قِطَعُ النحاسِ.

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ [الرحمن: ٣٥] قال عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ يقولُ: لهبُ النَّارِ ﴿وَنُحَاسٌ﴾ يقولُ: دخانُ النَّارِ.

وكذا قالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ وأبو صالحٍ وغيرُهما إنَّ النحاسَ: دخانُ النَّارِ، وقالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ عن ابنِ عباسٍ ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ قالَ: دخانٌ، وقال أبو صالحٍ: الشواظُ: اللهبُ الذي فوقَ النَّارِ ودونَ الدخانِ. قالَ منصورٌ عن مجاهدٍ: الشواظُ: هو اللهب الأخضرُ المتقطعُ. وعنه قالَ: الشواظُ: قطعةٌ من النَّارِ فيها خُضرةٌ.

قالَ الحسينُ بنُ منصورٍ: أخرج الفضيلُ بنُ عياضٍ رأسه من خوخةٍ فقالَ منصورٌ عن مجاهدٍ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥] ثمَّ أدخلَ رأسَه فانتحَب ثم أخرجَ رأسَه، فقالَ: هو اللهبُ المنقطعُ ولم يستطعْ أنْ يجيزَ الحديثَ.

وخرَّجَ النسائيُّ والترمذيُّ[(١)] من حديثِ أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**لا يجتمعُ غبارٌ في سبيلِ اللَّهِ ودخانُ جهنمَ في جوفِ امرئٍ أبدًا**»، وخرَّجَ الإمامُ

---

(١) أخرجه: الترمذي (١٦٣٣)، (٢٣١١)، والنسائي (٦/ ١٢)، وأحمد (٢/ ٥٠٥)، وابن ماجه (٢٧٧٤).

أحمد(١) من حديثِ أبي الدرداءَ عن النبيِّ ﷺ نحوه(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾

قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة:٥١-٥٦].

والنُّزلُ هو ما يعُدُّ للضيفِ عندَ قدومه، فدلتْ هذه الآياتُ على أنَّ أهلَ النَّارِ يتحفُونَ عند دخولِها بالأكلِ من شجرةِ الزقومِ والشربِ من الحميم، وهم إنَّما يُساقُونَ إلى جهنمَ عِطاشًا، كما قالَ تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:٨٦]. قال أبو عمرانَ الجوني: بلغنا أنَّ أهلَ النَّارِ يبعثُون عطاشًا ثمَّ يقفُونَ مشاهدَ القيامةِ عِطَاشًا، ثمَّ قرأَ: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ قال مجاهدٌ في تفسيرِ هذه الآيةِ: متقطعةٌ أعناقُهم عَطَشًا؛ وقالَ مطرٌ الوراق: عِطَاشًا: ظِمَاءً.

وفي «الصحيحين»(٣) عن النبيِّ ﷺ في حديثِ الشفاعة الطويل: «إنَّه يقالُ

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٦/ ٤٤٣).
(٢) «التخويف من النار» (ص ٨٥ - ٨٧).
(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ٥٦، ١٩٨)، (٩/ ١٥٨)، ومسلم (١/ ١١٧) عن أبي سعيد الخدري.

لليهودِ والنصارى: ماذا تبغُون؟ فيقولُون: عَطِشْنا ربَّنا فاسقنا، فيُشارُ إليهم ألا تردِونَ فيُحشرونَ إلى جهنمَ كأنَّهما سرابٌ يحطمُ بعضُها بعضًا، فيتساقطُونَ في النَّارِ».

وقالَ أيوبُ عن الحسنِ: ما ظنُّكَ بقومٍ قاموا على أقدامِهم خمسينَ ألفَ سنةٍ لم يأكُلوا فيها أكلةً ولم يشربُوا فيها شربةً حتَّى انقطعتْ أعناقُهم عطشًا واحترقتْ أجوافُهم جُوعًا، ثمَّ انصرفَ بهم إلى النَّارِ فيُسقَونَ من عينٍ آنيةٍ قدْ آنَ حرُّها واشتدَّ نضجُها.

ورَوى ابنُ المباركِ بإسناده عن كعبٍ، قالَ: إنَّ اللَّهَ ينظرُ إلى عبدِه يومَ القيامةِ وهو غضبانٌ، فيقولُ: خذُوه، فيأخذه مائة ألفِ ملكٍ أو يزيدُون، فيجمعُون بينَ ناصيته وقدميه غضبًا لغضبِ اللَّهِ، فيسحبونه على وجههِ إلى النَّارِ، قالَ: فالنَّارُ أشدُّ عليه غضبًا من غضبهم سبعينَ ضعفًا، قال: فيستغيثُ بشرْبَةٍ، فيُسقَى شربةً يسقطُ منها لحمُه وعصبُه، ثمَّ يركسُ - أو يدكسُ - في النَّارِ، فويلٌ لها من النَّارِ.

قال ابنُ المباركِ: حُدثتُ عن بعضِ أهلِ المدينةِ أنَّه يتفتتُ في أيديهم إذا أخذُوه فيقولُ: ألا ترحمُوني، فيقولُون: كيفَ نرحمُك ولمَ يرحمك أرحمُ الراحمينَ.

وروى الأعمشُ عن مالكِ بن الحارثِ، قال: إذا طُرِحَ الرجلُ في النارِ هوى فيها، فإذا انتهى إلى بعضِ أبوابِها قيلَ: مكانَك حتَّى تُتْحفَ، قال: فيسُقَى كأسًا من سُمِّ الأساودِ والعقاربِ، فيتميزُ الجلدُ على حدةٍ، والشعرُ على حدةٍ، والعصبُ على حدةٍ، والعروقُ على حدةٍ. خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ.

وروى محمدُ بنُ سليمانَ بنِ الأصبهانيِّ، عن أبي سنانَ ضرار بنِ مرة،

عن عبدِ اللَّه بنِ أبي الهذيلِ، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قالَ: «إنَّ جهنمَ لما سيقَ إليها أهلُها تلقتهُم فلفحتهُم لفحةً، فلم تدعْ لحمًا على عظمٍ إلا ألقته على العرقوبِ» خرَّجَه الطبراني[1] ورفْعُه منكرٌ، فقد رواه ابنُ عيينة عن أبي سنانَ عن عبدِ اللَّهِ بنِ أبي الهذيلِ أو غيرِه من قولِه لم يرفعْه. ورواه محمدُ بنُ فضيلٍ عن أبي سنانَ عن عبدِ اللَّهِ بنِ أبي الهذيلِ عن أبي هريرةَ من قولِه في قولِه تعالى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٩] قالَ: تلقاهُم جهنمُ يومَ القيامةِ فتلفحُهم لفحةً، فلا تتركُ لحمًا على عظمٍ إلا وضعتْهُ على العراقيبِ[2].

* * *

وأما شرابُهم فقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ [الواقعة:٥٤]، وقالَ تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]، وقالَ تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ:٢٤، ٢٥]، وقالَ تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص:٥٧، ٥٨]، وقالَ تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ [إبراهيم:١٦، ١٧]، وقالَ تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩].

فهذه أربعةُ أنواعٍ ذكرناها من شرابِهم، وقد ذكرَها اللَّهُ في كتابِه:

النوعُ الأولُ: الحميمُ - قال عبدُ اللَّهِ بنُ عيسى الخراز، عن داودَ، عن عكرمةَ، عن ابنِ عباسٍ: الحميمُ الحارُّ الذي يحرق.

---

(١) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٢٧٨)، (٩٣٦٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «التخويف من النار» (١٥٧، ١٥٨).

وقال الحسنُ والسديُّ: الحميمُ الذي قد انتهى حرُّهُ.

وقال جويبر عن الضحاكِ: يُسقى من حميمٍ يُغلى من يومِ خلقَ اللَّهُ السماواتِ والأرضَ إلى يومِ يُسقَونَه ويُصبُّ على رؤوسِهم.

وقالَ ابنُ وهب عن ابن زيدٍ: الحميمُ دموعُ أعينِهم في النارِ يجتمعُ في حياض النارِ فيُسْقَونَه.

وقال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن:٤٤].

قال محمدُ بنُ كعبٍ: حميمٍ آن: حاضرٌ، وخالفَه الجمهورُ، فقالوا: بل المرادُ بالآن: ما انتهى حرُّه.

وقال شبيبٌ، عن عكرمَة، عن ابنِ عباسٍ: حميمٍ آنٍ: الذي قد انتهى غليُه.

وقال سعيدُ بنُ بشيرٍ عن قتادةَ: قد آنَ طبخُه، منذُ خلقَ اللَّهُ السماواتِ والأرضَ، وقالَ تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية:٥] قال مجاهدٌ: قد بلغَ حرُّها، وحانَ شربُها.

وعن الحسنِ، قالَ: كانت العربُ تقولُ للشيءِ إذا انتهى حرُّهُ حتى لا يكون شيءٌ أحرَّ منه: قد آنَ حرُّهُ، فقالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ يقول: قد أوقدَ اللَّهُ عليها جهنمَ منذُ خُلقتْ، وآنَ حرُّها. وعنه قال: آنَ طبخُها منذُ خلقَ اللَّهُ السموات والأرضَ.

وقال السديُّ: انتهى حرُّها، فليس بعدَه حرٌّ. وقد سبقَ حديثُ أبي الدرداء، في دفعِ الحميمِ إليهم بكلاليبِ الحديدِ.

النوع الثاني: الغسَّاقُ ـ قال ابنُ عباسٍ: الغسَّاقُ: ما يسيلُ من بينِ جلدِ

الكافرِ ولحمِه. وعنه قال: الغسَّاقُ: الزمهريرُ الباردُ، الذي يحرقُ من بردِه.

وعن عبدِ اللَّه بنِ عمرٍو قالَ: الغسَّاقُ: القيحُ الغليظُ، لو أنَّ قطرةً منه تُهرقُ في المغربِ، لأنتنتْ أهلَ المشرقِ؛ ولو أُهرِقَتْ في المشرقِ، لأنتنتْ أهلَ المغربِ.

وقال مجاهدٌ: غسَّاق: الذي لا يستطيعُون أنْ يذوقُوه من بردِه.

وقال عطيةُ: هو ما يغسِقُ من جلودِهم - يعني يسيلُ من جلودِهم.

وقال كعبٌ: غسَّاقٌ: عينٌ في جهنم يسيلُ إليها حمة كلِّ ذاتِ حمةٍ، من حيةٍ وعقربٍ وغيرِ ذلك، فيستنقعُ؛ فيؤتَى بالآدَمي، فيُغمسُ فيها غمسةً واحدةً، فيخرجُ وقد سقطَ جلدُه ولحمُه عن العظامِ؛ ويتعلقُ جلدُه ولحمُه في عقبيهِ وكعبيهِ، ويجر لحمَه، كما يجر الرجلُ ثوبَه.

وقال السديُّ: الغسَّاق: الذي يسيلُ من أعينهِم من دموعِهم، يُسقونَه معَ الحميمِ.

وروى دراجٌ، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: **«لو أنَّ دلوًا من غسَّاقٍ، يُهرَقُ في الدُّنيا، لأنتنَ أهلَ الدُّنيا»** خرَّجَه الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ والحاكمُ وصححَه[1].

وقال بلالُ بنُ سعدٍ: لو أنَّ دلوًا من الغسَّاقِ، وُضعَ على الأرضِ، لماتَ مَنْ عليها. وعنه قالَ: لو أَنَّ قطرةً منه، وَقَعتْ على الأرضِ، لأنتنَ مَن فيها. خرَّجَه أبو نعيمٍ.

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٢٨، ٨٣)، والترمذي (٢٥٨٤)، والحاكم (٤/ ٦٠٢).

وقدْ صرحَ ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، بأنَّ الغسَّاق ههنا هو الباردُ الشديدُ البردِ. ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ:٢٤، ٢٥].

فاستثنى من البردِ الغسَّاقَ ومن الشرابِ الحميمَ.

وقد قيل: إن الغسَّاقَ هو الباردُ المنتنُ، وليس بعربيٍّ. وقيل: إنَّه عربيٌّ، وإنه فَعّال من غسَقَ يَغسِقُ، والغاسقُ: الليلُ، وسُمِّيَ غاسقًا لبردِه.

النوع الثالث: الصَّدِيدُ: ـ قال مجاهدٌ في قولِه تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:١٦].

قال: يعني القيحَ والدَّمَ، وقالَ قتادةُ: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ قال: ما يسيلُ من بينِ لحمِه وجلدِه؛ قالَ: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ [إبراهيم:١٧] قالَ قتادةُ: هلْ لكُم بهذا يدانِ، أم لكُم على هذا صبرٌ؟ طاعةُ اللَّهِ أهونُ عليكُم ـ يا قوم ـ فأطيعُوا اللَّهَ ورسولَه.

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ[1]، من حديثِ أبي أمامةَ، عن النبيِّ ﷺ، في قولِه: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ﴾ [إبراهيم: ١٦-١٧].

قال: يقربُ إلى فيه فيكرعُهُ، فإذا أُدني منه، شَوى وجهَه، ووقعت فروةُ رأسِه؛ فإذا شَرِبه قطَّعَ أمعاءَه، حتَّى يخرجَ من دبرِه، يقولُ اللَّهُ تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥].

وقال: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٢٦٥)، والترمذي (٢٥٨٣)، والنسائي في «الكبرى» «تحفة الأشراف» (٤٨٩٤).

مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩].

وروى أبو يحيى القتات، عن مجاهدٍ، عن ابنِ عباسٍ قالَ: في جهنَّم أوديةٌ من قيحٍ تكتازُ ثمَّ تُصَبُّ في فِيهِ.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[1] عن جابرٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إنَّ على اللَّه عهدًا لمن شَرِبَ المسكراتِ ليسقيَه من طينة الخبال**»، قالوا: يا رسولَ اللَّه! وما طينةُ الخَبَالِ؟ قال: «**عَرَقُ أهلِ النَّارِ أو عُصَارَةُ أهلِ النَّارِ**».

وخرَّج الإمامُ أحمدَ والنسائيُ وابنُ ماجه وابنُ حبانَ في «صحيحه»[2] من حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ عن النبيِّ ﷺ نحوَه، إلا أنَّه ذكرَ ذلك في المرةِ الرابعةِ، وفي بعضِ الرواياتِ «**منْ عينِ الخبالِ**».

وخرَّج الترمذيُّ[3] من حديثِ عبدِ اللَّه بنِ عمرَ نحوَه عن النبيِّ ﷺ إلا أنَّه قال: «**من نهر الخبال**»، قِيلَ: يا أبا عبدِ الرحمنِ ما نهرُ الخبال؟ قالَ: نهرٌ من صديدِ أهلِ النَّارِ. وقالَ: حديثٌ حسنٌ.

وخرَّج أبو داود[4] من حديثِ ابنِ عباسٍ عن النبيِّ ﷺ نحوَه، وقالَ: «**من طينةِ الخبالِ**» قِيلَ: يا رسولَ اللَّه ما طينةُ الخبالِ؟ قالَ: «**صديدُ أهلِ النَّارِ**»، وفي روايةٍ أُخرى قالَ: «**ما يخرجُ من زهومة أهلِ النَّارِ وصديدهم**». وخرَّج الإمامُ أحمدَ بمعناه أيضًا من حديثِ أبي ذرٍّ[5] وأسماءَ بنتِ يزيدَ[6] عن النبيِّ ﷺ.

وخرَّج الإمامُ أحمدَ وابنُ حبانَ في «صحيحِه»[7] من حديثِ أبي موسى

(١) أخرجه: مسلم (٦/ ١٠٠).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ١٧٦)، وابن ماجه (٣٣٧٧)، والنسائي (٨/ ٣١٧)، وابن حبان (٥٣٥٧).

(٣) أخرجه: الترمذي (١٨٦٢)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٣٥).

(٤) أخرجه: أبو داود (٣٦٨٠).

(٥) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ١٧١).

(٦) السابق (٦/ ٤٦٠).

(٧) السابق (٤/ ٣٩٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٣٤٦).

عن النبيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ ماتَ وهو مدمنُ خمرٍ سقاه اللَّهُ من نهرِ الغوطة»، قيلَ: وما نهرُ الغوطةِ؟ قال: «نهرٌ يخرجُ من فروجِ المومساتِ يؤذي أهلَ النَّارِ نتنُ فروجِهم».

وقد سبقَ حديثُ عمرِو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبيِّ ﷺ في المتكبرين وفيه: «يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال».

النوعُ الرَّابعُ: الماءُ الذي كالمهلِ، خرَّج الإمامُ أحمد والترمذيُّ[١] من حديثِ دراجٍ عن أبي الهيثمِ عن أبي سعيدٍ عن النبيِّ ﷺ في قولهِ: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ [الكهف/ ٢٩ ـ الدخان/ ٤٥ ـ المعارج/ ٨] قال: «كعكرِ الزيتِ، فإذا قربَ إلى وجهه سقطتْ فروةُ وجهِه فيه».

قال عطيةُ: سُئِلَ ابنُ عباسٍ عن قولهِ: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ قال: غليظٌ كدردي الزيتِ، قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ عن ابنِ عباسٍ: أسود كمهلِ الزيتِ؛ وكذا قالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ وغيرُه.

قال الضحاكُ: أذابَ ابنُ مسعودٍ فضةً من بيتِ المالِ ثمَّ أرسلَ إلى أهلِ المسجدِ، فقالَ: من أحبَّ أن ينظرَ إلى المهلِ فلينظرْ إلى هذا.

وقال مجاهدٌ: بماءٍ كالمهلِ: مثلُ القيحِ والدمِ أسود كعكرِ الزيتِ.

وخرَّج الطبرانيُّ[٢] من طريقِ تمامِ بنِ نجيح عن الحسنِ عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ: «لو أنَّ غربًا جُعِلَ من حميمِ جهنمَ وجُعِلَ وسطُ الأرضِ لآذى نتنُ ريحه وشدَّةُ حرِّه ما بينَ المشرقِ والمغربِ».

وفي موعظةِ الأوزاعيِّ للمنصورِ قال: بلغَني أنَّ جبريلَ قالَ للنبيِّ ﷺ: «لو

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٧٠)، والترمذي (٢٥٨١)، (٣٣٢٢).
(٢) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٣٦٨١).

أنَّ ذَنُوبًا من شرابِ جهنمَ صُبَّ في ماءِ الأرضِ جميعًا لقتل من ذاقه».

خرجَ بعضُ المتقدمينَ فمر بكرومٍ بقريةٍ يقالُ لها: طيزناباد، وكأنَّه كانَ يُعصرُ فيها الخمرُ، فأنشدَ يقولُ:

بطيزناباد كَرْمٌ ما مررتُ به ... إلا تعجبتُ ممن يشربُ الماءَ

فهتف به هاتف يقول:

وفي جهنمَ ماءٌ ما تجرعهُ ... حلقٌ فأبقى له في البطنِ أمعاء[1]

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعت الوزير[2] يقول في قولهِ تعالى: **﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾** [الواقعة:٦٥]، **﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾** [الواقعة:٧٠]، قال: تأملتُ دخولَ اللامِ وخروجَها فرأيتُ المعنى: أنَّ اللامَ تقعُ للاستقبال، تقولُ: لأضربنَّك، أي: فيما بعدُ، لا في الحال، والمعنى: **﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾** [الواقعة:٦٣ ـ ٦٥]، أي: في مستقبلِ الزَّمان إذا تمَّ فاستحصدَ، وذلك أشدُّ العذابِ، لأنَّها حالةُ انتهاء

(١) «التخويف من النار» (١١٧ ـ ١٢١).

(٢) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

تعبِ الزراعِ، واجتماعِ الدَّيْنِ عليهِ، لرجاء القضاءِ بعدَ الحصاد مع فراغِ البيوتِ من الأقواتِ.

وأمَّا في الماء، فقالَ: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:٧٠] أي: الآنَ؛ لأنَّا لو أخَّرْنا ذلك لشربَ العطشانُ، وادَّخرَ منه الإنسانُ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾

وكان من السلفِ من إذا رأى النارَ اضطربَ وتغيرتْ حالُه، وقد قالَ تعالىَ ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ [الواقعة:٧٣] قال مجاهدٌ وغيرُه: يعني أن نارَ الدنيا تذكرُ بنارِ الآخرةِ.

وقال أبو حيانَ التيميّ: سمعتُ منذُ ثلاثينَ سنة أو أكثرَ من ثلاثينَ سنة أنَّ عبدَ اللَّه بنَ مسعودٍ مَرَّ على الذينَ ينفخُونَ على الكيرِ فسقَطَ، خرجه الإمامُ أحمدُ.

وخرج ابنُ أبي الدنيا من روايةِ سعدِ بنِ الأخرمِ، قالَ: كنتُ أمشِي معَ ابنِ مسعودٍ فمرَّ بالحدادينَ وقد أخرجُوا حديدًا من النارِ، فقامَ ينظرُ إليه ويبكِي.

وعن عطاءٍ الخراسانيِّ قال: كانَ أويس القرنيُّ يقفُ على موضعِ الحدادينَ فينظرُ إليه كيفَ ينفخونَ الكيرَ، ويسمعُ صوتَ النارِ فيصرخُ ثم يسقطُ.

وعن ابن أبي الذبابِ: أن طلحةَ وزيدًا مرَّا بكيرِ حدادٍ فوقفَا ينظرانِ إليه ويبكيانِ.

---

(١) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٧٢).

قال الأعــمشُ: أخبرني من رأى الربيعَ بن خـثيمٍ مرَّ بـالحدادينَ فنظر إلى الكيرِ وما فيه فخرَّ.

وقال مطر الوراقُ: كان حممةُ وهرمُ بنُ حيانَ إذا أصبحَا غدَيا فمرَّا بأكْورَةِ الحدادينَ، فنظرَا إلى الحـديدِ كيفَ ينفخُ، فيقـفانِ ويبكيانِ، ويستـجيرانِ من النارِ.

وقال حمادُ بــنُ سلمةَ عن ثابتٍ: كانَ بشيرُ بنُ كعبٍ وقـراءُ البصرةِ يأتونَ الحدادينَ فينظرونَ إلى شهيقِ النارِ فيتعوذونَ باللَّهِ من النارِ.

وعن العلاءِ بنِ محمدٍ قالَ: دخلتُ على عطاء السلميِّ فرأيتُه مغشيًّا عليه، فقلتُ لامرأتِهِ: ما شأنُه؟ قالتْ: سجرتْ جارةٌ لنا التنورَ فلمَّا نظرَ إليه غُشِيَ عليهِ.

وعن معـاويةَ الكنديِّ قالَ: مـرَّ عطاءٌ السلميُّ على صـبيٍّ معهُ شـعلةُ نارٍ فأصابت النارَ الريحُ، فسمعَ ذلك منها، فغشِيَ عليهِ.

وقال الحسنُ: كـان عمرُ ﷺ ربَّما توقـدُ له النارُ ثم يدْني يديه منهَا، ثم يقولُ: يا ابنَ الخطابِ هلْ لكَ على هذا صبرٌ.

وكان الأحنفُ بنُ قـيسٍ يجئُ إلى المصباحِ بالليلِ فيـضعُ أصبعهُ فـيه، ثم يقولُ: حِس حِس، ثم يقولُ: يا حنيفُ مـا حملكَ على ما صنعتَ يومَ كذا، ما حملكَ على ما صنعتَ يومَ كذا؟.

وقال البختريُّ بنُ حارثةَ: دخلتُ على عابدٍ، فإذَا بين يديهِ نارٌ قد أجَّجَهَا، وهوَ يعاتبُ نفسهُ ولم يزلْ يعاتِبُها حتى ماتَ.

وكانَ كثيـرٌ من الصالحينَ يذكرُ النارَ وأنواعَ عذابِها برؤيةِ ما يشـبُهُ بها في

الدُّنيا، أو يذكرُهُ بِهَا كرؤيةِ البحرِ وأمواجِهِ والرؤوسِ المشويةِ، وبكاءِ الأطفالِ، وفي الحرِّ والبردِ، وعند الطعامِ والشرابِ وغيرِ ذلكَ، وسنذكرُ ما تيسرَ من ذلكَ مفرَّقًا في مواضِعِهِ إن شاءَ اللَّهُ تعالى.

وأنَّ منهم من كانَ يذكرُ النارَ بدخولِ الحمامِ، وروى ليثٌ عن طلحة قال: انطلقَ رجلٌ ذاتَ يومٍ فنزعَ ثيابَهُ وتمرغَ في الرمضاءِ وهو يقولُ لنفسِهِ: ذوقي نارَ جهنمَ ذوقي ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة:٨١] جيفةٌ بالليلِ بطالةٌ بالنهارِ، فبينا هو كذلك إذا أبصرَ النبيَّ ﷺ في ظلِّ شجرةٍ فأتاهُ، فقالَ: غلبتْني نفسِي، فقالَ له النبيُّ ﷺ: «**ألم يكنْ لك بدٌّ من الذي صنعتَ؟ لقد فُتحتْ لك أبوابُ السماءِ، ولقد باهَى اللَّهُ بكَ الملائكةَ**» خرجهُ ابنُ أبي الدنيا وهو مرسلٌ، وخرجَ الطبرانيُّ نحوَهُ من حديثِ بريدةَ موصولاً، وفي إسنادهِ من لا يعْرفُ حالُه، واللَّهُ أعلم[١].

* * *

ومِن أعظمِ ما يُذكِّرُ بنارِ جهنمَ: النَّارُ التي في الدنيا، قال اللَّه تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة:٧٣]، يعني أنَّ نارَ الدُّنيا جعلها اللَّه تذكرةً تذكِّرُ بنارِ الآخرةِ. مرَّ ابنُ مسعودٍ بالحدَّادين وقد أخرجُوا حديدًا من النارِ، فوقفَ ينظرُ إليه ويبكي.

ورُوي عنه: أنَّه مرَّ على الذين ينفُخُون الكيرَ فسقطَ.

وكان أويس يقفُ على الحدَّادين فينظرُ إليهم كيف ينفخونَ الكيرَ، ويسمعُ صوتَ النَّار، فيصرخُ، ثم يسقُطُ. وكذلك الرَّبيع بنُ خُثيم. وكان كثيرٌ من

(١) «التخويف من النار» (٢٤ ـ ٢٥).

السَّـلف يخرجـونَ إلى الحـدَّادينَ ينظـرونَ إلى ما يصنعونَ بالحـديـدِ، فيبكونَ ويتعوَّذون باللَّهِ من النَّارِ.

ورأى عطاءٌ السَّليمي امرأةً قد سجرت تـنورَها، فغُشي عليه. قال الحسنُ: كانَ عمـرُ رُبَّما تُوقدُ له النَّارُ، ثم يُدني يدَه منهـا، ثم يقول: يا ابنَ الخطاب! هل لك على هذا صبرٌ؟

كانَ الأحنفُ بنُ قـيسٍ يجيءُ إلى المصبـاحِ فيـضعُ أُصبعَـه فيـه، ويقول: حسِّ، ثمَّ يُعاتبُ نفسه على ذنوبهِ.

أجَّجَ بعضُ العبَّادِ نارًا بين يديه وعاتبَ نفسه، فلم يزلْ يعاتبُها حتى مات.

نارُ الدنيا جُزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنَّم، وغُسلَت بالبحر مرتين حتى أشرقت وخفَّ حـرُّها، ولولا ذلك ما انتفعَ بها أهلُ الدُّنيـا، وهي تدعو اللَّهَ ألا يعيدَها إليـها. قال بعضُ السَّلف: لو أُخرجَ أهلُ النار منـها إلى نار الدنيا لقالُوا فيها ألفَي عام. يعني أنهم كانُوا ينامُون فيها ويرونها بردًا.

كان عمـرُ يقول: أكثروا ذِكرَ النَّارِ؛ فـإنَّ حرَّها شديدٌ، وإنَّ قعـرها بعيدٌ، وإنَّ مقامعها حديدٌ.

كان ابنُ عمر وغيرُه من السَّلف إذا شربوا ماءً باردًا بكوا وذكروا أمنيَّةَ أهل النار وأنَّهم يشتهـون الماء الباردَ، وقد حيلَ بينهم وبينَ ما يشتـهونَ، ويقولون لأهل الجنة: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠]، فيقولُونَ لهم: إنَّ اللَّهَ قد حرمَـهما على الكافرينَ. والمصيـبةُ العُظْمى حينَ تطبُقُ النَّارُ على أهلِها، وييأسونَ من الفرجِ، وهو الفزعُ الأكبرُ الذي يأمنُه أهلُ الجنةِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

لو أبصرتْ عيناكَ أهلَ الشَّقَا ... سِيقوا إلى النَّار وقَدْ أُحْرِقُوا
شرابُهُمُ المُهْلُ في قَعْرِها ... إذ خالَفُوا الرُّسْلَ وما صَدَّقُوا
تقولُ أخراهُمْ لأولاهُمُ ... في لُجج المُهْلِ وقد أُغْرِقوا
قد كُنْتُمُ خُوِّفْتُمُ حَرَّها ... لكن مِن النِّيران لم تَفْرُقُوا
وَجِيء بالنِّيران مَذْمُومَةً ... شَرَارُها مِنْ حَوْلِها مُحْدِقُ
وقيلَ للنِّيران أَنْ أَحْرِقي ... وقيلَ للخُزَّان أن أَطْبِقُوا[(١)]

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتجعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُم تُكذِّبُونَ﴾

[قال البخاري][(٢)]: قَوْلُ اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتَجعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُم تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٨٢] قَالَ ابنُ عبَّاسٍ: شُكرَكُمْ.

قالَ آدمُ بنُ أبي إياسٍ في «تفسيره»: نا هشيمٌ، عن جعفرِ بنِ إياسٍ، عن سعيدِ بنِ جبيرٍ، عنِ ابنِ عباسٍ، في قولِه: ﴿وَتَجعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي: شكركم ﴿أَنَّكُم تُكَذِّبُونَ﴾ قال: هو قولُهم: مُطرنَا بنوءِ كذَا وكذَا.

قال ابنُ عباسٍ: وما مُطرَ قومٌ إلا أصبحَ بعضُهَم به كافرًا، يقولونَ: مُطرنا بنوءِ كذا وكذا.

ثمَّ خرَّج في سببِ نزولِها من روايةِ الكلبيِّ، عن أبي صالحٍ، عن ابنِ عباسٍ.

وقد خرَّجه مسلمٌ في «صحيحه»[(٣)] من روايةِ عكرمةَ بنِ عمارٍ: حدثني

(١) «لطائف المعارف» (٥٥٦ ـ ٥٥٧).
(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ٤١).
(٣) أخرجه: مسلم (١/ ٦٠).

أبو زميلٍ: حدثني ابنُ عباسٍ، قال: مُطرَ الناسُ علَى عهدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**أصبحَ منَ الناسِ شاكرٌ، ومنهم كافرٌ، قالوا: هذا رحمةُ وضعَها اللَّهُ، وقال بعضهم: لقد صدقَ نوءُ كذا وكذا**»، فنزلتْ هذه الآيةُ: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ**﴾ حتَّى بلغَ ﴿**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢].

وروى عبدُ الأعلَى الثعلبيُّ، عن أبي عبدِ الرحمنِ السلميِّ، عن عليٍّ، عن النبيِّ ﷺ: ﴿**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾ قال: «**شكرَكم، تقولُون: مُطِرْنا بنوءِ كذَا وكذَا، وبنجمِ كذَا وكذَا**».

خرجه الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ(١).

وقال: حسنٌ غريبٌ، لا نعرفه - مرفوعًا - إلا من حديث إسرائيلَ، عن عبد الأعلى.

ورواه سفيانُ عن عبدِ الأعلَى - نحوَه -، ولم يرفَعْه.

ثم خرَّجه من طريقِ سفيانَ - موقوفًا على علي(٢).

وكان سفيانُ ينكرُ علَى مَن رفعَه.

وعبدُ الأعلَى هذا، ضعَّفَه الأكثرونَ. ووثقه ابنُ معينٍ.

وخرجَ القاضِي إسماعيلُ في كتابه «أحكامُ القرآن» كلامَ ابنِ عباسٍ بالإسنادِ المتقدمِ، عن سعيدِ بنِ جبيرٍ، أن ابنَ عباسٍ كان يقرؤها: ﴿وتجعلون شكركم﴾، تقولونَ: على ما أنزلْتُ من الغيثِ والرحمةِ، تقولونَ: مُطرْنا بنوءِ كذا وكذا. قال: فكان ذلك كفرًا منهم لِمَا أنعمَ اللَّهُ عليهم.

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (١/ ٨٩، ١٠٨)، والترمذي (٣٢٩٥).
(٢) السابق (١/ ١٠٨).

نا إسماعيلُ: حدَّثني مالكٌ، عن صالحِ بنِ كيسانَ، عنْ عُبَيدِ اللَّهِ بنِ عبدِ اللَّه بنِ عُتبَةَ بنِ مسعُودٍ، عن زيدِ بنِ خالد الجُهنيِّ، أنَّهُ قالَ: صلَّى لنا رسولُ اللَّه ﷺ صلاةَ الصُّبح بالحديبيةِ علَى إثْرِ سماءٍ كانتْ من اللَّيلِ، فلمَّا انصرفَ النَّبيُّ ﷺ أقبلَ علَى النَّاسِ، فقالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمُ؟**» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبادِي مُؤْمِنٌ بِي وكافرٌ، فأمَّا من قالَ: مُطِرْنَا بفضلِ اللَّهِ ورحمتِه، فذلكَ مُؤْمنٌ بِي كافرٌ بالكوكَبِ، وأمَّا منْ قالَ: بنَوءِ كذَا وكذَا، فذلك كافرٌ بي مُؤْمنٌ بالكَوْكَبِ**»[1] .

قولُه: «على إثرِ سماءٍ»، أي: مطرٍ كانَ منَ الليلِ.

والعربُ تسمِّي المطرَ سماءً؛ لنزولهِ منَ السماءِ، كما قالَ بعضُهم:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ، وَإِنْ كَانُوا غِضَابًا

وقولُهُ ﷺ: «**هَلْ تدرونَ ماذَا قالَ ربكمْ؟**» - وفي بعضِ الرواياتِ: «**الليلةَ**» - وهي تدلُّ على أن اللَّه تعالى يتكلَّمُ بمشيئتِه واختيارِه.

كما قالَ الإمامُ أحمدُ: لم يزلِ اللَّهُ متكلِّمًا إذا شاءَ.

وقولُه: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وكافرٌ، فأمَّا من قالَ: مُطِرْنَا بفضلِ اللَّهِ ورحمتِه، فذلكَ مُؤْمنٌ بِي كافرٌ بالكوكَبِ، وأمَّا منْ قالَ: بنَوءِ كذَا وكذَا، فذلك كافرٌ بي مُؤْمنٌ بالكَوْكَبِ**».

يعني: أنَّ مَن أضافَ نعمةَ الغيثِ وإنزالهِ إلى الأرضِ إلى اللَّهِ عز وجل وفضلِه ورحمتِه، فهو مؤمنٌ باللَّهِ حقًّا، ومَن أضافَه إلى الأنْواءِ، كما كانتِ الجاهليةُ تعتادُه، فهو كافرٌ باللَّهِ، مؤمنٌ بالكوكبِ.

(١) أخرجه: البخاري (٢/ ٤١).

قال ابنُ عبدِ البرِّ: النوءُ في كلامِ العربِ: واحدُ أنْواءِ النجومِ، وبعضُهم يجعلُه الطالعَ، وأكثرهُم يجعلُه الساقطَ، وقد تسمَّى منازلُ القمرِ كلُّها أنواءً، وهي ثمانيةٌ وعشرونَ.

وقال الخطابيُّ، النوْءُ واحدُ الأنواءِ، وهي الكواكبُ الثمانيةُ والعشرونَ التي هي منازلُ القمرِ، كانوا يزعمونَ أنَّ القمرَ إذا نزل ببعضِ تلكَ الكواكبِ مُطِروا، فجعل النبيُّ ﷺ سقوطَ المطرِ من فعلِ اللَّهِ دونَ غيرِه، وأبطل قولَهم. انتهى.

وقال غيرُه: هذه الثمانيةُ وعشرونَ منزلاً تطلعُ كلَّ ثلاثةَ عشرَ يومًا منزلَ صلاةِ الغداةِ بالمشرقِ، فإذا طلعَ رقيبُه منَ المغربِ؛ فسمِّيت أنواءً لهذا المعنى.

وهو من الأضدادِ، يقال: ناءَ إذا طلعَ، وناء إذا غربَ، وناءَ فلانٌ إذا قربَ، وناء إذا بعدَ.

وقد أجرى اللَّهُ العادة بِمَجيء المطر عند طلوعِ كلِّ منزلٍ منها، كما أجرى العادة بِمجيءِ الحرِّ في الصيف، والبردِ في الشتاءِ.

فإضافةُ نزولِ الغيثِ إلى الأنْواءِ، إنِ اعتقدَ أنَّ الأنواءَ هي الفاعلةُ لذلك، المدبرةُ له دونَ اللَّهِ عز وجل، فقد كفرَ باللَّهِ، وأشركَ به كفرًا ينقله عن ملةِ الإسلامِ، ويصيرُ بذلك مرتدا، حكمُه حكمُ المرتدينَ عن الإسلامِ، إن كان قبل ذلك مسلمًا.

وإن لم يعتقدْ ذلكَ، فظاهرُ الحديثِ يدلُّ على أنه كفرُ نعمةِ اللَّهِ.

وقد سبقَ عنِ ابنِ عباسٍ، أنه جعلَه كفرًا بنعمة اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

وقد ذكرنا في «كتابِ الإيمان» أن الكفرَ كفرانِ: كفرٌ ينقلُ عن الملةِ، وكفرٌ

دون ذلكَ، لا ينقلُ عن الملة، وقد بوَّب البخاريُّ عليه هنالك.

فإضافةُ النِّعَم إلى غيرِ المنعمِ بها بالقولِ كفرٌ للمنعمِ في نعمه، وإن كان الاعتقادُ يخالفُ ذلك.

والأحاديثُ والآثار متظاهرةٌ بذلك.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[1]، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، قال: **«ألمْ تروْا إلى ما قالَ ربُّكم؟ قال: ما أنعمتُ علَى عبادِي من نعمةٍ إلا أصبحَ فريقٌ منهم بها كافرينَ، يقولون: الكوكب وبالكوكب»**.

وروي من وجهٍ آخر[2]، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، قال: **«إن اللَّهَ عزَّ وجلَّ ليُبَيِّتُ القومَ بالنعمةِ، ثم يُصبحُونَ وأكثرُهم بها كافرٌ، يقولون: مُطِرْنا بنوْءِ كذا وكذا»**.

وروى أبو سعيدٍ الخدريُّ، عن النبي ﷺ، قال: **«لو أمسكَ اللَّهُ القطرَ عن الناسِ سبعَ سنينَ، ثم أرسلَه، كفرتْ طائفةٌ منهم، فقالوا: هذا من نوْءِ المِجْدَحِ»**[3].

وروى أبو الدرداء، قال: مُطرنا على عهدِ رسولِ اللَّه ﷺ ذات ليلة، فأصبحَ رسولُ اللَّه ﷺ ورجلٌ يقولُ: مُطرنا بنوءِ كذا وكذا، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«قَلَّمَا أنعمَ اللَّهُ علَى قومٍ نعمةً، إلا أصبحَ كثيرٌ منهم بِها كافرينَ»**[4].

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[5]، عن أبي مالكٍ الأشعريِّ، عن النبيِّ ﷺ، قال:

---

(١) مسلم (١/ ٥٩).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٥٢٥).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٧٠)، والنسائي (٣/ ١٦٥).

(٤) عزاه في «الكنز» للطبراني.

(٥) مسلم (٣/ ٤٥).

«أربعٌ في أمتي من أمرِ الجاهليةِ، لا يتركونَهنَّ: الفَخْر في الأحساب، والطعنُ في الأنسابِ، والاستسقاءُ بالنجومِ، والنياحةُ».

وخرج البخاريُّ في «صحيحه»[1]، من روايةِ ابنِ عيينةَ، عن عبيدِ اللَّهِ: سمعَ ابنَ عباسٍ يقول: «خلالٌ من خلالِ الجاهليةِ: الطعنُ في الأنسابِ، والنياحةُ»، ونَسِيَ الثالثةَ: قال سفيان: ويَقُولون: إنها «الاستسقاءُ بالأنواءِ».

وروي عن ابنِ عباسٍ - مرفوعًا - من وجهٍ آخر ضعيفٍ.

وخرج ابنُ حبانَ في «صحيحه»[2] - معناه - من حديثِ أبي هريرةَ - مرفوعًا.

وروى ابنُ عيينَةَ، عن إسماعيلَ بنِ أميةَ، أنَّ النبي ﷺ سمع رجلاً في بعضِ أسفارِه يقول: مُطِرْنا ببعضِ عَثانين الأسدِ، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«كذبتَ، بل هو سقي اللَّه عزَّ وجلَّ، ورزقُه»**[3].

وذكر مالكٌ[4]، أنه بلغَه عن أبي هريرةَ، أنه كانَ يقولُ: مُطِرْنا بنوْءِ الفتحِ، ثم يتلو هذه الآية: ﴿**مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا**﴾ [فاطر: ٢].

وذكر الشافعيُّ[5] أنه بلغه، أن عمرَ سمع شيخًا يقول - وقد مطرَ الناسُ -: أجَادَ مَا أَقْرَى المِجْدَح الليلةَ، فأنكر ذلك عمرُ عليه.

---

(١) البخاري (٥/ ٥٦).

(٢) أخرجه: ابن حبان (٣١٤١).

(٣) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (٢٧/ ١٢٠).

(٤) «الموطأ» (ص ١٣٦).

(٥) «الأم» (١/ ٢٢٣).

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِه، عن سلمٍ العلويِّ، قال: كنا عند أنسٍ، فقال رجل: إنها لمخيلة للمطرِ، فقال أنس: إنها لربِّها لمطيعةٌ.

يشير أنسٌ إلى أنه لا يضافُ المطرُ إلى السحابِ، بلْ إلى أمرِ اللَّهِ ومشيئته.

وذكر ابنُ عبدِ البرِّ، عن الحسنِ، أنه سمعَ رجلاً يقولُ: طلع سهيلٌ، وبردَ الليلُ، فكره ذلكَ، وقال: إن سهيلاً لم يأت قطُّ بِحَرٍّ ولا بردٍ.

قال: وكره مالكٌ أن يقولَ الرجلُ للغيمِ والسحابة: ما أخلقَها للمطرِ.

قال: وهذا يدلُّ على أن القومَ احتاطُوا، فمنعوا الناسَ منَ الكلامِ بما فيه أدنى متعلَّق مِن كلامِ الجاهليةِ في قولِهم: مُطرنا بنوءِ كذا وكذا. انتهى.

واختلف الناسُ في قول القائل: «مُطِرنْا بنوْءِ كذا وكذا» مِن غيرِ اعتقادِ أهلِ الجاهليةِ: هو هو مكرُوه، أو محرَّمٌ؟

فقالت طائفةٌ: هو محرمٌ، وهو قولُ أكثرِ أصحابِنا، والنصوصُ تدلُّ عليه، كما تقدم.

وقال طائفة: هل مكرُوه، وهو قولُ الشافعيِّ وأصحابِه، وبعضِ أصحابِنا.

فأما إن قالَ: «مُطِرْنا في نوْءِ كذا وكذا»، ففيه لأصحابنا وجهان:

أحدهما: أنه يجوزُ، كقوله: «في وقت كذا وكذا»، وهو قولُ القاضِي أبي يعلَى وغيرِه.

ورُوي عن عمرَ رضي الله عنه، أنه قال للعباسِ رضي الله عنه، وهو يستسقِي: يا عباسُ، كم بقيَ مِن نوْءِ الثريَّا؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين، إن أهلَ العلمِ بها يزعمونَ أنها تعترض بالأفقِ بعدَ وُقُوعِهَا سبعًا، فما مضتْ تلك السبعُ حتى أغيثَ الناسُ.

رواه ابنُ إسحاقَ، عن محمدِ بنِ إبراهيمَ بنِ الحارثِ، عن ابنِ المسيبِ، قال: حدثني من لا أتهمُ، عن عمرَ ـ فذكره.

والوجهُ الثاني: أنه يُكْرَه، إلا أن يقولَ مع ذلك: «برحمةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ»، وهو قولُ أبي الحسن الآمديِّ مِن أصحابِنا.

واستدلَّ للأول بما ذكرَ مالكٌ في «الموطإ»[1]، أنه بلغَه، أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يقولُ: «**إذا نشأتْ بحريَّتُها فَشَاءَمَتْ، فتلك عينٌ غَديقةٌ**».

وهذا من البلاغاتِ لمالكٍ التي قيل: إنه لا يعرَفُ إسنادُها.

وقد ذكرَه الشافعيُّ[2]، عن إبراهيمَ بنِ محمدِ بنِ أبي يحيى، عنْ إسحاقَ بنِ عبدِ اللَّهِ، عنِ النبيِّ ﷺ ـ مرسلاً ـ، قال: «**إذا نشأتْ بَحْرِيَّةً، ثم استحالتْ شاميةً، فهو أمطرُ لها**».

قال ابنُ عبدِ البرِّ: ابنُ أبي يحيى، مطعونٌ عليه متروكٌ.

وإسحاقُ، هو: ابن أبي فروةَ، ضعيفٌ ـ أيضًا ـ متروكٌ.

وهذا لا يَحتَجُّ به أحدٌ من أهل العلمِ.

قلت: وقد خرجه ابنُ أبي الدنيا من طريقِ الواقديِّ: نَا عبدُ الحكيمِ بنُ عبدِ اللَّهِ بن أبي فروةَ: سمعتُ عوفَ بنَ الحارثِ: سمعتُ عائشةَ تقولُ: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: «**إذا أنشاتِ السحابةُ بحريةً، ثم تشاءَمت، فتلك عينٌ**» ـ أو قالَ: «**عامٌ غديقةٌ**»[3].

يعني: مطرًا كثيرًا.

---

(1) «الموطأ» (ص ١٣٦).

(2) «الأم» (١/ ٢٢٥).

(3) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٧٧٥٧).

والواقديُّ: متروك ـ أيضًا.

والمعنى: أنَّ السحـابةَ إذا طلعتْ بالمدينةِ من جهـةِ البحـرِ، ثمَّ أخذتْ إلى ناحيةِ الشامِ، جاءتْ بمطرٍ كثيرٍ، وهو الغدَقُ.

قال تعالى: ﴿لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

وقيَّده ابنُ عبدِ البرِّ: «غُدَيقةٌ» بضمِّ الغينِ بالتصغيرِ.

ومن هذا المعنـى: قـولُ اللَّه عـزَّ وجلَّ: ﴿فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا﴾ [الذاريات: ٢]، وفسَّره عليُّ بنُ أبي طالبٍ وابنُ عباسٍ ومَن بعدَهُما بالسحابِ.

قال مجاهدٌ: تحملُ المطر[1].

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾

قال آدمُ بنُ أبي أياسٍ: حدثنا حمادُ بنُ سلمةَ، عن عطاءِ بنِ السائبِ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ أبي ليلى، قالَ: تلا رسولُ اللَّه ﷺ هذه الآيات: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾، إلى قـولِه: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ

(١) «فتح الباري» (٦/ ٣٣٤ ـ ٣٤١).

نعيمٍ﴾، إلى قوله: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [الواقعة:٨٣-٩٤]، قال: «إذا كـانَ عندَ الموتِ قيـلَ له هذا، فإن كـانَ من أصـحابِ اليـمينِ أحبَّ لقـاءَ اللَّه وأحبَّ اللَّهُ لقاءَهُ، وإن كانَ من أصحابِ الشمالِ كَرِهَ لقاءَ اللَّهِ وكرِهَ اللَّهُ لقاءَه».

وخرَّجَ الإمـامُ أحمدُ، من طريقِ همّـامٍ، عن عطاءِ بنِ السائبِ، سـمعتُ عبدَ الرحـمنِ بنِ أبي ليلَى - وهو يتبعُ جنازةً يقولُ: حـدثني فلانُ بن فلان، سمعَ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «مَن أحبَّ لقاءَ اللَّهِ أحبَّ اللَّهُ لقـاءَهُ، ومن كرِهَ لقاءَ اللَّه كرِهَ اللَّهُ لقاءَهُ». فأكبّ القوم يبكونَ. قال: «ما يبكيكُم؟» قالوا: إنا نكرهُ الموتَ. قال: «ليسَ ذاك، ولكنَّه إذا حُـضِرَ: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ فـإذا بشـرَ بذلكَ أحبَّ لقـاءَ اللَّه، واللَّهُ للقـائه أحبُّ. ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾. وفي قراءة ابن مسعود: ﴿ثُمَّ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾. فإذا بشرَ بذلكَ كرِهَ لقاءَ اللَّهِ واللَّهُ للقائه أكْرَهُ»[١].

خرَّجَ ابنُ البـراءِ في كتـابِ «الروضةِ» من حديثِ عـمرِو بن شَـمِرٍ - وهو ضعيف جدًّا - عن جابر الجـعفي، عن تميم بن حَذْلم، عن ابنِ عـباس، عن النبي ﷺ: «ما من ميِّتٍ يموتُ إلا وهو يعـرفُ غاسلَه، ويناشـدُ حاملَه، إن كـان بُشِّرَ بروْحٍ وريحـانٍ وجنةِ نعيمٍ أن يعـجِّلَه، وإن بُشِّـرَ بنزلٍ من حـميمٍ وتَصْليـةِ جـحيمٍ أن يحبسَهُ».

وفي «صحيحِ البخاريِّ»[٢]، عن عبـادةَ بنِ الصامتِ، عن النبيِّ ﷺ قال: «من أحبَّ لقاءَ اللَّهِ أحبَّ اللَّهُ لقاءَهُ، ومن كرِهَ لقاءَ اللَّهِ كرِهَ اللَّهُ لقاءَهُ»، فقالتْ عائشةُ، أو بعضُ أزواجِـهِ: إنا نكرهُ الموتَ. قـالَ: «ليس ذلكَ، ولكنَّ المؤمـنَ إذا حضـرَه

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ٢٥٩).

(٢) البخاري (٨/ ١٣٢)، ومسلم (٨/ ٦٥).

الموتُ بُشِّر برضوانِ اللَّهِ وكرامته، فليس شيءٌ أحبَّ إليه ممَّا أمامَهُ، فأحبَّ لقاءَ اللَّهِ وأحبَّ اللَّهُ لقاءَه، وإنَّ الكافرَ إذا حُضِر، بُشِّر بعذابِ اللَّهِ وعقوبتِه، فليس شيءٌ أكرهَ إليه ممَّا أمامَهُ، فكرِهَ لقاءَ اللَّهِ وكرِهَ اللَّهُ لقاءَهُ».

وقد رُوِيَ هذا المعنى عن النبيِّ ﷺ من وجوهٍ متعددةٍ.

وفي حديث زاذن، عن البراءِ بن عازبٍ، عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ نفسَ المؤمنِ يقالُ لها: اخْرجي أيتها النفسُ المطمئنةُ إلى مغفرةٍ من اللَّهِ ورضوانٍ، فتخرجُ وتسيلُ كما تسيلُ القطرةُ من فيِّ السقاءِ، وإنَّ نفسَ الكافرِ يُقال لها: اخرجي أيتها النفسُ الخبيثةُ إلى غضبِ اللَّهِ وسخطه، فتتفرقُ في جسدِه، وتأبى أن تخرجَ، فيجذبونَها، فتنقطعُ معها العروقُ والعصبُ»[1].

وفي روايةِ عيسى بنِ المسيبِ عن عديٍّ بن ثابتٍ، عن البراءِ، عن النبيِّ ﷺ قال: «فتتفرق روحُهُ في جسدِهِ، كراهةَ أن تخرجَ لما ترى وتعاين، فيستخرِجُها، كما يستخرجُ السفودَ من الصوفِ المبلولِ».

وقد دلّ القرآنُ على عذابِ القبرِ في مواضعَ أُخرَ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

وخرَّج الترمذي بإسناده[2]، عن عليّ قالَ: مازلْنا في شكٍّ من عذابِ القبرِ حتى نزلتْ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١-٢].

(١) أخرجه: أحمد في المسند» (٤/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨).
(٢) الترمذي (٣٣٥٢).

وخرّج ابن حبانَ في «صـحيحه»[1]، من حديـثِ حمّادِ بنِ سلـمَةَ، عن محـمدِ بنِ عمرٍو، عن أبي سلـمةَ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾ [طه:١٢٤]، قال: «**عذابُ القبرِ**».

وقد روي موقوفًا، وروي من وجهٍ آخر عن أبي هريرةَ مرفوعًا.

وروي من وجه آخرَ من حـديثِ أبي سعيدٍ الخـدريِّ، مرفوعًا ومـوقوفًا، وسيأتي ذلك كلُّه إن شاءَ اللَّه تعالى.

وقال آدمُ بنُ أبي إياسٍ، حدثنا المسعـوديُّ، عن عبدِ اللَّهِ بن المخارق، عن أبيه، عن ابنِ مسعودٍ ﷺ، قالَ: إذا ماتَ الكافرُ أُجلس في قبرِه، فيقالُ له: من ربك؟ ومـا دينُك؟ فيقـولُ: لا أدري، فيـضيَّقُ عليـه قبرُه، ثـم قرأ ابنُ مسعودٍ: ﴿**فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾، قال: المعيشة الضنكُ: عذابُ القبرِ.

وروى شريك، عن ابنِ إسحاقَ، عن الـبراءِ، في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿**عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ**﴾ [الطور:٤٧]. قال: عذابُ القبرِ.

وكذا رُوي عن ابنِ عباسٍ، في قولِه سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ**﴾ [السجدة:٢١] أنه عذابُ القبرِ.

وكذا قال قتادةُ، والربيعُ بنُ أنسٍ، في قولِه عز وجل: ﴿**سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ**﴾ [التوبة:١٠١]، إحداهما في الدنيا، والأُخرى هي عذابُ القبرِ.

وقد تواترتِ الأحاديثُ عن النبيِّ ﷺ في عذابِ القبرِ والتعوّذِ منه.

---

(١) ابن حبان (٣١١٩).

وفي «الصحيحين»[١] عن مسروقٍ عن عائشةَ ﵂، أنها سألتِ النبيَّ ﷺ عن عذابِ القبرِ، قال: «**نَعمْ، عذابُ القبرِ حقٌّ**» قالتْ عائشةُ ﵂: فما رأيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ بعدَ ذلكَ صلَّى صلاةً إلا تعوَّذَ من عذابِ القبرِ.

وفيهما عن عَمْرةَ[٢]، عن عائشةَ ﵂، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنّي رأيتكم تفتنونَ في القبورِ كفتنةِ الدَّجّالِ**»، قالتْ عائشةُ ﵂: فكنتُ أسمعُ رسولَ اللَّهِ ﷺ بعدَ ذلكَ يتعوّذُ من عذابِ القبرِ.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[٣] عن ابنِ عباسٍ، عن النبيِّ ﷺ أنه كان يعلِّمُهم هذا الدعاءَ كما يعلِّمُهُم السورةَ من القرآنِ: «**اللهُمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من عذابِ جهنَّمَ، وأعوذُ بكَ من عذابِ القبرِ، وأعوذُ بكَ من فتنةِ المسيحِ الدجالِ، وأعوذُ بكَ من فتنةِ المحيا والمماتِ**».

وفيه[٤] - أيضًا -، عن أبي هريرةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إذا فرغَ أحدُكم من التشهدِ الآخرِ، فليتعوَّذْ باللَّهِ من أربعٍ: من عذابِ جهنَّم، ومن عذابِ القبرِ، ومن فتنةِ المحيا والمماتِ، ومن فتنةِ المسيحِ الدَّجالِ**».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[٥] عن زيدِ بن ثابتٍ، قال: بينما النبيُّ ﷺ في حائطِ بني النجارِ على بغلةٍ لـه، ونحن معهُ، إذ حادتْ به، فكادتْ أن تلقيَهُ، وإذا أَقْبُرٌ ستةٌ أو خمسةٌ أو أربعةٌ، فقال: «**من يعرفُ أصحابَ هذه الأَقْبُرِ؟**» فقال رجلٌ: أنا، فقالَ: «**متى ماتَ هؤلاءِ؟**» فقال: ماتُوا في الإشراكِ، فقالَ النبيُّ

(١) أخرجه: البخاري (٢/ ١٢٣)، (٨/ ٩٧)، ومسلم (٢/ ٩٢).

(٢) لم أجدْه في «الصحيحين»، وهو عند النسائي (٤/ ١٠٥)، و(٨/ ٢٧٤)، وابن خزيمة (٨٥١).

(٣) مسلم (١/ ٩٤)، وكذلك أخرجه: البخاري (٢/ ١٢٤).

(٤) مسلم (١/ ٩٣).

(٥) مسلم (٨/ ١٦٠)، وأحمد في «المسند» (٥/ ١٩٠).

ﷺ: «**إن هذه الأمةَ تُبتـلى في قبورِها، فلولا أن لا تَدافَنُوا لدعوتُ اللَّهَ أن يسـمعَكُم من عذابِ القبرِ الذي أسمعُ منه**»، ثم أقبلَ علينا بوجهِهِ فقال: «**تعوّذوا باللَّهِ من عذابِ النارِ**»، فقالوا: نعوذُ باللَّهِ من عذابِ النارِ، فقالَ: «**تعوّذوا باللَّهِ من عذابِ القبرِ**»، قالوا: نعوذُ باللَّهِ من عذابِ القبرِ، فقال: «**تعوّذُوا باللَّهِ من الفتنِ ما ظهـرَ منها وما بطَنَ**»، قالوا: نعوذ باللَّهِ من الفتنِ ما ظهرَ منها وما بطنَ، قال: «**تعوّذوا باللَّهِ من فتنة الدجال**»، قالوا: نعوذ باللَّه من فتنة الدجال.

وفي «صحيحِ مسلم»(١) عن أنسٍ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**لولا أن لا تدافـنوا لدعوتُ اللَّهَ أن يسمعَكمُ من عذابِ القبرِ**».

وفي «الصحيحينِ»(٢)، من حديثِ أبي أيوب الأنصاريِّ، قالَ: خرجَ علينا النبيُّ ﷺ وقد وجبتِ الشمسُ، فسمعَ صوتًا، فقالَ: «**يهودُ تعذّبُ في قبورِهَا**».

وخرّج الإمامُ أحـمدُ، وأبو داود(٣)، من حديـثِ البراءِ بنِ عـازبٍ، قال: خرجْنَا معَ رسولِ اللَّهِ ﷺ في جنازةِ رجلٍ من الأنصارِ فانتهينَا إلى القبرِ ولمْ يُلحَد، فجلسَ رسولُ اللَّهِ ﷺ وجلسْنَا حولَهُ، كأنَّا على رؤوسِنَا الطيرُ، وفي يده عودٌ ينكتُ به الأرضَ، فرفعَ رسولُ اللَّهِ ﷺ رأسَهُ، فقالَ: «**استعيذُوا باللَّهِ من عذابِ القبرِ**»، مرتينِ أو ثلاثًا، وذكرَ الحديثَ بطوله.

وخرّجَ الإمامُ أحمدُ، من حديثِ أبي الزبيرِ، عن جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ، قالَ: دخلَ النبيُّ ﷺ نَخلاً لبنـي النجارِ، فسـمعَ أصوات رجالٍ من بـني النجارِ، ماتُوا في الجاهليـةِ، يعذَّبونَ في قبورِهم، فـخرجَ رسولُ اللَّهِ ﷺ فَزِعًا فأمَرَ

(١) مسلم (٨/ ١٦١).

(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ١٢٣)، ومسلم (٨/ ١٦١).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ٢٨٧)، وأبو داود (٣٢١٢)، و(٤٧٥٣)، و(٤٧٥٤).

أصحابَهُ أن يتعوَّذوا باللَّهِ من عذابِ القبرِ[١] .

وخرّجه - أيضًا - من حديثِ أبي سفيانَ، عن جابرٍ، عن أمِّ مبشرٍ، قالتْ: دخلَ عليَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ وأنا في حائطٍ من حوائطِ بني النجارِ، فيه قبور منهم، قد ماتُوا في الجاهليةِ، فسمعهم يعذبونَ، فخرجَ وهو يقولُ: «**استعيذُوا باللَّهِ من عذابِ القبرِ**»، قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ ليعذَّبونَ في قبورِهم؟ قال: «**نعم عذابًا تسمعهُ البهائمُ**»[٢] .

وفي «الصحيحينِ»[٣] عن ابنِ عباسٍ، أن النبيَّ ﷺ مرّ بقبرينِ، فقالَ: «**إنهما ليَعذّبانِ، وما يعذبانِ في كبيرٍ، أما أحدُهما فكانَ لا يستترُ من البولِ، وأما الآخرُ فكانَ يمشِي بالنميمةِ**»، ثم أخذ جريدةً رطبةً، فشقَّها باثنتينِ، ثم غَرَز على كلِّ قبرٍ منهُما واحدةً، قالوا: لِمَ فعلتَ هذا يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: «**لعلَّه يخففُ عنهُما ما لم ييْبسا**».

وقد رُوي هذا الحديثُ عن النبيِّ ﷺ بهذا المعنى مِنْ وجوهٍ متعددة، خرّجه ابنُ ماجه[٤] من حديثِ أبي بكرةَ، وفي حديثِه: «**وأمَّا الآخرُ يعذَّبُ في الغِيبةِ**».

وخرّجه الخلالُ وغيرُه، من حديثِ أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، وفي بعضِ رواياتهِ: «**وأمَّا الآخرُ فكان يهمزُ الناسَ بلسانِه، ويمشي بينهُم بالنميمةِ**».

وخرّجَه الطبرانيُّ من حديثِ عائشةَ[٥] ، وأنسِ بنِ مالكٍ، وابنِ عمرَ.

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٢٩٥ - ٢٩٦).

(٢) السابق (٦/ ٣٦٢)، وابن حبان (٣١٢٥).

(٣) أخرجه: البخاري (١/ ٦٥)، (٢/ ١١٩، ١٢٤)، (٨/ ٢٠)، ومسلم (١/ ١٦٦).

(٤) ابن ماجه (٣٤٩).

(٥) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٦٥٦٥).

وخرّجه أبو يعلى الموصلي[1] وغيرُه، من حديثِ جابرٍ، وفي حديثِه: «**أمّا أحدُهما فكانَ يغتابُ الناسَ**».

وخرّجه الإمامُ أحمد[2]، من حديثِ أبي أمامةَ، وفي حـديثِه قالوا: يا نبيَّ اللَّهِ، وحتى متى يعذبان؟ قال: «**غـيْبٌ لا يعلَمُه إلا اللَّـهُ، ولولا تمريجٌ في قلوبِكم وتزيدُكُم في الحديثِ لسمعتُم ما أسمعُ**». ورويَ من وجوهٍ أُخرَ.

وخرَّج النسائيُّ [3]، من حديثِ عـائشةَ ﷺ، قالـتْ: دخلَتْ عليَّ امرأةٌ من اليهودِ فـقالَتْ: إنْ عذابَ القبرِ من البـولِ، قلتُ: كذبت، قالتْ: بلَى، إنه ليقرظُ من الجلدِ والثوبِ، قالتْ: فخرجَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى الصلاةِ، وقد ارتفعتْ أصواتُنا، فقالَ ﷺ: «**ما هذا؟**» فأخبرتُه بما قالتْ، فقالَ: «**صدَقَتْ**».

وخرّجَ الإمـامُ أحمدُ، وأبو داودَ، والنسائيُّ، وابن مـاجه[4]، من حديثِ عبدِ الرحمنِ بنِ حسنة، سمعَ النبيَّ ﷺ يقولُ: «**ألَم تعلمُوا مـا لقيَ صاحبُ بني إسرائيلَ؟ كانُوا إذا أصابَهُم البولُ قطعُوا ما أصابَهُ البولُ، فنهاهُم فعُذِّبَ في قبرِه**».

وخرّج الإمامُ أحمدُ، وابنُ ماجه[5]، من حديثِ أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**أكثر عذاب القبر من البول**»، وروي موقوفًا على أبي هريرة.

وخرّج البزارُ، والحاكمُ[6]، من حـديثِ ابنِ عبـاسٍ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ

(١) أخرجه: أبو يعْلَى (٤/ ٢٠٥٠، ٢٠٥٥، ٢٠٦٦).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٢٦٦).

(٣) النسائي (٤/ ١٠٤ ـ ١٠٥).

(٤) أخرجه: أحمـد في «المسند» (٤/ ١٩٦)، وأبو داود (٢٢)، والنسائي (١/ ٢٦، ٢٨)، وابن ماجه (٣٤٦).

(٥) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٣٢٦، ٣٨٨)، وابن ماجه (٣٤٨).

(٦) الحاكم (١/ ١٨٣ ـ ١٨٤)، وأخرجه: البزار والطبراني كما في «المجمع» (١/ ٢٠٧).

قالَ: «إنّ عامّة عذابِ القبرِ من البولِ، فتنزّهُوا منه».

وخرّجَ الطبرانيُّ (١)، والدارقطنيُّ، من حديثِ أنسٍ، عنِ النبيِّ ﷺ قال: «اتّقوا البولَ، فإنّه أوّلُ ما يحاسَبُ به العبدُ في القبرِ».

وخرّج ابنُ عديٍّ(٢)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللّه ﷺ مرّ برجلٍ يعذَّبُ في قبرِه من النميمةِ، ورجلٌ يعذَّبُ في قبرِه من الغيبةِ، ورجلٌ يعذّب في قبرِه من البولِ.

وخرّجَ أيضًا(٣)، بإسنادٍ ضعيفٍ، عن قتادةَ، عن أنسٍ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «فتنةُ القبرِ من ثلاثٍ: من الغيبةِ، والنميمةِ، والبولِ».

ولكن روى عبدُ الوهابِ الخفَّاف، عن سعيدٍ، عن قتادةَ، قالَ: كان يُقال: عذابُ القبرِ من ثلاثة أثلاث: ثلثٌ من الغيبةِ، وثلثٌ من النميمةِ، وثلثٌ من البولِ. خرّجه الخلالُ وهذا أصحُّ.

وخرَّجَ الأثرمُ والخلالُ من حديث ميمونة ـ مولاة رسول اللّه ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ لها: «يا ميمونةُ! إنَّ منْ أشدِّ عذابِ القبرِ من الغيبةِ والبولِ».

وقد ذكرَ بعضُهم السرَّ في تخصيص البولِ والغيبةِ والنميمةِ بعذابِ القبرِ، وهوَ أنّ القبرَ أولُ منازلِ الآخرةِ، وفيه أنموذجُ ما يقعُ في يومِ القيامةِ من العقابِ والثوابِ.

والمعاصِي التي يعاقبُ عليها العبدُ يومَ القيامةِ نوعان: حقُّ اللّه، وحقُّ العبادِ، وأولُ ما يُقضَى فيه يومَ القيامةِ من حقوقِ اللّهِ الصلاةُ، ومن حقوقِ العبادِ الدماءُ.

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٢٠٩): رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله موثقون.
(٢) «الكامل» (٣/ ٩١٨). (٣) السابق (٤/ ١٤٥٢).

وأمّا البرزخُ فيقضى فيه في مقدماتِ هذَينِ الحقَّينِ ووسائلِهما، فمقدمةُ الصلاةِ: الطهارةُ من الحَدَثِ والخَبَثِ، ومقدمةُ الدماءِ النميمةُ والوقيعةُ في الأعراضِ، وهما أيسرُ أنواعِ الأذى، فيبدأ في البرزخِ بالمحاسبةِ والعقابِ عليهِما.

وروى عبدُ الرزَّاقِ، عن معمرٍ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي ميسرةَ، عمرِو بنِ شرحبيلَ، قالَ: ماتَ رجلٌ، فلمَّا دخلَ في قبرِه أتتْه الملائكةُ، فقالُوا: إنا جالدوكَ مائةَ جلدةٍ من عذابِ اللَّهِ، قال: فذكرَ صلاتَهُ وصيامَهُ واجتهادَهُ قال: فخفَّفُوا عنه حتى انتهى إلى عشرةٍ، ثم سألَهُم، فخفَّفوا عنه حتَّى انتهى إلى واحدة، فجلدوه جلدةً اضطرمَ قبرُه ناراً، وغُشِيَ عليه، فلمَّا أفاق قالَ: فيم جلدتمُوني هذه الجلدة؟ قالوا: إنَّك بُلْتَ يومًا، ثم صليتَ ولم تتوضأْ، وسمعتَ رجلاً يستغيثُ مظلومًا، فلم تغثْهُ.

ورواهُ أبو سنان، عن أبي إسحاقَ، عن أبي ميسرةَ، بنحوِه.

ورويناه من طريقِ حفصِ بن سليمانَ القارئ وهو ضعيفٌ جدًّا، عن عاصمٍ، عن أبي وائلٍ، عن ابنِ مسعودٍ، عن النبيِّ ﷺ به.

فعذابُ القبرِ حصلَ ها هنا بشيئينِ: أحدُهما: تركُ طهارةِ الحَدثِ، والثاني: تركُ نصرةِ المظلومِ مع القدرةِ عليه، كما أنه في الأحاديثِ المتقدمةِ حصلَ بتركِ طهارةِ الخبثِ، والظلمِ بالقولِ، وهي متقاربةٌ في المعْنَى.

وفي حديثِ عبدِ الرحمنِ بنِ سمرةَ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إنّي رأيتُ الليلَة عجبًا**» فذكرَ الحديثَ بطوله، وفيه: «**رأيتُ رجُلاً من أمَّتي بُسِطَ عليه عذابُ القبرِ، فجاءَهُ وضوءُه فاستنقذَهُ منه**»، أخرجه الطبراني وغيره.

ففي هذا الحديثِ أنّ الطهارةَ من الحدثِ تُنجي من عذابِ القبرِ.

وكذلك الأمرُ بالمعروفِ والنهيُّ عن المنكرِ يُنجِي من عذابِ القبرِ، كما تقدَّم ذكْرُه في البابِ الثانِي، لأنَّ فيه غايةَ النفعِ للناسِ في دينهِم.

وكذلكَ الجهادُ والرباطُ، لأنَّ المجاهدَ والمرابِطَ في سبيلِ اللَّهِ كلٌّ منهُما بذَلَ نفسَهُ، وسمحَ بنفسِهِ لتكونَ كلمةُ اللَّهِ هي العُليا، ودينُه هو الظاهرُ، وليذبَّ عن إخوانِهِ المؤمنينَ عدوَّهم.

ففي الترمذيِّ[1]، عن المقدامِ بن معدي كرب، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**للشهيدِ عندَ اللَّهِ ستُّ خصالٍ: يُغفر لهُ في أولِ دفعةٍ، ويرَى مقعدَهُ من الجنة، ويُجارُ من عذابِ القبرِ، ويأمنُ من الفزعِ الأكبرِ**» وذكر بقيةَ الحديثِ.

وخرّج الحاكمُ[2] وغيرُه، من حديثِ أبي أيوبَ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**من لَقِي العدو في سبيلِ اللَّهِ فصبرَ حتَّى يُقتلَ أو يُغلبَ لم يُفتنْ في قبرِه أبداً**».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[3] عن سلمانَ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**رباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيامِ شهرٍ وقيامِه، وإن ماتَ أُجرِي عليه عملُه الذي كانَ يعملُه، وأُجْرِي عليه رزقُه، وأمِنَ الفتَّان**». وخرجه غيره وقال فيه: «**ووُقِيَ عذابَ القبرِ**».

وخرّج الترمذيُّ وأبو داود[4]، من حديث فَضَالةَ بنِ عُبَيدٍ، عن النبي ﷺ معناه أيضًا، ورُوي من وجوهٍ أُخر.

---

(١) أخرجه: الترمذي (١٦٦٣)، وابن ماجه (٢٧٩٩).

(٢) الحاكم (٢/ ١١٩).

(٣) أخرجه: مسلم (٦/ ٥١)، والترمذي (١٦٦٥)، والنسائي (٦/ ٣٩)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٤٤٠ ـ ٤٤١).

(٤) أبو داود (٢٥٠٠)، والترمذي (١٦٢١)، وأحمد في «المسند» (٦/ ٢٠)، والحاكم (٢/ ٧٩، ١٤٤)، وابن حبان (٤٦٢٣).

وخرّج النسائيُّ(١) من حديثِ راشدِ بنِ سعدٍ، عن رجلٍ من أصحابِ النبي ﷺ أن رجلاً قـال: يا رسـولَ اللَّهِ، ما بالُ المؤمنينَ يفـتنونَ في قبـورِهم إلا الشهيدُ؟ قال: «**كفَى ببارقةِ السيوفِ على رأسه فتنةً**».

وروى مجالدٌ، عن محمدِ بن المنتشرِ،عن ربعي، عن حذيفةَ، قالَ: إنّ في القبرِ حِسَابًا، وفي القيامةِ حِسابًا، فمن حوسبَ يومَ القيامةِ عُذِّبَ.

وروى ابنُ عجلانَ، عن عونِ بنِ عبدِ اللَّهِ، قالَ: يقالُ: إنَّ العبدَ إذا أُدخِلَ قبـرَه، سئِلَ عـن صـلاتهِ أولَ شيءٍ يُسـألُ عنهُ، فإنْ جازَتْ لـه صلاتُه، نُظِرَ فيـما سِوى ذلكَ من عـملهِ، وإن لم تجزْ لهُ، لم ينظرْ له فـي شيءٍ من عملهِ بعدُ.

وقد وردَ في عذابِ القبرِ أنواعٌ:

مِنْها: الضربُ إمَّا بمطـراقٍ منْ حديدٍ أو غيرِه، وقدْ سـبقَ ذلكَ في أحاديثَ متعددةٍ.

وروينا من طريقِ عثمـانَ بنِ أبي العاتكة، عن عليٍّ بن زيدٍ، عن القاسمِ، عن أبي أمامةَ البـاهليِّ، قالَ: أتَى رسولُ اللَّهِ ﷺ بقيعَ الغرقدِ، فوقفَ على قبرينِ، فقالَ: «**أدفنتُم ها هنا فُلانًا وفلانة؟**» أو قالَ: «**فلانًا وفلانًا؟**» قالوا: نعمْ، فقالَ: «**قدْ أقعدَ فلانٌ الآن يُضربُ**»، ثمَّ قالَ: «**والَّذي نفسي بيدِه لقدْ ضُرِبَ ضربةً ما بقيَ منهُ عضوٌ إلا انقطـعَ، ولقدْ تطايرَ قبرهُ ناراً،و لقدْ صـرخ به صرخةً يسمعُـها الخلائقُ إلا الثقلينِ من الجنِّ والإنسِ، ولولا تمريجٌ في صدورِكم وتزييدُكُم فـي الحديثِ لسمعتُم**

---

(١) النسائي (٤/ ٩٩).

ما أسمعُ»، قالوا: يا رسولَ اللَّه ما ذنبُهما؟ قال: «**أما فلانٌ، فإنَّه كانَ لا يستبرئُ من البولِ، وأما فلانٌ أو فلانةٌ، فكانَ يأكلُ لحومَ الناسِ**». وفي هذا الإسناد ضعفٌ.

وخرجَ ابنُ جريرٍ في «تفسيرِه»، من طريقِ أسباط، عن السُّدِّي. قالَ: قالَ البراءُ بنُ عازبٍ: إنَّ الكافرَ إذَا وُضعَ في قبرِه أتتْـه دابّةٌ كأنَّ عينيهَا قِدْرانِ من نحاسٍ، معها عمودٌ من حديد، فتضربُه ضربةً بين كتفيهِ، فيصيحُ، فلا يَسمعُ صـوتَه أحـدٌ إلا لعنهُ، ولا يَبْـقى شـيءٌ إلا سـمعَ صـوته إلا الثـقلينِ الجنَّ والإنسَ.

ومن طريقِ جويبرٍ، عن الضحاكِ، قـالَ: الكافرُ إذا وُضعَ في قبرِه ضُربَ ضربةً بمطراقٍ، فـيصـيحُ صيحـةً، فيـسمعُ صوتَه كلُّ شيءٍ إلا الـثقلينِ الجنَّ والإنسَ، فلا يسمعُ صيحتَه شيءٌ إلا لعنَهُ.

وروى اللالكائيُّ بإسنادِه، عن محمـدِ بنِ المنكدرِ، قالَ: بلغَني أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يسلِّطُ على الكافرِ في قبرِه دابّةً عمياءً في يدِها سوطٌ من حديدٍ، رأسُها مثلُ غـربِ البعـيرِ فتـضربُه بهـا إلى يومِ القيـامةِ، لا تراهُ ولا تسـمعُ صوتَه فترحمُهُ.

ومنها: تسليطُ الحياتِ والعـقاربِ عليه؛ وقـد سبقَ ذلكَ من حـديثِ أبي هريرةَ.

وروى ابنُ وهبٍ، حدثني عـمرُو بن الحارثِ، أنَّ أبا السـمحِ، حدَّثه عن ابنِ حجيرةَ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «**أتدرونَ فيما أُنزلتْ هذه الآيةُ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾** [طه:١٢٤] **؟ تدرونَ ما المـعيشـةُ الضنكُ؟**» قالوا: اللَّهُ ورسولُه أعلمُ، قال: «**عذابُ الكافرِ في قبرِه، والذي نفسي بيده إنه ليسلَّطُ عليه تسعةٌ وتسعـونَ تنِّينًا، أتدرونَ ما التنِّينُ؟ قال: تسعـةٌ وتسعونَ حيـةً، لكلِّ حيةٍ سـبعةُ رؤوسٍ**»،

وفـي روايـةٍ: «تسعـةُ رؤوسٍ، ينفخونَ في جـسمِهِ، ويلـسعونَهُ ويخـدِشُونَهُ إلي يومِ يبعثونَ»[1] خرّجه بقيٌّ بنُ مخلدٍ في «مسندِه».

وخرّجـه البزارُ، من وجهٍ آخـرَ عن ابنِ حجـيرةَ عن أبي هريرةَ، مرفـوعًا أيضًا مختصرًا.

وخرّج ابنُ منده مـن طريقِ أبي حازمٍ، عن أبي هريرةَ، وذكـرَ قبضَ روحِ المؤمنِ والكافـرِ، وقالَ في الكافـرِ: «ويسلَّطُ عليـه الهـوامُّ، وهي الحيّاتُ، فـينامُ كالمنهوسِ فينامُ ويفزعُ». وخرجه مرفوعًا أيضًا.

وقد رُوي عن درّاجٍ أبي السمحِ، عن أبي الهيثمِ، عن أبي سعيد الخدريِّ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «يسلّطُ على الكافرِ في قبرهِ تسعـةٌ وتسعونَ تنينًا، يلدغونَهُ حتَّى تقومَ الساعـةُ، ولو أنَّ تنينًا منها نفخَ على الأرضِ ما أنبـتتْ خضراءَ». خرّجـه الإمامُ أحمدُ، وابنُ حبانَ فـي «صحيحِهِ»[2]، من طريقِ سعـيدِ بن أبي أيوبَ، عن دراجٍ بهِ.

ورواه ابنُ لهيعةَ، عن درّاجٍ، مرفوعًا ـ أيضًا ـ إلا أنه قالَ: «ضمّةُ القبرِ».

وخرَّجـه الخلالُ، مِـن طريقِ سعـيدٍ أبي خـلادِ بنِ سليمٍ، عن دراجٍ أبي السمحِ، عمَّن حدَّثَهُ، عن أبي سعيد: أنَّهم سألُوه عن المعيشةِ الضنكِ، قال: هي معيشةُ الكافرِ في قبرِهِ، يبعثُ اللَّهُ إليه قبلَ يومَ القيامةِ اثنينِ وسبعينَ تنينًا وعقاربَ كـالبغالِ يلسعْنهُ في قبـرِهِ، ويضيّقُ عليه قبـرُه حتَّى تدخلَ الأضلاعُ

---

(١) أخـرجـه: أبو يعْلـى (١١/ ٦٦٤٤)، وابن حـبـان (٣١١٩)، والحـاكم (١/ ٣٨١)، وقـد رواه الأخيران مختصرًا.

(٢) أخرجه: أحمـد في «المسند» (٣/ ٣٨)، وابن حبان (٣١٢١)، والدارمي (٢/ ٣٣١)، وأبو يعلى (١٣٢٩) موقوفًا.

بعضُها في بعضٍ، يتمنَّى أنه لو خرجَ منها إلى النارِ. وهذا موقوفٌ، قد سبقَ في البابِ الثاني من وجهٍ آخر مرفوعًا، وقد رُوي بعضُه من وجهٍ آخرَ مرفوعًا وموقوفًا أيضًا.

وروى منصورُ بنُ صقيرٍ، عن حمادِ بنِ سلمةَ، عن أبي حازمٍ، عن النعمانِ بن أبي عياشٍ، عن أبي سعيدٍ، أنّ النبيَّ ﷺ قالَ في هذه الآية: ﴿**فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾ [طه:١٢٤] قال: «**المعيشةُ الضنكُ عذابُ القبرِ، يضيّقُ عليه قبرُه حتَّى تختلفَ أضلاعُهُ، ولا يزالُ يعذَّبُ حتى يُبعثُ**» خرَّجه الخلالُ، ومنصورُ بن صُقير فيه ضعفٌ.

وخالفَهُ آدمُ بنُ أبي إياسٍ، فرواه عن أبي حازمٍ، عن حمَّادِ بن سلمةَ، ووقفه.

وكذا رواه الثوريُّ، وسليمانُ بنُ بلالٍ، والدراورديُّ، وغيرُهم، عن أبي حازمٍ، عن النعمانِ، عن أبي سعيدٍ مرفوعًا، وخالفَهُم ابنُ عيينة، فرواه عن أبي حازمٍ عن أبي سلمة عن أبي سعيدٍ موقوفًا أيضًا، فمنهم من قال: أخطأ فيه ابنُ عيينةَ، كذا قاله أبو زرعةَ والعلائيُّ، وقيل: بل أبو سلمةَ هذا هو النعمانُ بنُ أبي عياشٍ، قاله أبو حاتمٍ الرازيُّ، وأبو أحمدَ الحاكمُ، وأبو بكرٍ الخطيبُ وغيرُه.

وخرَّجه الإمامُ أحمدُ، من حديثِ علي بنِ زيدِ بنِ جدعانَ، عن أمِّ محمدٍ، عن عائشةَ ﵂، أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قالَ: «**يرسَلُ على الكافرِ حيَّتانِ، واحدة من قِبَلِ رأسه، والأخرى من قبلِ رجليه، يقرصَانِه قرصًا، كلَّما فرغَتا عادَتا إلى يومِ القيامةِ**»(١).

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٦/ ١٢٥).

وخرّجَ ابنُ أبي الدنيا ـ بإسنادٍ ضعيفٍ ـ عن الحسنِ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا يُرى أحدٌ خارجًا من الدنيا شاتمًا لأحد منهم** ـ يعني من أول هذه الأمة ـ **إلا سلَّطَ اللَّهُ عليه دابةً في قبرِه، تقرصُ لحمَهُ، يجدُ أَلَمَهُ إلى يومِ القيامة**».

وخرّج الخلالُ، من طريقِ عاصمٍ، عن زرٍّ، عن ابنِ مسعود، قالَ: يقالُ للكافرِ ـ يعني في قبرِه :ـ ما أنتَ؟ فيقولُ: لا أدْري، فيقالُ: لا دريتَ ـ ثلاثًا، ويضيَّقُ عليه قبرُه حتَّى تختلفَ أضلاعُه، ويرسلُ عليه حيَّاتٌ من جوانبِ قبرِه، ينهشْنهُ ويأكلْنهُ، فإذا خرجَ صاحَ، قُمِعَ بمقامع من نارٍ أو حديدٍ.

وخرّجه أبو بكرٍ الآجريُّ، وزاد فيه: «**ويُضربُ ضربةً يلتهبُ قبرُه نارًا**» وعنده: «**وتنبعثُ عليه حيّاتٌ من النارِ كأعناقِ الإبلِ**».

وخرّج ابنُ أبي الدنيا في كتابِ «الموت» بإسناده عن عبيدِ بن عميرٍ، قالَ: يسلَّطُ عليه شجاعٌ أَقرعُ، فيأكله حتى يأكلَ أمَّ هامتِهِ، فهذا أوَّلُ ما يصيبُه من عذابِ اللَّهِ.

وبإسناده عن مسروقٍ، قال: ما من ميِّتٍ يموتُ وهو يزني، أو يسرقُ، أو يشربُ، أو يأتي شيئًا من هذه، إلا جُعِلَ معه شجاعانِ ينهشَانهِ في قبرِه.

ومنها: رضُّ رأسِ الميتِ بحجرٍ، أو شقُّ شدْقه أو نحوُ ذلك.

وفي حديث سمرةَ بنِ جندبٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**رأيتُ الليلةَ رجلين أتيانِي فأخَذَا بيدي، فأخرجَانِي إلى أرضٍ مقدسة، فإذا رجلٌ جالسٌ ورجلٌ قائمٌ بيده كَلُّوبٌ من حديدٍ يدخلُه في شدقه حتَّى يبلغَ قفاهُ، ثم يفعلُ بشدقه الآخر مثلَ ذلك، ويلتئمُ شدقُه هذا، فيعودُ فيصنعُ مثلَه، قلتُ: ما هذا؟ قالا: انطلقْ فانطلقْنا، حتَّى أتينَا على رجلٍ مضطجعٍ على قفَاه، ورجلٌ قائمٌ على رأسِه بصخرةٍ أو فهرٍ، فيشدَخُ بها**

رأسَه، فإذا ضربَه تدهْدَهَ الحجرُ، فانطلقَ إليـه ليأخذَه فلا يرجعُ إلى هذا حتى يلتئمَ رأسُه، وعادَ رأسُه كما هُو، فعادَ إليه فضربَهُ، قلتُ: ما هذا؟ قالا لِي: انطلقْ، فانطلقْنا، إلي نقبٍ مثلِ التنورِ أعلاه ضيقٌ وأسفله واسعٌ، توقدُ تحتَهُ نارٌ، وإذا فـيه رجالٌ ونساءٌ عراةٌ فيأتيهم اللهبُ من تحتِهم فإذَا اقتـربَ ارتفعوا حتَّى كادُوا أن يخرجُوا، فإذا خمدتَ رجـعُوا فيها، وفيها رجـالٌ ونساءٌ، فقلتُ: ما هذا؟ قالا: انطلقْ، فانـطلقْنا، حتَّى أتيْنَا على نهرٍ من دمٍ، فيه رجلٌ قائمٌ، وعلى شاطئ النهرِ رجلٌ بين يـديهِ حجارةٌ، فأقبلَ الرجلُ الذي في النهرِ، فإذا أرادَ أن يخرجَ، رَمَى الرجلُ بحجرٍ في فيه فردَّه حـيثُ كان، فجعلَ كلما جاءَ ليخرجَ رَمَى في فِيـه بحجرٍ رجعَ كـما كانَ، فـقلتُ: ما هذا؟ قالا لي: انطلـقْ، فانطلقْنا». فذكرَ الحديثَ. وفيه: «قلتُ: طوفتُماني الليلةَ، فأخـبراني عما رأيتُ؛ قالا: نعم، أما الرجلُ الذي رأيتَه يشقّ شدقُه فكذّابٌ، يحدِّثُ بالكذبِ، فتُـحملُ عنه حتى تبلغَ الآفاقَ، فيصنعُ به ذلك إلى يومِ القـيامـةِ؛ والذي رأيتَـه يُشدخُ رأسُـه فرجلٌ علّمـه اللّهُ القـرآنَ، فنامَ عنه بالليلِ، ولم يعملْ فيه بالنهارِ؛ يُفعـلُ به إلى يوم القيامةِ؛ وأما الذي رأيتَ في النقبِ فهم الزناةُ والزوانِي، وأما الذي رأيتَ في النهرِ فآكلُ الرِّبا»، وذكرَ الحديثَ بطولِه، خرّجه البخاريّ[1].

وروى هذا الحديثَ أبو خلدةَ، عن أبي حـازمٍ، عن سمرةَ، وفي حـديثِه: «قلتُ: فـالذي يسبحُ في الدمِ؟ قـال: ذاك صاحـبُ الرِّبا، ذاكَ طعامُـه في القبـرِ إلى يومِ القـيامـةِ. قلت: فالذي يشـدخُ رأسُه؟ قـال: ذاك رجلٌ علّمـه اللّهُ القرآنَ، فنامَ عنه حـتى نسيَه، لا يقرأُ منه شيئًا، كلَّما رقدَ دقُّوا رأسَه في القبرِ إلى يومِ القيامةِ، ولا يدعونَهُ ينامُ».

ومنها: تضييقُ القبـرِ على الميتِ حتَّى تختلفَ فيه أضـلاعُه، وقد سبقَ ذلك في أحاديثَ متعددةٍ.

---

(١) البخاري (٢/ ٦٥)، (٤/ ١٧٠)، (٦/ ٨٦)، (٩/ ٥٥)، ومسلم (٧/ ٥٨).

وخرّج الخلالُ ـ بإسنادٍ ضعيفٍ ـ عن أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ في الكافرِ: «**فيضيّقُ عليه قبرُه حتى يخرجَ دماغُه من بَينِ أظفارِه ولحمِه**».

وقد وردَ ما يدلُّ على أن التَّضييقَ عامٌّ للمؤمنِ والكافرِ، وصرّحَ بذلكَ طائفةٌ من العلماءِ، منهم ابنُ بطةَ وغيرُه، فروى شعبةُ، عن سعدِ بنِ إبراهيمَ، عن نافعٍ، عن عائشةَ ﵂، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إن للقبرِ ضغطةً، لو كان أحدٌ ناجيًا منها لنَجا مها سعدُ بنُ معاذٍ**» خرَّجه الإمام أحمد[1].

وقد اختُلِفَ على شعبةَ في إسنادِه، فقيلَ: عنه كما ذكرنا: وقيل: عنه، عن نافعٍ، عن إنسانٍ، عن عائشة ﵂، وقيل: عنه، عن سعدٍ، عن نافعٍ، عن امرأةِ ابنِ عمرَ، عن عائشةَ ﵂.

وروى: الثوريُّ، عن سعدٍ، عن نافعٍ، عن ابنِ عمرَ، عن النبيِّ ﷺ وليس بالمحفوظِ.

ورواه ابنُ لهيعةَ، عن عقيلٍ، سمعَ سعدَ بنَ إبراهيمَ، يخبرُ عن عائشةَ بنتَ سعدٍ، عن عائشةَ أمِّ المؤمنينَ، عن النبيِّ ﷺ بأنه قالَ لها: «**تعوَّذي باللَّهِ من عذابِ القبرِ، فإنه لو نجا منه أحدٌ لنجا سعدُ بنُ معاذٍ، لكنّه لم يزدْ على ضمِّه**». خرَّجه الطبراني، ورواية شعبة أصح.

وخرّج الإمامُ أحمدُ، من حديثِ محمدِ بنِ جابرٍ، عن عمرِو بن مرةَ، عن أبي البختري، عن حذيفةَ، قالَ: كنَّا مع النبيِّ ﷺ في جنازة، فلمَّا انتهينَا إلي القبرِ قعدَ على شفته فجعلَ يرددُ بصرَه فيه، ثم قال: «**يُضغطُ المؤمنُ فيه ضغطةً تزولُ منها حمائِلُه، وتُملأ على الكافرِ نارًا**»[2]. ومحمد بن جابر هو اليمامي:

---

(١) «المسند» (٦/ ٥٥، ٩٨). (٢) «المسند» (٥/ ٤٠٧).

ضعيف: وأبو البختري لم يدركْ حذيفةَ.

وخرّج النسائيُّ، من حديثِ عبيدِ اللَّهِ بنِ عمرَ عن نافعٍ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرَ رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قالَ: «**هذا الذي تحرَّكَ له العرشُ وفتحتْ له أبوابُ السماءِ، وشهدَهُ سبعونَ ألفًا من الملائكةِ، لقد ضُمّ ضمةً ثمَّ فُرِّج عنه**»[١].

وخرَّجه البزارُ وقالَ: وروي عن عبيدِ اللَّهِ، عن نافعٍ مرسلاً.

قلتُ: وقد سبقَ ذكرُ الاختلافِ فيه عن سعدِ بنِ إبراهيمَ عن نافعٍ.

ورواه زيدُ بنُ أبي أنيسةَ، عن جابرٍ، عن نافعٍ، عن صفيةَ بنتِ أبي عبيدٍ، عن بعضِ أزواجِ النبيِّ ﷺ قال: «**إن كنتُ لأرى لو أنَّ أحدًا أُعفي من عذابِ القبرِ، لعُفِي منه سعدُ بنُ معاذٍ، لقد ضُمَّ فيه ضمةً**»[٢].

وخرَّجه البزارُ من وجهٍ آخرَ، عن نافعٍ، عن ابنِ عمرَ، ومن طريقِ عطاءِ بنِ السائبِ عن مجاهدٍ عن ابنِ عمرَ.

وخرَّج الطبراني من طريقِ زكريا بنِ سلامٍ، عن سعيدِ بن مسروقٍ، عن أنسٍ، قال: لما ماتتْ زينبُ بنتُ رسولِ اللَّه ﷺ حزنَ، ثم سُرِّيَ عنه، فقلنا: يا رسولَ اللَّه، رأينا منك ما لم نرَ، قالَ: «**ذكرتُ زينبَ وضعفَها وضغطةَ القبرِ، لقد هُوِّن عليها، ومع ذلكَ لقد ضُغطتْ ضغطةً بلغت الخافقين**»[٣]. وزكريا قيل: إنه مجهولٌ، وسعيدُ بنُ مسروقٍ، لم يدركْ أنسًا، فهو منقطعٌ.

وقد رُوي من وجهٍ آخرَ عن أنسٍ، من روايةِ الأعمشِ، عن أنسٍ، عن النبيِّ ﷺ بمعناهُ.

---

(١) أخرجه: النسائي (٤/ ١٠٠ ـ ١٠١).

(٢) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (١١٥٩).

(٣) السابق (٥٨١٠).

وكـذا رواه أبو حمـزة السكري، عن الأعـمشِ، والأعمشُ لم يسـمعْ من أنسٍ عند الأكثرينَ.

وقيلَ: عن أبي حمزةَ، عن الأعمشِ، عن سليمانَ، عن أنسٍ.

ورواه سعدُ بنُ الصلتِ، عن الأعمشِ، عن أبي سفيانَ، عن أنسٍ.

ورواهُ حبيبُ بنُ خالد الأسديِّ عن الأعمشِ، عنْ عبدِ اللَّهِ بنِ المغيرة، عن أنسٍ.

ورواه حمادُ بنُ سلمـةَ، عن ثمامةَ، عن أنسٍ، أن النبيَّ ﷺ دَفَن صبيا أو صبيةً، فقالَ: «**لو نجا أحدٌ من ضمّةِ القبرِ لنجا منها هذا الصبيُّ**»[1] . خرّجه الخلالُ، والطبرانيُّ. وقد اخـتُلفَ فيه على حمادٍ، فـرواه جماعةٌ عن ثمامـةَ مرسلاً، والمرسلُ هو الصحيحُ، عند أبي حاتمٍ الرازي، والدارقطنيِّ.

وروى ابنُ وهبٍ، عن عمرِو بنِ الحـارثِ، عن أبي النضرِ، عن زيادِ مولى ابن عباس عن ابنِ عباسٍ، أن النبي ﷺ صعدَ على قبرِ سعدِ بن معاذ فقال: «**لو نجا من ضغطة القبرِ أحدٌ منه لنجَا سـعدُ بنُ معاذٍ، ولقد ضُمَّ ضمّةً ثم فرِّج عنه**»[2] . خرّجه الطبرانيُّ.

وخرّج الإمامُ أحمدُ والنسائيُّ[3] ، من حديثِ يزيدَ بنِ عبدِ اللَّهِ بن الهادِ، عن معاذِ بن رفاعةَ، عن جابرٍ، أن النبيَّ ﷺ قال لسعدٍ وهو يدفنُ: «**سبحانَ اللَّهِ، لهذا العـبدِ الصالحِ الذي تحـركَ له عرشُ الرحمنِ وفـتحتْ له أبوابُ السمـاءِ شدِّد**

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٤٧): رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله موثقون.

(٢) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٦٥٩٣).

(٣) أخرجـه: أحمـد في «المسند» (٣/ ٣٢٧)، والنسـائي في «الكبرى» كـما فـي «تحفـة الأشراف» (٣١٠٠).

عليه ثمَّ فرجَ عنه».

وخرّجه الإمامُ أحمدُ[1] ، من طريقِ ابن إسحاقَ، حدثني معاذُ بنُ رفاعةَ، عن محمودِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ عمرِو بن الجموحِ، عن جابرٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لقد تضايقَ على هذا العبدِ الصالحِ قبرُه حتى فرّجَ اللَّهُ عنه**».

وذكر ابنُ إسحاقَ: اهتزازَ العرشِ، وفتحَ أبوابِ السماءِ؛ عن معاذِ بنِ رفاعةَ، قال: حدثني من شئتُ من رجال قومِي، عن النبيِّ ﷺ ولم يذكره في حديثِ جابرٍ. وزادَ في إسنادِ حديثِ جابرٍ رجلاً، وقوله أصحُّ من قولِ يزيدِ بن الهادِ في هذا كلِّه عند كثيرٍ من أئمةِ الحفاظِ واللَّه أعلم.

وخرّج البيهقيُّ، من حديثِ ابنِ إسحاقَ، قال: حدثني أميةُ بنُ عبدِ اللَّه، أنه سألَ بعضَ أهلِ سعدٍ، ما بلغكَم من قولِ النبيِّ ﷺ في هذا؟ قالوا: ذُكر لنا أنَّ رسول اللَّهِ ﷺ سُئِل عن ذلكَ، فقال: «**كانَ يُقصِّر في بعض الطهورِ من البولِ**».

وذكر ابنُ أبي الدنيا عن عبيد اللَّه بنِ محمدٍ التميميِّ، قالَ: سمعتُ أبا بكرٍ التيمي - شيخًا من قريشٍ - قال: كان يقالُ: إن ضمّةَ القبرِ إنّما أصلُها أُمُّهم، ومنها خلقُوا، فغابُوا عنها الغيبةَ الطويلةَ، فلما ردُّوا إليها أولادَها، ضمتّهم ضمَّ الوالدةِ التي غابَ عنها ولدُها، ثم قدمَ عليها، فمنْ كانَ للَّه عز وجل مطيعًا ضمتْهُ برأفةٍ ورفقٍ، ومن كانَ للَّه عاصيًا ضمته بعنفٍ، سخطًا منها عليه لربِّها.

وروى في كتابِ «المحتضرينَ» بإسنادِه عن عبدِ العزيزِ بن أبي روادٍ، عن

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٣٦٠، ٣٧٧).

نافعٍ، أنه لمّا حضرتهُ الوفاةُ جعلَ يبْكي، فـقيل له: ما يبكيكَ؟ فقال: ذكرتُ سعدًا وضغطةَ القبرِ.

وروى هنّادُ بن السـريِّ، عن سعـيدِ بن ديـنارٍ، عن إبراهيمَ الغنويِّ، عن رجلٍ عن عائشةَ ﵂، أنهـا مرَّتْ بها جنازةٌ صغيرةٌ فـبكتْ، فقالتْ: بكيتُ لهذا الصبيِّ، شفقةً عليه من ضمّةِ القبرِ.

قال هناد: وحدثنا محمـدُ بنُ فضيلٍ، عن أبيه، عن ابنِ أبي مليكةَ، قالَ: ما أُجِيرَ أحـدٌ من ضغطةِ القبرِ، ولا سعـدُ بنُ معاذٍ، الذي منديلٌ من مناديلهِ خيرٌ من الدنيا وما فِيها.

وقال أبو الحـسن بن البراءِ: حدثنا مـحمدُ بنُ الصـباحِ، حدثنا عـمّارُ بن محـمدٍ، عن لـيثٍ، عن المنهالِ، عن زاذانَ، عن البـراءِ، عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿**لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ**﴾ [الأعراف:٤١]، قال: «**يُكْسَى الكافرُ في قبـرِه ثوبانِ من نارٍ، فذلك قولُه سبـحانَهُ وتعالى: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾**» هذا غريبٌ منكرٌ.

وقد قيـلَ: إن عذابَ القبرِ يفـتر عن أهلِ القبورِ فـيما بين النفخـتينِ، كذا ذكرَهُ سعيدُ بنُ بشيرٍ عن قتادةَ، وتأوّل ذلك قوله تعالى: ﴿**يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**﴾ [يس:٥٢]، يعني تلكَ الفترةَ التي لا عذابَ فيها.

وورد ذلك مرفـوعًا، خرّجه الخـلالُ في كتابِ «السنة» حدثنا إسـحاقُ بنُ خـالد البالسي، حـدثنا مـحمـد بن صعب، حـدثنا روح بن مـسافـرٍ، عن الأعمشِ، عن أبي سفيانَ، عن جابرٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ هذه الأمة تبتلى**

في قبورِها»، فذكرَ الحديثَ بطوله، وفي آخرِه قال: «فإنهم يعذَّبونَ في قبورِهم إلى قريبٍ من قيامِ الساعةِ، ثم ينامونَ قبيلَ الساعةِ، وهي النومةُ التي ندمُوا عليها، حين قالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس:٥٢]». وهذا إسنادٌ ضعيفٌ، وروحُ بن مسافر، وإسحاقُ بنِ خالدٍ، ضعيفانِ جدًّا.

وقد يُرفعُ عذابُ القبرِ أو بعضُه في بعضِ الأوقاتِ الشريفةِ.

فقد روي بإسنادٍ ضعيفٍ، عن أنسِ بنِ مالكٍ: أن عذابَ القبرِ يرفعُ عن الموتى في شهرِ رمضانَ، وكذلكَ فتنةُ القبرِ ترفعُ عمَّن مات يومَ الجمعةِ أو ليلة الجمعةِ.

كما خرّجَ الإمامُ أحمدُ، والترمذيُّ[1]، من حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ، عن النبيِّ ﷺ قال: «ما منْ مسلمٍ يموتُ يومَ الجمعةِ أو ليلةَ الجمعةِ إلا وقاهُ اللَّهُ فتنةَ القبرِ».

وأما نعيمُ القبرِ، فقد دلّ عليه قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩] كما سبق.

وقد تقدّمَ في حديثِ البراءِ وغيرِه ذكرُ بعضِ نعيمِ القبرِ.

وروى ابنُ وهبٍ، حدَّثني عمرُو بنُ الحارثِ، أنَّ أبا المسيحِ درّاجًا حدَّثَهُ، عن ابنِ حجيرةَ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «إنَّ المؤمنَ في قبرِه لفي روضةٍ خضراءَ، ويرحبُ له قبرُه سبعونَ ذراعًا، وينوّرُ له فيه كالقمرِ ليلةَ البدرِ».

وروى أبو عبد الرحمنِ المقرئُ، حدثنا داودُ أبو بحرٍ، عن صهرٍ له ـ يقالُ

---

(١) الترمذي (١٠٧٤)، و«المسند» (٢/ ١٦٩).

له: مسلمُ بنُ مسلمٍ ـ عن مُورِّقٍ العجليِّ، عن عبيدِ بنِ عميرٍ، قال: قال عبادةُ بنُ الصامتِ: إذا حضرتْه ـ يعني المؤمنَ المتهجدَ بالقرآنِ ـ الوفاةُ جاءَ القرآنُ فوقفَ عند رأسِه، وهم يغسِّلونَهُ، فإذا فرغَ منه دخلَ حتى صارَ بين صدرِه وكفنِه، فإذَا وُضِعَ في حفرتِه جاءَه منكرٌ ونكيرٌ، خرجَ حتى صارَ بينه وبينهُمَا، فيقولانِ له: إليكَ عنَّا، فإنا نريدُ أن نسألَهُ؛ فيقولُ: واللَّه ما أنا بمفارقه، فإن كنتُما أمرتُما فيه بشيءٍ فشأنكما. ثم ينظرُ إليه، فيقولُ: هل تعرِفني؟ فيقول: لا. فيقولُ: أنا القرآنُ الذي كنتُ أسهرُ ليلكَ، وأظمأُ نهارَكَ، وأمنعكَ شهوتَكَ، وسمعَكَ، وبصرَكَ، فستجدُني من الأخلاءِ خليلَ صدقٍ، فأبشرْ، فما عليكَ بعد مسألةِ منكرٍ ونكيرٍ من همٍّ، ولا حزنٍ، ثم يخرجانِ عنه، فيصعدُ القرآنُ إلى ربِّه، فيسأله فراشًا ودثارًا، قال: فيؤمرُ له بفراشٍ ودثارٍ وقنديلٍ من الجنةِ، وياسمين من الجنةِ، فيحمله ألفُ ملكٍ من مقرَّبي سماءِ الدنيا. قال: فيسبقُهُم إليه القرآنُ، فيقولُ: هل استوحشتَ بعدي؟ فإنِّي لم أزلْ بربِّي حتى أمرَ لكَ بفراشٍ ودثارٍ ونورٍ من الجنةِ. قال: فتدخلُ عليه الملائكة، فيحملونَهُ ويفرشونَ له ذلك الفراشَ، ويضعونَ الدِّثارَ تحتَ رجليهِ، والياسمينَ عند صدرِه، ثم يحملونَهُ حتى يضجعُوه على شقِّه الأيمن، ثم يصعدونَ عنه، فيستلقِي عليه، فلا يزالُ ينظر إلى الملائكة حتى يلجُوا في السماءِ، ثم يدفعُ القرآنَ في قبلةِ القبرِ، فيوسِّعُ عليه ما شاءَ اللَّهُ من ذلكَ.

قال أبو عبد الرحمنِ: وكان في كتابِ معاويةَ إليَّ: فيوسَّع له مسيرةَ أربعمائةِ عامٍ، ثم يحملُ الياسمينَ من عندِ صدرِه، فيجعلُه عند أنفه، فيشمُّه غضا إلي يوم ينفخُ في الصورِ، ثم يأتي أهلَه كلَّ يومٍ مرةً أو مرتينِ، فيأتيه

بخبرِهم، ويدعُـو لهم بالخيرِ والإقبالِ، فإن تعلَّم أحـدٌ من ولدهِ القرآنَ بشَّره بذلكَ، وإن كانَ عقبَ سوءٍ، أتى الدارَ بكرةً وعشيًا، فبكى عليه إلى أن يُنفخَ في الصورِ. أو كما قال.

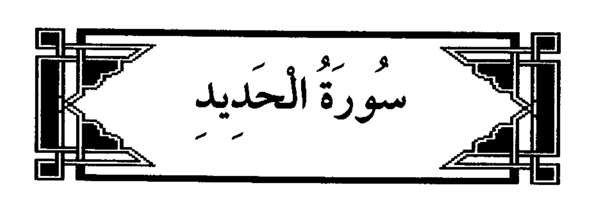
قـال الحافظُ أبو مـوسى المديني: هذا خبـرٌ حسنٌ رواه الإمـام أحمـد بن حنبل، وأبو خيثمة، وطبقتُهما من المتقدمينَ، عن أبي عبد الرحمنِ المقرئِ.

وقد تقدّمَ في الـبابِ الثاني: «**القبـرُ روضةٌ من رياضِ الجنةِ، أو حـفرةٌ من حـفرِ النارِ**». من حديثِ أبي هريرةَ، وأبي سعيدٍ، بإسنادينِ ضعيفينِ.

وروي أيضًا من حديثِ ابنِ عمرَ، خرّجهُ ابنُ أبي الدنيا، حدثنا هارونُ بن سفيـانَ، حدثنا محمدُ بنُ عمـرَ، أخبرنا أخي شملةُ بنُ عمـرَ، عن عمرَ بن شيبةَ عن أبي كثيـرٍ الأشجعيِّ، عن نافعٍ، عن ابنِ عمرَ، عن النبي ﷺ قال: «**القبرُ روضةٌ من رياضِ الجنةِ، أو حفرةٌ من حفرِ النارِ**». إسنادُه ضعيفٌ[1].

* * *

(١) «أهوال القبور» (٥٨ ـ ٨٢).



سُورَةُ الْحَدِيدِ

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾

إنَّ اللَّهَ تعالى أمرَ عبادَهُ في كتابِهِ، وعلى لسانِ رسُولِه، بجميعِ ما يُصلحُ قلوبَ عبادِهِ، ويُقرِّبها منه، ونهاهُم عمَّا ينافِي ذلكَ ويضادُّه ولمَّا كانت الرّوحُ تقوَى بما تسمعهُ من الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، وتَحيَا بذلكَ، شرعَ اللَّهُ لعبادِهِ سماعَ ما تقوَى به قلوبُهم، وتتغذّى وتزدادُ إيمانًا.

فتارةً يكونُ ذلك فرضًا عليهم، كسماعِ القرآنِ، والذكرِ والموْعظةِ يومَ الجمعةِ في الخطبةِ والصَّلاةِ، وكسماعِ القرآنِ في الصّلواتِ الجهريّةِ من المكتوباتِ.

وتارةً يكونُ ذلك مندُوبًا إليه غيرَ مفترضٍ، كمجالسِ الذكرِ المندُوبِ إليها. فهذا السّماعُ حَادٍ يحدُو قلبَ المؤمنِ إلى الوصولِ إلى ربِّه، يسُوقُه ويشُوقُه إلى قربِه، وقد مدحَ اللَّهُ المؤمنينَ بوجودِ مزيدِ أحوالِهم، بهذا السّماعِ. وذمَّ من لا يجدُ منهُ ما يجدونَهُ، فقالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢، ٢٣]، وقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

[الحديد:١٦] قال ابنُ مسعود: ما كانَ بين إسلامنَا، وبينَ أنْ عوتبْنَا بهذهِ الآيةِ إلا أربعَ سنينَ. خرّجه مسلمٌ(١) . وفي روايةٍ أُخرى قال: فجعلَ المؤمنون يعاتِبُ بعضُهم بعضًا(٢) . وعن ابنِ عباسٍ قال: إن اللَّهَ استبْطأَ قلوبَ المهاجرينَ فعاتَبهُم، على رأسِ ثلاثَ عشرةَ سنةٍ من نزُولِ القرآنِ، بهذه الآيةِ.

فهذه الآيةُ تتضمّنُ توبيخًا وعتابًا لمن سمعَ هذا السماعَ، ولم يُحدِثْ له في قلبِه صَلاحًا ورقَّةً وخشوعًا، فإنَّ هذا الكتابَ المسمُوعَ يشتملُ على نهايةِ المطلوبِ، وغايةِ ما تصلُحُ به القلوبُ، وتنجذبُ به الأرواحُ، المعلّقةُ بالمحلِّ الأعْلَى إلى حضرةِ المحبوبِ، فيحْيى بذلك القلبُ بعد مماتِه، ويجتمعُ بعدَ شتاتِه، وتزولُ قسوتُهُ بتدبُّرِ خطابِه وسماعِ آياته، فإنَّ القلوبَ إذا أيقنتْ بعظمةِ ما سمعتْ، واستشْعَرتْ شَرَفَ نسبةِ هذا القولِ إلى قائلِه، أذعنتْ وخضعتْ. فإذا تدبَّرَتْ ما احتَوى عليه من المرادِ ووعتْ، اندكَّتْ من مهابةِ اللَّهِ وإجلالِه، وخشعتْ.

فإذا هطلَ عليها وَابلُ الإيمانِ من سُحُب القرآنِ، أخذتْ ما وسعتْ، فإذَا بذَر فيها القرآنُ مِنْ حقائقِ العرفانِ، وسقاهُ ماءُ الإيمانِ، أنبتتْ ما زرعتْ ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥]، ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم:٥٠] ومتى فقدت القلوبُ غذاءَها، وكانتْ جاهلةً بِه، طلبت العِوضَ من غيرِه، فتغذتْ بِه، فازداد سقمُها بفقْدِهَا ما ينفعُها والتعوّضِ بما يضرّها. فإذا سقمتْ مالتْ إلى ما فيه ضررُها، ولم تجدْ طعمَ غذائِها، الذي فيه نفعُها، فتعوضتْ عن

(١) مسلم (٨/ ٢٤٣)، وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٩).
(٢) أخرج نحوه أبو يعلى في «مسنده» (٩/ ٥٢٥٦).

سماعِ الآياتِ، بسماعِ الأبياتِ. وعن تدبُّرِ معاني التنزيلِ، بسماعِ الأصواتِ.

قال عثمانُ بنُ عفانَ ﷺ: لو طهُـرتْ قلوبُكم ما شبعتُم من كلامِ ربِّكم. وفي حديـثٍ مرسلٍ: «**إنَّ هذه القلوبَ تـصـدأُ كـمـا يصـدأُ الحـديد**»، قيل: فما جلاؤُه؟، قالَ: «**تلاوةُ كتابِ اللَّه**»[1]. وفي حديثٍ آخـرَ مرسلٍ، أنَّ النبي ﷺ، خطبَ بعدما قدِمَ المدينةَ، فقال: «**إن أحسنَ الحديثِ كـتابُ اللَّه، قد أفلحَ منْ زينه اللَّهُ في قلبِه، وأدخلَهُ في الإسلامِ بعد الكفرِ؛ واخـتارَهُ على ما سواهُ من أحاديثِ الناسِ، إنه أحسنُ الحـديثِ وأبلغُه، أحِبُّـوا ما أحبَّ اللَّه، أحِبُّـوا اللَّه من كلِّ قلوبِكم**»[2]. وقالَ مـيمـونُ بن مِهـرانَ: إنّ هذا القرآنَ قـدْ خلق في صدُورِ كـثيـرٍ من الناسِ، والتـمسـوا حـديثًا غـيـره، وهو ربيعُ قلوبِ المؤمنينَ، وهو غضٌّ جـديدٌ في قلوبِهِم. وقال محمدُ بنُ واسعٍ: القرآنُ بستانُ العارفينَ حيثما حلُّوا منه، حلُّوا في نزهةٍ. وقـال مـــالكُ بنُ دينارٍ: يا حـملةَ القـــرآنِ مـاذَا زرعَ القــرآنُ في قلوبِكم؟! فإنَّ القــرآنَ ربيعُ المؤمنينَ، كما أنَّ الغيثَ ربيعُ الأرضِ، فـقد ينزلُ الغيثُ من السَّماءِ إلى الأرضِ، فـيُصيبُ الحشَّ فتكونُ فيه الحبَّـةُ، فلا يمنعُها نتنُ موضعِهَا أن تهتزَّ وتخضـرَّ وتحسُن. فيا حملَةَ القرآنِ، ماذا زرعَ القرآنُ في قلوبِكُم؟ أين أصحابُ سورةٍ؟ أينَ أصحابُ سورتين؟! ماذا عملتم فيهما.

وقال الحسن: تفـقَّدُوا الحلاوةَ في الصّلاةِ، وفي القـرآنِ، وفي الذكرِ. فإنْ وجدتُموها فامضُوا وأبشِرُوا، وإنْ لم تجدُوها فاعلْمُوا أنَّ البابَ مغلقٌ.

اسمعْ يامنْ لا يجدُ الحلاوةَ في سماعِ الآياتِ، ويجدها في سماعِ الأبياتِ.

في حديثٍ مرفوعٍ: «**منِ اشْتاقَ إلى الجنة فليـسْمَعْ كلامَ اللَّه**». كان داودُ الطّائيُّ يترنمُ بالآيةِ في الليلِ، فيرى من سمعهُ أنَّ جميعَ نعيمِ الدنيا جُمِعَ في ترنُّمه.

---

(1) أخرجه: البيهقي في «الشعب» (٢/ ٣٥٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٩٧).

(2) أخرجه: هناد في «الزهد» (١/ ٢٧٩).

قال أحمـدُ بنُ أبي الحواريِّ: إنيِّ لأقرأُ القرآنَ، فأنظرُ في آيةٍ آيةٍ، فـيحارُ فيـها عَقْلي، وأعـجبُ من حُفَّاظِ القـرآنِ، كيف يهنيهمُ النّومُ، ويسـعُهُم أن يشْتَـغلُوا بشيءٍ من الدُّنيا، وهم يتلونَ كلامَ اللَّهِ!! أمَـا لو فهِمُـوا ما يتلونَ، وعَرفُوا حقَّه، وتلذَّذُوا بِهِ، واستحلوا المناجاةَ بِهِ، لذهبَ عنهم النومُ، فَرحًا بما قدْ رُزِقوا.

قال ابنُ مـسعودٍ: لا يسـألُ أحدٌ عن نفسهِ غـيرَ القرآنِ، فـمن كانَ يحبُّ القرآنَ فهُـوَ يحبُّ اللّهَ ورسولَهُ. قال سهلٌ التسـتريُّ: علامةُ حُبِّ اللَّهِ، حُبُّ القرآنِ. وقال أبو سعيدٍ الخراز: مَن أحبَّ اللَّهَ أحبَّ كلامَ اللَّهِ، ولم يشبَع من تلاوته.

ويُروى عن معاذٍ قالَ: سيبلى القـرآنُ في صدُورِ أقوامٍ، كما يبْلى الثوبُ، فيتهافتُ، فيقرءونه لا يجدون له شهوةً.

وعن حذيفةَ قالَ: يوشِكُ أن يدرُسَ الإسلامُ، كما يدرسُ وشيُ الثوبِ؛ ويقرأُ الناسُ القرآنَ لا يجدونَ له حلاوةً.

وعن أبي العَاليةَ قالَ: سيأْتي علـى الناسِ زمانٌ، تخربُ فيه صدورُهم من القرآنِ، وتبلَى كما تبْلى ثيابُهم، وتهافَت فلا يجدُون له حلاوةً، ولا لذاذةً.

قال أبو محمد الجريريُّ ـ وهو من أكابرِ مـشايخِ الصوفيّةِ ـ : من استولْت عليهِ النفسُ، صارَ أسـيرًا في حكمِ الشّهواتِ، محصُـورًا في سجنِ الهوَى، فحـرَّمَ اللَّهُ على قلبِهِ الفوائدَ، فـلا يستلذُّ بكلامِهِ، ولا يسـتحليهِ، وإنْ كـثُرَ تردادُه على لسانه. وذُكِرَ عند بعضِ العارفينَ أصحابُ القصائد، فقالَ: هؤلاءِ الفـرارُونَ من اللَّهِ عـز وجل، لو ناصحُـوا اللَّهَ، وصـدَّقُـوه، لأفـادَهُم في

سَرائِرِهِم، ما يشغلُهم عن كثرةِ التلاقِي.

واعلمْ أن سمـاعَ الأغانِي يضادُ سمـاعَ القرآنِ، مِنْ كلِّ وجهٍ. فـإنّ القرآنَ كلامُ اللّهِ، ووحيُهُ ونورُهُ، الذي أحيا اللّهُ بـه القُلوبَ الميتةَ، وأخرجَ العبادَ به من الظلماتِ إلى النّورِ.

والأغاني وآلاتُهـا مزاميـرُ الشيطانِ. فإنَّ الشـيطانَ قرآنُهُ الشعـرُ، ومؤذِّنُه المزمارُ، ومصـائدُه النّساءُ. كذا قالَ قتادةُ وغـيرُه من السَّلفِ. وقد رُوِي ذلك مرفوعًـا، من روايةِ عبيدِ اللّهِ بن زحْـرٍ، عن عليِّ بنِ يزيدَ عن القاسمِ، عن أبي أمامةَ، عن النبيِّ ﷺ[1] وقدْ سبقَ ذكرُ هذا الإسنادِ.

والقرآنُ تُذكر فيه أسماءُ اللّهِ، وصفاتُهُ وأفعالُهُ، وقدرتُهُ وعظمتُهُ، وكبرياؤه وجلالُه، ووعدُه ووعيدُه.

والأغاني إنما يُذكرُ فيها: صفاتُ الخـمرِ والصورُ المحرّمةُ، الجميلةُ ظاهرُها المستقذرُ باطنُها التي كانتْ تُرابًا، وتعُـود ترابًا. فمن نزّل صفاتِها على صفاتِ من ليس كمثـلِهِ شيءٌ وهوَ السَّميعُ البصيـرُ، فقد شبَّـه، ومرقَ من الإسلامِ، كما يمرُقُ السهمُ من الرميةِ. وقد رُئِيَ بعضُ مشايخِ القومِ في النَّومِ بعدَ موتِهِ، فـسُئِلَ عن حـالِهِ فـقالَ: أوقـفني بينَ يديه، ووبَّخني، وقـالَ: كنتَ تسـمعُ وتقِـيسُني بسُـعْدَى ولُبنَى. وقـد ذكرَ هـذا المنامَ أبو طالبٍ المكيُّ، في كتـابِ «قوتِ القلوبِ».

وإن ذُكِرَ فـي شيءٍ من الأغانِي التـوحيـدُ، فغـالبُه من يسـوقُ ظاهرُه إلى الإلحـادِ: من الحلولِ والاتحادِ، وإن ذُكِـرَ شيءٌ من الإيمانِ والمحبـةِ، أو توابعِ

(١) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٤٥).

ذلكَ، فإنَّما يُعبَّرُ عنه بأسماء قبيحةٍ، كالخمرِ وأوعيتِهِ ومواطنِهِ وآثارِه، ويُذكر فيه الوصلُ والهجرُ، والصدودُ والتجنِّي. فيطربُ بذلكَ السامعونَ، وكأنَّهم يشيرون، إلى أنَّ اللَّه تعالى، يفعل مع عبادِه المحبينَ له المتقربينَ إليه، كما يذكرونَهُ. فيبعدُ ممن يتقربُ إليه، ويصدُّ عمّن يحبُّه ويُطيعُه، ويُعرِضُ عمن يُقبلُ عليه.

وهذا جهلٌ عظيمٌ فإنَّ اللَّهَ تعالى يقولُ، على لسانِ رسُوله الصادقِ المصدوقِ ﷺ: **«من تقرّبَ منّي شِبْرًا تقربت منه ذراعًا، ومن تقرَّب مني ذراعًا تقرَّبتُ منه باعًا، ومن أتَاني يمشِي أتيته هرولةً»**(١).

وغايةُ ما تحرِّكُه هذه الأغاني: ما سكنَ في النفوسِ من المحبّةِ، فتتحركُ القلوبُ إلى محبوباتِها، كائنةٌ ما كانتْ، من مباحٍ ومحرّمٍ وحقٍّ وباطلٍ. والصّادقُ من السامعينَ، قد يكونُ في قلبِه محبّةُ اللَّهِ، مع ما ركزَ في الطباعِ من الهَوى، فيكونُ الهَوى كامنًا، لظهورِ سُلطانِ الإيمانِ. فتحرِّكُه الأغاني، مع المحبّةِ الصحيحةِ. فيقْوى الوجدُ، ويظنُّ السامعُ، أنْ ذلكَ كلَّه محبّةُ اللَّه، وليسَ كذلك. بل هي محبّةٌ ممزوجةٌ ممتزجةٌ، حقُّها بباطلِها. وليسَ كلُّ ما حرك الكامنَ في النفوسِ، يكونُ مُباحًا في حكمِ اللَّهِ ورسولِه.

فإنّ الخمرَ تحركُ الكامنَ في النُفوسِ، وهي محرمةٌ في حكمِ اللَّهِ ورسولِه كما قِيلَ:

الرّاحُ كالريحِ إِن هبَّتْ على عِطْرٍ ... طابتْ وتخبثُ إنْ مرّتْ على الجِيَفِ

وهذا السماعُ المحظورُ، يُسكرُ النفوسَ، كما يسكرُ الخمرُ أو أشدُّ، ويصدُّ

---

(١) أخرجه: البخاري في «الصحيح» (٩/ ١٤٧ ـ ١٤٨)، ومسلم (٨/ ٦٢).

عن ذكرِ اللَّهِ، وعن الصَّلاةِ، كالخمرِ والميسـرِ فإن فُرضَ وجُودُ رجلٍ يسْمعُه، وهو ممتَلئٌ قلبُه بمحـبّةِ اللَّهِ، لا يؤثرُ فيه شيءٌ من دَواعِي الهـوى بالكليةِ، لم يُوجبْ ذلك له خـصوصًا، ولا لـلنّاسِ عمومًـا. لأنّ أحكامَ الشريعـةِ، تناطُ بالأعمِّ الأغلبِ. والنَّادرُ ينسحبُ عليه حكمُ الغالبِ، كما لو فُرض رجلٌ تامُّ العقلِ، بحيثُ لو شربَ الخمرَ، لم يُؤثرْ فـيه ولم يقعْ فيه فسادٌ، فإنَّ ذلك لا يوجبُ إباحةَ الخمر له، ولا لغيرِه. على أنَّ وجودَ هذا المفروضِ في الخارجِ، في الصُّورتين: إما نادرٌ جداًّ أو ممتنعٌ متعذِّرٌ.

وإنما يظهـرُ هذا السَّمـاعُ، على هذا الوجـهِ، حيـث جرّد كـثيـرٌ من أهلِ السلوكِ الكلامَ في المحـبةِ ولهـجوا بهـا، وأعرضُـوا عن الخشـيةِ. وقـد كانَ السلفُ الصالحُ يُحذِّرون منهمُ، ويفسِّقون من جرَّدَ، وأعرضَ عن الخشيةِ إلى الزندقةِ. فإنَّ أكثرَ ما جَـاءتْ به الرّسُلُ، وذكرَ في الكتابِ والسنةِ: هو خشيةُ اللَّهِ وإجلالِهِ وتعظيمِهِ، وتعظيمِ حرماتِهِ وشعائرِهِ، وطاعتِهِ.

والأغاني لا تحرّكُ شيئًا من ذلكَ، بلْ تُـحدِثُ ضدَّهُ من الرعُونَةِ والانبساطِ والشطحِ، ودعوى الوصُولِ والقُربِ، أو دعـوى الاختصاصِ بولايةِ اللَّهِ التي نسب اللَّهُ في كتابِهِ دعواها إلى اليهودِ. فـأمَّا أهلُ الإيمانِ، فقد وصفهُم بأنَّهم ﴿**يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ**﴾ [المؤمنون:٦٠] وفـسَّـر ذلكَ النبيُّ ﷺ بأنَّهم: «**يصومونَ ويتصدقـونَ، ويصلُّون ويخشونَ أن لا يُتقبلَ منْهُم**»[١] . وقد كانَ الصَّحابةُ ﷺ، يخافـونَ النفاقَ على نفوسِهـم، حتَّى قالَ الحسنُ: مـا أمِنَ النفاقَ إلا منافقٌ، ولا خشِيَهُ إلا مؤمنٌ.

---

(١) أخرجه: أحـمد في «المسند» عن عائشة (٦/ ١٥٩)، والترمـذي في «الجامع» (٣١٧٤)، والحاكم (٢/ ٣٩٤).

ويوجبُ أيضًا سماعُ الملاهي: النفرةَ عن سماعِ القرآنِ، كما أشارَ إليه الشافعيُّ رحمه اللَّه. وعدمَ حضورِ القلبِ عند سماعِه، وقلّةَ الانتفاعِ بسماعِه. ويوجبُ أيضًا قلّةَ التعظيمِ لحرماتِ اللَّه، فلا يكادُ المدمنُ لسماعِ الملاهي، يشتدّ غضبُهُ لمحارمِ اللَّهِ تعالَى إذا انتُهكَتْ، كما وصفَ اللَّهُ تعالى المحبّينَ لهُ بأنَّهم ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ**﴾ [المائدة:٥٤]. ومفاسدُ الغناءِ كثيرةٌ جدًّا.

وفي الجملةِ فسماعُ القرآنِ ينبتُ الإيمانَ في القلبِ، كما ينبتُ الماءُ البقلَ. وسماعُ الغناءِ ينبتُ النفاقَ، كما ينبتُ الماءُ البقلَ. ولا يستويانِ حتى يستوي الحقُّ والبُطلانُ ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾ [فاطر:١٨-٢٢] واللَّهُ تعالى المسئولُ أن يهدِيَنا وسائرَ إخوانِنَا المؤمنينَ إلى صراطٍ مستقيمٍ، صراطِ الذين أنعمَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهِم، ولا الضالين آمين والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمينَ، وصلَّى اللَّه علـى سيدنا محمدٍ، وآلهِ وصحبهِ أجمعين[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾

وقد قال طائفة من السَّلف في قولِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿**أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾ [الحديد:١٨]: إنَّ القرضَ الحسنَ قولُ: سبحانَ اللَّه، والحمدُ اللَّه، ولا إلهَ إلا اللَّهُ، واللَّهُ أكبرُ. وفي «مراسيلِ الحسنِ»، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «ما

(١) «نزهة الأسماع» (٨٠ ـ ٩٣).

أنفقَ عبدٌ نفقةً أفضلَ عندَ اللَّه عزَّ وجلَّ من قولٍ ليس من القرآن وهو من القرآن: سبحان اللَّه، والحمد للَّه، ولا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر»[1] .

* * *

قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

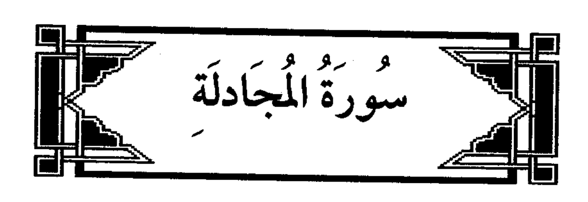
وقال بعضُ السلفِ في قولِ اللَّه تعالى: ﴿السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة:١٠]: إِنَّهم أوَّلُ الناسِ خروجًا إلى المسجدِ وإلى الجهادِ.

وفي قوله: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد:٢١] قال مكحولٌ: التكبيرةُ الأولى مع الإمامِ. وقال غيرُه: التكبيرة الأولى والصفُّ الأول[2] .

* * *

(١) «اللطائف» (ص ٤٣٨).

(٢) «الفتح» (٣/ ٥٣٣).



سُورَةُ المُجَادلَة

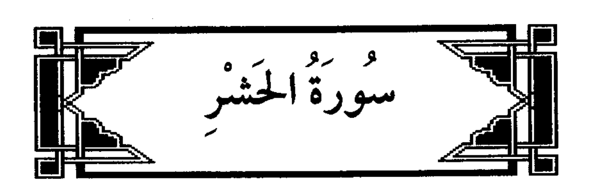
قوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾

وخرَّج محمد بنُ نصر المروزيُّ بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا عن أنسٍ قالَ: لم يكنِ النبيُّ ﷺ يقبل مَنْ أجابه إلى الإسلامِ إلا بإقامِ الصــلاةِ، وإيتاءِ الزكاة، وكانتا فريضتين على مَنْ أقــرَّ بمحمَّدٍ ﷺ وبالإســلامِ، وذلك قولُ اللَّه عــزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [المجادلة: ١٣].

وهذا لا يثبتُ، وعلى تقديرِ ثبوتهِ، فالمرادُ منه: أنه لم يكن يُقرُّ أحدًا دخلَ في الإسلامِ على تركِ الصَّــلاةِ والزكاةِ، وهذا حقٌّ فإنه ﷺ أمر معاذًا لما بعثَهُ إلى اليــمنِ أن يدعُوَهُم أوَّلاً إلى الشــهادتينِ، وقــالَ: «**إنْ هُمْ أطاعــوك لذلكَ، فأعلمهُم بالصلاةِ ثم بالزكاةِ**» ومُرادُه أن من صارَ مسلمًا بدخولِهِ في الإسلامِ أُمِرَ بعدَ ذلكَ بإقامِ الصلاةِ، ثم بإيتاءِ الزكاةِ، وكانَ من سألهُ عن الإسلامِ يذكرُ له مع الشهادتين بقيةَ أركانِ الإسلامِ، كمــا قالَ لجبريلٍ عليه السلامُ لما سألهُ عن الإسلامِ، وكمَا قال للأعرابيِّ الذي جاءَهُ ثائرَ الرأسِ يسألُ عن الإسلامِ[١].

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٢١٨ ـ ٢١٩).



سُورَةُ الحَشْرِ

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

الأرضُ المعنوةُ هل هي داخلةٌ في آيةِ الغنائمِ المذكورةِ في سورةِ الأنفالِ وهي قوله تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ**﴾ الآية [الأنفال:٤١] أمْ هي داخلةٌ في آيةِ الفيءِ المذكورةِ في سورةِ الحشرِ وهي قوله تعالى: ﴿**مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾ [الحشر:٧] الآية ثم ذكر ثلاثة أصنافٍ المهاجرين والأنصارَ ومن جاء بعدَهم؟ فقالتْ طائفةٌ: الأرضُ داخلةٌ في آية الغنيمة، فإنه تعالى قال: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ**﴾ [الأنفال:٤١] وشيءٌ نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ فيعمهُ كلَّ ما يُسمى شيئًا، قالوا: وآيةُ الفيءُ لم يدخل فيها حكمُ الغنيمة كما أنَّ آيةَ الغَنِيْمةِ لم يَدْخلْ فيها الفيءُ بلْ الغنيمةُ والفيءُ لكل واحدٍ منهما حمٌ يختصُّ به، وهذا قولُ مَنْ قالَ من الفقهاءِ: إنَّ الأرضَ تتعينُ قسمتُها بينَ الغانمينَ.

وقالت طائفةٌ: بل الأرضُ داخلةٌ في آيةِ الفيءِ، وهذا قولُ أكثرِ العلماءِ صرَّحوا بذلك، وممن روي عنه عمر بن عبد العزيز، وقد سبق ذكر من قال من السلف: إن السَّوادَ فيءٌ ونصَّ عليه الإمامُ أحمد.

ووجه دخولِ الأرض في الفيءِ أنَّ اللَّه تعالى قالَ: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ الآية [الحشر:٧-١٠] فجعل الفيءَ لثلاثةِ أصنافٍ؛ المهاجرينَ والأنصارَ والذين جاءوا من بعدهم ولذلك لما تلا عمرُ رضي الله عنه هذه الآية قال: «استوعبتْ هذه الآيةُ الناسَ فلم يبقَ أحدٌ من المسلمين إلا له فيها حقٌّ إلا بعضَ من تملكون من أرقائكم» خرَّجه أبو داود(١) من طريق الزُّهْري عن رضي الله عنه منقطعًا، وروي من وجهٍ آخرَ عن الزهري موصولاً، ورواه هشامُ بنُ سعدٍ عن زيدِ بنِ أسلمَ عن أبيه عن عمر رضي الله عنه أيضًا.

ثمَّ إنَّ عمرَ رضي الله عنه جعل أرضَ العنوة فيئًا وأرصدَها للمسلمين إلى يومِ القيامةِ، فدلَّ على أنَّه فهِمَ دخولَها في آياتِ الفيءِ ولذلك قرَّره أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ عبد العزيز في رسالتِهِ المشهورةِ التي بيَّنَ فيها أحكام الفيءِ وقد اعتمدَ عليها مالكٌ وأخذَ بها، كما ذكر ذلك القاضي إسماعيل في كتاب «أحكام القرآن» وساقها بتمامها بإسناده، وذكرَ البخاريُّ في «صحيحه» بعضها تعليقًا وبيَّنَ دخولَ الأرضِ في الفيءِ وأنَّ هذه الآياتِ ليستْ بسببِ بني النضيرِ.

وبنو النَّضيرِ أجلاَهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم من المدينة بعدَ أن حاصرَهم قال الزهريُّ: حاصر رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم بني النضير وهم سبطٌ من اليهودِ بناحيةِ من المدينة حتى نزَلُوا على الجلاءِ وعلى أنهَ لهم ما أقلَّت الإبل من الأمتعةِ إلا الحلقةَ فأنزلَ اللَّه فيهم يعني أول سورة الحشرِ. خرَّجه أبو عبيدٍ وخرَّجه أبو داود(٢) مطولاً من طريق الزهري عن عبد الرحمن بن كعب عن رجلٍ من أصحابِ

---

(١) «السنن» (٢٩٦٦).

(٢) «السنن» (٣٠٠٤).

النبي ﷺ فذكر حديثًا طويلاً وفيه أنَّ النبي ﷺ غزا على بني النضير بالكتابِ فقاتَلَهَم حتى نزلوا على الجلاءِ فجلَتْ بنو النضير واحتملوا ما أقلَّت الإبلُ من أمتعتِـهم وأبوابِ بيوتهم وخشبِها، فدلَّ أنَّ نخلَ بنـي النضير لرسول اللَّه ﷺ خاصةً أعطاه اللَّه إيَّاها وخصَّـه بها فقال تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر:٦] يقول: فأعطى النبيُّ ﷺ أكثرَها للمهاجرين وقـسَّمها بينهم وقسَّم منها لرجلين من الأنصـار كانا ذوي حاجةٍ، وبقي منهـا صدقة رسـول اللَّه ﷺ التي في أيدي بـني فـاطمـةَ ﵂، وهذا الكلام أكثر مدرجٌ من قولِ الزهري واللَّه أعلم.

وخرَّج أبو داود من قولِه: «كانتْ بنو النَّضيرِ للنبيِّ ﷺ» إلى آخرِهِ من قول الزهريِّ.

وثبت في «الصحيحين»(١) عن ابنِ عمـرَ ﵄: أن النبيَّ ﷺ حرَّق نخل بني النضير وقطَّع وهي البـوُيْرَة فنزلتْ فيهم هذه الآيةُ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ [الحشر:٥] الآية، وفي «الصحـيحين»(٢) أيضًـا عن عمـر ﵁ أنه قـال: «كـانت أمـوالُ بني النضـيـر مما أفاء اللَّه على رسـولِهِ مما لم يوجفْ المسلمون عليه بخيلٍ ولا ركابٍ وكانتْ لرسول اللَّه ﷺ خاصةً فكان ينفقُ منها على أهلِه نفقةَ سـنةٍ ثمَّ ما بقيَ جعلَه في الكُرَاع والسلاحِ عـدةً في سبيل اللَّه عزَّ وجلَّ.

وإذا عُلِمَ أنَّ الآيةَ نزلتْ بسببِ بني النضـير فبنو النضيـر بما تركُوا أرضَهم ونخْلَهم وسلاحَهم وقد جعلَه اللَّه فيئًا وخصَّه برسولِهِ إمَّا لأنَّه كانَ يملكُ الفيء في حياتِهِ، أو لأنه كان يُـقسِّمه باجتهادِهِ ونظرِهِ بخـلافِ الغنيمة ولا ريبَ أنَّ

---

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ١٣٦)، (٤/ ٧٦)، (٥/ ١١٣)، (٦/ ١٨٤)، ومسلم (٥/ ١٤٥).

(٢) أخرجه: البخاري (٤/ ٤٦)، (٦/ ١٨٤).

بني النضير لم يتركُوا أرضَهم إلا بعد حصار ومحاربةٍ ولمْ ينزلوا من حصونِهم إلا خشيةَ القلتِ ومع هذا فقد جعلَ اللَّه أرضَ بني النضير فيئًا، وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر:٦] تذكيرٌ بنعمةِ اللَّه عليهم في أنَّهم لم يحتاجوا في أخذِ ذلك إلى كثير عملٍ ولا مشقةٍ، وقال مجاهدٌ في قوله: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر:٦] قال: يذكرُهم ربُّهم أنَّه نصرَهم بغيرِ كراع ولا عدةٍ في بني قريظةَ وخيبرَ. خرَّجه آدم بن أبي إياسٍ عن ورقاءَ عن أبي نجيحٍ عنه، ومعلومٌ أنَّ خيبرَ وقعَ فيها قتال لكن يسير فتكون الآيةُ كقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣] وحينئذ فإمَّا أن تكونَ الأرضُ تُستثنى من عمومِ قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الآية [الأنفال:٤١] فيكونُ ذلك تخصيصًا من العامِّ، وإمَّا أن يكونَ هذا ناسخًا لحكمِ الأرضِ من آيةِ الغنيمةِ فإنَّ قصةَ بني النضير بعدَ قصةِ بدرٍ بالاتفاق والأشبهُ التخصيصُ إلا أنْ يقالَ: إنَّ قصةَ بدرٍ لم يدخُلْ فيها إلا المنقولات إذ لم يكنْ في غنيمةِ بدرٍ أرضٌ، وهذا على قول من يَرى التخصيصَ بالسببِ ظاهرٌ، ومما يدلُّ على تخصيصِ آيةِ الغنيمةِ بالمنقولاتِ، أنَّ اللَّه تعالى خصَّ هذه الأمة بإباحةِ الغنيمة كما ثبتَ ذلك عن النبي ﷺ من وجوه كثيرةٍ، والذي خصتْ بإباحته هو المنقولاتُ دونَ الأرضِ، فإنَّ اللَّه تعالى أورثَ بني إسرائيل أرضَ الكفارِ وديارَهُم ولم يكن ذلك ممتنعًا عليها، لأنَّ الأرضَ ليستْ بداخلة في مطلقِ الغنيمةِ وإنَّما كان ممتنعًا عليهم المنقولاتِ، ولهذا كانُوا يحرِّقونها بالنار وإنَّما خصَّ الغانمون من هذه الأمة بالمنقولاتِ دون الأرضِ، لأنَّ قتالَهم وجهادَهُم للَّه عزَّ وجلَّ لا للغنيمةِ، وإنَّما الغنيمةُ رخصةٌ من اللَّه تعالَى ورحمةٌ بهم فخصُّوا بما ليسَ له أصلٌ يبقى، وأما ما له أصلٌ يبقَى فإنه

يكونُ مشتركًا بين المسلمينَ كلِّهم، من وُجِدَ منهم ومن لم يوجدْ بعد ذلك، ويبينُ هذا أنَّ اللَّه تعالى نسبَ الغنيمةَ للغانمين، فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنفال:٤١] فأمَّا الأرضُ فأضافها إلى الرسول لقولِه: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [الحشر:٧] إشارةً إلى أنَّ كلَّ قريةٍ يفيئُها اللَّهُ على أمتِه إلى يومِ القيامةِ، فهي مضافةٌ إلى الرسول غيرُ مختصةٍ بالغانمين، والإمامُ يقومُ مقامَ الرسول في قسمتِها بالاجتهاد.

وقولُهُ: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [الحشر:٧] من الأرض خاصة وقد صحَّ عن عطاءِ بن السائب والحسنِ البصري وغيرِهما من السلفِ أنهم قالُوا: الأرضُ فيءٌ وإن أخذتْ بقتالٍ وتقدَّم ذكرُ ذلك عن جماعةٍ من العلماءِ يدلُّ على ذلك أنَّه جعلها لثلاثةِ أصنافِ المهاجرينَ والأنصارِ ومن جاء بعدَهم من المسلمين، وهذا لا يمكنُ في المنقولاتِ قطعًا، لأنَّ المنقولات تستهلكُ ويختصُّ به من يأخذُهُ فلا يمكنُ اشتراكُ جميعِ المسلمينَ فيه، وقد قيلَ: إنَّ هذه الآية نزلتْ في قرى عرينةَ التي فتحتْ على النبيِّ ﷺ، أو فيها وفي قرى بني قريظة والنضير وحنينٍ، وقيلَ: بل الآيةُ تعمُّ كلَّ ما فتحَ إلى آخر الدهر، وهو أصحُ، وإن كانَ سببُ نزولها في قرى عرينة، فإنَّ سبب النزولِ لا يختصُّ الحكمَ العامَّ.

قال معمرٌ: بلغنَا أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في الجزيرةِ والخراجِ، وخراجِ القُرى، يعني القُرى تؤدِّي الخراجُ ذكرهُ ابنُ أبي حاتمٍ وكذا قال الحسنُ بنُ صالحٍ: أنَّ الفيءَ ما أُخذَ من الكفارِ بصلحٍ من جزيةٍ أو خراجٍ، وكذا فسر أحمدُ الفيءَ بأنه ما صولح عليه من الأرضين وجزيةِ الرؤوس وخراج الأرضِ، وقال: فيه حقٌّ لجميع المسلمين، ولم يذكرْ في هذه الآيةِ بغيرِ إيجافٍ، كما ذكرهُ في

الآيةِ الأولى، وقد تقدَّم عن مجاهدٍ أنه حـمل الآية الأولى على خيبر وقريظةَ مع ما فيها من نفي الإيجافِ، فمـا لم يذكرْ فيه نفيُ الإيجافِ أوْلى أن يحملَ على حـالةِ القتـالِ، فمن هنا قـالتْ طائفـةٌ من السلف : المرادُ به ما أخـذَهُ المسلمونَ بقتالٍ من الأرضِ.

ذكرَ إسماعـيلُ بن إسحاقَ عن أبيه عن المغيرة بنِ عـبد الرحمن، قال ابنُ إسحـاقَ: وحدَّثني عـبد اللَّه بن أبي بكرٍ دخلَ حـديثُ أحدُهمـا في الآخر، قال: أنزلَ اللَّهُ تعالى في بني النضير سـورة الحشرِ، فكانتْ أموالُ بني النضير مما لم يوجفِ المسلمونَ عليه خـيلاً ولا ركابًا، فجعل اللَّهُ أمـوالَهم لنبيِّه ﷺ يضَعُها حيثُ شاءَ، ثم قالَ: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [الحشر:٧]، ما أوجفَ المسلمون عليـه بالخيل والركابِ، وفُتِحَ بالحـربِ فللَّه وللرسول ولذي القربى، فهذا قسمٌ آخرُ بينَ المسلمين على ما وضَعهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ فقسم الفيءَ لمن سـمَّى من المهـاجـرينَ والأنصـارِ، لمن جـاء بعدهم، خـرَّجـه القـاضي إسماعيلُ.

ونحو هذا قـالَ قتـادةُ ويزيد بن رومانَ: وأنَّ هذه القـرى مما أخذ بالقـتالِ لكنَّهم قـالوا: نُسخ ذلك بآيةِ الأنفالِ، فـإن أرادوا النسخَ الاصطلاحي، وهو رفعُ الحكمِ، فـلا يصحُّ؛ لأنَّ آيةَ الأنفالِ نزلت عـقبَ بدرٍ قبلَ بني النضـير، وإن أرادُوا أنها بينت أمرَهَا وأنَّ المرادَ بآيةِ الحشرِ خُـمسُ الغنيمةِ خاصةً، وهذا قولُ عطاءٍ الخراسـانيِّ ذكرهُ آدمُ بنُ أبي إياسٍ في «تفسيرِه» عن أبي شـيبةَ عنه على تقـديرِ أن يكونَ المرادُ الخمسَ خـاصة بآيةِ الحـشر أنها بينـتْ أنَّ خُمسَ الغنيمـةِ لا يختصُّ بالأصنافِ الخمسِ، بل يشتـركُ فيها جمـيعُ المسلمين كان متوجِّـها، ويستـدلُّ بذلك على أن مصرف الخمسِ كلَّه مـصرفُ الفيء، وهو

أقوى الأقوالَ، وهو قــولُ مالكٍ وقرره عمــرُ بنُ عبد العزيزِ في رســالتِهِ في الفيءِ تقريرًا بليغًا شافيًا ﷺ.

فهذه ثلاثــة أقوال في الآية إذا قلنا: إنَّ الفيءَ هنا ما أخذَ بقــتالٍ، هل هي منسوخةٌ أو أن المرادَ بها خمسُ الغنيــمةِ أو أنَّ المرادَ بها الأرضُ خاصةً، وهذا الثالثُ أصحُّ ويقررُ هذا أنَّ الفيءَ يستعملُ كثيرًا فيما أخذ بقتالٍ.

وروى إبراهيمُ بنُ طهــمانَ عن أبي الزبيــر عن جابر ﷺ قــال: «أفاءَ اللَّه على رسولِهِ خيبرَ فأقرَّهم رسولُ اللَّه ﷺ كما كانُوا»، وذكرَ الحديث.

وروى يحيى بنُ سـعيدٍ عن بشير بنِ يـسارٍ أنَّ رسول اللَّه ﷺ لما أفاء اللَّهُ عليه خيبرَ قسمَها ستةً وثلاثينَ سهمًا، وذكرَ الحديث.

خرَّجه أبو داود[1].

وإذا تقــرَّرَ هذا فمن رأى دخــولَ الأرضِ في آية الغنيــمــةِ خاصــةً أوجبَ قسمتَها بين الغانمينَ، ومن رأى دخولَها في آية الفيءِ خاصةً فمنهم من أوجب إرصادَهَا للمسلمينَ عمومًا، كقول مالك وأصحابِهِ، ومنهم من خير بين ذلك وبين قسمتِها، وهو قولُ الأكثرين، ثمَّ إنَّ أبا عبيدٍ زعمَ أنَّ الصحابةَ ﷺ رأوا دخولَهــا في كلتا الآيتَيْنِ، فلذلــكَ منهم من أشارَ بقســمتِهــا ومنهُم من أشارَ بحبسِها، وردَّ ذلك أصحابُ مالكٍ، وقالُوا: لو دخلتْ في آيةِ الغنيمة لكانتْ حقًّا للغانمينَ كالمنقــولاتِ، فكيف يخيرُ الإمامُ بين إعطائها لأهلِها المـستحقين لها وبين منعهم حقِّهم.

وقد يقالُ: إنَّ مــن رأى قسمتَهــا كالزبير وبلالٍ ﷺ، وهو أولُ اخــتياريَّ عــمرَ ﷺ لم يكنْ مــأخذُهُ في ذلك دخــولَهــا في آيةِ الغنيمــة، وإنما يكونُ

---

(١) «السنن» (٣٠١٢).

مأخذُهُم في ذلكَ أنها لما كانت فـيئًا لجميع المسلمين، وحقًّا مشتركًا بينم جاز تخصيصُ الغانمينَ بها لأنهم من جملةِ المسلمين، ولهم خصوصيةٌ على غيرِهم بحصولِ هذه الأرضِ بقتالِهم عليها، فإذا كـانتِ المصلحةُ في تخصيصِهم بها جازَ، وهذا كما أقطـع عثمانُ ﷺ جماعةً من الصـحابة بعض أرضِ السوادِ إقطاعَ تمليكٍ، ونظيـرهُ وقفُ الإمـامِ بـعضَ أراضي بيتِ المالِ عـلى بعضِ المسلمين، وقد أفتى بجوازِ ذلك ابنُ عقيلٍ من أصحابنا وطوائفُ من أصحابِ الشافعيِّ وأبي حنيفةَ، ومن الشافعية من منع ذلك[1] .

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

من ملك نفسَـهُ وقهرَهَا ودانَها: عـزَّ بذلكَ؛ لأنه انتصرَ على أشـدِّ أعدائه وقـهرهُ وأسـرهُ واكـتفَى شـرَّهُ قـال اللَّهُ تـعـالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]، فحصرَ الفلاحَ في وقايةِ شحِّ نفسِهِ، وتطلُّعِها إلى ما مُنعتْ منهُ، وحرصِـها على ما يُـضيرُها مما تشـتهيـهِ: من علوٍّ وترفعٍ، ومالٍ وجاهٍ وأهلٍ ومسكنٍ، ومأكلٍ ومشربٍ وملبسٍ وغيرِ ذلكَ.

فإنَّهـا تتطلعُ إلى ذلكَ كلِّه وتشتـهِيهِ، وهو عينُ هلاكِـهَا ومنه ينشـأُ البغيُ والحسدُ والحـقدُ. فمن وقِيَ شحَّ نفسِهِ فـقد قهرهَا وقصـرَهَا على ما أُبيحَ لها وأُذنَ لها فيه، وذلكَ عين الفلاحِ[2] .

* * *

(١) «أحكام الخراج» (ص ١٢٨ ـ ١٢٩).

(٢) «شرح حديث: لبيَّك اللهم لبيك» (ص ١٢٨ ـ ١٢٩).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

فأفضلُ الأعمالِ: سلامةُ الصَّدرِ من أنواع الشَّحناء كلِّها، وأفضلُها السَّلامةُ من شحناءِ أهلِ الأهواءِ والبدعِ التي تقتضي الطَّعنَ على سلفِ الأمةِ، وبغضَهم والحقدَ عليهم، واعتقادَ تكفيرِهم أو تبديعِهم وتضليلِهم؛ ثم يلي ذلكَ سلامةُ القلبِ من الشَّحناءِ لعمومِ المسلمينَ، وإرادةُ الخيرِ لهُم، ونصيحتُهم، وأن يُحبَّ لهم ما يُحبُّ لنفسه. وقد وصفَ اللَّهُ تعالى المؤمنين عمومًا بأنَّهم يقولون: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الحشر: ١٠].

وفي «المسند»[(١)] عن أنسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ، قال لأصحابِه ثلاثةَ أيامٍ: «**يطلُعُ عليكم الآنَ رَجُلٌ من أهلِ الجنَّة**» فيطلُعُ رجلٌ واحدٌ، فاستضافهُ عبدُ اللَّهِ بن عمرٍو، فنامَ عنده ثلاثًا لينظرَ عملَه، فلم ير له في بيته كبيرَ عملٍ، فأخبرَه بالحال، فقال له: هو ما ترى، إلا أنِّي أبيتُ وليسَ في قلبي شيءٌ على أحدٍ من المسلمين. فقالَ عبدُ اللَّهِ: بهذا بلغَ ما بلغَ.

وفي «سُنَنِ ابنِ ماجه»[(٢)]: عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو، قالَ: قيلَ: يا رسولَ اللَّهِ، أيُّ الناسِ أفضلُ؟ قال: «**كُلُّ مَخْمُومِ القلبِ، صدوق اللِّسان**». قالوا: صَدوقُ اللسانِ نعرفُه، فما مَخمُومُ القلبِ؟ قال: «**هو التَّقِيُّ النَّقِيُّ الذي لا إثْمَ فيه، ولا بَغْيَ، ولا غِلَّ، ولا حسدَ**».

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ١٦٦).

(٢) ابن ماجه (٤٢١٦).

قال بعضُ السَّلَف: أفضلُ الأعمالِ سلامةُ الصُّدُورِ، وسخاوةُ النُّفوسِ، والنَّصيحةُ للأمَّةِ؛ وبهذه الخصالِ بلغَ منْ بلغَ، لا بكثرةِ الاجتهادِ في الصَّومِ والصَّلاةِ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

وأعظمُ الشدائدِ التي تنزلُ بالعبدِ في الدنيا الموتُ، وما بعده أشدُّ منه إن لم يكنْ مصيرُ العبدِ إلى خيرٍ، فالواجبُ على المؤمنِ الاستعدادُ للموتِ وما بعدَهُ في حال الصحةِ بالتقوى والأعمالِ الصالحةِ، قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** [الحشر:١٨ ـ ١٩].

فمن ذكرَ اللَّهَ في حالِ صحتِهِ ورخائِه، واستعدَّ حينئذٍ للقاء اللَّه عزَّ وجلَّ بالموتِ وما بعدَهُ، ذكرَهُ اللَّهُ عندَ هذه الشدائد، فكانَ معهُ فيها، ولطفَ به، وأعانَهُ، وتولاهُ، وثبَّتَه على التوحيدِ، فلقيهُ وهو عنه راضٍ، ومن نسِيَ اللَّهَ في حالِ صحتِه ورخائِه، ولم يستعدَّ حينئذٍ للقائه، نسيهُ اللَّهُ في هذه الشدائدِ، بمعنى أنَّه أعرضَ عنهُ، وأهملَهُ، فإذا نزلَ الموتُ بالمؤمنِ المستعدِّ له، أحسنَ الظنَّ بربِّه، وجاءتْهُ البُشْرَى منَ اللَّه فأحبَّ لقاءَ اللَّه، وأحبَّ اللَّهُ لقاءَه، والفاجرُ بعكسِ ذلكَ، وحينئذٍ يفرحُ المؤمنُ، ويستبشرُ بما قدَّمَهُ مما هو

(١) «اللطائف» (٢٦٦ ـ ٢٢٧).

قادمٌ عليـهِ، ويندمُ المفـرطُ، ويقـولُ: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦].

قال أبو عبدِ الرحمنِ السُّلميُّ قبلَ موتِهِ: كيفَ لا أرجُو ربِّي وقد صُمْتُ له ثمانينَ رمضانَ؟

وقال أبو بـكرِ بنُ عياشٍ لابـنه عندَ موتِهِ: أترى اللَّه يضـيعُ لأبيكَ أربعينَ سنةً يختمُ القرآن كُلَّ ليلةٍ؟

وختمَ آدمُ بنُ أبي إياسٍ القرآنَ وهو مسجًّى للموتِ، ثم قالَ: بحُبِّي لكَ، إلا رفقتَ بي في هذا المصرعِ؟ كنتُ أُؤمِّلُك لهذا اليومِ، كنتُ أرجوكَ، لا إله إلا اللَّه، ثم قُضِي.

ولما احتُضِرَ زكريا بنُ عديٍّ، رفعَ يديهِ، وقالَ: اللهمّ إنِّي إليكَ لمشتاقٌ.

وقال عبدُ الصمدِ الزاهدُ عند موتِهِ: سيِّدي لهذهِ الساعةِ خبَّأتُكَ، ولهذا اليومِ اقتنيتُكَ، حقِّق حُسْنَ ظنِّي بكَ.

وقال قتادةُ في قولِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢] قال: من الكربِ عندَ الموتِ.

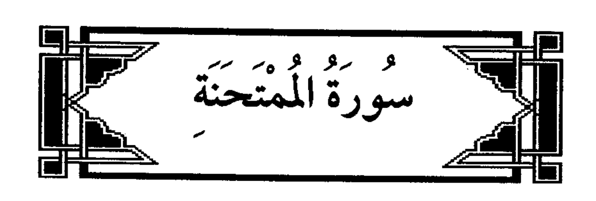
وقـال عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عـبـاسٍ في هذه الآيةِ: يُنجيـهِ من كلِّ كربٍ في الدنيا والآخرةِ.

وقال زيدُ بنُ أسلمَ في قـولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [فصلت:٣٠]. قال: يُبـشر بذلكَ عند موتِهِ، وفي قـبرِهِ، ويومَ يُبعثُ، فإنَّه لفي الجنةِ، وما ذهبتْ فرحةُ البشارةِ من قلبه.

وقال ثابتٌ البنانيُّ في هذه الآيةِ: بلغنا أن المؤمنَ حيثُ يبعثه اللَّه من قبره، يتلقاهُ ملكاهُ اللذان كانَا معه في الدنيا، فيقولانِ لهُ: لا تخفْ ولا تحزنْ، فيؤمِّنُ اللَّهُ خوفَه، ويُقرُّ اللَّهُ عينَه، فما مِنْ عظيمة تغشى الناسَ يومَ القيامةِ إلا هي للمؤمنِ قرةُ عينٍ لما هداهُ اللَّهُ، ولما كانَ يعملُ في الدُّنيا[1].

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٩٩ ـ ٥٠١).



سُورَةُ المُمْتَحَنَة

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعتُ الوزير[1] يقول في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة: ٥] قال: المعنى: لا تَبْتلِنا بأمرٍ يوجبُ افتتانَ الكفارِ بنَا، فإنَّه إذا خُذِلَ المتـقي ونُصِر العاصي فُتِنَ الكافرُ، وقال: لو كان مذهبُ هذا صحيحًا ما غُلِبَ[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾

وقـد رُوِيَ عن ابنِ عـبَّاسٍ رضي الله عنهما في قـولِه تعـالى: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]، قـالَ: كـانت المـرأةُ إذا أتت النَّبيَّ ﷺ، حلَّفها باللَّه: ما خرجتِ من بُغضِ زوجٍ، وباللَّه: ما خرجتِ رغبةً بأرضٍ عن أرضٍ، وباللَّه: مـا خرجتِ التـماسَ دُنيـا، وباللَّه: ما خـرجت إلا حُبًّا للَّهِ ورسولِه. خرجهُ ابنُ أبي حاتم، وابنُ جريرٍ، والبزَّارُ في «مسنده»[3]، وخرَّجه الترمذي في بعضِ نسخِ كتابِه مختصرًا[4].

* * *

(١) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

(٢) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٧٢).

(٣) أخرجه: البزار (٢٢٧٢ ـ كشف).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٨).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[قال البخاريُّ][1]: حدَّثنا أبُو اليمان: أنا شُعيبٌ، عن الزُّهريِّ: أخبرنِي أبُو إدريسَ عائذُ اللَّه بنُ عبدِ اللَّه، أنَّ عبادةَ بنَ الصَّامتِ ـ وكانَ شهدَ بدراً، وهوَ أحدُ النُّقباءِ ليلةَ العقبةِ ـ، أنَّ رسولُ اللَّه ﷺ قالَ: ـ وحولَهُ عصابةٌ منْ أصحابِهِ ـ: **«بايعُوني على أنْ لا تُشركُوا باللَّه شيئًا، ولا تَسرقُوا، ولا تزنُوا، ولا تقتلُوا أولادكُمْ، ولا تأتُوا ببُهتانٍ تفترُونَهُ بينَ أيديكُمْ وأرجُلكُمْ، ولا تعصوا في معرُوفٍ، فمنْ وفَّى منكُمْ فأجرُهُ على اللَّهِ، ومن أصابَ منْ ذلك شيئًا فعُوقبَ بهِ في الدُّنيا فهُوَ كفَّارةٌ، ومن أصابَ منْ ذلك شيئًا ثُمَّ سترَهُ اللَّهُ فهوَ إلى اللَّهِ، إن شاءَ عفَا عنهُ، وإنْ شاءَ عاقبهُ»**، فبايعْنَاهُ علَى ذلكَ.

هذا الحديثُ؛ سمعه أبو إدْريس [...][2]، عن عقبة بن عامر، عن عبادة.

وزيادة «عقبة» في إسناده وَهْم.

وقد خرجَ البخاريُّ الحديثَ في «ذكرِ بيعة العقبة»[3] وفي «تفسير سورة الممتحنة»[4] من كتابه هذا، وفيه: التصريحُ بأنَّ أبا إدريس أخبره به عبادة،

---

(١) البخاري (١/ ١١).

(٢) الكلام في الأصل متصل، لكنني لست أشك أن هنا سقطًا وقع، تقديره: «سمعه أبو إدريس [من عبادة، ورواه بعضهم عن أبي إدريس]، عن عقبة بن عامر، فيكون الساقط ما بين المعقوفين، أو ما في معناه. والله أعلم.

(٣) البخاري (٥/ ٧٠).

(٤) السابق.

وسمعه منه.

وكان عـبادةُ قد شهـدَ بدراً، وهو أحدُ النقبـاءِ ليلةَ العقبـةِ، حيثُ بايعتِ الأنصارُ النبيَّ ﷺ قبلَ الهجرةِ.

لكنْ؛ هلْ هذه البيعـةُ المذكورةُ في هذا الحديثِ كانت ليلةَ العـقبةِ، أم لا؟ هذا وقعَ فيه ترددٌ.

فرواهُ ابنُ إسحـاقَ، عن الزهريِّ، وذكرَ في روايتِهِ: أنَّ هذه البيـعةَ كانتْ ليلةَ العقبةِ.

وروى ابنُ إسحاقَ ـ أيضًا ـ، عن يزيدَ بن أبي حبيبٍ، عن أبي الخيرِ مرثد ابنِ عبـدِ اللَّهِ، عن الصُّنابحي، عن عـبادةَ بنِ الصـامتِ، قالَ: كنتُ فـيمن حضرَ العقبةَ الأُولى، وكنَّا اثني عشرَ رجلاً، فبايعنا رسولَ اللَّه ﷺ على بيعةِ النِّسَـاءِ، وذلكَ قـبلَ أن تفرضَ الحـربُ على أنْ لا نشـركَ باللَّهِ شـيئًـا، ولا نسرقَ، ولا نزني ـ الحديث.

خرجهُ الإمامُ أحمدُ[(١)]، من روايةِ ابنِ إسحاقَ ـ هكذا.

وكذا رواه الواقديُّ، عن يزيدَ بنِ أبي حبيب.

وخرجاهُ في «الصحيحين»[(٢)]، من حـديثِ الليثِ بنِ سعـدٍ، عن يزيدَ بنِ أبي حبيبٍ، عن أبي الخيرِ، عن الصنابحيٍّ، عن عـبادةَ، قالَ: إني من النقباءِ الذينَ بايعُـوا رسولَ اللَّهِ ﷺ، بايَعَنا على أنْ لا نشـركَ باللَّهِ شـيئًـا ـ فذكـرَ الحديثَ.

---

(١) «المسند» (٥/ ٣٢٣).

(٢) البخاري (٥/ ٧٠)، ومسلم (٥/ ١٢٧).

وليس هذا بالصريحِ في أنَّ هذه البيعةَ كانتْ ليلةَ العقبةِ.

ولفظُ مسلمٍ[١] بهذه الروايةِ: عن عبادةَ بنِ الصامتِ، قالَ: إنِّي من النقباءِ الذينَ بايعُوا رسولَ اللَّه ﷺ. وقالَ: بايعناهُ على أن لا نشركَ - الحديث.

وهذا اللفظُ؛ قد يُشعرُ بأنَّ هذهِ البيعةَ غيرُ بيعةِ النقباءِ.

وخرجهُ مسلمٌ، من وجهٍ آخرَ، من روايةِ أبي قلابَة، عن أبي الأشعثِ، عن عبادةَ، قالَ: أخذَ علينا رسولُ اللَّهِ ﷺ، كما أخذَ على النساءِ: أنْ لا نشركَ باللَّه شيئًا.

وهذا قد يُشعرُ بتقدمِ أخذهِ على النساءِ على أخذهِ عليهِم.

وخرجَ مسلمٌ حديثَ عبادةَ، من رواية أبي إدريس عنه، وقال في حديثه: «فتلا علينا آية النساء: ﴿أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ الآية [الممتحنة:١٢]».

وخرَّجَه البخاريُّ في «تفسيرِ سورة الممتحنة»[٢] من رواية ابنِ عيينةَ، عن الزهريِّ، وقالَ فيه: وقرأَ آيةَ النساءِ، وأكثرُ لفظِ سفيانَ: وقرأَ الآيةَ.

ثم قالَ: تابعهُ عبدُ الرزاقِ، عن معمرٍ - في الآيةِ.

وكذا خرجهُ الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ[٣]، وعندَهُما: فقرأَ عليهم الآيةَ.

زاد الإمامُ أحمدُ: التي أخذت على النساءِ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ [الممتحنة:١٢].

وهذا تصريحٌ بأنَّ هذه البيعةَ كانتْ بالمدينةِ؛ لأن آيةَ بيعةِ النساءِ مَدنية.

---

(١) (٥/ ١٢٧).

(٢) البخاري (٦/ ١٨٧).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٣١٤)، والترمذي (١٤٣٩).

وروى هذا الحديثَ سفيانُ بن حسينٍ، عن الزهريِّ، وقال في حديثه: إنَّ النبيَّ ﷺ قال لهم: «أيكمْ يبايعني على هؤلاء الآياتِ الثلاث؟» ثُمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام:١٥١]، حتى فرغ من الثلاث آياتٍ.

خرجه الهيثم بن كليبٍ في «مسنده».

وسفيانُ بنُ حسينٍ، ليسَ بقويٍّ، خصوصًا في حديثِ الزهريِّ، وقد خالفَ سائرَ الثقاتِ من أصحابه في هذا.

وقد روى عبادةُ بنُ الصامتِ، أنهم بايعُوا النبيَّ ﷺ على السمعِ والطاعةِ، في المنشطِ والمكرَهِ، وأن لا ينازعُوا الأمرَ أهلَه، وأن يقولوا بالحقِّ[1].

فهذه صفةٌ أخرى، غيرَ صفةِ البيعةِ المذكورةِ في الأحاديثِ المتقدمةِ.

وهذه البيعةُ الثانيةُ مخرجةٌ في «الصحيحينِ» من غيرِ وجهٍ عن عبادةَ.

وقد خرَّجها الإمامُ أحمدُ[2]، من روايةِ ابنِ إسحاقَ: حدثني عبادةُ بنُ الوليدِ بنِ عبادةَ بن الصامت، عن جدِّه عبادةَ ـ وكانَ أحدَ النقباءِ ـ، قالَ: بايعنا رسولَ اللَّه ﷺ بيعةَ الحربِ، وكانَ عبادةُ من الاثني عشرَ الذينَ بايعُوا في العقبةِ الأولى على بيعةِ النساءِ على السمعِ والطاعةِ، في عُسرِنا ويُسرِنا ـ وذكرَ الحديثَ.

وهذه الروايةُ، تدلُّ على أنَّ هذه البيعةَ هي بيعةُ الحربِ، وأنَّ بيعةَ النساءِ كانتْ في العقبةِ الأُولى، قبلَ أن تفرضَ الحربُ.

---

(١) البخاري (٩/٩٦)، ومسلم (٦/١٦).

(٢) «المسند» (٥/٣١٦).

فهذا قد يُشعرُ بأنَّ هذه البيعةَ كانتْ بالمدينةِ، بعد فرضِ الحربِ، وفي هذا نظرٌ.

وقد خرجهُ الهيثمُ بنُ كليبٍ في «مسندِهِ»، من روايةِ ابنِ إدريس، عن ابنِ إسحاقَ ويحيى بنِ سعيدٍ وعبيدِ اللَّهِ بنِ عمرَ، عن عبادةَ بنِ الوليدِ، أنَّ أباهُ حدَّثه، عن جدِّهِ قالَ: بايعنَا رسولَ اللَّهِ ﷺ في العقبةِ الآخرةِ على السمع والطاعةِ ـ فذكره.

وخرجهُ ابنُ سعدٍ من وجهٍ آخرَ، عن عبادةَ بنِ الوليدِ ـ مرسلاً.

وخرجَ الإمامُ أحمدُ من وجهٍ آخر[1]، عن عبادةَ، أنَّهم بايعُوا النبيَّ ﷺ هذه البيعةَ على السمعِ والطاعةِ ـ الحديث، وقال فيه ـ: وعلى أن ننصرَ النبيَّ ﷺ إذا قدمَ علينا يثربَ، فنمنعهُ مما نمنعُ منه أنفسَنَا.

وهذا يدلُّ على أن هذه البيعة كانتْ قبلَ الهجرةِ، وذلكَ ليلةَ العقبة.

وخرَّج ـ أيضًا[2] ـ هذا المعنى من حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ، أنَّ هذه البيعة كانتْ للسبعينَ، بشعبِ العقبةِ.

وهي البيعةُ الثانيةُ، وتكونُ سميتْ هذه البيعةُ الثانيةُ: «بيعةَ الحربِ»؛ لأن فيها البيعةَ على منعِ النبيِّ ﷺ، وذلكَ يقتضِي القتالَ دونَهُ، فهذا هو المرادُ بالحربِ، وقد شهدَ عبادةُ البيعتينِ معًا.

ويحتملُ أن النبيَّ ﷺ كانَ يبايعُ أصحابَه على بيعةِ النساءِ قبلَ نزولِ آيةِ مبايعتهنَّ، ثم نزلتْ الآيةُ بموافقةِ ذلكَ.

---

(١) «المسند» (٥/ ٣٢٥).

(٢) «المسند» (٣/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣).

وفي «المسندِ»(١)، عن أمِّ عطيةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ لما قدمَ المدينةَ جمع النساءَ، فبايعهنَّ على هذهِ الآيةِ، إلى قولهِ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة:١٢].

وهذا قبلَ نزولِ سورةِ الممتحنةِ؛ فإنها إنَّما نزلتْ قبلَ الفتحِ بيسيرٍ. واللَّهُ أعلمُ بحقيقةِ ذلكَ كلِّه.

وأمَّا ما بايعهم عليه، فقد اتفقت رواياتُ حديثِ عبادةَ، من طرقه الثلاثةِ عنهُ، أنهم بايعُوه على أن لا يشركُوا باللَّهِ، ولا يسرقُوا، ولا يزنُوا، ولا يقتلُوا.

وفي بعضِ الروايات: لا يقتلُوا أولادَهُم، كما في لفظِ الآيةِ.

وفي بعضِهَا: لا يقتلُوا النفسَ التي حرَّم اللَّهُ.

وهذه روايةُ الصُّنابحي، عن عبادةَ.

ثم إنَّ منَ الرواةِ من اقتصرَ على هذه الأربعِ، ولمْ يزد عليهَا.

ومنهمْ من ذكرَ في روايةِ المبايعةِ على بقيةِ ما ذكرَ في الآيةِ، كما في روايةِ البخاريِّ المذكورةِ هاهنا.

ومنهم من ذكرَ خصلةً خامسةً بعد الأربعِ، ولكنْ لمْ يذكرْهَا باللفظِ الذي في الآيةِ.

ثم اختلفُوا في لفظِها:

فمنهم من قالَ: «ولا ننتهبُ».

وهيَ روايةُ الصنابحيِّ عن عبادةَ المخرجةُ في «الصحيحينِ».

---

(١) (٥/ ٨٥).

ومنهمْ مَنْ قالَ: «ولا يَعْضَهُ بعضُنا بعضًا».

وهي روايةُ أبي الأشعثِ، عن عبادةَ.

خرجها مسلم[١].

ومنهم من قالَ: «ولا يغتبْ بعضُنا بعضًا».

وهي روايةُ الإمامِ أحمد[٢].

وأما الخصلةُ السادسةُ، فمنهمُ من لم يذكرْهَا بالكليةِ، وهي روايةُ أبي الأشعثِ التي خرجها مسلمٌ.

ومنهُم من ذكرَها، وسمَّاها: «المعصيةَ»، فقالَ: «ولا نعصِي»، كما في روايةِ الصنابحيِّ.

وفي روايةِ أبي إدريسَ: «ولا تعصُوا في معروفٍ».

فأمَّا الشركُ والسرقةُ والزنا والقتلُ، فواضحٌ.

وتخصيصُ قتلِ الأولادِ بالذكرِ في بعضِ الرواياتِ، موافقٌ لِمَا وردَ في القرآنِ في مواضعَ، وليسَ له مفهومٌ، وإنما خصص بالذكرِ للحاجةِ إليهِ، فإنَّ ذلكَ كان معتادًا بين أهلِ الجاهليةِ.

وأما الإتيانُ ببهتانٍ يفترونَهُ بين أيديهم وأرجلِهم، على ما جاءَ في روايةِ البخاريِّ، فهذا يدلُّ على أن هذا البهتانَ ليسَ مما تختصُّ به النساءُ.

وقد اختلفَ المفسرونَ في البهتانِ المذكورِ في آيةِ بيعةِ النساءِ:

---

(١) (٥/ ١٢٧).

(٢) «المسند» (٥/ ٣٢٠).

فأكثرهُم فسرُوه، بإلحاقِ المرأةِ بزوجِهَا ولدًا من غيرِه.

رواه عليٌّ بنُ أبي طلحةَ، عن ابنِ عباسٍ.

وقاله مقاتلُ بنُ حيانَ وغيرُه.

واختلفُوا في معنى قولهِ: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة:١٢]:

فقيل: لأنَّ الولدَ إذا ولدتهُ أمه سقطَ بين يديها ورجليها.

وقيلَ: بل أرادَ بما تفتريه بين يديها، أن تأخذَ لقيطًا فتلحقه بزوجها، وبما تفتريه بين رجليها، أن تلده من زنا، ثم تلحقه بزوجِها.

ومن المفسرينَ من فسرَ البهتانَ المُفترى بالسحرِ.

ومنهم من فسَّره بالمشي بالنميمةِ، والسعي في الفسادِ.

ومنهم من فسرهُ بالقذفِ والرمي بالباطلِ.

وقيل: البهتانُ المفترى يشملُ ذلك كلَّه، وما كانَ في معناهُ.

ورجحه ابنُ عطيةَ وغيرُه.

وهو الأظهرُ؛ فيدخلُ فيه كذبُ المرأةِ فيما ائتُمنتْ عليه من حملٍ وحيضٍ، وغيرِ ذلكَ.

ومن هؤلاءِ من قالَ: أرادَ بما بين يدَيها حفظَ لسانها وفمها ووجهها عمًّا لا يحلُّ لها، وبما بينَ رجليهَا حفظَ فرجِهَا، فيحرمُ عليها الافتراء ببهتانٍ في ذلك كلِّه.

ولو قيلَ: إنَّ من الافتراءِ ببهتانٍ بين يديها: خيانةُ الزوجِ في مالهِ الذي في بيتها، لم يبعدْ ذلكَ.

وقد دلَّ مبايعةُ النبيِّ ﷺ الرجالَ علَى أنْ لا يأتوا ببهتانٍ يفترونَه بينَ أيْديهم وأرجُلِهمْ أنَّ ذلكَ لا يختصُّ بالنساءِ.

وجميعُ ما فُسِّر به البهتانُ في حقِّ النساءِ يدخلُ فيه الرجالُ ـ أيضًا ـ، فيدخلُ فيه استلحاقُ الرجلِ ولدَ غيرِهِ، سواءٌ كان لاحقًا غيره أو غيرَ لاحقٍ، كولدِ الزنا، ويدخلُ فيه الكذبُ والغيبةُ.

وقد قالَ النبيُّ ﷺ: **«إنْ كانَ في أخيكَ ما تقولُ فقد اغْتبتَه، وإنْ لم يكنْ فيه ما تقولُ فقد بهتَّهُ»**.

خرجهُ مسلمٌ[1].

وكذلكَ القذفُ، وقد سمَّى اللَّهُ قذفَ عائشةَ بهتانًا عظيمًا.

وكذلكَ النميمةُ من البهتانِ.

وفي روايةِ أبي الأشعثِ، عن عبادةَ: **«ولا يَعْضَه بعضُكُم بعضًا»**.

والعضِيهَة: النميمة.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[2]، عن ابنِ مسعودٍ ـ مرفوعًا ـ: **«ألا أُنبئُكُم ما العضْهُ؟ هي النميمةُ القَالَةُ بين الناس»**.

وروى إبراهيمُ الهَجَري، عن أبي الأحوصِ، عن ابنِ مسعودٍ، قالَ: كنا نسمِّي العضيهة السحرَ، وهو اليوم: قيلَ وقالَ.

وفسر إسحاقُ بن راهويه العضيهةَ في حديثِ عبادةَ بن الصامتِ، قال: لا يبهتْ بعضُكم بعضًا.

---

(١) (٨/ ٢١).

(٢) (٨/ ٢٨).

نقله عنه محمدُ بنُ نصرٍ.

وذكر أهلُ اللغة: أنَّ العضيهةَ: الشتيمـة، والعضيهة: البهتانُ، والعاضهة، والمستعضهة: الساحرةُ والمستسحرةُ.

وفي روايةِ الصنابحيِّ: «ولا ننتـهبُ»، والنُّهبـةُ من البهـتانِ؛ فإنَّ المـنتهبَ يبهتُ الناسَ بانتهابه منه ما يرفعونَ إليه أبصارَهُم فيه.

وكل ما بهتَ صاحبَه وحيَّـره وأدْهشه من قولٍ أو فعلٍ لم يكنْ في حسابِهِ فهو بهتانٌ، فأخذُ المالِ بالنُّهْبى أو بالدعاوَى الكاذبةِ بهتانٌ.

وقد قالَ تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٢٠].

وفي «المسندِ» والترمذيِّ والنسائيِّ[(١)]، عن صفوانَ بنِ عـسَّالٍ، أن اليهودَ سألوا النبيَّ ﷺ عن التسعِ آياتٍ البيناتِ التي أوتيها موسَى، فقالَ: «**لا تشركُوا باللَّهِ شيـئًـا، ولا تزنوا، ولا تقـتلُوا النـفسَ التي حـرمَ اللَّهُ إلا بالحقِّ، ولا تسـرقـوا، ولا تسحرُوا، ولا تمشوا ببريءٍ إلى سلطانٍ فيـقتلُه، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفُوا محصنةً، ولا تفرُّوا من الزحفِ، وعليكم اليهودَ خاصةً أن لا تعدُوا في السبتِ**».

فلم يذكرْ في هذا الحـديث البهتانَ المفـترى بلفظه، ولكن ذكرَ ممَّا فـسر به البهتانَ المذكورَ في القرآنِ عـدةَ خصالٍ: السحرَ، والمشيَ ببريءٍ إلى السلطانِ، وقذفَ المحصناتِ.

وهذا يشعرُ بدخولِ ذلك كلِّه في اسمِ البهتانِ.

---

(١) أحمـد في «المسند» (٤/ ٢٣٩)، والتـرمذي (٢٧٣٣)، والنسـائي في «الكبرى» كـما في «تحـفة الأشراف» (٤٩٥١).

وكذلك الأحاديثُ التي ذكرَ فيها عدَّ الكبائرِ، ذكرَ في بعضِها: القذفَ، وفي بعضِها: قولَ الزورِ، أو شهادةَ الزورِ، وفي بعضها: اليمينَ الغموسِ، والسحرَ، وهذا كلُّه من البهتانِ المفترى.

وأما الخصلةُ السادسةُ، فهي المعصيةُ، وتشملُ جميعَ أنواعِ المعاصِي، فهو من بابِ ذكرِ العامِّ بعد الخاصِّ.

وهو قريبٌ من معنى قولهِ تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [النور:٥٦]، وقولهِ تعالى: ﴿**وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ**﴾ [الممتحنة:١٢].

وفي بعضِ ألفاظِ حديثِ عبادةَ: «**ولا تعصُوا في معروفٍ**»، وفي بعضها: «**ولا تعصوني في معروفٍ**».

وقد خرجها البخاريُّ في موضعٍ آخرَ.

وكلُّ هذا إشارةٌ إلى أن الطاعةَ لا تكونُ إلا في معروفٍ، فلا يطاعُ مخلوقٌ إلا في معروفٍ، ولا يطاعُ في معصيةِ الخالقِ.

وقد استنبَط هذا المعنى من هذه الآيةِ طائفةٌ من السلفِ.

فلو كان لأحدٍ من البشرِ أن يطاعَ بكلِّ حالٍ، لكانَ ذلك للرسول ﷺ، فلمَّا خُصَّتْ طاعتُه بالمعروفِ، مع أنه لا يأمرُ إلا بما هو معروفٌ، دلَّ على أن الطاعةَ في الأصلِ للَّهِ وحدَه، والرسولُ مبلغٌ عنه، وواسطةٌ بينه وبينَ عبادهِ.

ولهذا قالَ تعالى: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾ [النساء:٨٠].

فدخلَ في هذه الخصلةِ السادسةِ: الانتهاءُ عن جميعِ المعاصِي، ويدخلُ فيها ـ أيضًا ـ: القيامُ بجميعِ الطاعاتِ على رأيِ من يرى أن النهيَ عن شيءٍ

أمرٌ بضدِّه.

فلما تمتْ هذه البيعةُ على هذه الخصالِ؛ ذكرَ لهم النبيُّ ﷺ حكمَ من وفَّى بها، وحكمَ من لم يَفِ بها عندَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

فأمـا مَن وفَّى بها، فأخـبرَ أن أجرَه على الـلَّهِ، كذا في روايةِ أبي إدريسَ وأبي الأشعثِ عن عبادةَ.

وفي روايةِ الصنابحيِّ، عنه: «فالجنةُ إن فعلنَا ذلك».

وقد قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وفُسرَ الأجرُ العظيمُ بالجنةِ ـ: كذا قالَه قتادةُ وغيرُه من السلفِ.

ولا ريبَ أن منِ اجتنبَ الشـركَ والكبائرَ والمعاصِي كلَّـها فله الجنةُ، وعلى ذلك وقعتْ هذه البـيعةُ وإن اخـتصرَ ذلكَ بعضُ الرواةِ، فـأسقطَ بعضَ هذهِ الخصالِ.

وأما من لم يوفِّ بها، بل نكثَ بعضَ ما التزم بالبيعةِ تركَه للَّهِ عزَّ وجلَّ ـ والمرادُ: ما عدا الشركِ منَ الكبائرِ ـ فقسمَه إلى قسمينِ:

أحدُهما: أن يعـاقَب به في الدنيا، فأخبـرَ أن ذلك كفارةٌ له. وفي رواية: «فهو طهورٌ له»، وفي روايةٍ: «طهور له، أو كفارةٌ» ـ بالشك.

ورواه بعضُهُم: «طهورٌ وكفارةٌ» ـ بالجمعِ.

وقد خرجَها البخاريُّ في موضعٍ آخرَ من «صحيحه».

وروى ابنُ إسحـاقَ، عن الزهريِّ حديـثَ أبي إدريسَ، عن عبـادَةَ، وقال

فيه: «**فأُقيم عليه الحدُّ، فهو كفارةٌ له**».

وفي رواية أبي الأشعثِ عن عبادةَ: «**ومن أتى منكُم حدا، فأقيم عليه فهُوَ كفارةٌ**».

خرجه مسلم[١].

وهذا صريحٌ في أن إقامةَ الحدودِ كفاراتٌ لأهلِها.

وقد صرحَ بذلك سفيانُ الثوريِّ.

ونصَّ على ذلك أحمدُ - في روايةِ عبدوس بنِ مالكٍ العطارِ، عنه.

وقال الشافعيُّ: لم أسمعْ في هذا البابِ أن الحدَّ كفارةٌ أحسنَ من حديثِ عبادةَ.

وإنما قالَ هذا؛ لأنه قد رُوي هذا المعنى عن النبيِّ ﷺ من وجوهٍ متعددةٍ، عن عليٍّ، وجريرٍ، وخزيمةَ بنِ ثابتٍ، وعبد اللَّه بن عمرو وغيرهم.

وفي أسانيدِها كلِّها مقالٌ، وحديثُ عبادةَ صحيحٌ ثابتٌ.

وقد روى عبدُ الرزاقِ، عن معمرٍ، عن ابنِ أبي ذئبٍ، عن المقبريِّ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**ما أدرِي الحدودُ طهارةٌ لأهلها، أم لا؟**» وذكر كلامًا آخرَ.

خرجه الحاكمُ[٢]، وخرج أبو داود[٣] بعضُ الحديثِ.

وقد رواه هشامُ بنُ يوسفَ، عن معمرٍ، عن ابن أبي ذئب، عن الزهريِّ - مرسلاً.

---

(١) (٥/ ١٢٧). (٢) «المستدرك» (٢/ ٤٥٠).
(٣) «السنن» (٤٦٧٤).

قال البخاريُّ في «تاريخه»[1]: المرسلُ أصحُّ. قال: ولا يثبتُ هذا عن النبيِّ ﷺ، وقد ثبت عنه أن الحدودَ كفارةٌ. انتهى.

وقد خرجه البيهقيُّ[2] من روايةِ آدمَ بنِ أبي إياسٍ، عن ابنِ أبي ذئبٍ، عن المقبريِّ، عن أبي هريرةَ ـ مرفوعًا ـ أيضًا.

وخرجه البزارُ من وجهٍ آخرَ، فيه ضعفٌ، عن المقبريِّ، عن أبي هريرةَ ـ مرفوعًا ـ أيضًا.

وعلى تقديرِ صحتهِ، فيحتملُ أن يكونَ النبيُّ ﷺ قال ذلك قبل أن يعلَمه ثم علِمه، فأخبرَ به جزمًا.

فإن كانَ الأمرُ كذلكَ فحديثُ عبادةَ إذنْ لم يكن ليلةَ العقبةِ بلا ترددٍ؛ لأن حديثَ أبي هريرةَ متأخرٌ عن الهجرةِ، ولم يكنِ النبيُّ ﷺ علم حينئذٍ أن الحدود كفارةٌ، فلا يجوز أن يكون قد أخبرَ قبلَ الهجرةِ بخلافِ ذلك.

وقد اختلفَ العلماءُ: هل إقامةُ الحدِّ بمجردِه كفارةٌ للذنب من غيرِ توبةٍ أم لا؟ على قولين:

أحدُهما: أن إقامةَ الحدِّ كفارةٌ للذنبِ بمجردِه، وهو مرويٌّ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ وابنِه الحسنِ، وعن مجاهدٍ وزيدِ بنِ أسلمَ، وهو قولُ الثوريِّ والشافعيِّ وأحمدَ، واختيارُ ابنِ جريرٍ وغيرِه من المفسرينَ.

والثاني: أنه ليس بكفارةٍ بمجردِه، فلا بدَّ من توبةٍ، هو مرويٌّ عن صفوانَ ابنِ سليمٍ وغيرِه.

---

(١) «الكبير» (١/ ١/ ١٥٣).

(٢) البيهقي في «السنن» (٨/ ٣٢٩).

ورجَّحه ابنُ حزمٍ وطائفـةٌ من متأخرين المفسرينَ، كالبـغويِّ وأبي عبدِ اللَّهِ ابنِ تيميةَ وغيرِهما.

واستدلُّوا بقـولهِ تعالَى - في المحاربينَ -: ﴿**ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا**﴾ [المائدة: ٣٣، ٣٤].

وقد يجابُ عن هذا، بأن ذكرَ عـقوبةِ الدنيا والآخرةِ لا يلزمُ اجتمـاعهُما، فقد دلَّ الدليلُ على أن عقوبةَ الدنيا تسقطُ عقوبةَ الآخرةِ.

وأما استـثناءُ الذينَ تابوا، فإنما استثـناهُم من عقوبةِ الدنيَا خـاصةً، ولهذا خصَّهم بما قبلَ القدرةِ، وعقوبةُ الآخرةِ تندفعُ بالتوبةِ، قبلَ القدرةِ وبعدَها.

ويدل على أن الحدَّ يطهرُ الذنبَ: قولُ ماعزٍ للنبيِّ ﷺ: إني أصبت حدًّا، فطهرني. وكذلك قالتْ له الغامديةُ[1] ولم ينكرْ عليهما النبيُّ ﷺ ذلكَ، فدلَّ على أن الحدَّ طهارةٌ لصاحبِه.

ويدخلُ في قولِ النبيِّ ﷺ: «**من أصابَ شيئًا من ذلك، فـعوقبَ به في الدنيا فهو كفارتُه**» العقوباتُ القدريةُ، من الأمراضِ والأسقامِ.

والأحاديثُ في تكفيرِ الذنوبِ بالمصائبِ كثيرةٌ جدًّا.

وهذه المصائبُ يحـصلُ بها للنفـوسِ من الألمِ نظيرُ الألمِ الحاصلِ بإقـامةِ الحدِّ وربما زادَ على ذلكَ كثيرًا.

وقد يقـالُ في دخولِ هذه العقـوباتِ القدريةِ في لفظِ حديثِ عـبادةَ نظرٌ؛ لأنهُ قابلَ من عوقبَ في الدنيا سترُ اللَّهِ عليه، وهذه المصائبُ لا تنافي السترَ. واللَّه أعلمُ.

---

(١) (٥/١١٧).

والقسمُ الثاني:

أن لا يعاقبَ في الدنيا بذنبِه، بل سترَ عليه ذنبه، ويعافَى من عقوبتِه، فهذا أمرُه إلى اللّهِ في الآخرةِ، إن شاءَ عذَّبه، وإن شاءَ عفَا عنهُ.

وهذا موافقٌ لقولِ اللّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨].

وفي ذلك ردٌّ على الخوارجِ والمعتزلةِ في قولِهم: إن اللّه يخلِّدُه في النارِ إذا لم يَتُبْ.

وهذا المستورُ في الدنيا له حالتان:

إحداهُما: أن يموتَ غيرَ تائبٍ، فهذا في مشيئة اللّهِ، كما ذكرنا.

والثانيةُ: أن يتوبَ من ذنبِه.

فقال طائفةٌ: إنه تحت المشيئةِ ـ أيضًا.

واستدلُّوا بالآيةِ المذكورةِ، وحديثِ عبادةَ.

والأكثرونَ على أن التائبَ من الذنبِ مغفورٌ له، وأنه كمن لا ذنبَ له، كما قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان:٧٠]، وقال: ﴿أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [آل عمران:١٣٦].

فيكونُ التائبُ حينئذٍ ممن شاءَ اللّهُ أن يغفرَ له.

واستدلَّ بعضُهم ـ وهو: ابنُ حزمٍ ـ بحديثِ عبادةَ هذا على أن من أذنبَ ذنبًا، فإنَّ الأفضلَ له أن يأتيَ الإمامَ، فيعترفَ عنده؛ ليقيمَ عليه الحدَّ، حتى

يكفَّر عنه، ولا يبقى تحتَ المشيئةِ في الخطرِ.

وهذا مبنِيٌّ على قوله: إن التائبَ في المشيئةِ.

والصحيحُ: أن التائبَ توبةً نصوحًا مغفورٌ له جزمًا، لكن المؤمنَ يتَّهِم توبتَه، ولا يجزمُ بصحَّتِها، ولا بقبولها، فلا يزالُ خائفًا من ذنبِه وَجِلاً.

ثم إنَّ هذا القائلَ لا يرى أن الحدَّ بمجردِه كفارةٌ، وإنما الكفارةُ التوبةُ، فكيف لا يقتصرُ على الكفارةِ، بل يكشفُ سترَ اللَّهِ عليه؛ ليقامَ عليه ما لا يكفِّرُ عنه؟

وجمهورُ العلماءِ على أنَّ من تابَ من ذنبٍ، فالأفضلُ أن يسترَ على نفسهِ، ولا يقرَّ به عند أحدٍ، بل يتوبُ منه فيما بينَه وبين اللَّه عزَّ وجلَّ.

روي ذلك عن أبي بكرٍ وعمَرَ وابنِ مسعودٍ وغيرِهم.

ونصَّ عليه الشافعِيُّ.

ومن أصحابهِ وأصحابِنا مَن قال: إن كان غيرَ معروفٍ بينَ الناسِ بالفجورِ فكذلكَ، وإن كان معلنًا بالفجورِ مشتهرًا به؛ فالأولى أن يقرَّ بذنبه عند الإمامِ؛ ليطهرَه منه.

وقد رُوِيَ، عن النبيِّ ﷺ، أنه قال لمعاذٍ: **«إذَا أحدثتَ ذنبًا فأَحدِثْ عنده توبةً، إن سرًّا فسرًّا، وإن علانيةً فعلانيةً»**.

وفي إسنادِه مقالٌ.

وهو إنما يدلُّ على إظهارِ التوبةِ، وذلك لا يلزمُ منه طلبُ إقامةِ الحدِّ.

وقد وردت أحاديثُ تدلُّ على أنَّ من سترَ اللَّهُ عليه في الدنيا، فإنَّ اللَّه

يسترُ عليه في الآخرةِ، كحديثِ ابنِ عـمرَ في النجوى، وقد خرَّجه البخاريُّ في «التفسيرِ».

وخرَّج الترمذيُّ وابنُ ماجه[1] عن عليٍّ ـ مرفوعًا: «**من أذنبَ ذنبًا فـي الدنيا، فستره اللَّهُ عليه، فاللَّهُ أكرمُ أن يعودَ في شيءٍ قد عفَا عنه**».

وفي «المسندِ»[2] عن عائشةَ ـ مـرفوعًا ـ: «**لا يسترُ اللَّهُ على عـبدٍ ذنبًا في الدنيا إلا سترهُ عليه في الآخرةِ**».

ورُوي مثلُه عن عليٍّ [3] وابنِ مسعودٍ، من قولِهما.

وقد يحملُ ذلك كلُّه على التائبِ من ذنبـهِ، جمعًا بين هذه النصوصِ وبينَ حديثِ عُبادةَ هذا.

وأصحُّ الأحاديثِ المذكورةِ هاهنا حديثُ ابنِ عـمَر في النجوى، وليس فيه تصريحٌ بأنَّ ذلك عامٌّ لكلِّ من سترَ عليه ذنبَه. واللَّهُ تعالى أعلمُ.

وقد قيل: إن البيعةَ سُمِّيت بيعةً؛ لأن صاحبَها باعَ نفسَه للَّه.

والتحقيقُ: أن البيعَ والمبايعةَ مـأخوذانِ من مدِّ الباعِ؛ لأنَّ المتبايعَينِ للسلعةِ كلٌّ منهمـا يمدُّ باعَه للآخرِ ويعاقـدُه عليها، وكذلك مَن بايعَ الإمـامَ ونحوَه، فإنه يمدُّ باعَه إليه ويعاهدُه ويعاقدُه على ما يبايعُه عليه.

وكـان النبيُّ ﷺ يبـايعُ أصـحابَه عند دخـولِهم في الإسـلامِ على التـزامِ أحكامِه، وكـانَ أحيـانًا يبايعُهم علـى ذلك بعد إسلامِـهم؛ تجديدًا للعـهدِ؛

---

(١) الترمذي (٢٦٢٦)، وابن ماجه (٢٦٠٤).

(٢) «المسند» (٦/ ١٤٥، ١٦٠).

(٣) «المسند» (١/ ٩٩، ١٥٩).

وتذكيرًا بالمقامِ عليه.

وفي «الصحيحين»[1] عن ابنِ عبـاسٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ أتى النسـاءَ في يومِ عيدٍ، وتلا عليهنَّ هذهِ الآيةَ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا**﴾ الآية [الممتحنة:١٢]، وقـال: «**أنتُـنَّ علـى ذلكَ؟**» فقالتِ امرأةٌ منهن: نعم.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[2] عن عـوفِ بنِ مـالكٍ، قال: كـنَّا عندَ النبيِّ ﷺ تسعةً أو ثمانيةً أو سبعةً، فقال: «**ألا تبايعونَ رسولَ اللَّه ﷺ؟**» وكنَّا حديثَ عهدٍ ببيعةٍ، فقلنا: قـد بايعناكَ يا رسولَ اللَّهِ، فقال: «**ألا تبايعـون رسول اللَّه ﷺ؟**» قلنا: بايعناك يـا رسول اللَّه، ثم قـال: «**ألا تبـايعونَ رسـولَ اللَّه ﷺ؟**»، فبسطْنا أيدِيَنا، وقلنا: قد بايعناكَ يا رسولَ اللَّهِ، فعلامَ نبايعُكَ؟ فقال: «**أن تعبدُوا اللَّهَ لا تشركوا به شـيئًا، والصلواتِ الخمسِ، وتـطيعُوا**»، وأسرَّ كلمةً خفيةً: «**ولا تسألُوا الناس شيئًا**».

وحديثُ عبـادةَ المذكورُ هاهنا في البيعـة قد سبقَ أنه يحتـملُ أنه كان ليلةَ العقبةِ الأولَى، فيكونُ بيعةً لهم على الإسلامِ والتزامِ أحكامِه وشرائعه.

وقد ذكرَ طائفـةٌ من العلماءِ، منهم: القاضِي أبو يعلَى في كـتابِ «أحكامِ القرآنِ» من أصحابِنا ـ أن البيعةَ على الإسلامِ كانتْ من خصائصِ النبيِّ ﷺ.

واستدلُّوا، بأن الأمرَ بالبيعةِ في القرآنِ يخصُّ الرسولَ بالخطابِ بها وحده، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا**﴾ [الممتحنة:١٢].

---

(١) البخاري (٢/١٢١٧)، ومسلم (٣/١٨). (٢) (٣/٩٧).

ولما كانَ الامتحانُ وجَّه الخطابَ إلـى المؤمنينَ عمومًا، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

فدلَّ على أنه يعمُّ المؤمنينَ.

وكذلكَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

وهذا أمرٌ يختصُّ به الرسولُ ﷺ، لا يشركُه فيه غيرُه.

ولكن قد رُوي عن عثمانَ، أنه كان يبايعُ على الإسلامِ.

قال الإمـامُ أحمدُ: حدثنا مـسكينُ بنُ بكيرٍ، قال: ثنا ثابتُ بنُ عـجلانَ، عن سليمٍ أبي عامرٍ(١)، أن وفدَ الحمراءِ أتوا عثمـانَ بنَ عفانَ، يبايعونَه على الإسلامِ، وعلى مَنْ وراءهم، فـبايَعهم على أن لا يشـركوا باللَّهِ شيـئًا، وأن يقيمُوا الصلاةَ، ويؤتُوا الزكاةَ، ويصومُوا رمضانَ، ويدَعُوا عيدَ المجوسِ، فلما قالُوا، بايعَهم.

وقـد بايعَ عبـدُ اللَّهِ بنُ حنظلةَ الناسَ يومَ الحَـرَّةِ على الموتِ، فذُكـرَ ذلك لعبدِ اللَّهِ بنِ زيدٍ الأنصـاريِّ، فقالَ: لا أبايـعُ على هذا أحدًا بعـدَ رسولِ اللَّهِ ﷺ.

خرجهُ البخاريُّ في «الجهاد»(٢).

وإنما أنكرَ البيعةَ على الموتِ، لا أصلَ المبايعةِ.

وقال أبو إسحـاقَ الفزاريُّ: قلتُ للأوزاعيِّ: لو أن إمامًا أتاه عدوٌّ كـثيرٌ،

---

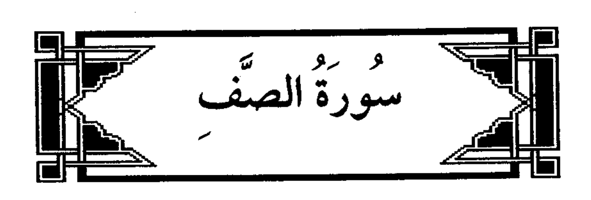
(١) كذا، وإنما هو: سليم بن عامر ويكنى: «أبا يحيى».

(٢) البخاري (٤/ ٦١)، ومسلم (٦/ ٢٧).

فخافَ على من معه، فقال لأصحـابِهِ: تعالَوْا، نتبايعُ على أن لا نفرَّ، فبايعُوا على ذلكَ؟ قال: مـا أحسنَ هذا. قلتُ: فلو أن قومًـا فعلُوا ذلك بينهُم دونَ الإمامِ؟ قال: لو فعلُوا ذلك بينهم شبه العقدَ في غيرِ بيعةٍ[1] .

* * *

(١) «الفتح» (١/ ٦١ ـ ٧٩).



سُورَةُ الصَّفِ

قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾

لَمَّا حاسَبَ المتَّقُون أنفسَهم خافوا من عاقبةِ الوعظِ والتَّذكيرِ. قال رجلٌ لابن عبَّاسٍ: أريدُ أن آمرَ بالمعروفِ وأنهى عن المنكرِ. فقالَ لهُ: إنْ لم تخشَ أن تفضحكَ هذه الآياتُ الثلاثُ فافعلْ، وإلا فابدأْ بنفسكَ، ثم تلا: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤]، وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢، ٣]، وقوله حكايةً عن شُعيبٍ عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود:٨٨].

قال النَّخعيُّ: كانُوا يكرهُونَ القصص؛ لهذه الآياتِ الثلاثِ. قيل لمورِّق العجلي: ألا تعظُ أصحابَكَ؟ قال: أكرهُ أن أقولَ ما لا أفعل.

تقدَّمَ بعضُ التابعينَ ليصلِّي بالنَّاسِ إمامًا، فالتفتَ إلى المأمُومين يُعدِّلُ الصُّفوفَ، وقال: استَوُوا، فُغشِيَ عليه، فسُئِلَ عن سَببِ ذلكَ، فقالَ: لَمَّا قلتُ لهُم: استقيمُوا، فكَّرتُ في نفسِي، فقلتُ لهَا: فأنتِ، هل استقمتِ مع اللَّهِ طرفةَ عينٍ؟

مَا كُلُّ مَنْ وَصَفَ الدَّواء يستعملُه ... ولا كُلُّ مَنْ وَصَفَ التُّقَى ذو تُقَى
وَصَفْتُ التُّقَى حتَّى كأنِّي ذو تُقًى ... ورِيحُ الخَطَايا مِن ثِيابِي تَعْبَقُ

ومع هذا كلِّه فلا بُدَّ للناسِ من الأمرِ بالمعروفِ والنَّهْي عن المنكرِ، والوعظِ

والتذكيرِ، ولو لم يَعِظِ النَّاسَ إلا مَعْصُومٌ مِن الزَّلَلِ، لم يعِظْ بعدَ رسولِ اللَّهِ ﷺ أحدٌ لأنَّه لا عِصْمَةَ لأحد بعدَهُ.

لئن لم يَعظِ العاصينَ مَنْ هُوَ مُذْنِبٌ ... فَمَنْ يَعِظِ العَاصِينَ بَعْدَ مُحمَّدٍ

ورَوى ابنُ أبي الدُّنيا بإسنادٍ فيه ضعفٌ، عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**مُروا بالمعروفِ وإن لم تعملُوا به كُلِّه، وانهَوْا عن المُنْكَرِ وإن لم تنتهوا عنه كُلِّه**»(١). وقيل للحسنِ: إنَّ فلانًا لا يَعِظُ، ويقولُ: أخافُ أنْ أقولَ ما لا أَفعلُ؟ فقال الحسن: وأيُّنا يفعلُ ما يقولُ؟! ودَّ الشيطانُ أنَّه قد ظفرَ بهذا، فلم يأمُرْ أحدٌ بمعروفٍ ولم ينهَ عن مُنْكَرٍ. وقال مالكٌ، عن ربيعة: قال سعيدُ بن جُبير: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهَى عن المنكرِ حتى لا يكونَ فيه شيءٌ، ما أَمَرَ أحدٌ بمعروفٍ ولا نَهَى عن مُنْكرٍ. قال مالكٌ: وصدَقَ، ومَن ذا الذي ليس فيه شيءٌ؟!

مَنْ ذا الَّذي ما ساءَ قَطْ ... ومَنْ لَهُ الحُسْنَى فَقَطْ

خطب عُمَرُ بنُ عبد العزيز - رحمه اللَّه - يومًا، فقال في موعظته: إنِّي لأقُولُ هذه المقالَةَ وما أعلمُ عند أحدٍ من الذُّنوبِ أكثرَ ممَّا أعلمُ عندِي، فأستغفرُ اللَّهَ وأتوبُ إليه. وكتبَ إلى بعض نوَّابِهِ على بعضِ الأمصار كتابًا يعظُهُ فيه، فقال في آخره: وإنِّي لأعِظُكَ بهذا، وإنِّي لكثيرُ الإسْرافِ على نَفْسِي، غيرُ مُحكمٍ لكثيرٍ من أمْرِي، ولو أن المرءَ لا يعظُ أخاهُ حتى يُحكمَ نفسهُ إذًا لتواكلَ الناسُ الخيرَ، وإذًا لرُفِعَ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عن المُنْكَرِ، وإذًا لاستُحِلَّتِ المَحارِمُ، وقَلَّ الواعِظُونَ والسَّاعُون للَّه بالنَّصِيحةِ في

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط»، و«الصغير» كما ذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٧٧).

الأرض؛ فإنَّ الشيطان وأعوانَه يَودُّون أن لا يـأمُرَ أَحدٌ بمعروفٍ ولا يَنْهى عن مُنْكَرٍ، وإذا أمرَهُم أحدٌ أو نَهاهُم، عَابُوه بما فيهِ وبما ليس فيه. كما قيل:

وأُعْلِنَـتِ الفـواحِشُ في البـوادي ... وصـارَ الـنَّاسُ أَعْـوَانَ المـريبِ
إذا مـا عِـبْـتُـهُم عَـابُوا مَـقَـالِي ... لِمـا في القَـوْمِ مِـن تلكَ العُـيـوبِ
وَوَدُّوا لو كَـفَـفْـنـا فـاسْـتَـوَيْنا ... فـصَـارَ النَّاسُ كـالشَـيءِ المشـوبِ
وكنَّـا نَسْـتَطِـبُّ إذا مَـرِضْـنَا ... فـصـارَ هلاكُنا بـيـدِ الطَّبِـيـبِ[1]

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾

عيسى آخرُ أنبياءِ بني إسرائيلَ، وقد قال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾** [الصف: ٦].

وقد كـان المسيحُ ـ عليه السَّـلامُ ـ يحُضُّ على اتِّباعِهِ، ويقـولُ: إنَّه يُبعَثُ بالسَّيفِ، فلا يمنعنَّكُم ذلـك منه. ورُوِي عنه أنَّه قالَ: سوف أذهبُ أنا ويأتي الذي بعدِي لا يَتَحمَّدُكم بدعْواهُ، ولكنْ يَسُلُّ السَّيفَ فتدخلُونَه طَوْعًا وكُرْهًا. وفي «المسـند»[2] عن أبي الدَّرْداء ﷺ، عـن النَّبيِّ ﷺ، أنَّ اللَّهَ عـزَّ وجلَّ أَوْحَى إلى عِيسى عليه السَّلامُ: «**إنِّي باعثٌ بعدَكَ أُمَّةً، إن أصابهُمْ ما يُحبُّونَ حَمِدُوا**

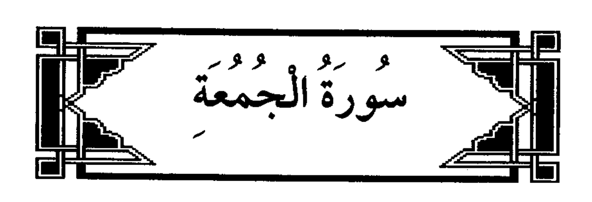
(١) «اللطائف» (٥٤ ـ ٥٧).
(٢) (٦/ ٤٥٠).

وشكرُوا، وإنْ أصابهُم ما يكرهُونَ، احتسبُوا وصبرُوا، ولا حِلمَ ولا عِلمَ. قال: يا ربِّ! كيفَ هذا ولا حِلمَ ولا عِلمَ؟ قال: أُعْطِيهم مِن حِلْمِي وعِلْمِي».

قال ابنُ إسحاق: حدَّثني بعضُ أَهْلِ العلْمِ أنَّ عيسَى ابنَ مريمَ ـ عليه السَّلام ـ قال: إنَّ أحبَّ الأُممِ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ لأُمَّةُ أحمدَ. قيلَ له: وما فضلُهم الذي تذكرُ؟ قال: لم تُذلَّل «لا إلهَ إلا اللَّه» على ألسُنِ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ تذليلَها على ألسنتِهِم[1].

* * *

(١) «اللطائف» (١٧٠ ـ ١٧١).



سُورَةُ الْجُمُعَة

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٢-٤].

ومعلومٌ أنَّه لم يُبعث في مكَّةَ رسولٌ منهم بهذه الصفةِ غيرُ محمَّدٍ ﷺ، وهو من ولدِ إسماعيلَ، كما أنَّ أنبياءَ بني إسرائيلَ من ولدِ إسحاق. وذكر اللَّهُ تعالى أنَّه مَنَّ على المؤمنينَ بهذه الرِّسالة، فليسَ للَّهِ نعمةٌ أعظم من إرسال محمدٍ ﷺ يهدي إلى الحقِّ وإلى صراطٍ مستقيمٍ.

وقوله: ﴿فِي الأُمِّيِّينَ﴾ - والمرادُ بهم العَرَبُ - تنبيهٌ لهم على قدرِ هذه النِّعمةِ وعظمِها، حيثُ كانوا أمِّيِّينَ لا كِتابَ لهم، وليسَ عندَهم شيء من آثارِ

النُّبوَّاتِ، كما كان عندَ أهلِ الكتابِ، فمنَّ اللَّه عليهم بهذا الرسولِ وبهذا الكتاب، حتى صاروا أفضلَ الأمم وأعلمَهم، وعرفُوا ضلالةَ منْ ضلَّ من الأمم قبلَهم. وفي كونِه منهم فائدتان:

إحداهما: أنَّ هذا الرَّسولَ كان أيضًا أُميًّا كأمَّته المبعوثِ إليهم، لم يقرأْ كتابًا قطُّ، ولم يخُطهُ بيمينه، كما قالَ اللَّه تعالى: ﴿**مَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ**﴾ الآيات [العنكبوت:٤٨]، ولا خرجَ عن ديارِ قومِه فأقامَ عندَ غيرِهم حتَّى تعلَّم منهم شيئًا، بلْ لم يزلْ أُميًّا بين أمَّةٍ أُميَّةٍ، لا يكتُبُ ولا يقرأُ حتى كمَّلَ الأربعينَ من عُمرِهِ، ثمَّ جاءَ بعد ذلكَ بهذا الكتابِ المُبين، وهذه الشريعةِ الباهرةِ، وهذا الدِّينِ القيِّمِ، الذي اعترفَ حُذَّاقُ أهل الأرضِ ونُظَّارُهُم أنَّه لم يقرعِ العالمَ ناموسٌ أعظمُ منه. وفي هذا بُرهانٌ ظاهرٌ على صدقِه.

والفائدة الثانية: التنبيهُ على أنَّ المبعوثَ فيهم ـ وهم الأُمِّيُّون خُصوصًا أهل مكَّةَ ـ يعرفُونَ نسبهُ، وشرفَهُ، وصدقَهُ، وأمانتَهُ، وعفَّتَهُ، وأنَّه نشأ بينهُم معروفًا بذلك كلِّه، وأنَّه لم يكذبْ قطُّ؛ فكيفَ كان يدعُ الكذبَ على النَّاسِ ثم يفترِي الكذبَ على اللَّه عزَّ وجلَّ، وهذا هو الباطلُ، ولذلك سألَ هِرقلُ عن هذه الأوصافِ، واستدلَّ بها على صدقِهِ فيما ادَّعاهُ من النُّبُوةِ والرِّسالةِ.

وقوله: ﴿**يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ**﴾ [الجمعة:٢]، يعني: يتلُو عليهم ما أنزلَ اللَّهُ عليه من آياتهِ المتلُوةِ، وهو القرآنُ، وهو أعظمُ الكُتبِ السَّماويَّةِ، وقد تضمَّنَ من العلومِ والحكمِ، والمواعظِ، والقصصِ، والترغيبِ والترهيبِ، وذكرِ أخبارِ منْ سبقَ، وأخبارِ ما يأتي من البعثِ والنُّشور والجنَّة والنَّارِ، ما لم يشتملْ عليه كتابٌ غيرُهُ، حتَّى قالَ بعضُ العلماءِ: لو أنَّ هذا الكتابَ وُجِدَ مكتوبًا في

مُصحَف في فلاة من الأرضِ، ولم يُعلم منْ وضعهُ هناك، لشهدتِ العقولُ السَّليمةُ أنَّه منزلٌ مِن عندِ اللَّهِ، وأنَّ البشرَ لا قدرةَ لهم على تأليفِ ذلك، فكيف إذا جاءَ على يديْ أصدقِ الخلقِ وأبرِّهم وأتقاهُم، وقال: إنَّه كلامُ اللَّهِ، وتحدَّى الخلقَ كلَّهم أن يأتوا بسُورةٍ من مثلِه، فعجزُوا. فكيف يبقى مع هذا شكٌّ فيه؟ ولهذا قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ**﴾ [البقرة:٢].

وقال تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ**﴾ [العنكبوت:٥١]. فلو لم يكنْ لمحمدٍ ﷺ منَ المعجزاتِ الدالةِ على صدقِه غيرُ هذا الكتابِ لكفاهُ، فكيفَ ولهُ من المعجزاتِ الأرضيةِ والسماويةِ ما لا يُحصَى. وقوله: ﴿**يُزَكِّيهِمْ**﴾ [الجمعة:٢]: يعني أنَّه يُزكِّي قلوبَهم ويطهرُها من أدناسِ الشركِ والفُجورِ والضَّلالِ؛ فإنَّ النفوسَ تزكو إذا طهرتْ من ذلك كلِّه، ومن زكتْ نفسُه فقد أفلحَ، كما قال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**﴾ [الشمس:٩]، وقال: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ**﴾ [الأعلى:١٤].

وقوله: ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾، يعني بالكتابِ القرآنَ، والمرادُ: ويعلِّمُهم تلاوةَ ألفاظِه. ويعني بالحكمةِ فهمَ معاني القرآنِ والعملَ بما فيه. فالحكمةُ هي فهمُ القرآنِ والعملُ به، فلا يُكْتَفى بتلاوةِ ألفاظِ الكتابِ حتَّى يُعلمَ معناهُ ويُعملَ بمقتضاهُ، فمن جُمعَ له ذلك كلُّه فقد أُوتيَ الحكمةَ. قال تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ [البقرة:٢٦٩].

قال الفضيلُ: العلماءُ كثيرٌ، والحكماءُ قليلٌ. وقال: الحكماءُ ورثةُ الأنبياءِ. فالحكمةُ هي العلمُ النافعُ الذي يتبعُه العملُ الصالحُ. وهي نورٌ يقذفُ في

القلبِ يُفهمُ بهـا معنى العلم المنزَّلِ من السَّماءِ، ويحُضُّ على اتِّبـاعه والعملِ به. ومَن قال: الحكمةُ السنةُ، فقولُه حقٌّ؛ لأنَّ السنةَ تفسِّرُ القرآنَ وتبينُ معانيه وتحُضُّ على اتباعِهِ والعملِ به؛ فالحكيمُ هو العالم المستنبطُ لدقائقِ العلمِ المنتفعِ بعلمهِ بالعمل بهِ. ولأبي العتاهية:

وكَيْفَ تُحِبُّ أنْ تُدْعَى حكيمًا وأَنْتَ لِكُلِّ ما تَهْوَى رَكُوبَ
وتَضْحَكُ دائِبًا ظَهْرًا لِبَطْنٍ وتَذْكُرُ ما عَمِلْتَ فَلا تَتُوبُ

وقوله: ﴿إِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، إشارة إلى ما كان النَّاسُ عليه قبلَ إنزالِ هذا الكتابِ من الضلالِ، فإنَّ اللَّهَ تعالى نظرَ حينئذٍ إلى أهلِ الأرضِ، فمقتهُم، عربهُم وعجمهُم، إلا بقايا مِن أهلِ الكتابِ تمسَّكُوا بدينهِم الذي لم يُبدَّلْ ولم يُغيرْ، وكانوا قليلاً جدًّا.

فأمَّا عامَّةُ أهل الكتابِ فكانوا قد بدَّلُوا كُتُبَهُم وغيَّرُوها وحرفُوها، وأدخلُوا في دينهم ما ليسَ منه فضلُّوا وأضلُّوا. وأمَّا غيرُ أهلِ الكتابِ فكانُوا على ضلالٍ مُبينٍ؛ فالأُمِّيُّون أهلُ شركٍ يعبدَونَ الأوثانَ، والمجوسُ يعبدُونَ النيرانَ ويقولون بإلهينِ اثنينِ، وكذلك غيرهُم مِن أهلِ الأرضِ؛ منهم مَن كان يعبدُ النُّجومَ، ومنهم مَن كان يعبدُ الشَّمسَ أو القمر، فهدَى اللَّه المؤمنينَ بإرسالِ محمَّدٍ ﷺ إلى ما جاءَ بِهِ منَ الهُدى ودينِ الحقِّ؛ وأظهرَ اللَّهُ دينهُ حتى بلغَ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، فظهرتْ فيها كلمةُ التَّوحيدِ والعَمَلِ بالعدْلِ بعد أن كانتْ الأرضُ كلُّها ممتلئةً من ظُلمةِ الشِّركِ والظُّلم. فالأُميُّون هم العربُ، والآخرون الذين لم يلحقُوا بهم هم أهلُ فارسَ والرُّوم، فكانتْ أهلُ فارسَ مجوسًا، والرُّومُ نصارَى، فهدَى اللَّهُ تعالى جميعَ هؤلاءِ برسالةِ محمَّدٍ ﷺ إلى التوحيدِ.

وقد رُئي الإمامُ أحمدُ بعد موته في المنامِ، فسُئلَ عن حالهِ، فقال: لولا هذا النبيُّ لكنَّا مجوسًا، وهو كما قال، فإنَّ أهل العراقِ لولا رسالةُ محمدٍ ﷺ لكانوا مجوسًا، وأهلُ الشامِ ومصرَ والرومُ لولا رسالة محمدٍ ﷺ لكانوا نصارَى، وأهلُ جزيرة العرب لولا رسالةُ محمدٍ لكانوا مشركينَ عبادَ أوثانٍ. ولكن رحمَ اللَّهُ عبادهُ بإرسالِ محمدٍ ﷺ فأنقذَهُم مِن الضَّلالِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، ولهذا قال اللَّه تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة:٤]، فمن حصلَ له نصيبٌ من دين الإسلامِ فقد حصلَ له الفضلُ العظيمُ، قد عظمتْ عليه نعمةُ اللَّهِ، فما أحوجهُ إلى القيامِ بشكرِ هذه النعمةِ وسؤالهِ دوامَها والثَّباتَ عليها إلى المماتِ، والموتَ عليها، فبذلكَ تتمُّ النِّعمةُ.

فإبراهيمُ ـ عليه السلامُ ـ هو إمامُ الحنفاء، المأمورُ محمَّدٌ ﷺ ومن قبلُه منَ الأنبياءِ ـ عليهم السلام ـ بالاقتداء به، وهو الذي جعلهُ اللَّهُ للنَّاسِ إمامًا، وقدْ دعا هو وابنُه إسماعيلُ ـ عليه السَّلام ـ بأن يبعثَ اللَّهُ في أهلِ مكَّةَ رسولاً منهُم موصوفًا بهذهِ الأوصافِ، فاستجابَ اللَّهُ لهما وجعلَ هذا النَّبيَّ المبعُوثَ فيهم من ولدِ إسماعيلَ بن إبراهيمَ كما دعيا بذلك، وهو النَّبيُّ الذي أظهرَ دينَ إبراهيمَ الحنيفَ بعدَ اضمحلالهِ وخفائه على أهلِ الأرضِ فلهذا كان أولَى النَّاسِ بإبراهيمَ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران:٦٨].

وقال ﷺ: **«إنَّ لكلِّ نبيٍّ وليًّا من النَّبيينَ وإنَّ وليي إبراهيم»**(١)، ثم تلا هذه الآية.

---

(١) أخرجه: الترمذي (٢٩٩٥)، وأحمد في «المسند» (١/ ٤٠١)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٩٢).

وكان ﷺ أشبهَ ولدِ إبراهيمَ بهِ صُورةً ومعنًى، حتى أنَّه أشبهُه في خُلَّةِ اللَّهِ تعالى، فقال: «إنَّ اللَّه اتَّخذني خليلاً كما اتَّخذَ إبراهيمَ خليلاً»[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[قال البخاري][2]: قَولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية [الجمعة:٩].

صلاةُ الجمعةِ فريضةٌ من فرائِض الأعيانِ على الرجالِ دونَ النساءِ، بشرائطَ أُخَرَ، هذا قولُ جمهورِ العلماءِ، ومنهم من حكاه إجماعًا كابنِ المنذرِ.

وشذَّ من زعمَ أنها فرضُ كفايةٍ من الشافعيةِ، وحكاهُ بعضُهم قولاً للشافعيِّ، وأنكر ذلك عامةُ أصحابه حتى قال طائفةٌ منهم: لا تحلُّ حكايتُه عنه.

وحكاية الخطابيِّ[3] لذلك عن أكثرِ العلماءِ وهمٌ منه، ولعله اشتبهَ عليه الجمعةُ بالعيدِ.

وحكي عن بعضِ المتقدمينَ: أن الجمعةَ سنةٌ.

وقد روى ابنُ وهبٍ، عن مالكٍ، أن الجمعةَ سنةٌ.

وحملَها ابنُ عبدِ البرِّ على أهل القرى المختلَفِ في وجوب الجمعةِ عليهمْ

---

(١) «اللطائف» (١٦٤ ـ ١٧٠).

(٢) البخاري (٢/ ٢).

(٣) في «معالم السنن» (١/ ٦٤٤ ـ هامش أبي داود).

خاصةً، دون أهلِ الأمصارِ.

ونقلَ حنبلٌ، عن أحمدَ، أنه قال: الصلاةُ - يعني: صلاةَ الجمعةِ - فريضةٌ، والسعيُ إليها تطوعٌ، سنةٌ مؤكدةٌ.

وهذا إنما هو توقفٌ عن إطلاقِ الفرضِ على إتيانِ الجمعةِ، وأما الصلاةُ نفسُها، فقد صرَّح بأنها فريضةٌ، وهذا يدلُّ على أن ما هو وسيلةٌ إلى الفريضةِ ولا تتمُّ إلا به لا يطلقُ عليه اسمُ الفريضةِ؛ لأنه وإنْ كان مأمورًا به فليس مقصودًا لنفسهِ، بل لغيرهِ.

وتأوَّل القاضِي أبو يعلَى كلامَ أحمدَ بما لا يصحُّ.

وقد دلَّ على فرضيتها: قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الجمعة:٩].

والمرادُ بالسعي: شدةُ الاهتمامِ بإتيانِها والمبادرةُ إليها. فهو من سَعْيِ القلوبِ، لا من سعيِ الأبدانِ، كذا قالَ الحسنُ وغيرُه، وسيأتي بسطُ ذلك فيما بعدُ - إن شاء اللَّهُ سبحانه وتعالى.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(١) عن عبد اللَّهِ بنِ عمرَ وأبي هريرةَ، أنهما سمعا رسول اللَّهِ ﷺ يقولُ على أعوادِ منبرهِ: «**لينتهينَّ أقوامٌ عنْ ودعهمُ الجمعات، أو ليختمنَّ اللَّهُ على قلوبهم، ثم ليكونُنَّ منَ الغافلين**».

وخرَّج الإمامُ أحمدُ وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ وابنُ ماجه(٢) من حديثِ

---

(١) (٣/ ١٠).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٤٢٤)، وأبو داود (١٠٥٢)، والترمذي (٥٠٠)، والنسائي (٣/ ٨٨)، وابن ماجه (١١٢٥).

أبي الجعدِ الضَّمريِّ - وكانتْ له صحبةٌ -، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**مَن تركَ الجمعةَ تهاونًا ثلاثَ مراتٍ طُبعَ على قلبه**».

وقال الترمذيُّ: حديثٌ حسنٌ. وخرجهُ ابنُ حبانَ في «صحيحهِ»[1]. ورُوي معناهُ من وجوهٍ كثيرةٍ.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[2] عن ابنِ مسعودٍ، أن النَّبي ﷺ هَمَّ أن يحرقَ على مَن يتخلفُ عن الجمعةِ بيوتَهم. وقد سبقَ ذكرُه.

وخرَّج أبو داودَ[3] بإسنادٍ صحيحٍ، عن طارقِ بنِ شهابٍ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**الجمعةُ حقٌّ واجبٌ في جماعةٍ، إلا أربعة: عبدٌ مملوكٌ، أو امرأةٌ، أو صبيٌّ، أو مريضٌ**».

قال أبو داودَ: طارقُ بنُ شهابٍ رأى النبيَّ ﷺ، ولمْ يسمَعْ منه شيئًا.

قال البيهقيُّ: وقد وصلَه بعضُهم عن طارقٍ، عن أبي موسى الأشعرِي، عن النبيِّ ﷺ، وليس وصلُه بمحفوظٍ.

وخرجَ النسائيُّ[4] من حديثِ حفصةَ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**رواحُ الجمعةِ واجبٌ على كلِّ محتلمٍ**».

وخرَّج ابنُ ماجه[5] من حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ، أن النبيَّ ﷺ خطبَهم، فقالَ في خُطبته: «**إن اللَّهَ فرضَ عليكمُ الجمعةَ في مقامي هذا، في يومِي هذا، في**

---

(١) ابن حبان (٢٥٨)، (٢٧٨٦).

(٢) (٢/ ١٢٣).

(٣) «السنن» (١٠٦٧).

(٤) «السنن» (٣/ ٨٩).

(٥) «السنن» (١٠٨١).

شهـري هذا، من عامي هذا إلى يومِ القيـامة، فمن تركَهـا في حياتي أو بعـدي، وله إمامٌ عادلٌ أو جائرٌ، استخفافًا بهـا أو جحودًا لها فلا جمعَ اللَّهُ شملَه، ولا باركَ له في أمره، ألا ولا صلاةَ له، ولا زكاةَ له، ولا حجَّ له، ولا صومَ له، ولا بركةَ حتَّى يتوب، فمن تابَ تابَ اللَّهُ عليه».

وفي إسنادِه ضعفٌ واضطرابٌ واختـلافٌ، قد أشرْنا إلى بعضِه فيـما تقدَم في «أبواب الإمامةِ».

وفيـه: دليلٌ على أن الجمـعةَ إنما فُـرضتْ بالمدينة؛ لأن جابراً إنمـا صحبَ النبيَّ ﷺ وشهدَ خطبتَه بالمدينةِ، وهذا قولُ جمهورِ العلماءِ.

ويدلُّ عليه ـ أيضًا ـ: أن سورةَ الجمـعةِ مدنيةٌ، وأنه لم يثبتْ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يصلِّي الجمعةَ بمكةَ قبلَ هجرته.

ونصَّ الإمـامُ أحمـدُ على أنَّ أولَ جمـعةٍ جُـمِّعَتْ في الإسـلامِ هي التي جمعتْ بالمدينةِ مع مصعبِ بنِ عميرٍ.

وكذا قالَ عطاءٌ والأوزاعيُّ وغيرُهما.

وزعم طائفةٌ من الفقهاء: أن الجمـعةَ فرضتْ بمكةَ قبلَ الهجرةِ؛ وأن النبيَّ ﷺ كان يصلِّيها بمكةَ قبل أن يهاجرَ.

واستدلَّ لذلكَ: بما خرَّجه النسائيُّ في «كـتاب الجمعةِ» من حديث المُعَافَى ابنِ عمرانَ، عـن إبراهيمَ بنِ طهمانَ، عن محـمدِ بنِ زيادٍ، عن أبي هريرةَ، قال: إن أولَ جمعةٍ جُمِّعَتْ ـ بعـدَ جمعةٍ جُمِّعَت معَ رسولِ اللَّه ﷺ بمكةَ ـ بِجُواثاءَ بالبحرينِ ـ قريةٍ لعبدِ القيسِ.

وقد خرَّجه الـبخاريُّ ـ كما سيأتي فـي موضعه[1] ـ من طريق أبي عـامر

---

(١) البخاري (٢/ ٦).

العَقديِّ، عن إبـراهيمَ بن طهمان، عن أبي جمـرةَ، عن ابنِ عباسٍ، أن أولَ جمعـةٍ جمعت ـ بعدَ جـمعةٍ في مسـجدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ـ في مسجـدِ عبدِ القيسِ بجُواثى من البحرينِ.

وكذا رواه وكيعٌ، عن إبراهيمَ بن طهمان، ولفظُه: إن أولَ جـمعةٍ جمعتْ في الإسلامِ ـ بعد جمعة جـمعتْ في مسجدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ بالمدينةِ ـ لَجُمُعَةٌ جمعتْ بجواثاءَ ـ قرية من قرى البحرينِ.

خرجه أبو داود[1].

وكذا رواه ابنُ المباركِ وغيرُه، عن إبراهيمَ بنِ طهمان.

فتبيَّن بذلكَ: أنَّ المعـافى وهمَ في إسنادِ الحديثِ ومتنهِ، والصوابُ: رواية الجماعةِ، عن إبراهيمَ بنِ طهمان.

ومعنى الحديثِ: أن أولَ مسـجدٍ جمع فيه ـ بعدَ مسجـدِ المدينةِ ـ: مسجد جواثاءَ، وليس معناه: أنَّ الجمعةَ التي جمعت بجواثاء كانت في الجمعةِ الثانيةِ من الجمعةِ التي جمعت بالمدينةِ، كما قد يُفْهَمِ من بعضِ ألفاظِ الرواياتِ؛ فإن عبدَ القيسِ إنما وفَد على رسولِ اللَّه ﷺ عامَ الفتحِ، كما ذكرَه ابنُ سعدٍ[2]، عن عروةَ بنِ الزبيرِ وغيرِه.

وليس المرادُ به ـ أيضًـا ـ أن أولَ جمعـةٍ جمعتْ في الإسـلام في مسـجدِ المدينةِ، فإن أول جـمعةٍ جـمعتْ بالمدينةِ في نقيعِ الخَـضَماتِ، قـبل أن يقدمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ، وقبل أن يبنيَ مسجدَه.

---

(١) «السنن» (١٠٦٨).

(٢) «الطبقات» (١/ ٢/ ٥٤).

يدلُّ على ذلك: حديثُ كعبِ بنِ مالكٍ، أنه كان كلَّما سمع أذانَ الجمعةِ استغفرَ لأسعدَ بنِ زرارةَ، فسأله ابنُه عن ذلكَ، فقال: كانَ أولَ مَن صلَّى بنا صلاةَ الجمعةِ قبل مقدمِ رسولِ اللَّهِ ﷺ من مكةَ في نقيعِ الخضماتِ، في هَزْمِ النَّبيتِ، من حرَّةِ بني بياضةَ. قيل له: كم كنتم يومئذٍ؟ قال: أربعين رجلاً.

خرجه الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ وابنُ ماجه ـ مطوَّلاً[1].

وروى أبو إسحاقَ الفزاريُّ في «كتاب السِّيَر» له، عن الأوزاعيِّ، عمَّن حدثَه، قال: بعثَ رسولُ اللَّهِ ﷺ مصعَب بنَ عميرٍ القرشيَّ إلى المدينةِ، قبل أن يهاجرَ النبيُّ ﷺ، فقالَ: **«اجمعْ مَنْ بها من المسلمين، ثم انظرِ اليومَ الذي تجمرُ فيه اليهودُ لسبتِها، فإذا مالَ النهارُ عن شطرِه فقم فيهمْ، ثم تزلَّفوا إلى اللَّهِ بركعتينِ»**.

قال: وقالَ الزهريُّ: فجمع بهم مصعبُ بنُ عميرٍ في دارٍ من دُورِ الأنصارِ، فجمع بهم وهُم بضعةَ عشرَ.

قال الأوزاعيُّ: وهو أولُ من جمعَ بالناسِ.

وقد خرج الدارقطنيُّ ـ أظنه في «أفراده» ـ من رواية أحمدَ بنِ محمد بنِ غالبٍ الباهليِّ: نا محمدُ بن عبدِ اللَّه أبو زيد المدنيُّ: ثنا المغيرةُ بنُ عبدِ الرحمنِ: ثنا مالكٌ، عن الزهريِّ، عن عبيدِ اللَّهِ بنِ عبدِ اللَّهِ، عن ابنِ عباسٍ، قالَ: أذنَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بالجمُعةِ قبلَ أن يهاجرَ، ولم يستطعْ رسولُ اللَّهِ ﷺ أن يجمِّعَ بمكةَ ولا يبيِّن لهم، وكتبَ إلى مصعبِ بنِ عميرٍ: **«أما بعدُ، فانظرِ اليومَ الذي تجمرُ فيه اليهودُ لسبتِهم، فاجمعُوا نساءَكُم وأبناءَكم، فإذا مال النهارُ عن شطرِهِ عندَ الزوالِ من يومِ الجمُعةِ فتقرَّبُوا إلى اللَّهِ بركعتينِ»**.

---

(١) أبو داود (١٠٦٩)، وابن ماجه (١٠٨٢)، وابن خزيمة (١٧٢٤)، والبيهقي (٣/ ١٧٦)، ولم أجده في «المسند».

قال: فهوَ أولُ من جمَّع مصعبُ بنُ عميرٍ، حتى قدمَ رسولُ اللَّهِ ﷺ المدينةَ، فجمَّع عند الزوالِ من الظهرِ، وأظهرَ ذلكَ.

وهذا إسنادٌ موضوعٌ، والباهليُّ هو: غلامُ خليلٍ، كذابٌ مشهورٌ بالكذبِ، وإنما هذا أصله من مراسيلِ الزهري[1]، وفي هذا السياق ألفاظٌ منكرةٌ.

وخرج البيهقيُّ[2] من روايةِ يونسَ، عن الزهريِّ، قال: بلغَنا أنَّ أولَ ما جُمِّعتِ الجمعةُ بالمدينةِ قبلَ أن يقدمَها رسولُ اللَّهِ ﷺ، فجمَّع بالمسلمينَ مصعبُ بنُ عميرٍ[3].

وروى عبد الرزاق في «كتابه»[4] عن معمر، عن الزهريِّ، قال: بعث رسول اللَّهِ ﷺ مصعبَ بنَ عميرٍ إلى أهلِ المدينة ليقرئَهمُ القرآنَ، فاستأذن رسولَ اللَّهِ ﷺ أنْ يجمِّع بهم، فأذِنَ له رسولُ اللَّهِ ﷺ، وليس يومئذٍ بأميرٍ، ولكنه انطلقَ يعلِّمُ أهلَ المدينةِ.

وذكر عبدُ الرزاقِ، عن ابنِ جريجٍ، قال: قلتُ لعطاءٍ: مَن أولُ من جمَّعَ قال: رجلٌ من بني عبدِ الدارِ - زعموا -، قلتُ: أفبأمر النبيِّ ﷺ؟ قال: فمَهْ؟!

وخرَّجه الأثرمُ من روايةِ ابنِ عيينةَ، عن ابنِ جريجٍ، وعندَه. قال: نعمْ، فمَه؟! قال ابن عيينةَ: سمعتُ مَن يقولُ: هو مصعبُ بنُ عميرٍ.

---

(١) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (٥٣).

(٢) البيهقي (٣/ ١٧٩).

(٣) ووصله صالح بن أبي الأخضر، عن الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، عن ابن مسعود.
أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٧/ ٢٦٧). والصواب: المرسل.

(٤) «المصنف» (٣/ ١٦٠).

وكذلك نصَّ الإمامُ أحـمدُ في - رواية أبي طالبٍ - على أنَّ النبي ﷺ هو أمر مصعبَ بنَ عميرٍ أن يجمِّعَ بهمْ بالمدينةِ.

ونصَّ أحمدُ - أيضًا - على أنَّ أولَ جمعـةٍ جمِّعتْ في الإسلامِ هي الجمعة التي جمعتْ بالمدينةِ مع مصعبِ بنِ عميرٍ.

وقد تقدَّم مثلُه عن عطاءٍ والأوزاعيِّ.

فتبينَ بهذا: أنَّ النبيَّ ﷺ أمرَ بإقامةِ الجمُعةِ بالمدينةِ، ولم يُقمْها بمكةَ، وهذا يدلُّ على أنه كان قد فُرِضَت عليه الجمعةُ بمكةَ.

وممَّن قالَ: إن الجمعةَ فُرِضَت بمكةَ قبلَ الهجرةِ: أبو حامدٍ الإسفراييني من الشافعيـةِ، والقاضِي أبو يعلَى في «خلافه الكبير» من أصـحابِنا، وابنُ عقيلٍ في «عمد الأدلةِ»، وكذلك ذكرهَ طائفةٌ من المالكيةِ، منهم: السهيليُّ وغيرُه.

وأما كـونُه لم يفعـلْه بمكةَ، فيُـحمَل أنه إنما أُمـرَ بها أنْ يقـيمَـها في دارِ الهـجـرةِ، لا في دارِ الحـربِ، وكـانت مـكةُ إذ ذاكَ دارَ حـربٍ، ولـم يكنِ المسلمـونَ يتمكَّنونَ فـيها من إظهـارِ دينهم، وكانُوا خـائفينَ على أنفـسهم؛ ولذلك هاجرُوا منهـا إلى المدينةِ، والجمعـةُ تسقطُ بأعذارٍ كـثيرةٍ منهـا الخوفُ على النفسِ والمالِ.

وقد أشـار بعضُ المتأخرينَ من الشـافعيـةِ إلى معنًى آخـرَ في الامتناع من إقامتِها بمكةَ، وهو: أن الجمعةَ إنما يُقصدُ بإقامتِها إظهارُ شعارِ الإسلامِ، وهذا إنما يُتمكنُ منه في دارِ الإسلامِ.

ولهذا لا تقامُ الجمعةُ في السجنِ، وإن كان فيه أربعونَ، ولا يعلمُ في ذلك خلافٌ بينَ العلماءِ، وممَّن قالَه: الحسـنُ، وابنُ سيرينَ، والنخَعيُّ، والثوريُّ،

ومالكٌ، وأحمدُ، وإسحاقُ وغيرُهم.

وعلى قياسِ هذا: لو كـانَ الأسارى في بلدِ المشركينَ مجـتمعينَ في مكانٍ واحدٍ؛ فإنهم لا يصلُّون فيه جمـعةً، كالمسجونينَ في دارِ الإسلامِ وأولَى؛ لا سيـما وأبو حنيـفةَ وأصحـابُه يرونَ أن الإقامـةَ في دارِ الحربِ ـ وإن طالتْ ـ حكمُهـا حكمُ السفرِ، فتـقصر فيهـا الصلاةُ أبدًا، ولو أقامَ المسلمُ باخـتيارِهِ، فكيف إذا كانَ أسيرًا مقهورًا؟

وهذا على قولِ مَن يرى اشتراطَ إذنِ الإمامِ لإقامةِ الجمعةِ أظهرُ، فأمَّا على قولِ مَن لا يشـترطُ إذنَ الإمامِ، فقـد قال الإمامُ أحمدُ فـي الأمراءِ إذا أخَّروا الصلاةَ يومَ الجمُعةِ: فيصلِّيها لوقـتِها ويصليها مع الإمامِ، فحملَه القاضي أبو يعلى في «خلافه» على أنهم يصلونها جمعةً لوقتِها.

وهـذا بعيدٌ جدًّا، وإنما مـرادهُ: أنهم يصلون الظهرَ لوقتـها، ثـم يشهدونَ الجمعةَ مع الأمراءِ.

وكذلك كـانَ السلفُ الصالحُ يفـعلونَ عند تأخيـرِ بني أميـةَ للجمـعةِ عن وقتِـها، ومنهم مَن كـانَ يومئُ بالصلاةِ وهو جالسٌ فـي المسجدِ قـبلَ خروجِ الوقتِ، ولم يكنْ أحدٌ منهم يصلِّي الجمُـعةَ لوقتِها، وفي ذلك مفاسـدُ كثيرةٌ تسقطُ الجمعةُ بخشيةِ بعضِها.

وفي «تهذيبِ المدونةِ»[1] للمالكيةِ: وإذا أَتى من تأخيـرِ الأئمةِ ما يُسْتنكَرُ جمَّعَ الناسُ لأنفسِهم إن قدرُوا، وإلا صلَّوا ظهرًا، وتنفلُوا بصلاتِهم معَهم.

قال: ومَن لا تجبُ عـليه الجمـعةُ مـثلُ المرضَى والمسافرينَ وأهـلِ السجنِ

(١) انظر: «المدونة» (١/ ٦٨).

فجائزٌ أن يجمِّعُوا.

وأراد بالتجميعِ هنا: صلاةَ الظهرِ جماعةً، لا صلاةَ الجمعةِ؛ فإنه قال قبلَه: وإذا فاتتِ الجمعةُ من تجبُ عليهم فلا يجمِّعوا.

والفرقُ بين صلاةِ الظهرِ جماعةً يومَ الجمعةِ، ممَّن تجبُ عليه وممَّن لا تجبُ عليه: أن من تجبُ عليه يُتَّهمُ في تركِها، بخلاف من لا تجبُ عليه فإن عذرَهُ ظاهرٌ.

وقد رُويَ عن ابنِ سيرينَ، أن تجميعَ الأنصارِ بالمدينةِ إنما كان عنْ رأيهم، من غيرِ أمرِ النبيِّ ﷺ بالكليَّةِ، وأن ذلكَ كان قبلَ فرضِ الجمعةِ.

قال عبدُ اللَّه ابنُ الإمامِ أحمدَ في «مسائله»: ثنا أبي: ثنا إسماعيلُ ـ هو: ابنُ عليَّة ـ: ثَنا أيوبُ، عنْ محمدِ بنِ سيرينَ، قال: نُبِّئتُ أنَّ الأنصارَ قبلَ قدومِ رسولِ اللَّه ﷺ عليهم المدينةَ قالوا: لو نظرنَا يومًا فاجتمعنا فيه، فذكرنَا هذا الأمرَ الذي أنعمَ اللَّهُ علينا به، فقالُوا: يوم السبتِ، ثمَّ قالوا: لا نجامعُ اليهودَ في يومِهم. قالوا: يوم الأحدِ، قالوا: لا نجامعُ النصارَى في يومِهم. قالُوا: فيوم العروبةِ. قال: وكانُوا يسمُّون يومَ الجمعةِ: يوم العروبةِ، فاجتمعوا في بيتِ أبي أمامةَ أسعد بن زرارة، فذبحت لهم شاةٌ، فكفتْهُمْ.

وروى عبدُ الرزاق في «كتابه»[1] عن معمرٍ، عن أيوبَ، عن ابن سيرين، قال: جمَّعَ أهلُ المدينةِ قبلَ أن يقدمَ رسولُ اللَّه ﷺ، وقبلَ أن تنزلَ الجمعةُ، وهم الذين سمَّوُها الجمعةَ، فقالتِ الأنصارُ: لليهودِ يومٌ يجتمعونَ فيه كلَّ ستةِ[2] أيامٍ، وللنصارَى ـ أيضًا ـ مثلُ ذلك، فهلُمَّ فلنجعلْ يومًا نجتمعُ فيه،

---

(١) «المصنف» (٣/ ١٥٩).

(٢) في «المصنف»: «سبعة»، وكذا هو في «الفتح» لابن حجر (٢/ ٣٥٥) نقلاً عن «المصنف».

ونذكرُ اللَّهَ عزَّ وجلَّ، ونصلِّي ونشكرهُ ـ أو كما قالوا ـ، فقالوا: يومُ السبتِ لليهودِ، ويومُ الأحدِ للنصارَى، فاجعلُوا يومَ العروبةِ، وكانوا يسمُّون يوم الجمعة: يومَ العروبةِ، فاجتمعُوا إلى أسعدَ بنِ زرارةَ، فصلَّى بهم وذكَّرَهم، فسمَّوه: يومَ الجمُعةِ حينَ اجتمعُوا إليه، فذبحَ أسعدُ بنُ زرارةَ لهم شاةً، فتغدَّوْا وتعشَّوْا من شاةٍ واحدةٍ ليلتَهم[1] ، فأنزلَ اللَّهُ بعدَ ذلك: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

فوقعَ في كلام الإمامِ أحمدَ: أن هذه هي الجمُعةُ التي جمعَها مصعبُ بنُ عميرٍ، وهي التي ذكرَها كعبُ بنُ مالكٍ في حديثه، أنهم كانُوا أربعينَ رجلاً.

وفي هذا نظرٌ.

ويحتملُ أن يكونَ هذا الاجتماعُ منَ الأنصارِ كانَ باجتهادِهم قبلَ قدومِ مصعبٍ إليهم، ثم لَمَّا قدمَ مصعبٌ عليهم جمَّع بهم بأمرِ النبيِّ ﷺ، وكانَ الإسلامُ حينئذٍ قد ظهرَ وفشَا، وكان يمكنُ إقامةُ شعارِ الإسلامِ في المدينةِ، وأما اجتماعُ الأنصارِ قبلَ ذلكَ، فكانَ في بيت أسعدَ بنِ زرارةَ قبل ظهورِ الإسلامِ بالمدينةِ وفشوِّهِ، وكانَ باجتهادٍ منهم، لا بأمرِ النبيِّ ﷺ. واللَّهُ سبحانه وتعالى أعلمُ[2] .

* * *

[قال البخاري][3]: بابٌ مِنْ أَيْنَ تُؤْتَى الجُمُعَةُ، وعلَى مَنْ تجِبُ؟

لقولِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

---

(١) في «المصنف»: «القلتهم». (٢) «الفتح» (٥/ ٣٢٥ ـ ٣٣٤).
(٣) البخاري (٢/ ٧ ـ ٨).

وقالَ عطاءٌ: إذَا كُنتَ فِي قَريـةِ جامعةٍ، فنُودِيَ بالصَّلاةِ مِن يومِ الجـمُعةِ، فحقٌّ عليكَ أن تشهدَهَا، سمعتَ النِّداءِ أو لمْ تسمعهُ.

وكانَ أنسُ بنُ مـالكٍ فِي قصرهِ، أحيـانًا يُجمِّعُ، وأحيـانًا لا يُجمِّعُ، وهُو بالزَّاويةِ على فرسخينِ.

تضمنَ هذا الذي ذكرَه مسألتين:

إحداهُما: أنَّ مَن هو في قريةٍ تقامُ فيها الجمـعةُ، فإنه إذا نوديَ فيها بالصلاةِ للجمعةِ وجبَ عليه السعيُ إلى الجـمعةِ، وشهودُها، سواءٌ سمعَ النداءَ أو لم يسمعْهُ وقد حكاه عن عطاءٍ.

وهذا الذي في القريةِ، إن كـانَ من أهلِها المستوطنينَ بهـا، فلا خلافَ في لزومِ السعي إلى الجمعةِ لهُ، وسـواءٌ سمع النداءَ أو لم يسمعْ، وقد نصَّ على ذلك الشافعيُّ وأحمدُ، ونقلَ بعضُهم الاتفاقَ عليه.

وإن كانَ من غيـرِ أهلِها، فإن كانَ مسافـرًا يباحُ له القصرُ، فأكـثرُ العلماءِ على أنه لا يلزمه الجمعـةُ مع أهلِ القريةِ، وقد ذكرنَا فيمـا تقدّم أن المسافرَ لا جمعةَ عليه.

وحُكيَ عن الزهريِّ والنخعيِّ، أنه يلزمه تبعًا لأهلِ القريةِ.

ورُوي عن عطاءٍ - أيضًا -، أنه يلزمُه.

وكذا قال الأوزاعيُّ: إنْ أدركه الأذانُ قبلَ أن يرتحلَ فليجبْ.

وإن كانَ المسافرُ قـد نوى إقامةً بالقريةِ تمنعُه من قصـرِ الصلاةِ، فهلْ يلزمُه الجمعة؟ فيه وجهانِ لأصحابِنا.

وأوجبَ عليه الجمعةَ في هذه الحالِ: مالكٌ وأبـو حنيفةَ، و لم يوجبْها عليه

الشافعيُّ وأصحابُه.

المسألةُ الثانيةُ: إنَّ مَن كان خارجَ القريةِ أو المصرِ الذي تقامُ فيه الجمعةُ، هل تلزمُه الجمعةُ مع أهلِ القريةِ أو المصرِ، أم لا؟ هذا مما اختلَف فيه العلماءُ:

فقالتْ طائفةٌ: لا تلزمُ مَن كانَ خارجَ المصرِ أو القريةِ الجمعةُ مع أهلِه بحالٍ، إذا كان بينَهم وبينَ المصرِ فرجةٌ، ولو كانُوا من رِبْضِ[1] المصرِ.

وهذا قولُ الثوريِّ وأبي حنيفةَ وأصحابِه، إلحاقًا لهم بأهلِ القرَى؛ فإنَّ الجمعةَ لا تقامُ عندَهم في القرَى.

وقال أكثرُ أهلِ العلمِ: تلزمُهم الجمعةُ مع أهلِ المصرِ أو القريةِ، مع القربِ دونَ البعدِ.

ثم اختلفُوا في حدِّ ذلك:

فقالتْ طائفةٌ: المعتبرُ: إمكانُ سماعِ النداءِ، فمن كان من موضعِ الجمعةِ بحيثُ يمكنُه سماعُ النداءِ لزمَه، وإلا فَلا. هذا قولُ الشافعيِّ وأحمدَ وإسحاقَ.

واستدلُّوا: بظاهرِ قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [الجمعة:٩].

ورُوي عن عبدِ اللَّهِ بنِ عَمرو بنِ العاصِ وسعيدِ بنِ المسيبِ وعَمرِو بن شعيب[2].

ورُويَ عن أبي أمامةَ الباهليِّ ـ معناه.

---

(١) أي: من جماعتهم.
(٢) «المصنف» لعبد الرزاق (٣/ ١٦٢ ـ ١٦٣).

وخرجَ أبو داودَ(١) من حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ، عنِ النبيِّ ﷺ: «**الجمعةُ علَى مَن سمعَ النداء**» ورُويَ موقوفًا، وهو أشبهُ.

وروَى إسماعيلُ، عن عبدِ العزيزِ بنِ عبدِ اللَّهِ، عن محمدِ بنِ عمرو بنِ عطاءٍ، عن عُبيدِ اللَّهِ بنِ كعبِ بنِ مالكٍ، عن أبيه - يرفعُه -، قال: «**لينتهينَّ أقوامٌ يسمعونَ النداءَ يومَ الجمعةِ، ثم لا يَشهدُونَها، أو ليطبعنَّ اللَّهُ على قلوبهم، وليكونُنَّ من الغافلين، أو ليكونُنَّ من أهلِ النارِ**»(٢). عبدُ العزيزِ هذا، شاميٌّ تكلَّموا فيه.

وقالت طائفةٌ: تجبُ الجمُعةُ على مَن بينَه وبينَ الجمعةِ فرسخٌ، وهو ثلاثةُ أميالٍ، وهو قولُ ابنِ المسيبِ والليثِ ومالكٍ ومحمدِ بنِ الحسنِ، وهو روايةٌ عن أحمدَ.

ومِن أصحابِنا مَن قالَ: لا فرقَ بينَ هذا القولِ والذي قبلَه؛ لأن الفرسخَ هو منتهَى ما يسمعُ فيه النداء - غالبًا -؛ فإن أحمدَ قالَ: الجمعة على من سمع النداءَ، والنداءُ يسمعُ من فرسخٍ، وكذلكَ رواه جماعةٌ عن مالكٍ، فيكونُ هذا القولُ والذي قبلَهُ واحدًا.

وخرج الخلالُ من روايةِ مندل، عن ابنِ جريجٍ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ محمدِ ابنِ عقيلٍ، عن جابرٍ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**عسَى أحدُكم أن يتخذ الصُّبَّة على رأسِ ميلين أو ثلاثة، تأتي عليه الجمعةُ لا يشهدُها، ثم تأتي الجمعةُ لا يشهدُها - ثلاثًا - فيطبعُ على قلبه**». مندلٌ فيه ضعفٌ.

وخرجَ الطبرانيُّ(٣) نحوَه من حديثِ ابنِ عمرَ - مرفوعًا.

---

(١) «السنن» (١٠٥٦). (٢) أخرجه الطبراني «في الكبير» (١٩/ ٩٩).

(٣) في «الأوسط» (٣٣٦).

وفي إسنادِه: إبراهيمُ بنُ يزيدَ الخوزيُّ، وهو ضعيفٌ.

وروى معـدي بن سليمـان، عن ابنِ عجلانَ، عن أبيـهِ، عن أبي هريرةَ، عن النبي ﷺ قال: **«ألا هل عسَى أحدُكم أن يتخذَ الصُّبة من الغنمِ على رأسِ ميلٍ أو ميلين، فـيتعـذَّر عليه الكلأُ، فيـرتفعُ، ثم تجيءُ الجمـعةُ، فلا يجيءُ ولا يشـهدُها، وتجيءُ الجمعة، فلا يشهدُها، وتجيءُ الجمعةُ، فلا يشهدها حتى يُطبعَ على قلبِه»**.

خرجه ابنُ ماجه[١] .

وخرجه أبو بكر النجاد وابنُ عبدِ البرِ، وفي روايتهما: **«ميلين أو ثلاثة»**.

ومَعْدي هذا، تكلم فيه أبو زرعةَ وغيرُه. وقال أبو حاتم: شيخ.

وقالت طائفةٌ: تجبُ الجـمعةُ على من بينَهُ وبينَهَا أربعـةُ أميالٍ، ورُويَ عن ابن المنكدرِ والزهريِّ وعكرمةَ وربيعةَ.

ورويَ عن الزهريِّ - أيضًا - تحديدُه بستةِ أميالٍ، وهي فرسخانِ.

وروي عن أبي هريرةَ، قالَ: تؤتَى الجمعةُ من فرسخينِ.

خرجه ابن أبي شيبة[٢] بإسناد ضعيف.

وروى عبد الرزاق[٣] بإسنادٍ منقطعٍ، عن معاذٍ، أنه كانَ يقومُ على منبرِهِ، فيـقولُ لـقومٍ بينهُم وبينَ دمـشقَ أربعُ فراسخٍ وخـمسُ فراسـخٍ: إن الجـمـعةَ لزمتْكُم، وأن لا جمعة إلا معنا.

وبإسنادٍ منقطعٍ، عن مـعاويةَ، أنه كانَ يأمرُ بشـهودِ الجمـعةِ مَن بينه وبينَ

---

(١) «السنن» (١١٢٧).

(٢) «المصنف» (١/ ٤٤١).

(٣) «المصنف» (٣/ ١٦٤).

دمشقَ أربعة عشرَ ميلاً.

وقالَ بقيةُ، عن محمـدِ بنِ زيادٍ: أدركتُ الناسَ بحِمْص تبعثُ الخيلَ نهارَ الخميسِ إلى جُـوسيةَ وحماة والرَّستن يجلبون الناسَ إلى الجـمعةِ، ولم يكن يجمعُ إلا بحِمْص.

وعن عطاءٍ. إنه سئلَ: من كم يُؤتى الجمعةُ؟ قال: من سبعةِ أميالٍ[1].

وعنه، قالَ: يقال: من عشرةِ أميالٍ إلى بريدٍ[2].

وعن النخعيِّ، قالَ: تؤتى الجمعةُ من فرسخينِ.

وعن أبي بكرٍ بنِ محمدِ بنِ عمـرِو بنِ حزمٍ، أنه أمرَ أهلَ قباء، وأهلَ ذي الحليفـةِ، وأهلَ القرى الصـغار حـولهُ: لا يجمِّـعُوا، وأن يشهـدوا الجمـعةَ بالمدينة.

وعن ربيـعة ـ أيضًا ـ، أنـه قالَ: تجبُ الجمـعةُ على من إذا نـودِيَ بصلاةِ الجمعةِ خرجَ من بيتهِ ماشيًا أدركَ الجمعةَ.

وقالتْ طائفةٌ: تجبُ الجمعةُ على من آواه الليلُ إلى منزلِهِ.

قال ابنُ المنذرِ: رويَ ذلكَ عن ابنِ عمـرَ وأبي هريرةَ وأنسٍ والحسنِ ونافعٍ مولى ابنِ عـمرَ، وكـذلكَ قالَ عكرمـةُ والحكمُ وعطاءٌ والأوزاعيُّ وأبو ثور. انتهى.

وهو قولُ أبي خيثمةَ زهيرِ بنِ حربٍ وسليمان بن داود الهاشمي.

وحكى إسـماعـيلُ بنُ سـعيـدٍ الشـالنجيُّ، عن أحمـدَ نحـوَهُ، واختـاره الجوزجانيُّ.

---

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (١/ ٤٤١). (٢) «المصنف» لعبد الرزاق (٣/ ١٦٢).

وفيه حديثٌ مرفوعٌ، من حديثِ أبي هريرةَ.

وقد ذكره الترمذي[١]، وبيَّن ضعفَ إسنادِه، وأن أحمدَ أنكرهُ أشدَّ الإنكارِ.

وفيه ـ أيضًا ـ، عن عائشةَ، وإسنادُه ضعيفٌ.

وفيه ـ أيضًا ـ من مراسيلِ أبي قِلابَة، وفي إسنادِه ضعفٌ.

وقالتْ طائفةٌ: تُؤتَى الجمعةُ من فرسخينِ، قالهُ النخعيُّ وإسحاقُ، نقله عنه حربٌ.

لكنهما لم يصرِّحا بوجوبِ ذلكَ، وقد تقدَّم نحوُه عن غيرِ واحدٍ.

وخرجَ حربٌ من طريقِ ابنِ أبي عروبةَ، عن قتادةَ، عن أنسٍ، أنه كانَ يجمعُ من الزاويةِ، وهي فرسخانِ.

وروى عبدُ الرزاقِ[٢]، عن معمرٍ، عن ثابتٍ، عن أنسٍ، أنه كانَ يكونُ بينَهُ وبين البصرةِ ثلاثةُ أميالٍ، فيشهدُ الجمعةَ بالبصرةِ.

وقد ذكرَ البخاريُّ عنهُ أنه كانَ أحيانًا لا يجمعُ.

وكذلكَ رُويَ عن أبي هريرةَ، أنه كانَ بالشجرةِ ـ وهي ذو الحليفةِ ـ، فكانَ أحيانًا يجمعُ، وأحيانًا لا يجمعُ.

وقد رويَ عنه الأمرانِ جميعًا.

وكذلكَ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ، كانَ في قصرِه بالعقيقِ، فكانَ أحيانًا يجمعُ، وأحيانًا لا يجمعُ، وكان بينهُ وبينَ المدينةِ سبعةُ أميالٍ أو ثمانيةٌ.

---

(١) «الجامع» (٥٠١).

(٢) «المصنف» (٣/١٦٣).

وكذلك رويَ عن عائشةَ بنتِ سعدٍ، أنَّ أباها كانَ يفعلُ[1] .[2]

* * *

[قال البخاري][3] : بَابُ: المشي إلى الجُمُعةِ :

وقولِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:٩]. ومَنْ قالَ: السَّعيُ العملُ والذَّهابُ؛ لقولِهِ: ﴿وسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء:١٩].

وقالَ ابنُ عباسٍ: يحرمُ البيعُ حينئذٍ.

وقالَ عطاءٌ: تحرُمُ الصناعاتُ كلُّها.

وقالَ إبراهيمُ بنُ سعدٍ، عنِ الزهريِّ: إذا أذَّنَ المؤذِّنُ يومَ الجمعةِ وهوَ مسافرٌ، فعليهِ أن يشهدَ.

اشتملَ كلامُه ـ هاهنا ـ على مسائلَ :

إحداَها: المشيُ إلى الجمعة، وله فضلٌ.

وفي حديثِ أوسِ بنِ أوسٍ، عن النبيِّ ﷺ: «**من بكَّر وابتكرَ، وغسَّل واغتسلَ، ومشَى ولم يركَبْ**»[4] . وقد سبقَ.

وفي حديثِ اختصامِ الملأ الأعلَى: «**إنهم يختصمونَ في الكفاراتِ والدرجاتِ، والكفاراتُ إسباغُ الوضوءِ في الكريهاتِ، والمشيُ على الأقدامِ إلى الجمُعاتِ**».

وقد خرجه الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ[5] من حديث معاذٍ.

---

(١) ابن أبي شيبة (١/ ٤٤٠).
(٢) «فتح الباري» (٥/ ٤٠٢ ـ ٤٠٨).
(٣) البخاري (٢/ ٩).
(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٩، ١٠، ١٠٤)، وأبو داود (١/ ٣٤٥)، والنسائي (٣/ ٩٥ ـ ٩٧)، والترمذي (٤٩٦)، وابن ماجه (١٠٨٧) وابن خزيمة (١٧٥٨).
(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٤٣)، والترمذي (٣٢٣٥).

وله طرقٌ كثيرةٌ، ذكرتُها مستوفاةً في «شرح الترمذيِّ».

وروى ابنُ أبي شيبة[١] بإسنادٍ فيه انقطاعٌ، أن عبدَ اللَّهِ بنَ رواحةَ كان يأتي الجمعةَ ماشيًا، فإذا رجعَ رجعَ كيف شاءَ ماشيًا، وإن شاء راكبًا.

وفي روايةٍ: وكان بين منزِله وبين الجمعةِ ميلانِ.

وعن أبي هريرةَ، أنه كان يأتي الجمعةَ من ذي الحليفة ماشيًا[٢].

وذكر ابنُ سعدٍ في «طبقاته»[٣] بإسناده، عن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، أنه كتب ينهَى أن يركبَ أحدٌ إلى الجمعةِ والعيدينِ.

وقال النخعيُّ: لا يُركبُ إلى الجمعةِ.

المسألةُ الثانيةُ: أنه يستحبُّ المشيُ بالسكينةِ مع مقاربةِ الخُطَا، كما في سائرِ الصلواتِ، على ما سبق ذكرُه في موضعه.

فأما قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [الجمعة:٩]، فقد حملَه قومٌ من المتقدمين على ظاهره، وأنكرَ ذلك عليهم الصحابةُ.

فروى البيهقيُّ[٤] من حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ الصامتِ، قال: خرجتُ إلى المسجدِ يومَ الجمعةِ، فلقيتُ أبا ذرٍّ، فبينا أنا أمشي إذ سمعتُ النداءَ، فرفعتُ في المشي؛ لقولِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾، فجذبني جذبةً كدت أن ألاقيَه، ثم قال: أو لسْنَا في سعي؟

---

(١) «المصنف» (١/ ٤٦٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٤٦٧).

(٣) «الطبقات» (٥/ ٣٦٧).

(٤) السنن للبيهقي (٣/ ٢٢٧).

فقد أنكرَ أبو ذرٍّ مَن فسر السعي بشدةِ الجري والعدْوِ، وبينَ أنَّ المشيَ إليها سعيٌ؛ لأنه عمل، والعملُ يُسمَّى سعيًا، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:٤]، وقال: ﴿مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء:١٩] ومثلُ هذا كثيرٌ في القرآن.

وبهذا فسَّرَ السعيَ في هذه الآية التابعونَ فمن بعدَهم، منهم: عطاءٌ، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وقتادةُ، ومحمدُ بنُ كعبٍ، وزيدُ بنُ أسلمَ، ومالكٌ، والثوريُّ، والشافعيُّ وغيرُهم.

وروي عن ابنِ عباسٍ ـ أيضًا ـ من وجهٍ منقطع.

ومنهم مَن فسَّر السعيَ بالجري والمسابقةِ، لكنه حملَه على سعي القلوبِ والمقاصدِ والنياتِ دون الأقدامِ، هذا قولُ الحسنِ.

وجمع قتادةُ بين القولينِ ـ في روايةٍ ـ، فقال: السعيُ بالقلبِ والعملِ.

وكان عثمانُ وابنُ مسعودٍ وجماعةٌ من الصحابة يقرءونَها: «فامضُوا إلى ذكرِ اللَّهِ».

وقال النخعيُّ: لو قرأتُها ﴿فَاسْعَوْا﴾ لسعيتُ حتى يسقط ردائي.

ورُويَ هذا الكلامُ عن ابنِ مسعودٍ من وجهٍ منقطعٍ.

المسألةُ الثالثةُ: في تحريمِ البيعِ وغيرِه مما يشتغلُ به عن السعي بعدَ النداءِ.

وقد حُكي عن ابنِ عباسٍ تحريم البيعِ وغيرِه.

وروى القاضي إسماعيلُ في كتابه «أحكامِ القرآنِ» من رواية سليمانَ بنِ معاذٍ، عن سماكٍ، عن عكرمةَ، عن ابنِ عباسٍ، قال: لا يصلحُ البيعُ يومَ الجمعةِ حين ينادَى بالصلاةِ، فإذا قُضِيتِ الصلاةُ فاشترِ وبِعْ.

وبإسناده: عن ميمونِ بنِ مِهـرانَ، قالَ: كانَ بالمدينةِ إذا نوديَ بالصلاةِ من يومِ الجمعةِ نادَوْا: حرُمَ البيعُ، حرُمَ البيعُ.

وعن أيوبَ، قـالَ: لأهـلِ المدينةِ سـاعـةٌ، وذلك عـندَ خـروجِ الإمـامِ، يقولون: حرُم البيعُ، حرُم البيعُ.

وعن عمـرَ بنِ عبدِ الـعزيزِ، أنه كانَ يمنعُ الناسَ منَ الـبيعِ يومَ الجمـعةِ إذا نودِي بالصلاةِ.

وعن الحـسنِ وعطاءٍ والضحـاكِ: تحريمُ الـبيعِ إذا زالتِ الشـمسُ من يومِ الجمعةِ.

وعن الشعبيِّ، أنه محرَّمٌ، وكذا قالَ مكحولٌ.

وحكى إسحاقُ بنُ راهويه الإجماعَ على تحريمِ البيعِ بعدَ النداءِ.

وحكى القاضي إسماعيلُ، عمَّن لـم يسمِّه، أن البيعَ مكرُوهٌ، وأنه استدل بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [الجمعة:٩].

وردَّ عليه: بأن مَنْ فعل ما وجَب عليه وتركَ ما نُهِي عنه فهو خيرٌ له، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء:١٧١].

وحُكي القولُ بأن البيعَ مردودٌ عن القاسمِ بنِ محمدٍ وربيعةَ ومالكٍ.

ورواه ابنُ عيينةَ، عن عبدِ الكريمِ، عن مجاهدٍ أو غيرِه.

وهو مذهـبُ الليثِ والثوريِّ وإسـحاقَ وأحمـدَ وغيـرِهم من فقـهاءِ أهلِ الحديثِ.

وخالف فيه أبو حنيفةَ والشافعيُّ وأصحـابُهما وعبيدُ اللَّه العنبريُّ، وقالوا:

البيعُ غيرُ مردودٍ؛ لأن النهي عن البيع هنا ليس نهيًا عنه لذاته بل لوقته.

والأولون يقولون: النهي يقتضي فسادَ المنهيِّ عنه، سواءٌ كان لذاتِ المنهيِّ عنه أو لوقتِه، كالصومِ يوم العيدِ، والصلاةِ وقتَ النهيِ، فكذلك العقودُ.

وقال الثوريُّ ـ فيما إذا تصارفا ذهبًا بفضة وقبضا البعضَ، ثم دخل وقتُ النداءِ يوم الجمعةِ ـ: فإنهما يترادَّان البيعَ.

وهذا يدلُّ على أن القبضَ عنده شرطٌ لانعقادِ الصرفِ، فلا يتمُّ العقدُ إلا به، وهو الصحيحُ عند المحققينَ من أصحابنا ـ أيضًا.

وأما ما ذكره عن عطاء، أنه تحرُم الصناعاتُ حينئذٍ، فإنه يرجع إلى أنه إنَّما حرمَ البيعُ لأنه شاغلٌ عن السعي إلى ذكر اللَّه والصلاة، فكلُّ ما قطع عن ذلك فهو محرمٌ من صناعةٍ أو غيرِها، حتى الأكلُ والشربُ والنومُ والتحدثُ وغيرُ ذلك، وهذا قولُ الشافعيةِ وغيرهم ـ أيضًا.

لكن لأصحابنا في بطلانِ غيرِ البيعِ منَ العقودِ وجهانِ، فإنَّ وقوعها بعد النداءِ نادرٌ، بخلافِ البيعِ، فإنَّه غالبٌ، فلو لم يبطلْ لأدَّى إلى الاشتغالِ عنِ الجمعةَ بهِ، فتفوتُ الجمعةُ غالبًا.

وأكثرُ أصحابِنا حكَوُا الخلافَ في جوازِ ذلك، وفيه نظرٌ؛ فإنه إذا وجبَ السعيُ إلى الجمعةِ حرُمَ كل ما قطعَ عنْه.

وقد رُويَ عن زيدِ بنِ أسلمَ، قالَ: لم يأمرُهُمُ اللَّهُ أن يذرُوا شيئًا غيرَه، حرم البيع، ثم أذنَ لهم فيه إذا فرغُوا.

وهذا ضعيفٌ جدًّا؛ فإن البيعَ إنما خُصَّ بالذكرِ لأنَّه أكثرُ ما يقعُ حينئذٍ مما يُلهي عن السعي، فيشارِكُه في المعنى كلُّ شاغل.

واستدلَّ بعضُ أصحابنا على جوازِ غيرِ البيعِ منَ العقود بالصدقةِ، وقال: قد أمرَ بها النبي ﷺ وهو يخطبُ.

وهذا لا يصحُّ؛ فإن الصدقةَ قربةٌ وطاعةٌ، وإذا وقعتْ في المسجدِ حيثُ لا يُكره السؤالُ فيه فلا وجْهَ لمنعها.

فإن ألحق بذلكَ عقدُ النكاحِ في المسجدِ قبلَ خروجِ الإمامِ كان متوجهًا، مع أن بعضَ أصحابِنا قد خصَّ الخلافَ بالنكاحِ، وهو ابنُ عقيلٍ.

وعن أحمدَ روايةٌ: إنه يحرم البيعُ بدخول وقتِ الوجوبِ، وهو زوالُ الشمسِ.

وقد سبقَ مثلُه عن الحسنِ، وعطاءٍ، والضحاكِ، وهو - أيضًا - قولُ مسروقٍ، ومسلمِ بنِ يسارٍ، والثوريِّ، وإسحاقَ.

وقياسُ قولهم: إنه يجبُ السعيُ بالزوال، ويحرمُ حينئذٍ كلُّ شاغلٍ يشغلُ عنه.

والجمهورُ: على أنه لا يحرُم بدونِ النداءِ.

ثم الأكثرونَ منهم على أنه النداءُ الثاني الذي بَين يدي الإمامِ؛ لأنه النداءُ الذي كان في عهد النبيِّ ﷺ، فلا ينصرفُ النداءُ عند إطلاقهِ إلا إليه.

وفي «صحيح الإسماعيليِّ» من حديثِ الزهريِّ، عن السائبِ بنِ يزيدَ، قال: كان النداءُ الذي ذكرَ اللَّهُ في القرآن يومَ الجمعةَ إذا خرجَ الإمامُ، وإذا قامتِ الصلاةُ في زمنِ النبيِّ ﷺ وأبي بكر وعمرَ.

وعن أحمدَ روايةٌ: أنه يحرمُ البيعُ ويجبُ السعيُ بالنداء الأولِ.

وهو قولُ مقاتلِ بنِ حيَّانَ، قالَ: وقد كانَ النداءُ الأولُ قبلَ زوالِ الشمسِ.

ونقله ابنُ منصورٍ، عن إسحاقَ بنِ راهويه صريحًا.

وعن أحمدَ، أنه قال: أخافُ أن يحرمَ البيعُ، وإن أذن قبل الوقت.

ومجردُ الشروعِ في الأذانِ يحرمُ به البيعُ عند أصحابِنَا والشافعيةِ؛ لأنه صارَ نداءً مشروعًا مسنونًا من سنةِ الخلفاءِ الراشدين.

قال أصحابُنا: ولو اقتصر عليه أجزأ، وسقطَ فرضُ الأذانِ.

وعند أصحابِ الشافعيِّ: يحرمُ البيعُ بمجردِ الشروعِ في النداءِ الثاني بين يديِ الإمامِ، إذا كانَ قاطعًا عن السعي، فأما إن فعلَه وهو ماشٍ في الطريقِ ولم يقفْ، أو هو قاعدٌ في المسجد كُره ولم يَحرمْ.

وهذا بعيدٌ، والتبايعُ في المسجدِ بعدَ الأذانِ يجتمعُ فيه نهيانِ؛ لزمانهِ ومكانه، فهو أولى بالتحريمِ.

المسألةُ الرابعةُ: حُكِيَ عن الزهريِّ: أن المسافرَ إذا سمعَ النداءَ للجمعةِ، فعليه أن يشهدَها، وقد سبقَ ذكرُ ذلكَ عنه، وعن النخعيِّ والأوزاعيِّ وعن عطاءٍ: أن عليه شهودَها، سمعَ الأذَانَ أو لم يسمعْه، وأن الجمهورَ على خلافِ ذلكَ.

وهل للمسافرِ أن يبيعَ ويشتريَ في المصرِ بعدَ سماعِ النداءِ؟ فيه اختلافٌ بينَ أصحابِنا، يرجعُ إلى أنَّ من سقطتْ عنه الجمعةُ لعذرٍ، كالمريضِ: هل له أن يبيع بعد النداءِ، أم لا؟ فيه روايتانِ عن أحمدَ.

وأما من ليس مِن أهلِ الجمعةِ بالكلِّية، كالمرأة، فلها البيعُ والشراءُ بغيرِ خلافٍ، وكذا العبدُ، إذا قلنا: لا يجبُ عليه الجمعةُ[1].

* * *

(١) «فتح الباري» (٥/ ٤٣٠ ـ ٤٣٦).

[قال البخاري](١): حدثنا آدمُ: ثنا ابنُ أبي ذئبٍ، عن الزُّهريِّ، عن السَّائبِ بنِ يزيدَ، قالَ: كانَ النِّداءُ يومَ الجمعةِ أوَّلُهُ إذَا جلسَ الإمامُ على المنبرِ، علَى عهدِ رسُولِ اللَّهِ ﷺ وأبي بكرٍ وعُمرَ، فلمَّا كانَ عُثمانُ، وكثرُ النَّاسُ، زاد النِّداءَ الثَّالثَ على الزوراءِ.

قالَ أبو عبدِ اللَّهِ: الزَّوراءُ: موضعٌ بالسُّوقِ بالمدينةِ.

الأذانُ يومَ الجمعةِ قد ذكرَه اللَّهُ تعالَى في كتابه، في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:٩]، وقد ذهب طائفةٌ من العلماء إلى وجوبهِ، وإنْ قيل: إن الأذان سنةٌ، وهو الذي ذكره ابنُ أبي موسى من أصحابِنا، وقاله طائفةٌ من الشافعيةِ ـ أيضًا.

وقد دلَّ الحديثُ على أن الأذانَ الذي كان علـى عهدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ وأبي بكرٍ وعمرَ هو النداءُ الذي بين يديِ الإمامِ عند جلوسهِ على المنبرِ، وهذا لا اختلافَ فيه بين العلماءِ.

ولهذا قال أكثرُهم: إنه هو الأذانُ الذي يَمنع البيعَ، ويوجبُ السعيَ إلى الجمعة، حيث لم يكن على عهدِ النبيِّ ﷺ سواه.

وما ذكره ابنُ عبد البرِّ عن طائفةٍ من أصحابِهم، أن هذا الأذانَ الذي يمنع البيعَ لم يكن على عهدِ النبي ﷺ وإنما أحدثه هشامُ بنُ عبدِ الملك، فقد بيَّن ابنُ عبدِ البرِّ أن هذا جهلٌ من قائلهِ؛ لعدم معرفته بالسنةِ والآثارِ.

فإن قال هذا الجاهلُ: إنه لم يكنْ أذانٌ بالكلِّية في الجمعة، فقد باهتَ، ويكذِّبهُ قولُ اللَّه عزَّ وجلَّ ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا﴾ [الجمعة:٩].

---

(١) البخاري (٢/ ١٠).

وإنْ زعمَ أن الأذانَ الذي كـان في عـهـد النبيِّ ﷺ وأبي بكرٍ وعـمرَ هو الأذانُ الأولُ الذي قـبلَ خـروجِ الإمامِ، فـقـد أبطلَ، ويكذِّبُه هذا الحـديثُ واجتماعُ العلماءِ على ذلكَ.

وقولُه في هذه الرواية: «أولُه إذا جلسَ الإمـامُ على المنبرِ»، معناه: أن هذا الأذانَ كانَ هو الأولَ، ثـم تليه الإقـامةُ، وتسُمَّـى: أذانًا، كما فـي الحديثِ المشهورِ: «**بين كلِّ أذانين صلاةٌ**»(١).

وخرجه النسائيُّ(٢) من روايةِ المعتمرِ، عن أبيه، عن الزهريِّ، ولفظُه: كان بلالٌ يؤذن إذا جلسَ رسولُ اللَّهِ ﷺ على المنبرِ يومَ الجمعةِ، فإذا نزلَ أقامَ، ثم كان كذلك في زمنِ أبي بكرٍ وعـمرَ، فلما زاد عثمـانُ النداءَ الثالثَ صار هذا الثالثُ هو الأولَ، وصار الذي بين يدي الإمامِ هو الثاني.

وقد خرج أبو داود(٣) هذا الحديثَ من طريق ابن إسـحاقَ، عنِ الزهريِّ، عن السائبِ، قال: كـان يؤذَّن بين يديْ رسولِ اللَّهِ ﷺ إذا جلسَ على المنبرِ يومَ الجمعةِ على بابِ المسجدِ، وأبي بكرٍ وعمرَ.

فـفي هذه الروايةِ: زيادةٌ: أنَّ هذا الأذانَ لـم يكنْ في نفسِ المسـجـدِ، بل على بابِه، بحيث يسمعه مَنْ كان في المسجـدِ ومَن كان خارجَ المسجدِ، ليترك أهلُ الأسواقِ البيعَ ويسرعُوا إلى السعي إلى المسجدِ.

وقولُه: «فلما كان عثمـانُ» ـ يريد: لما وليَ عثمان ـ «وكثر الناسُ في زمنه زادَ النداءَ الثـالثَ على الزوراءِ»، وسـمَّـاه: ثالثًـا؛ لأنَّ به صـارتِ النداءات

---

(١) البخاري (١/ ١٦١)، ومسلم (٢/ ٢١٢).

(٢) النسائي (٣/ ١٠١).

(٣) أبو داود (١٠٨٨)، (١٠٨٩).

للجمعةِ ثلاثةً، وإنْ كان هو أوَّلها وقوعًا.

وخرَّجه ابن ماجه(١)، وعنده ـ بعد قوله: «على دارٍ في السوقِ، يقال لها: الزوراءُ» ـ: «فإذا خرجَ أذَّنَ، وإذا نَزلَ أقامَ».

وهو من روايةِ ابنِ إسحاقَ، عن الزهريِّ.

وروى الزهريُّ، عن ابنِ المسيبِ: معنَى حديثِـهِ عن السائبِ بن يزيدَ، غيرَ أنه قال: «فلمَّـا كان عثـمانُ كثـرَ الناسُ، فزاد الأذانَ الأولَ، وأرادَ أن يتهـيأ الناسُ للجمعةِ».

خرجه عبدُ الرزَّاقِ في «كتابه»(٢) عن معمرٍ، عنه.

وقد رواه إسماعيلُ بنُ يحيى الـتميميُّ ـ وهو ضعيفٌ جدًّا ـ، عن مِسعَرٍ، عن القاسمِ، عن ابن المسيبِ، عن أبي أيوبَ الأنصاريِّ، قال: ما كان الأذانُ على عهدِ النبيِّ ﷺ يوم الجمعة إلا قُدَّامَ النبيِّ ﷺ، وهو على المنبرِ، فإذا نزلَ أقامُوا الصلاةَ، فلما ولي عثمانُ أُمرَ أن يؤذَّن على المنارَة ليُسمعَ الناسَ.

خرجه الإسماعيليُّ في مسند مسعرٍ، وقال في القاسمِ: هو مجهولٌ.

قلت: والصحيحُ المرسلُ.

وقد أنكـر عطاءٌ الأذانَ الأولَ، وقال: إنما زادَه الحـجاجُ. قال: وإنمـا كانَ عثمانُ يدعو الناسَ دعاءً.

خرجه عبد الرزاقِ(٢).

---

(١) «السنن» (١١٣٥).

(٢) «المصنف» (٣/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

وقال عمرُو بنُ دينارٍ: إنما زادَ عثمانُ الأذانَ بالمدينةِ، وأما مكةُ فأوَّلُ من زادَه الحجاجُ. قال: ورأيت ابنَ الزبيرِ لا يؤذَّن له حتى يجلسَ على المنبرِ، ولا يؤذَّن له إلا أذانٌ واحدٌ يوم الجمعة.

خرجه عبد الرزَّاقِ - أيضًا[1].

وروى مصعبُ بن سلامٍ، عن هشامِ بنِ الغازِ، عن نافعٍ، عن ابن عمرَ، قال: إنما كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا قعدَ على المنبرِ أذنَ بلالٌ، فإذا فرغَ النبيُّ ﷺ من خطبتهِ أقام الصلاةَ، والأذانُ الأولُ بدعةٌ[2].

وروى وكيعٌ في «كتابه»[3] عن هشامِ بنِ الغازِ، قال: سألتُ نافعًا عن الأذانِ يومِ الجمعةِ؟ فقال: قال ابنُ عمرَ: بدعةٌ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ، وإن رآه الناسُ حسنًا.

وقال عبدُ الرحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلمَ: لم يكن في زمانِ النبيِّ ﷺ إلا أذانَانِ: أذانٌ حين يجلسُ على المنبرِ، وأذانٌ حين تُقامُ الصلاةُ. قال: وهذا الأخيرُ شيءٌ أحدثه الناسُ بعدُ.

خرجهُ ابنُ أبي حاتمٍ.

وقال سفيانُ الثوريُّ: لا يُؤَذَّن للجمعةِ حتى تزولَ الشمسُ، وإذا أذنَ المؤذِّن قام الإمامُ على المنبرِ فخطبَ، وإذا نزل أقامَ الصلاةَ. قال: والأذان الذي كان على عهدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ وأبي بكرٍ وعمرَ أذانٌ وإقامةٌ، وهذا الأذانُ الذي

---

(١) «المصنف» (٣/ ٢٠٦).

(٢) الجملة الأخيرة عند ابن أبي شيبة (١/ ٤٧٠) من طريق شبابة عن هشام.

(٣) وعنه ابن أبي شيبة (١/ ٤٧٠).

زادوه محدَثٌ.

وقال الشافعيُّ ـ فيما حكاه ابنُ عبدِ البرِّ ـ: أحبُّ إليَّ أن يكون الأذانُ يومَ الجمعةِ حين يجلسُ الإمامُ على المنبرِ بينَ يديه، فإذا قعد أخذَ المؤذنُ في الأذانِ، فإذا فرغَ قام فخطبَ. قال: وكان عطاءٌ ينكرُ أن يكونَ عثمانُ أحدثَ الأذانَ الثاني، وقالَ: إنما أحدثَه معاويةُ.

قال الشافعيُّ: وأيُّهما كانَ، فالأذانُ الذي كان على عهد النبيِّ ﷺ، وهو الذي يُنَهى الناسُ عنده عن البيع.

ولأصحابِهِ في أذانِ الجمعةِ ـ على قولِهم: الأذانُ سنةٌ ـ وجهانِ:

أحدُهما: أنه سنةٌ ـ أيضًا.

والثاني: أنه للجمعةِ خاصةً فرضُ كفايةٍ.

فعلى هذا: هل تسقطُ الكفايةُ بالأذانِ الأولِ، أوْ لا تسقطُ إلا بالأذان بين يديِ الإمامِ؟ على وجهينِ ـ أيضًا.

ومنْ أصحابِنا من قالَ: يسقط الفرضُ بالأذانِ الأولِ، وفيه نظرٌ والله أعلم.

وقال القاضِي أبو يعلَى: المستحبُّ أن لا يؤذَّن إلا أذانٌ واحدٌ، وهو بعد جلوسِ الإمامِ على المنبرِ، فإن أذَّنَ لها بعدَ الزَّوالِ وقبلَ جلوسِ الإمامِ جازَ، ولم يُكْرَه.

ثم ذكرَ حديثَ السائبِ بنِ يزيدَ هذا.

ونقلَ حربٌ، عن إسحاقَ بنِ راهَويه: أن الأذانَ الأولَ للجمعةِ محدثٌ، أحدثه عثمانُ، رأى أنه لا يسمعُه إلا أن يزيدَ في المؤذنين، ليُعلمِ الأبعدِين

ذلك، فصار سنةً: لأن على الخلفاء النظرَ في مثل ذلك للناسِ.

وهذا يفهم منه أن ذلك راجعٌ إلى رأي الإمام، فإن احتاج إليه لكثرةِ الناس فعلَه، وإلا فلا حاجةَ إليه[(١)] .

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾

[قال البخاري][(٢)] : بابُ الخُطبةِ قائمًا :

وقالَ أنسٌ: بينَا النَّبيُّ ﷺ يخطبُ قائمًا.

حديثُ أنسٍ، هو الذي فيه ذكرُ الاستسقاءِ في الجمعةِ، وسيأتي ـ إن شاء اللَّهُ سبحانه وتعالى ـ فيما بعد[(٣)] .

حدثنا عُبيدُ اللَّهِ بنُ عمرَ القواريريُّ: نَا خالدُ بنُ الحارثِ: نَا عُبيدُ اللَّهِ بنُ عمرَ، عنْ نافعٍ، عن ابنِ عمرَ، قالَ: كانَ النَّبيُّ ﷺ يخطبُ قائمًا، ثمَّ يقعدُ، ثُمَّ يقومُ كمَا يفعلُونَ الآنَ[(٤)] .

وفي الخطبةِ قائمًا أحاديثُ أُخَر.

وخرج مسلمٌ[(٥)] من حديثِ سماكٍ، عن جابرِ بنِ سمُرةَ، قال: كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يخطبُ قائمًا، ثم يجلسُ، ثم يقومُ فيخطبُ قائمًا، فمن نبَّأكَ أنه

---

(١) «فتح الباري» (٥/ ٤٤٩ ـ ٤٥٣).

(٢) البخاري (٢/ ١٢).

(٣) البخاري (٢/ ٣٤).

(٤) البخاري (٢/ ١٢).

(٥) (٣/ ٩).

كان يخطبُ جالسًا فقد كذبَ، فقد ـ واللَّهِ ـ صليتُ معهُ أكثرَ من ألفَي صلاةٍ.

وخرَّج مسلمٌ[1] بإسنادِه من حديثِ كعبِ بنِ عجرةَ، أنه دخلَ المسجدَ وعبدُ الرحمنِ بنُ أمِّ الحكمِ يخطبُ قاعدًا، فقالَ: انظرُوا الخبيثَ، يخطبُ قاعدًا، وقد قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة:١١].

وخرجَ ابنُ ماجه[2] من حديثِ إبراهيمَ، عن علقمةَ، عن ابنِ مسعودٍ، أنه سُئلَ: أكانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يخطبُ قائمًا أو قاعدًا؟ قال: أمَا تقرأُ: ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة:١١]؟

وهذا إسنادٌ جيدٌ.

لكن رُوي، عن إبراهيمَ، عن علقمةَ من قولِه. وعن إبراهيمَ، عن عبدِ اللَّه منقطعًا.

واستدلَّ بهذه الآيةِ على القيامِ في الخطبة جماعةٌ، منهم: ابنُ سيرينَ، وأبو عبيدةَ بن عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ.

وإنما احتاجوا إلى السؤالِ عن ذلك؛ لأنه كان في زمن بني أميةَ من يخطبُ جالسًا، وقد قيلَ: إن أولَ منَ جلسَ معاويةُ ـ: قاله الشعبيُّ والحسنُ وطاوسٌ.

وقال طاوسٌ: الجلوسُ على المنبرِ يومَ الجمعةِ بدعةٌ.

(١) (٣/ ١٠).
(٢) «السنن» (١١٠٨).

وقال الحسنُ: كان النبيُّ ﷺ وأبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ يخطبون قيامًا، ثم إن عثمانَ لما رقَّ وكبرَ كان يخطبُ، فيدركُه ما يدركُ الكبيرَ فيستريحُ ولا يتكلَّمُ، ثم يقومُ فيتمُّ خطبتَه.

خرجه القاضي إسماعيلُ.

وخرج ـ أيضًا ـ من رواية ابنِ جـريجٍ، عن عطاءٍ، أنه قال: أولُ من جعلَ في الخُطْبةِ جلوسًا عثمانُ، حين كبرَ وأخذته الرعدةُ جلس هنيَّةً. قيل له: هل كان يخطبُ عمرُ إذا جلسَ؟ قال: لا أدري.

وقد روي عن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، أنه كان يخطبُ الخطبةَ الأولَى جالسًا، ويقوم في الثانيةِ.

خرجه ابنُ سعدٍ[1].

والظنُّ به أنه لم تبلغهُ السنةُ في ذلك، ولو بلغتْه كان أتبع الناسِ لها.

وقد قيل: إن ذلكَ لم يصحَّ عنه؛ فإن الأثرمَ حكَى: أن الهـيثمَ بنَ خارجةَ قال لأحـمدَ: كان عمـرُ بنُ عبدِ العـزيزِ يجلسُ في خطبته؟ قـال: فظهر منه إنكارٌ لذلك.

وروايةُ ابنِ سعدٍ له عن الواقديِّ، وهو لا يعتمدُ.

وقد رُوي عن ابنِ الزبيرِ ـ أيضًا ـ الجلوسُ في الخطبةِ الأولى ـ أيضًا.

خرَّجه القاضي إسماعيلُ.

واختلف العلماءُ في الخُطبةِ جالسًا: فمنهم مَن قالَ: لا يصحُّ، وهو قولُ

---

(١) «الطبقات» (٥/ ٢٦٦).

الشافعيِّ، وحكى روايته عن مالكٍ وأحمدَ.

وقال ابنُ عبدِ البرِّ: أجمعُوا على أن الخطبةَ لا تكونُ إلا قائمًا لمن قدرَ على القيامِ.

ولعلَّه أراد إجماعــهم على استحبابِ ذلك؛ فإن الأكـثرينَ على أنها تصحُّ من الجــالسِ، مع القدرةِ علــى القيــامِ، مع الكراهةِ. وهو قــولُ أبي حنيفــةَ ومالكٍ، والمشهورُ عن أحمدَ، وعليه أصحابُه، وقولُ إسحاقَ - أيضًا[1] .

* * *

[قال البخاري][2]: حدثنا معاويةُ بنُ عــمرٍو: ثنَا زائدةُ، عن حصينٍ، عن سالمِ بنِ أبي الجعدِ: ثنا جابرُ بنُ عــبدِ اللَّهِ، قالَ: بينمَا نحنُ نُصلِّي معَ النبيِّ ﷺ إذْ أقبلتْ عيرٌ تحملُ طعامًا، فالتــفتُوا إليهَا حتَّى ما بقِي مع النبيِّ ﷺ إلا اثنا عشرَ رجلاً، فنزلتْ هذه الآيةُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١].

وخرجه في «التــفسير»[3] ، عن حــفصِ بنِ عــمــرَ، قــال: ثنا خــالدُ بنُ عبدِ اللَّهِ: أبنَا حصينٌ، عن سالمِ بنِ أبي الجعــدِ - وعن أبي سفيانَ، عن جابرِ ابنِ عبدِ اللَّهِ - فذكرَه بمعناه.

وفي هذه الروايةِ: متابعةُ أبي سفيــانَ لسالمِ بنِ أبي الجعدِ على روايته عن جابرٍ، وإنما خرَّج لأبي سفيان متابعةً.

وقد خرَّجه مسلمٌ[4] بالوجهين - أيضًا.

---

(١) «فتح الباري» (٥/ ٤٧٢ - ٤٧٤).
(٢) البخاري (٢/ ١٦).
(٣) البخاري (٦/ ١٨٩).
(٤) (٣/ ١٠).

وفي أكثرِ رواياتِه: أن النبيَّ ﷺ كانَ يخطبُ يومَ الجمعَة.

وفي روايةٍ له: أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يخطبُ قائمًا يومَ الجمُعَة - فذكرَه بمعناه.

وفي روايةٍ له: فلم يبقَ إلا اثنا عشرَ رجلاً، أنا فيهم.

وفي روايةٍ له - أيضًا -: فيهم أبو بكرٍ وعمرُ - رضي الله عنهما.

وقولُه في الروايةِ التي خرَّجها البخاريُّ: «بيْنَا نحنُ نصلِّي معَ النبيِّ ﷺ» لم يرِدْ به أنهمُ انفضُّوا عنه في نفسِ الصلاةِ، إنما أرادَ - واللَّهُ أعلمُ - أنهم كانوا مجتمعينَ للصلاةِ، فانفضُّوا وتركُوه.

ويدلُّ عليه: حديثُ كعبِ بنِ عجرة[١]، لما قال: انظُروا إلى هذا الخبيثِ يخطبُ قاعِدًا، وقد قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿**انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا**﴾ [الجمعة:١١].

وكذلك استدلالُ ابنِ مسعودٍ وخلقٍ من التابعينَ بالآيةِ على القيامِ في الخطبةِ.

وروى عليُّ بنُ عاصمٍ هذا الحديثَ عن حصينٍ، فقال فيه: فلم يبقَ معه إلا أربعونَ رجلاً، أنا فِيهِمْ.

خرَّجه الدارقطنيُّ والبيهقيُّ[٢].

وعليُّ بنُ عاصمٍ، ليس بالحافظِ، فلا يُقبلُ تفردُه بما يخالفُ الثقاتِ.

وقد استدلَّ البخاريُّ وخلقٌ من العلماءِ على أن الناسَ إذا نَفروا عن الإمامِ وهو يخطبُ للجمعَةِ، وصلَّى الجمُعَةَ بمن بَقي، جازَ ذلك، وصحَّت جمعتُهم.

---

(١) أخرجه: مسلم (٣/ ١٠)؛ وتقدّم قريبًا.

(٢) الدار قطني (٢/ ١٤)، البيهقي (٣/ ١٨٢).

وهذا يرجع إلى أصلٍ مختلَفٍ فيه، وهو: العددُ الذي تنعقدُ به الجمعةُ، وقد اختُلِفَ في ذلك:

فقالت طائفةٌ: لا تنعقدُ الجمعةُ بدونِ أربعينَ رجلاً، رُوي ذلك عن عُبيدِ اللَّهِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ عتبةَ وعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، وهو قولُ الشافعيِّ وأحمدَ - في المشهورِ عنه - وإسحاقَ، وروايةٌ عن مالكٍ.

وقالتْ طائفةٌ: تنعقد بخمسينَ، رُويَ عن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ - أيضًا - وهو روايةٌ عن أحمدَ.

وقالت طائفةٌ تنعقد بثلاثةٍ، منهم: ابنُ المباركِ والأوزاعيُّ والثوريُّ، وأبو ثورٍ، ورُوي عن أبي يوسفَ، وحُكيَ روايةً عن أحمدَ.

وقالت طائفةٌ: تنعقد بأربعةٍ، وهو قولُ أبي حنيفة وصاحبَيه - في المشهور عنهما - والأوزاعيِّ ومالكٍ والثوريِّ - في رواية عنهما - والليثِ بنِ سعدٍ.

وحُكي قولاً قديمًا للشافعيِّ، ومنهم مَن حكاه أنها تنعقدُ بثلاثةٍ.

وقالت طائفةٌ: يعتبر أربعونَ في الأمصارِ وثلاثةٌ في القرى، وحُكيَ روايةً عن أحمدَ، صحَّحَها بعضُ المتأخرينَ مِن أصحابهِ.

وقالت طائفةٌ: تنعقدُ بسبعةٍ، وحُكيَ عن عكرمةَ، وروايةً عن أحمدَ.

وقالت طائفةٌ: تنعقدُ باثني عشرَ رجلاً، حُكيَ عن ربيعةَ.

وقد قالَ الزهريُّ: إن مصعبَ بنَ عميرٍ أولُ ما جمَّعَ بهم بالمدينةِ كانوا اثني عشرَ رجلاً[1].

---

(١) «المراسيل» لأبي داود (٥٣).

وتعلَّق بعضُهَم لهذا الحديثِ بحديثِ جابرٍ المخرجِ في هذا البابِ.

وقال طائفةٌ: تنعقدُ الجمُعةُ بما تـنعقدُ به الجماعةُ، وهو رجلانِ، وهو قولُ الحسنِ بنِ صالحٍ وأبي ثورٍ - في روايةٍ - وداودَ، وحُكيَ عن مكحولٍ.

وتعلَّق القائلـونَ بالأربعينَ بحديثِ كعبِ بنِ مـالكٍ، أنَّ أولَ جمُعـةٍ جمَّع بهم أسعدُ بنُ زرارةَ، كانوا أربعينَ، وقد سبقَ ذكرُه في أولِ «كتابِ الجمُعةِ».

وقد ذكرَ القاضي أبـو يعلَى وغيرُه وجهَ الاستدلالِ به: أنَّ الجـمُعةَ فُرضت بمكةَ، وكان بالمدينةِ من المسلمينَ أربعةٌ وأكثـرُ ممَّن هاجر إليها وممَّن أسلم بها، ثم لم يصلُّوا كذلك حتى كملَ العددُ أربعينَ، فدلَّ على أنها لا تجبُ على أقل منهم، ولم يُثبتْ أبو بكرٍ الخلالُ خلافَه عن أحمد في اشتراطِ الأربعينَ.

قال: وإنما يُحْكَى عن غيرِه، أنه قال بثلاثةٍ، وبأربعةٍ، وبسبعةٍ، ولم يذهبْ إلى شيءٍ من ذلك، وهذا الذي قاله الخلالُ هوَ الأظهرُ. واللَّهُ أعلمُ.

وفي عددِ الجـمُعـةِ أحاديثُ مـرفوعـةٌ، لا يصحُّ فيـها شيءٌ، فلا مـعنى لذكرِها.

وإذا تقرَّر هذا الأصلُ، فـمَن قالَ: إن الجمُعـةَ تنعقدُ باثني عشـرَ رجلاً أو بدونِهم، فلا إشكالَ عنده في معنى حديـثِ جابرٍ؛ فإنه يحملُه على أن النبيَّ ﷺ صلَّى الجمُعَةَ بمَن بقي معَه، وصحتْ جمعتُهم.

ومَن قال: لا تصحُّ الجمعةُ بدون أربعينَ، فإنه يشكلُ عليه حديثُ جابرٍ.

وقد أجـاب بعضُهم: بـأن الصحيحَ أنهم انفـضُّوا وهو في الخطبـةِ. قال: فيحتملُ أنهم رجعُـوا قبلَ الصلاةِ، أو رجعَ مَن تمَّ به الأربعونَ، فجمَّع بهم. قال: والظاهرُ أنهم انفضُّوا ابتداءً سـوى اثني عشرَ رجلاً، ثم رجعَ منهم تمامُ

أربعينَ، فجمَّع بهم، وبذلك يُجمعُ بين روايةِ عليٍّ بنِ عاصمٍ وسائرِ الروايات.

وهذا الذي قاله بعيدٌ، وروايةُ عليٍّ بنِ عاصمٍ غلطٌ محضٌ، لا يُلتفتُ إليها.

وسلكَ طائفةٌ مسلكًا آخرَ، وظاهرُ كلامِ البخاريِّ هاهنا وتبويبه يدلُّ عليه، وهو: أن انفضاضهم عن النبيِّ ﷺ كان في نفسِ الصلاةِ، وكان قد افتتحَ بهم الجمُعةَ بالعددِ المعتبرِ، ثم تفرَّقوا في أثناءِ الصلاةِ، فأتمَّ بهم صلاةَ الجمُعةِ؛ فإنَّ الاستدامَةَ يغتفرُ فيها ما لا يُغتفرُ في الابتداءِ.

وهذا قولُ جماعةٍ منَ العلماءِ، منهم: أبو حنيفةَ وأصحابهُ والثوريُّ ومالكٌ والشافعيُّ - في القديم - وإسحاقُ، وهو وجهٌ لأصحابِنا.

وعلى هذا؛ فمنهم مَن اعتبرَ أن يبقى معه واحدٌ فأكثرُ؛ لأن أصلَ الجماعةِ تنعقدُ بذلك، ومنهم مَن شرطَ أن يبقى معه اثنانِ، وهو قولُ الثوريِّ وابن المباركِ، وحُكيَ قولاً للشافعيِّ.

وقال إسحاقُ: إن بَقيَ معه اثنا عشرَ رجلاً جَمَّع بهم وإلا فلا؛ لظاهر حديثِ جابرٍ.

وهو وجهٌ لأصحابِنا.

ولأصحابِنا وجهٌ أخرُ: يتمُّها الإمامُ جمُعةً، ولو بقيَ وحدَه.

وهذا بعيدٌ جدًا.

وفرَّق مالكٌ بينَ أن يكون انفضاضُهم قبلَ تمامِ ركعةٍ فلا تصحُّ جمُعتُهم ويصلُّون ظهرًا، وبينَ أن يكونَ بعد تمامِ ركعةٍ فيتمُّونَها جمعةً.

ووافقَه المُزَنيُّ، وهو وجهٌ لأصحابِنا.

وقالَ أبو حنيفةَ: إنِ انفَضُّوا قبلَ أن يسجدَ في الأولى فلا جمُعةَ لهم، وإنْ كان قد سجَدَ فيها سجدةً أتمُّوها جمعةً.

وقال صاحباه: بل يتمونَها جمعةً بكلِّ حالٍ، ولو انفضُّوا عقبَ تكبيرةِ الإحرامِ.

ومذهبُ الشافعيِّ ـ في الجديد ـ وأحمدَ والحسنِ بنِ زيادٍ: أنه لا جمعة لهم، حتى يكملَ العددُ في مجموعِ الصلاةِ.

قال أبو بكرٍ عبدُ العزيزِ بنُ جعفرٍ: لم يختلفْ قولُ أحمدَ في ذلك.

وقد وجدتُ جوابًا آخرَ عن حديثِ جابرٍ، وهو: أن النبيَّ ﷺ كانَ قد صلَّى بأصحابه الجمُعةَ، ثم خطبَهم فانفضُّوا عنه في خطبِته بعدَ صلاةِ الجمُعةِ، ثم إنَّ النبيَّ ﷺ بعدَ ذلكَ قدَّم خطبَة الجمُعَة على صلاتِها.

فخرج أبو داودَ في «مراسيلِه»[1] بإسنادِه، عن مقاتلِ بنِ حيانَ، قال: كان رسولُ اللَّهِ ﷺ يصلِّي الجمُعَةَ قبل الخطبةِ مثلَ العيدِ، حتَّى إذا كان يومُ جمُعةٍ والنبيُّ ﷺ يخطبُ، وقد صلَّى الجمعةَ، فدخلَ رجلٌ، فقالَ: إن دِحيةَ بنَ خليفةَ قد قدمَ بتجارتِه ـ و كان دحيةُ إذا قدمَ تلقَّاه أهلُه بالدفافِ ـ، فخرجَ الناسُ، لم يظنُّوا إلا أنه ليس في تركِ الخطبةِ شيءٌ، فأنزل اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾ [الجمعة: ١١]، فقدَّمَ النبيُّ ﷺ الخطبةَ يومَ الجمُعةِ، وأخرَ الصلاةَ.

وهذا الجوابُ أحسنُ مما قبلَه.

---

(١) «المراسيل» (٦٢).

ومن ظنَّ بالصحابةِ أنهم تركوا صلاةَ الجمُعَةِ خلفَ النبيِّ ﷺ بعد دخولِهم معه فيهـا، ثم خرجُوا مِنَ المسجدِ حتى لم يبقَ معه إلا اثنا عـشرَ رجلاً، فقد أساءَ بهم الظنَّ، ولم يقعْ ذلك بحمدِ اللَّهِ تعالى(١) .

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾

[قال البخاري](٢): بابُ قولِ اللَّـهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [الجمعة:١٠] :

حدثنَا سعيدُ بنُ أبي مريمَ: ثنَا أبُو غسَّانَ: حدَّثنِي أبُو حازمٍ، عنْ سهلِ بنِ سعدٍ، قالَ: كـانتْ فينَا امرأةٌ تجعلُ على أربعاءَ فِي مزرعَـةٍ لهَا سلقًا، فكانتْ إذَا كانَ يومُ الجمُعَةِ تنزعُ أصولَ السِّلقِ، فتجعلُهُ فِي قدرٍ، ثمَّ تجعلُ عليه قبضةً مِن شعـيرٍ تطحنُـها، فتكونُ أصـولُ السِّلقِ عرقَـهُ، وكنَّا ننصـرفُ مِن صلاةِ الجمـعةِ فنسلِّمُ عليهَـا، فتُقرِّبُ ذلكَ الطـعامَ إلينَا، فنلعقُـهُ، فكنَّا نتمنَّى يومَ الجمُعَةِ لطعامِهَا ذلكَ.

حدثنـا عبدُ اللَّهِ بنُ مـسلمةَ: نَا ابنُ أبـي حازمٍ، عن أبيهِ، عنْ سـهلِ بنِ سعدٍ ـ بهذَا، وقالَ: مَا كُنَّا نقيلُ ولا نتغدَّى إلا بعدَ الجمعَةِ.

المقصودُ من هذا الحديثِ هاهنا: أن الصحابة لم يكونوا يجلسونَ بعدَ صلاةِ الجمعةِ في المسجدِ إلى العصـرِ لانتظارِ الصلاةِ ـ كما ورد في الحديث المرفوعِ أنه يعدلُ [عمرةً](٣) وقد خرَّجـه البيهقيُّ بإسنادٍ ضعيفٍ، وقـد سبقَ ذكرُه ـ

---

(١) «فتح الباري» (٥/ ٥٢٣ ـ ٥٢٨).   (٢) البخاري (٢/ ١٦).

(٣) مكانها في الأصـل طمس، والحديث عند البيـهقي (٣/ ٢٤١)، وكـذا عند ابن عدي (٦/ ٢٦٢) =

وإنما كانوا يخرُجون من المسجدِ ينتشرُون في الأرضِ، فمنهم مَن كان ينصرفُ لتجارةٍ، ومنهم مَن كان يزورُ أصحابَه وإخوانَه، وكانوا يجتمعُون على ضيافةِ هذه المرأةِ.

وقد ذهبَ بعضُهم إلى أنَّ الأمرَ بالانتشارِ بعدَ الصلاةِ للاستحبابِ.

كان عراكُ بنُ مالكٍ إذا خرجَ من المسجدِ يومَ الجمعةِ قالَ: اللهمَّ، أجبتُ دعوتَكَ، وقضيتُ فريضتَك، وانتشرتُ كما أمرتني، فارزقني من فضلكِ، وأنتَ خيرُ الرازقينَ.

خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ وغيرُه.

وهذا يدلُّ على أنه رأى قولَه تعالى: ﴿فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] أمرًا على ظاهرِه.

وخرجَ - أيضًا - بإسنادِه، عن عمرانَ بنِ قيسٍ، قال: من باعَ واشترَى يومَ الجمعةِ باركَ اللَّهُ له سبعينَ مرةً.

قال بعضُ رواتِه: وذلك بعدَ صلاةِ الجمُعَةِ؛ لهذه الآيةِ.

وذهبَ الأكثرونَ إلى أنه ليس بأمرٍ حقيقةً، وإنما هو إذنٌ وإباحةٌ، حيث كان بعدَ النهي عن البيعِ، فهوَ إطلاقٌ من محظورٍ، فيفيدُ الإباحةَ خاصةً.

وكذا قالَ عطاءٌ ومجاهدٌ والضحاكُ ومقاتلُ بنُ حيان وابنُ زيدٍ وغيرُهم.

وروى أبو بكرٍ عبدُ العزيزِ بنُ جعفرٍ في كتاب «الشافي» بإسنادٍ لا يصحُّ، عن أنسٍ - مرفوعًا - في قوله تعالى: ﴿فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾، قال: «ليسَ

= بلفظ: «أن لكم في كل جمعة حجة وعمرة: الحجة الهجير إلى الجمعة، والعمرة انتظار العصر بعد الجمعة».

بطلبِ دنيا، ولكن عيادةُ مريضٍ، وتشييعُ جنازةٍ، وزيارةُ أخٍ في اللَّه».

وفي حديث سهلٍ: دليلٌ على زيارةِ الرجالِ للمـرأةِ، وإجابتِهم لدعوتِها، وعلى استحبابِ الضيافَةِ يومَ الجمُعَةِ خصوصًا لفقراءِ المسلمينَ، فإطعامُ الفقراءِ فيه حسنٌ مُرغَّبٌ فيه.

وفيـه: أن فرحَ الفقيـرِ بوجودِ ما يأكلُ وتمنِّيـه لذلك غيرُ قادحٍ في فـقرِه، منافٍ لصَبْرِه، بل ولا لرضاه.

وفي الحديث ألفاظٌ تُستغرب:

فـ «الأربعَاء»: جداولُ الماءِ في الأرض، واحدُها: «ربيعٌ».

وقولُه: «فيكون أصولُ السِّلقِ عرقَهُ» ـ وفي روايةٍ: «عراقَهُ» ـ، وهو بالعين المهملةِ والقافِ، والعِرقُ والعِرَاقُ: اللحمُ.

والمعنَى: أن أصولَ السِّلقِ تصـيرُ في هذا الطعامِ كـاللحمِ لمَّا يطبخُ باللحمِ الأطعمةِ.

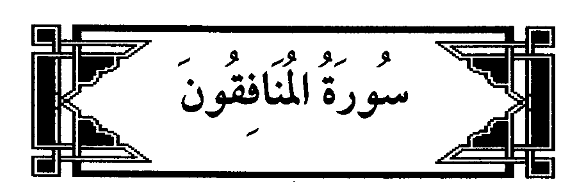
ورواه بعضُهم: «غرفـه» ـ بالغين المعجمة والفاء ـ، وفسـر بـ «المرقةِ» فإنها تُغرَفُ باليد.

وهذا بعيدٌ؛ فإن أصولَ السِّلقِ لا تصير بغرفٍ.

وقولُه: «فنلعقُه» أي: نلحسُه، وهذا يدلُّ على أنه كان قد ثَخنَ.

وقيل: الفـرقُ بين اللحسِ واللعْقِ: أن اللحسَ يختص بـالأصبَعِ، واللعقَ يكون بالأصبعِ وبآلةٍ يلعقُ بها كالمِلْعَقة[1].

(١) «فتح الباري» (٥/ ٥٤٥ ـ ٥٤٧).



سُورَةُ المُنَافِقُونَ

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾

وقد رُوي عن محمدِ بنِ كعبٍ القُرظيِّ أنَّه استنبطَ ما في هذا الحديثِ ـ أعني: حديثَ: «آيةُ المنافقِ ثلاثٌ» ـ من القرآنِ، فقالَ: مصداقُ ذلك في كتابِ اللَّهِ تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وقالَ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ إلى قولِه: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ ـ ٧٧]، وقالَ تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ إلى قولِه: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ [الأحزاب: ٧٢ ـ ٧٣].

ورُوي عن ابن مسعودٍ نحوُ هذا الكلامِ، ثُمَّ تلا قولَه تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الآية[1] [التوبة: ٧٧].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾

وقد وردَ في القرآنِ تشبيهُ المنافقينَ بالخُشُبِ المسندةِ فنظرهم فقالَ: ﴿وَإِذَا

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٤٦).

رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون: ٤].

فوصفَهُم بحسنِ الأجسامِ وتمامِهَا، وحسنِ المقامِ والفصاحةِ حتَّى وإعجاب به، ومع هذا فبواطِنُهم خرابٌ ومعائنُهم فارغةٌ. فلهذا مثَّلَهم بالخشبِ المسندةِ التي لا روحَ لها ولا إحساسَ وقلوبُهم مع هذا ضعيفةٌ في غايةِ الضعفِ.

﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ [المنافقون: ٤].

وهكذَا كلُّ مريبٍ يُظْهِرُ خلافَ ما يضمرُ يخافُ من أدْنى شيءٍ ويتحسَّرُ عليه.

وأما المؤمنونَ فبعكسِ هذه الصفاتِ حالُهم مستضعفونَ في ظاهرِ أجسامِهم وكلامِهم لأنَّهم اشتغلُوا بعمارةِ قلوبِهم وأرواحِهم عن عمارةِ أجسادِهم. وبواطنُهم قويةٌ ثابتةٌ عامرةٌ فيكابدونَ بها الأعمال الشاقة في طاعةِ اللَّهِ من الجهادِ والعباداتِ والعلومِ وغيرِها ممَّا لا يستطيعُ المنافقُ مكابدتَه لضعفِ قلبِهِ، لا يخافونَ من ظهورِ ما في قلوبِهم إلا خشيةَ الفتنةِ على نفوسِهم وإنَّ بواطِنَهُم خيرٌ من ظواهرِهم وسرَّهم أصلحُ من علانيتِهم.

قال سليمانُ التيميُّ: أتَانِي آتٍ فِي مَنَامِي فقالَ: يا سليمانُ إنَّ قُوتَ المؤمنِ في قَلْبِه». فالمؤمنُ لَمَّا اشتغلَ بعمارةِ قلبِهِ عن عمارةِ قالبِهِ استُضْعِفَ ظاهرُهُ وربما أُوذي، ولو علمَ الناسُ ما في قلبِه لما فعلُوا ذلكَ.

قال عليٌّ لأصحابه: «كونوا في النَّاسِ كَالنَحْلِ في الطَّيْرِ يستضعفُهَا ولوْ علمُوا مَا في جَوفهَا مَا فعلُوا». من قوةِ قلبِ المؤمنِ وثباتهِ على الإيمانِ.

فالإيمانُ الذي في قلبِهِ مَثَلُه كمثَلِ شجرةٍ طيبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماءِ فيعيشُ على الإيمانِ ويموتُ ويُبعثُ عليهِ، وإنَّما الرياحُ وهي بلايا

الدُّنيـا تقلِّبُ جسـمَهُ يمنةً ويسـرةً، وكـذلك قلبُـهُ لا تصِلُ إليـه الرياحُ لأنَّه محروسٌ بزبرِ الإيمانِ.

والكافرُ والمنافقُ والفاجـرُ بعكسِ ذلكَ: جسمُه قـويٌّ لا تقلبُّه رياحُ الدنيا، وأما قلبُـه فإنَّه ضعيفٌ تـلاعبُ به الأهواءُ المضلَّةُ فتقلبُـه يمنةً ويسرةً، فكذلكَ كانَ مَثَلُ قلبـهِ كشجرةٍ خبيثـةٍ اجتثتْ من فوقِ الأرضِ ما لهـا من قرارٍ، كَما شجرةُ الحنضلِ ونحوهِ مما ليسَ له أصلٌ ثابتٌ في الأرضِ.

وقال عليٌّ ﷺ في صـفةِ الهمجِ الرعاعِ: «أتـباعُ كلِّ ناعقٍ يميلونَ مَعَ كلِّ ريحٍ لمْ يستضيئُوا بنورِ العلْم ولم يلجأوا إلى رُكنٍ وثيقٍ»[1].

بهذا يظهرُ الجمعُ بين حديثِ تمثيل المؤُمنِ بالنَّخلةِ.

فإن التمثيلَ بالزرعِ لجسدِهِ لتوالى البلاءِ عليه.

والتمثيلُ بالنخلةِ لإيمانهِ وعملِهِ وقولِهِ.

يدلُّ عليـه قـولُه عـزَّ وجلَّ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

فجـعلها مثلاً لكـلمةِ الشهادتينِ التـي هي أصلُ الإسلامِ في قلبِ المؤمنِ، كثبوتِ أصلِ النخلةِ في الأرضِ، وارتفاعِ عـملِ المؤمنِ إلى السماءِ كـارتفاعِ النخلةِ، وتجددِ عملِ المؤمنِ كإتيانِ النخلةِ أكلَها كلَّ حينٍ.

وقـد رُوي عن أبي هريرة ﷺ: **«إنَّ المؤمنَ الضَّعيفَ قلبُهُ كزرعٍ والقـويَّ مثلُهُ كمثلِ النَّخلةِ»**. وخـرجه الـبزار وغـيـره. ولأن ثمـرةَ الزرعِ ـ وهو السنبلُ ـ

---

(١) جزء من حديث كميل بن زياد مع علي بن أبي طالب ﷺ.
أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٩، ٨٠).

يستضعفُ ويطمعُ فيه كلُّ أحدٍ لقربِ تناولِه فيطمعُ الآدمي في الأكلِ منهُ، وفي قَطْعِه وسرقتِه، والبهائمُ في رعيِه، والطيرُ في الأكلِ منهُ.

وكذلك المؤمنُ يُستضعفُ فيعاديه عمومُ النَّاسِ لأنَّ الإسلامَ بدأَ غريبًا ويعودُ غريبًا كما بدأَ فطوبَى للغرباءِ.

فعمومُ الخلقِ يستضعفُه ويستغربُه ويؤذيه لغربتِه بينَهم وأمَّا الكافرُ والمنافقُ أو الفاجرُ الذين كالصنوبرِ فإنَّه لا يُطمعُ فيه فلا الرياحُ تزعزعُ بدنَه ولا يُطمعُ في تناوله ثمرتِه لامتناعِها[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

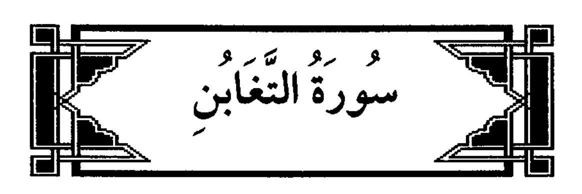
فكثرةُ العيالِ مما يوجبُ تعلقَ القلبِ بهم، فيُشغلُ ذلك عن محبَّته وخدمته للَّه، وقد قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [المنافقون: ٩].

قالَ أبو حازمٍ: كلُّ ما شغلَكَ عنِ اللَّهِ من مالٍ أو ولدٍ فهو عليك شؤم[2].

* * *

(١) «غاية النفع» (٢٥ ـ ٢٩).

(٢) «شرح حديث: إنَّ أغبط أوليائي» (ق ٣/ب).



سُورَةُ التَّغَابُنِ

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ [التغابن:١١]. قالَ علقمةُ: هي المصيبةُ تصيبُ الرَّجلَ، فيعلمُ أنَّها من عندِ اللَّهِ، فيسلِّمُ لها ويَرضَى.

وخرَّج الترمذيُّ من حديثِ أنسٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ اللَّهَ إذا أحبّ قومًا ابتلاهم، فمن رَضِي، فله الرِّضَا، ومن سَخِط فله السَّخَطُ**»(١)، وكانَ النبيُّ ﷺ يقولُ في دعائه: «**أسألُكَ الرِّضا بعدَ القضاء**»(٢).

وممَّا يدعو المؤمنَ إلى الرِّضا بالقضاء تحقيقُ إيمانِه بمعنى قولِ النبيِّ ﷺ: «**لا يقضي اللَّهُ للمؤمنِ قضاءً إلا كانَ خيرًا له: إن أصابتْهُ سرَّاءُ شكر، فكان خيرًا له، وإنْ أصابتْهُ ضرَّاءُ صبرَ، فكان خيرًا له، وليسَ ذلك إلا للمؤمنِ**»(٣).

وجاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فسألَه أن يُوصيه وصيَّةً جامعةً موجَزةً، فقال:

---

(١) أخرجه: الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١).

(٢) أخرجه: النسائي (٣/ ٥٤ ـ ٥٥)، وابن حبان (١٩٧١)، والحاكم (١/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥).

(٣) هذا الحديث على الصواب حديثان، أدمجهما المؤلف.

فقوله: «**لا يقضى اللَّه للمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له**»

أخرجه: أحمد (٣/ ١١٧ ـ ١٨٤)، (٥/ ٢٤)، وأبو يعلى (٤٢١٧)، (٤٢١٨)، وأما الجزء الباقي: «**إن أصابته..**» فأخرجه مسلم (٨/ ٢٢٧).

«لا تتَّهِم اللَّهَ في قضائه»[1] .

قالَ أبـو الدرداءِ: إنَّ اللَّه إذا قضى قـضاءً أحبَّ أن يُرضى به. وقـال ابنُ مسعودٍ: إنَّ اللَّهَ بقسطهِ وعدلهِ جعلَ الرَّوحَ والفرحَ في اليقينِ والرِّضَا، وجعلَ الهمَّ والحزنَ في الشكِّ والسَّخَطِ؛ فالرَّاضي لا يتمنَّى غيرَ ما هو عليه من شدَّةٍ ورخاءٍ. كذا رُوِيَ عَنْ عمر وابنِ مسعود وغيرِهما. وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: أصبحتُ ومالي سرورٌ إلا في مواضعِ القضاءِ والقدرِ.

فـمن وصلَ إلى هذه الدرجةِ، كـان عـيشُـه كلُّه في نعـيمٍ وسرورٍ، قـالَ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] قال بعضُ السَّلَفِ: الحياةُ الطيبةُ: هي الرِّضـا والقناعةُ. وقال عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ: الرِّضا بابُ اللَّهِ الأعظمِ وجنةُ الدُّنيا ومستراحُ العابدين.

وأهلُ الرِّضا تارةً يلاحظون حـكمةَ المبتلي وخـيرتَه لعبـدِه في البلاءِ، وأنَّه غيـرُ متّهم في قـضائِه، وتارةً يُلاحظون ثوابَ الرِّضا بالقـضاءِ، فيُنسـيهم ألمَ المقضي به، وتارةً يُلاحظون عظمـةَ المبتلي وجلالَه وكمـالَه، فيستـغرقُونَ في مشاهدةِ ذلك، حتَّى لا يشعـرُونَ بالألم، وهذا يصلُ إليه خواص أهل المعرفة والمحبَّةِ، حتَّى ربَّمـا تلذَّذوا بما أصابَهم لملاحظتهم صدُوره عن حبيـبهم، كما قالَ بعضُهم: أوجدَهم في عـذابهِ عذوبةً. وسُئلَ بعضُ التابعينَ عن حالهِ في مرضهِ، فقالَ: أحبُّه إليَّ.

وسُئلَ السريُّ: هل يجدُ المحبُّ ألمَ البلاءِ؟ فقالَ: لا. وقال بعضُهم:

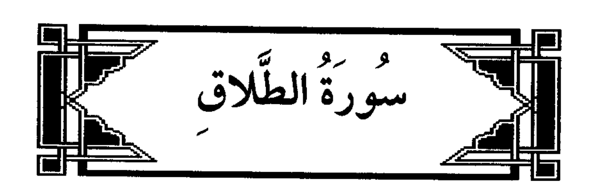
---

(١) أخرجـه: أحمـد في «المسند» (٥/ ٣١٨ ـ ٣١٩) من حديث عـبادة، بلفظ: «لا تتهم اللَّه تبارك وتعالى في شيء قضى به».

عـــذابُه فـــيكَ عَـــذْبُ وبُعـــدُهُ فـــيكَ قُـــرْبُ
وأَنْتَ عِـندي كـــرُوحي بـل أَنْتَ مِـنهـــا أَحَـبُّ
حـــسْـــبي مِنَ الحُـبِّ أنِّي لِـمَـــا تُـحِبُّ أُحِـبُّ[1]

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥١٢ ـ ٥١٥).



سُورَةُ الطَّلاقِ

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّه وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾

وأمَّا حدودُ اللَّهِ التي نَهى عَن اعتدائِهـا، فالمرادُ بها جُملةُ ما أَذِنَ في فعلِهِ، سـواءٌ كانَ على طريقِ الوجـوبِ، أو الندْبِ، أو الإباحـةِ، واعتـداؤُها: هو تجاوزُ ذلك إلى ارتكابِ ما نَهى عنه، كـما قالَ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق:١]، والمرادُ: مَنْ طلَّقَ على غيرِ ما أمرَ اللَّه به وأذنَ فيه، وقـال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩]، والمراد: مَنْ أمـسَكَ بَعـدَ أَنْ طَلَّق بغـيـرِ معروفٍ، أو سرَّح بغـيرِ إحسانٍ، أو أخَذَ ممَّا أعطَى المرأةَ شيئًـا على غيرِ وجهِ الفديةِ التي أذِنَ اللَّهُ فيها.

وقالَ تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٣-١٤].

والمرادُ: مَنْ تجاوزَ مَا فرضَه اللَّهُ للورثةِ، ففضَّلَ وارثًا، وزاد على حقه، أو نقصَه منه، ولهذا قال النبيُّ ﷺ في خُطبتهِ في حجَّةِ الوَداعِ: «إنَّ اللَّه قد أعطَى كلَّ ذي حَقٍّ حقَّه فلا وصيةَ لوارث»[1].

---

(١) راجع: «التاريخ الكبير» (٣/ ٢/ ٣٠٤)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (٦/ ٢٦٤).

وروى النَّوَّاسُ بنُ سمعانَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «ضرب اللَّه مثلاً صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتيِّ الصِّراطِ سُوراَنِ فيهما أبوابٌ مُفتحةٌ، وعلى الأبوابِ ستورٌ مرخاةٌ، وعلى بابِ الصِّراطِ داعٍ يقول: يا أيُّها النَّاسُ، ادخُلوا الصِّراطَ جميعًا، ولا تُعرِّجوا. وداعٍ يدعو من جوفِ الصِّراط، فإذا أراد أن يفتحَ شيئًا من تلك الأبواب، قال: وَيحكَ لا تفتحه، فإنَّك إنْ تفتحْه تلجْه، والصِّراطُ: الإسلامُ، والسُّوران: حدودُ اللَّه، والأبوابُ المفتَّحةُ: محارمُ اللَّه، وذلك الداعي على رأس الصِّراط: كتابُ اللَّه، والدَّاعي من فوقُ: واعظُ اللَّهِ في قلبِ كلِّ مسلمٍ» خرَّجه الإمامُ أحمدَ، وهذا لفظُه، والنسائيُّ في «تفسيرِه»، والترمذيُّ وحسَّنه(١) .

فضربَ النبيُّ ﷺ مثلَ الإسلامِ في هذا الحديثِ بصراطٍ مستقيمٍ، وهو الطريقُ السَّهلُ، الواسعُ، الموصلُ سالكَه إلى مطلوبِه، وهو - مع هذا - مستقيمٌ، لا عوجَ فيه، فيقتضي ذلك قربَه وسهولَته، وعلى جنبتي الصِّراطِ يَمْنةً ويسرةً سُورَانِ، وهما حدودُ اللَّه، فكما أنَّ السُّورَ يمنع مَنْ كان داخله مِنْ تعدِّيه ومجاوزتِه، فكذلك الإسلامُ يمنع من دخلَه من الخُروج عن حدودِه ومجاوزتِها، وليس وراءَ ما حدَّ اللَّهُ من المأذونِ فيه إلا ما نَهى عنه، ولهذا مدحَ سبحانَه الحافظينَ لحدودِه، وذمَّ من لا يعرفُ حَدَّ الحلالِ من الحرامِ، كما قالَ تعالى: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [التوبة:٩٧]. وقد تقدَّم حديثُ القرآنِ وأنَّه يقولُ لمن عَمِلَ به: حَفِظَ حدودِي، ولمن لَمْ يعملْ به: تعدَّى حدودِي.

والمرادُ: أنَّ مَنْ لم يُجاوز ما أُذِنَ له فيه إلى ما نُهِيَ عنه فقد حفِظَ حدودَ

(١) أخرجه: أحمد (٤/١٨٢ - ١٨٣)، والترمذي (٢٨٥٩)، والنسائي في «التفسير» من «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١١٧١٤).

اللَّه، ومن تعدَّى ذلك فقد تعدَّى حدودَ اللَّهِ.

وقد تُطلقُ الحدودُ، ويُرادُ بها نفسُ المحارمِ، وحينئذٍ فيقال: لا تقربُوا حدودَ اللَّه، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧]، والمرادُ: النَّهيُّ عن ارتكابِ ما نهى عنه في الآيةِ من محظوراتِ الصِّيامِ والاعتكافِ في المساجدِ، ومن هذا المعنى - وهو تسميةُ المحارمِ حدودًا - قولُ النبيِّ ﷺ: **«مَثَلُ القائمِ على حدودِ اللَّهِ والمُدْهِنِ فيها، كمثلِ قوم اقتسموا سفينةً»** الحديثُ المشهور[1]، وأراد بالقائم على حدود اللَّه: المنكرُ للمحرَّمات والناهي عنها.

وفي حديثِ ابنِ عباسٍ عن النبيِّ ﷺ، قال: **«إنِّي آخِذٌ بحُجزِكُم، أقولُ: اتَّقوا النَّارَ، اتَّقوا الحدودَ»** قالها ثلاثًا، خرَّجه الطبراني والبزار[2]، وأراد بالحدودِ، محارمَ اللَّهِ ومعاصيهِ، ومنه قولُ الرجلِ الذي قالَ للنبيِّ ﷺ: إنِّي أصبتُ حدًّا فأقِمْه عليَّ[3].

وقد تُسمى العقوباتُ المقدرةُ الرادعةُ عن المحارمِ المغلظةُ حدودًا، كما يقالُ: حدُّ الزنى وحدُّ السرقةِ وحدُّ شُربِ الخَمرِ، ومنه قولُ النبيِّ ﷺ لأسامةَ: **«أتشفعُ في حَدٍّ من حدودِ اللَّهِ؟»**[4] يعني: في القَطعِ في السَّرقةِ. وهذا هو المعروفُ من اسم الحدودِ في اصطلاحِ الفقهاءِ.

---

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ١٨٢).

(٢) أخرج: الطبراني (١١/ ٣٣)، والبزار (٣٤٨٠) من طريق ليث بن أبي سليم، عن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٢٠٦)، ومسلم (٨/ ١٠٢).

(٤) أخرجه: البخاري (٤/ ٢١٣)، (٥/ ٢٩)، (٨/ ١٩٩)، (٨/ ٢٠١)، ومسلم (٥/ ١١٤).

وأمَّا قولُ النبيِّ ﷺ: «**لايُجلدُ فوقَ عشرِ جلداتٍ إلا في حَدٍّ من حُدود اللَّه**»[١] فهذا قد اختلف الناسُ في معناه، فمنهم من فسَّر الحدودَ هاهنا بهذه الحدودِ المقدّرةِ، وقال: إنَّ التَّعزيرَ لا يُزادُ على عشرِ جلداتٍ، ولا يُزادُ عليها إلا في هذه الحدودِ المقدَّرةِ، ومنهم من فسَّر الحدودَ هاهنا بجنس محارمِ اللَّه، وقالَ: المرادُ أن مجاوزةَ العشرِ جلداتٍ لا يجوزُ إلا في ارتكابِ محرَّمٍ مِنْ محارمِ اللَّه، فأمَّا ضربُ التَّأديبِ على غيرِ محرَّمٍ، فلا يتجاوزُ به عشر جَلْداتٍ.

وقد حملَ بعضُهم قولَه ﷺ: «**وحدَّ حُدُوداً فلا تعتدوها**» على هذه العقوباتِ الزَّاجرةِ عَنِ المحرَّماتِ، وقال: المرادُ النَّهيُ عن تجاوُزِ هذه الحدود وتعديها عندَ إقامتِها على أهلِ الجرائمِ. ورجَّح ذلك بأنَّه لو كانَ المرادُ بالحدودِ الوقوف عند الأوامرِ والنَّواهي، لكانَ تكريرًا لقولِه: «**فرضَ فرائضَ فلا تُضيِّعُوها، وحرَّم أشياءَ، فلا تنتهكُوها**» وليس الأمرُ على ما قالَه، فإنَّ الوقوفَ عند الحُدودِ يقتضي أنَّه لا يخرجُ عمَّا أذِنَ فيه إلى ما نَهى عنه، وذلك أعمُّ من كونِ المأذونِ فيه فرضًا أو ندبًا أو مباحًا كما تقدَّم، وحينئذٍ فلا تكريرَ في الحديثِ، واللَّهُ أعلمُ[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾

قال قتادةُ في قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا**﴾ [الطلاق: ٢] قالَ: مِن الكربِ عندَ الموتِ، ومن أفزاعِ يوم القيامةِ.

وقال عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما في هذه الآيةِ: ننجيه من كلِ

---

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ٢١٥)، ومسلم (٥/ ١٢٦).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٥٨ ـ ١٦٢).

كربٍ في الدُّنيا والآخرةِ.

وقال زيدُ بنُ أسلمَ في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [الأحقاف:١٣] قال: يُبشرُ في ذلك عند موتهِ، وفي قبرهِ ويومَ البعثِ، فإنه لفي الجنةِ، وما ذهبت فرحةُ البشارةِ من قلبه.

وقال ثابتٌ البناني في هذه الآية: بلغنا أنَّ المؤمنَ حينَ يبعثُه اللَّهُ من قبرهِ يتلَقاه ملكَاه اللذانِ كانا معه في الدُّنيا فيقولان له: لا تخفْ ولا تحزنْ، فيؤمِّنُ اللَّهُ خوفَه ويقرُّ عينَه، فما من عظمةٍ تغشى الناسَ يومَ القيامةِ إلا وهي للمؤمنِ قرةُ عينٍ، لما هداه اللَّه ولما كانَ يعملُ في الدنيا. خرَّج ذلك كلَّه ابنُ أبي حاتمٍ وغيرِه.

وأمَّا من لم يتعرف إلى اللَّهِ في الرخاءِ، فليسَ له أنْ يعرفَه في الشدةِ لا في الدَّنيا ولا في الآخِرة.

وشواهدُ هذا مشاهدةُ حالِهم في الدُّنيا، وحالُهم في الآخرةِ أشدُّ، وما لهم من وليٍّ ولا نصيرٍ[1].

* * *

قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٢-٣]، وقد قرأَ النبيُّ ﷺ هذه الآيةَ على أبي ذرٍّ، وقالَ له: «لو أنَّ الناسَ كُلَّهم أَخَذوا بها لكفتهم»[2].

يعني: لو أنَّهم لو حقَّقوا التَّقوى والتوكلَ لاكتفَوا بذلك في مصالحِ دينهِم

(١) «نور الاقتباس» (٤٩ ـ ٥٠).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/١٧٨ ـ ١٧٩)، وابن ماجه (٤٢٢٠).

ودنياهم.

قـال بعضُ السلف: بِحَسـبِكَ من التوسـلِ إليه أن يعلَمَ من قلبك حُـسنَ توكُّلك عليه، فكَمْ من عبدٍ من عباده قـد فَوَّضَ إليه أمرَه فكفاه منه ما أهمَّه، ثمَّ قرأ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾، وحقيقـةُ التوكُّلِ: هو صدقُ اعتمادِ القلبِ على اللَّه عـزَّ وجلَّ في استجلابِ المصالحِ، ودفعِ المضارِّ من أمور الدنيا والآخـرةِ كُلِّها، وكِلَةُ الأمورِ كُلِّها إليه، وتحقيقُ الإيمانِ بأنَّه لا يُعطي ولا يمنعُ ولا يضرُّ ولا ينفعُ سواه.

قال سعيدُ بنُ جُبير: التوكُّلُ جماعُ الإيمانِ.

وقال وهبُ بنُ مُنبِّه: الغايةُ القُصوى التوكلُ.

قالَ الحسنُ: إن توكُّلَ العبدِ على ربِّه: أنْ يعلمَ أنَّ اللَّه هو ثقتُه.

وفي حديثِ ابن عباسٍ عن النبيِّ ﷺ، قال: «**مَنْ سرَّه أن يكـونَ أقوى النَّاسِ فليتوكل على اللَّه**»[1].

ورُوي عنه ﷺ أنَّه كانَ يقـولُ في دعائه: «**اللهمَّ إنِّي أسـألُك صدْقَ التـوكُّل عليك**»[2]، وأنّه كان يقولُ: «**اللهمَّ اجعلْني ممَّنْ توكَّلَ عليك فكفيْتَه**»[3].

واعلمْ أنَّ تحقيقَ التوكلِ لا يُنافي السَّعي في الأسباب التي قَدَّر اللَّهُ سبحانَه المقدوراتِ بهـا، وجرت سُنَّتـه في خَلْقهِ بذلك، فإنَّ اللَّهَ تـعالى أمرَ بتـعاطي الأسباب مع أمرِه بالتوكُّلِ، فالسَّعيُ في الأسبابِ بالجوارحِ طاعةٌ له، والتوكُّلُ بالقلبِ عليـه إيمانٌ به، قال اللَّه تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾

---

(١) أخرجه ابن عدي (٧/ ١٠٦)، والبيهقي في «الزهد» (٩٨٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢١٨)، و«أخبار أصبهان» (٢/ ٣٦٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٢٤).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكل» (٤).

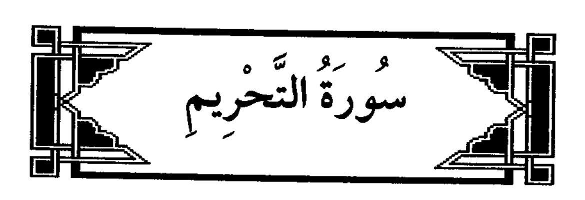
[النساء:٧١]، وقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال:٦٠]، وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:١٠].

قالَ سهلٌ التُّستري: مَنْ طعنَ في الحركةِ ـ يَعْني: في السَّعيِّ والكَسْبِ ـ فقد طعنَ في السُّنَّة، ومن طَعَنَ في التوكُّلِ فقد طَعَنَ في الإيمانِ.

فالتوكُّلُ حالُ النبيِّ ﷺ، والكَسْبُ سنَّتُه، فمن عَمِلَ على حالِه، فلا يَتْرُكَنَّ سنتَه[1].

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٥٤ ـ ٥٥٦).



سُورَةُ التَّحْرِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

روى شريكٌ، عن عاصمٍ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ، قال: «أُوقِدَ على النَّارِ ألفُ سنةٍ حتَّى ابيضتْ، ثم أُوقِدَ عليها ألفُ سنةٍ حتَّى احمرَّتْ، ثمَّ أُوقِد عليها ألفُ سنةٍ حتَّى اسودَّتْ، فهي سوداءُ كالليلِ المُظْلِمِ» خرَّجَه ابنُ ماجه والترمذيُّ[1] وقال: حديثُ أبي هريرةَ في هذا موقوف أصح، ولا أعلمُ أحدًا رفَعه غيرُ يحيى بنِ أبي كثيرٍ عن شريكٍ.

وروى معنٌ، عن مالكٍ، عن أبي سهيلٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبي ﷺ قالَ: «أترونَها حمراءَ كنارِكم هذه لهي أشدُّ سوادًا من القارِ» خرَّجه البيهقيُّ[2]؛ وخرَّجه البزارُ ولفظُه: «لهي أشدُّ من دخانِ نارِكُم هذه سبعينَ ضعفًا» ورُوي موقوفًا على أبي هريرة وهو أصحُّ، قالَه الدارقطنيُّ.

وقالَ الجوزجَانيُّ: حدثنا عبيدُ اللَّه الحنفي، حدثنا فَرْقَدُ بنُ الحجاجِ، سمعتُ عقبةَ اليماني يقولُ: سمعتُ أبا هريرةَ يقول: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «إنَّ نارَ جهنمَ أشدُّ حرًا من نارِكم هذه بتسعةٍ وتسعينَ جزءًا، وهي سوداءُ مظلمةٌ لا ضوءَ لها، لهي أشدُّ سوادًا من القطرانِ» غريبٌ جدًّا.

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣٢٠)، والترمذي(٢٥٩١).

(٢) أخرجه البيهقي في «البعث والنشور» (٥٠١).

وروى الكُديميُّ عن سهلِ بنِ حمادٍ، عن مباركِ بنِ فضالةَ، عن ثابتٍ، عن أنسٍ قال: تلا رسولُ اللَّهِ ﷺ ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] قال: «**أُوقِدَ عليها ألفُ عامٍ حتَّى ابيضتْ، ثمَّ أُوقِدَ عليها ألفُ عامٍ حتَّى احمرَّتْ، ثم أُوقِدَ عليها ألفُ عامٍ حتَّى اسودَّت، فهي سوداءُ لا يضئُ لهبُها**» خرَّجه البيهقيُّ[(١)]، والكُديميُّ ليس بحجةٍ.

وخرَّج البزارُ[(٢)] من حديثِ زائدةَ بنِ أبي الرقادِ عن زيادٍ النميريِّ، عن أنسٍ، عن النبيِّ ﷺ أنَّه ذكر ناركم هذه فقالَ: «**إنها لجزءٌ من سبعينَ جزءًا من نارِ جهنم، وما وصلتْ إليكُم** ـ حتَّى أحسبه قال ـ: **حتَّى نُضحتْ بالماءِ مرتينِ لتضئَ لكُم، ونارُ جهنمَ سوداءُ مظلمةٌ**».

وفي حديثِ عديٍّ بن عديٍّ عن عُمَرَ مرفوعًا ذكرَ الإيقادَ عليها ثلاثةَ آلافِ عامٍ أيضًا، وقال: «**فهي سوداءُ مظلمةٌ لا يضئُ جمرُها ولا لهبُها**» خرَّجه ابنُ أبي الدُّنيا والطبرانيُّ، وقد سبقَ إسنادُه والكلامُ عليه.

ورَوى ابنُ أبي الدُّنيا من طريقِ الحكمِ بنِ ظهيرٍ ـ وهو ضعيفٌ ـ، عن عاصمٍ، عن زرٍ، عن عبدِ اللَّهِ ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [التكوير: ١٢] قال: سُعِّرَت ألفَ سنةٍ حتَّى ابيضت، ثمَّ ألفَ سنةٍ حتى احمرَّتْ، ثمَّ ألفَ سنةٍ حتى اسودَّت، فهي سوداءُ مظلمةٌ.

الحكمُ بنُ ظهيرٍ ضعيفٌ، والصحيحُ روايةُ عاصمٍ عن أبي هريرةَ كما سبق.

وروى الأعمشُ، عن أبي ظبيانَ، عن سلمانَ، قال: النَّارُ سوداءُ مظلمةٌ لا يُطفأُ جمرُها ولا يضيءُ لهبُها، ثمَّ قرأ: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]،

---

(١) في «البعث والنشور» (٥٠٦).

(٢) «كشف الأستار» (٣٤٨٩).

خرَّجه البيهقي من طريقِ أحمد بنِ عبدِ الجبارِ، عن أبي معاويةَ، عن الأعمشِ مرفوعًا وقال: رفْعُه ضعيفٌ.

وقالَ أبو جعفرٍ الرازيُّ، عن الربيعِ بنِ أنسٍ، عن أبي العاليةَ، عن أُبيٍّ بنِ كعبٍ: ضَرَبَ اللَّهُ مثلاً للكافرينَ قال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ [النور: ٤٠]، فهو يتقلبُ في خمسٍ من الظلمِ: كلامُه ظلمةٌ، وعملُه ظلمةٌ، ومدخلُه ظلمةٌ، ومخرجُه ظلمةٌ، ومسيرُه إلى الظلماتِ إلى النَّارِ.

وقال أيضًا أبو جعفرٍ، عن الربيعِ بنِ أنسٍ: إنَّ اللَّهَ جعلَ هذه النَّار ـ يعني نارَ الدُّنيا ـ نُوراً وضياءً ومتاعًا لأهلِ الأرضِ، وإنَّ النَّارَ الكُبْرى سوداءُ مظلمةٌ مثلُ القيرِ ـ نعوذُ باللَّهِ منها.

وعن الضحاكِ قالَ: جهنمُ سوداءُ وماؤُها أسودُ وشجرُها أسودُ وأهلُها سودٌ.

وقد دلَّ على سوادِ أهلِها قولُه تعالى: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧]، وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦].

وقد ثبتَ في الأحاديثِ الصحيحةِ أنَّ مِن عصاةِ الموحدينَ مَنْ يحترقُ في النارِ حتَّى يصيرَ فحمًا[1].

* * *

وقدْ وصفَ اللَّهُ الملائكةَ الذينَ على النَّارِ بالغلظِ والشدةِ قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) «التخويف من النار» (٦٨ ـ ٧٠).

وروى أبو نعيم بإسناده عن كعبٍ، قالَ: إنَّ الخازنَ من خُزَّانِ جهنمَ مسيرةُ ما بينَ مَنْكِبيه سنةٌ؛ وإنَّ معَ كل واحدٍ منهم لعمودٌ له شعبتانِ من حديدٍ. يدفعُ به الدفعة فيكبُّ به في النارِ سبعمائةَ ألفٍ.

وروى عبدُ اللَّهِ بنُ الإمامِ أحمدَ بإسنادهِ عن أبي عمرانَ الجونيِّ قالَ: بلغنا أنَّ الملَكَ مِن خزنةِ جهنمَ ما بين مَنكِبَيه مسيرةُ خريفٍ، فيضربُ الرجلَ من أهلِ النارِ الضربةَ فيتركُه طحينًا من لدن قرنهِ إلى قدمهِ.

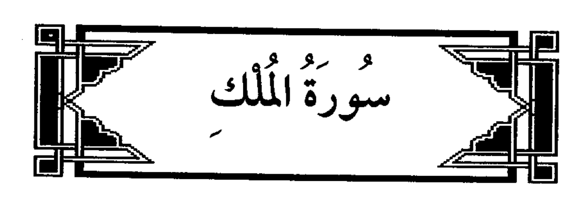
وفي روايةٍ أخرى له قالَ: بلغنا أنَّ خزنةَ النارِ تسعةَ عشرَ ما بينَ مَنكِبي أحدِهم مسيرة خريفٍ؛ وليسَ في قلوبهِم رحمةٌ إنَّما خُلقُوا للعذابِ.

ورَوى الجُوزَجانيُّ بإسناده عن صالحٍ أبي الخليل قالَ: ليلةَ أُسري بالنبيِّ ﷺ بَعثَ اللَّهُ إليه نَفرًا مِن الرُّسلِ فتلقَّوه بالفرحِ والبشرِ. وفي ناحيةِ المسجدِ مصلٍ يصلي لا يلتفتُ إليه؛ فقام إليه، فقال النبي ﷺ: **«ما منكُم من أحد إلا قد رأيتُ منه البشرَ والفرحَ غيرَ صاحبِ هذه الزاوية»** فقالوا: أمَا إنَّه قد فرحَ بك كما فرحْنا. ولكنَّه خازنٌ من خزَّانِ جهنمَ.

ورَوى بكرُ بنُ خنيسٍ، عن عبدِ الملكِ الجسري، عن الحسنِ أنَّ جبريلَ قال للنبيِّ ﷺ: **«لو أنَّ خازنًا من خزَّانِ جهنمَ أشرفَ على أهلِ الأرضِ لماتَ أهلُ الأرضِ مما يرونَ من تشويه خلقهِ»** مرسلٌ ضعيفٌ[1].

* * *

(١) «التخويف من النار» (١٧٦).



سُورَةُ المُلْكِ

قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾

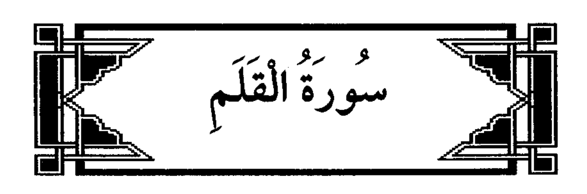
وقال الفضيلُ في قولهِ تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢]، قال: أخلصُه وأصوبُه. وقالَ: إنَّ العملَ إذا كانَ خالصًا، ولم يكنْ صوابًا، لم يقبلْ، وإذا كانَ صوابًا، ولم يكنْ خالصًا، لم يقبلْ حتَّى يكونَ خالصًا صوابًا، قالَ: والخالصُ إذا كانَ للَّهِ عزَّ وجلَّ، والصَّوابُ إذا كانَ على السُّنَّةِ.

وقد دلَّ على هذا الَّذي قاله الفضيلُ قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقالَ بعضُ العارفينَ: إنَّما تفاضَلُوا بالإراداتِ، ولم يتفاضَلُوا بالصَّومِ والصَّلاةِ[1].

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٦).



سُورَةُ الْقَلَمِ

قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾

وفي «الصحيحين»[1] عن حارثةَ بنِ وهبٍ، عن النبيِّ ﷺ، قال: **«ألا أخبركم بأهلِ الجنَّةِ: كلُّ ضعيفٍ متضعفٍ لو أقسمَ على اللَّهِ لأبرَّه، ألا أخبركم بأهلِ النَّارِ كلُّ عتلٍّ جواظٍ مستكبرٍ»**.

و«العتلُّ» قال مجاهدٌ وعكرمةُ: هو القويُّ؛ وقالَ أبو رزينٍ: هو الصحيحُ، وقال عطاءُ بن يسارٍ عن وهبٍ الذماريِّ قالَ: تبكي السماءُ والأرضُ من رجلٍ أتمَّ اللَّهُ خلقَه وأرحبَ جوفَه وأعطاه معظمًا من الدُّنيا، ثم يكونُ ظلومًا غشُومًا للناسِ، فذلك العتلُّ الزنيمُ.

وقال إبراهيمُ النخعيُّ: العتلُّ: الفاجرُ، والزنيمُ: اللئيمُ في أخلاقِ الناسِ.

ورَوى شهرُ بنُ حوشبٍ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ غنمٍ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ، قالَ: **«لا يدخلُ الجنةَ جواظٌ ولا جعظريٌّ ولا العتلُّ الزنيمُ»** فقال رجلٌ من المسلمين: ما الجواظُ الجعظريُّ، والعتلُّ الزنيمُ؟ فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«الجواظُ: الذي جمعَ ومنعَ، وأما الجعظريُّ: فالفظُّ الغليظُ، قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]»**[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ١٩٨) (٨/ ٢٤)، ومسلم (٨/ ١٥٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٧) مختصراً.

وأما العتلُ الزنيمُ: فشديدُ الخلقِ رحيبُ الجوفِ مصححٌ أكولٌ شروبٌ، واجدٌ للطعامِ، ظلومٌ للأنامِ.

ورَوى معاويةُ بنُ صالحٍ، عن كثيرِ بن الحارثِ عن القاسمِ مولى معاويةَ، قال: سُئلَ رسولُ اللَّه ﷺ عن العتلِّ الزنيمِ قال: «**هو الفاحشُ اللئيمُ**».

وقال معاويةُ: وحدثني عياضُ بنُ عبدِ اللَّه الفهريِّ عن موسى بنِ عقبةَ، عن النبيِّ ﷺ بذلك خرَّجه كلَّه ابنُ أبي حاتمٍ.

وأمَّا المستكبرُ فهو الذي يتعاطَى الكبرَ على الناسِ والتعاظمَ عليهم، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿**أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ**﴾[1] [الزمر:٦٠].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾

ورُوي عن أبي سنانَ، عن سعيدِ بنِ جبيرٍ، عن ابنِ عباسٍ في قولهِ تعالى: ﴿**وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ**﴾ [القلم:٤٣] قال: نزلتْ في صلاةِ الرجل يسمعُ الأذانَ فلا يجيبُ.

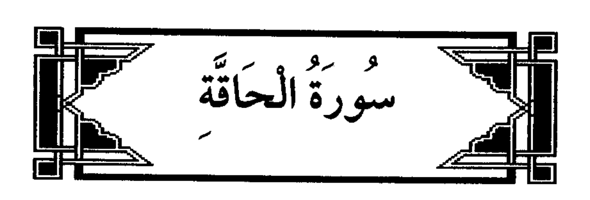
ورُوي عن سعيدِ بنِ جبيرٍ من قولِهِ[2] .[3]

* * *

(١) «التخويف من النار» (٢١٨ ـ ٢١٩).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٩/٤٣).

(٣) «فتح الباري» (٤/٩ـ ١٠).



سُورَةُ الْحَاقَّة

قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾

فالأشقياءُ في البـرزخِ في عيشٍ ضنكٍ، قال اللَّه تعالى: **﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾** [طه:١٢٤].

وقد رُوي عن أبي سعيدٍ الخدري، مرفوعًا وموقوفًا: أن المعيشةَ الضنكَ عذابُ القبرِ. يضيقُ عليه قبرُهُ حتى تختلفَ أضلاعُه، ويسلَّط عليه تسعةٌ وتسعونَ تنينًا.

وأمَّا عيشُهم في الآخرة فأضيقُ وأضيقُ فأمَّا من طاب عيشُه بعدَ الموتِ فإنَّ طيبَ عيشِهِ لا ينقطع بلْ كلَّما جاء تزايدَ طيبُه. ولهذا سُئِلَ بعضُهم: منْ أنعمُ الناس؟ فقال: أجسامٌ في الترابِ قد أَمِنَت العذابَ فانتظرت الثوابَ فهذا في البرزخِ في عيشٍ طيبٍ

ورُئِي معروف في المنام بعد موتِهِ وهو ينُشد:

موتُ التقيِّ حياةٌ لا نفادَ لها ... قد ماتَ قومٌ وهم في الناسِ أحياءُ

وكان إبراهيم بنُ أدهم ينشدُ:

ما أحدٌ أنعم منْ مُفرد ... في قبرِهِ أعمالُه تؤنسُه

منعَّم الجسمِ وفي روضةٍ ... زيَّنها اللَّهُ فهي مجلسُه

رئي بعضُ الصالحين في المنامِ بعدَ موتِه، فقال: نحنُ بحمدِ اللَّه في برزخٍ محمودٍ، نفترشُ فيه الريحانَ ونوسدُ فيه السندسَ والإستبرقَ إلى يوم النشور.

رئي بعضُ الموتى في المنامِ فسُئِلَ عن حالِ الفُضيل بنِ عياضٍ، فقال: كُسي حلَّةً لا تقومُ لها الدنيا بحواشيها.

فأمَّا عيشُ المتقين في الجنَّة فلا يحتاج أنْ يسألَ عن طيبِه ولذتِه، ويكْفِي في ذلك قولُهُ تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١-٢٤].

ومعنى راضية: أي: عيشةٌ يحصلُ بها الرِّضى.

وفسَّر ابنُ عباسٍ: هنيئًا: بأنه لا موتَ فيها يُشيرُ إلى أنَّه لم يهنهم العيشُ إلا بعد الموتِ والخلودِ فيها.

قال يزيدُ الرقاشيُّ: أمِنَ أهلُ الجنةِ الموتَ فطابَ لهم العيشُ، وأمنُوا من الأسقامِ فهنيئًا لهم في جوارِ اللَّه طولُ المقام.

وقال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات:١٥]، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ إلى آخرها [القمر:٥٤، ٥٥] أدنى أهلِ الجنةِ منزلةً من ينظرُ في ملكِهِ وسُرُرِه وقصورِهِ مسيرةَ ألفي عام، يرى أقصَاه كما يرى أدناه، وأعلاهُم من ينظرُ إلى وجهِ ربِّه بكرةً وعشيا.

وقال طائفةٌ من السلفِ: إن المؤمن له بابٌ في الجنة من دارِهِ إلى دارِ السلامِ، يدخلُ على ربِّه إذا شاء بلا إذنٍ.

قال أبو سليمان الدارانيُّ: وإذا أتاه رسولٌ من ربِّ العزَّةِ بالتحيةِ واللُّطفِ فلا يصل إليه حتى يستأذنَ عليه يقول للحاجبِ: استأذنْ لي على وليِّ اللَّه، فإني لستُ أصلُ إليه. فيُعلم ذلك الحاجبُ حاجبًا آخر حتى يصلَ إليه فذلك

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكًا كَبِيراً﴾ [الإنسان: ٢٠].

فللَّه ذاك العيشُ بينَ خيامها ... وروضاتِها والثغرُ في الروضِ يبسمُ
وللَّه كَمْ من خيرةٍ إنْ تبَسَّمتْ ... أضاءَ لها نورٌ من الفجرِ أعظمُ
وللَّه واديها الذي هو موعدُ الـ ... ـمزيدِ لوفدِ الحبِّ لو كنتَ منهمُ
بذيالكَ الوادي يهيمُ صبابةً ... محبٌ يرى أنَّ الصبابةَ مغنمُ
وللَّهِ أفراح المحبين عندمَا ... يخاطبُهم مولاهُم ويُسلِّمُ
وللَّه أبصارٌ ترى اللَّهَ جهرةً ... فلا الغيمُ يغشاها ولا هي تسأمُ
فيا نظرة أهدت إلى القلب نظرةً ... أمِنْ بعدها يسلو المحب المتيمُ
فروحَك قرِّبْ إن أردتَ وصالَهم ... فما غلبتْ نظرةٌ تشري بروحِكَ منهمُ
وأقدِم ولا تقنعْ بعيشٍ منغَّصٍ ... فما فاز باللَّذاتِ منْ ليس يُقدمُ
فصُمْ يومَك الأدْنى لعلَّك في غدٍ ... تفوزُ بعيدِ الفِطْرِ والنَّاسُ صوَّمُ
فيا بائعًا هذا ببخسٍ معجَّلٍ ... كأنكَ لا تدري بلى سوف تعلمُ
فإن كنتَ لا تدري فتلكَ مصيبةٌ ... وإن كنتَ تدري فالمصيبة أعظمُ(١)

* * *

الصائمون على طبقتين:

إحداهُما: من ترك طعامَه وشرابَهُ وشهوتَه للَّه تعالى، يرجو عنده عوض ذلك في الجنةِ، فهذا قد تاجرَ مع اللَّه وعاملَهُ، واللَّهُ تعالى لا يُضيع أجْرَ من أحسن عملاً، ولا يخيبُ معه من عاملَهُ، بل يربحُ عليه أعظمَ الرِّبْحِ، وقال رسولُ اللَّه ﷺ لرجلٍ: «**إنَّك لن تدعَ شيئًا اتِّقاءَ اللَّه إلا آتاك اللَّهُ خيرًا منه**» خرَّجه الإمامُ أحمدُ(٢)، فهذا الصَّائمُ يُعطى في الجنة ما شاء اللَّه من طعامٍ وشرابٍ

(١) «شرح حديث لبيك اللهم لبيك» (٧٦ ـ ٨٢).
(٢) «المسند» (٥/ ٧٩).

ونساءٍ، قال اللَّه تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] قال مجاهدٌ وغيرُه: نزلَتْ في الصائمين.

قال يعقوبُ بن يوسُف الحنفيّ: بلغنا أن اللَّه تعالى يقولُ لأوليائِه يوم القيامة: يا أوليائي طالما نظرْتُ إليكم في الدُّنيا وقد قلَصَتْ شفاهُكم عن الأشربة، وغارت أعينُكم وخفقتْ بطونُكم؛ كونوا اليوم في نعيمكم، وتعاطَوا الكأس فيما بينكم، و﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾.

وقال الحسنُ: تقولُ الحوراءُ لولي اللَّه وهو متكئ معها على نهر العَسَلِ تُعاطيه الكأسَ: إنَّ اللَّه نظرَ إليك في يومٍ صائفٍ بعيدِ ما بين الطرفين، وأنت في ظمأِ هاجرةٍ من جهدِ العطشِ، فباهَى بك الملائكةَ، وقال: انظروا إلى عبدِي تركَ زوجتَه وشهوتَه ولذَّته وطعامَه وشرابَه من أجلي، رغبةً فيما عندي، اشْهَدُوا أنِّي قد غفرتُ لَهُ؛ فغفر لك يومئذٍ وزوجنيكَ.

وفي «الصحيحينِ»[1] عن النبيِّ ﷺ قال: «**إن في الجنة باباً يقال له: الرَّيان، يدخل منه الصائمون، لا يدخلُ منه غيرُهُم**» وفي روايةٍ: «**فإذا دخلوا أُغْلِق**»، وفي روايةٍ: «**من دخلَ منه شرِبَ، ومن شرِبَ لم يظْمَأْ أبداً**»، وفي حديثِ عبد الرحمن ابن سَمُرَةَ، عن النبيِّ ﷺ في منامِه الطويل، قال: «**ورأيتُ رجلاً من أُمَّتي يَلْهَثُ عطشًا، كلَّما ورد حوْضًا مُنِعَ منه، فجاءَه صيامُ رمضان، فسقاه وأرواه**» خرَّجه الطبرانيُّ[2] وغيرُهُ.

وروى ابن أبي الدنيا[3] بإسنادٍ فيه ضعف، عن أنسٍ مرفوعًا: «**الصَّائمون**

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٣٠٢) (٤/ ١٤٥)، ومسلم (٣/ ١٥٨)، من حديث سهل بن سعد ﷺ.

(٢) راجع «مجمع الزوائد» (٧/ ١٧٩).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الجوع» (١٣٩).

يُنفَحُ من أفـواهِهم ريحُ المسْكِ، ويوضَعُ لهم مـائدةٌ تحتَ العرشِ، يأكلونَ منهـا والناسُ في الحسابِ».

وعن أنسٍ موقوفًا: «إنَّ للَّه مائدةً لم ترَ مثـلَها عينٌ، ولم تسمعْ أذُنٌ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ، لا يقعدُ عليها إلا الصَّائمون».

وعن بعضِ السلفِ، قـال: بلغنا أنه يوضَعُ للصُّـوَّامِ مـائدةٌ يأكلون عليهـا والناسُ في الحسابِ، فيقـولونَ: يا ربِّ، نحن نحاسبُ وهُم يأكُلون؟ فيقال: إنهم طالما صامُوا وأفطرْتُم، وقامُوا ونمتم.

رأى بعضُهم بشرَ بنِ الحـارثِ في المنامِ وبين يديه مائدةٌ وهو يأكل، ويقال له: كُلْ يا من لم يأكُلْ، واشرَبْ يا من لم يشرَبْ.

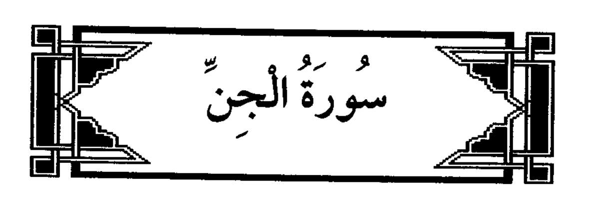
كان بعضُ الـصالحين قد صـام حتى انحنى وانقطعَ صـوتُه، فمـاتَ فَرُئي بعضُ أصحابه الصالحين في المنام فُسئِلَ عن حالِه، فضحِكَ وأنشد:

قـد كُـسي حُلَّةَ الـبـهـاءِ وطافَتْ ... بـأباريـقَ حــولَـهُ الخُــدَّامُ

ثم حُلِّـي وقِـيلَ يا قـارئ ارْقى ... فلَعَـمْـري لقـد براك الصِّـيـامُ[1]

* * *

(١) «لطائف المعارف» (٢٩٥ ـ ٢٩٧).



سُورَةُ الْجِنِّ

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾

[قال البخاريُّ]: حدثنا مُسدَّدٌ: ثنا أبو عوانةَ، عنْ أبي بِشْرٍ ـ هو: جعفرُ ابنُ أبي وحْشيَّةَ ـ عن سعيدِ بنِ جبيرٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: انطلقَ النبيُّ ﷺ في طائفةٍ من أصْحَابِه، عامدينَ إلى سُوقِ عُكاظٍ، وقدْ حِيلَ بيْنَ الشياطينِ وبيْنَ خبرِ السماءِ، وأُرْسلتْ عليهم الشُّهُبُ، فرجعَتِ الشياطينُ إلى قومِهِم، فقالوا: ما لكُمْ؟ فقالُوا: حِيلَ بيْنَنا وبيْنَ خبرِ السماءِ، وأُرْسلتْ علينا الشُّهُبُ، قالُوا: ما حالَ بيْنَكُم وبينَ خبرِ السماءِ إلا شيءٌ حدَثَ، فاضربُوا مشارقَ الأرضِ ومغارِبَهَا، فانظروا ما هذا الذي حالَ بينكُمْ وبيْنَ خبرِ السماءِ، فانصرفَ الذين توجَّهُوا نحوَ تِهامَةَ إلى النبيِّ ﷺ وهُوَ بنخْلَةَ ـ عامدينَ إلى سُوقِ عُكَاظٍ، وهو يُصلِّي بأصْحَابِهِ صلاةَ الفجرِ، فلمَّا سمِعُوا القرآن استمعُوا له، فقالوا: هذا ـ واللَّه ـ الذي حالَ بينكم وبينَ خبرِ السماءِ، فهنالكَ حينَ رَجَعُوا إلى قومِهِمْ، فقالُوا: يا قوْمَنا إنا سمعْنا قرآنا عجبًا، يهْدي إلى الرُّشدِ فآمنَّا به، ولن نُشْرِكَ بربِّنا أحدًا، فأنزل اللَّهُ على نبيِّه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الجن:١]، وإنَّما أوحي إليه قولُ الجنِّ [١].

هذه القصةُ كانت في أول البعثةِ.

---

(١) البخاري (١/ ١٩٥ ـ ١٩٦).

وهذا الحديثُ ممَّا أرسله ابنُ عباسٍ، ولم يسمِّ من حدَّثه به من الصحابة، ويحتملُ أنه سمعه من النبيِّ ﷺ يحكي عن نفسِهِ، واللَّهُ أعلم.

وسوقُ عُكَاظ نحو نخلة، كان يجتمعُ فيه العربُ، ولهم فيه سوقٌ، فكان النبيُّ ﷺ يخرجُ إليهم، فيدعُوهم إلى اللَّه عزَّ وجلَّ، وقد كانتِ الشهبُ يُرمَى بها في الجاهلية، وإنَّما كثرتْ عندما بعث النبيُّ ﷺ.

وقد قال السُّديُّ وغيرُه: إنَّ السماءَ لم تحرسْ إلا حيث كان في الأرضِ نبيٌّ أو دينٌ للَّه ظاهرٌ.

والمقصودُ من هذا الحديثِ هاهنا: أن الشياطينَ لما مرُّوا بالنبيِّ ﷺ وهو يصلِّي بأصحابه صلاةَ الصبحِ، وقفُوا واستمعُوا القرآنَ. وهذا يدلُّ على أنَّه ﷺ كان يجهرُ بالقراءةِ في صلاةِ الصبح، فلمَّا سمعُوا عرفوا أنَّه هو الذي حال بينهم وبين خبرِ السماءِ.

وظاهرُ هذا السياقِ: يقتضي أن الشياطينَ آمنُوا بالقرآنِ، وكذا قال السُّديُّ وغيرُه.

وقد اختُلِفُ في الجنِّ والشياطينِ: هل هم جنسٌ واحدٌ، أو لا؟

فقالت طائفةٌ: الجنُّ كلُّهم ولدُ إبليسَ، كما أن الإنسَ كلَّهم ولدُ آدمَ.

رُوي هذا عن ابن عباسٍ من وجهٍ فيه نظرٌ. وأنّهم لا يدخلون الجنةَ.

ورُوي - أيضًا - عن الحسنِ، وأنَّه قال: مؤمنُهم وليٌّ للَّه وله الثوابُ ومشركُهُم شيطانٌ له العقابُ.

وقالت طائفةٌ: بلِ الشياطينُ ولدُ إبليسَ، وهم كفارٌ ولا يموتون إلا معَ

إبليسَ، والجنُّ ولد الجانِّ، وليسوا شياطينَ، وهم يموتون، وفيهم المؤمنُ والكافرُ.

رُوي هذا عن ابن عباسٍ بإسنادٍ فيه نظرٌ ـ أيضًا.

وقولُه: «وإنَّما أوحي إليه قولُ الجنّ» يشيرُ ابنُ عباسٍ إلى أنَّ النبيَّ ﷺ لم يرَ الجنَّ، ولا قرأ عليهم وإنما أُوحي إليه استماعُهم القرآنَ منه وإيمانهم به.

وقد رُويَ ذلك صريحًا عنه، أنه قال في أولِ هذا الحديثِ: ما قرأ رسولُ اللَّه ﷺ على الجنِّ ولا رآهم ـ ثم ذكر هذا الحديث[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾

[قال البخاريُّ] : «بابٌ هل يُقَالُ: مَسْجِدُ بني فُلانٍ»:

ابتدأ البخاريُّ ـ رحمه اللَّهُ ـ من هنا في ذكرِ المساجدِ وأحكامِها، فأولُ ما ذكرهُ من ذلك: أنه يجوزُ نسبةُ المساجدِ إلى القبائلِ، لعمارتِهم إيَّاها، أو مجاورتِهم لها.

وقد كرهَ ذلك بعضُ المتقدمين، وتعلَّق بقوله تعالى: **﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾** [الجن:١٨].

والصحيحُ: أن الآيةَ لم يُرَدْ بها ذلك، وأنَّها نزلتْ في النهي عن أنْ يُشرك باللَّه في المساجدِ في عبادتِهِ غيره، كما يفعلُ أهلُ الكتابِ في كنائسِهِم وبيعِهِم.

---

(١) «فتح الباري» (٤/ ٤٦٠ ـ ٤٦٢).

وقيلَ: إن المرادَ بالمسـاجدِ الأرضَ كلَّها، فإنهـا لهذه الأمة مسـاجدُ، وهي كلُّها للَّه، فنهى اللَّهُ أن يُسجدَ عليها لغيرِه.

وقيلَ: إن المرادَ بالمساجدِ أعضاء السجودِ نفسُهَا، وهي للَّه، فإنه هوَ خلقها وجمعَها وألَّفها، فَمِن شُكْرِهِ على هذه النعمةِ أن لا يسجدَ بها لغيرِه.

وقد قيلَ: إنَّ قوله تعالى ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾ [الجن:١٨] يدلُّ ـ أيضًـا ـ على أنَّه لا يجوزُ إضـافةُ المسـاجدِ إلى مـخلوقٍ إضافـةَ ملكٍ واختصاصٍ.

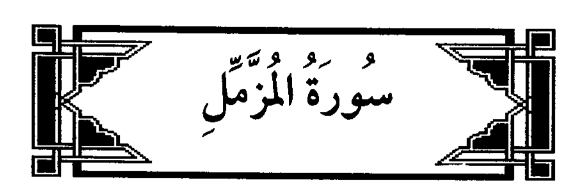
وأخذ بعضُ أصحابنا من ذلك كالوزير ابنِ هبـيرةَ: أنه لا يجوزُ نسبةُ شيءٍ من المساجدِ إلى بعضِ طوائفِ المسلمينَ للاختصاصِ بها، فيقالُ: هذه المساجدُ للطائفةِ الفلانيةِ، وهذه للطائفةِ الأخرى، فإنَّها مشتركةٌ بينَ المسلمينَ عمومًا.

وذكرَ بعضُ المتـأخرينَ من أصـحابِنا في صـحةِ اشتـراطِ ذلك في وقفِـهَا وجهين.

وأما إضافةُ المسجدِ إلى ما يُعرِّفه به فليسَ بداخلٍ في ذلك، وقد كانَ النبيُّ ﷺ يضيف مسجدَهُ إلى نفـسِهِ، فيقولُ: «**مسـجدي هذا**» ويضيفُ مسجدَ قُباء إليه، ويضيفُ مسـجدَ بيتِ المقدسِ إلى إيلياءَ، وكلُّ هذه إضافـاتٌ للمساجدِ إلى غيرِ اللَّه لتعريفِ أسمائها، وهذا غيرُ داخلٍ في النهي. واللَّه أعلم[1].

* * *

(١) «فتح الباري» (٢/ ٣٦٠ ـ ٣٦١).



سُورَةُ المُزَّمِّلِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل:١٢، ١٣]، وقال: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية:٦، ٧].

روى الإمامُ أحمدُ بإسنادِه عن عكرمةَ عن ابنِ عباسٍ في قولِه: ﴿طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ قال: شوكٌ يأخذُ بالحلقِ لا يدخلُ ولا يخرج[١].

ورَوى عليُّ بنُ أبي طلحة عن ابنِ عباسٍ في قوله: ﴿مِن ضَرِيعٍ﴾ قال: شجرٌ في جهنمَ. وقال مجاهدٌ: الضريعُ: الشبرقُ اليابسُ، وروى أيضًا عن عكرمة وقتادةَ، ورواهُ العوفيُّ عن ابنِ عباسٍ: الشبرقُ: نبتٌ ذو شوكٍ لاطئٍ بالأرضِ، فإذا هاجَ سمِّيَ ضريعًا، وقال قتادة: من أضرعِ الطعامِ وأبشعِه.

وعن سعيدِ بن جبيرٍ في قوله: ﴿مِن ضَرِيعٍ﴾ قال: من حجارةٍ، وعنه قال: الزقومُ. وعن أبي الحواريِّ قال: الضريع: السَّلى شوكُ النخلِ، وكيف يسمنُ شوكُ النخلِ.

وخرَّجَ الترمذيُّ[٢] من حديث أبي الدرداءِ عن النبيِّ ﷺ: «يُلْقَى على أهل

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٣٠٩) لعبد اللَّه بن أحمد في زوائد الزهد.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٨٦).

النار الجوعُ، فيعدلُ ما هم فيه من العذابِ فيستغيثونَ، فيُغاثونَ بطعامٍ من ضريعٍ لا يسمنُ ولا يُغني من جوعٍ، فيستغيثونَ بالطعامِ فيغاثونَ بطعامٍ ذي غصة، فيذكرون أنهم كانُوا يجيزون الغصص في الدنيا بالشرابِ، فيستغيثون بالشرابِ، فيدفعُ إليهم الحميمُ كلاليبِ الحديدِ، فإذا دنتْ من وجوهِهِم شوتْ وجوهَهُم، فإذا وصلتْ بطونَهُم قطعتْ ما في بطونِهِم..» وذكر بقيةَ الحديثِ. وقد رُوي الحديثُ موقوفًا على أبي الدرداءِ، وقيلَ: وقفهُ أشبهُ.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿**فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ**﴾ [الحاقة:٣٥-٣٧] رَوى عليُّ بنُ أبي طلحة، عن ابن عباسٍ من غسلين، قال: هو صديدُ أهل النارِ، وقال شبيبُ بنُ بشرٍ عن عكرمةَ عن ابنِ عباسٍ: الغسلينُ: الدمُ والماءُ يسيلُ من لحومِهِم وهو طعامُهُم.

وعن مقاتلٍ، قال: إذا سالَ القيحُ والدمُ بادرُوا إلى أكلِهِ قبلَ أن تأكله النارُ.

وقال أبو جعفرٍ عن الربيعِ بنِ أنسٍ: الغسلينُ: شجرةٌ في جهنَّم، وعن الضحاك مثلُه.

ورَوى خصيف عن مجاهدٍ عن ابنِ عباسٍ، قال: ما أدري ما الغسلينُ، ولكنِّي أظنُّه الزقومُ.

وقال أبو هلال عن قتادةَ: هو طعامٌ من طعامِ جهنَّم من شرِّ طعامِهِم.

وقال يحيى بنُ سلامٍ: هو غسالةُ أجوافِهِم.

قال ابنُ قتيبةَ: هو فِعلين من غسلتُ، كأنَّه الغسالةُ.

قال شريحُ بنُ عبيدٍ، قال كعبٌ: يقولُ لو دُلِّي من غسلينٍ دلوٌ واحدٌ في

مطلعِ الشمسِ لغلت منه جماجمُ قومٍ في مغربِها. خرَّجه أبو نعيم.

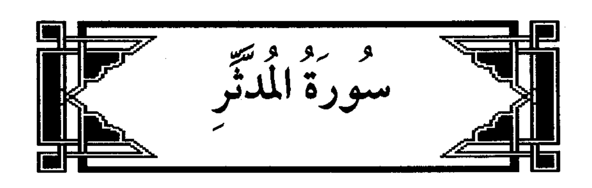
وقد رُوي أن بعضَ أهلِ النارِ يأكلُ لحمه، وسنذكرُ الحديثَ في ذلك فيما بعد إن شاء اللَّه.

وقال اللَّهُ تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾ [النساء:١٠]. وقد روي في حديث: «**إن أكلةَ الرِّبا يبعثونَ تتأججُ أفواهُهُم نارًا**» ثم تلا هذه الآية. خرَّجه ابنُ حبانَ في «صحيحه»[١] من حديثِ أبي برزةَ عن النبيِّ ﷺ[٢].

* * *

(١) «صحيح ابن حبان» (٥٥٦٦).

(٢) «التخويف من النار» (١١٥ ـ ١١٦).



سُورَةُ المُدَّثِّرِ

قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾

قال مجاهدٌ والشَّعْبيُّ وقتادةُ والضحاكُ والنخعيُّ والزُّهريُّ وغيرُهم - في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:٤]: إن المعنى: طهِّرْ نفسَك من الذنوب.

وقال سعيدُ بنُ جبيرٍ: وقلبَك ونيَّتَك فطهِّرْ.

وقريبٌ منه: قولُ مَنْ قال: وعملَك فأصلِحْ، رُوي عن مجاهدٍ وأبي رَوْقٍ والضحاكِ.

وعن الحسنِ والقرظيِّ، قالا: خُلُقَك حسِّنْه.

فكنَّى بالثيابِ عن الأعمالِ، وهي الدِّينُ والتقوى والإيمانُ والإسلامُ وتطهيرُه: إصلاحُه وتخليصُه من المفسداتِ له، وبذلك تحصلُ طهارةُ النفسِ والقلبِ والنيةِ.

وبه يحصلُ حسنُ الخُلُقِ، لأنَّ الدِّينَ هو الطاعاتُ التي تصيرُ عادةً ودَيْدنًا وخُلُقًا، قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

وفسَّرَهُ ابنُ عباسٍ بالدِّينِ[1].

* * *

(١) «فتح الباري» (١/ ٩٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾

وقوله ﷺ: «إنَّ أمنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكرٍ»[(١)] .

قال الخطابيُّ: معنى قوله: «أمَنّ»، أي: أبْذَل لنفسه وأعْطَى لماله، والمنُّ: العطاءُ من غير استثابة، ومنه قوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ [ص:٣٩] ، وقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:٦] أي: لا تُعْطِ لتأخذ أكثر مما أعْطَيتَ، ولم يرد به المِنَّة؛ فإنها تُفسدُ الصَّنيعة، ولا مِنَّةَ لأحدٍ على رسولِ اللَّه ﷺ بل له المِنَّةُ على جميع الأُمَّة[(٢)] .

* * *

قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾

وروى درَّاجٌ عن أبي الهيثم عن أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر:١٧] قال: «جبلٌ من نارٍ يكلفُ أن يصعدَهُ، فإذا وضَعَ يدَهُ عليه ذابتْ، وإذا رفَعَها عادتْ، وإذا وَضعَ رِجلَه عليه ذابتْ، فإذا رَفَعها عادتْ، يصعدُ سبعينَ خريفًا، ثم هَوى مثلَها كذلك» وهذا الحديثُ خرَّجه الإمامُ أحمدُ وغيرُه بمعناه، وخرَّجه الترمذيُّ مختصرًا ولفظُهُ: «الصَّعود جبلٌ من نارٍ يصعدُ فيه الكافرُ سبعينَ خريفًا ويهوِي فيه كذلك أبدًا» . وقال: حديثٌ غريبٌ لا نعرفُهُ مرفوعًا إلا من حديثِ ابن لهيعةَ عن درَّاجٍ، ولكنْ رواه أيضًا عمرُو بنُ الحارثِ عن درَّاجٍ به، خرَّجه من طريقه الحاكمُ، وقال: صحيحُ الإسنادِ[(٣)] .

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٢٦) (٥/ ٧٣)، ومسلم (٧/ ١٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٢) «فتح الباري» (٢/ ٥٥٢).
(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٧٥)، والترمذي (٢٥٧٦ ـ ٣١٦٤ ـ ٣٣٢٦)، والحاكم (٤/ ٥٩٦).

ورَوى هذا الحديثَ أيضًا شريكٌ عن عمارٍ الدهنيِّ عن عطيةَ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ. خرَّجه من طريقِه البزارُ، وقال: تفردَ برفعه شريكٌ، ووقفه سفيانُ على عمارٍ - يعني أنه وقفَهُ على أبي سعيدٍ - ولم يرفعْهُ، ورواه أيضًا عمرُو بنُ قيسٍ الملائي عن عطيةَ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ.

ورَوى سماكٌ عن عكرمةَ، عن ابنِ عباسٍ في قولِه: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ قالَ: جبلٌ في النارِ. ورويناهُ من طريقٍ فيه ضعفٌ عن الضحاكِ عن ابنِ عباسٍ، قال: هو جبلٌ من النارِ زلقٌ كلما صعدَهُ الفاجرُ زلقَ فهوى في النارِ.

وعن ابن السائبِ قال: هو جبلٌ من صخرةٍ ملساءَ في النارِ يكلفُ أن يصعدَها، حتى إذا بلغ أعلاها رُدَّ إلى أسفلِها، ثم يكلفُ أيضًا أن يصعدَها فذلك دأبُهُ أبدًا، ويجذبُ من أمامِهِ بسلاسلِ الحديدِ ويضربُ من خلفِهِ بمقامعِ الحديدِ فيصعدُهَا في أربعين سنةٍ.

وقال أيوبُ بنُ بشيرٍ عن شفي بن ماتعٍ قال: في جهنَّم جبلٌ يُدْعَى صعودًا يطلعُ فيه الكافرُ أربعينَ خريفًا قبل أن يرقاهُ. خرَّجه ابنُ أبي الدنيا[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾

وذكر صاحب سيرة الوزير[2] قال: وسمعته يقول في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥] قال: العرب لا تعرفُ «ذا» ولا «هذا» إلا في الإشارةِ إلى الحاضرِ. وإنما أشارَ هذا القائلُ إلى هذا المسموع. فمن قال: إنَ المسموعَ

(١) «التخويف من النار» (١١٨، ١١٩).

(٢) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

عبارةٌ عن القديم، فقد قال: هذا قول البشر.

قال مصنفُ سيرته: كثيرًا ما سمعتُه يقول: ليس مذهبُ أحمد إلا الاتباع فقط. فما قال السلفُ قاله: وما سكتُوا عنه سكتَ عنه؛ فإنَّه كان يكثُر أن يقالَ: لفظي بالقرآن مخلوق، أو غير مخلوق لأنه لم يقل. وكان يقولُ في آيات الصفات: تمرّ كما جاءت.

قال: وسمعته يقول: تفكرتُ في أخبار الصفاتِ، فرأيتُ الصحابةَ والتابعين سكتُوا عن تفسيرها، مع قوةِ علمهم، فنظرتُ السببَ في سكوتِهم، فإذا هو قوةُ الهيبة للموصوف، ولأنَّ تفسيرَها لا يتأتّى إلا بضربِ الأمثالِ للَّه، وقد قال عز وجل: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤] قال: وكان يقول: لا يفسرُ على الحقيقة ولا على المجازِ؛ لأنَّ حملها على الحقيقة تشبيهٌ، وعلى المجاز بدعةٌ(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾

قال اللَّه تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر:٣٠، ٣١].

قال آدمُ بنُ أبي إياسٍ: حدثنا حمادُ بنُ سلمةَ، حدثنا الأزرقُ بنُ قيسٍ عن رجلٍ من بني تميمٍ: قال: كنَّا عندَ أبي العوامِ فقرأ هذه الآية: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ

---

(١) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٧٣).

عَشَرَ﴾ فقال: ما تقولون، تسعةَ عشرَ ملكًا؟ قلنا: بل تسعةَ عشرَ ألفًا، فقال: ومن أينَ علمتَ ذلك؟ قال: قلتُ لأنَّ اللَّه تعالى يقولُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال أبو العوام: صدقتَ وبيدِ كلِّ واحدٍ منهم مرزبةٌ من حديدٍ لها شعبتانِ، فيضربُ بها الضربةَ يهوي بها سبعينَ ألفًا، بين منكبي كلِّ ملكٍ منهم مسيرةَ كذا وكذا، فعلى قولِ أبي العوامِ ومن وافقه، الفتنةُ للكفارِ، إنما جاء من ذكرِ العددِ الموهمِ للقلةِ حيثُ لم يذكرِ المميزَ له.

ويشبه هذا ما رَوى سعيدُ بن بشيرٍ عن قتادةَ في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر:٣١] أي: من كثرتِهم[١].

وكذلك ما رَوى إبراهيمُ بنُ الحكمِ بنِ أبانٍ وفيه ضعفٌ عن أبيه، عن عكرمةَ قالَ: إنَّ أولَ من وصلَ من أهلِ النار إلى النارِ وجدُوا على البابِ أربع مائة ألفٍ من خزنةِ جهنَّم مسودةٌ وجوهُهُم كالحةٌ أنيابُهم، قد نزعَ اللَّه الرحمة من قلوبِهِم، ليسَ في قلبِ واحدٍ منهم مثقالُ ذرةٍ من الرحمة لو طارَ الطائرُ من منكبِ أحدِهِم لطارَ شهرينِ قبلَ أن يبلغَ المنكبَ الآخرَ، ثم يجدونَ على البابِ التسعةَ عشرَ، عرضُ صدرِ أحدِهِم سبعونَ خريفًا، ثم يهوونَ من بابٍ إلى بابٍ خمسمائةَ سنةٍ حتى يأتُوا البابَ؛ ثم يجدونَ على كلِّ بابٍ منها من الخزنةِ مثلَ ما وجدُوا على البابِ الأولِ، حتى ينتهُوا إلى آخرِها. خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ.

وهذا يدلُّ على أنَّ على كلِّ بابٍ من أبوابِ جهنَّم تسعةَ عشرَ خزانًا هُمْ رؤساءُ الخزنةِ، تحتَ يدِ كلِّ واحدٍ منهم أربعمائة ألفٍ.

---

(١) أخرجه: ابن جرير في «تفسيره» (٢٩/ ١٦٢).

والمشـهورُ بين السلفِ والخلفِ أنَّ الفـتنةَ إنما جاءتْ مـن حيثُ ذكـرِ عددِ الملائكةِ الذين اغترَّ الكفـارُ بقلَّتِهِم، وظنُّوا أنهم يمكنُهُم مدافعتُـهُم وممانعتُهُم، ولم يعلمُوا أن كلَّ واحدٍ من الملائكةَ لا يمكنُ البشرُ كلُّهم مقاومتُهُ، ولهذا قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جعلنا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

قال السُّديُّ: إن رجلاً من قريشٍ يقالُ له أبو الأشدينِ قال: يا معشرَ قريشٍ لا يهولنَّـكم التسعـةَ عشـرَ أنا أدفعُ عنكُم بمنكبي الأيمنِ عشـرةً من الملائكة، وبمنكبي الأيسر التسعة الباقية ثم تمـرونَ إلى الجنةِ ـ يقولُه مستهزئًا ـ فقال اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّ أبا جهلٍ حينَ نزلتْ هذه الآيةُ قال: يا معشرَ قريش أما يستـطيعُ كلُّ عشرةٍ منكم أن يأخذوا واحـدًا من خزنة النارِ وأنتم الدُّهم، وصاحبُكم هذا يزعُمُ أنهم تسعة عشر(١).

وقال قتادةُ: في التوراةِ والإنجيلِ: إنَّ خزنةَ النارِ تسعة عشر(٢).

ورَوى حريثٌ عن الشعبيِّ عن البراءِ في قولِ اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال: إن رهطًا من يهود سألُوا رجلاً من أصحابِ النبيِّ ﷺ عن خزنة جهنم، فقال: اللَّهُ ورسولُهُ أعلمُ. فجاء رجلٌ فأخبرَ النبيَّ ﷺ فأنزلَ اللَّه عليه ساعةَ إذن ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ فأخبر أصحابَهُ، وقال: ادعُهُم، فجاءوا فسألوه عن خزنة جـهنم، فأهْوَى بأصابع كـفيه مـرتين وأمسكَ الإبهامَ في الثـانيةِ،

(١) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (٢٩/ ١٦٠).
(٢) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (٢٩/ ١٦١).

خرَّجه ابن أبي حاتمٍ، وحريثٌ هو ابنُ أبي مطرٍ ضعيف.

وخرَّجه الترمذيُّ[١] من طريقِ مجالدٍ عن الشعبيِّ، عن جابرٍ قال: قال ناسٌ من اليهودِ لناسٍ من أصحابِ النبيِّ ﷺ: هل يعلمُ نبيُّكم عددَ خزنة جهنَّم؟ قالُوا: لا ندري حتى نسأله، فجاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: يا محمدُ غُلِبَ أصحابُكَ اليومَ، قال: «**وما غُلِبُوا؟**» قال: سألتْهُم يهودُ: هل يعلم نبيُّكم عددَ خزنةِ جهنَّم، قال: «**فما قالوا؟**» قالوا: لا ندري حتى نسأل نبيَّنا ﷺ، فقال: «**يغلبُ قومٌ سئلوا عمَّا لا يعلمون، فقالُوا: لا نعلمُ حتى نسأل نبيَّنا، لكنَّهم قد سألُوا نبيَّهم، فقالُوا: أرنَا اللَّهَ جهرةً، عليَّ بأعداءِ اللَّه**» فلما جاءوا قالُوا: يا أبا القاسمِ كم عددُ خزنةِ جهنم؟ قال: «**هكذا أو هكذا**» في مرةٍ عشرةٌ وفي مرة تسعةٌ، قالُوا: نعم، وهذا أصحُّ من حديثِ حريثٍ المتقدمِ، قاله البيهقيُّ وغيرُه.

وخرَّج الإمامُ أحمدُ[٢] من حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ قال: خرجَ علينا رسولُ اللَّه ﷺ يومًا كالمودِّع، فقالَ: «**أنا محمدٌ النبيُّ الأُمّيُّ**» ثلاثًا، «**ولا نبيَّ بعدي، أوتيتُ فواتحَ الكَلِمِ وخواتِمه وجوامعَهُ، وعلمتُ كم خزنةُ النارِ وحملةُ العرشِ**» وذكر بقيةَ الحديث[٣].

* * *

قال اللَّه تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾

---

(١) «الجامع» (٣٣٢٧).

(٢) «المسند» (٢/ ١٧٢ ـ ٢١٢).

(٣) «التخويف من النار» (١٧٣ ـ ١٧٥).

[التحريم:٦]، وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]، وقال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل:١٤]، وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلاَّ وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر:٣١-٣٧].

قال الحسنُ في قوله تعالى: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ قال: «واللَّـهِ ما أنذرَ العبادَ بشيءٍ قط أدْهَى منها» خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ[1].

وقال قتادةُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ يعْني النار[1].

وروى سماكُ بنُ حربٍ، قال: سمعتُ النعمانَ بنَ بشيرٍ يخطبُ، يقولُ: سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقولُ: «أنذرتُكم النارَ أنذرتُكُمُ النارَ» حتى لو أنَّ رجلاً كان بالسوقِ لسمعَهُ من مقامِي هذا. حتَّى وقعتْ خميصةٌ كانتْ على عاتقِهِ عند رجليه، خرَّجه الإمامُ أحمدُ[2]، وفي روايةٍ له أيضًا عن النعمان بن بشيرٍ، قالَ: قال رسول اللَّه ﷺ: «أنذرتُكُمُ النارَ، أنذرتُكُمُ النارَ» حتَّى لو كانَ رجلٌ في أقْصى السوقِ لسمعَهُ وسمعَ أهلُ السوقِ صوتَهُ، وهو على المنبرِ، وفي روايةٍ له عن سماكٍ، قال: سمعتُ النعمانَ يخطبُ وعليه خميصةٌ، فقال: لقد سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقولُ: «أنذرتُكُمُ النارَ، أنذرتُكُمُ النارَ» فلو أنَّ

---

(١) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (٢٩/١٦٣).

(٢) «المسند» (٤/٢٦٨ ـ ٢٧٢).

رجلاً بموضعِ كذا وكذا، سمعَ صوتَهُ.

وعن عديِّ بنِ حاتمٍ قال: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**اتَّقوا النارَ**» قال: وأشاحَ، ثم قال: «**اتَّقوا النارَ**»، ثم أعرَض وأشاحَ ثلاثًا حتَّى ظننَّا أنه ينظرُ إليها، ثم قالَ: «**اتَّقوا النارَ ولو بشقِّ تمرةٍ، فمن لم يجدْ فبكلمةٍ طيبةٍ**» خرَّجاه في «الصحيحين»[(١)].

وخرَّج البيهقيُّ[(٢)] بإسنادٍ فيه جهالةٌ عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ: «**يا معشر المسلمينَ ارغبُوا فيما رغَّبَكم اللَّه فيه، واحذرُوا، وخافُوا ما خوَّفَكُمُ اللَّهُ به من عذابِهِ وعقابِهِ، ومن جهنَّم، فإنَّها لو كانتْ قطرةٌ من الجنةِ معكُم في دنياكم التي أنتم فيها حلَّتها لكُم، ولو كانتْ قطرةٌ من النارِ معكُم في دنياكم التي أنتُم فيها خبثْتها عليكُم**».

وفي «الصحيحين»[(٣)] عن أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إنَّما مثلي ومثلُ أُمَّتي كمثلِ رجلٍ استوقدَ نارًا، فجعلتِ الدوابُّ والفراشُ يقعْنَ فيها، فأنا آخذُ بحَجُزِكُم عن النارِ وأنتُم تقتحمون فيها**» وفي روايةٍ لمسلمٍ: «**مثلي كمثلِ رجلٍ استوقدَ نارًا، فلمَّا أضاءتْ ما حولَها جعلَ الفراشُ وهذه الدوابُّ التي في النارِ يقعنَ فيها، وجعلَ يحجزُهُنَّ ويغلبْنَهُ فيقتحمنَ فيها**» قال: «**فذلكم مَثَلي ومثلُكُم أنا آخذ بحجُزِكُم عن النارِ، هلمَّ عن النارِ، هلمَّ عن النارِ، فتغلبُوني وتقتحمون فيها**».

وفي روايةٍ للإمامِ أحمدَ[(٤)]: «**مَثَلي ومثلُكُم أيتها الأُمَّةُ كمثلِ رجلٍ أوقدَ نارًا بليلٍ، فأقبلتْ إليها هذه الفراشُ والذبابُ التي تغشى النارَ، فجعل يذبُّها ويغلبْنَهُ إلا تقحُّمًا في**

---

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ١٣٩ ـ ١٤٤)، (٩/ ١٦٢ ـ ١٨١)، ومسلم (٣/ ٨٦).

(٢) «البعث والنشور» (٥٤٦).

(٣) أخرجه: البخاري (٤/ ١٩٨)، (٨/ ١٢٦)، ومسلم (٧/ ٦٣).

(٤) «المسند» (٢/ ٥٣٩).

النارِ، وأنا آخذ بحجزِكُم أدعوكُم إلى الجنةِ وتغلبونِي إلا تقحُّمًا في النارِ» .

وخرَّج الإمامُ أحمدُ[1] أيضًا من حديثِ ابنِ مسعودٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ اللَّه لم يحرمْ حرمةً إلا وقدْ علمَ أنَّه سيطلعها منكم مطلعٌ، ألا وإنّي آخذُ بحجزِكُم أن تهافَتُوا في النارِ، كتهافُتِ الفراشِ والذبابِ» .

وخرَّج البزارُ والطبرانيُّ[2] من حديثِ ابنِ عباسٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «أنا آخذ بحجزِكُم فاتقوا النارَ، اتقوا النارَ، اتقوا الحدودَ، فإذا متُّ تركْتُكُم، وأنا فرطُكُم على الحوضِ، فمن وردَ فقد أفْلَحَ، فيؤْتَى بأقوامٍ ويؤخذُ بهم ذاتَ الشمالِ، فأقولُ: ربِّ أمتي، فيقولُ: إنَّهم لم يزالوا بعدَكَ يرتدونَ على أعقابِهِم» وفي روايةٍ للبزارِ، قال: «وأنا آخذ بحجزِكُم أقولُ: إيَّاكُم وجهنم، إيَّاكُم والحدودَ، إيَّاكُم وجهنم، إيَّاكُم والحدودَ، إيَّاكُم وجهنمَ، إيَّاكم والحدودَ» وذكر بقية الحديثِ.

وفي «صحيح مسلمٍ»[3] عن أبي هريرة قال: لما نزلتْ هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، دعا رسولُ اللَّه ﷺ قريشًا فاجتمَعُوا، فعمَّ وخصَّ، فقال: «يا بني كعبِ بنِ لؤيٍّ، أنقذوا أنفسكم من النارِ، يا بني مُرَّةَ بنِ كعبٍ، أنقذُوا أنفسكُم من النارِ، يا بني عبدَ شمسٍ، أنقذُوا أنفسكم من النارِ، يا بني عبدِ مناف، أنقذُوا أنفسكم من النارِ، يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النارِ، يا فاطمةُ بنتُ محمدٍ، أنقذِي نفسك من النارِ، فإنِّي لا أملك لكم من اللَّه شيئًا» .

وخرَّج الطبرانيُّ[4] وغيرُه من طريقِ يعلى بن الأشدقِ عن كليبِ بنِ حزنٍ،

---

(١) «المسند» (١/ ٤٢٤).

(٢) أخرجه: البزار (١٥٣٦ ـ كشف)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٣٣)، (١٢/ ٧١).

(٣) (١/ ١٣٣).

(٤) «المعجم الكبير» (١٩/ ٢٠٠).

قال: سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقولُ: «**اطلبُوا الجنةَ جهدَكُم واهربُوا من النارِ جهدكم، فإن الجنة لا ينامُ طالبها، وإنَّ النارَ لا ينامُ هاربها، وإن الآخرةَ اليوم محفوفةٌ بالمكارِهِ، وإن الدنيا محفوفةٌ باللذاتِ والشهواتِ، فلا تلهينَّكُم عن الآخرةِ**» ويُروى هذا الحديثُ أيضًا عن يعلى بن الأشدقِ عن عبدِ اللَّهِ بن جرادٍ عن النبيِّ ﷺ، وأحاديثُ يعلى بنِ الأشدقِ باطلةٌ منكرةٌ.

وخرَّج الترمذيُّ[1] من حديثِ يحيى بن عبدِ اللَّه عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**ما رأيتُ مثلَ النارِ نامَ هاربُها، ولا مثلَ الجنةِ نامَ طالبُها**» ويحيى هذا ضعفُوه، وخرَّجه ابنُ مردويه من وجهٍ آخرَ أجودَ من هذا إلى أبي هريرة، وخرَّج الطبرانيُّ[2] نحوَه بإسنادٍ فيه نظرٌ عن أنس عن النبيِّ ﷺ، وخرَّجه ابنُ عديٍّ بإسنادٍ ضعيفٍ عن عمرَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ.

وقال يوسفُ بنُ عطيةَ عن المعلى بنِ زيادٍ: كانَ هرمُ بنُ حيانَ يخرجُ في بعضِ الليالي وينادي بأعلَى صوتِهِ: عجبتُ من الجنةِ كيفَ نامَ طالبُها، وعجبتُ منَ النارِ كيف نامَ هاربُها، ثم يقول: ﴿**أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ**﴾ الآية [الأعراف: ٩٧].

وقال أبو الجوزاءِ: لو وليتُ من أمرِ الناس شيئًا اتخذتُ منارًا على الطريقِ وأقمتُ عليها رجالاً ينادون في الناس: النارَ النارَ. خرَّجه الإمامُ أحمدُ في كتابِ «الزهدِ».

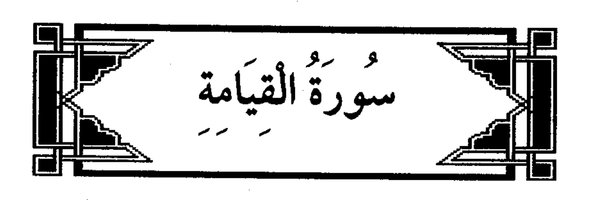
وخرَّج ابنُه عبدُ اللَّه في هذا الكتابِ أيضًا بإسنادِهِ عن مالكِ بنِ دينارٍ، قال: لو وجدتُ أعوانًا لناديتُ في منارِ البصرةِ بالليلِ: النارَ النارَ، ثم قال:

(١) «الجامع» (٢٦٠١).

(٢) «المعجم الأوسط» (١٦٣٨).

لو وجـدتُ أعوانًا لناديتُ فـي منارِ البصـرةِ بالليلِ: النارَ النارَ، ثم قـال: لو وجدتُ أعوانًا لفرقتهم في منارِ الدنيا: يا أيها الناس النارَ النارَ[1] .

* * *



سُورَةُ الْقِيَامَةِ

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾

[قال البخاريُّ]: حدثنا الحُميديُّ: ثنا مروانُ بن مُعاويةَ: ثنا إسماعيلُ عن قيْسٍ، عن جريرِ بنِ عبدِ اللَّه، قال: كُنَّا عندَ النبيِّ ﷺ، فنظرَ إلى القمرِ ليْلَةَ البدْرِ، فقالَ: «**إنَّكم سترونَ ربَّكُم كما تروْنَ هذا القمَرَ، لا تُضامُون في رُؤيَتِه، فإن استطعْتُم أن لا تُغْلبُوا على صلاةٍ قبْلَ طُلُوعِ الشمسِ وقبْلَ غُرُوبِها فافْعَلُوا**» ثمَّ قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾»[2] [ق:٣٩].

قال إسْماعيلُ: افعَلُوا لا تفُوتنَّكُمْ.

هذا الحديثُ نصٌّ في ثبوتِ رؤيةِ المؤمنينَ لربِّهم في الآخرةِ، كما دلَّ على ذلك قولهُ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣]، ومفهومُ قولِه في حقِّ الكفارِ: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥].

قال الشافعيُّ وغيرُهُ: لما حَجَبَ أعداءَهُ في السخطِ دلَّ على أنَّ أولياءَه يرونَهُ في الرِّضا.

والأحاديثُ في ذلكَ كثيرةٌ جدًا، وقد ذكَرَ البخاريُّ بعضَها في أواخرِ «الصحيحِ» في «كتاب التوحيد» وقد أجمعَ على ذلكَ السَّلفُ الصالحُ مِنَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ لهُم بإحسانٍ من الأئمةِ وأتباعِهِم.

---

(١) «التخويف من النار» (٨ ـ ١١).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٤٥ ـ ١٥٠)، (٦/ ١٧٣)، (٩/ ١٥٦)، ومسلم (٢/ ١١٣).

وإنَّما خالفَ فيه طوائفُ أهلِ البدعِ، من الجهميّةِ والمعتزلةِ ونحوِهم ممَّن يردُّ النصوصَ الصحيحةَ لخيالاتٍ فاسدةٍ وشبهاتٍ باطلةٍ، يخيلُهَا لهمُ الشيطانُ، فيُسرعونَ إلى قَبولِهَا منه، ويوهمُهُم أنَّ هذه النصوصَ الصحيحةَ تستلزمُ باطلاً، ويسميه تشْبيهًا أو تجْسيمًا، فينفرونَ منه، كما خيَّل إلى المشركينَ قبلَهُم أنَّ عبادة الأوثانِ ونحوِها تعظيمٌ لجنابِ الربِّ، وأنَّه لا يُتوصلُ إليه من غيرِ وسائط تعبدُ فتقربُ إليه زُلفًا، وأنَّ ذلك أبلغُ في التعظيم والاحترام، وقاسَهُ لهم على ملوكِ بني آدم، فاستجابُوا لذلكَ، وقبلوه منه.

وإنَّما بعثَ اللَّهُ الرسلَ وأنزلَ الكتبَ لإبطالِ ذلكَ كلِّه، فمن اتَّبع ما جاءوا به فقد اهتدى، ومنْ أعْرَضَ عنه أو عن شيءٍ منه واعترضَ فقد ضلَّ.

وقولهُ: «**كما ترونْ هذا القمرَ**» شبَّه الرؤية بالرؤيةِ، لا المرئي بالمرئي سبحانه وتعالى.

وإنَّما شبَّه الرؤية برؤية البدر، لمعنيين:

أحدهما: أنَّ رؤية القمرِ ليلةَ البدرِ لا يُشك فيه ولا يُمترى.

والثاني: يتسوى فيه جميعُ الناسُ من غير مشقةٍ.

وقد ظنَّ المريسيُّ ونحوُه ممَن ضلَّ وافترى على اللَّه، أنَّ هذا الحديثَ يُرد؛ لما يتضمن من التشبيهِ، فضلَّ وأضلَّ. واتفقَ السلفُ الصالحُ على تلَقِّي هذا الحديث بالقبولِ والتصديقِ.

قال يزيدُ بنُ هارونَ: من كذَّب بهذا الحديثِ فهو بريءٌ من اللَّهِ ورسولِهِ.

وقال وكيعٌ: مَنْ ردَّ هذا الحديثَ فاحسبوه من الجهميَّةِ.

وكان حسينٌ الجعفيُّ إذا حدَّث بهذا الحديثِ، قال: زَعَمَ المريسي.

وقوله: «**لا تضامُّون في رؤيته**».

قال الخطابيُّ: «**لا تضامون**» رُوي على وجهين:

مفتوحةُ التاءِ، مشددةُ الميم، وأصلُهُ تتضامُّون، أي لا يضامُّ بعضكم بعضًا، أي: لا يُزَاحم، من الضمِّ، كما يفعلُ الناسُ في طلبِ الشيء الخفي، يريدُ أنكم ترونَ ربَّكم وكلٌّ واحدٍ منكم وادِعٌ في مكانِهِ، لا ينزاعه فيه أحدٌ.

والآخرُ: مخفف: تُضامُون ـ بضمِّ التاءِ ـ من الضَّيمِ، أي: لا يضيم بعضُكم بعضًا فيه. انتهي.

وذكرَ ابنُ السمعاني فيه روايةً ثالثةً: «**تُضامُّون**» ـ بضم التاء، وتشديدِ الميمِ ـ قال: ومعناها: لا تزاحِمُون، قال: ورواية ـ فتح التاء مع تشديدِ الميم ـ معناها: لا تزاحَمُون.

وقولُه: «**كما ترونْ القمرَ ليلةَ البدر**» يقوِّي المعنى الأولَ.

وجاء التصريحُ به في روايةِ أبي رَزينِ العُقيليِّ، أنَّه قال: يا رسولَ اللَّه، أكلُّنا يَرَى ربَّه يومَ القيامةِ؟ وما آيةُ ذلك في خَلْقِه؟ قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**أليس كُلُّكُمْ ينظرُ إلى القمرِ مُخْلِيًا به؟**» قال: بلى، قال: «**فاللَّه أعظمُ**».

خرَّجه الإمامُ أحمدُ[١].

وخرَّجه ابنُه عبدُ اللَّه في «المسندِ»[٢] بسياق مطولٍ جدا، وفيه ذكرُ البعث والنشورِ، وفيه: «**فتخرجُون من الأصواء ـ أو: من مصارِعكُم ـ فتنظرُون إليْه وينظرُ**

---

(١) «المسند» (٤/ ١١ ـ ١٢).

(٢) (٤/ ١٣ ـ ١٤).

إليكُمْ» قال: قلتُ: يـا رسول اللّه، وكيفَ ونحنُ مِـلْءِ الأرضِ وهُو شخْصٌ واحدٌ، يـنظُرُ إلينا وننْظُرُ إليه؟ قـال: «**أُنبـئك بمثلِ ذلك، الشَّـمْسُ والقَمَـرُ، آيةٌ منْهُ صغـيرةٌ، تروْنَهُمـا ويريانكُمْ ساعةً واحـدةً، لا تضارون في رُؤيَتهِـما، ولعَمْـرُ إلهكَ لَهُوَ أقْدرُ عـلى أنْ يرَاكُمْ وتَرَوْنَهُ من أنْ تَرَوْنَهُمـا ويرَيانكُم، لا تُضـارُّون في رؤيتهِـما**» وذكر بقيةَ الحديثِ.

وخرَّجه الحاكم[1] وقال: صحيحُ الإسناد.

وقد ذكَرَ أبو عـبد اللَّه بنُ منده إجماعَ أهلِ العلمِ على قـبولِ هذا الحديثِ ونَقَلَ عبَّاسٌ الدُّوري، عن ابن معينٍ أنَّه استحسنه.

وقولُهُ: «**فإنِ اسْـتَطَعْتُمْ أن لا تُغْـلبُوا على صـلاةٍ قبْلَ طلُوعِ الشَّـمْسِ وقبْلَ غُـرُوبِها فافْـعَلُوا**» أمـر بالمحافظةِ على هاتينِ الـصلاتين، وهمـا صلاةُ الفـجرِ وصـلاةُ العصرِ، وفيه إشارةٌ إلى عظمِ قـدْرِ هاتينِ الصلاتينِ، وأنَّهُما أشرفُ الصلوات الخـمسِ، ولهذا قِـيل في كلٍّ منهُـمـا: إنّها الصـلاةُ الوسطى، والقـولُ بأنَّ الوسْطَى غيرُهما لا تعويلَ عليه.

وقد قـيل في مناسبـةِ الأمرِ بالمحـافظةِ على هاتينِ الصـلاتينِ عقـيبَ ذكرِ الرؤيةِ: أنَّ أعلى ما في الجنَّـةِ رؤيةُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وأشرفُ مـا في الدنيا من الأعمالِ هاتان الصلاتانِ، فالمحافظةُ عليـهما يُرجى بها دخولُ الجنةِ ورؤيةُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فيها.

كما في الحديثِ الآخر: «**منْ صلَّى البـردين دخل الجنَّة**»[2] وسيأتي ـ إن شاء

---

(١) «المستدرك» (٤/ ٥٦٠ ـ ٥٦٤).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٥٠)، ومسلم (٢/ ١١٤) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

اللَّه في موضعه.

وقيل: هو إشارةٌ إلى أنَّ دخولَ الجنة إنَّما يحصلُ بالصلاةِ مع الإيمانِ، فمنْ لا يصلِّي فليس بمسلمٍ، ولا يدخلُ الجنةَ بلْ هو من أهل النارِ، ولهذا قال أهلُ النارِ لما قيل لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[المدثر: ٤٢، ٤٣].

ويظهرُ وجْهٌ آخرُ في ذلك، وهو: أنّ أعْلى أهلِ الجنَّة منزلةً من ينظر في وجْهِ اللَّه عزَّ وجلَّ مرتين بُكْرة وعشيا، وعُمومُ أهلِ الجنَّة يرونه في كلِّ جمعةٍ في يومِ المزيدِ، والمحافظةُ على هاتينِ الصلاتينِ على ميقاتِهِمَا ووضوئِهِمَا وخشوعِهِما وآدابهما يُرجى به أن يوجبَ النظرَ إلى اللَّه عزَّ وجلَّ في الجنَّة في هذين الوقتين.

ويدلُّ على هذا ما رَوى ثُوَيْرُ بنُ أبي فاختَة، قال: سمعتُ ابنَ عمرَ، يقول: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**إنَّ أدْنى أهلِ الجنَّة منزلةً لمنْ ينظرُ إلى جنانه وأزْواجه ونعيمه وخدَمِهِ وسرُرِهِ مسيرةَ ألفَ سنة، وأكْرَمُهُمْ على اللَّه منْ ينظرُ إلى وجهه غدْوَةً وعشيا**» ثم قرأ رسولُ اللَّه ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

خرَّجه الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ[١] وهذا لفظُهُ. وخرَّجه - أيضًا - موقوفًا على ابنِ عمرَ. وثُوَيْرٌ فيه ضعفٌ.

وقد رُوي هذا المعنى من حديث أبي بَرْزة الأسلميِّ مرفوعًا - أيضًا - وفي إسنادِهِ ضعفٌ.

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٣ - ٦٤)، والترمذي (٢٥٥٣ - ٣٣٣٠).

وقاله غيرُ واحدٍ من السَّلفِ منهم: عبْدُ اللَّه بنُ بُريدةَ وغيرُه.

فالمحافظةُ على هاتين الصلاتينِ تكون سببًا لرؤية اللَّه في الجنَّةِ في مثلِ هذين الوقتين، كما أنَّ المحافظةَ على الجمعةِ سببٌ لرؤية اللَّه في يومِ المزيدِ في الجنَّة، كما قال ابن مسعود: سارعُوا إلى الجُمُعات؛ فإنَّ اللَّه يبرز لأهل الجنَّة في كلِّ جمعةٍ على كثيبٍ من كافورٍ أبيضَ، فيكونونَ منه في الدنو على قدْرِ تبكيرهم إلى الجُمُعاتِ.

ورُوي عنه مرفُوعًا. خرَّجه ابنُ ماجه[١].

ورُوي عن ابن عباسٍ، قال: مَنْ دخلَ الجنةَ من أهلِ القُرى لم ينظر إلى وجْه اللَّه؛ لأنَّهم لا يشهدون الجمعة.

خرَّجه أبو بكر عبد العزيز بن جعفر في كتاب «الشافي» بإسنادٍ ضعيفٍ.

وقد رُوي من حديثِ أنس مرفوعًا: «**إنَّ النساءَ يريْنَ ربّهنَّ في الجنّة في يومي العيدين**».

والمعنى في ذلك: أنّهنَّ كُنَّ يشاركن الرجال في شهود العيدين دون الجُمع.

وقولُه: ثم قرأ: ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوب**﴾ [ق:٣٩] الظاهر أن القارئَ لذلكَ هو النبيُّ ﷺ.

وقد رُوي من روايةِ زيدِ بن أبي أُنَيْسة، عن إسماعيلَ بنِ أبي خالدٍ، عن جريرٍ البَجَلي في هذا الحديثِ: ثم قرأ رسولُ اللَّه ﷺ: ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾ الآية.

---

(١) «السنن» (١٠٩٤).

خرَّجه أبو إسماعيلَ الأنصاريُّ في كتابِ «الفاروقِ».

وقد قيل: إنَّ هذه الكلمةَ مدرجةٌ، وإنَّما القارئُ هو جرير بن عبد اللَّه البَجَلي.

وقد خرَّجه مسلمٌ في «صحيحِهِ»[1] عن أبي خيثمة، عن مروان بن معاوية فذكر الحديثَ، وقال في آخره: ثم قرأ جريرٌ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩].

وكذا رواه عَمْرُو بنُ زُرارة وغيرُه، عن مروان بن معاويةَ، وأدرجه عنه آخرون[2].

* * *

(٢٨٦) (٢/ ١١٣ ـ ١١٤).

(٢) «فتح الباري» (٣/ ١٣٣ ـ ١٣٨).

سُورَةُ الإِنْسَانِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾

قال اللَّــه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان:٢] وفسَّر طائفـةٌ من السَّلَفِ أمشـاجَ النُّطفـةِ بالعُروقِ التي فـيهـا. قال ابنُ مـسعـودٍ: أمشاجُها: عروقُها[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً﴾

قال اللَّه تـعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً﴾ [الإنسان:٤]، وقال اللَّهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سبأ:٣٣]، وقال اللَّهُ تعالى: ﴿إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:٧١، ٧٢]، وقال: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة:٣٠ - ٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيماً﴾ [المزمل:١٢، ١٣].

وقـرأ ابنُ عبـاسٍ: «وَالسـلاسِلَ يُسْـحَبُـونَ» بنصب السـلاسل وفـتحِ ياءِ يسحـبونَ، قـال: هو أشدُّ عليهم هـم يسحبـون السلاسلَ. خـرَّجه ابنُ أبي حاتم.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٤٢).

فهذه ثلاثةُ أنواعٍ:

أحدها: **الأغلالُ**: وهي في الأعناقِ، كما ذكر سبحانه.

قال الحسنُ بنُ صالحٍ: الغلُّ تغلُّ اليدُ الواحدةُ إلى العنق، والصفدُ: اليدانِ جميعًا إلى العنقِ. خرجَّه ابنُ أبي الدنيا.

وقال أسباط عن السُّديِّ: الأصفادُ تجمعُ اليدينِ إلى العنق.

وقال معمرٌ عن قتادةَ في قوله: ﴿**مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ**﴾ [إبراهيم:٤٩]، قال: مقرنين في القيودِ والأغلالِ.

قال عيينةُ بنُ الغصنِ عن الحسنِ: إنَّ الأغلالَ لم تُجعلْ في أعناقِ أهلِ النارِ لأنَّهم أعجزُوا الربَّ عزَّ وجلَّ، ولكنها إذا طُفِيءَ بهم اللهبُ أرسَبْتهُم، قال: ثم خرَّ الحسنُ مغشيًّا عليه.

وقال سيَّارُ بنُ حاتمٍ: حدثنا مسكينٌ عن حوشبٍ عن الحسنِ أنه ذكرَ النارَ فقالَ: لو أنَّ غلاً منها وُضِعَ على الجبالِ لقصمَهَا إلى الماءِ الأسودِ، ولو أنَّ ذراعًا من السلسلة وُضِعَ على جبلٍ لرضَّه.

ورَوى ابنُ أبي حاتمٍ بإسنادِهِ عن موسى بنِ أبي عائشةَ أنَّه قرأ قولَهُ تعالى: ﴿**أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ [الزمر:٢٤]، قال: تشدُّ أيديهم بالأغلالِ في النارِ، فيستقبلونَ العذابَ بوجوهِهِم قد شدتْ أيديهم، فلا يقدرون على أن يتَّقوا بها، كلما جاء نوعٌ من العذابِ يستقبلونَ بوجوهِهِم.

وبإسنادِهِ عن فيضِ بنِ إسحاقَ عن فضيلِ بنِ عياضٍ: إذا قال الربُّ تباركَ وتعالى: ﴿**خُذُوهُ فَغُلُّوهُ**﴾ [الحاقة:٣٠] تبدَّرهُ سبعونَ ألفَ ملكٍ كلُّهم يتبدرُ أيهم يجعلُ الغلَّ في عنقِهِ.

النوع الثاني: الأنكالُ: وهي القيودُ، قال مجاهدٌ والحسنُ وعكرمةُ وغيرُهم، قال: الحسنُ: قيودٌ من نارٍ، قال أبو عمرانَ الجونيُّ: قيودٌ لا تحلُّ واللَّه أبدًا، وواحدُ الأنكالِ: نكلٌ، وسميت القيودُ أنكالاً لأنه ينكلُ بها، أي يمنعُ.

وروى أبو سنانَ عن الحسنِ: أما وعزَّتِه ما قيدَهُم مخافةَ أن يعجزُوه، ولكن قيدَهُم لترسَى في النارِ.

وقال الأعمشُ: الصفدُ: القيودُ، وقولُهُ تعالى: ﴿**مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ**﴾ [إبراهيم:٤٩] القيودُ، وقد سبقَ عن أبي صالحٍ قولُهُ: ﴿**فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ**﴾ [الهمزة:٩]، قال: القيودُ الطوالُ.

النوع الثالثُ: السلاسلُ: خرجَ الإمامُ أحمدُ وغيرُه من طريقِ أبي السمحِ عن عيسى بنِ هلالٍ الصدفيِّ عن عبد اللَّه بن عمرٍو، قال: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**لو أنَّ رصاصةً مثلَ هذه - وأشار إلى مثل الجمجمةِ - أُرسلت من السماءِ إلى الأرضِ وهي مسيرةُ خمسمائة عامٍ لبلغتِ الأرض قبل الليلِ، ولو أنَّها أُرسلتْ من رأسِ السلسلةِ لسارتْ أربعينَ خريفًا الليلَ والنهارَ قبل أن تبلغَ أصولَها**» غريبٌ، وفي رفعِهِ نظرٌ، واللَّه أعلم.

وفي حديثِ عديٍّ الكنديِّ عن عمرَ أنَّ جبريلَ قال للنبيِّ ﷺ: «**لو أن حلقةً من سلسلةِ أهلِ النارِ التي نعتَ اللَّهُ في كتابِهِ وُضِعَتْ على جبالِ الدنيا لانقضتْ ولم يردَّها شيءٌ حتى تنتهي إلى الأرضِ السابعةِ السفلى**» خرَّجه الطبرانيُّ، وسبق الكلامُ على إسنادِهِ.

وروى سفيانُ عن بشيرٍ عن نوف الشامي في قولِه تعالى: ﴿**ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ**﴾ [الحاقة:٣٢]، قال: إن الذراعَ سبعونَ باعًا، والباعُ

من هاهُنا إلى مكة! ـ وهو يومئذ بالكوفةِ.

وقال ابنُ المباركِ: أنبأنا بكَّارُ عن عبدِ اللَّه سمعَ ابنَ أبي مليكةَ يحدِّثُ أنَّ كعبًا قال: إنَّ حلقةً من السلسلة التي قال اللَّهُ: ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ [الحاقة:٣٢] : إن حلقةً منها أكثرُ من حديدِ الدُّنيا.

وقال ابنُ جريجٍ في قولِهِ: ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ قال: بذراعِ الملكِ.

وقال ابنُ المنكدرِ: لو جُمعَ حديدُ الدنيا كلُّه ما خلا منها وما بقي ما عدلَ حلقةً من الحلقِ التي ذكرَ اللَّهُ في كتابِهِ تعالى فقال: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ أخرجه أبو نعيم.

قال ابنُ المباركِ عن سفيانَ في قوله: ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ قال: بلَغنا أنها تدخلُ في دُبُرِهِ حتى تخرج منه.

وقال ابنُ جريجٍ: قال ابنُ عباسٍ: السلسلةُ تدخلُ في إستِهِ ثمَّ تخرجُ من فِيه، ثم يُنظمونَ فيها كما ينظمُ الجرادُ في العودِ حتَّى يُشْوَى. خرَّجه ابنُ أبي حاتم. وخرَّجه أيضًا من روايةِ العوفيِّ عن ابن عباسٍ، قال: تسلكُ في دُبُرِهِ حتَّى تخرج من منخريهِ حتى لا يقوم على رجليه.

وخرَّج ابنُ أبي الدنيا من طريقِ خلفِ بنِ خليفةَ عن أبي هاشمٍ قال: يجعلُ لهم أوتادٌ في جهنَّم فيها سلاسلٌ فتلقَى في أعناقِهِم، فتزفرُ جهنَّمُ زفرةً فتذهبُ بهم مسيرةَ خمسمائة سنةٍ، ثم تجيءُ بهم في يومٍ، فذلك قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧].

ومن طريقِ أشعثَ عن جعفرٍ عن سعيدِ بنِ جبيرٍ، قال: لو انفلتَ رجلٌ من أهلِ النارِ بسلسلةٍ لزالت الجبالُ.

وقال جويبرٌ عن الضحاكِ في قوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ [الرحمن:٤١]، قال: يجمعُ بين ناصيتِهِ وقدميهِ في سلسلةٍ من وراء ظهرِه.

وقال السديُّ في هذه الآيةِ: يجمعُ بين ناصيةِ الكافرِ وقدميه، فتربطُ ناصيتُهُ بقدمِهِ وظهره ويفتلُ.

وذكر الأعمشُ عن مجاهدٍ عن ابنِ عباسٍ، قال: يؤخذَ بناصيتِه وقدميه ويكسر ظهرُهُ، كما يكسرُ الحطبُ في التنورِ.

وقال سيارُ بنُ حاتمٍ: حدثنا مسكينُ عن حوشبٍ عن الحسنِ، قال: إنَّ جهنمَ ليَغلي عليها من الدهرِ إلى يومِ القيامةِ يُحمى طعامُها وشرابُها وأغلالُها، ولو أنَّ غلاًّ منها وُضِعَ على الجبالِ لقصَمَهَا إلى الماء الأسودِ، ولو أنَّ ذراعًا من السلسلةِ وضعَ على جبلٍ لرضَّه، ولو أنَّ جبلاً كان بينه وبين عذابِ اللَّه عزَّ وجلَّ مسيرةَ خمسمائة عامٍ لذابَ ذلك الجبلُ، وإنَّهم ليُجمعونَ في السلسلةِ من آخرِهِم فتأكلُهُم النارُ وتبقى الأرواحُ.

ورواه ابنُ أبي الدنيا عن عبدِ اللَّه بن عمرَ الجشميِّ، عن المنهالِ بن عيسى العبديِّ، عن حوشبٍ، عن الحسنِ، عن النبيِّ ﷺ فذكرَهُ بمعناهُ، وزادَ في آخرِهِ: «**تبقى الأرواحُ في الحناجرِ تصرخُ**» والموقوفُ أشبهُ.

وقال عبدُ اللَّه بنُ الإمامِ أحمدَ: أخبرت عن سيَّارٍ عن ابنِ المعزِّي ـ و كان من خيارِ الناسِ. قال: بلغني أنَّ الأبدانَ تذهبُ وتبقى الأرواحُ في السلاسلِ.

وخرَّج الطبرانيُّ(١) وابنُ أبي حاتمٍ من طريقِ منصورِ بنِ عمار، حدثنا بشيرُ ابنُ طلحةَ، عن خالدِ بن الدريكِ، عن يعْلَى بنِ منيةَ رفعَ الحديثَ إلى النبيِّ

---

(٢٨٧) «المعجم الأوسط» (٣٠١٤).

ﷺ قال: «ينشيءُ اللَّهُ سبحانه لأهلِ النارِ سحابةً سوداءَ مظلمةً، فيقالُ: يا أهلَ النارِ، أيَّ شيءٍ تطلبون؟ فيذكرون بها سحابة الدنيا، فيقولون: يا ربَّنا الشرابُ، فتمطرُهم أغلالاً تزيدُ في أغلالهم، وسلاسلَ تزيدُ في سلاسلهم، وجمرًا يلتهبُ عليهم».

وخرَّجه ابنُ أبي الدنيا موقوفًا لم يرفعْهُ.

ورَوى أبو جعفر الرازيُّ عن الربيعِ بنِ أنسٍ عن أبي العاليةَ وغيرُه عن أبي هريرة، فذكرَ قصةَ الإسراء بطولها وفيها قال: «ثم أتى على وادٍ - يعني النبي ﷺ - فسمعَ صوتًا منكرًا ووجدَ ريحًا منتنةً، فقال: ما هذا يا جبريلُ؟» فقال: هذا صوتُ جهنَّم تقولُ: ربِّ آتني ما وعدتني، فقدْ كثُرَتْ سلاسلي وأغلالي وسعيري وحميمي وغساقي وعذابي، وقد برد قعري واشتدَّ حرّي فآتني ما وعدتني، قال: لكِ كلُّ مشركٍ ومشركةٍ، وكافرٍ وكافرةٍ، وكل خبيثٍ وخبيثةٍ وكل جبارٍ لا يؤمن بيوم الحسابِ»[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا﴾

قال بعضُ السلفِ: إنَّ اللَّه تعالى وصفَ الجنَّة بصفة الصَّيفِ لا بصفة الشتاء، فقال تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ [الواقعة: ٢٨ - ٣٢]. وقد قال اللَّهُ تعالى في صفةِ أهل الجنة: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣] فنفَى عنهم شدة الحرِّ والبردِ. قال قتادةُ: علِمَ اللَّهُ أنَّ شدَّةَ الحرِّ

(١) «التخويف من النار» (٩٧ - ١٠٢).

تؤذي، وشدة البردِ تؤذي، فوقاهم أذاهما جميعًا[1] .

* * *

جاء في حديثٍ مرفوعٍ: «**إنَّ زمهريرَ جهنَّمَ بيت يتميزُ فيه الكافرُ من بردِهِ**» يعني: يتقطع ويتمزعُ.

ورَوى ابنُ أبي الدنيا من طريقِ الأعمشِ عن مجاهدٍ، قال: إنَّ في النارِ لزمهريرًا يغلونَ فيه فيهربون منها إلى ذلك الزمهريرِ، فإذا وقعوا فيه حطمَ عظامَهم حتى يُسمعَ لها نقيضٌ.

وعن ليثٍ عن مجاهدٍ، قالَ: الزمهريرُ الذي لا يستطيعون أن يذوقُوه من بردِهِ.

وعن قابوسِ بنِ أبي ظبيانَ عن أبيه، عن ابنِ عباسٍ، قال: يستغيثُ أهلُ النارِ من الحرِّ فيغوثونَ بريحٍ باردةٍ يصدعُ العظامَ بردُها فيسألون الحرَّ.

وعن عبدِ اللَّهِ بنِ عميرٍ، قالَ: بلغني أنَّ أهلَ النارِ يسألون خازنَها أن يخرجَهُم إلى جانبِهَا، فيخرجُهم فيقتلَهُم البردُ والزمهريرُ حتى يرجعُوا إليها فيدخلوها مما وجدوا من البردِ.

وروى أبو نعيمٍ بإسنادِهِ عن ابنِ عباسٍ أنَّ كعبًا قال: إنَّ في جهنَّم بردًا هو الزمهريرُ يسقطُ اللحمَ حتى يستغيثُوا بحرِّ جهنَّمَ.

ورُويَ عن ابنِ مسعودٍ قال: الزمهريرُ: لونٌ من العذابِ.

وعن عكرمةَ، قال: هو البردُ الشديدُ.

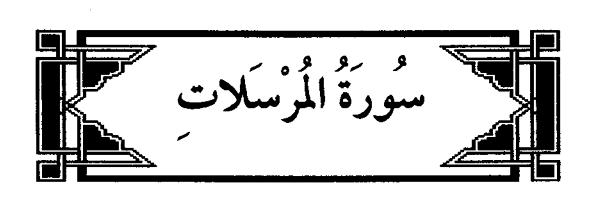
---

(١) «لطائف المعارف» (٥٦٥).

ورُويَ عن زبيدٍ اليـاميِّ أنه قامَ ليلةً للتهجـدِ فعمدَ إلى مطهـرةٍ له قد كان يتوضأ فـيها، فغسلَ يده ثم أدخلهـا في المطهرةِ، فوجدَ الماءَ الذي فـيها باردًا بردًا شديدًا، قد كاد أن يجمد، فـذكرَ الزمهريرَ ويدَه في المطهرةِ، فلم يخرجْ يدَهُ من المطهرةِ حتى أصبحَ فجاءتْهُ الجـاريةُ وهو على تلكِ الحالِ، فقالتْ: ما شأنُكَ يا سـيِّدِي لم تصلِّ الليلةَ كما كـنتَ تصلِّي، قال: ويحكِ إني أدخلتُ يدي في هذه المطهـرةِ فاشتـدَّ عليَّ بردُ الماءِ فذكرتُ به الزمـهريرَ، فـواللَّه ما شعـرتُ بشدةِ بردِهِ حتَّى وقفتِ علـيَّ، انظري لا تخبري بهذا أحـدًا ما دمتُ حيًا، فما علمَ بذلك أحدٌ حتى مات رحمه اللَّه[1] .

* * *

(١) «التخويف من النار» (٧٣ ـ ٧٤).

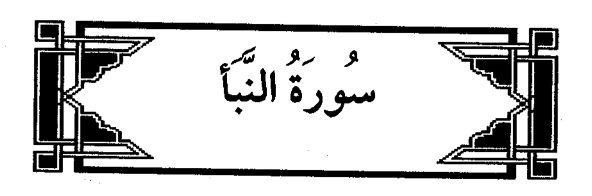


قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾

أي: نكفتُهم ونضمُّهم ونجمعُـهم وهمْ أحياءٌ على ظهرِها، وإذا ماتُوا ففي بطنِها[1] .

* * *

(١) «فتح الباري» (٥/١١٧).



سُورَةُ النَّبَأ

قوله تعالى: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا﴾

وروي عن ابنِ عباسٍ، قالَ: يستغيثُ أهلُ النارِ من الحَرِّ فيُغاثون بريحٍ باردةٍ يُصَدِّعُ العظامَ بَرْدُها، فيسألون الحَرَّ. وعن مجاهد، قال: يهربون إلى الزمهريرِ، فإذا وقعُوا فيه حطَّمَ عظامهم حتى يُسمع لها نَقيضٌ، وعن كعْبٍ، قال: إنَّ في جهنَّم بردًا هو الزَّمهريرُ، يُسقِطُ اللحمَ حتى يستغيثوا بِحَرِّ جهنَّم.

وعن عبدِ الملك بنِ عُميرٍ، قال: بلغني أنَّ أهلَ النارِ سألوا خازنَها أن يخرجَهُم إلى جانبها فأُخرِجوا فقتلَهُم البَرْدُ والزمهريرُ، حتى رجعُوا إليها فدخلُوها ممَّا وجدُوا من البَرْدِ، وقد قال اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٤-٢٦]، وقال اللَّه تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص:٥٧].

قال ابنُ عباسٍ: الغسَّاقُ: الزَّمهريرُ الباردُ الذي يُحرِقُ من بَرْدِهِ. وقال مجاهدٌ: هو الذي لا يستطيعون أن يذوقوه من بردِهِ. وقيلَ: إنَّ الغسَّاقَ الباردُ المنتنُ؛ أجارنا اللَّهُ تعالى من جهنَّم بفضلِهِ وكرمِهِ[1].

---

(١) «لطائف المعارف» (٥٦٨).

اعلم أن تفاوتَ أهلِ النارِ في العذابِ هو بحسبِ تفاوتِ أعمالِهم التي دخلُوا بها النارَ، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام:١٣٢]، وقال تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦]، قال ابنُ عباسٍ: وافقَ أعمالَهم، فليسَ عقابُ من تغلظ كفرُهُ وأفسدَ في الأرضِ ودعا إلى الكفرِ كمن ليسَ كذلك.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

وكذلك تفاوتُ عذابِ عصاةِ الموحدينَ في النارِ بحسبِ أعمالِهم، فليس عقوبةُ أهلِ الكبائرِ كعقوبةِ أصحابِ الصغائرِ، وقد يخفف عن بعضِهم العذابُ بحسناتٍ أُخرَ له أو بما شاءَ اللَّهُ من الأسبابِ، ولهذا يموتُ بعضُهم في النارِ، كما سيأتي ذكرُهُ فيما بعدُ، إن شاء اللَّه تعالى.

وأما الكفار إذا كانَ لهم حسناتٌ في الدنيا من العدلِ والإحسانِ إلى الخلقِ فهل يخففُ عنهم بذلكَ من العذابِ في النارِ أم لا؟

هذا فيه قولان للسلفِ وغيرِهم: **أحدُهُما**: أنه يخففُ عنهم بذلك أيضًا، ورَوى ابنُ لهيعةَ عن عطاءِ بنِ دينارٍ عن سعيدِ بن جبيرٍ معنى هذا القولِ، واختارَهُ ابنُ جريرٍ الطبريُّ وغيرُهُ.

وروى الأسودُ بنُ شيبانَ عن أبي نوفلٍ قال: قالتْ عائشةُ: يا رسول اللَّه أينَ عبدُ اللَّهِ بنُ جدعان؟ قال: «**في النارِ**» فجزعتْ عائشةُ واشتدَّ عليها، فلمَّا رأى رسولُ اللَّه ﷺ ذلك قال: «**يا عائشةُ ما يشتدُّ عليك من هذا؟**» قالت: بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللَّه، إنه كان يطعمُ الطعامَ ويصلُ الرَّحمَ، قال: «**إنه يهونُ**

عليه بما قلت» خرَّجه الخرائطيُّ في كتابِ «مكارمِ الأخلاقِ» وهو مرسلٌ.

وروى عامرُ بنُ مدركٍ الحارثيُّ عن عتبةَ بنِ اليقظانَ عن قيسِ بنِ مسلمٍ، عن طارقِ بنِ شهابٍ، عن عبد اللَّه بنِ مسعودٍ قال: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: **«ما أحسنَ من محسنٍ كافرٍ أو مسلمٍ، إلا أثابَهُ اللَّه عزَّ وجلَّ في عاجلِ الدنيا أو ادخرَ له في الآخرةِ»** قلنا: يا رسول اللَّه، ما إثابَةُ الكافرِ في الدنيا؟ قال: **«إن كان قد وصلَ رحمًا أو تصدَّقَ بصدقة أو عملَ حسنةً أثابَهُ اللَّه المالَ والولدَ والصِّحة وأشباهَ ذلك»** قلنا: فما إثابةُ الكافرِ في الآخرةِ، قال: **«عذابًا دونَ العذابِ»** ثم تلا: ﴿**أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ [غافر:٤٦]، خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ، والخرائطيُّ والبزارُ في «مسندِه» والحاكمُ في «المستدرك» وقالَ: صحيح الإسنادِ، وخرَّجهُ البيهقيُّ في كتابِ «البعث والنشور»[1] وقال: في إسنادِهِ نظرٌ انتهى، وعتبةُ بنُ يقظانَ تكلَّم فيه بعضُهُم.

وقد سبقتِ الأحاديثُ في تخفيف العذابِ عن أبي طالبٍ بإحسانِهِ إلى النبيِّ ﷺ. وخرَّج الطبرانيُّ[2] بإسنادٍ ضعيفٍ عن أمِّ سلمة أنَّ الحارثَ بن هشامٍ أتى النبيَّ ﷺ يومَ حجةِ الوداعِ: فقال: إنَّكَ تحثُّ على صلة الرحمِ، والإحسانِ وإيواءِ اليتيم وإطعامِ الضعيفِ والمسكينِ، وكلُّ هذا كان يفعلُه هشامُ ابنُ المغيرة، فما ظنُّك به يا رسول اللَّه؟ قال: **«كلُّ قبرٍ لا يشهدُ صاحبُه أن لا إله إلا اللَّه فهو حفرةٌ من حفر النارِ، وقد وجدتُ عمِّي أبي طالبٍ في طمطامٍ من النارِ، فأخرجه اللَّه بمكانِهِ منِّي وإحسانِهِ إليَّ فجعله في ضحضاحٍ من النارِ»**.

والقولُ الثاني: أن الكافرَ لا ينتفعُ في الآخرةِ بشيءٍ من الحسناتِ بحالٍ،

---

(١) أخرجه: البيهقي في «البعث والنشور» (١٥)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٥٣).

(٢) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٧٣٨٩).

ومن حجة أهلِ هذا القـولِ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [إبراهيم:١٨]. ونحوُ هذه الآياتِ.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[١] عن أنس عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ اللَّه لا يظلم مؤمنًا حسنةً يعطَى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخـرةِ، وأمَّا الكافرُ فيطْعَمُ بحسنات ما عملَ بها للَّه في الدُّنيا حتَّى إذا أفضَى إلـى الآخرةِ لم تكنْ له حسنةٌ يُجزى بهَا» ، وفي روايةٍ له أيضًا[٢] : «إنَّ الكافرَ إذا عملَ حسنةً أطعمَ بها طعمةً في الدنيا، وأما المؤمن فإنَّ اللَّه يدخرُ له حسناتِه في الآخرةِ، ويعقبُ له رزقًا في الدنيا على طاعتِه»[١] .

* * *

(١) أخرجه: مسلم (٨/ ١٣٥).

(٢) السابق.

(٣) «التخويف من النار» (١٤٢ ـ ١٤٤).

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾

روى الإمامُ أحمدُ[1] بإسنادٍ فيه نظرٌ عن يَعْلى بنِ أميَّةَ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**البحرُ هو جهنَّمُ**» فقالُوا ليَعْلى، قال: ألا ترون أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿**نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا**﴾ [الكهف:٢٩]، والذي نفسُ يعْلى بيده لا أدخلُها أبدًا حتى أُعرَضَ على اللَّهِ عزَّ وجلَّ، ولا يصيبُني منها قطرةٌ حتَّى ألقى اللَّهَ عزَّ وجلَّ. وهذا إن ثبتَ فالمرادُ به أنَّ البحارَ تفجرُ يومَ القيامةِ فتصيرُ بحرًا واحدًا، ثم تسجرُ ويوقدُ عليها فتصيرُ نارًا وتزاد في نارِ جهنَّم.

وقد فسَّر غيرُ واحدٍ من السلفِ قولَه تعالى: ﴿**وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ**﴾ [التكوير:٦] بنحوِ هذا.

وروى المباركُ بنُ فضالةَ عن كثيرٍ أبي محمدٍ عن ابنِ عباسٍ، قال: تسجرُ حتى تصير نارًا.

وروى مجاهدٌ عن شيخٍ من بجيلةَ عن ابنِ عباسٍ ﴿**وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ**﴾ قال: تكورُ الشمسُ والقمرُ والنجومُ في البحرِ فيبعثُ اللَّهُ عليها ريحًا دبورًا فتنفخه حتى يرجعَ نارًا. خرَّجه ابنُ أبي الدنيا وابنُ أبي حاتمٍ.

وخرَّج ابنُ أبي الدنيا وابنُ أبي حاتمٍ أيضًا من طريقِ مجالدٍ، عن الشعبيِّ،

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ٢٢٣).

عن ابنِ عباسٍ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:٤٩] قال: هو هذا البحرُ تنتثرُ الكواكبُ فيه وتكوَّرُ الشمسُ والقمرُ فيكونُ هو جهنَّمُ.

ورَوى ابنُ جريرٍ بإسنادِهِ عن سعيدِ بن المسيبِ عن عليٍّ أنه قال رجلٌ من اليهودِ: أينَ جهنم؟ قال: البحرُ، قال عليٌّ: ما أراه إلا صادقًا، قال تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور:٦] وقال: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦].

ورواه آدمُ بنُ أبي إياسٍ في «تفسيرِهِ» عن حمادِ بن سلمةَ عن داودَ بنِ أبي هندٍ عن سعيدِ بنِ المسيبِ، قال: قال عليٌّ ليهوديٍّ: أين جهنم؟ قال: تحتَ البحر، قال عليٌّ: صدق ثم قرأ: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ وخرَّجه في مواضعَ أُخرَ منه، وفيه ثمَّ قرأ ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾.

وخرَّج ابنُ أبي حاتمٍ بإسنادِهِ عن أبي العاليةَ عن أبيِّ بنِ كعبٍ ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦] قال: قالتِ الجنُّ للإنسِ: نأتيكُم بالخبرِ، فانطلقُوا إلى البحرِ فإذا هو نارٌ تأججُ.

وعن ابنِ لهيعةَ عن أبي قبيلٍ قال: إنَّ البحرَ الأخضرَ هو جهنَّمُ.

وروى أبو نعيمٍ بإسنادِهِ عن كعبٍ في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨] قال: تبدلُ السماواتُ فتصيرُ جنانًا، وتبدلُ الأرضُ فيصير مكانَ البحرِ النارُ. وقد سبق عن ابنِ عباسٍ أنه قال: النارُ سبعةُ أبحرٍ مطبقةٌ.

وروى عن عبد اللَّه بن عمرٍو ﵄ أنه قال: لا يتوضأ بماءِ البحر لأنه طبقُ جهنَّمَ، وكذا قال سعيدُ بنُ أبي الحسنِ أخو البصريِّ: البحرُ طبقُ جهنَّمَ.

وفي «سننِ أبي داود»[1] عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: **«لا يركبُ البحرَ إلا حاجٌ أو معتمرٌ أو غازٍ في سبيلِ اللَّه، فإنَّ تحت البحرِ ناراً وتحتَ النارِ بحراً»**.

وخرَّج ابنُ أبي حاتمٍ بإسنادِهِ عن معاويةَ بن سعيدٍ، قال: إنَّ هذا البحرَ ـ يعني بحر الروم ـ وسطَ الأرضِ، والأنهارُ كلّها تصبُّ فيه، والبحرُ الكبيرُ يصبُّ فيه، وأسفلُهُ آبارٌ كلها مطبقةٌ بالنحاسِ، فإذا كان يوم القيامةِ أسجرَ.

وذكر ابنُ أبي الدنيا عن العباسِ بنِ يزيد البحراني، قال: سمعتُ الوليدَ ابنِ هشامٍ وقلتُ لهُ: عمن أخذتَ هذا؟ قال: عن رجل من أهلِ الكتابِ أسلمَ فحسنَ إسلامُهُ، قال: لمَّا التقم الحوتُ يونسَ عليه السلامُ جالَ به الأبحرَ السبعة، فلمَّا كان آخر ذلك انْتهى به الحوتُ إلى قعرِ البحر، موضعٌ يلِي قعرَ جهنَّمَ، فسبحَ يونسُ في بطنِ الحوتِ، فسمعَ قارونُ تسبيحَهُ وهو في النارِ، وذكرَ بقية الخبر.

وروى قيسُ بنُ الربيعِ عن عبيدِ المكتبِ، عن مجاهدٍ، عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ: **«إنَّ جهنَّم محيطةٌ بالدنيا، وإنَّ الجنةَ مِنَ ورائه، فلذلك كان الصراطُ على جهنّم طريقًا إلى الجنة»** غريبٌ منكرٌ.

وقد رُوي عن بعضِهم ما يدلُّ على أن النارَ في السماءِ، وروى مجاهدٌ قال في قولهِ تعالى: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾ [الذاريات: ٢٢] قال: الجنةُ والنارُ، وكذا قال جويبرٌ عن الضحاك.

وروى عاصمٌ عن زر عن حذيفةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«أوتيتُ بالبراقِ فلم نزايلْ**

---

(١) أخرجه: أبو داود (٢٤٨٩).

طرفَه أنا وجبريلُ حتَّى أتينا بيتَ المقدس، وفُتحتْ لنا أبوابُ السماءِ، ورأيتُ الجنةَ والنارَ» خرَّجه الإمامُ أحمدُ وغيرُه(١)، قال في روايةِ المروذيِّ وفي حديثِ حذيفةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«رأيتُ ليلةَ أُسري بي الجنةَ والنارَ في السماءِ فقرأتُ هذه الآية: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾**[الذاريات:٢٢] **فكأنِّي لم أقرأها قط»** وهو تصديقٌ لما قاله حذيفةُ، نقله عنه الخلاَّلُ في كتابِ «السنة»، وهذا اللفظُ الذي احتجَّ به الإمامُ أحمدُ لم نقفْ عليه بعدُ في حديثه وإنما رُوىَ عنه ما تقدَّم.

ورُوي عن حذيفةَ أنه قال: واللَّه ما زال البراقُ حتَّى فُتحتْ لهما أبوابُ السماء ورأيا الجنةَ والنارَ، ووعدَ اللَّهُ الآخرةَ أجمعَ ولم يرفعْهُ، وهذا كلُّه ليسَ بصريحٍ في أنَّه رأى النارَ في السماءِ كما لا يَخْفى.

وأيضًا فعلى تقدير صحةِ ذلك اللفظ لا يدلُّ على أنَّ النارَ في السماءِ، وإنما يدلُّ على أنه رآها وهو في السماءِ والميتُ يرى في قبرِه الجنةَ والنارَ وليستِ الجنةُ في الأرضِ.

وقد رأى النبيُّ ﷺ في صلاةِ الكسوفِ الجنةَ والنارَ وهو في الأرض(٢)، وكذلك في بعضِ طرقِ حديثِ الإسراءِ - حديث أبي هريرة - أنَّه مرَّ على أرضِ الجنةِ والنارِ في مسيرِه إلى بيتِ المقدسِ، ولم يدلَّ شيءٌ من ذلك على أنَّ الجنةَ في الأرض، فحديثُ حذيفةَ إن ثبتَ أنه رأى الجنةَ والنارَ في السماءِ، فالسماءُ ظرفٌ للرؤيةِ لا للمرئيِّ، واللَّه أعلمُ.

وفي حديثِ أبي هارون العبديِّ، وهو ضعيفٌ جدا عن أبي سعيد،

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٩٠، ٣٨٧، ٣٩٤)، والترمذي (٣١٤٧)، والنسائي في «الكبرى»، كما في «تحفة الأشراف» (٣٣٢٤).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٤، ١١٨)، (٢/ ٤٥)، ومسلم (٣/ ٣٤).

الخدريِّ في صفةِ الإسراءِ أنه ﷺ رأى الجنةَ والنارَ فوق السماواتِ، ولو صحَّ لحُمل على ما ذكرناه أيضًا.

وقد روى القاضي أبو يعْلى بإسنادٍ جيدٍ عن أبي بكر المروذيِّ أنَّ الإمامَ أحمدَ فسَّر له من القرآن آياتٍ متعددةً، فكانَ مما فسَّرهُ له قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال: أطباقُ النيران ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور:٦] قال: جهنَّم، وهذا يدلُّ على أنَّ النارَ في الأرضِ، بخلافِ ما رواه الخلاَّلُ عن المروذيِّ، واللَّه أعلم.

وأما المرويُّ عن مجاهدٍ، فقد تأوَّلَهُ بعضُهم على أنَّ المرادَ أن أعمالَ الجنةِ والنارِ مقدرةٌ في السماءِ من الخيرِ والشرِّ، وقد صرَّحَ بذلك مجاهدٌ في روايةٍ أخرى عنه.

وقد وردَ في بعضِ طرقِ حديثِ الإسراءِ أنه ﷺ رأى جهنم في طريقِهِ إلى بيتِ المقدسِ، ورُوي عن عبادةَ بنِ الصامتِ أنه وقفَ على سورِ بيت المقدسِ الشرقيِّ يبكي، وقال: ها هُنا أخبرنا رسولُ اللَّهِ ﷺ أنه رأى جهنَّم[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾

قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٢-١٤]، وقُرئَ ﴿سُعِّرت﴾ و﴿سُعِرَت﴾ بالتشديدِ والتخفيفِ، قال الزجاجُ: المعنى واحدٌ، إلا أنَّ معنى المشددِ أوقدتْ مرةً بعد مرةٍ.

---

(١) «التخويف من النار» (٤٥ ـ ٤٩).

قال قتادةُ: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أوقدتْ، وقال السُّديُّ: أحميتْ، وقال سعيدُ بنُ بشيرٍ عن قتادةَ: يسعرُهَا غضبُ اللَّهِ وخطايا بني آدمَ. خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ.

وهذا يقتضي أنَّ تسعيرَ جهنَّم حيثُ سعرتْ إنما سعرتْ بخطايا بني آدمَ التي تقتضي غضبَ اللَّه عليهم، فتزدادُ جهنَّم حينئذٍ تلهبًا وتسعُّرًا، وهذا كما أن بناءَ دورِ الجنةِ غرس الأشجارِ يحصلُ بأعمالِ بني آدمَ الصالحةِ من الذكرِ وغيرِهِ، وكذلك حُسنُ ما فيها من الزوجاتِ وغيرهنَّ يتزايدُ بتحسينِ الأعمالِ الصالحةِ، فكذلك جهنَّم تسعرُ وتزدادُ آلاتُ العذابِ فيها بكثرةِ ذنوبِ بني آدم وخطاياهم وغضبِ الربِّ تعالى عليهم.

نعوذُ باللَّه من غضبِ اللَّه ومن النارِ وما قرَّب إليها من قولٍ وعملٍ بمنِّه وكرمِهِ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾

انخنستُ: أي: تواريْتُ، واختفيتُ منه، وتأخّرتُ عنه، ومنه: الوَسْواسُ الخنَّاسُ، وهو الشيطانُ، إذا غَفَلَ العبدُ عن ذِكْرِ اللَّهِ وَسْوَسَ له، فإذا ذَكَر اللَّه خنَسَ وتأخَّر.

ومنه سُمِّيتِ النجومُ خُنَّسًا، قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥]،

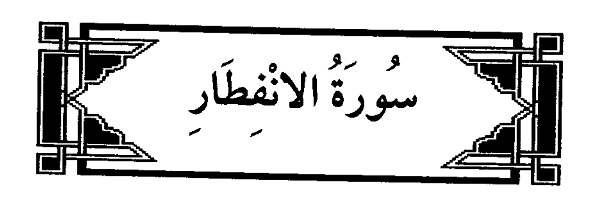
---

(١) «التخويف من النار» (٧٧).

وانخِناسُها: رُجُوعُها وتوارِيها تحت ضوءِ الشَّمسِ، وقيل: اختفاؤها بالنهار[١].

* * *

(١) «فتح الباري» (١/ ٣٤٤).



سُورَةُ الانْفِطَارِ

قوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾

وقولُهُ ﷺ: «إنَّ خلقَ أحدِكُم يُجمعُ في بطنِ أمِّه أربعينَ يومًا نطفةً»[1] قد رُوي تفسيرُهُ عن ابنِ مسعودٍ، روى الأعمشُ عن خيثَمةَ، عن ابنِ مسعودٍ، قال: إنَّ النطفةَ إذا وقعتْ في الرَّحِمِ، طارتْ في كلِّ شعرٍ وظُفرٍ، فتمكثُ أربعينَ يومًا، ثم تنحدرُ في الرَّحِمِ فتكونُ علقةً، قال: فذلكَ جمعُها. خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ وغيرُهُ.

ورويَ تفسيرُ الجمعِ مرفوعًا بمعنى آخرَ، فخرَّج الطبرانيُّ[2]، وابنُ منده في كتابِ «التوحيد» من حديثِ مالكِ بنِ الحويرثِ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ اللَّه تعالى إذا أرادَ خلقَ عبدٍ، فجامعَ الرَّجُلُ المرأةَ، طارَ ماؤهُ في كلِّ عِرْقٍ وعضوٍ منها، فإذا كان يومُ السابعِ جمعه اللَّهُ، ثم أحضرَهُ كلَّ عرقٍ له دونَ آدم: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾**» [الانفطار:٨].

وقال ابنُ منده: إسنادهُ متصلٌ مشهورٌ على رسمِ أبي عيسى والنسائيِّ وغيرِهما.

وخرَّج ابنُ جريرٍ[3] وابنُ أبي حاتمٍ، والطبرانيُّ من روايةِ مُطَهَّرِ بنِ الهيثمِ،

---

(١) أخرجه: البخاري (٤/ ١٣٥، ١٦١)، ومسلم (٨/ ٤٤).

(٢) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (١٩/ ٢٩٠)، و«الصغير» (١٠٠)، و«الأوسط» (١٦١٣).

(٣) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (٣٠/ ٨٧).

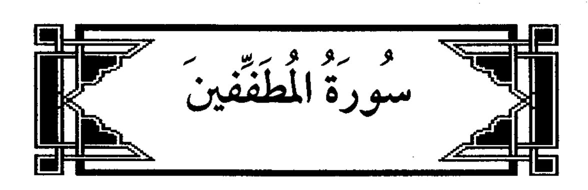
عن موسى بن عليّ بنِ رباحٍ، عن أبيه، عن جدِّه أنَّ النبيَّ ﷺ قال لجدِّه: «**يا فلانُ، ما وُلِدَ لك؟**» قال: يا رسولَ اللَّه، وما عَسَى أن يولَدَ لي؟ إمَّا غلامٌ وإمّا جاريةٌ، قال: «**فمَنْ يشبهُه؟**» قال: من عسى أن يشبهه؟ يشبه أمَّه أو أباه، قال: فقال النبيُّ ﷺ: «**لا تقولنَّ كذا، إن النطفةَ إذا استقرتْ في الرَّحِم، أحضرها اللَّه كلَّ نسبٍ بينها وبين آدمَ، أما قرأت هذه الآيةَ: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾**» [الانفطار:٨]، قال: «**سلكك**» وهذا إسنادٌ ضعيفٌ.

ومطهرُ بنُ الهيثمِ ضعيفٌ جدا، وقال البخاريُّ: هو حديثٌ لم يصحَّ، وذكر بإسنادِهِ عن موسى بن علي عن أبيه أنَّ أباهُ لم يُسلِم إلا في عهدِ أبي بكرٍ الصدِّيقِ يعني: أنه لا صحبةَ له.

ويشهدُ لهذا المعنى قولُ النبيِّ ﷺ للذي قال له: ولَدتِ امرأتي غُلامًا أسودَ: «**لعله نزعه عرقٌ**»[1].

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٣٦ ـ ١٣٧).



سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

قوله تعالى ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾

روى عطيةُ عن ابنِ عباسٍ، قال: الجنةُ في السماء السابعةِ، ويجعلُها اللَّهُ حيثُ يشاءُ يومَ القيامةِ، وجهنَّم في الأرضِ السابعةِ، خرَّجه أبو نعيم.

وخرَّج ابنُ منده من حديثِ أبي يحيى القتاتِ عن مجاهدٍ، قال: قلتُ لابنِ عباسٍ: أين الجنَّةُ؟ قال: فوقَ سبعِ سماواتٍ، قلتُ: فأين النارُ؟ قال: تحتَ سبعِ أبحرٍ مطبقةٍ.

وروى البيهقيُّ بإسنادٍ فيه ضعفٌ عن أبي الزعراءَ عن ابنِ مسعودٍ، قال: الجنَّة في السماءِ السابعةِ العُليا، والنارُ في الأرضِ السابعةِ السفلَى، ثمَّ قرأ: ﴿إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨] و﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧]، وخرَّجه ابنُ منده وعنده: «**فإذا كان يومُ القيامةِ جعلَها اللَّهُ حيثُ شاءَ**».

وقال محمدُ بنُ عبدِ اللَّه بن أبي يعقوبَ، عن بشرِ بنِ شغافٍ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ سلامٍ، قال: إنَّ الجنَّةَ في السماءِ، وإنَّ النارَ في الأرضِ، خرَّجه ابنُ خزيمةَ وابنُ أبي الدنيا.

وروَى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ، عن قتادة، قال: كانُوا يقولونَ: إنَّ الجنَّةَ في السمواتِ السبعِ، وإنَّ جهنَّم لفي الأرضينَ السبعِ.

وروى ورقاءُ عن ابنِ أبي نجيحٍ عن مجاهدٍ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا

تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢]، قال: الجنةُ في السماءِ، وقد استدلَّ بعضُهم لهذا بأنَّ اللَّهَ تعالى أخبرَ أنَّ الكفارَ يُعرضونَ على النارِ غدوًّا وعشيًّا ـ يعني في مدةِ البرزخِ ـ وأخبر أنه لا تُفتَّح لهم أبوابُ السماءِ، فدلَّ على أنَّ النارَ في الأرضِ، وقال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧].

وفي حديثِ البراء بنِ عازبٍ عن النبيِّ ﷺ في صفةِ قبضِ الروحِ، قال في روحِ الكافرِ: «**حتَّى ينتهُوا بها إلى السماءِ الدنيا فيستفتحونَ فلا يُفتحُ له**» ثم قرأ رسولُ اللَّه ﷺ: ﴿**لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ**﴾ [الأعراف:٤٠]، قال: «**يقولُ اللَّه تعالى: اكتبُوا كتابَه في سجين في الأرضِ السُّفلى**» قال: «**فتُطرحُ روحُه طرحًا**» خرَّجه الإمامُ أحمدُ وغيرُه[١].

وعن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ في صفةِ قبضِ الروحِ وقال في روحِ الكافرِ: «**فتخرجُ كأنتنِ ريحِ جيفةٍ، فينطلقونَ به إلى بابِ الأرضِ فيقولونَ: ما أنتنُ هذه الريحَ، كلما أتَوا على أرضٍ قالُوا ذلكَ، حتى يأتُوا به إلى أرواحِ الكفار**» خرَّجه ابنُ حبانَ والحاكمُ وغيرُهما[٢].

وقال عبدُ اللَّهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ رضي الله عنهما: أرواحُ الكفارِ في الأرضِ السابعةِ[٣].

* * *

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٧)، وأبو داود (٣٢١٢)، وابن ماجه (١٥٤٨).

(٢) أخرجه: النسائي (٤/٨)، وكذلك في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١٤١٢٩٠)، وابن حبان (٣٠١٤)، والحاكم (١/٣٥٣).

(٣) «التخويف من النار» (٤٤ ـ ٤٥).

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾

وأعظمُ عذابِ أهلِ النارِ حجابُهم عن اللَّه عزَّ وجلَّ، وإبعادُهم عنه، وإعراضُه عنهم، وسخطُه عليهم، كما أنَّ رضوانَ اللَّه على أهلِ الجنةِ أفضلُ من كلِّ نعيم الجنة، وتجليه لهم ورؤيتهم إيَّاهُ أعظمُ من جميعِ أنواع نعيمِ الجنةِ، قال اللَّه تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين:١٤-١٧]، فذكر اللَّهُ تعالى ثلاثةَ أنواعٍ من العذابِ: حجابُهم عنه، ثم صليهم الجحيمَ، ثم توبيخُهم بتكذيبِهم به في الدنيا، ووصفَهُم بالرانِ على قلوبِهم، وهو صدأُ الذنوبِ الذي سوَّد قلوبَهُم، فلم يصلْ إليها بعدَ ذلك في الدنيا شيءٌ من معرفةِ اللَّهِ ولا منْ إجلالِه ومهابتِهِ وخشيتِهِ ومحبتِهِ، فكما حجبتْ قلوبُهم في الدنيا عن اللَّهِ حجبوا في الآخرةِ عن رؤيتِهِ، وهذا بخلافِ حالِ أهلِ الجنةِ.

قال اللَّه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ﴾ [يونس:٢٦]، والذي أحسنوا هم أهلُ الإحسانِ، والإحسانُ أن يعبدَ العبدُ ربَّهُ كأنّه يراهُ، كما فسَّره النبيُّ ﷺ لما سأله عنه جبريلُ عليه السلامُ[(١)]، فجعلَ جزاء الإحسانِ الحسنى: وهو الجنَّةُ، والزيادةُ: وهي النظرُ إلى وجهِ اللَّه عزَّ وجلَّ، كما فسَّرهُ بذلك رسولُ اللَّه ﷺ في حديثِ صهيبٍ[(٢)] وغيرِهِ.

---

(١) أخرجه: مسلم (١/ ٢٨)، وأحمد (١/ ٢٨).

(٢) أخرجه: مسلم (١/ ١١٢)، وأحمد (٤/ ٣٣٢)، وابن ماجه (١٨٧).

قال جعفرُ بنُ سليمانَ: سمعتُ أبا عمرانَ الجونيَّ قال: إنَّ اللَّه لم ينظرْ إلى إنسانٍ قطُّ إلا رحِمَهُ، ولو نظرَ إلى أهلِ النارِ لرحمَهُم، ولكن قضَى أن لا ينظرَ إليهم.

وقال أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ: حدثنا أحمدُ بنُ موسى عن أبي مريمَ، قال: يقولُ أهلُ النارِ: إلهَنا ارضَ عنَّا وعذِّبْنا بأيِّ نوعٍ شئتَ من عذابِكَ، فإن غضبَك أشدُّ علينا من العذابِ الذي نحنُ فيه، قال أحمدُ: فحدثتُ سليمانَ ابنَ أبي سليمانَ، فقال: ليس هذا كلامُ أهلِ النارِ، هذا كلامُ المطيعينَ للَّه، قال: فحدثتُ به أبا سليمانَ، فقال: صدق سليمانُ بنُ أبي سليمانَ - وسليمانُ وهو ولدُ أبي سليمانَ الدرانيِّ، وكان عارفًا كبيرَ القدرِ رحمه اللَّهُ - وما قاله حقٌّ، فإنَّ أهلَ النارِ جهالٌ لا يتفطنونَ لهذا، وإن كان في نفسِهِ حقًّا، وإنَّما يعرفُ هذا مَنْ عرفَ اللَّهَ وأطاعَهُ، ولعلَّ هذا يصدرُ من بعضِ من يدخلُ النارَ من عصاةِ الموحدينَ، كما أن بعضَهُم يستغيثُ باللَّه لا يستغيثُ بغيرِهِ، فيخرجُ منها، وبعضُهم يخرجُ منها برجائِهِ للَّه وحدَهُ، وبعضُ من يؤمرُ به إلى النارِ يتشفع إلى اللَّه بمعرفتِهِ فينجيهِ منها.

قال أبو العباس بنِ مسروقٍ: سمعتُ سويدَ بنَ سعيد يقولُ: سمعتُ الفضيلَ بنَ عياضٍ، يقولُ: يوقفُ رجلٌ بين يدي اللَّهِ عزَّ وجلَّ، لا يكونُ معه حسنةٌ، فيقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: اذهبْ هل تعرفُ أحدًا من الصالحينَ أغفرُ لكَ بمعرفتِهِ، فيذهبُ فيدورُ مقدارَ ثلاثين سنة فلا يرى أحدًا يعرفُهُ، فيرجعُ إلى اللَّه عزَّ وجلَّ، فيقولُ : يا ربِّ لا أرى أحدًا، فيقولُ اللَّه عزَّ وجلَّ: اذهبُوا به إلى النارِ، فتتعلقُ به الزبانيةُ يجرُّونه، فيقولُ: يا ربِّ إن كنتَ تغفر لي بمعرفة المخلوقينَ فإني بوحدانيتِكَ أنت أحقُّ أن تغفرَ لي، فيقولُ اللَّهُ

للزبانية: ردُّوا عارفي لأنه يعرفني واخلعُوا عليه خلعَ كرامتي، ودعُوه يتبحبح في رياضِ الجنَّة، فإنه عارفٌ بي وأنا له معروف»[1].

* * *

قال اللَّه تعالـى في حقِّ الفجارِ: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ فوصفَهُم بأنَّ كسبَهُم رانَ على قلوبِهِم، والرانُ هو ما يـعلُو على القلبِ من الذنوبِ من ظلمـةِ المعاصي وقـسوتهـا، ثمَّ ذكرَ جزاءَهُم على ذلكَ وهو ثلاثةُ أنواعٍ: الحجـابُ عن ربِّهم، ثم صَلْيُ الجحيمِ، ثم التوبيخُ.

فأعظم عـذابِ أهلِ النارِ حجابُهم عن ربِّهم عـزَّ وجلَّ، ولَمَّا كانتْ قلوبُهم في الدنيا مظلمـةٌ قاسيةٌ لا يصلُ إليـها شيءٌ من نورِ الإيمانِ وحقائقُ الـعرفانِ كان جزاؤهم على ذلكَ في الآخرةِ حجابَهم عن رؤية الرحمنِ.

قال بعضُ العارفين: « من عـرفَ اللَّهَ في الدنيا، عرفَهُ بقدرِ تعـرُّفِهِ إليه، وتجلَّى له في الآخرةِ بقدرِ معرفتِهِ إياه في الدُّنيا فرأوه في الدنيا رؤيةَ الأسرارِ، ورأَوه في الآخرةِ رؤيةَ الأبصـارِ، فمنْ لا يراهُ في الدنيا بســرهِ لسرهِ، لا يراهُ في الآخرةِ بعينه» انتهى.

فخـوفُ العارفينَ في الدنيا من احـتجابِهِ عن بصـائرِهِم، وفي الآخرةِ من احتجابهم عن أبصارِهِم ونواظرِهِم.

وكتبَ الأوزاعيُّ إلى أخٍ له: «أما بعد: فإنَّه قدْ أحيطَ بك من كلِّ جانبٍ،

---

(١) «التخويف من النار» (١٥٥ ـ ١٥٦).

واعلمْ أنّه يسَـارُ بك في كلِّ يومٍ وليلةٍ ، فـاحـذرِ اللَّهَ والمقـامَ بين يديه، وأن يكونَ آخرَ عهدكَ به السلامُ».

وكان عتبةُ الغلامُ يبكي بالليلِ ويقولُ: «قطعَ ذكرُ العرضِ على اللَّه أوصالَ المحبـينَ» ثم يحشـرجُ البكاء حشـرجةَ الموتِ ويقـولُ: «تراك مولاي تعـذِّبُ محـبَّك وأنتَ الحيُّ الكريمُ» وباتَ ليلةً بالساحل قائمًـا يردِّدُ هذه الكلمات لا يزيدُ عليها ويـبْكي حتى أصبح: «إن تعذِّبْني فإنِّي مـحبٌّ لكَ، وإن ترحمْني فإني محبٌّ لك».

وكان كـهمسُ يقولُ في الليلِ: «أتراكَ تعـذِّبني وأنت قرةُ عيني يا حـبيبَ قلبَاهُ».

وكان أبو سليمانَ يبْكي ويقولُ: «لئنْ طالبني بذنوبي لأطالبنَّهُ بعفوِه، ولئنْ طالبَني ببـخلي لأطالبنَّه بجـودِه، ولئنْ أدخلنِي النارَ، لأخبـرنَّ أهلَ النارِ أنِّي كنت أحبُّه».

ومما يخـافُـه العارفـونَ فـواتَ الرِّضـا عنهم، وإن وجَدُوا الـعفـوَ أو تركَ العـقوبةِ، فـإنَّ الرِّضا أحبُّ إليـهم من نعـيمِ الجنة كلِّه مع الإعراضِ وعـدمِ التقريبِ والـزُّلفى، وقد قال سبحـانه وتعالى: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] يعني: أكبرَ من نعيمِ الجنةِ.

وفي «الصحيحِ»(١) عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ اللَّهَ يقـولُ لأهلِ الجنةِ: ألا أُعْطيكُمْ أفْـضَلَ من ذلكَ، قالوا: ومـا أفْضَلُ من ذلك؟ قـال: أُحِلُّ عليكُمْ رِضْـواني فلا أَسْـخطُ عليكم بعدَه أبدًا**»(٢).

* * *

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ١٤٢)، ومسلم (٨/ ١٤٤).

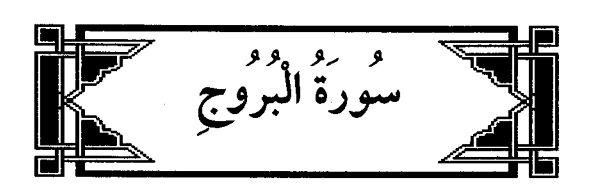
(٢) «استنشاق نسيم الأنس» (١٦٢ ـ ١٦٧) باختصار.

قوله تعالى: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾

وقد قيل في تأويل قولِهِ تعالى: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٦] إنَّ المُرادَ بالختامِ ما يَبْقى، في سُفْلِ الشـرابِ منَ الثُّفْلِ، وهذا يدلُّ على أنَّ أنهارَها تجْرِي على المسْكِ، ولذلك يرسُبُ منه في الإناءِ في آخرِ الشَّرابِ، كما يرسُبُ الطِّينُ في آنيةِ الماءِ في الدُّنيا[1].

* * *

(١) «لطائف المعارف» (٦٦).



سُورَةُ الْبُرُوجِ

قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾

يوم عرفة له فضائل متعددة:

منها: أنه قد قيلَ: إنَّه الشَّفْعُ الذي أقسَمَ اللَّه به في كتابِهِ، وأنَّ الوتْرَ يومُ النَّحْرِ، وقد رُوي هذا عن النبيِّ ﷺ من حديثِ جابرٍ، خرَّجَهُ الإمامُ أحمدُ[1] والنسائيُّ في «تفسيرِه» وقيل: إنَّه الشاهدُ الذي أقسمَ اللَّهُ به، في كتابِهِ، فقال تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج:٣] وفي «المسند»[2] عن أبي هريرة مرفوعًا وموقوفًا: «الشَّاهدُ يومُ عَرَفَةَ، والمشهودُ: يومُ الجُمُعة» وخرَّجه الترمذيُّ[3] مرفوعًا. ورُوي ذلك عن عليٍّ من قولِهِ.

وخرَّجه الطبرانيُّ[4] من حديثِ أبي مالكٍ الأشعريِّ مرفوعًا: «الشاهد: يومُ الجُمُعةِ، والمشهودُ: يومُ عرفَة» وعلى هذا فإذا وقعَ يومُ عرفة في يومِ جُمُعة فقد اجتمع في ذلك اليوم شاهدٌ ومشهودٌ[5].

* * *

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٣٢٧).

(٢) «المسند» (٢/ ٢٩٨).

(٣) «الجامع» (٣٣٣٦).

(٤) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٩٨).

(٥) «لطائف المعارف» (٤٨٧ ـ ٤٨٨) بتصرف.

قوله تعالى: ﴿الْوَدُودُ﴾

قـال عليٌّ بنُ أبي طلحـةَ عن ابنِ عـبـاسٍ في قـولِهِ تعـالى: ﴿الْوَدُودُ﴾ [البروج:١٤] قال: يقولُ: «الحبيبُ». خرَّجـه ابنُ أبي حاتمٍ في «تفسيرِهِ»، وفي حديثِ أبي جعفر الرازيِّ عن الربيعِ بـنِ أنسٍ عن أبي العاليةَ أو غيرِه عن أبي هريرةَ في قصةِ الإسراءِ الطويلةِ في ذكرِ سدرةِ المنتهى، قال(١) : «فغشاها نورُ الخالقِ وغشـيتْها الملائكـةُ مثلُ الغربانِ حينَ يقعْنَ على الشـجرةِ من حبِّ اللَّهِ جلَّ ثناؤهُ».

قال الجوزجانيُّ: حدثنا أبو صالحٍ أنَّ مـعاويةَ حدَّثه عن يزيد بنِ ميسرةَ أنه سمعَ أبا الدرداءِ يـقولُ: لما أهبطَ اللَّهُ آدمَ إلى الأرضِ قال لـه: «يا آدمُ أحبَّني وحبِّبني إلى خلقِي ولا تَسْتَطِيعُ ذلك إلا بي ولكنِّي إذا رأيتُك حريصًـا على ذلك أعنتُك عليـه، فـإذا فـعلتَ ذلك فخُـذْ به اللذةَ و النضـرة وقـرةَ العينِ والطمأنينة.

قـال خليدٌ العـصريُّ: «يا إخـوتَاهُ، هلْ منكُم من أحـدٍ لا يحبُّ أن يلَقى حبيـبَه؟ ألا فأحبُّوا ربَّكم عـزَّ وجلَّ وسيرُوا إليه سـيْرًا جميلاً لا مـصعدًا ولا مميلاً».

وخرَّج ابنُ أبي الدنيا من طريقِ ابن لهيعةَ حدَّثني عـبدُ الحميدِ بنُ عبدِ اللَّهِ ابنِ إبراهيمَ القرشيُّ عن أبيه قالَ: لما نزلَ بالعـباسِ بنِ عبدِ المطلبِ الموتُ قال لابنِهِ عبدِ اللَّه: «إنِّي موصيكَ بحـبِّ اللَّهِ وحبِّ طاعته، وخوفِ اللَّهِ وخوفِ معصيتِه، وإنَّك إذا كنتَ كذلك لم تكره الموتَ متى أتاك».

قال أحـمدُ بنُ أبي الحـواريِّ: حدثنا أبو صالحِ الخـراسانيُّ، قـال: حدثنا

(١) أخرجه: الطبري في «التفسير» (١٥/٦ ـ ١٠)، وهو جزء من أثرٍ طويل.

إسحـاقُ بنُ نجيحٍ عن إسـماعـيلَ الكنديٍّ قال: جـاءَ رجلٌ من البـصرةِ إلى طاووسَ ليسمعَ منه فوافاهُ مريضًا فجلسَ عند رأسِهِ يبْكي، فقال: ما يبكيك؟ قال: «واللَّهِ ما أبْكي على قرابةٍ بيني وبينك ولا على دُنيا جئتُ أطلبُها منكَ، ولكنْ على العلمِ الذي جئتُ أطلبُه منكَ يفوتُني».

قال له طاووسُ: «إنِّي مـوصيكَ بثـلاثِ كلماتٍ إنْ حفظتَـهُنَّ علمتَ علمَ الأولينَ، وعلمَ الآخرينَ، وعلمَ ما كانَ، وعلمَ ما يكونُ: خَفِ اللَّهَ حتى لا يكونَ عندكَ شيءٌ أخـوفَ منـه، وارْجُ اللَّهَ حـتى لا يكونَ عندكَ شيءٌ أرجـا منه، وأحبَّ اللَّهَ حـتى لا يكـونَ شيءٌ أحبَّ إليك منه»، فـإذا فـعلتَ ذلك علمتَ علمَ الأولين والآخرِينَ، وعلمَ ما كانَ وعلمَ ما يكون» فقال: «لا جرم لا سألتُ أحدًا بعدك عن شيءٍ بقيتُ».

وعن إبراهيم بن الأشعثِ قـال: «سمعتُ الفـضيلَ بنَ عياضٍ يقـولُ: مرَّ عيسى عليه السلامُ بثلاثةٍ من الناسِ نحلتْ أجسامُهم وتغيرتْ ألوانُهم، فقال: ما الذي بلغَ بكُم مـا أرى؟ قالوا: الخوفُ من النيـرانِ. قال: مخلوقًا خِـفتُم وحقٌّ على اللَّهِ أن يؤمِّنَ الخائفَ، ثم جاوزَهُم إلى ثلاثـةٍ أُخر، فإذا هُم أشدُّ تغيـرًا وأنحلُ أجسامًا، فـقال: ما الذي بلغَ بكُم ما أري؟ قـالوا: الشوقُ إلى الجنَّةِ، قـال: مخلوقًـا اشتـقتُم وحقٌّ علـى اللَّهِ أن يعطيكم ما رجـوتُم، ثم جـاوزَهُم إلى ثلاثةٍ أُخـر فإذا هم أشـدُّ تغيرًا وأنحل أجـسـامًا، كـأنَّ على وجوهِهِم المرَايا من النُّور، فقالَ: مـا الذي بلغَ بكُم ما أرى؟ قالوا: حبُّ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، قال: أنتم المقربونَ، أنتم المقرَّبونَ، أنتُم المقربون».

وروى إبراهيمُ بنُ الجنيـدِ بإسنادِهِ عن كـعبٍ قال: أوحى اللَّهُ إلى مـوسى

عليه السلام: «**إن إبراهيم عليه السلامُ لم يحبَّني أحدٌ من خلقي كحبِّه إياي**».

وعن أبي حازمٍ القيساريِّ قال: مكتوبٌ في الإنجيلِ: «يا عيسى، الحقُّ والحقَّ أقولُ: إنِّي أحَبُّ إلى عبدِي من نفسِهِ التي بين جنبيه».

وعن ابنِ عيينةَ عن رجلٍ: عن يحيى بن أبي كثيرٍ اليمانيِّ، قال: نظرْنَا فلم نجدْ شيئًا يتلذذُ به المتلذذون أفضلَ من حبِّ اللَّهِ عزَّ وجلَّ وطلبِ مرضاتِهِ.

وعن سعيد بن عامرٍ عن محمدِ بنِ ليثٍ عن بعضِ أصحابِهِ قال: كان حكيمُ بنُ حزامٍ يطوفُ بالبيتِ ويقولُ: لا إله إلا اللَّه، نعم الربُّ ونِعْمَ الإلهُ، أحبه وأخشاه.

وعن بكرٍ المزنيِّ قال: ما فاقَ أبو بكرٍ أصحابَ محمدٍ ﷺ بصومٍ ولا صلاةٍ، ولكنْ بشيءٍ وقرَ في قلبِهِ.

قال إبراهيمُ: بلغني عن ابنِ عُليّة أنه قال: في عقيبِ هذا الحديثِ: الذي كان في قلبِهِ الحبُّ للَّهِ عزَّ وجلَّ، والنصيحةُ في خلقِهِ.

قال ابنُ أبي الدنيا حدَّثنا هارونُ بن سفيانَ حدَّثنا عبدُ اللَّهِ بن صالحٍ أخبرني بعضُ أهلِ البصرةِ، قال: لَمَّا استقضى سوَّارٌ بالبصرة، كتبَ إليه أخٌ له كان يطلبُ العلمَ معه وكان ببعضِ الثغورِ: «أمَّا بعدُ، أوصيك بتقوى اللَّهِ الذي جعلَ التقوى عوَضًا من كلِّ فائتٍ منَ الدنيا، ولم يجعلْ شيئًا من الدنيا يكونُ عِوَضًا من التَّقوى، فإنَّ التقوى عقدةُ كلِّ عاقلٍ مستبصرٍ، إليها يستروحُ، وبها يستنُّ، ولم يظفرْ أحدٌ في عاجلِ هذه الدنيا وآجلِ الآخرةِ بمثلِ ما ظفرَ به أولياءُ اللَّه الذين شربُوا بكأس حبِّه، فكانتْ قرةَ أعينهم فيه،

ولكنهم أعملُوا أنفسهم في جسيمِ الأدبِ وأراضوها رياضةَ الأصحابِ الصادقينَ، فطلَّقُوها عن فضولِ الشهواتِ وألزمُوها القوتَ المقلق، وجعلُوا الجوعَ والعطشَ شعارًا لها برهةً من الزمان، حتى انقادتْ وأذعنتْ وعزفتْ لهم عن فضولِ الحطامِ، فلمَّا ظعنَ حبُّ فضولِ الدنيا من قلوبِهم، وزايلتْها أهواءُهم وانقطعتْ أمانيهم وصارتِ الآخرةُ نصبَ أعينهم ومنتهى أملِهم، ورَّثَ اللَّه قلوبَهم نورَ الحكمة، وقلَّدها قلائدَ العصمةِ، وجعلَهم دعاةً لمعالمِ الدين يلمُّون منه الشعثَ، ويشعبون منه الصدعَ. لم يلبثُوا إلا يسيرًا حتَّى جاءهم من اللَّهِ موعدٌ صادقٌ اختصَّ به العاملينَ له، والعاملينَ به دونَ من سواهم، فإذا سرَّك أن تسمعَ صفةَ الأبرارِ الأتقياءِ، فصفةُ هؤلاءِ فاستمعْ، وشمائلَهُم الطيبةَ فاتبعْ، وإياكَ يا سوارُ وبنياتِ الطريقِ والسلامُ».

وخرَّج أبو نعيمٍ بإسنادِهِ عن الربيعِ بنِ برةَ عن الحسنِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر:٢٧] قال: «النفسُ المؤمنة اطمأنَّتْ إلى اللَّه واطمأنَّ إليها، وأحبَّتْ لقاءَ اللَّه، وأحبَّ لقاءهَا، ورضيتْ عن اللَّهِ ورضي عنها، فأمرَ بقبضِ رُوحِهَا، فغفرَ لها وأدخلها الجنةَ، وجعلها من عباده الصالحين».

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ عن مسمعِ بنِ عاصمٍ عن نعيمِ بنِ صبيحٍ السعديِّ قال: «هممُ الأبرارِ متصلةٌ بمحبةِ الرحمنِ، وقلوبُهم تنظرُ إلى مواضعِ العزِّ من الآخرةِ بنورِ أبصارِهم».

وقال مسمعٌ: سمعتُ عابدًا من أهلِ البحرينِ يقول في جوفِ الليل: «قرةَ عيني وسرورَ قلبي، ما الذي أسقطني من عينكَ يا مانحَ العصمِ، ثم صرخَ وبكى، ثمَّ نادَى: طوبى لقلوبِ ملأتْهَا خشيتُكَ، واستولتْ عليها محبتُّكَ، فمحبتُكَ مانعةٌ لها من كُلِّ لذَّةٍ غيرَ مناجاتِكَ، والاجتهادِ في خدمتكَ،

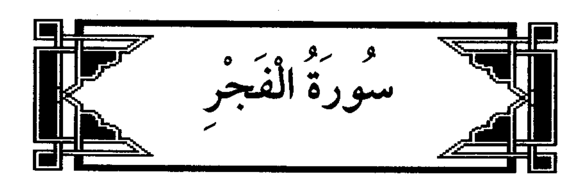
وخشيتُك قاطعةٌ لها عن سبيل كُلِّ معصيةٍ خوفًا لحلول سخطكَ، ثم بكى وقال: يا إخوتاهُ، ابكوا على فوت خير الآخرةِ، حيث لا رجعةَ ولا حيلة.

وبإسناده عن أيوبَ بن حوطٍ عن قتادةَ قال: كان في حضرةٍ عتتْ، شيخٌ يقال له: سوادُ بنُ محمدٍ كان لا يقدر أن يسمعَ القرآنَ من شدةِ خوفه وكان يقولُ: سيدُ الأعمالِ التقوى. ثم البذلُ، ثم بعدَ البذلِ الشكرُ، ثم بعدَ الشكرِ الرِّضا، ثم بعدَ الرِّضا التعظيمُ، ثم بعد التعظيم الحبُّ للَّه والإجلالُ له». ومعنى هذا أن درجة الحبِّ المستحبةَ التي ذكرناها في أوَّلِ الكتابِ متأخرةٌ عن درجةِ الشكرِ والرِّضا والتعظيمِ والبذلِ.

أما الواجبةُ فإنها تدخلُ في التقوى كما سبقَ بيانُه[1].

* * *

(١) «استنشاق نسيم الأنس» (١٧٩ ـ ١٨٥).



سُورَةُ الْفَجْرِ

قوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾

في حديثِ ابنِ عُمَرَ المرفوعِ: «**ما مِنْ أيامٍ أعظمُ عندَ اللَّهِ ولا أحبُّ إليه العملُ فيهنَّ من هذه الأيامِ العَشْرِ**»(١) وفي «صحيح ابنِ حبانَ»(٢) عن جابرٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «**ما مِنْ أيامٍ أفضلُ عندَ اللَّهِ من أيامِ عشْرِ ذي الحِجَّةِ**»، ورويناه من وَجه آخرَ بزيادة، وهي: «**ولا ليالي أفْضَلُ من لياليهنَّ**»، قيل: يا رسول اللَّه، هُنَّ أفضلُ منْ عِدتهنَّ جهادًا في سبيل اللَّه؟ قال: «**هُنَّ أفضلُ من عِدتهنَّ جهادًا في سبيلِ اللَّهِ، إلا من عُفِّرَ وجهُهُ تعفيرًا، وما مِنْ يَومٍ أفضلُ من يومِ عرفة**» خرَّجه الحافظُ أبو موسى المدينيُّ منْ جهةِ أبي نُعيمٍ الحافظِ بالإسنادِ الذي خرَّجه به ابنُ حبَّانَ. وخرَّجه البزار(٣) وغيرُه من حديثِ جابرٍ أيضًا عن النبيِّ ﷺ، قال: «**أفضلُ أيامِ الدنيا أيامُ العشرِ**»، قالُوا: يا رسول اللَّه، ولا مثلُهُنَّ في سبيلِ اللَّه؟ قال: «**ولا مثْلُهُنَّ في سبيلِ اللَّهِ، إلا مَنْ عُفِّرَ وجهُهُ بالترابِ**». ورُوي مرْسَلاً وقيل: إنَّه أصحُّ، وقد سبق ما رُوي عن ابنِ عُمرَ: قال: ليس يومٌ أعْظمُ عندَ اللَّهِ من يومِ الجمعة، ليْسَ العشْرَ، وهو يدلُّ على أنَّ أيامَ العشْرِ أفضَلُ من يومِ الجُمُعة الذي هو أفضَلُ الأيامِ.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٧٥، ١٣١).

(٢) أخرجه: ابن حبان (٣٨٥٣).

(٣) (١١٢٨ ـ كشف الأستار).

وقال سهيلُ بنُ أبي صالحٍ، عن أبيه، عن كعبٍ، قال: اختارَ اللَّهُ الزمانَ، فأحبُّ الزَّمانِ إلى اللَّهِ الشهرُ الحرامُ، وأحبُّ الأشهرِ الحُرُمِ إلى اللَّه ذو الحجَّةِ، وأحبُّ ذي الحجَّة إلى اللَّه العشرُ الأُوَلِ. ورواه بعضُهم عن سُهيلٍ عن أبيه، عن أبي هريرة، ورفعه، ولا يصحُّ ذلك، وقال مسروقٌ في قوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر:٢] : هي أفضلُ أيَّامِ السَّنةِ. خرَّجه عبدُ الرزاقِ[1] وغيرُهُ، وأيضًا فأيَّامُ هذا العشرِ يشْتملُ على يوم عرفة. وقد رُوي أنه أفضَلُ أيَّامِ الدنيا، كما جاء في حديثِ جابرٍ الذي ذكرناه وفيه: «يومُ النَّحْرِ».

وفي حديثِ عبدِ اللَّه بنِ قُرْطٍ، عن النبيِّ ﷺ، أنه قال: «**أعظمُ الأيام عندَ اللَّه يومُ النَّحْرِ، ثمَّ يومُ القَرِّ**». خرَّجه الإمامُ أحمدُ وأبو داود وغيرُهما[2] ، وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ عشْرَ ذي الحجَّةِ أفْضلُ من غيرِهِ من الأيَّامِ منْ غيرِ استْثناءٍ، هذا في أيامهِ.

فأمَّا لياليه فمنَ المتأخِّرينَ منْ زعمَ أنَّ ليالي عشْرِ رمضانَ أفضلُ منْ لياليه، لاشْتمالِهَا على ليلةِ القدرِ، وهذا بعيدٌ جدًّا.

ولو صحَّ حديثُ أبي هريرة: «**قيامُ كلِّ ليلةٍ منها بقيامِ ليلةِ القدرِ**» لكان صريحًا في تفضيلِ لياليه على ليالي عشْرِ رمضانَ، فإنَّ عشْرَ رمضانَ فُضِّلَ بليلةٍ واحدةٍ فيه، وهذا جميعُ لياليه متَساويةٌ لها في القيام على هذا الحديثِ. ولكنَّ حديثَ جابرٍ الذي خرَّجه أبو موسى صريحٌ في تفضيلِ لياليه كتفضيلِ أيَّامهِ أيضًا، والأيَّامُ إذا أُطلِقَتْ دخلتْ فيها الليالي تبعًا، وكذلك الليالي تدْخُلُ

(١) «المصنف» (٤/ ٣٧٦).

(٢) «المسند» (٤/ ٣٥٠)، وأبو داود (١٧٦٥)، وابن خزيمة (٢٨٦٦، ٢٩١٧، ٢٩٦٦)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١٩٧٧).

أيَّامُها تبعًا.

وقد أقسَمَ اللَّه تعالى بلياليه، فقال: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١، ٢]، وهذا يدلُّ على فضيلةِ لياليه أيضًا، لكنْ لم يثبُتْ أنَّ لياليه ولا شيئًا منها يعدلُ ليلةَ القدْرِ.

وقد زعمَ طوائفُ منْ أصحابِنا أنَّ ليلةَ الجمعة أفضلُ من ليلةِ القدْرِ، ولكنْ لا يصحُّ ذلك عن أحمد، فعلى قولِ هؤلاءِ لا يُسْتَبْعَدُ تفضيلُ ليالي هذا العشْرِ على ليلةِ القدرِ.

والتحقيقُ ما قالَهُ بعضُ أعيان المتأخِّرينَ منَ العلماءِ، أنْ يقُال: مجموعُ هذا العشْرِ أفضلُ من مجموعِ عشْرِ رمضانَ، وإنْ كان في عشْرِ رمضان ليلةٌ لا يَفْضل عليها غيرُها، واللَّه أعلم.

وما تقدَّم عنْ كعبٍ يدلُّ على أنَّ شهرَ ذي الحجَّةِ أفضلُ الأشهرِ الحُرُمِ الأربعة، وكذا قال سعيدُ بنُ جبير، راوي هذا الحديثِ عن ابنِ عباسٍ: **«ما من الشهورِ شهرٌ أعْظمُ حُرْمةً منْ ذي الحجَّةِ»**.

وفي «مسندِ البزَّارِ»(١) عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، عن النبيِّ ﷺ، قال: **«سيِّدُ الشهورِ رمضانُ، وأعْظمها حُرْمةً ذو الحجَّةِ»**. وفي إسنادِه ضعفٌ.

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ»(٢)، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ أيضًا: أنَّ النبيَّ ﷺ، قال في حجة الوداع في خطبتِه يومَ النَّحْرِ: **«ألا إنَّ أحْرَمَ الأيامِ يومُكُم هذا، ألا وإنَّ أحْرَمَ الشُّهورِ شهرُكُم هذا، ألا وإنَّ أحرَمَ البلادِ بلدُكُم هذا»**.

---

(١) (٩٦٠ ـ كشف الأستار).

(٢) «المسند» (٣/ ٨٠).

ورُوي ذلك أيضًا عن جابرٍ، ووابصةَ بنِ معبدٍ، ونُبيطِ بنِ شَريطٍ، وغيرِهم، عن النبيِّ ﷺ، وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ شهرَ ذي الحجَّة أفضلُ الأشهرِ الحُرُمِ، حيثُ كان أشدَّهَا حُرْمةً، وقد رُوي عن الحسنِ: أنَّ أفضلها المحرَّم، وسنذكرُهُ عند ذِكْرِ شهرِ المُحَرَّم، إن شاء اللَّه تعالى.

وأمَّا من قال: إنَّ أفضلَها رجبٌ فقولُهُ مردُودٌ.

ولِعَشْرِ ذي الحجة فضائلُ أُخرُ غيرَ ما تقدَّم.

فمنْ فضائله: أنَّ اللَّه تعالى أقسَمَ به جُملةً، وببعضِه خُصوصًا، قال تعالى: **﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾** [الفجر: ١، ٢] فأمَّا الفجرُ فقيل: إنه أراد جنسَ الفجرِ، وقيل: المرادُ طلوعُ الفجرِ، أو صلاةُ الفجرِ، أو النَّهارُ كلُّه، فيه اختلافٌ بين المُفسِّرين، وقيلَ: إنه أريد به فَجْرٌ مُعَيَّنٌ، ثُمَّ قيل: إنه أُرِيدَ به فجرُ أوَّلِ يومٍ من عَشر ذي الحجَّة، وقيل: بل أُرِيدَ به فجرُ آخرِ يومٍ منه، وهو يومُ النَّحْرِ، وعلى جميعِ هذه الأقوالِ، فالعَشْرُ يشتملُ على الفجرِ الذي أقْسَمَ اللَّهُ به.

وأمَّا «الليالي العشر» فهي عشر ذي الحجَّة، هذا الصحيحُ الذي عليه جُمهور المُفسِّرين منَ السلفِ وغيرِهم، وهو الصحيحُ عن ابنِ عباسٍ، روي عنه مِنْ غيرِ وجهٍ والروايةُ عنه: «أنه عشرُ رمضان» إسنادُها ضعيفٌ.

وفيه حديثٌ مرفوعٌ خرَّجه الإمامُ أحمدُ، والنسائيُّ في «التفسيرِ»[1] مِنْ روايةِ زيدِ بنِ الحُبابِ حدَّثنا عيَّاشُ بنُ عُقبة، حدَّثنا خيرُ بنُ نُعيم، عن أبي الزُّبير، عن جابر، عن النبيِّ ﷺ قال: **«العَشْرُ عشرُ الأَضْحَى، والوَتْرُ يومُ عرفة، والشَّفْعُ يومُ النَّحْرِ»** وهو إسنادٌ حسنٌ.

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٣٢٧)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٢٧٠٤).

وكذا فسَّر «الشَّفْعَ» و«الوتْرَ» ابنُ عباسٍ في روايةِ عكرمةَ وغيرِه، وفسَّرهما أيضًا بذلك عكرمةُ والضحاكُ وغيرُ واحدٍ، وقد قيل في «الشَّفْعِ» و«الوتْرِ» أقوالٌ كثيرةٌ، وأكثرها لا يخرجُ عن أنْ يكونَ العشرُ أو بعضُه مُشتملاً على «الشَّفْعِ» و«الوترِ» أو أحدِهما، كقولِ من قال: «هي الصلاةُ منها شفعٌ ومنها وترٌ»، وقد خرَّجه الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ[١] من حديث عمرانَ بن حُصينٍ، عن النبيِّ ﷺ وقولُ منْ قال: هي المخلوقات منها شفْعٌ ومنها وَتْر، يدخلُ فيها أيامُ العَشْرِ. وقولُ مَنْ قال: الشفعُ الخلْقُ كلُّه، والوِتْرُ اللَّه، فإنَّ أيامَ العشْرِ منْ جُمْلَةِ المخلوقاتِ.

ومنْ **فضائله أيضًا**: أنه من جملة الأربعين التي واعدها اللَّه عزَّ وجلَّ لموسى عليه السلام قال اللَّه تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف:١٤٢]، ولكن هل عَشْرُ ذي الحجَّة خاتمةُ الأربعينَ، فيكونُ هو العشْرُ الذي أُتمَّ به الثَّلاثون، أمْ هو أوَّلُ الأربعين، فيكونُ مِنْ جُملةِ الثلاثينَ التي أُتِمَّتْ بعشر؟ فيه اختلافٌ بينَ المفسرين.

روى عبدُ الرزاقِ[٢]، عن معمر، عن يزيدَ بنِ أبي زيادٍ، عنْ مُجاهدٍ، قال: ما منْ عملٍ في أيَّامِ السنة أفضلُ منه في العَشْرِ من ذي الحجَّة، وهي العشْرُ التي أَتَمَّهَا اللَّهُ لموسى عليه السلام».

ومنْ **فضائله**: أنَّه خاتمةُ الأشهرِ المعلوماتِ، أشهرُ الحجِّ التي قال اللَّه فيها: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ**﴾ [البقرة:١٩٧]، وهي شوَّالٌ، وذو القعْدةِ، وعَشْرٌ من ذي الحجَّةِ.

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٤٢)، والترمذي (٣٣٤٢).
(٢) «المصنف» (٤/ ٣٧٥).

وروي ذلك عن عُمرَ، وابنه عبدِ اللَّه، وعليٍّ، وابنِ مسعودٍ، وابنِ عباسٍ، وابنِ الزُّبيرِ وغيرِهِم، وهو قولُ أكثر التابعينَ، ومذهبُ الشافعيِّ، وأحمدَ وأبي حنيفةَ وأبي يوسُفَ وأبي ثور وغيرِهم، لكنَّ الشافعي وطائفةً أخْرجوا منه يومَ النَّحْرِ، وأدخله فيه الأكثرون، لأنَّه يومُ الحجِّ الأكبرِ، وفيه يقعُ أكثرُ أفعال مناسكِ الحجِّ. وقالتْ طائفةٌ: ذو الحِجَّةِ كلُّه منْ أشهرِ الحجِّ، وهو قولُ مالكٍ، والشافعيِّ في القديمِ، ورواه عن ابنِ عمرَ أيضًا، وروي عن طائفةٍ من السلفِ، وفيه حديثٌ مرفوعٌ خرَّجه الطبرانيُّ، لكنّه لا يصحُّ. والكلامُ في هذه المسألةِ يطولُ، وليس هذا موضعه.

ومن فضائله: أنَّه الأيَّامُ المعلوماتُ التي شرع اللَّه ذِكْرَه فيها على ما رزَقَ من بهيمةِ الأنعامِ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ**﴾ [الحج:٢٧، ٢٨] وجمهورُ العلماءِ على أنَّ هذه الأيامَ المعلوماتِ هي عشْرُ ذي الحجَّةِ، منهم ابنُ عمرَ، وابنُ عباسٍ والحسنُ وعطاءٌ ومجاهدٌ وعكرمةُ وقتادةُ والنَّخعيُّ، وهو قولُ أبي حنيفةَ والشافعيِّ وأحمدَ في المشهورِ عنه.

ورُوي عن أبي موسى الأشعريِّ: أنَّ الأيامَ المعلوماتِ هي تسْع ذي الحجَّة غير يومِ النحرِ، وأنَّه قال: لا يُرَدُّ فيهنَّ الدعاءُ. خرَّجه جعفر الفرْيابيُّ وغيرُه.

وقالتْ طائفةٌ: هي أيَّامُ الذبحِ. ورُوي عن طائفةٍ من السلفِ، وهو قولُ مالكٍ، وأبي يوسفَ، وجعلوا ذِكْرَ اللَّهِ فيها ذِكْرَه على الذبح، وهو قولُ ابنِ عُمرَ ﭬ، ونقل المرُّوْذيُّ عن أحمدَ أنه استحسنه، والقولُ الأولُ أظهرُ.

وذكرُ اللَّه على بهيمةِ الأنعامِ لا يختصُّ بحالِ ذبْحِها، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [الحج:٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج:٣٤]، وأيضًا فقد قال اللَّهُ تعالى بعد هذا: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٨، ٢٩].

فجعل هذا كلَّه بعْدَ ذِكْرِه في الأيام المعلوماتِ وقضاءِ التَّفَثِ، وهو شعثُ الحجِّ، وغبارُهُ ونصَبُهُ. والطَّوافُ بالبيتِ إنَّما يكونُ في يوم النحر وما بعدَه، ولا يكونُ قبْله وقد جعلَ اللَّه سبحانه هذا مُرَتَّبًا على ذِكْرِهِ في الأيَّامِ المعلوماتِ بلفظةِ «ثُمَّ» فدلَّ على أنَّ المرادَ بالأيَّامِ المعلوماتِ ما قبْل يومِ النَّحْرِ، وهو عشرُ ذي الحجَّة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج:٢٨] فقيل: إنَّ المرادَ ذِكْرُهُ عند ذَبْحِها، وهو حاصلٌ بذِكْرِهِ في يوم النحر، فإنّه أفضلُ أيامِ النَّحْرِ، والأصحُّ أنه إنما أريد ذِكْرُه شُكْرًا على نعمة تسخيرِ بهيمة الأنعام لعباده، فإنَّ للَّه تعالى على عباده في بهيمة الأنعامِ نعمًا كثيرةً قد عدَّد بعْضَها في مواضعَ منَ القرآنِ، والحاجُّ لهم خصوصية في ذلك عن غيرِهم؛ فإنَّهم يسيرونَ عليها إلى الحَرَمِ، لقضاءِ نُسُكِهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج:٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ [النحل:٧]، ويأكلون من لحومِهَا، ويَشْربون من ألبانِها، وينتفعون بأصْوافِهَا وأوبارِها وأشعارِها.

ويختصُّ عشْرُ ذي الحجَّـة في حقِّ الحاجِّ بأنَّه زمنُ سَوْقهِم للهَدْي الذي به يكمُلُ فضلُ الحجِّ، ويأكلون منْ لُحُومه في آخر العشْرِ، وهو يومُ النَّحْر.

وأفضلُ سـوْقِ الهَدْي من الميـقاتِ، ويُشـعرُ ويُقلَّدُ عندَ الإحـرامِ، وتقارنُهُ التلبيةُ، وهي مِنْ الذِّكر للَّه في الأيَّام المعلومات.

وفي الحديث: «**أفضل الحجِّ العَجُّ والثَّجُّ**»[1] وفي حديثٍ آخر: «**عجُّوا التَّكْبيرَ عجًّا، وثُجُّوا الإبل ثجًّا**».

فيكون كثرةُ ذِكْر اللَّه في أيَّامِ العشْرِ شُكْرًا على هذه النّعـمة المختصَّةِ ببهيمة الأنعام، التي بعضُها يتعلَّق بدين الحاجِّ، وبعـضُها بِدُنياهم. وأفضلُ الأعْمالِ ما كثُرَ ذِكْرُ اللَّه تعالى فيها، منهـا خُصُوصًا الحجُّ، وقد أمر اللَّه تعالى بِذكْرِه كثيرًا في أيام الحجِّ، قال تعالى: ﴿**فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [البقرة:١٩٨، ١٩٩] فهذا الذِّكْرُ يكونُ في عشْرِ ذي الحجَّةِ. ثمَّ قال تعالى: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا**﴾ [البقرة:٢٠٠]، وهذا يقعُ في يومِ النَّحْرِ، وهو خاتمةُ العشْرِ أيضًا. ثم أمرَ بذكْرِه بعد العشْرِ في الأيام المعدوداتِ، وهي أيَّامُ التشريق.

وفي «السُّنن»[2] عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّما جُعلَ الطَّوافُ بالـبيتِ، والسَّعْيُ بيْنَ الصَّفا والمروةِ، ورميُ الجمارِ، لإقامة ذكْرِ اللَّه عزَّ وجلَّ**».

---

(١) أخـرجـه: الترمـذي (٨٢٧)، وابن مـاجـه (٢٩٢٤)، والدارمي (١٨٠٤) من حـديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٦٤، ٧٥، ١٣٨)، وأبو داود (١٨٨٨)، والترمذي (٩٠٢).

وفي «مسند الإمام أحمدَ»[١] عن معاذِ بنِ أنس: أنَّ رجلاً قال: يا رسول اللَّه، أيُّ الجهادِ أعظمُ أجرًا؟ قال: «**أكثرُهُم للَّه ذِكْرًا**» قال: فأيُّ الصائمين أعْظمُ أجْرًا؟ قال: «**أكثرُهُم للَّه ذِكْرًا**». قال: ثم ذكر الصلاة، والزكاة، والحجَّ، والصدقة كلُّ ذلك ورسولُ اللَّه ﷺ يقول: «**أكثرُهُم للَّه ذِكْرًا**»، فقال أبو بكر: يا أبا حفص، ذهب الذَّاكرون بكُلِّ خيرٍ، فقال رسولُ اللَّه ﷺ: «**أجَلْ**».

وقد خرَّجه ابنُ المباركِ، وابنُ أبي الدنيا من وجوهٍ أُخَر مُرْسلة، وفي بعْضِها: أي الحاجِّ خيرٌ؟ قال: «**أكثرهم ذكرًا للَّه**» وفي بعْضِها: أيُّ الحاجِّ أعظمُ أجْرًا؟ قال: «**أكثرهُم للَّه ذِكْرًا**» وذكر بقيةَ الأعمالِ بمعْنى ما تقدم، فهذا كُلُّه بالنسبةِ إلى الحاجِّ.

فأمَّا أهلُ الأمصارِ فإنَّهم يشاركون الحاجَّ في عشْرِ ذي الحجَّة، في الذِّكْر، وإعدادِ الهَدْي، فأمَّا إعدادُ الهَدْي فإنَّ العشْر تُعَدُّ فيه الأضاحي، كما يسُوقُ أهلُ الموسمِ الهَدْي، ويُشاركونهم في بعضِ إحرامِهِمْ، فإنَّ منْ دخلَ عليه العَشْرُ وأرادَ أنْ يُضحّي، فلا يأخُذْ منْ شعرِهِ ولا منْ أظفارِهِ شيئًا، كما روتْ ذلك أمُّ سلمة عن النبيِّ ﷺ. خرَّج حديثَها مسلمٌ[٢]، وأخذَ بذلك الشافعيُّ، وأحمدُ، وعامَّةُ فقهاءِ الحديثِ.

ومنهم منْ شرَطَ أنْ يكونَ قد اشترى هدْيَه قبْلَ العشْرِ، وأكثرُهُم لم يَشْرُطوا ذلك.

وخالف فيه مالكٌ، وأبو حنيفة، وكثيرٌ من الفقهاءِ، وقالوا: لا يُكره شيءٌ

---

(١) «المسند» (٣/ ٤٣٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٦/ ٨٣).

من ذلك، واستدلُّوا بحديثِ عائشةَ: «كُنْتُ أفتِلُ قلائدَ الهدْيِ لرسولِ اللَّه ﷺ فلا يُحَرَّم عليه شيءٌ أحلَّه اللَّهُ له»(1).

وأجابَ كثيرٌ منْ أهلِ القولِ الأولِ: بأنه يُجْمع بين الحديثين، فيؤخَذُ بحديثِ أمِّ سلمةَ فيمن يُريد أن يُضحِّي في مصرِهِ، وبحديثِ عائشةَ فيمن أرْسلَ بهَدْيه مع غيرِهِ، وأقام في بلدِه.

وكان ابنُ عمرَ إذا ضَحَّى يومَ النَّحْرِ حَلَقَ رأسه، ونصَّ أحمدُ على ذلك(2).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾

قال تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر:3] والشَّفْعُ ضدُّ الوتْرِ: فالوتْرُ: الفردُ والشَّفْعُ الزَّوْجُ.

ولهذا فُسِّرَ «الشَّفْعُ» في الآية بالخَلْقِ، لأنَّ الخلقَ كُلَّهُ زوجٌ، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:49]، وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:36].

وفُسِّر «الوِتْرُ» باللَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ لأنَّه وِتْرٌ يُحبُّ الوِتْرَ(3).

* * *

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿21﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿22﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ

(1) أخرجه: مسلم (4/89)، وأحمد (6/35، 36، 82، 85).

(2) «لطائف المعارف» (ص 467 ـ 475).

(3) «فتح الباري» (3/411).

الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾

قال اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر:٢١-٢٤]، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾[النازعات:٣٤-٣٦].

قال الربيعُ بنُ أنسٍ في قولِهِ: ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ قال: كُشِفَ عنْها غِطَاؤها.

وقال تعالى: ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر:٥-٧].

وروى العلاءُ بنُ خالدٍ الكاهليُّ، عن أبي وائلٍ، عن ابنِ مسعودٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «يُؤتى يومئذٍ بجهنَّم لها سبْعون ألفَ زِمامٍ، مع كلِّ زمامٍ سبْعون ألفَ ملَك يجرُّونها»[1] خرَّجه مسلمٌ من طريقِ حفصِ بنِ غياثٍ، عن العلاءِ به، وخرَّجه الترمذيُّ من طريقِ سفيانَ عن العلاءِ موقوفًا على ابنِ مسعودٍ، ورجَّح وقْفه العقيليُّ والدارقطنيُّ.

وخرَّج ابنُ أبي حاتمٍ منْ طريقِ عُبيدِ اللَّه بنِ الوليدِ الوصافيُّ، عن عطيةَ، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، قال: لما نزلتْ هذه الآية: ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ [الفجر:٢٣] تغيَّر لونُ النبيِّ ﷺ وعُرِفَ ذلك في وجْهِهِ حتَّى اشتدَّ ذلك على أصحابِهِ، فسألوه فقال: «إنَّه جاءني جبريلُ فأقْرأني هذه الآيةَ» قال: «كيف يُجاءُ

---

(١) أخرجه: مسلم (٨/ ١٤٩)، والترمذي (٢٥٧٣).

بها؟ قال: يَجيءُ بها سبْعونَ ألفَ ملَك يقودونها بسبعينَ ألف زمامٍ تشرد مرة، لو تُركَتْ لأحرقتْ أهلَ الجمعِ ومَنْ عليه، ثم تُعْرضُ جهنَّم فتقول: ما لي وما لكَ يا محمد، لقد حرَّمَ اللَّه لحْمَك عليَّ، فلا يبقى أحدٌ إلا قال: نفْسي نفْسي، ومحمدٌ ﷺ يقول: أُمَّتي أُمَّتي» الوصافيُّ شيخٌ صالحٌ لا يحفظ فكثرتِ المناكيرُ في حديثِه.

وخرَّج أبو يعلى الموصليُّ[1] من حديثِ أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا جَمَع اللَّهُ الناسَ في صعيدٍ واحد، يومَ القيامة أقبلت النارُ، يركبُ بعضُها بعضًا، وخزنتها يكفونها، وهي تقول: وعزةِ ربي لتخلُّنَّ بيني وبين أزواجي أو لأغشينَّ الناسَ عنقًا واحدًا، فيقولون: مَنْ أزواجُكِ؟ فتقولُ: كلُّ متكبِّرٍ جبَّارٍ».

وخرَّج الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ[2] من حديثِ الأعمشِ عن أبي صالحٍ، عن أبي هُريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «يخرجُ يومَ القيامةِ عنقٌ من النارِ لها عينانِ تُبْصران، وأُذنانِ تَسمعانِ، ولسانٌ ينطقُ، تقولُ: إني وُكِّلتُ بثلاثة: بكُلِّ جبارٍ عنيد، وبكلِّ مَنْ دعا مع اللَّه إلهًا آخرَ، وبالمصوِّرين» وصحَّحه الترمذيُّ وقد قِيل: إنه ليسَ بمحفوظ بهذا الإسناد، وإنَّما يرويه الأعمشُ عن عطيةَ عن أبي سعيد، فقد روى الأعمشُ وغيرُ واحدٍ عن أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «يخرجُ عنقٌ من النارِ يتكلمُ، يقولُ: وُكِّلتُ اليومَ بثلاثة: بكلِّ جبارٍ عنيدٍ، ومن جعَلَ مع اللَّه إلهًا آخرَ، ومنْ قتَلَ نفْسًا بغير نفسٍ، فتنطوي عليهم فتقذفهم في غمراتِ جهنَّم» خرَّجه الإمامُ أحمدُ[3]، وخرَّجه البزارُ[4]، ولفظُه: «يخرجُ عنقٌ من النارِ يتكلَّمُ بلسانٍ طلقٍ ذلقٍ،

---

(١) أخرجه: أبو يعْلى (٢/ ١١٤٥).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٣٣٦)، والترمذي (٢٥٧٤).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٤٠). (٤) أخرجه: البزار (٣٥٠٠ ـ كشف).

لها عينانِ تُبصرُ بهما، ولها لسانٌ تتكلَّم به، فتقولُ: إني أُمرتُ بِمَنْ جعلَ مع اللَّه إلهًا آخر، وبكُلِّ جبارٍ عنيد، وبِكُلِّ من قتل نفسًا بغير نفسٍ، فتنطلقُ بهم قبْلَ سائرِ الناسِ بخمسمائة عامٍ» وقد رُوي عن عطية عن أبي سعيدٍ موقوفًا.

وروى ابنُ لهيعةَ، عن خالدِ بنِ أبي عمرانَ، عن القاسمِ، عن عائشة عن النبيِّ ﷺ قال: «يخرجُ عنقٌ من النارِ، فتنطوي عليهم وتتغيَّظُ عليهم، ويقول ذلك العنقُ: وُكِّلتُ بثلاثةٍ، وُكِّلتُ بثلاثةٍ، وُكِّلتُ بثلاثة، وُكِّلتُ بمن دعا مع اللَّه إلهًا آخر، ووكِّلتُ بمن لا يؤمن بيوم الحسابِ، ووكِّلتُ بكلِّ جبارٍ عنيدٍ، فتنطوي عليهم، فتطرحُهُم في غمراتِ جهنَّم» خرَّجه الإمامُ أحمدُ.

ورُوي عن شهرِ بنِ حوشبٍ عن أسماءَ بنتِ يزيدَ عن النبيِّ ﷺ قال: «يخرجُ عنقٌ من النارِ فيظلُّ الخلائق كلَّهم، فيقولُ: أمرتُ بكلِّ جبارٍ عنيدٍ، ومن زعم أنَّه عزيزٌ كريمٌ، ومن دعا مع اللَّه إلهًا آخر».

ورواهُ أبو المنهالِ سيارُ بنُ سلامةَ عن شهرِ بنِ حوشبٍ عن ابنِ عباسٍ موقوفًا، قال: إذا كان يومُ القيامة خرجَ عنقٌ من النارِ فأشرفتْ على الخلائقِ لها عينانِ تبصرانِ ولسانٌ فصيحٌ تقولُ: إني وُكِّلتُ بكلِّ جبارٍ عنيدٍ، فتلقُطُهم من الصفوفِ فتحبسهم في نارِ جهنَّم، ثم تخرجُ ثانيًا فتقولُ: إنِّي وكلتُ بمن آذَى اللَّه ورسولَه فلتقطُهم من الصفوف فتحبسُهُم في نارِ جهنَّم، ثم تخرجُ ثالثةً، قال أبو المنهالِ: أحسبُ أنها قالتْ: إني وُكِّلتُ اليومَ بأصحابِ التصاويرِ فتلقطُهُم من الصفوفِ فتحبسهم في نارِ جهنَّم.

وفي حديثِ الصورِ الطويلِ الذي خرَّجه إسحاقُ بنُ راهويه وأبو يعْلَى الموصليُّ وغيرُهما بإسنادٍ فيه ضعفٌ عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ: «ثم يأمرُ

اللَّهُ تعالى جهنَّم فيخرجُ منها عنقٌ ساطعة مظلمة فيقولُ: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾» [يس: ٥٩ - ٦٢].

وخرَّج ابنُ أبي الدنيا من طريقِ الشعبيِّ، عن أبي هريرة، قال: «يُؤتَى بجهنَّم تقاد بسبعينَ ألف زمامٍ آخذٌ بكلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ ملك، وهي تمايلُ عليهم حتَّى توقف عن يمينِ العرشِ، ويلقي اللَّهُ عليها الذلَّ يومئذ، فيوحِي اللَّهُ إليها ما هذا الذلُّ؟ فتقول: يا ربِّ أخافُ أن يكونَ لك فيَّ نقمةٌ، فيوحي اللَّهُ إليها: إنما خلقتُكِ نقمة وليس لي فيك نقمةٌ، ويوحي اللَّهُ إليها فتزفرُ زفرةً لا تبقي دمعةً في عينٍ إلا جرتْ، ثم تزفرُ أخرى فلا يَبْقَى ملَكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ إلا صعقَ، إلا نبيُّكم نبيُّ الرحمة ﷺ يقولُ: «يا ربِّ أُمَّتي أُمَّتي»».

وروى عبدُ اللَّه بنُ الإمامِ أحمدَ بإسنادِهِ عن أبي عبدِ اللَّه الجدليِّ، عن عبادة بن الصامتِ وكعبٍ قالا: يخرجُ عنقٌ من النارِ فيقولُ: أمرتُ بثلاثة: بمَن جعلَ مع اللَّه إلهًا آخر، وبكلِّ جبارٍ عنيدٍ، وبكُلِّ معتدٍ، ألا إني أعرفُ بالرجلِ من الوالد بولدِهِ والمولودِ بوالدِهِ[1].

* * *

[قال البخاريُّ][2]: حدثنا أبو اليمانِ: نا شُعَيْبٌ، عن الزُّهريِّ: أخبرني سعيدُ بنُ المسيب وعطاءُ بنُ يزيد الليثي، أنَّ أبا هريرة أخبرهما أنَّ الناس قالوا: يا رسول اللَّه: هل نَرَى ربَّنا يومَ القيامة؟ قال: «هل تُمَارُون في القمر ليْلَةَ البدْرِ ليس دُونَه سحابٌ؟» قالوا: لا يا رسول اللَّه، قال: «هل تُمارُون في رؤيةِ

(١) «التخويف من النار» (١٧٨ - ١٨٨).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ٢٠٤)، (٨/ ١٤٦)، ومسلم (١/ ١١٤).

الشمس ليس دونها سحابٌ؟» قالوا: لا.

قال: «فإنكم ترونه كذلك، يُحْشرُ الناسُ يومَ القيامةِ، فيقولُ: مَنْ كان يعبدُ شيئًا فليتَّبعْهُ، فمنهم من يتبعُ الشمس، ومنهم من يتبع القمر، ومنهم من يتبع الطواغيت، وتبقى هذه الأُمَّةُ فيها منافقوها، فيأتيهم اللَّهُ، فيقولُ: أنا ربُّكم، فيقولون: هذا مكانُنا حتى يأتينا ربُّنا، فإذا جاء ربُّنا عرفْنَاه، فيأتيهم اللَّه عزَّ وجلَّ فيقول: أنا ربُّكم فيقولون: أنت ربُّنا، فيدعوهم، ويُضْربُ الصِّراطُ بيْنَ ظهراني جهنَّم، فأكونُ أول من يجُوزُ من الرُّسُلِ بأُمَّته، ولا يتكلَّمُ يومئذ أحدٌ إلا الرسل، وكلامُ الرُّسُلِ يومئذ: اللهم سلِّم سلِّم، وفي جهنَّم كلاليبُ مثلُ شوْكِ السَّعدانِ، هل رأيتُم شوْك السَّعْدان؟» قالوا: نعم.

قال: «فإنها مثلُ شوْكِ السَّعْدان، غير أنه لا يعلمُ قدرَ عظَمها إلا اللَّهُ، تخطفُ الناسَ بأعمالهم، فمنهم من يُوبقُ بعملِه، ومنهم من يُخَرْدَلُ، ثمَّ ينْجُوا، حتى إذا أراد اللَّه رحمةَ من أرادَ منْ أهل النَّار، أمرَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ الملائكةَ أنْ يُخْرِجوا من النَّارِ منْ كان يعبُدُ اللَّه، فيُخْرِجُوهم ويعرفُونَهُم بآثارِ السجود.

وحرَّم اللَّهُ عزَّ وجلَّ على النارِ أن تأكل أثر السجودِ، فيخْرُجون من النَّارِ، فكُلُّ ابنِ آدمَ تأكله النارُ إلا أثرَ السجودِ، فيخْرُجُون من النَّارِ قد امتحشوا، فيُصبُّ عليهم ماءُ الحياةِ فينبتونَ كما تنبُتُ الحبَّةُ في حميلِ السيل».

وفي الحديث: دليلٌ على أنَّ المشركينَ الذين كانوا يعبدونَ في الدنيا من دون اللَّه آلهة يتبعون آلهتَهم التي كانوا يعبدون يوم القيامة، فيردنهم النار، كما قال تعالى في حقِّ فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود:٩٨].

ويبقى من كان يعبدُ اللَّهَ وحدَه ظاهراً، مؤمنًا كان أو منافقًا، فهؤلاء

ينظرونَ من كانُوا يعبدونه في الدنيا، وهو اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له.

ففي هذا الحديث: أنَّ اللَّه يأتيهم أولَ مرةٍ فلا يعرفونه، ثم يأتيهم في المرة الثانية فيعرفونه.

وقد دلَّ القرآن على ما دلَّ عليه هذا الحديث في مواضعَ، كقوله ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ**﴾ [البقرة:٢١٠] وقال: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**﴾ [الأنعام:١٥٨]، وقال: ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ [الفجر:٢٢].

ولم يتأولِ الصحابةُ ولا التابعونَ شيئًا من ذلك، ولا أخرجُوه عن مدلوله، بل رُوي عنهم ما يدلُّ على تقريرِه والإيمانِ به وإمرارِه كما جاء.

وقد رُوي عن الإمامِ أحمدَ، أنه قال في مجيئِه: هو مجيءُ أمرِه.

وهذا مما تفرَّدَ به حنبلٌ عنه.

فمن أصحابنا من قال: وهِمَ حنبلٌ فيما رَوى، وهو خلافُ مذهبه المعروفِ المتواتر عنه.

وكان أبو بكر الخلاَّلُ وصاحبُه لا يثبتان بما تفرد به حنبلٌ، عن أحمدَ روايةً.

ومن متأخريهم من قال: هو روايةٌ عنه، بتأويلِ كلِّ ما كان من جنسِ المجيءِ والإتيانِ ونحوهما.

ومنهم من قال: إنَّما قال ذلك إلزامًا لمن ناظرَهُ في القرآن، فإنهم استدلُّوا

على خلقهِ بمجيءِ القرآنِ، فقال: إنَّما يجيءُ ثوابُهُ، كقولِهِ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾، أي: كما تقولون أنتم في مجيءِ اللَّه أنه مجيءُ أمرِهِ.

وهذا أصحُّ المسالكِ في هذا المرويِّ.

وأصحابُنا في هذا على ثلاثِ فرقٍ:

فمنهم من يثبتُ المجيءَ والإتيانَ، ويصرحُ بلوازمِ ذلك في المخلوقاتِ، وربما ذكروه عن أحمدَ من وجوهٍ لا تصحُّ أسانيدُها عنه.

ومنهم من يتأول ذلك على مجيء أمرِهِ.

ومنهم من يقرُّ ذلك، ويُمِرُّه كما جاء، ولا يفسِّره، ويقولُ: هو مجيءٌ وإتيانٌ يليقُ بجلالِ اللَّه وعظمتِهِ سبحانه.

وهذا هو الصحيحُ عن أحمدَ، ومن قبلَه منَ السلفِ، وهو قولُ إسحاقَ وغيرِه من الأئمةِ. وكان السلفُ ينسبونَ تأويلَ هذه الآياتِ والأحاديثِ الصحيحةِ إلى الجهميةِ.

لأن جهمًا وأصحابَهُ أولُ منِ اشتُهِرَ عنهم أنَّ اللَّه تعالى منزهٌ عما دلتْ عليه هذه النصوصُ بأدلةِ العقولِ التي سمَّوْها أدلةً قطعيةً هي المحكماتُ، وجعلُوا ألفاظ الكتاب والسنة هي المتشابهاتُ، فعرضُوا ما فِيهَا على تلكَ الخيالاتِ، فقبِلُوا ما دلَّتْ على ثبوتِهِ بزعمهم، وردُّوا ما دلتْ على نفيه بزعمهم، ووافقَهم على ذلك سائرُ طوائفِ أهلِ الكلامِ من المعتزلةِ وغيرِهم.

وزعمُوا أنَّ ظاهرَ ما يدلُّ عليه الكتابُ والسنةُ تشبيهٌ وتجسيمٌ وضلالٌ، واشتقُّوا من ذلك لمن آمنَ بما أنزل اللَّهُ على رسولِهِ أسماءً ما أنزلَ اللَّه بها من

سلطان، بل هي افتراءٌ على اللَّه، ينفِّرون بها عن الإيمانِ باللَّه ورسولِه.

وزعمُوا أنَّ ما وردَ في الكتابِ والسنة مـن ذلك - مع كثرتِهِ وانتشارِهِ - من بابِ التوسعِ والتجـوزِ، وأنه يحملُ على مجازاتِ اللغةِ المستـبعدةَ، وهذا من أعظمِ أبوابِ القـدحِ في الشـريعةِ المحكـمة المطهـرةِ، وهو من جنسِ حـملِ الباطنيةِ نصوصَ الإخبارِ عن الغيوبِ كالمعادِ والجنَّة والنارِ على التوسعِ والمجازِ دونَ الحقـيقـةِ، وحملِهم نصـوصَ الأمرِ والنهي على مـثلِ ذلك، وهذا كلُّه مروقٌ عن دينِ الإسلام.

ولم ينهَ علماءُ السلفِ الصالحِ وأئمـةُ الإسلامِ كالشافعيِّ وأحمـدَ وغيرِهما عن الكلامِ وحذَّرُوا عنه، إلا خوفًا من الوقوعِ في مثلِ ذلك، ولو علمَ هؤلاءِ الأئمةُ أنَّ حملَ النصوصِ على ظاهرِها كفـرٌ لوجبَ عليهم تبيينُ ذلك وتحذيرُ الأُمَّة منه؛ فـإنَّ ذلك من تمامِ نصيحـة المسلمين، فكيفَ كان ينصحـونَ الأُمَّةَ فـيمـا يتعلقُ بالأحكامِ العـمليـة ويدَعُون نصـيحـتَهم فـيمـا يتعلقُ بأصـولِ الاعتقاداتِ، هذا من أبطلِ الباطلِ.

قال أبو عبد الرحمنِ السلميُّ الصوفيُّ: سمعتُ عبد الرحمن بن محمد بن جابر السلميَّ يقـول: سمعتُ محمـدَ بنَ عقيلِ بنِ الأزهرِ الفقيـهَ يقولُ: جاء رجلٌ إلى المزني يسأله عن شيءٍ من الكلامِ، فـقال: إنِّي أكرهُ هذا، بل أنْهى عنه، كما نهَى عنه الشـافعيُّ؛ فإنِّي سمعتُ الشافعيَّ يـقولُ: سئلَ مالكٌ عن الكلامِ والتـوحيدِ، فـقال مـالكٌ: محـالٌ أن يُظنَّ بالنبيِّ ﷺ أنه علَّم أُمـته الاستنجاءَ ولم يعلِّمْهُمُ التوحيدَ، فالتوحيدُ ما قاله النبيُّ ﷺ: **«أُمرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتَّى يقولُوا: لا إله إلا اللَّه، فإذا قالُوها عصموا مني دماءَهم وأموالَهم»** فما عصَمَ

الدمَ والمالَ فهو حقيقةُ التوحيدِ. انتهى.

وقد صحَّ عن ابنِ عباسٍ أنه أنكر على من استنكرَ شيئًا من هذه النصوصِ، وزعمَ أنَّ اللَّه منزهٌ عما تدلُّ عليه.

فروى عبدُ الرزاقِ في «كتابِهِ»[1] عن معمر، عن ابنِ طاووسَ، عن أبيه، قال: سمعتُ رجلاً يحدِّثُ ابنَ عباسٍ بحديثِ أبي هريرة: «**تحاجَّتِ الجنةُ والنارُ**»، وفيه: «**فلا تمتلئُ حتَّى يضع رِجْله**» - أو قال: «**قدمَهَ فيها**» قال: فقامَ رجلٌ فانتفضَ، فقال ابنُ عباسٍ: ما فرقُ هؤلاءِ، يجدونَ رقةً عند محكمِهِ، ويهلكُون عند متشابهه.

وخرَّجه إسحاقُ بنُ راهويه في «مسندِهِ» عن عبدِ الرزاق.

ولو كانَ لذلكَ عندَهُ تأويلٌ لذكرهُ للناسِ ولم يسعْه كتمانُه.

وقد قابَل هؤلاءِ المتكلمينَ طوائف آخرون، فتكلَّموا في تقريرِ هذه النصوصِ بأدلةٍ عقليةٍ، وردُّوا على النفاةِ، ووسَّعوا القولَ في ذلك، وبيَّنوا أن لازَم النَّفْي التعطيلُ المحضُ.

وأما طريقةُ أئمة أهلِ الحديثِ وسلفِ الأُمَّة: فهي الكفُّ عن الكلامِ في ذلك من الطرفينِ، وإقرارُ النصوصِ، وإمرارِها كما جاءتْ، ونفي الكيفيةِ عنها والتمثيلِ.

وقد قال الخطابيُّ في «الأعلامِ»: مذهبُ السلفِ في أحاديثِ الصفاتِ: الإيمانُ، وإجراؤها على ظاهرِها، ونفيُ الكيفيةِ عنها.

---

(١) «المصنف» (١١/ ٤٢٣).

ومن قال: الظاهـرُ منها غيـرُ مرادٍ، قـيلَ له: الظاهرُ ظاهرانِ: ظاهرٌ يليقُ بالمخلوقينِ ويختصُّ بهم، فهو غـيرُ مرادٍ، وظاهرٌ يليقُ بذي الجلالِ والإكرامِ، فهو مرادٌ، ونفيهُ تعطيلٌ.

ولقد قال بعضُ أئمةِ الكلامِ والفلسفةِ من شـيوخِ الصوفيةِ الذي يحسنُ به الظنَّ المتكلمـونَ: إن المتكلمينَ بالغُوا في تـنزيهِ اللَّهِ عن مشـابهةِ الأجسامِ، فوقعُـوا في تشبيهـه بالمعاني، والمعانِي محـدَثةٌ كالأجسامِ، فلم يـخرجُوا عن تشبيهه بالمخلوقاتِ.

وهذا كلُّه إنَّما أتى من ظنٍّ أن تفاصـيلَ معرفةِ الجائزِ على اللَّه والمسـتحيلِ عليه يُؤخذُ من أدلةِ العقولِ، ولا يُؤخذُ مما جاءَ به الرسولُ.

وأمَّا أهلُ العلمِ والإيمانِ، فيعلَمـون أنَّ ذلك كلَّه متلقًّى مما جاء به الرسولُ ﷺ وأنَّ مـا جاءَ به مـن ذلك عن ربِّه فهـو الحقُّ الذي لا مـزيدَ عليـه، ولا عدولَ عنه، وأنه لا سبيل لتلقي الـهُدى إلا منه، وأنه ليس في كتاب اللَّه ولا سنة رسولِه الصحـيحة ما ظاهرُه كفرٌ أو تشـبيهٌ أو مستحيلٌ، بل كـلُّ ما أثبته اللَّهُ لنفسِـه، أو أثبتـه له رسولُهُ ﷺ، فـإنـه حـقٌّ وصـدقٌ، يجبُ اعـتـقـادُ ثبوتِـه مـع نفْيِ التمثيلِ عنه، فكما أنَّ اللَّهَ ليس كمثلِه شيءٌ في ذاتِه، فكذلك في صفاتِه.

وما أُشكلَ فهـمُهُ من ذلك، فإنه يقالُ فيه مـا مدَح اللَّه الراسخينَ من أهل العلم، أنهم يقولون عند المتشابهاتِ: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

وما أمـر به رسولُ اللَّه ﷺ في متـشابِهِ الكتابِ، أنه يُـردُّ إلى عالمِه، واللَّهُ

يقول الحقَّ ويهدي السبيلَ.

وكلمةُ السلفِ وأئمةِ أهلِ الحديثِ متفقةٌ على أنَّ آياتِ الصفاتِ وأحاديثَها الصحيحةَ كلَّها تُمَرُّ كما جاءتْ، من غير تشبيهٍ ولا تمثيلٍ، ولا تحريفٍ ولا تعطيلٍ.

قال أبو هلالٍ: سأل رجلٌ الحسنَ عن شيءٍ من صفة الربِّ عزَّ وجلَّ، فقال: أمِرُّوها بلا مثالٍ.

وقال وكيعٌ: أدركتُ إسماعيلَ بنَ أبي خالدٍ وسفيانَ ومِسْعرًا، يحدِّثون بهذه الأحاديثِ، ولا يفسِّرون شيئًا.

وقال الأوزاعيُّ: سئلَ مكحولٌ والزهريُّ عن تفسيرِ هذه الأحاديثِ، فقالا: أمِرَّها على ما جاءتْ.

وقال الوليدُ بنُ مسلمٍ: سألتُ الأوزاعيَّ ومالكًا وسفيانَ وليثًا عن هذه الأحاديثِ التي فيها الصفةُ والقرآنُ، فقالوا: أمِرُّوها بلا كيفٍ.

وقال ابنُ عيينةَ: ما وصفَ اللَّهُ به نفسَهُ فقراءتُهُ تفسيرُهُ، ليسَ لأحدٍ أن يفسرَهُ إلا اللَّهُ عزَّ وجلَّ.

وكلامُ السلفِ في مثلِ هذا كثيرٌ جدًّا.

وقال أشهبُ: سمعتُ مالكًا يقولُ: إيَّاكم وأهلَ البدعِ. فقيلَ: يا أبا عبد اللَّه، وما البدعُ؟ قال: أهلُ البدعِ الذين يتكلمونَ في أسماءِ اللَّه وصفاتِهِ وعلمِهِ وقدرتِهِ ولا يسكتونَ عما سكتَ عنه الصحابةُ والتابعونَ لهم بإحسانٍ.

خرَّجه أبو عبد الرحمن السلميُّ الصوفيُّ في كتابِ «ذمِّ الكلامِ».

وروى ـ أيضًا ـ بأسانيدِهِ ذمَّ الكلامِ وأهلِهِ عن مالكٍ، وأبي حنيفةَ، وأبي يوسُفَ، ومحمدٍ وابن مهدي، وأبي عبيدٍ، والشافعيِّ، والمزنيِّ، وابن خزيمة.

وذكر ابنُ خزيمةَ النهيَ عنه عن مالكٍ والثوريِّ والأوزاعيِّ والشافعيِّ وأبي حنيفةَ وصاحبيهِ وأحمدَ وإسحاقَ وابنِ المباركِ ويحيى بنِ يحيى ومحمدِ بنِ يحيى الذُّهليِّ.

وروى السلميُّ ـ أيضًا ـ النهيَ عن الكلامِ وذمَّه عن الجنيدِ وإبراهيم الخواصِ.

فتبيَّنَ بذلك أنَّ النهي عن الكلامِ إجماعٌ من جميعِ أئمةِ الدين من المتقدمينَ من الفقهاءِ وأهلِ الحديثِ والصوفيةِ، وأنه قولُ أبي حنيفةَ ومالكٍ والشافعيِّ وأحمد وإسحاقَ وأبي عبيدٍ وغيرِهم من أئمة المسلمينَ.

ومن جملة صفاتِ اللَّه التي نؤمن بها، وتُمَرُّ كما جاءتْ عندهم: قولُه تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢] ونحو ذلك مما دلَّ على إتيانِهِ ومجيئِهِ يومَ القيامة.

وقد نصَّ على ذلكَ أحمدُ وإسحاقُ وغيرُهما.

وعندهما: أن ذلك من أفعالِ اللَّه الاختياريةِ التي يفعلُها بمشيئَتِهِ واختيارِهِ.

وكذلك قالَه الفضيلُ بنُ عياضٍ وغيرُه من مشايخِ الصوفيةِ أهلِ المعرفةِ.

وقد ذكرَ حربٌ الكرْمانيُّ أنه أدركَ على هذا القولِ كلَّ مَن أخذَ عنه العلمَ في البلدانِ، وسمَّى منهُم: أحمدَ وإسحاقَ والحميديَّ وسعيدَ بنَ منصورٍ.

وكذلكَ ذكرَه أبو الحسنِ الأشعريُّ في كتابِهِ المسمَّى بـ «الإبانة»، وهو من أجلِّ كتبِهِ، وعليه يعتمدُ العلماءُ وينقلُون منه، كالبيهقيِّ وأبي عثمان الصابونيِّ

وأبي القاسمِ ابنِ عساكرٍ وغيرِهم.

وقد شرحَهُ القاضي أبو بكرِ ابنُ الباقلانيِّ.

وقد ذكرَ الأشعريُّ في بعضِ كتبِهِ أن طريقةَ المتكلمينَ في الاستدلالِ على قدَمِ الصانعِ وحدوثِ العالَمِ بالجواهرِ والأجسامِ والأعراضِ محرمةٌ عندَ علماء المسلمين.

وقد رُوي ذمُّ ذلك وإنكارُه ونسبتُه إلى الفلاسفة عن أبي حنيفةَ.

وقال ابن سريج: توحيدُ أهلِ العلمِ وجماعةِ المسلمين: الشهادتان، وتوحيدُ أهلِ الباطنِ من المسلمينَ: الخوضُ في الأعراضِ والأجسامِ، وإنَّما بُعِث النبيُّ ﷺ بإنكارِ ذلك.

خرَّجه أبو عبد الرحمن السلميُّ.

وكذلك ذكره الخطابيُّ في رسالتِه في «الغنية عن الكلامِ وأهلِه».

وهذا يدلُّ على أن ما يؤخذُ من كلامِهِ في كثيرٍ من كتبِهِ مما يخالفُ ذلك ويوافقُ طريقةَ المتكلمينَ فقد رجعَ عنه، فإن نفيَ كثيرٍ من الصفاتِ إنما هو مبنيٌّ على ثبوتِ هذه الطريقةِ.

قال الخطابيُّ في هذه الرسالةِ في هذه الطريقةِ في إثباتِ الصانعِ: إنما هو شيءٌ أخذهُ المتكلمونَ عن الفلاسفةِ، وإنما سلكتِ الفلاسفةُ هذه الطريقةَ لأنهم لا يُثبتون النبوَّاتِ ولا يرون لها حقيقةً، فكان أقوى شيءٍ عندَهم في الدلالةِ على إثباتِ هذه الأمورِ ما تعلَّقوا به من الاستدلالِ بهذه الأشياء، فأمَّا مثبتو النبوَّاتِ، فقد أغناهم اللَّهُ عن ذلك، وكفاهم كلفةَ المؤنةِ في ركوبِ هذه الطريقةِ المتعرِّجةِ التي لا يُؤمَنُ العنتُ على مَن ركبَها، والإبداعُ والانقطاعُ

على سالكها.

ثم ذكرَ أن الطريقَ الصحيحةَ في ذلك: الاستدلالُ بالصنعةِ على صانعها، كما تضمَّنه القرآنُ، وندب إلى الاستدلالِ به في مواضعَ، وبه تشهدُ الفطرُ السليمةُ المستقيمةُ.

ثم ذكر طريقتَهم التي استدلُّوا بها، وما فيها من الاضطراب والفسادِ والتناقضِ والاختلافِ.

ثم قال: فلا تشتغلْ ـ رحمكَ اللَّهُ ـ بكلامِهِم، ولا تغترَّ بكثرةِ مقالاتهم، فإنَّها سريعةُ التهافتِ، كثيرةُ التناقضِ، وما من كلامٍ تسمعُه لفرقة منهم إلا ولخصومِهِم عليه كلامٌ يوازيه ويفارقُه، فكلٌّ بكلٍّ معارضٌ، وبعضُهم ببعضٍ مقابلٌ.

قال: وإنَّما يكونُ تقدُّمُ الواحدِ منهم وفلجه على خصمِهِ بقدرِ حظِّه من الثباتِ والحذقِ في صنعةِ الجدالِ والكلامِ، وأكثرُ ما يظهرُ به بعضُهم على بعضٍ إنَّما هو إلزامٌ من طريقِ الجدلِ على أصولٍ مؤصلةٍ لهم، ومناقضاتٍ على مقالاتٍ حفظُوها عليْهم [...][1] تقودها وطردها، فمن تقاعدَ عن شيءٍ منها سمَّوْه من طريقِ [...][1] جعلوه مبطلاً، وحكموا بالفلج لخصمِهِ عليه، والجدلُ لا يقومُ به حقٌّ [...][1] به حجةٌ.

وقد يكون الخصمانِ على مقالتينِ مختلفتينِ، كلاهما باطلٌ، ويكونُ الحقُّ في ثالثٍ غيرهما، فمناقضةُ أحدهما صاحبَه غيرُ مصحِّحٍ مذهبَه، وإن كان مفسداً به قولَ خصمِهِ، لأنهما مجتمعان معًا في الخطأ،

(١) بياض بالأصل.

مشتركان فيه، كقول الشاعر:

حُجَجٌ تهَافَتُ كالزَّجاجِ(١) تخَالُها حقًّا وكُلٌّ واهِنٌ مكْسُورُ

ومتى كان الأمرُ كذلك، فإنَّ أحدًا من الفريقينِ لا يعتمدُ في مقالتِه التي نصرَها أصلاً صحيحًا، وإنَّما هو أوضاعٌ وآراءُ تتكافأ وتتقابلُ، فيكثر المقالُ، ويدومُ الاختلافُ، ويقلُّ الصوابُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، فأخبرَ تعالى أنَّ ما كثرَ فيه الاختلافُ فليسَ من عندِه، وهو من أدلِّ الدليلِ على أنَّ مذاهبَ المتكلمين مذاهبُ فاسدةٌ، لكثرة ما يوجدُ فيها من الاختلافِ المفضي بهم إلى التكفيرِ والتضليلِ.

وذكرَ بقيةَ الرسالةَ، وهي حسنةٌ متضمِّنةٌ لفوائدَ جليلةٍ، وإنما ذكرْنا هذا القدرَ منها ليتبيَّن به أنَ القواعدَ العقليةَ التي يدَّعي أهلُها أنه قطعياتٌ لا تقبلُ الاحتمالَ، فتردُّ لأجلِها ـ بزعمِهم ـ نصوصُ الكتابِ والسنةِ وتصرفُ عن مدلولاتها، إنما هي عندَ الراسخينَ شبهاتٌ جهلياتٌ، لا تساوِي سماعَها، ولا قراءتَها، فضلاً عن أنْ يُردَّ لأجلها ما جاءَ عن اللَّه ورسولِه، أو يحرفَ شيءٌ من ذلك عن مواضعِه.

وإنَّما القطعياتُ ما جاءَ عن اللَّهِ ورسولِه من الآياتِ المحكماتِ البيناتِ، والنصوصِ الواضحاتِ، فتردُّ إليها المتشابهاتُ، وجميعُ كتبِ اللَّه المنزلةِ متفقةٌ على معنًى واحد، وإن ما فيها محكماتٌ ومتشابهاتٌ، فالراسخونَ في العلمِ يؤمنونَ بذلك كلِّه، ويردونَ المتشابهَ إلى المحكمِ، ويكِلُون ما أُشْكِلَ عليهم

(١) الزَّجاج: رعاع الناس.

فهمُه إلى عالِمِه، والذين في قلوبِهِم زيغٌ يتبعونَ ما تشابَهُ منه ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويلِه، فيضربونَ كتابَ اللَّه بعضَه ببعضٍ، ويردُّون المحكمَ، ويتمسكونَ بالمتشابهِ ابتغاءَ الفتنةِ، ويحرِّفون المحكمَ عن مواضعه، ويعتمدونَ على شبهاتٍ وخيالاتٍ لا حقيقةَ لها، بلْ هي من وساوسِ الشيطانِ وخيالاتِهِ، يقذفُها في القلوبِ.

فأهلُ العلمِ والإيمانِ يمتثلون في هذه الشبهاتِ ما أُمرُوا به من الاستعاذةِ باللَّه، والانتهاء عما ألقاه الشيطانُ، وقد جعلَ النبيُّ ﷺ ذلك من علاماتِ الإيمانِ، وغيرُهم فيصغونَ إلى تلك الشبهاتِ، ويعبِّرون عنها بألفاظٍ مشتبهاتٍ، لا حرمةَ لها في نفسها وليس لها معنىً يصحُّ، فيجعلون تلك الألفاظ محكمةً لا تقبلُ التأويلَ، فيردُّون كلامَ اللَّهِ ورسولِهِ إليها، ويعرضونه عليها، ويحرِّفونه عن مواضعه لأجلها.

هذه طريقةُ طوائف أهلِ البدعِ المحضةِ من الجهميةِ والخوارجِ والروافضِ والمعتزلةِ ومن أشبَهَهُم، وقد وقعَ في شيءٍ من ذلك كثيرٌ من المتأخرينَ المنتسبين إلى السنة من أهلِ الحديثِ والفقهِ والتصوفِ من أصحابِنا وغيرِهم في بعضِ الأشياءِ دونَ بعضٍ.

وأمَّا السلفُ وأئمةُ أهلِ الحديثِ ، فعلى الطريقةِ الأولى، وهي الإيمانُ بجميعِ ما أثبتَهُ اللَّهُ لنفسه في كتابِهِ، أو صحَّ عن رسولِ اللَّه ﷺ أنه أثبتَه له، مع نفي التمثيلِ والكيفيةِ عنه، كما قالَه ربيعةُ ومالكٌ وغيرُهما من أئمة الهدى في الاستواء، ورُوي عن أمِّ سلمةَ أمِّ المؤمنين، وقال مثلَ ذلك غيرُهم من العلماء في النزولِ، وكذلك القولُ في سائر الصفاتِ، واللَّهُ سبحانه وتعالى الموفقُ.

وقولُه ﷺ: «فأكون أولَ من يجوزُ بأُمَّته» حتى يقطع الجسرَ بأُمَّته، ورُوي: «يجيزُ»، وهما لغتان، يقال: جُزتُ الواديَ وأجزتُه، وهما بمعنىً.

وعن الأصمعيِّ، قال: أجزتُه: قطعتُه، وجُزتُه: مشيتُ عليه.

وقولُه: «منهم الموبَقُ بعملِه» أي: الهالكُ.

وقولُه: «ومنهم المخردلُ»، هو بالدالِ المهملةِ والمعجمةِ ـ: لغتانِ مشهورتان، والمعنى: المقطَّعُ، والمرادُ ـ والله أعلمُ ـ: أن منهم من يهلكُ فيقعُ في النارِ، ومنهم من تقطِّعه الكلاليبُ التي على جسرِ جهنَّم، ثم لا ينجوُ ولا يقعُ في النارِ.

وقيل: معناه أنه ينقطعُ عن النجاةِ واللحاقِ بالناجين.

والمقصودُ من تخريجِ الحديثِ بطولِهِ في هذا البابِ: أنَّ أهلَ التوحيدِ لا تأكلُ النارُ منهم مواضعَ سجودِهم، وذلك دليلٌ على فضلِ السجودِ عندَ اللهِ وعظمتِهِ، حيث حرَّم على النارِ أن تأكل مواضعَ سجودِ أهلِ التوحيدِ.

واستدلَّ بذلك بعضُ من يقولُ: إنَّ تارك الصلاةِ كافرٌ، فإنَّه تأكلُه النارُ كلَّه، فلا يبقى حالُه حالَ عصاةِ الموحدينَ.

وهذا فيمَنْ لم يصلِّ للَّه صلاةً قطُّ ظاهرٌ.

وقولُه: «امتُحِشُوا» أي: احترقُوا، وضُبطت هذه الكلمةُ بفتحِ التاءِ والحاءِ. وفي بعضِ النسخِ بضمِّ التاء وكسرِ الحاءِ.

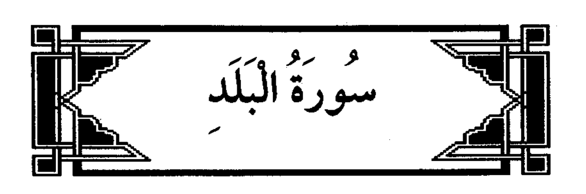
و«الحِبَّةُ» بكسر الحاء، قال الأصـمعيُّ: كُلُّ نبتٍ له حبٌّ فاسْمُ جميع ذلك الحبِّ الحِبَّةُ، وقـال الفراء: الحِبةُ: بذور البـقلِ، وقال أبو عمروٍ: الحِـبَّةُ نبتٌ ينبت في الحشيش صغارٌ.

وقال الكسائيُّ: الحِبَّةُ بذرُ الرياحين، واحدتها حبَّةٌ، وأما الحِنطة فهو الحبُّ لا غير، يعني الفتح.

و«الحميل»: مـا حمله السيل من كل شيءٍ، فـهو حميلٌ بمعنى مـحمول، كقتيل بمعنى مقتولٍ[1].

* * *

(١) «فتح الباري» (٥/ ٩٥ ـ ١٠٧).



سُورَةُ الْبَلَدِ

قوله تعالى: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾

رَوى عطيةُ عن ابنِ عمرَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١]، قال: جبلُ زلزالٍ في جهنَّمَ.

وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن كعب، قال: اقتحام العقبة في كتاب اللَّه - يعني: قوله: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١] - سبعين درجة في النار.

وعن ضمرة قال: سمعت أبا رجاء قال: بلغني أن العقبة التي ذكر اللَّه في كتابه: مطلعها سبعة آلاف سنة، ومهبطها سبعة آلاف سنة[1].

وعن عطية، عن ابن عمر، قال في العقبة: «جبل في جهنم، أفلا أجاوزه بعتق رقبة؟!»[2].

وعن مقاتل بن حيان، قال: هي عقبة في جهنم، قيل: بأي شيء تقطع؟ قال: رقبة.

وفي «الصحيحين»[2]، ولفظه للبخاري عن ابن عمر قال: رأيت في المنام أنه جاءني ملكان في يد كل واحد منهما مقمعة من حديد، ثم لقيني ملك في يده مقمعة من حديد، قالوا: لن تُرَع، نِعْمَ الرجلُ أنت لو كنت

---

(١) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (٣٠/ ٢٠١).

(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ٦١)، (٥/ ٣٠ - ٣١)، (٩/ ٥١)، ومسلم (٧/ ١٥٨).

تكثر الصلاة من الليل، فانطلقوا بي، حتى وقفوا بي على شفير جهنم، فإذا هي مطوية كطي البئر، لها قرون كقرون البئر، بين كل قرنين ملك بيده مقمعة من حديد، وإذا فيها رجال معلقون بالسلاسل رءوسهم أسفلهم، وعرفت رجالاً من قريش، فانصرفوا بي عن ذات اليمين، فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على رسول اللّه ﷺ، فقال: «إن عبد اللّه رجلٌ صالحٌ»(٣) .

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾

قال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٦-٨]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك:٢٣]، وقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد:٨-٩].

قال مجاهدٌ: هذه نعمٌ من اللّه متظاهرةٌ يقرِّرُكَ بها كيما تشكر.

وقرأ الفُضيلُ ليلةً هذه الآية، فبكى، فسُئلَ عن بكائه، فقال: هل بتَّ ليلةً شاكرًا للّه أن جعلَ لك عينينِ تُبصر بهما؟ هل بتَّ ليلةً شاكرًا للّه أنْ جعلَ لك لسانًا تنطقُ به؟ وجعلَ يعدِّدُ من هذا الضَّرْبِ.

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسناده عن سلمانَ الفارسيِّ، قال: إنَّ رجُلاً بُسِطَ له

(١) «التخويف من النار» (ص/ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ١١٩).

منَ الدنيا، فـانتُزِعَ مـا في يديه، فجعل يحـمَدُ اللَّه عزَّ وجلَّ، ويُـثني عليه، حتَّى لم يكـنْ له فراشٌ إلا بوري[1] فجعلَ يحـمدُ اللَّهَ، ويُثني عليه، وبُسطَ لآخرَ من الدنيا، فـقال لصاحبِ البُوري: أرأيتك أنتَ على ما تحـمدُ اللَّهَ عزَّ وجلَّ؟ قال: أحْمَدُهُ على مـا لو أُعْطيتُ به ما أُعْطيَ الخلْقُ، لم أُعْطِهِمْ إيَّاه، قـال: وما ذاك؟ قـال: أرأيت بصرَك؟ أرأيتَ لسـانَك؟ أرأيتَ يديك؟ أرأيتَ رجلَيْك؟

وبإسنادِهِ عن أبي الدرداءِ أنه كان يقولُ: الصِّحَّةُ غِنى الجسدِ.

وعن يونسَ بنِ عبـيدٍ: أنَّ رجلاً شكا إليـه ضيقَ حالِهِ، فـقال له يونسُ: أيسرُّكَ أنَّ لك ببصرِكَ هذا الذي تُبْـصِرُ به مائةَ ألف درهمٍ؟ قال الرجل: لا. قال: فـبرجليك؟ قال: لا، قال: فـذكَّره نِعَمَ اللَّه عليه، فـقال يونسُ: أرى عندك مِئين ألوفٍ وأنت تشكو الحاجةَ.

وعن وهبِ بنِ مُنبِّـهٍ، قال: مكتـوبٌ في حكمةِ آلِ داودَ: العـافيـةُ المُلك الخفيُّ.

وعن بكرٍ المزنيِّ، قـال: يا ابنَ آدمَ، إنْ أردتَ أنْ تعلم قـدرَ مـا أنعم اللَّه عليك، فغمِّضْ عينيك.

وفي بعض الآثارِ: كم منْ نِعمَةٍ للَّه في عرقٍ ساكنٍ.

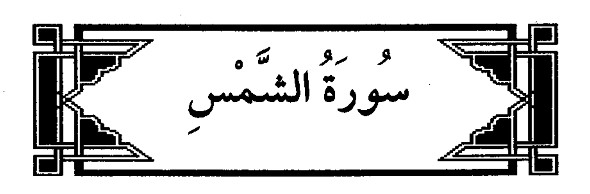
وفي «صحـيحِ البخاريِّ» عن ابنِ عـباسٍ، عن النبيِّ ﷺ، قـال: «**نِعْمتانِ مغْبُونٌ فيهما كثيرٌ من الناسِ: الصِّحَّةُ والفراغُ**»[2] [3].

---

(١) البوري: هو الحصير المنسوج.

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ١٠٩).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٧ ـ ٥٩).



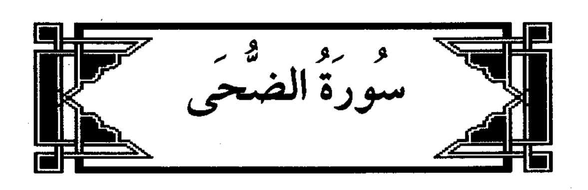
سُورَةُ الشَّمْسِ

قال الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾

والمعنى قد أفلحَ من زكَّى نفسَهُ بطاعـةِ اللَّه، وخابَ من دسَّاها بالمعاصي، فالطاعةُ تُزكِّي النفسَ وتُطهرُها، فترتـفعُ، والمعاصي تُدسِّي النَّفْسَ، وتقمعُها، فتنخفضُ، وتصيرُ كالذي يُدسُّ في التراب[1].

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥٨٤).



سُورَةُ الضُّحَى

قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

وقال في سورةِ الضُّحى: لما توالى فيها قسَمانِ، وجوابَانِ مثبتان، وجوابان نافيانِ، فالقسمانِ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى:١، ٢]، والجوابان النافيان: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى:٣]، والجوابان المثبتان: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى:٤، ٥].

ثم قررَ بنعمٍ ثلاثٍ، وأتبعهنَّ بوصايا ثلاثٍ: كلٌّ واحدةٍ من الوصايا شكرُ النعمةِ التي قوبِلَتْ بها.

فإحداهنَّ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ وجوابها: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾.

والثانية: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ فقابلها بقولِهِ: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

وهذا لأنَّ السائلَ ضالٌّ يبغي الهُدى.

والثالثةُ: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ فقابلَها بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

وإنَّما قال: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ ولم يقلْ: وما قلاكَ؛ لأنَّ القِلَى بغضٌ بعدَ حبٍّ،

وذلك لا يجوز على اللَّهِ تعالى. والمعنى: وما قلى أحدًا قط، ثم قال: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى﴾ ولم يقلْ: خيرٌ على الإطلاقِ، وإنَّما المعنى خيرٌ لك ولمن آمن بك.

وقوله: ﴿فَآوَى﴾ ولم يقلْ: فآواك؛ لأنه أرادَ: آوى بك إلى يومِ القيامةِ[1].

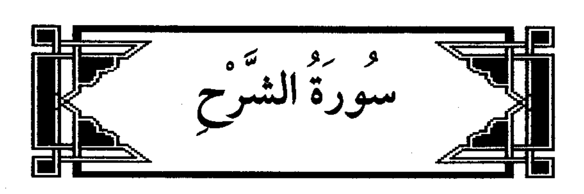
* * *

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾

وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾ [الضحى:٧]، والمرادُ وجدَك غيرَ عالمٍ بما علَّمَك من الكتابِ والحكمةِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾ [الشورى:٥٢]، فالإنسانُ يُولدُ مفطورًا على قبولِ الحقِّ، فإنْ هداه اللَّهُ سبَّبَ له منْ يعلمُهُ الهُدى، فصارَ مهتديًا بالفعلِ بعدَ أن كان مهتديًا بالقوَّةِ، وإنْ خذلَهُ قيَّضَ له من يعلمُهُ ما يُغيرُ فطرتَه، كما قال ﷺ: «كلُّ مولودٍ يولد على الفطرةِ، فأبواه يُهَوِّدَانِه ويُنصِّرانِه ويمجِّسانِه»[2] [3].

* * *

(١) «الذيل على طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩).
(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ١١٨)، ومسلم (٨/ ٥٢).
(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٣).



سُورَةُ الشَّرْحِ

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾

وقولُهُ ﷺ: «فإنَّ مع العسرِ يُسرًا» هو مُنتزَعٌ من قولِهِ تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧]، وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥، ٦].

وخرَّج البزارُ في «مسندِه» وابنُ أبي حاتمٍ - واللفظُ له - من حديثِ أنسٍ عن النبيِّ ﷺ، قال: «لو جاءَ العُسْرُ، فدخلَ هذا الجُحْر، لجاءَ اليسرُ حتَّى يدخلَ عليه فيُخْرِجَه»، فأنزل اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1] [الشرح:٥، ٦].

وروى ابنُ جريرٍ وغيرُه من حديثِ الحسنِ مرسلاً نحوَه، وفي حديثِه: فقال النبيُّ ﷺ: «لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسرينِ»[2].

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ عن ابنِ مسعودٍ، قال: لو أنَّ العسرَ دخلَ في جحرٍ لجاءَ اليسرُ حتَّى يدخل معه، ثم قال: قال اللَّهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[3] [الشرح:٥، ٦].

وبإسنادِهِ أنَّ أبا عبيدةَ حُصِرَ فكتبَ إليه عمرُ يقول: مهما ينزلُ بامرئٍ شدَّةٌ

---

(١) أخرجه: البزار (٢٢٨٨ - كشف)، وابن أبي حاتم - كما في «التفسير» لابن كثير (٨/ ٤٥٣).

(٢) أخرجه: الطبري في «التفسير» (٣٠/ ٢٣٦).

(٣) السابق.

يجعلُ اللَّه له بعـدَها فرجًا، وإنَّه لن يَغْلِبَ عسرٌ يـسرينِ، وإنه يقول: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(1) [آل عمران: ٢٠٠].

ومن لطائف أسرارِ اقـترانِ الفرجِ بالـكربِ واليُسرِ بالعـسرِ: أنَّ الكربَ إذا اشتـدَّ وعَظُمَ وتناهى، حصلَ للعـبدِ الإياسُ من كَشْـفِهِ من جـهةِ المخلوقين، وتعلَّقَ قلبُه باللَّه وحـدَهُ، وهذا هو حقيقـةُ التوكُّلِ على اللَّه، وهو من أعظمِ الأسبابِ التي تُطلَبُ بها الحوائجُ، فـإنَّ اللَّهَ يكفي من توكَّل عليه، كما قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

وروى آدمُ بنُ أبي إياسٍ في «تفسيرِهِ» بإسنادِهِ عن محـمدِ بنِ إسحاقَ قال: جاء مالكٌ الأشجعيُّ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: أُسِرَ ابْنِي عوفٌ، فقالَ له: «أرسل إليه: إن رسـول اللَّه ﷺ يأمـرُكَ أن تُكثِـرَ من قولِ: لا حـول ولا قـوة إلا باللَّه»، فأتاه الرسولُ فأخـبرَه، فأكبَّ عوفٌ يقول: لا حول ولا قـوة إلا باللَّه، وكانوا قد شدُّوه بالقدِّ فسقطَ القدُّ عنه، فخرجَ فإذا هو بناقةٍ لهم فركبَها، فأقبلَ فإذا هو بسَرحِ القومِ الذي كـانوا شدُّوه، فصاح بهم، فاتبعَ آخرُها أوَّلهـا، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادي بالبـابِ، فقال أبوه: عوفٌ وربِّ الكعـبةِ، فقـالتْ أُمُّه: واسوأتاه، عوفٌ كئيبٌ يألمُ لما فيه منَ القـدِّ، فاستبقَ الأبُ والخادمُ إليه، فإذا عوفٌ قدْ ملأ الفناءَ إبلاً، فقصَّ على أبيه أمرَه وأمرَ الإبلِ فأتى أبوهُ رسولَ اللَّه ﷺ فأخبره بخبرِ عـوفٍ وخبرِ الإبل، فقال له رسولُ اللَّه ﷺ: «اصنع بها ما أحببتَ، وما كنتَ صـانعًا بإبلك»، ونزل: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ الآية [الطلاق: ٢، ٣].

---

(١) أخرجه: ابن أبي شيبة (٥/ ٣٣٥)، والحاكم (٢/ ٣٣٠ ـ ٣٠١).

قال الفُضيلُ: واللَّه لو يئستَ من الخلقِ حتَّى لا تريدَ منهم شيئًا، لأعطاكَ مولاكَ كُلَّ ما تُريد.

وذكرَ إبراهيمُ بنُ أدهم عن بعضِهم، قال: ما سألَ السائلون مسألةً هي ألحفُ منْ أن يقولَ العبدُ: ما شاء اللَّهُ، قال: يعني بذلك التَّفويضَ إلى اللَّه عزَّ وجلَّ.

وقال سعيدُ بنُ سالمٍ القداح: بلغني أنَّ موسى عليه السلامُ كانتْ له إلى اللَّهِ حاجةٌ، فطلبَها، فأبطأتْ عليه، فقال: ما شاء اللَّه، فإذا حاجتُه بيْنَ يديه، فعجبَ، فأوحى اللَّهُ إليه: أما علمتَ أنَّ قولَك: «ما شاءَ اللَّهُ» أنجحُ ما طُلبتْ به الحوائجُ.

وأيضًا فإنَّ المؤمنَ إذا استبطأ الفرَجَ، وأيسَ منه بعدَ كثرةِ دعائه، وتضرُّعه، ولم يظهرْ عليه أثرُ الإجابةِ يرجعُ إلى نفسِه باللائمةِ، وقال لها: إنَّما أُتيتُ من قِبَلِكِ، ولو كان فيكِ خيرٌ لأُجبتُ، وهذا اللومُ أحبُّ إلى اللَّه من كثيرٍ من الطَّاعاتِ، فإنَّه يُوجبُ انكسارَ العبدِ لمولاهُ واعترافَهُ له بأنَّه أهلٌ لما نزلَ به من البلاءِ، وأنه ليسَ بأهلٍ لإجابةِ الدعاءِ، فلذلك تُسرعُ إليه حينئذٍ إجابةُ الدعاء وتفريجُ الكربِ، فإنه تعالى عندَ المنكسرةِ قلوبُهم من أجلِه.

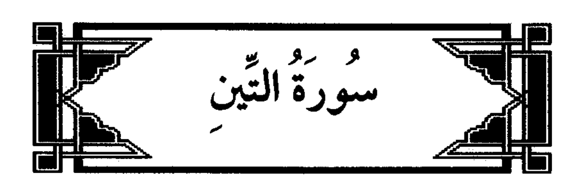
قال وهبٌ: تعبَّدَ رجلٌ زمانًا، ثمَّ بدت له إلى اللَّه حاجةٌ، فصامَ سبعينَ سبتًا، يأكلُ في كُلِّ سبتٍ إحدى عشرةَ تمرةً، ثم سألَ اللَّهَ حاجتَهُ فلم يُعطَها، فرجعَ إلى نفسِهِ فقال: منكِ أُتيتُ، لو كان فيكِ خيرٌ أعطيتِ حاجتَك، فنزلَ إليه عندَ ذلك ملَكٌ، فقال: يا ابنَ آدمَ ساعتُك هذه خيرٌ من عبادتِك التي مضت، وقد قضى اللَّه حاجتَك. خرَّجه ابنُ أبي الدنيا.

ولبعضِ المتقدمين في هذا المعنى:

عسى ما ترى أن لا يدوم وأن ترى ... له فرجًا ممَّا ألحَّ به الدَّهرُ
عسى فرَجٌ يأتي به اللَّهُ إنَّه ... لهُ كُلَّ يومٍ في خَليقتِه أَمْرُ
إذا لاح عسرٌ فارْجُ يسرًا فإنَّه ... قضى اللَّهُ أنَّ العُسرَ يتبعُهُ اليُسرُ[1]

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥٢٠ ـ ٥٢٤).



سُورَةُ التِّينِ

قوله تعالى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾

وفي «الصحيحِ»: «أنَّ إبراهيمَ عليه السلامُ إذا شفَعَ في أبيه، قيل له: يا إبراهيمُ انظرْ ما وراءَك، فإذا هو بذيخٍ ملطَّخ فيُؤخَذُ بقوائِمِه ويُلقى في النَّارِ»(1)، والذيخُ: الضبعُ الذكرُ.

وقال أبو العالية في قولهِ تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين:٥] قال: في النَّارِ في صورةِ خنزيرٍ، خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ.

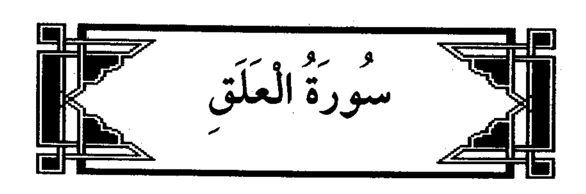
قال ابنُ مسعودٍ: إذا أرادَ اللَّه تعالى أنْ لا يُخْرِجَ منها أحدًا غيَّرَ صورَهم وألوانَهم فلا يُعرفُ منهم أحدٌ(2).

* * *

---

(1) أخرجه: البخاري (٤/١٦٩).

(2) «التخويف من النار» (١٣٨ ـ ١٣٩).



سُورَةُ الْعَلَقِ

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾

[قال البخاريُّ][1]: قال ابنُ عباسٍ: حدثني أبو سفيانَ في حديثِ هرقلَ، فقال: يأمرنا ـ يعني: النبيَّ ﷺ ـ بالصَّلاةِ والصِّدْقِ والعفافِ.

حديث أبي سفيانَ هذا قد خرَّجه البخاريُّ بتمامِهِ في أولِ كتابِهِ، وهو يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ كان أهمُّ ما يأمرُ به أُمَّتَه الصلاةَ، كما يأمرُهم بالصدق والعفافِ، واشتهر ذلك حتى شاعَ بين المللِ المخالفينَ له في دِينه، فإنَّ أبا سفيان كان حينَ قال ذلك مُشْرِكًا، وكان هِرقْلُ نَصْرانيًا، ولم يزلْ ﷺ منذ بُعث يأمر بالصدقِ والعفافِ، ولم يزلْ يصلي ـ أيضًا ـ قبل أن تُفْرَض الصلاةُ.

وأولُ ما أُنزل عليه سورةُ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:١]، وفي آخرها: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ إلى قوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق:١٩].

وقد نَزَلَتْ هذه الآياتُ بسببِ قولِ أبي جَهْلٍ: لئن رأيتُ محمدًا ساجدًا عندَ البيتِ لأطأنَّ على عنُقِه.

وقد خرَّج هذا الحديثَ مسلمٌ في «صحيحِه»[2]، وقد ذَكَرنا في أولِ كتابِ:

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٩٧)

(٢) أخرجه: مسلم (٨/ ١٣٠).

«الوضوءِ» حديثَ أسامةَ، أن جبريلَ نزَل على النبي ﷺ في أولِ الأمرِ، فعلَّمه الوضوءَ والصلاةَ[1] .

وذكر ابنُ إسحاقَ: أنَّ الصلاةَ افتُرضتْ عليه حينئذٍ، وكانَ هو ﷺ وخديجةُ يُصلِّيان.

والمرادُ: جنسُ الصلاةِ، لا الصلواتِ الخمسِ.

والأحاديثُ الدالةُ على أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يصلي بمكةَ قبلَ الإسراءِ كثيرةٌ.

لكن قد قيلَ: إنَّه كان قد فُرض عليه ركعتانِ في أولِ النَّهارِ وركعتان في آخرِه فقط، ثم افتُرِضَتْ عليه الصلواتُ الخمس ليلةَ الإسراءِ، قاله مُقاتلٌ وغيرُه.

وقالَ قتادةُ: كان بدءُ الصلاةِ ركعتينِ بالغَداةِ، وركعتينِ بالعَشيِّ.

وإنَّما أرادَ هؤلاء: أنَّ ذلك كان فرضًا قبل افتراضِ الصلواتِ الخمسِ ليلةَ الإسراءِ.

وقد زعم بعضُهم: أنَّ هذا هو مُرادُ عائشةَ بقولِها: فُرضَت الصلاةُ ركعتين ركعتين[2] ، وقالوا: إنَّ الصلواتِ الخمس فُرضَتْ أوَّلَ ما فُرضَتْ أربعًا وثلاثًا وركعتين على وجهِها.

وضعَّف الأكثرون ذلك، وقالُوا: إنما أرادتْ عائشةُ فرضَ الصلواتِ الخمس ركعتينِ ركعتينِ سِوى المغربِ.

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٢٠٣).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ٩٨)، ومسلم (٢/ ١٤٢).

وقد ورد من حديثِ عَـفيفٍ الكنْديِّ، أنَّه رأى النبيَّ ﷺ يُصلي بمكةَ حين زالت الشـمسُ ومعه علـيٌّ وخديجةُ، وأنَّ العـباسَ قـال له: ليس على هذا الدِّينِ أحدٌ غيرُهم.

وقد خرَّجه الإمامُ أحمدُ والنسائيُّ في «خصائص عليٍّ»[1].

وقد طعن في إسناده البخاريُّ في «تاريخه» والعُقيليُّ وغيرُ واحدٍ.

وقد خرَّج الـترمذي[2] من حـديث أنسٍ، قـال: بُعـثَ النبيُّ ﷺ يومَ الاثنينِ، وصلى عليٌّ يومَ الثُّلاثاء.

وإسناد ضعيف.

وقد خرَّجه الحاكم[3] من حديث بُريدةَ، وصحَّحَه.

وفيه دليلٌ على أنَّ الصلاةَ شُرعت من ابتداء النبوة، لكنَّ الصلواتِ الخمسِ لم تُفرض قبلَ الإسراء بغيرِ خلافٍ.

وروى الرَّبيعُ، عن الشافعي، قال[4]: سمعتُ ممن أثق بخبره وعلمه يذكر أنَّ اللَّهَ تعالى أنزل فرضًا في الصلاة، ثم نسـخه بفرض غيره، ثم نسخ الثاني بالفرضِ في الصلواتِ الخمسِ.

قال الشافعي: كأنَّه يعني قولَ اللَّه عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ**﴾ [المزمل: ١-٤] ثم نسخه في

(١) أخرجه: النسائي في «الخصائص» (٥)، وأحمد في «المسند» (١/ ٢٠٩ ـ ٢١٠).

(٢) «الجامع» (٣٧٢٨).

(٣) (٣/ ١١٢).

(٤) «الأم» (١/ ٥٩).

السورةِ معهُ بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ﴾ الآية إلى قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠]، فنُسِخَ قيامُ الليل، أو نصفه، أو أقلَّ، أو أكثر بما تيسَّر.

قالَ الشافعيُّ: ويقال نُسخ ما وُصف في المزمل بقولِه اللَّه عزَّ وجل: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ ودلوكُ الشمس: زوالُها ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ العتمةَ ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ الصبح ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٨-٧٩]

فأعلمه أنَّ صلاةَ الليل نافلةٌ لا فريضة، وأنَّ الفرائض فيما ذكرَ من ليلٍ أو نهارٍ.

قال: ويُقال في قولِ اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ المغربُ والعشاءُ ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الصبحُ ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا﴾ العصرُ ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧-١٨] الظهرُ. انتهى.

وقد رُوي عن طائفةٍ من السَّلفِ تفسيرُ هاتينِ الآيتينِ بنحوِ ما قالَه الشافعيُّ، فكلُّ آيةٍ منهما متضمِّنةٌ لذكر الصلواتِ الخمسِ، ولكنَّهما نزلتا بمكةَ بعدَ الإسراءِ. واللَّهُ أعلم.

وقد أجمعَ العلماءُ على أنَّ الصلواتِ الخمسِ إنَّما فُرضَتْ ليلةَ الإسراءِ، واختلفوا في وقتِ الإسراء:

فقيل: كانَ بعدَ البعثةِ بخمسةَ عشرَ شهراً، وهذا القولُ بعيدٌ جداً.

وقيل: إنَّه كان قبلَ الهجرةِ بثلاثِ سنين، وهو أشهرُ.

وقيل: قبلَ الهجرةِ بسنةٍ واحدةٍ.

وقيل: قبلَها بستةِ أشهرٍ.

وقيل: كـانَ بعدَ البعـثةِ بخمسٍ سنين، ورجَّـحه بعضُـهم، قال: لأنَّه لا خلاف أن خديجة صلَّت معه بعد فرض الصلاة، ولا خلاف أنها تُوفِّيَتْ قبل الهجرة بمدةٍ، قـيل: بثلاث سنين، وقيل: بخمس، وقـد أجمع العلماءُ على أن فرض الصلاة كان ليلةَ الإسراء.

قلت: حكايته الإجمـاعَ على صلاة خديجةَ معه بعـد فَرض الصلاةِ غَلَطٌ مَحْضٌ، ولم يَقُل هذا أحَدٌ ممن يُعْتَدُّ بقوله.

وقـد خرج أبـو يَعلَى الموصلي والطبـراني[(١)] من حـديث إسمـاعـيلَ بن مُجالـد، عن أبيه عن الشَّعبي، عن جـابر، أن رسولَ اللَّه ﷺ سُـئل عن خديجةَ؛ فإنها مـاتت قبل أنْ تَنزل الفرائض والأحكام؟ فقال: «**أبصرتهـا على نهر من أنهار الجنة، وفي بيت من قَصَبٍ، لا لغوٌ فيه ولا نَصَبٌ**».

وروى الزُّبيرُ بنُ بكَّارٍ، بإسـناد ضعيف، عن يُونُسَ عن ابنِ شـهابٍ، عن عُروَةَ، عن عائشةُ، قالت: تُوفِّيتْ خديجةُ قبل أن تُفرض الصلاةُ.

وقد فرَّق بعضهم بين الإسراء والمعراج، فـجعل المعراج إلى السماوات كما ذكره اللَّه في سـورة النَّجم، وجعل الإسراء إلى بيت المـقدسِ خاصةً، كـما ذَكَره اللَّـه في سورة ﴿**سبحان**﴾ وزَعَم أنهما كانا في ليـلتين مختلفتين، وأن الصلوات فُرضت ليلةَ المعراج لا ليلةَ الإسراء.

وهذا هو الذي ذكره محمدُ بن سَعْدٍ في «طبقاته»[(٢)] عن الواقديِّ بأسانيدَ له متعددةٍ، وذكَـر أن المعراج إلى السماء كان ليلةَ السبت لـسبعَ عشرةَ خلَتْ من شهر رمـضانَ قبل الهجرة بثمـانيةَ عشرَ شهرًا من المسـجد الحرام، وتلك الليلةَ فـرُضت الصلواتُ الخـمس، ونزل جـبـريل فـصلى برسـول اللَّه ﷺ

(١) أخرجه: أبو يعلى في «مسنده» (٤/ ٤١)، والطبراني في «الأوسط» (٨١٥٣).
(٢) (١/ ١/ ١٤٣).

الصلوات في مواقيتها، وأن الإسراء إلى بيت المقدس كان ليلةَ سبعَ عشرةَ من شهر ربيعٍ الأولِ قبل الهجرة بسنةٍ، من شِعْبِ أبي طالب.

وما بوَّب عليه البخاري أن الصلوات فرضت في الإسراء يدل على أن الإسراء عنده والمعراج واحد. واللَّه أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾

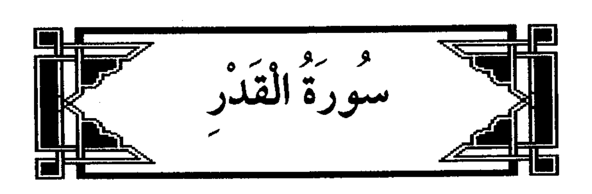
قال اللَّهُ تعالَى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧، ١٨] قال أبو هريرةَ: الزبانيةُ: الملائكةُ، وقال عطاءٌ: هم الملائكةُ الغلاظُ الشدادُ، وقال مقاتلٌ: هم خزنةُ جهنَّمَ، وقال قتادةُ: الزبانيةُ في كلامِ العربِ: الشرطُ، وقالَ عبدُ اللَّهِ بنُ الحارثِ: الزبانيةُ رؤوسُهُم في الأرضِ وأرجلُهُم في السماءِ، خرجهُ ابنُ أبي حاتمٍ وخرجَ أيضًا بإسنادِهِ عن المنهالِ بنِ عمرٍو قالَ: إذا قالَ اللَّهُ تعالَى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠] ابتدرهُ سبعونَ ألفَ ملكٍ، وإن الملكَ منهم ليقولُ هكذا، يعني: يفتحُ يديهِ، فيلقي سبعينَ ألفًا في النارِ(٢).

* * *

---

(١) «فتح الباري» (٢/ ١٠١ ـ ١٠٦).

(٢) «التخويف من النار» (١٧٧).



سُورَةُ الْقَدْرِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾

في «الصحيحينِ»[(١)] عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، قالَ: كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يعتكِفُ في العشرِ الأوسطِ من رمضانَ، فاعتكفَ عامًا، حتَّى إذا كانتْ ليلةُ إحدى وعشرينَ، وهي الليلةُ التي يخرُجُ في صبيحتِها من اعتكافِه، قال: **«من كانَ اعتكفَ معي فليعتكِفِ العشرَ الأواخرَ، وقد أُريتُ هذه الليلةَ ثم أُنسيتُها، وقد رأيتُني أسجدُ في ماءٍ وطينٍ من صبيحتِها، فالتمسُوهَا في العشرِ الأواخرِ، والتمسوها في كلِّ وترٍ»**.

فمطرتِ السَّماءُ تلكَ الليلةَ، وكان المسجدُ على عريشٍ، فوكفَ المسجدُ، فبصُرتْ عيناي رسولَ اللَّه ﷺ على جبهتِه أثرُ الماءِ والطِّينِ من صُبحِ إحدى وعشرين، هذا الحديثُ يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ كان يعتكفُ العشرَ الأوسطَ من شهرِ رمضانَ؛ لابتغاءِ ليلةِ القدرِ فيه، وهذا السِّياقُ يقتضِي أنَّ ذلكَ تكرَّر منه ﷺ.

وفي روايةٍ في «الصحيحينِ»[(٢)] في هذا الحديثِ: أنه اعتكفَ العشرَ الأوَلَ،

---

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ٦٠)، ومسلم (٣/ ١٧١).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧)، ومسلم (٣/ ١٧١).

ثم اعتكفَ العشرَ الأوسطَ، ثم قالَ: «**إني أُتيتُ، قيلَ لي: إنها في العشر الأواخر، فمن أحبَّ منكُم أن يعتكفَ فليعتكفْ**»، فاعتكفَ الناسُ معه.

وهذا يدلُّ على أنَّ ذلكَ منه قبلَ أن يتبين لهُ أنَّها في العشر الأواخر، ثم لمَّا تبين له ذلك اعتكفَ العشرَ الأواخرَ حتَّى قبضَه اللَّه عزَّ وجلَّ، كما رواه عنه عائشة وأبو هريرة وغيرُهما.

ورُوي أنَّ عمرَ ﵁ جمعَ جماعةً من الصحابةِ، فسألهم عن ليلةِ القدرِ، فقالَ بعضُهم: كنَّا نراها في العشرِ الأوسطِ، ثم بلغنا أنها في العشرِ الأواخر.

وخرَّج ابنُ أبي عاصمٍ في كتاب «الصيام» وغيرُه من حديثِ خالدِ بن محدُوجٍ، عن أنسٍ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**التمسُوها في أوَّل ليْلَة، أو في تسعٍ، أو في أربع عشرةَ**»، وخالدٌ هذا فيه ضعفٌ، وهذا يدلُّ على أنَّها تُطلبُ في ليلتين من العشرِ الأوَل، وفي ليلةٍ من العشرِ الأوسطِ، وهي أربع عشرةَ، وقد سبقَ[1] من حديث واثلةَ بن الأسقعِ مرفوعًا: «**إن الإنجيلَ أُنزل لثلاثَ عشرةَ من رمضانَ**»، وقد ورد الأمر بطلب ليلةِ القدْر في النصفِ الأواخرِ من رمضانَ، وفي أفراد ما بقي من العشرِ الأوسطِ من هذا النصف، وهما ليلتانِ: ليلةُ سبعَ عشرةَ، وليلةُ تسعَ عشرةَ.

أمَّا الأولُ: فخرَّجه الطبراني[2]، من حديثِ عبدِ اللَّه بن أُنيسٍ، أنه سألَ النبيَّ ﷺ عن ليلةِ القدر، فقالَ: «**رأيتُها ونسيتُها، فتحرَّها في النِّصفِ الأواخرِ**»، ثم عادَ فسألهُ، فقال: «**التمسْها في ليلةِ ثلاثٍ وعشرين تَمضي من الشهرِ**».

---

(١) «الأسماء والصفات» للبيهقي (ص ٢٣٤).

(٢) أخرجه بنحوه: مسلم (٣/ ١٧٣)، وأحمد (٣/ ٤٩٥).

ولهـذا المعنى ـ واللَّهُ أعلمُ ـ كان أبيّ بن كَعب يقنُتُ في الوتر في ليـالي النصف الأواخرِ؛ لأنَّه يُرجى فيه ليلةُ القدرِ.

وأيضًا فكُلُّ زمانٍ فاضلٍ من ليلٍ أو نهارٍ، فإنّ آخرَه أفضلُ من أوَّلِه، كيومِ عرفَةَ، ويومِ الجُـمعة، وكذلك اللَّيلُ والـنَّهار عمومًا؛ آخِـرُهُ أفضلُ من أوَّلِه، ولذلك كانت الصلاةُ الوسطَى صلاةَ العصْر، كـما دلَّت الأحاديثُ الصَّحيحةُ عليه، وآثارُ السَّـلف الكثيرةُ تدلُّ عليـه، وكذلكَ عـشرُ ذي الحجـةِ والمحرمِ؛ آخرُهما أفضلُ من أوَّلهِمَا.

وأمَّا الثاني: ففي «سننِ أبي داود»[1] عن ابنِ مسعـودٍ مرفوعًا: «**اطلُبُوها ليلةَ سبْعَ عـشرةَ مِن رَمَـضانَ، وليلةَ إحدَى وعـشرين، وليلةَ ثلاث وعـشرين**»، ثم سكتْ، وفي روايةٍ: «**ليلةَ تسعَ عشرةَ**»، وقيلَ: إنَّ الصحيحَ وقْفُه على ابنِ مسعودٍ، فقد صحَّ عنه أنَّه قال: تحرُّوا ليلةَ القدْرِ ليلةَ سبعَ عـشرةَ، صباحيَّةَ بدرٍ، أو إحدى وعشرين، وفي روايةٍ عنه، قالَ: «**ليلةَ سبعَ عشرةَ، فإنْ لم يكن ففي تسعَ عشرةَ**».

وخرَّج الطبرانيُّ[2] من روايةِ أبي المُهـزِّم، وهو ضـعـيفٌ، عن أبي هريرةَ مرفوعًا، قال: «**التمسُوا ليلةَ القدْرِ في سبعَ عشرةَ أو تسعَ عشرةَ، أو إحدى وعشرين، أو ثلاثٍ وعشـرين، أو خمسٍ وعشرين، أو سـبعٍ وعشرين، أو تسعٍ وعـشرين**»، ففي هذا الحديثِ: التـماسُـها في أفرادِ النـصفِ الثاني كلِّها، ويُـروى من حديثِ عائشةَ ﵂: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ إذا كان ليلةَ تسعَ عشرةَ من رمضانَ شدَّ المئزرَ وهجرَ الفراشَ حتى يُفطرَ.

قال البـخاريُّ: تفرَّد به عُمـرُ بن مسكينٍ، ولا يتابع عليـهِ، وقد رُويَ عن

(١) «السنن» (١٣٨٤).

(٢) «المعجم الأوسط» (١٢٨٤).

طائفةٍ من الصحابةِ أنَّها تُطلبُ ليلةَ سبعَ عشرةَ، وقالُوا: إن صبيحتَها كانَ يومَ بدرٍ، رويَ عن علي، وابنِ مسعـودٍ، وزيدِ بنِ أرقمَ، وزيدِ بنِ ثابتٍ، وعمرِو ابنِ حـريثٍ، ومنهم من رُويَ عنه، أنَّهـا ليلةُ تسعَ عشـرةَ؛ رُوي عن علي، وابنِ مسعودٍ، وزيدِ بن أرقمَ.

والمشهـورُ عندَ أهلِ السِّيرِ والمغـازي: أنَّ ليلةَ بدْرٍ كانتْ ليلةَ سبعَ عـشرةَ، وكانت ليلةَ جُمعةٍ، وروي ذلك عن علي، وابنِ عـباسٍ وغيرهما، وعن ابنِ عباسٍ، روايةٌ ضعيفةٌ أنَّها كانت ليلةَ الاثنين.

وكان زيد بن ثابتٍ لا يُحيي ليلةً من رمضان، كما يُحيي ليلةَ سبعَ عشرةَ، ويقول: إنَّ اللَّه فرَّق في صبيحتها بين الحقِّ والباطلِ، وأذلَّ في صبيحتها أئمةَ الكفرِ، وحكى الإمامُ أحمـدُ هذا القولَ عن أهل المدينة: أنَّ ليلةَ القدْر تُطلبُ ليلةَ سبعَ عـشرةَ، قال في رواية أبي داود فيمن قـال لامرأته: أنت طالقٌ ليلة القدر، قـال: يعتزلُها إذا دخلَ العـشرُ، وقبل العشـر، أهلُ المدينة يرونها في السبع عشـرةَ، إلا أنَّ المثبتَ عن النبي ﷺ في العشْـرِ الأواخر، وحكي عن عامر بن عبدِ اللَّهِ بن الزُّبيرِ: أنَّه كانَ يُواصِلُ ليلةَ سبعَ عشرةَ.

وعن أهلِ مكةَ أنَّهمُ كـانُوا لا ينامونَ فيـها، ويعتـمرونَ، وحُكِيَ عن أبي يوسُفَ ومحمد، صاحِبـي أبي حنيفةَ: أنَّ ليلةَ القدْرِ في النصفِ الأواخرِ من رمضانَ من غـيرِ تعيينٍ لها بليلةٍ، وإن كانتْ في نفسِ الأمـرِ عندَ اللَّهِ مُعينةً، ورويَ عن عبـدِ الرحمنِ بنِ الحـارثِ بنِ هشامٍ، قـالَ: ليلةُ القدرِ ليلـةُ سبعَ عشرةَ، ليلةُ جمـعة، خرَّجه ابنُ أبي شيبـة، وظاهرُه أنَّها إنما تكونُ ليلةَ القدرِ إذا كانتْ ليلةَ جمـعةٍ؛ لتُوافق ليلةَ بدرٍ، وروَى أبو الشيخ الأصـبهاني بإسنادٍ

جيِّد، عن الحسنِ، قالَ: إنَّ غلامًا لعثمانَ بنَ أبي العاص، قالَ لهُ: يا سيِّدي، إن البحرَ يعذُبُ في هذا الشهر في ليلةٍ، قال: فإذا كانتْ تلك الليلةُ فأعلمني، قال: فلما كانتْ تلكَ الليلةُ أذنَه، فنظرُوا فوجدوه عذبًا، فإذا هي ليلةُ سبعَ عشرةَ.

ورُويَ من حديثِ جابرٍ، قالَ: كان رسولُ اللَّه ﷺ يأتي قُباءً صبيحةَ سبعَ عشرةَ من رمضانَ، أيَّ يومٍ كان. خرَّجه أبو موسى المدينيُّ.

وقد قيلَ: إنَّ المعراجَ كانَ فيها أيضًا، ذكرَ ابنُ سعدٍ، عن الواقديِّ، عن أشياخِهِ: أنَّ المعراجَ كانَ ليلةَ السبتِ لسبعَ عشرةَ خلتْ من رمضانَ قبلَ الهجرةِ إلى السماءِ، وأنَّ الإسراءَ كان ليلةَ سبعَ عشرةَ من ربيع الأوَّل قبلَ الهجرةِ بسنةٍ إلى بيتِ المقدسِ، وهذا على قولِ مَن فرَّق بين المعراجِ والإسراءِ؛ فجعلَ المعراجَ إلى السَّماء، كما ذُكر في سورةِ النجمِ؛ والإسراءَ إلى بيتِ المقدسِ خاصَّةً، كما ذُكرَ في سورةِ سبحانَ.

وقد قيلَ: إنَّ ابتداءَ نبوَّةِ النبيِّ ﷺ كان في سابعَ عشرَ رمضان، قال أبو جعفر محمد بن علي الباقر: نزلَ جبريلُ على رسولِ اللَّهِ ﷺ ليلةَ السبتِ وليلةَ الأحدِ، ثم ظهر له بحراءَ برسالةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ يومَ الاثنين لسبعَ عشرةَ خلتْ من رمضانَ، وأصحُّ ما روي في الحوادث في هذه الليلة أنَّها ليلةُ بدْرٍ، كما سبقَ أنَّها كانتْ ليلةَ سبعَ عشرَة.

وقيلَ: تسعَ عشرةَ، والمشهورُ أنَّها كانتْ ليلةَ سبعَ عشرةَ، كما تقدَّمَ، وصبيحتُها هو يومُ الفرقانِ، يوم التقى الجمعانِ، وسُمِّي يومُ الفرقانِ؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى فرَّق فيه بينَ الحقِّ والباطلِ، وأظهرَ الحقَّ وأهلَهُ على الباطلِ وحزْبه،

وعلَتْ كلمةُ اللَّهِ وتوحيدُه، وذَلَّ أعداؤهُ من المشركينَ وأهلِ الكتاب، وكان ذلكَ في السنةِ الثانيةِ من الهجرةِ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ قدمَ المدينةَ في ربيعِ الأولِ في أوَّلِ سنةٍ من سني الهجرةِ، ولم يُفرضْ رمضان في ذلكَ العامِ، ثم صامَ عاشوراءَ، وفُرِضَ عليه رمضانُ في ثاني سنةٍ، فهو أوَّل رمضان صامهُ وصامَه المسلمون معه. ثم خرَجَ النبيُّ ﷺ لطلبِ عيرٍ من قريش قدمتْ من الشامِ إلى المدينةِ في يوم السبتِ لاثنتي عشرةَ ليلةً خلتْ من رمضانَ، وأفطرَ ﷺ في خروجهِ إليها.

قال ابنُ المُسيِّب: قال عُمر: غزونَا مع رسولِ اللَّه ﷺ غزوتينِ في رمضانَ يومَ بدْرٍ، ويومَ الفتح، وأفطرنَا فيهما، وكان سببُ خروجه حاجةَ أصحابه، خصوصًا المهاجرين ﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ [الحشر:٨]، وكانتْ هذه العيرُ فيها أموالٌ كثيرةٌ لأعدائِهم الكفار الذينَ أخرجُوهم من ديارِهم وأموالِهم ظُلمًا وعُدوانًا، كما قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ**﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، فقصدَ النَّبيُّ ﷺ أن يأخذ أموالَ هؤلاء الكفار الظالمين المعتدين على أولياءِ اللَّهِ وحزبه وجندِه، فيردَّها على أولياءِ اللَّه وحزبِه المظلومينَ المخرجينَ من ديارِهم وأموالِهم ليتقوّوا بها على عبادةِ اللَّه وطاعتِه وجهادِ أعدائِه، وهذا مِمَّا أحلَّه اللَّهُ لهذه الأمَّة؛ فإنَّه أحلَّ لهم الغنائمَ، ولم تحلَّ لأحدٍ قبلَهم، وكان عدَّةُ من معهُ ثلثمائة وبضعةَ عشرَ، وكانوا على عدَّةِ أصحابِ طالُوتَ الذين جازُوا معه النهرَ، وما جازَه معه إلا مؤمنٌ.

وفي «سننِ أبي داودَ»[1] من حديثِ عبدِ اللَّهِ بن عمرو، قالَ: خرجَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يومَ بدرٍ في ثلاثمائةٍ وخمسةَ عشرَ من المقاتلة، كما خرجَ طالُوت، فدعا لهم رسولُ اللَّه ﷺ حينَ خرجُوا، فقالَ: «**اللهمَّ، إنَّهم حُفَاةٌ فاحْمِلْهُم، وإنَّهم عُراةٌ فاكسُهُم، وإنَّهم جياعٌ فأشبعْهُم**». ففتحَ اللَّهُ يومَ بدرٍ، فانقلبُوا حينَ انقلبوا وما فيهم رجلٌ إلا وقد رجع بجملٍ أو جملين، واكتسوا وشبعُوا، وكان أصحابُ النبي ﷺ حين خرجُوا على غايةٍ من قلَّة الظهرِ والزَّاد؛ فإنَّهم لم يخرجوا مستعدِّين لحربٍ، ولا لقتالٍ، إنَّما خرجُوا لطلبِ العير، فكانَ معهُم نحو سبعينَ بعيراً يعتقبونها بينهم، كُلُّ ثلاثةٍ على بعير، وكان للنبيِّ ﷺ زميلان، فكانوا يعتقبونَ على بعيرٍ واحدٍ، فكان زميلاه يقولان لَهُ: يا رسولَ اللَّه، اركبْ حتَّى نمشيَ عنك، فيقولُ: ما أنتما بأقوَى على المشي منِّي، ولا أنا بأغنى عن الأجرِ منكُما، ولم يكنْ معهُمَا إلا فرسانِ، وقِيلَ: ثلاثةٌ، وقيل: فرسٌ واحدٌ للمقدادِ.

وبلغَ المشركينَ خروجُ النبيِّ ﷺ لطلبِ العيرِ، فأخذَ أبو سُفيان بالعِير نحو الساحلِ، وبعثَ إلى أهلِ مكَّة يخبرُهُم الخبرُ، ويطلبُ منهم أن ينفروا لحمايةِ عِيرهم، فخرجُوا مستصرخين، وخرجَ أشرافُهم ورؤساؤُهم، وسارُوا نحوَ بدْرٍ، واستشارَ النبيُّ ﷺ المسلمينَ في القتالِ فتكلَّم المهاجرونَ فسكتَ عنهُم، وإنما كانَ قصدُه الأنصارَ لأنَّه ظنَّ أنَّهم لم يبايعوه إلا على نُصْرته على من قصدهُ في ديارِهم، فقام سعد بنُ عُبادةَ، فقالَ: إيَّانا تريدُ، يعني الأنصارَ، والذي نفسِي بيدِه، لو أَمرتَنا أن نَخيضَها البحرَ لأخضناها، ولو أمرْتنا أن

(١) «السنن» (٢٧٤٧).

نضربَ أكبادَها إلى برك الغمادِ لفعلنا[١]، وقال له المقدادُ: لا نقُـول لكَ كمَا قـالَ بنـو إسـرائـيل لموسـى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤]، ولكن نقـاتلُ عن يمينكَ وشـمالـك، وبينَ يديكَ، ومن خلفكَ، فسُرَّ النبيُّ ﷺ بذلك وأجمعَ على القتال[٢].

وبات تلكَ الليلةَ، ليلةَ الجـمعةِ سـابعَ عشرَ رمـضانَ قائمًـا يُصلّى ويبكِي ويدعُو اللَّه ويستنصرُهُ على أعدائِه.

وفي «المسندِ»[٣] عن عليٍّ بنِ أبي طالبٍ، قـالَ: «لَقَـدْ رأيتُنا وما فـينا إلا نائمٌ، إلا رسولُ اللَّهِ ﷺ تحتَ شجرةٍ يُصلِّي ويبكي حتَّى أصبحَ».

وفيه[٤] عنه أيضًا، قـال: أصابنا طَشٌّ من مطرٍ، يعني ليلَةَ بـدْرٍ، فانطلقنا تحتَ الشَّجرِ والحَجَفِ نستظلُّ بها من المطرِ، وبات رسولُ اللَّه ﷺ يدعو ربَّهُ، ويقول: «إن تُهْلكْ هذه الفئةَ لا تُعْبَدْ»، فلمَّا أن طلعَ الفجـرُ نادى: الصلاةَ عبادَ اللَّهِ، فـجاءَ الناسُ من تحت الشَّـجر والحـجفِ، فصلَّى بنا رسـولُ اللَّه ﷺ، وحثَّ على القتال.

وأمدَّ اللَّهُ تعـالى نبيَّهُ والمؤمنينَ بنصـرٍ مـن عنده وبجند مـن جنـده، كما قـالَ تعـالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾[الأنفال: ٩، ١٠].

---

(١) أخرجه: مسلم (٥/ ١٧٠)، وأحمد (٣/ ٢١٩، ٢٢٠، ٢٥٧)، وأبو داود (٢٦٨١).
(٢) أخرجه: البخاري (٥/ ٩٣).
(٣) «المسند» (١/ ١٢٥).
(٤) «المسند» (١/ ١١٧).

وفي «صحيحِ البخاريِّ»[(١)] أنَّ جبـريلَ قالَ للنبيِّ ﷺ: **«ما تَعُـدُّون أهلَ بدرٍ فيكم؟ قال: « مِن أفْـضَلِ المسلمين» أو كلمـةً نحْوَهَا، قال: وكـذلك مَن شهـدَ بدْرًا من الملائكة»**. وقال اللَّهُ تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ**﴾ [آل عمران:١٢٣]، وقال: ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾ [الأنفال:١٧]، ورُوي أنَّ النـبيَّ ﷺ لما رآهمُ قـالَ: **«اللهمَّ، إنَّ هؤلاءِ قُـريشٌ قـد جاءتْ بخُيلائها يُكَذِّبون رسـولَك، فأنجِزْ لي ما وَعدْتَني»**[(٢)] ، فأتاه جبريلُ، فقالَ: **«خُـذْ قبـضةً من تُرابٍ فـارمهم بهـا»**، فأخذَ قـبضةً من حصْبـاءِ الوادي فرمَى بها نحوَهم، وقالَ: **«شاهتِ الوُجُوه»** فلم يبقَ مُشْـركٌ إلا دخلَ في عينيـهِ ومنْخرِهِ وفمه شيءٌ، ثم كانتِ الهزيمةُ، وقـال حكيمُ بنُ حزامٍ: سمعنا يومَ بدرٍ صوتًا وقع من السَّمـاء كأنَّه صوتُ حصاةٍ على طَسْتٍ، فـرمَى رسولُ اللَّه ﷺ تلكَ الرَّميةَ، فانهزمنا، ولما قدمَ الخـبرُ على أهلِ مكةَ قالُوا لمن أتاهُم بالخبرِ: كيفَ حالُ الناسِ؟ قالَ: لا شيءَ، واللَّهِ إن كانَ إلا أن لقـيناهُم فمنحناهُم أكتافنا، يقتلُونا ويأسرُونا كيفَ شاؤُوا، وايْمُ اللَّهِ، مع ذلكَ ما لمتُ النَّاسَ؛ لقينا رجالاً على خيلٍ بُلقٍ بين السَّماءِ والأرضِ ما يقومُ لها شيءٌ.

وقتلَ اللَّه صناديـدَ كفَّارِ قـريشٍ يومئذٍ، منهم عُـتبةُ بنُ ربيـعةَ، وشيـبةُ، والوليدُ بنُ عـتبةَ، وأبو جهلٍ، وغيـرُهم، وأسرُوا منهم سبعـينَ، وقصَّةُ بدرٍ يطولُ اسـتقصـاؤها، وهي مـشهورةٌ في الـتفسيـرِ وكـتبِ الصحـاحِ والسننِ والمسانيدِ والمغـازي والتواريخِ وغيرها، وإنما المقصودُ هـاهنا التنبيهُ على بعضِ مقاصدِها.

---

(١) «الصحيح» (٥/ ١٠٣).

(٢) أخرجه بنحوه: أحمد في «المسند» (١/ ٣٠، ٣٢).

وكان عدوُّ اللَّه إبليسُ قـد جاء إلى المشركينَ في صورةِ سُـراقةَ بن مالك، وكانت يدُهُ في يدِ الحارث بن هشامٍ، وجعل يُشجعهم ويعدُهم ويمنِّيهم، فلمَّا رأى الملائكةَ هربَ وألقى نفسه في البحر.

وقد أخبرَ اللَّهُ عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وفي «الموطأ» حديثٌ مرسلٌ عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**ما رُؤي الشَّيطانُ أحقرَ ولا أدحَر ولا أصغرَ من يوم عـرفةَ، إلا ما أُري يومَ بدر**»، قيل: وما رأى يومَ بدْرٍ؟ قال: «**رأى جبـريلَ يزعُ الملائكة**»، فإبليس عـدوُّ اللَّهِ يسعَى جهـدَه في إطفاءِ نورِ اللَّه وتوحيـدِه، ويُغري بذلك أولياءَه من الكفَّـار والمنافقين، فلمَّا عـجزَ عن ذلكَ بنصرِ اللَّهِ نبيَّه وإظهـارِ دينه على الدِّينِ كُلِّه، رضِيَ بإلقاءِ الفتنِ بين المسلمينَ، واجْتَزَى منهُم بمحـقرَاتِ الذنوبِ حيثُ عجزَ عن ردِّهم عن دينهِم؛ كـما قالَ النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الشـيطانَ قـد أيسَ أن يعـبـدهُ المصلُّونَ في جـزيرةِ العـربِ، ولكن في التحريشِ بينَهـمُ**»، خرَّجـهُ مسلمٌ[1] من حـديثِ جابرٍ، وخـرَّج الإمامُ أحـمدُ والنسائيُّ والترمـذيُّ وابنُ ماجه[2] من حـديثِ عمـروِ بنِ الأحوصِ، قـالَ: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ في حـجةِ الوداعِ: «**ألا أنَّ الشَّيـطانَ قد أيسَ أن يُعـبدَ في بلدكُم هذا أبدًا، ولكنْ سـيكونُ له طاعةٌ في بعضِ مـا تحتـقرُون من أعـمالِكم، فـيرضَى بها**».

---

(١) أخرجه: مسلم (٨/ ١٣٨).

(٢) أخرجه: أحـمد في «المسند» (٣/ ٤٢٦)، والترمذي (٢١٥٩)، وابن مـاجه (٣٠٥٥)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١٠٦٩١).

وفي «صحيحِ الحاكمِ»[1] عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ خطبَ في حجَّةِ الوداعِ، فقال: «**إنَّ الشيطان قد يئس أن يُعبدَ بأرضكم، ولكنَّه يرضَى أن يُطاعَ فيما سوى ذلكَ؛ فيما تحاقرونَ من أعمالكم؛ فيرضَى بها فاحذَروا، يا أيُّها الناسُ، إنِّي قد تركتُ فيكم ما إنْ اعتصمتُم به فلن تضِلُّوا أبدًا: كتابَ اللَّه، وسنَّةَ نبيِّه ﷺ**»، ولم يعظم على إبليسَ شيءٌ أكبرُ مِن بعثةِ محمدٍ ﷺ، وانشارِ دعوته في مشارق الأرض ومغاربها؛ فإنَّه أيسَ أن تعودَ أمَّتُه كلُّهم إلى الشرك الأكبر.

قال سعيدُ بنُ جُبَير: لمَّا رأى إبليسُ النبيَّ ﷺ قائمًا بمكَّةَ يصلِّي رَنَّ، ولمَّا افتتح النبيُّ ﷺ مكَّةَ رَنَّ رنَّةً أخرى؛ اجتمعتْ إليه ذريته، فقال: ايئسوا أن تردُّوا أمَّةَ محمد ﷺ إلى الشرك بعدَ يومكم هذا، ولكن افتنُوهم في دينهم، وأفشُوا فيهم النوحَ والشِّعرَ، خرَّجه ابنُ أبي الدنيا.

وخرَّجَ الطبرانيّ بإسناده، عن مجاهدٍ، عن أبي هريرة، قال: «إنَّ إبليسَ رَنَّ لمَّا أُنزلتْ فاتحةُ الكتابِ، وأُنزِلَتْ بالمدينة»، والمعروفُ هذا عن مجاهدٍ من قوله، قال: رنَّ إبليسُ أربعَ رنَّاتٍ: حينَ لُعنَ، وحينَ أُهبطَ من الجنَّة، وحينَ بُعثَ محمدٌ ﷺ، وحين أُنزلت فاتحةُ الكتاب؛ وأُنزلتْ بالمدينة، خرَّجه وكيعٌ وغيرُه.

وقال بعضُ التابعين: لمَّا أُنزلتْ هذه الآيةُ: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ**﴾الآية [آل عمران:١٣٥]، بكى إبليسُ، يشيرُ إلى شدَّةِ حزنِه بنزولِها؛ لما فيها من الفرحِ لأهلِ الذنوبِ، فهو لا يزالُ في همٍّ وغمٍّ وحُزنٍ منذُ بُعثَ النبيُّ ﷺ، لما رأى منه ومن أمَّتِه ما يُهمُّه ويُغيظُه.

---

(١) «المستدرك» (١/ ٩٣).

قال ثابتٌ: لمَّا بُعثَ النبيُّ ﷺ، قال إبليسُ لشياطينه: لقد حدثَ أمرٌ فانظرُوا ما هُو، فانطلقُوا، ثم جاؤُوه، فقالُوا: ما ندري، قال إبليسُ: أنا آتيكم بالخبر، فذهبَ وجاءَ، قالَ: قد بُعثَ محمدٌ ﷺ، فجعل يُرسِلُ شياطينَه إلى أصحابِ النبيِّ ﷺ، فيجيؤون بصُحفهم ليسَ فيها شيءٌ، فقال: ما لكُم لا تُصيبون منهم شيئًا؟ قالوا: ما صحِبْنا قوما قطُّ مثلَ هؤلاءِ؛ نُصيبُ منهم ثم يقومونَ إلى الصلاةِ، فيُمْحَى ذلك، قالَ: رُويدًا! إنَّهُم عسَى أنْ يفتحَ اللَّهُ لهُمُ الدنيا، هنالكَ تُصيبُون حاجَتَكم منهُم.

وعن الحسنِ، قالَ: قالَ إبليسُ: سولْتُ لأمَّةِ محمدٍ المعاصِي، فقطعُوا ظهرِي بالاستغفارِ، فسولْتُ لهم ذنوبًا لا يستغفرونَ منها، يعني الأهواءَ.

ولا يزالُ إبليسُ يرى في مواسمِ المغفرة والعتقِ من النار ما يسُوءُه؛ فيومُ عرفةَ لا يُرى أصغرَ ولا أحقرَ ولا أدحَر فيه منه؛ لما يرى من تنزُّلِ الرَّحمةِ وتجاوُزِ اللَّهِ عن الذُّنوبِ العظامِ، إلا ما رُؤي يومَ بدْرٍ.

ورُويَ أنَّه لَّما رأى نزولَ المغفرةِ للأمَّةِ في حجَّةِ الوداع يومَ النَّحرِ بالمزدلفة، أهوَى يحثِي على رأسِهِ الترابَ، ويدعوُ بالويل والثبور، فتبسَّم النبيُّ ﷺ ممَّا رأى من جزعِ الخبيثِ، وفي شهرِ رمضانَ يلطفُ اللَّهُ بأمَّةِ محمدٍ ﷺ فيغلُّ فيه الشياطينَ ومردةَ الجنِّ حتَّى لا يقدروا على ما كانُوا يقدرونَ عليه في غيره من تسويل الذنوب، ولهذا تقلُّ المعاصي في شهر رمضان في الأمَّة لذلك، ففي «الصحيحين»[(١)] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: **«إذا دَخلَ رمضانُ فُتحتْ أبوابُ السَّماءِ، وغُلِّقتْ أبوابُ جهنَّم، وسُلسلت الشَّياطينُ»**، ولمسلمٍ:

---

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ٣٢)، (٤/ ١٤٩)، ومسلم (٣/ ١٢١).

«فُتحتْ أبوابُ الرَّحمةِ»، وله أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إذا جاء رمضان فُتِّحت أبوابُ الجنَّة، وغُلِّقتْ أبوابُ النّار، وصُفِّدت الشياطينُ».

وخرَّج منه البخاري ذِكرَ فتحِ أبوابِ الجنَّة.

وللترمذي وابن ماجه[1] عنه عن النبيِّ ﷺ، قال: «إذا كان أوَّلُ ليلةٍ من شهر رمضانَ صُفِّدت الشَّياطينُ ومردةُ الجنِّ، وغُلِّقتْ أبوابُ النَّارِ، فلم يُفتحْ منها بابٌ؛ وفُتحت أبوابُ الجنَّة، فلم يُغلَقْ منها بابٌ؛ ويُنادي مناد: يا باغيَ الخير أقبلْ، ويا باغيَ الشر أقصِرْ، ولِلَّه عُتقاءُ من النّارِ، وذلك في كلِّ ليلةٍ»، وفي رواية للنسائي[2]: «وتُغَلُّ فيه مردةُ الشياطينِ».

وللإمامِ أحمد[3] عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «أُعطيتْ أمَّتي في رمضانَ خمسَ خصال، لم تُعْطَه أُمةٌ قبلَهم: خُلُوفُ فم الصَّائم أطيبُ عندَ اللَّه من ريحِ المسْك، وتستغفرُ لهم الملائكةُ حتَّى يُفطِروا، ويُزيِّنُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ كُلَّ يومٍ جنَّته، ثم يقولُ: يُوشكُ عبادي الصَّالحون أن يُلْقُوا عنهم المؤونَةَ والأذَى ويصيرُوا إليك، وتُصفَّدُ فيه مردةُ الشّياطينِ، فلا يخلُصُون فيه إلى ما كانوا يخلُصُون إليه في غيره، ويُغفرُ لهم في آخرِ ليلةٍ»، قيل: يا رسولَ اللَّه، أهِي ليلةُ القَدْرِ؟ قال: «لا، ولكنَّ العاملَ إنَّما يُوفَّى أجرَه إذا قضَى عملَه».

وفي ليلة القدر تنتشرُ الملائكةُ في الأرض، فيبطُلُ سُلطانُ الشَّياطِين، كما قال اللَّه تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٤، ٥]، وفي «المسند»[4] عن أبي هريرة، عن النبي

(١) «الجامع» (٦٨٢)، وابن ماجه (١٦٤٢).
(٢) (٤/ ١٢٦، ١٢٨).
(٣) «المسند» (٢/ ٢٩٢).
(٤) «المسند» (٢/ ٥١٩).

ﷺ، أنه قال: «الملائكةُ تلك الليلة في الأرض أكثرُ من عددِ الحصَى»، وفي «صحيح ابن حبَّان»[1]، عن جابرٍ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال في ليلةِ القدْرِ: «لا يخرجُ شيطانُها حتَّى يخرجَ فجرُها»، وفي «المسند»[2] من حديث عُبادةَ بن الصَّامت، عن النبيِّ ﷺ، أنَّه قال في ليلة القدر: «لا يَحِلُّ لكوكَبٍ أن يُرْمَى به فيها حتَّى يُصبحَ، وأن أمارَتَها أنَّ الشَّمسَ تخرُجُ صبيحتَها مُستويةً ليسَ لها شُعاعٌ مثلَ القمرِ ليلةَ البدْرِ، لا يحلُّ للشَّيطانِ أن يخرُجَ معها يومئذٍ».

ورُوي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: إنَّ الشيطان يطلُعُ مع الشَّمسِ كُلَّ يومٍ إلا ليلةَ القدرِ؛ وذلك أنَّها تطلُع لا شعاعَ لها.

وقال مجاهدٌ في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، قال: سلام أن يحدُثَ فيها داءٌ أو يستطيعَ شيطانٌ العملَ فيها، وعنه قال: ليلةُ القدْرِ ليلة سالمةٌ لا يحدثُ فيها داءٌ، ولا يُرسلُ فيها شيطان، وعنه قال: هي سالمةٌ لا يستطيعُ الشيطانُ أن يعملَ فيها سُوءًا، ولا يُحدثُ فيها أذىً، وعن الضحَّاك عن ابن عباس، قال: في تلك الليلة تصفَّدُ مردةُ الجنِّ، وتُغَلُّ عفاريتُ الجنِّ، وتُفتحُ فيها أبوابُ السَّماءِ كلُّها، ويقبلُ اللَّهُ فيها التوبةَ لكُلِّ تائبٍ؛ فلذلك قال: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، ويُروى عن أبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه، قال: لا يستطيعُ الشَّيطانُ أن يُصيبَ فيها أحدًا بخبلٍ أو داءٍ أو ضربٍ من ضُرُوبِ الفسادِ، ولا ينفُذُ فيها سِحرُ ساحرٍ.

ويُروى بإسنادٍ ضعيفٍ عن أنسٍ مرفوعًا: «أنَّه لا تَسْرِي نجومُها، ولا تنبحُ كلابُها»، وكلُّ هذا يدلُّ على كفِّ الشَّياطين فيها عن انتشارِهم في الأرض،

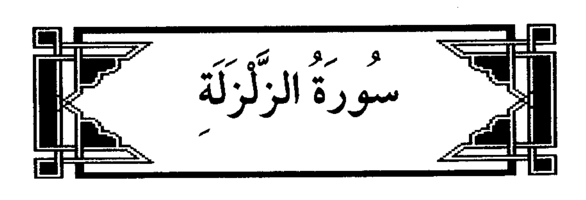
(١) أخرجه: ابن حبان في «صحيحه» (٨/ ٣٦٨٨)، وابن خزيمة (٢١٩٠).
(٢) «المسند» (٥/ ٣٢٤).

ومنعِهم من استراقِ السَّمع فيها من السَّماء.

ابنَ آدَم، لو عـرفتَ قدْرَ نفـسكَ ما أهنتَـها بالمعـاصِي، أنتَ المختـارُ من المخلوقات، ولك أُعِـدَّت الجنَّة؛ إن اتقيتَ فهي أقطاعُ المتـقين، والدنيا أقطاعُ إبليس؛ فهو فيها من المنظرينَ، فكيفَ رضِيتَ لنفسكَ بالإعراض عن أقطاعِكَ ومزاحمةِ إبليسَ على أقطاعِه، وأن تكونَ غـدًا مَعَهُ في النَّار من جملة أتباعه؟ إنَّمـا طردناهُ عن السَّمـاء لأجلك حـيثُ تكبَّر عن الـسُّجـودِ لأبيكَ، وطلبْنا قربـكَ؛ لتكونَ من خاصـتنا وحزبنا، فـعاديْتَنا وواليْتَ عَـدُوَّنا، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾[1] [الكهف: ٥٠].

* * *

(١) «لطائف المعارف» (٣٢٥ ـ ٣٣٧).



سُورَةُ الزَّلْزَلَة

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

وخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ من حديثِ ابنِ لَهيعةَ، قالَ: حدَّثني عطاءُ ابنُ دينارٍ، عن سعيدِ بنِ جُبير في قولِ اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧]، قالَ: كان المسلمونَ يرونَ أنَّهُم لا يُؤجرونَ على الشَّيءِ القليلِ إذا أَعطوه، فيجيءُ المسكينُ، فيستقلُّون أن يُعطوه تمرةً وكِسرةً وجُوزةً ونحوَ ذلك، فيردُّونه، ويقولونَ: ما هذا بشيء، إنما نُؤجر على ما نُعطِي ونحنُ نحبُّه، وكانَ آخرونَ يرونَ أنَّهم لا يُلامونَ على الذَّنبِ اليسيرِ مثل الكذبةِ والنظرةِ والغيبةِ وأشباه ذلكَ، يقولونَ: إنَّما وعدَ اللَّهُ النارَ على الكبائرِ، فرغَّبهم اللَّهُ في القليلِ من الخيرِ أن يعملُوه، فإنَّه يُوشِكُ أن يكثُر، وحذَّرهُمُ اليسيرَ من الشرِّ، فإنَّه يُوشِكُ أن يكثُرَ فنزلتْ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يعني: وزنَ أصغرِ النمل ﴿خَيْرًا يَرَهُ﴾ يعني في كتابِهِ، ويسُرُّه ذلكَ قال: يُكتب لكلِّ برٍّ وفاجرٍ بكلِّ سيئةٍ سيئةٌ واحدةٌ، وبكلِّ حسنةٍ عشرُ حسناتٍ، فإذَا كانَ يومُ القيامةِ، ضاعفَ اللَّهُ حسناتِ المؤمنِ أيضًا بكلِّ واحدةٍ عشرًا، فيمحُو عنه بكلِّ حسنةٍ عشرَ سيئاتٍ، فمن زادتْ حسناتُه على سيئاتهِ مثقالَ ذرَّةٍ، دخل الجنة.

وظاهرُ هذا أنه تقعُ المقاصةُ بين الحسناتِ والسيئاتِ، ثم تسقطُ الحسناتُ

المقابلةُ للسيئاتِ، ويُنظرُ إلى ما يفضُلُ منها بعدَ المقاصةِ، وهذا يُوافقُ قولَ من قال: بأنَّ من رجحتْ حسناتُه على سيئاته بحسنة واحدة أُثيبَ بتلكَ الحسنة خاصة، وسقطَ باقِي حسناتهِ في مقابلةِ سيئاتهِ، خلافًا لمن قالَ: يُثابُ بالجميعِ، وتسقُط سيئاتُه كأنَّها لم تكنْ.

وهذا في الكبائرِ، أمَّا الصغائرُ، فإنَّه قد تُمحى بالأعمالِ الصالحةِ مع بقاءِ ثوابِها، كما قالَ ﷺ: **«ألا أدلُّكم على ما يمحُو اللَّهُ به الخطايا، ويرفعُ به الدرجات: إسباغُ الوضوء على المكارِه، وكثرةُ الخُطا إلى المساجد، وانتظارُ الصَّلاة بعدَ الصلاة»**(١)، فأثبتَ لهذهِ الأعمالِ تكفيرَ الخطَايا ورفعَ الدرجات.

وكذلكَ قولُه ﷺ: **«مَنْ قالَ: لا إلهَ إلا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له مائة مرَّة، كُتبَ له مائةُ حسنة، ومُحيتْ عنه مائةُ سيئة، وكانتْ لهُ عدلَ عشرَ رقابٍ»**(٢)، فهذَا يدلُّ على أنَّ الذكرَ يمحُو السيئاتِ، ويبقَى ثوابُه لعاملهِ مضاعَفًا.

وكذلك سيئاتُ التائبِ توبةً نصُوحًا تُكفَّرُ عنهُ، وتبقى له حسناتُه، كما قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ**﴾ [الأحقاف: ١٥-١٦].

وقالَ عزَّ وجلَّ: ﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا**

---

(١) أخرجه: مسلم (١/ ١٥١)، وأحمد (٢/ ٢٣٥).

(٢) أخرجه: البخاري (٤/ ١٥٣)، ومسلم (٨/ ٦٩).

وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٣-٣٥]، فلمَّا وصفَ هؤلاءِ بالتَّقوى والإحسانِ، دلَّ على أنَّهم ليسُوا بمصرِّين على الذُّنوبِ، بل هم تائبونَ منْهَا.

وقوله: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الزمر:٣٥] يدخلُ فيه الكبائرُ، لأنها أسوأُ الأعمالِ، وقالَ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق:٥]، فرتَّبَ على التقوى المتضمنةِ لفعلِ الواجباتِ وتركِ المحرَّماتِ، تكفيرَ السيئاتِ وتعظيمَ الأجرِ، وأخبرَ اللَّهُ عَن المؤمنين المتفكِّرين في خلق السماواتِ والأرض أنَّهم قالُوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣]، وأخبرَ أنَّه استجابَ لهم ذلكَ، وأنَّه كفَّر عنهم سيئاتِهم، وأدخلهم الجناتِ.

وقولُه: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ فخصَّ الذنوبَ بالمغفرةِ، والسيئات بالتَّكفيرِ، فقد يقالُ: السيئاتُ تخصُّ الصغائرَ، والذنوبُ يرادُ بها الكبائر، فالسيئاتُ تكفر، لأن اللَّه جعل لها كفاراتٍ في الدنيا شرعيةً وقدريةً، والذنوبُ تحتاجُ إلى مغفرةٍ تقي صاحبَها مِنْ شرِّها، والمغفرةُ والتكفيرُ متقاربانِ، فإنَّ المغفرةَ قد قيل: إنها سَتْرُ الذُّنوبِ، وقيلَ: وقايةُ شرِّ الذنبِ مع سترِه، ولهذا يسمَّى ما سترَ الرأسَ ووقاهُ في الحربِ: مِغْفَرًا، ولا يسمَّى كلُّ ساترٍ للرأس مغفراً، وقد أخبرَ اللَّهُ عن الملائكةِ أنَّهم يدعونَ للمؤمنينَ التائبينَ بالمغفرةِ ووقايةِ السيئاتِ والتكفيرِ مِنْ هذا الجنس، لأنَّ أصلَ الكفرِ السترُ والتغطيةُ أيضًا.

وقد فرَّق بعضُ المتأخرينَ بينهما بأنَّ التكفيرَ محوُ أثرِ الذَّنب، حتَّى كأنَّه لم

يكنْ، والمغفرة تتضمن ـ مع ذلكَ ـ إفضالَ اللَّهِ على العبد وإكرامه، وفي هذا نظر[1].

* * *

دخلت امـرأةٌ على عائشـةَ، قد شُلَّـت يدُها فقـالتْ: يا أمَّ المؤمنينَ، بتُّ البارحةَ صحيحةَ اليدِ وأصبـحتُ شلاء!! قالتْ عائشةُ: وما ذاك؟ قالتْ: كان لي أبوانِ موسرانِ، كانَ أبي يعطي الزكـاةَ، ويُقْرِي الضيفَ، ويعطِي السائلَ، ولا يحقرُ من الخيرِ شيئًـا إلا فعلَهُ، وكانتْ أمِّي امرأةً بخيلةً ممسكةً، لا تصنعُ في مالِهَا خَـيرًا، فمات أبي ثم مـاتتْ أمِّي بعدَ شهرين، فـرأيتُ البارحةَ في منامِي أبي، وعندَهُ ثوبانِ أصفرانِ، بينَ يديه نهـرٌ جارٍ، قلتُ: يا أبته ما هذا؟ قال يا بنـية: من يعملُ في هـذه الدنيا خيـرًا يره، هذا أعطانيه اللَّـهُ تعالى، قلتُ: فمـا فعلتْ أمِّي؟ قالَ: وقـد ماتتْ أمُّك؟ قلتُ: نَعم، قالَ: هيـهات عُدلت عنا، فاذهبي فالتمسيها ذاتَ الشمالِ، فالتفتُّ عن شمالِي فإذا أنا بأمِّي قائـمةٌ عريانـةٌ مؤتزرةٌ بخـرقة، بيـدها شُحيـمةٌ تنـادي: وا لهفاه وا حـزناه وا عطشاه!! فإذا بلغَهَا الجـهدُ دلكتْ تلك الشحيمةَ براحتِهَـا ثم لحسَتْها، وإذا بينَ يديها نـهرٌ جارٍ، قلتُ: أيا أُمَّـاه! ما لكِ تنادينَ العطشَ وبين يـديك نهرٌ جارٍ، قالت: لا أتركُ أن أشربَ منه، قلتُ: أفلا أسقيك، قالتْ: وددتُ أنك فعلتِ، فغرفتُ لهـا غرفةً فسقيتُهـا، فلمَّا شربتْ نادَى منادٍ من ذاتِ اليمينِ: ألا من سَـقَى هذه المرأةَ شُلَّت يمينُهُ، مـرتينِ، فأصبـحتُ شلاء اليـمينِ، لا أستطيعُ أن أعملَ بيميني.

قالتْ لها عـائشةُ: وعرَفْتِ الخرقـةَ؟ قالتْ: نعم يا أمَّ المؤمنينَ، وهي التي

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/٤٥٦ ـ ٤٦٠).

رأيتُهـا عليْهَـا، ما رأيتُ أمي تصدَّقت بشيءٍ قـط، إلا أنَّ أبي نحرَ ذاتَ يومٍ ثورًا، فجـاءَهُ سائلٌ فعمـدتْ أمِّي إلى عظمٍ عليه شُحـيمةٌ فناولتهـا إياهُ، وما رأيتُها تصدقتْ بشيءٍ إلا أنَّ سائلاً جاء يسألُ، فعمدت أمِّي إلى خرقةٍ فناولتْها إياهُ.

فكبَّرتْ عائشةُ ﵂ وقـالتْ: صدقَ اللَّهُ، وبلَّغَ رسولُهُ ﷺ: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ** ﴿٧﴾ **وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

أخرجه الحافظ أبو موسى المديني في كـتابه «الترغيب والترهيب» من طريق أبي الشيخ الأصبهاني الحافظ، بإسناد حسن(١).

* * *

(١) «شرح حديث: يتبع الميت ثلاث» (٣٦ ـ ٣٧).

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾

هذه النعم مما يُسئلُ الإنسانُ عن شكرها يومَ القيامة، ويُطالب به، كما قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨].

وخرَّج الترمذيُّ وابنُ حبَّانَ من حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**إنَّ أوَّلَ ما يُسألُ عنه العبد يومَ القيامة من النعيم، فيقولُ له: ألم نصحَّ لك جسمَك ونُرْويكَ من الماءِ الباردِ؟**»(١).

وقال ابنُ مسعودٍ ﷺ: النعيمُ: الأمنُ والصحةُ، ورويَ عنه مرفوعًا.

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ في قولهِ: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨]، قال: النعيمُ: صحَّةُ الأبدانِ والأسماعِ والأبصارِ، يسألُ اللَّهُ العبادَ: فيما استعملُوها؟ وهو أعلمُ بذلك منهم، وهو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء:٣٦].

وخرَّجَ الطبرانيُّ من روايةِ أيوبَ بنِ عُتبةَ ـ وفيه ضعفٌ ـ عن عطاء، عن ابنِ عمرَ، عن النبيِّ ﷺ: «**من قالَ: لا إلهَ إلا اللَّهُ، كانَ لهُ بها عهدٌ عندَ اللَّه، ومن قالَ: سبحانَ اللَّه وبحمده، كُتبَ له بها مائةُ ألفِ حسنة، وأربعةٌ وعشرونَ ألف حسنة**» فقالَ رجلٌ: كيفَ نَهلِكُ بعدَ هذا يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: «**إنَّ الرجلَ ليأتي يومَ**

(١) أخرجه: الترمذي (٣٣٥٨)، وابن حبان (٧٣٦٤).

القيامة بالعـمـلِ، لو وُضِعَ على جبلٍ لأثقله، فتقومُ النِّعمَةُ مِن نِـعمِ اللَّهِ، فتكاد أن تستنفدَ ذلك كلَّه، إلا أن يتطاول اللَّه برحمته»[1] .

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادٍ فيه ضعفٌ ـ أيضًا ـ عن أنسٍ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**يُؤتى بالنعمِ يومَ القيامة، وبالحسناتِ والسيئات، فيقولُ اللَّه لنعمةٍ مِنْ نعمه: خذي حقكِ من حسناته فما تتركُ له حسنةً إلا ذهبتْ بِهَا**».

وبإسناده عن وهبِ بنِ منبهٍ، قالَ: عَـبدَ اللَّهَ عابدٌ خمسينَ عـامًا، فأوحى اللَّهُ عزَّ وجلَّ إليه: إنِّي قد غـفرتُ لكَ، قـال: يا ربِّ، وما تغـفرُ لي ولم أذنبْ؟ فأذِنَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لِعرْقٍ في عنقه فضرب عليه، فلم ينم، ولم يُصلِّ، ثم سكنَ وقـامَ، فأتاه مَلَكٌ، فـشكا إليه مـا لقيَ من ضربـان العرقِ، فـقالَ الملكُ: إنَّ ربَّك عزَّ وجلَّ يقولُ: «**عبادتُك خمسين سنة تعدلُ سكون ذا العرق**».

وخرَّج الحاكمُ هذا المعـنى مرفوعًا من روايةِ سليمـانَ بنِ هرمٍ القرشيِّ عن محمدِ بنِ المنكدرِ عن جابرٍ عن النبيِّ ﷺ: أن جبريل أخبرهُ أن عابدًا عبدَ اللَّهَ على رأسِ جـبلٍ في البحـرِ خمسَ مـائةِ سنةَ، ثم سألَ ربَّه أن يقـبضـهُ وهو ساجدٌ، قالَ: فنحنُ نمُرُّ عليـهِ إذا هبطْنَا وإذا عرَجنا، ونجدُ في العلمِ أنه يُبعث يومَ القيامةِ، فيوقف بينَ يدي اللّـه عزَّ وجلَّ، فيقولُ الربُّ عزَّ وجلَّ: أدخلوا عبدي الجنةَ برحمتِي، فيقـولُ العبدُ: يا ربِّ، بعملِي، ثلاثَ مرَّاتٍ، ثم يقولُ اللَّهُ للملائكةِ: قايسُوا عـبدِي بنعمتَي عليه وبعمله، فيجدونَ نعـمةَ البصرِ قد أحاطتْ بعبادَةِ خمسِ مائةِ سنةٍ، وبقيتْ نِعَمُ الجسدِ لهُ، فيقولُ: أدخلوا عَبْدِيَ النارَ، فـيُجـرُّ إلى النارِ، فينادِي ربَّه: بـرحمـتكَ أدخلني الجنةَ، برحمـتكَ،

---

(١) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (١٥٨١).

فيدخلُه الجنةَ، قالَ جبريلُ: إنما الأشياء برحمةِ اللَّهِ يا محمدُ[١] .

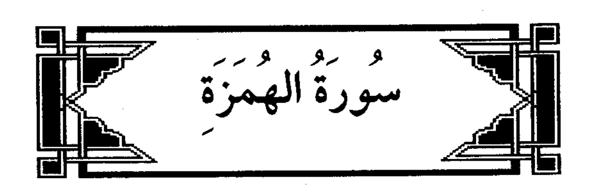
وسُليمانُ بن هرمٍ، قال العقيليُّ: هو مجهولٌ وحديثُه غيرُ محفوظ.

وروى الخرائطيُّ بإسنادٍ فيه نظرٌ، عن عبدِ اللَّهِ بن عمرٍو مرفوعًا: «يُؤتَى بالعبدِ يومَ القيامةِ، فيُوقَفُ بين يدي اللَّهِ، فيقولُ لملائكته: انظرُوا في عملِ عبدِي ونعمتِي عليهِ، فينظرونَ فيقولونَ: ولا بقدْرِ نعمةٍ واحدةٍ من نِعَمكَ عليه، فيقولُ: انظروا في عملِه سيِّئه وصالِحِه، فينظرونَ فيجدونَ كَفَافًا، فيقولُ: عبدِي، قد قبلتُ حسناتِك، وغفرتُ لك سيِّئاتِكَ، وقد وهبتُ لكَ نِعَمِي فيمَا بينَ ذلكَ»[٢] .

* * *

(١) أخرجه: الحاكم (٤/ ٢٥٠).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٩ ـ ٦٢).



سُورَةُ الهُمَزَةِ

قالَ اللَّهُ تعالَى: ﴿كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾

قال محمدُ بنُ كعبٍ القرظيّ في قولِه: ﴿**تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ**﴾ قال: تأكُلُهُ النارُ إلى فؤادِهِ، فإذا بلغتْ فؤادَهُ أنشئ خلقُهُ.

عن ثابتٍ البنانيِّ أنه قرأ هذه الآيةَ ثم قال: تحرقُهُم إلى الأفئدةِ وهم أحياءٌ لقد بلغَ منهم العذابُ ثم يبكي.

وقال اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ**﴾ [المدثر: ٢٧-٢٩] قال صالحُ بن حيانَ عن ابنِ بريدةَ في قوله: ﴿**لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ**﴾ قالَ: تأكلُ العظمَ واللحمَ والمخَّ ولا تذرُهُ على ذلك.

وقال السديُّ: لا تُبقي من جلودِهم شيئًا ولا تذرُهُم من العذابِ، وقالَ أبو سنانَ: لا تذرُهُم إذا بُدِّلُوا خلقًا جديدًا.

وقالَ أبو رزينٍ في قولِهِ: ﴿**لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ**﴾ قال: تلفحُ وجهَهُ لفحةً تدعه أشدَّ سوادًا من الليلِ، قال قتادةُ ﴿**لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ**﴾: حراقةٌ للجلدِ، خرجه كلَّهُ ابنُ أبي حاتم وغيره.

وقال اللَّهُ تعالَى: ﴿**كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى**﴾ [المعارج: ١٥-١٦] قال: تحرقُ كلَّ شيءٍ منهُ ويبقى فؤادُهُ يصيحُ، وعن ابنِ زيدٍ قالَ: تقطَّعُ عظامَهُم ثم

يجددُ خلقَهم وتبدلُ جلودُهم.

وروى ابنُ مهاجرٍ عن مجاهدٍ في قوله: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ تنزعُ الجلدَ، وعنه قالَ: تنزعُ اللحمَ ما دونَ العظمِ(1).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾

وقد وصفَ اللَّهُ أبوابَها أنها مغلقةٌ على أهلِهَا فقالَ: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة:٨]، وقال تعالَى: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ [البلد:٢٠].

قال مجاهدٌ: هي بلغةِ قريشٍ: أصدَ البابَ أغلقَهُ يعني قولَهُ: ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ وقالَ مقاتل: يعني أبوابها مطبقةً عليهم، فلا يفتحُ لها بابٌ، ولا يخرجُ منها غمٌّ، ولا يدخلُ فيها روحٌ آخرَ الأبدِ.

وقد وردَ في ذلك حديثٌ مرفوعٌ خرجه ابنُ مردويه من طريقِ شجاعِ بنِ أشرسَ حدثنا شريكٌ، عن عاصمٍ، عن أبي صالحٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ قال: «مطبقةٌ»، ولكنَّ رفعَهُ لا يصحُّ؛ وقد خرجهُ آدمُ بنُ أبي إياسٍ في «تفسيرِه» عن شريكٍ بهذا الإسنادِ موقوفًا عن أبي هريرةَ، ورواهُ إسماعيلُ بنُ أبي خالدٍ عن أبي صالحٍ من قولهِ ولم يذكرْ فيهِ أبا هريرةَ، وكذا قالَ عطاءٌ الخراسانيُّ وغيرُه في «المؤصدةِ» أنها المطبقةُ.

وعن الضحاكِ قالَ: حائطٌ لا بابَ لهُ، ومرادُه ـ واللَّهُ أعلمُ ـ أن الأبوابَ أطبقتْ فصار الجدارُ كأنه لا بابَ لهُ، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة:٨، ٩] معناه: أطبقت عليهم بعمدٍ، قال قتادة: وكذلك

---

(1) «التخويف من النار» (١٤٦ ـ ١٤٧).

هو في قراءةِ عبدِ اللَّهِ بعمد بالبـاءِ، قال عطيةُ: هي عمدٌ من حديدٍ في النارِ، وقالَ مقـاتلٌ: أطبقتِ الأبوابُ عليهم ثم شدتْ بأوتادٍ من حـديدٍ حتى يرجعَ عليهم غمُّها وحرُّها.

وعلى هذا فقوله: ﴿مُّمَدَّدَةِۭ﴾ صفة للعمـدِ يعني أن العمدَ التي أوثقتْ بها الأبوابُ ممددةٌ مطولةٌ، والممدودُ الطويلُ أرسخُ وأثبتُ من القصيرِ.

وفي «تفسيرِ العوفيِّ» عن ابنِ عباسٍ في قولِهِ: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ قالَ: هيَ عليهم مغـلقةٌ أدخلهُم في عمدٍ فمـدتْ عليهِم بعمادٍ وفي أعنـاقِهم السلاسلُ فسدتْ به الأبوابَ وقيلَ: إن الممددةَ صفةٌ للأبوابِ، رواه شبيبُ بنُ بشيرٍ عن عكرمـةَ عن ابنِ عبـاسٍ وقيلَ: المرادُ بالعـمدِ الممـددةِ: القيـودُ الطوالِ، رواهُ إسماعيلُ بنُ أبي خالدٍ عن أبي صالحٍ، ورواهُ أبو خبابُ الكلبيُّ عن زبيدٍ عن إبراهيمَ، قـالَ: قـالَ عبدُ اللَّهِ بنُ مسعـودٍ في قولـه تعالى: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ قالَ: هيَ الأدهمُ، وقد تقدَّم أنَّ عبدَ اللَّهِ كانَ يقرؤُهَا بعمدٍ والأدْهَمُ: القيدُ.

وكذا قـالَ ابنُ زيدٍ في قولِه: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ قالَ: في عمـدٍ من حديدٍ مغلولينَ فيه، وتلك العمدُ من نارٍ قد احترقتْ من النارِ فهي ممددةٌ لهم.

وقـيلَ: إن المرادَ بالعـمـدِ الممـددةِ: الزمـانُ الذي لا انقطاعَ له، قـاله أبو فاطمةَ.

وقال السديُّ: من قرأَهَا ﴿فِي عَمَدٍ﴾ يعني بالفتحِ فهيَ عمدٌ من نارٍ، ومن قرأَهَا في ﴿عُمُدٍ﴾ يعني بالضَمِّ فهو أجل ممدود.

وقال سعيدُ بنُ بشيرٍ عن قتادةَ: ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مطبقةٌ أطبقَهَا اللَّهُ عليهم فلا ضوءَ فيها ولا فرجَ ولا خروجَ منها آخرَ الأبدِ.

وهذا الإطباقُ نوعانِ:

أحدُهما: خاصٌ لمن يدخلُ في النارِ أو مَن يريدُ التضـييقَ عليه، أجارنا اللَّهُ من ذلكَ، قال أبو توبة اليزنـيّ: إنَّ في النارِ أقوامًا مؤصدةٌ عليـهم كما يطبقُ الحقُّ على طبقِهِ، خرجه ابنُ أبي حاتمٍ.

والثاني: الإطباقُ العامُّ وهو إطباقُ النارِ على أهلِها المخلدينَ فِيهَا.

وقـد قالَ سـفيـانُ وغيـرُه في قولِهِ تعـالى: ﴿**لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ**﴾ [الأنبياء:١٠٣] قالوا: هو طبقُ النارِ على أهلِها.

وفي حديثِ مسكينَ أبي فاطمةَ عن اليمانِ بنِ يزيدِ، عن محمدِ بن حميرٍ، عن محمـدِ بنِ عليٍّ، عن أبيهِ، عن جدِّهِ عن النبيِّ ﷺ في خروجِ الموحدينَ من النارِ، قالَ: «**ثم يبعثُ اللَّهُ ملائكةً معهمُ مساميرُ من نارٍ وأطباقٌ من نارٍ، فيطبقونَهَا على من بقي فيـها ويسمرونَها بتلكَ المسامير، يتناساهمُ الجبارُ على عرشِهِ من رحـمته، ويشـتغلُ عنهـم أهلُ الجنةِ بنعيـمـهم ولذاتِهِم**» خرجـهُ الإسماعيليُّ وغـيره، وهو حديثٌ منكر؛ قاله الدارقطنيُّ.

وروى ابنُ أبي حاتمٍ بإسنادِهِ عـن سعيـدِ بنِ جبيـرِ، قالَ: ينادي رجلٌ في شعبٍ من شعابِ النارِ مقدارَ ألف عـامٍ، يا حنَّان يا منَّان، فيقولُ اللَّهُ تعالى: يا جبريلُ أخـرجْ عبدِي، فيجدُها مطبـقةٌ، فيقولُ: يا رب إنَّها عليـهم مطبقةٌ مؤصدةٌ.

وقال قتـادةُ عن أبي أيوبَ العتكيُّ عن عبدِ اللَّهِ بنِ عـمرٍو: إذَا أجابَ اللَّهُ أهلَ النارِ بقـوله: ﴿**اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ**﴾ [المؤمنون:١٠٨] أطبقتْ عـليهم، فبئسَ القومُ بعدَ تلكَ الكلمةِ، وإن كانَ إلا الزفيرُ والشهيقُ.

وقال أبو الزعراء عن ابنِ مسعودٍ: وإذا قيلَ لهمُ: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أطبقتْ عليهم فلم يخرجْ منهم أحدٌ.

وقال أبو عمرانَ الجوني: إذا كانَ يومَ القيامةِ أمرَ اللَّهُ بكلِّ جبارٍ عنيدٍ، وكلِّ شيطانٍ مريدٍ، وبكلِّ من يخافُ في الدنيا شره العبيدِ، فأوثقُوا بالحديدِ، ثم أمرَ بهم إلى جهنَم التي لا تبيدُ، ثم أوصدَهَا عليهم ملائكةُ ربِّ العبيدِ، قالَ: فلا واللَّه لا تستقرُّ أقدامُهم على قرارٍ أبدًا، ولا واللَّهِ لا ينظرونَ فيها إلى أديمِ سماءٍ أبدًا، ولا واللَّهِ لا تلتقي جفونُ أعينهِم على غمضِ نومٍ أبدًا، ولا واللَّهِ لا يذوقونَ فيها باردُ شرابٍ أبدًا.

وفي معنى إطباقِ النارِ على أهلِهَا يقولُ بعضُ السلفِ ﷺ:

ألبسُوا النضيجَ من النحاسِ، ومنعوا خروجَ الأنفاسِ، فالأنفاسُ في أجوافِهِم تترددُ، والنيرانُ على أبدانِهم توقدُ، قد أطبقتْ عليهم الأبوابُ وغضبَ عليهم ربُّ الأربابِ، وأنشدَ بعضُهم في هذا المعنى:

لو أبصرتْ عيناكَ أهلَ الشَّقَا ... سِيقُوا إلى النارِ وقدْ أُحرِقُوا
يَصْلَونَهَا حينَ عَصَوا ربَّهُم ... وخالفُوا الرسلَ وما صدَّقُوا
تقولُ أُخراهُم لأولاهُمُ ... في لجج المهلِ وقد أغْرِقُوا
قد كنتمُ حذرتمُ حرَّهَا ... لكنْ من النيرانِ لم تَفْرَقُوا
وجيءَ بالنيرانِ مزمُومةً ... شَرَارُهَا منْ حولِهَا محرقُ
وقيلَ للنيرانِ أنْ أحرِقي ... وقيلَ للخزانِ أنْ أطبقُوا

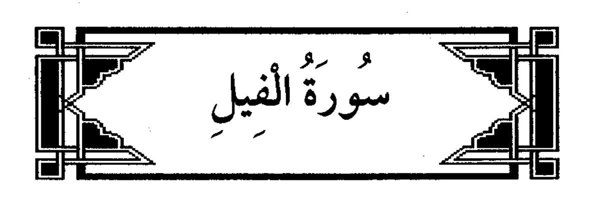
وقد وردَ في بعضِ أحاديثِ الشفاعةِ فتحُ بابِ النارِ، فخرجَ الطبرانيُّ[1] من

(١) أخرجه: الطبراني في «الأوسط»: كما قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٧٩).

روايةِ العباسِ بنِ عـوسجةَ، حدثني مطرٌ أبو مُـوسى مولَى آلِ طلحةَ، عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ: «إنِّي آتي جهنَّم فأضربُ بابَها، فيـفتحُ لي فأدخُلها، فأحمدُ اللَّهَ بمحامد ما حمَدهُ بها أحدٌ قبلي مثلَهَا ولا يحمدُه أحدٌ بعدي، ثم أخرجُ منها من قالَ: لا إلهَ إلا اللَّهُ مخلصًـا، فيقـومُ إليَّ ناسٌ من قريشٍ فـينتسبـونَ إليَّ، فأعرف نسـبَهُم ولا أعرفُ وجوهَهُم فأتركهم في النارِ» إسنادُه ضعيفٌ[1] .

* * *

(١) «التخويف من النار» (٦١ ـ ٦٤).



سُورَةُ الْفِيلِ

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾

كانت قصَّةُ الفيلِ توطِئةً لنبـوَّتِه وتقدمَةً لظُهورِه وبعثته ﷺ، وقد قصَّ اللَّه تعالى ذلك في كتـابه فقال: **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾** [الفيل: ١ - ٥].

فقوله: **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾** استفهامُ تقريرٍ لِمنْ سمع هذا الخطابَ، وهذا يدُلُّ على اشتهارِ ذلكَ بينهم ومـعرفتِهم به، وأنَّه ممَّا لا يخفَى علمُـه على العربِ، خـصوصًا قـريش وأهل مكَّةَ، وهذا أمـرٌ اشتهـرَ بينهم وتعارفُوه، وقالوا فيه الأشعارَ السَّائرةَ.

وقد قالتْ عائشةُ ﵂: رأيتُ قائدَ الفيلِ وسَائِسَهُ بمكَّةَ أعميين يستطعمان، وفي هذه القصَّة ما يدلُّ على تعظيمِ مكَّةَ، واحتـرامِها واحترامِ بيتِ اللَّه الذي فيها، وولادةُ النَّبيِّ ﷺ عقيبَ ذلك تدلُّ على نبـوَّته ورسالته؛ فإنَّه ﷺ بُعثَ بتعظيمِ هذا البيتِ وحجِّه والصَّـلاة إليه، وكانَ هذا البلدُ هو موطنه ومولده، فاضطرَّه قومُهُ عندَ دعوتِهـم إلى اللَّهِ تعالى إلى الخُروجِ منه كُرهًا بما نالوه منه

مِنَ الأذَى، ثم إنَّ اللَّه تعالى ظفَّرهُ بهم، وأدخلهُ عليهم قهرًا، فملكَ البلدَ عنوةً، وملكَ رقابَ أهلهِ، ثمَّ منَّ عليهِم وأطلقهم وعفا عنهم، فكانَ في تسليطِ نبيِّه ﷺ على هذا البلدِ وتمليكه إيَّاه ولأمَّته منْ بعدِه ما دلَّ على صحَّة نبوَّته، فإنَّ اللَّهَ حبسَ عنه من يُريدُه بالأذى وأهلكهُ، ثم سلَّطَ عليه رسولهُ وأمَّتهُ كما قال ﷺ: «**إنَّ اللَّه حبسَ عن مكَّةَ الفيلَ وسلَّطَ عليها رسولهُ والمؤمنينَ**»[1].

فإنَّ الرسولَ ﷺ وأُمته إنَّما كان قصدُهم تعظيمَ البيتِ وتكريمهُ واحترامَهُ، ولهذا أنكرَ النبيُّ ﷺ يومَ الفتحِ على منْ قال: اليومَ تُستحلُّ الكعبةُ، وقال: «**اليومَ تُعظَّمُ الكعبةُ**»[2]، وقد كان أهلُ الجاهليةِ غيَّروا دينَ إبراهيمَ وإسماعيلَ بما ابتدَعوه من الشِّركِ وتغييرِ بعضِ مناسكِ الحجِّ، فسلَّطَ اللَّهُ رسولهُ وأُمته على مكَّةَ فطهَّرُوها مِن ذلك كلِّه، وردُّوا الأمرَ إلى دينِ إبراهيمَ الحنيفِ، وهو الذي دعا لهم مع ابنه إسماعيلَ عند بناءِ البيت أن يبعثَ اللَّه فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمةَ، فبعثَ اللَّهُ فيهم محمَّدًا ﷺ مِن ولدِ إسماعيلَ بهذه الصِّفةِ، فطهَّرَ البيتَ وما حولَه من الشِّركِ، وردَّ الأمرَ إلى دينِ إبراهيمَ الحنيفِ، والتوحيدِ الذي لأجله بُنيَ البيتُ، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾ [الحج:٢٦].

وأمَّا تسليطُ القرامطةِ على البيتِ بعد ذلك، فإنَّما كانَ عقوبةً بسببِ ذنوبِ النَّاسِ، ولم يصلُوا إلى هدمِهِ ونقضِهِ ومنعِ النَّاسِ من حجِّه وزيارته، كما كان يفعلُ أصحابُ الفيلِ لو قدرُوا على هدمِهِ وصرفِ النَّاسِ عن حجِّه،

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٣٩)، ومسلم (٤/ ١١٠).
(٢) أخرجه: البخاري (٥/ ١٨٦ ـ ١٨٧).

والقرامطةُ أخذُوا الحجرَ والبابَ، وقتلوا الحاجَّ وسلبُوهم أموالَهم، ولم يتمكَّنُوا من منعِ النَّاسِ من حجِّه بالكُلِّيَّة، ولا قدرُوا على هدمِهِ بالكليةِ، كما كانَ أصحابُ الفيلِ يقصدُونهُ، ثم أذَلَّهم اللَّهُ بعدَ ذلكَ وخذلَهم وهتكَ أستارَهُم، وكشفَ أسرارَهُم.

والبيتُ المُعظَّمُ باقٍ على حالِهِ من التَّعظيمِ، والزِّيارة، والحجِّ والاعتمارِ، والصَّلاةِ إليه، لم يبطُلْ شيءٌ من ذلك عنه بحمدِ اللَّهِ ومنِّه، وغايةُ أمرِهم أنَّهم أخافُوا حاجَّ العراقِ حتَّى انقطعُوا بعضَ السِّنين، ثم عادُوا، ولم يزلِ اللَّهُ يمتحنُ عبادَهُ المؤمنينَ بما يشاءُ من المحنِ، ولكن دينه قائمٌ محفوظٌ لا يزالُ تقومُ به أُمَّةٌ من أُمَّةِ محمدٍ ﷺ لا يضرهُم منْ خذلَهم حتَّى يأتِيَ أمرُ اللَّهِ وهُمْ على ذلك، كما قال تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

وقد أخبرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ هذا البيتَ يُحجّ ويُعتمرُ بعدَ خروجِ يأجوجَ ومأجوجَ[١]، ولا يزالُ كذلك حتَّى تُخرِّبهُ الحبشةُ[٢]، ويلقونَ حجارتهُ في البحرِ، وذلك بعدَ أنْ يبعثَ اللَّهُ ريحًا طيِّبةً تقبضُ أرواحَ المؤمنينَ كلِّهم، فلا يبقى في الأرضِ مؤمنٌ[٣]، ويسرَى بالقرآنِ من الصُّدُورِ والمصاحِفِ، فلا يبقَى في الأرضِ قرآنٌ، ولا إيمانٌ، ولا شيء مِن الخيرِ، فبعدَ ذلك تقومُ السَّاعةُ، ولا تقومُ إلا على شرارِ النَّاسِ.

* * *

(١) أخرجه: البخاري (٢/ ١٨٢ ـ ١٨٣).
(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ١٨٢).
(٣) أخرجه: مسلم (٨/ ١٨٢).

سُورَةُ المَاعُون

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾

وقد وردتْ آثارٌ كثيرةٌ عن السلفِ في تـاركِ الصلاةِ عمدًا، أنَّه لا تُقبلُ منه صلاةٌ، كما رُوي عن الصديقِ ﷺ، أنَّه قالَ لعُمرَ في وصيتهِ له: إنَّ للَّهِ حقًّا باللَّيلِ لا يقبلُهُ بالنهارِ، وحقًّا بالنهارِ لا يقبلُهُ باللَّيلِ.

يشيرُ إلى صلواتِ اللَّيلِ والنهارِ.

وفي حديثٍ مرفوعٍ: «**ثلاثةٌ لا يُقبلُ لهُمْ صلاةٌ**»، ذكرَ منهم: «**الذي لا يأتي الصلاةَ إلا دبارًا**» ـ يعني: بعدَ فواتِ الوقتِ.

خرَّجه أبو داود وابنُ ماجه[1] من حديثِ عبدِ اللَّه بن عمرو ـ مرفوعًا.

وفي إسنادهِ ضعفٌ.

ولكن مجرد نفي القبولِ لا يستلزمُ عدمَ وجوبِ الفعلِ، كصلاةِ السَّكرانِ في مدةِ الأربعينِ، وصلاةِ الآبقِ والمرأةِ التي زوجُها عليها ساخطٌ.

فإنْ قيلَ: فقد قالَ تعالى: **﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾** [الماعون: ٤، ٥]، وفسَّره الصحابةُ بإضاعةِ مواقيتها.

وكذا قالَ ابنُ مسعودٍ في المحافظةِ على الصلاةِ: أي المحافظة على مواقيتها، وأنَّ تركَها كفرٌ.

---

(١) أبو داود (٥٩٣)، وابن ماجه (٩٧٠).

ففرقُوا بين تركِها وبينَ صلاتِها بعدَ وقتِها.

وقدْ أمرَ النبيُّ ﷺ بالصلاةِ خلفَ منْ أخبرَ أنه يضيعُ الصلاةَ ويُصلِّيها لغيرِ وقتِها، وهذا يدلُّ على أنَّ صلاتَهم صحيحةٌ.

وقد سُئِلَ عنِ الأمراءِ وقتَالِهم؟ قالَ: **«لا، مَا صَلَّوا، وكانتْ علَى هذا الوجهِ»**، فدلَّ على إجزائِها.

قيل: السهوُ عن مواقيتِ الصَّلاةِ لا يستلزمُ تعمدَ التأخيرِ عنِ الوقتِ الحاضرِ؛ فإنَّه قدْ يقعُ على وجهِ التهاونِ بتأخيرِ الصلاةِ حتَّى يفوتَ الوقتُ - أحيانًا - عن غيرِ تعمدٍ لذلك، وقد يكونُ تأخيرُها إلى وقتِ الكراهةِ، أو إلى الوقتِ المشتركِ الذي يجمعُ فيه أهلُ الأعذارِ عندَ جمهورِ العلماءِ، وغيرُهم على رأيِ طائفةٍ من المدنيين.

وهذه الصلاةُ كلُّها مجزِئةٌ، ولا يكونُ المصلِّي لها كالتاركِ بالاتفاقِ.

وقد سُئِلَ سعيدُ بنُ جُبير، عن قوله: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ** ﴿٤﴾ **الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾ فدخلَ المسجدَ، فرأى قومًا قد أخَّروا الصلاةَ، لا يُتمُّونَ رُكُوعًا ولا سجُودًا، فقالَ: الذي سألْتَني عنهُم هُم هؤلاء.

وهذه الصلاةُ مثلُ الصلاةِ التي سمَّاها النبيُّ ﷺ: **«صلاة المنافقين»**.

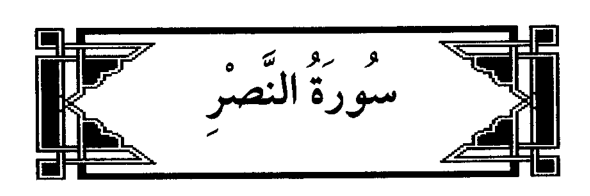
وهكذا كانتْ صلاةُ الأمراءِ الذين أمرَ النبيُّ ﷺ بالصلاة خلفهم نافلةً، فإنَّهم كانوا يُؤخِّرُون العصرَ إلى اصفرارِ الشَّمسِ، وربَّما أخَّرُوا الصلاتينِ إلى ذلك الوقتِ، وهو تأخيرٌ إلى الوقتِ المشتركِ لأهلِ الأعذارِ، وكغيرِهم عندَ طائفةٍ من العلماءِ.

فليسَ حُكمُهُم حكمَ منْ تركَ الصلاةَ؛ فإنَّ التاركَ هو المُؤخِّرُ عمدًا إلى

وقتٍ مُجمعٍ على أنَّه غيرُ جائزٍ، كتأخيرِ صلاةِ اللَّيلِ إلى النهارِ، وصلاةِ النهارِ إلى اللَّيلِ عمدًا، وتأخيرِ الصبحِ إلى بعدِ طلوعِ الشمسِ عمدًا[١].

* * *

(١) «فتح الباري» (٣/٣٥٨ ـ ٣٦٠).



قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾

جاءَ في حديثٍ أنَّها: «**تعْدل ربعَ القرآن**»(١).

وهيَ مدنية بالاتفاقِ؛ بمعْنَى: أنَّهـا نَزَلَتْ بَعْدَ الهِجْرَةِ إلى المدينةِ، وهِيَ مِنْ أواخرِ ما نَزَلَ.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(٢) عَن ابنِ عبَّاسٍ قالَ: آخـرُ سورةٍ نَزَلَتْ من القرآنِ جميعًا: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾.

واختُلفَ في وقتِ نزولِهَا، فقيلَ: نزلتْ في السَّنَةِ الَّتي تُوفِّيَ فيهَا رسولُ اللَّهِ ﷺ.

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ» عَنْ محمدِ بنِ فُضيلٍ عَنْ عطاء عَنْ سعيد بنِ جبيرٍ عَنْ ابنِ عباسٍ قالَ: لما نزلَتْ: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾ قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**نُعيَتْ إليَّ نفسي**» بأنَّه مقبوضٌ في تلكَ السنةِ. عطاءٌ هـو ابنُ السائبِ اختلطَ بآخرةٍ(٣).

---

(١) جزء من حديث طويل، أخرجه: الترمذي (٢٨٩٥).

(٢) أخرجه: مسلم (٨/ ٢٤٣).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٧).

ويشهدُ لهُ مَا أخرجَهُ البزارُ في «مسندِه» والبيهقيُّ مِنْ حديثِ موسى بنِ عبيدةَ عَنْ عبدِ اللَّهِ بنِ دينارٍ وصدقةَ بنِ يسارٍ عَنْ ابنِ عُمَرَ قالَ: نزلتْ هذه السورةُ علَى رسولِ اللَّهِ ﷺ بمنًى، وهوَ في أوسطِ أيامِ التشريقِ في حَجَّةِ الوداعِ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فَعَرفَ أنَّه الوداعُ، فأمرَ براحلتِه القصواءَ، فرُحلتْ لَهُ، ثمَّ ركبَ، فوقفَ للناسِ بالعقبةِ، فحمدَ اللَّهَ وأثنَى عليهِ ـ وذكرَ خطبةً طويلةً[1].

هذا إسنادٌ ضعيفٌ جدًّا، ومُوسى بنُ عبيدةَ قالَ أحمدُ: لا تحلُّ عِنْدِي الروايةُ عنْهُ.

وعنْ قتادةَ قالَ: عاشَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَهَا سنتينِ[2].

وهذا يَقْتَضِي أَنَّها نزلتْ قَبْلَ الفتحِ، وهذا هو الظاهرُ لأنَّ قولَهُ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ يَدُلُّ دلالةً ظاهرةً على أنَّ الفتحَ لم يكنْ قَدْ جاءَ بعدُ، لأنَّ «إِذَا» ظرفٌ لِمَا يُستقبلُ مِنَ الزَّمانِ، هذا هو المعروفُ في استعمَالِهَا، وإنْ كانَ قَدْ قِيلَ: إنَّها تَجيءُ للماضِي كقولِهِ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة:١١]. وقوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة:٩٢].

وقدْ أُجيبَ عَنْ ذلكَ بأنَّه أُريدَ أَنَّ هذا شأنُهم ودأبهُم، لم يُرِدْ بِهِ الماضي بخُصُوصِهِ، وسنذكرُ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ بعد نزولِ هذهِ السورةِ: «جاءَ نصرُ اللَّهِ والفتح، وجاءَ أهلُ اليمنِ». ومجيءُ أهْلِ اليَمَنِ كانَ قبلَ حَجَّةِ الوداعِ.

---

(١) أخرجه: البزار (١١٤١ ـ كشف الأستار).

(٢) أخرجه: الطبري في «التفسير» (٣٠/ ٣٣٥).

قولُه تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.

أمَّا نصرُ اللَّهِ فهُوَ معونتُه علَى الأعداءِ حتَّى غَلَبَ النبيُّ ﷺ العربَ كلَّهم، واستولَى عليهِم مِنْ قريشٍ وهوازنَ وغيرِهم، وذكرَ النقَّاشُ عنْ ابنِ عبَّاسٍ أنَّ النصرَ: هو صُلْحُ الحديبيةِ.

وأمَّا الفتحُ فقيلَ: هُوَ فتحُ مكةَ بخصوصِهَا، قالَ ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه: لأنَّ العربَ كانتْ تنتظرُ بإسلامِهَا ظهورَ النبيِّ ﷺ على مكةَ.

وفي «صحيحِ البخاريِّ» عَنْ عمرِو بنِ سلمةَ قالَ: لَمَّا كانَ الفتحُ بادَرَ كُلُّ قومٍ بإسلامِهِم إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ، وكانتِ الأحياءُ تلوَّمُ بإسلامِهَا فتحَ مكةَ فيقولونَ: دعُوهُ وقومَه، فإنْ ظهرَ عليهِم فهوَ نبيٌّ[1].

وعن الحسنِ قالَ: لَمَّا فتحَ رسولُ اللَّهِ ﷺ مكةَ، قالتِ العربُ: أمَّا إذا ظَفَر محمدٌ بأهلِ مكةَ، وقدْ أجارَهُمُ اللَّهُ مِنْ أصحابِ الفيلِ فليسَ لَكُم به يدانِ، فدخلُوا في دينِ اللَّهِ أفواجًا.

وقيلَ: إنَّ الفتحَ يَعُمُّ مكةَ وغيرَها مما فُتِحَ بَعْدَهَا من الحصونِ والمدائنِ، كالطائفِ وغيرِها مِنْ مُدنِ الحجازِ واليمنِ وغيرِ ذلكَ، وهُوَ الذي ذكرهُ ابنُ عطيةَ.

وقولُهُ: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ٢].

المرادُ بالنَّاسِ العمومُ على قولِ الجمهورِ، وعَنْ مقاتلٍ: أنَّهم أهلُ اليمنِ.

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ» مِنْ طريقِ شعبةَ عَنْ عمرِو بن مرةَ عَنْ أبي البَخْتَرِيِّ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ قالَ: لَمَّا نزلتْ هذه السورةُ:

(١) أخرجه: البخاري (٥/ ١٩١).

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ ورَأيتَ﴾، قال: قرأها رسولُ اللَّه ﷺ حتى ختمَها فقالَ: «**الناسُ حَيِّزٌ وأنا وأصحابي حَيِّزٌ**»، وقال: «**لا هِجْرَةَ بعد الفتحِ، ولكنْ جِهادٌ ونيةٌ**»[(١)]، وأنَّ مروانَ كذَّبه فصدَّق رافعُ بنُ خديجٍ وزيدُ بنُ ثابتٍ أبا سعيدٍ على ما قالَ.

وهذا يُستدلُ بِهِ علَى أَنَّ المرادَ بالفتحِ فتحُ مكةَ، فقدْ ثبتَ في «الصحيحينِ» منْ حديثِ ابنِ عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ يومَ الفتحِ: «**لا هجرةَ، ولكنْ جهادٌ ونيةٌ**»[(٢)].

وأيضًا فالفتحُ المطلقُ هوَ فتحُ مكةَ كَمَا في قولِه: ﴿**لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ**﴾ [الحديد: ١٠]، ولهذا قالَ: «**الناسُ حَيِّزٌ، وأنا وأصحابي حَيِّزٌ**».

وروى النسائيُّ مِنْ طريقِ هلالِ بنِ خَبَّابٍ عنْ عكرمةَ عنْ ابنِ عباس قالَ: لَمَّا نزلتْ: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾ إِلَى آخرِ السورةِ قال: نُعِيَتْ لرسولِ اللَّه ﷺ نفسُهُ حينَ أُنزلتْ فأخَذَ في أشدِّ مَا كانَ اجتهادًا في أمرِ الآخرةِ، وقالَ رسولُ اللَّه ﷺ بعدَ ذلكَ: «**جاءَ الفتحُ، وجاءَ نصرُ اللَّه، وجاءَ أهلُ اليمنِ**»، فقالَ رجلٌ: يا رسول اللَّهِ، ومَا أهلُ اليمنِ؟ قالَ: «**قومٌ رقيقةٌ قلوبُهم، لينةٌ قلوبهم، الإيمانُ يمانٍ، والحكمةُ يمانيةٌ، والفقهُ يمانٍ**»[(٣)].

وروى ابنُ جريرٍ منْ طريقِ الحسينِ بنِ عيسى الحنفيِّ عنْ معمرٍ عنْ الزهريِّ عنْ أبي حازمٍ عن ابنِ عباسٍ قالَ: بينما رسولُ اللَّه ﷺ في المدينةِ إذْ قالَ: «**اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبرُ، جاءَ نصرُ اللَّهِ والفتحِ، جاءَ أهلُ اليمنِ**»، قيل: يا رسولَ اللَّه،

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٢٢).

(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ١٨٠)، (٤/ ١٢٧)، ومسلم (٤/ ١٠٩).

(٣) أخرجه: النسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٦٢٣٨).

وما أهلُ اليـمنِ؟ قالَ: «**قومٌ رقـيقةٌ قلوبُهم، لينـةٌ طباعُهُم، الإيمانُ يمانٍ، والفـقهُ يمانٍ، والحكمةُ يمانيةٌ**»(١) .

ورواه أيضًا مِنْ طريقِ عبدِ الأعْلَى عَنْ معمرٍ عَنْ عكرمةَ مرسَلاً(٢) ، وكذا هُوَ في «تفسيرِ عبدِ الرزاقِ»: عَنْ معمرٍ أخبرَنِي مَنْ سَمِعَ عكرمةَ فأرسَلَهُ.

وهذَا لا يدلُّ على اختصاصِ أهلِ اليـمنِ بالنَّاسِ المذكورينَ في الآيةِ وإنَّما يدلُّ علَى أنَّهُم داخلونَ في ذلكَ فإنَّ الناسَ أعمُّ مِنْ أهلِ اليمنِ.

قال ابنُ عَـبْدِ البَرِّ: لـم يَمُتْ رسولُ اللَّهِ ﷺ وفي العَرَبِ رجُلٌ كـافرٌ بَلْ دَخَلَ الكُلُّ في الإسْلامِ بعد حُنين والطائـفِ، منهم مَنْ قَدمَ، ومنهم مَنْ قدمَ وافدُهُ، ثُمَّ كانَ بعدُ من الردةِ ما كانَ، ورجَعُوا كُلُّهم إلى الدينِ.

قالَ ابنُ عطيـةَ: المرادُ ـ واللَّهُ أعلمُ ـ: العربُ عبدةُ الأوثانِ، وأمَّـا نصارَى بني تغلبٍ فمَا أراَهُم أسلَمُوا قط في حياةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ لكنْ أَعْطوا الجزيةَ.

والأفواجُ: الجماعةُ إثْرَ الجماعَةِ كَمَا قالَ اللَّهُ تعالَى: ﴿**كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ**﴾ [الملك:٨]، وفي «المسندِ» مِنْ طريقِ الأوزاعيِّ حـدَّثَني أبو عمَّـارٍ حدَّثنـي جارٌ لجابرِ بنِ عـبدِ اللَّهِ قـال: قَدِمْتُ مِنْ سَفَـرٍ فَجَـاءَنِي جابرُ بنُ عـبـدِ اللَّهِ يُسَلِّمُ عليّ، فجعلتُ أحدِّثُه عَنْ افتراقِ النَّـاسِ ومَا أحْدَثُوا، فجَعَلَ جابرٌ يَبْكِي، ثُمَّ قَالَ: سمـعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقـولُ: «**إنَّ النَّاسَ دخلـوا في دينِ اللَّه أفْـواجًـا، وسيخرجونَ منهُ أفْواجًا**»(٣) .

(١) أخرجه: الطبري في «التفسير» (٣٠/ ٣٣٢).
(٢) السابق (٣٠/ ٣٣٣).
(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٣٤٣).

وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

فيه قولانِ حكاهُمَا ابنُ الجَوزِيِّ.

أحدُهُما: أنَّ المرادَ به الصلاةُ، نَقَلَهُ عَنْ ابنِ عَبَّاسٍ.

والثاني: التسبيحُ المعروفُ.

وفي الباءِ في «بحمدِ» قولانِ:

أحدُهُما: أَنَّها للمُصَاحبةِ فالحمدُ مُضافٌ إلى المفعولِ، أَيْ فسبِّحْهُ حامدًا لَهُ، والمعْنَى: أجْمعُ بينَ تسْبيحِهِ وهُوَ تنزيهُهُ عَمَّا لا يليقُ بِهِ مِنَ النَّقَائِصِ، وبين تحميدِهِ وهوَ إثباتُ ما يليقُ بِهِ مِنَ المَحَامِدِ.

والثاني: أَنَّها للاستعانَةِ، والحمدُ مُضَافٌ إلى الفَاعِلِ، أي سَبِّحْهُ بما حَمِد به نفسَهُ إذْ ليسَ كُلُّ تسبيحٍ بمحمودٍ كَمَا أنّ تسبيحَ المعتزلةِ يقْتَضِي تعطيلَ كثيرٍ من الصفاتِ، كَمَا كانَ بشرُ المَرِيسيُّ يقولُ: سبحانَ ربي الأسْفَلِ.

وقولُه: ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾.

أي اطلبْ مغفرَتَهُ، والمغفرةُ هِيَ وقايةُ شَرِّ الذنبِ لا مجردُ سَتْرِهِ.

والفرقُ بَيْنَ العفوِ والمغفرةِ أنَّ العفْوَ محوُ أثرِ الذنبِ، وقدْ يكونُ بَعْدَ عقوبةٍ بخلافِ المغفرةِ فإنَّها لا تكونُ مَعَ العقوبةِ.

وقولُه: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

إشارةٌ إلى أنَّه سُبْحَانَهُ يَقْبَلُ توبةَ المستغفرينَ المنيبينَ إليهِ، فَهُوَ ترغيبٌ في الاستغفارِ، وحَثٌّ على التوبةِ، وقَدْ فَهِمَ طائفةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم أنَّ النبيَّ ﷺ أُمِرَ بالتسبيحِ والتحميدِ والاستغفارِ عندَ مجيءِ نصرِ اللَّهِ والفتحِ، شُكرًا للَّهِ

على هذه النعمة، كما صلَّى النبيُّ ﷺ يومَ فتحِ مكةَ ثماني ركعاتٍ[١]، وكذلكَ صلَّى سعدٌ يومَ فتحِ المدائنِ، وكانتْ تُسَمَّى: صلاةُ الفتحِ.

وأمَّا عُمَرُ وابنُ عباسٍ فَقَالا: بلْ كانَ مجيءُ النَّصرِ والفتحِ علامةَ اقترابِ أجلِه، وانقضاءِ عُمرِه، فأُمِرَ أنْ يختمَ عملَه بذلكَ، ويتهيأَ للقاءِ اللَّهِ، والقدومِ عليهِ على أكْمَلِ أحوالِه وأتمِّها، فإنَّه لَمَّا جاءَ نصرُ اللَّهِ والفتحُ بحيثُ صارتْ مكة دارَ إسلامٍ، وكذلكَ جزيرةُ العربِ كُلُّها، ولمْ يبْقَ بِهَا كافرٌ، ودخلَ الناسُ في دينِ اللَّهِ أفواجًا.

وقد بلَّغ رسولُ اللَّهِ ﷺ رسالاتِ ربِّه، وعلَّمَ أمتَهُ مناسكَهُم وعباداتِهم، وتركَهُم على البيضاءِ، ليلُها كنهارِهَا، ولم يبقَ لهُ من الدُّنيا حاجةٌ، فحينئذٍ تهيّأَ للنَّقلةِ إلى الآخرةِ فإنَّها خيرٌ لَهُ مِنَ الأُولى، ولهذَا نزلتْ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣] بعَرَفةَ.

وعلَّمَ الأمةَ مناسِكَهُم، وقالَ لَهُم: «لَعَلِّي لا أراكم بَعْدَ عامي هَذا»[٢].

وقالَ لَهُم: «هَلْ بَلَّغتُ؟»، قالُوا: نَعَمْ، وأشهدَ اللَّهَ عليهم بذلكَ، وودَّعَ النَّاسَ فقالُوا: هذه حَجَّةُ الوداعِ[٣].

وقدْ خُيِّرَ ﷺ بينَ الدنيا وبين لقاءِ ربِّه، فكانَ آخرَ ما سُمِعَ مِنهُ: «اللَّهمَ الرفيقَ الأعْلَى»[٤].

ونظيرُ هذا الفهمِ الذي فهمَهُ عمرُ مِنْ هذهِ السورةِ ما فهمَهُ أبو بكرٍ مِنْ

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٧٨)، (٨/ ٤٦)، ومسلم (١/ ١٨٢)، (١٥٧).

(٢) أخرجه: مسلم (٤/ ٧٩) من حديث جابر.

(٣) أخرجه: البخاري (٢/ ٢١٦ ـ ٢١٧)، ومسلم (٥/ ١٠٨ ـ ١٠٩).

(٤) أخرجه: البخاري (٨/ ٩٣)، ومسلم (٧/ ١٣٧).

قولِ النبيِّ ﷺ في خطبتِه: «إنَّ عبدًا خُيِّر بينَ الدنيا وبين لقاءِ ربِّه، فاختارَ لقاءَ ربِّه»(١)، وقدْ سَبَقَ مِنْ حديثِ ابنِ عباسٍ ما يدلُّ على ذلكَ.

وفي «صحيحِ البخاريِّ» مِنْ حديثِ سعيدِ بنِ جبيرٍ عنْ ابنِ عبَّاسٍ قالَ: كانَ عمرُ يُدخِلُني مَعَ أشياخِ بدرٍ فكأنَّ بعضَهُم وجَدَ في نفسه فقالَ: لِمَ تُدْخلُ هذا مَعَنَا ولنا أبناءٌ مثلُه؟ فقالَ عمرُ: إنَّه مِمَّن قَدْ علِمتم، فدعاهُم ذاتَ يومٍ فأدْخَلَهُ معهُم، فما رأيتُ أنَّه دعَاني فيهِم يومئذ إلا لِيُريَهم، فقالَ: ما تقولونَ في قولِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقالَ بعضُهُم: أُمرنا أنْ نحمَدَ اللَّهَ ونستَغْفره إذا جاءَ نصرُنا وفُتِحَ علينَا، وسكتَ بعضُهُم فلمْ يَقُل شيئًا! فقال لي: أكذاكَ تقولُ يا ابنَ عبَّاسٍ؟ فقلت: لا، قال: ما تقولُ؟ قلتُ: هو أجلُ رسولِ اللَّهِ ﷺ أعلَمَهُ لهُ قالَ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذاكَ علامَةُ أَجَلِكَ، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فقالَ عمرُ بنُ الخطاب: ما أعلمُ منها إلا ما تقولُ(٢)، وقد رُويتْ هذه القصةُ عن ابن عباسٍ منْ غيرِ وجهٍ.

وفي «المسندِ» عنْ أبي رزينٍ عن ابنِ عباسٍ قالَ: لَمَّا نزلتْ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ علِمَ النبيُّ ﷺ أنَّه قد نُعيتْ إليه نفسُهُ(٣).

وقد سَبَقَ منْ حديثِ ابنِ عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا نَزَلَتْ هذه السورةُ أخذَ في أشدِّ ما كانَ اجتهادًا في أمرِ الآخرةِ(٤).

---

(١) أخرجه بنحو هذا اللفظ أحمد في «المسند» (٣/ ٤٧٨)، والترمذي (٣٦٥٩) من حديث أبي المعلَّى الأنصاري.

(٢) أخرجه: البخاري (٤/ ٢٤٨)، (٦/ ٢٢٠).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (١/ ٣٤٤، ٣٥٦).

(٤) سبق تخريجه قريبًا.

وروى الخرائطيُّ في «كتاب الشُّكْرِ» مِنْ طريقِ شاذ بنِ فياضٍ عَن الحارث بنِ شبلٍ عنْ أمِّ النُّعمانِ الكنديةِ عنْ عائشةَ قالتْ: لَمَّا نزلتْ هذه الآيةُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] اجتهدَ النبيُّ ﷺ في العبادةِ فقيلَ لهُ: يا رسولَ اللَّهِ، ما هذا الاجتهادُ؟ أليسَ قدْ غَفَرَ اللَّهُ لكَ ما تقدَّم من ذنبِكَ وما تأخَّر؟! قالَ: «أفَلا أكونُ عَبْداً شكُوراً»، إسنادُه ضعيفٌ[1].

وروى البيهقيُّ مِنْ طريقِ سعيد بنِ سليمانَ عَنْ عبَّادِ بنِ العوّامِ عَنْ هلالِ بن خَبَّابٍ عنْ عكرمةَ عَن ابنِ عباسٍ قالَ: لَمَّا نزلتْ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ دعَا رسولُ اللَّهِ ﷺ فاطمةَ، وقالَ: «إنَّهُ قد نُعِيَتْ إليَّ نفسي»، فَبَكَتْ، ثُمَّ ضَحِكَتْ، وقالتْ: أخبرني أنه قد نُعيَ إليه نفسه فبكيتُ، ثُمَّ أخبرَنِي بأنَّكِ أوَّلُ أهلي لِحَاقًا بي فَضَحِكْتُ[2].

وكان النبيُّ ﷺ يكثرُ من التسبيحِ والتحميدِ والاستغفارِ بعدَ نزولِ هذه السورةِ، ففي «الصحيحينِ» عَنْ مسروقٍ عَنْ عائشةَ قالتْ: كانَ رسولُ اللَّه ﷺ يكثرُ أنْ يقولَ في ركوعِهِ وسجودِهِ: «سبحانكَ اللهُمَّ ربَّنا وبحمدِكَ اللهمَّ اغفرِ لِي» يتأولُ القرآنَ.

وفي «المسنَدِ» و «صحيحِ مسلمٍ» عنها قالتْ: كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يكثرُ في آخرِ أمرِهِ مِنْ قولِ: «سبحانَ اللَّهِ وبحَمْدِه، أَستغفرُ اللَّهَ وأَتوبُ إليه»، وقالَ: «إنَّ ربي كانَ أخبَرَني أنِّي سأَرَى علامةً في أُمتي، وأمرَني إذا رأيتُها أنْ أُسبِّحَ بحمدِهِ

(١) أخرجه: الخرائطي في «كتاب الشكر» (٥٢).

(٢) أخرجه: الدارمي (١/ ٣٧)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٣٣٠)، وفي «الأوسط» (٨٨٣)، والبهيقي في «دلائل النبوة» (٧/ ١٦٧). وأصله عند البخاري (٤/ ٢٤٧)، ومسلم (٧/ ١٤٢ ـ ١٤٣).

وأستغفرهُ إنَّه كانَ توَّابًا، فقَدْ رأَيتُها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾» السورةَ كلَّها[1].

ورَوى ابنُ جريرٍ مِنْ طريقِ حفصٍ ثنا عاصمٌ عَنِ الشعبيِّ عَنْ أمِّ سلمةَ قالتْ: كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ في آخرِ أمرِهِ لا يقومُ ولا يقعدُ ولا يذهبُ ولا يجيءُ إلا قالَ: «سبحانَ اللَّهِ وبحمدِهِ»، فقُلْتُ: يا رسولَ اللَّهِ، إنَّكَ تُكثرُ مِنْ: «سبحانَ اللَّهِ وبحمدِهِ»، لا تذهبُ ولا تجيءُ ولا تقومُ ولا تقعدُ إلا قلتَ: «سبحانَ اللَّهِ وبحمدِهِ» قالَ: «إني أُمِرْتُ بِهَا»، فقالَ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخرِ السورةِ. غريبٌ[2].

وفي «المسندِ» عن أبي عبيدةَ عنْ عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ قالَ: لَمَّا نزلتْ علَى رسولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ كانَ يُكثرُ إذَا قرأَهَا وركعَ أنْ يقولَ: «سبحانكَ اللهمَّ ربنا وبحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغفرْ لي، إنَّكَ أنتَ التوابُ الرحيمُ» ثلاثًا[3].

واعلمْ؛ أنْ التسبيحَ والتحميدَ فيهِ إثباتُ صِفَاتِ الكمالِ، ونفيُ النقائصِ والعيوبِ.

والاستغفارُ يتضمنُ وقايةَ شرِّ الذنوبِ.

فذاكَ حَقُّ اللَّهِ، وهذَا حقُّ عبدِهِ، ولِهذَا في خطبةِ الحَاجَةِ: «الحمدُ للَّهِ نحمدُهُ ونسْتعينُهُ ونسْتغفرُهُ»[4].

وكانَ رجلٌ في زمنِ الحسنِ البصريِّ مُعتزِلٌ النَّاس فسألهُ الحسنُ عَنْ حالِهِ؟

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٦/ ٣٥)، ومسلم (٢/ ٥٠).
(٢) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (٣٠/ ٣٣٥).
(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (١/ ٣٩٢، ٣٩٤، ٤١٠، ٤٣٤، ٤٥٥، ٤٥٦).
(٤) أخرجه: مسلم (٣/ ١١).

فقالَ: إني أُصبِحُ بين نعمةٍ وذنبٍ فأُحْدِثُ للنعـمةِ حَمْدًا، وللذنبِ استغفارًا، فأنا مشغـولٌ بذلكَ، فقالَ الحسنُ: الزمْ مَا أنتَ عليهِ، فـأنتَ عنْدِي أفقهُ مِنَ الحسَنِ.

والاستغـفارُ: هوَ خاتمةُ الأعمالِ الصالحـةِ، فلِهَذَا أُمرَ النبيُّ ﷺ أنْ يجعلَهُ خاتمةَ عُمْرِهِ.

كما يُشرَعُ لمصلِّي المكتوبةِ أنْ يستغفرَ عقِبَهَا ثلاثًا(١) ، وكَمَا يُشرَعُ للمتهجِّدِ مِنَ الليلِ أنْ يستَغْـفِرَ بالأسْـحَارِ قالَ تعـالَى: ﴿**وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الذاريات:١٨]، وقـالَ: ﴿**وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ**﴾ [آل عمران:١٧]، وكَمَـا يُشرَعُ الاستغفارُ عُقَيْبَ الحجِّ قالَ تعالَى: ﴿**ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [البقرة:١٩٩].

وكمـا يُشْرَعُ ختمُ المجَـالسِ بالتسبـيحِ والتحمـيدِ والاستـغْفَارِ وهُوَ كـفارةُ المجلسِ(٢) ، وروي أنه يَخْتِمُ بِهِ الوضوءَ أيضًا(٣) .

وسببُ هَذَا أنَّ العبادَ مُقصِّرُونَ عن القيـامِ بحقوقِ اللَّهِ كَمَا يَنبغِي، وأدائِهَا على الوجهِ اللائـقِ بجلالهِ وعظمتِـهِ، وإنَّما يؤدُّونَها علَـى قَدْرِ مَا يطيـقُونَهُ، فالعـارفُ يَعْرِفُ أنَّ قَدْرَ الحقِّ أعْلَى وأجلُّ مِنْ ذلكَ، فـهُوَ يَسْتَـحِي مِنْ عملهِ ويستغـفرُ مِنْ تقصيرِهِ فـيهِ كَمَا يستغـفرُ غيرُهُ مِنْ ذنوبِهِ وَغفَـلاتِهِ، وكُلَّما كانَ الشخصُ باللَّهِ أعرفَ كانَ لهُ أخوفَ، وبرؤيةِ تقصـيرِهِ أبصرُ، ولهذا كانَ خاتمُ المرسلينَ وأعرفُهم بربِّ العالمينَ ﷺ يجتهـدُ في الثناءِ على ربِّهِ، ثُمَّ يقولُ في

---

(١) أخرجه: مسلم (٢/ ٩٤).
(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٤٩٤)، وأبو داود (٤٨٥٨)، والترمذي (٣٤٣٣).
(٣) أخرجه: النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨١)، والطبراني في «الأوسط» (١٤٥٥).

آخرِ ثنائه: «**لا أُحْصِي ثناءً عليكَ أنتَ كَمَا أَثنيتَ على نفسِكَ**»[1] .

ومنْ هذَا قولُ مالكِ بنِ دِينارٍ: لقدْ هَممْتُ أنْ أُوصِيَ إذَا متُّ أنْ أُقيَّد، ثُمَّ يُنْطلقُ بي كما يُنطلقُ بالعبدِ الآبقِ إلى سيِّدِه، فإذا سَألَني؟ قلتُ: يا ربِّ، لم أرضَ لكَ نفسِي طَرفةَ عينٍ.

وكان كَهْمَسُ يُصَلِّي كُلَّ يومٍ ألفَ ركْعَةٍ، فإذَا صَلَّى أخذَ بلحيتِهِ، ثُمَّ يقولُ لنفسِهِ: قُومِي يا مَأْوى كُلِّ سوءٍ، فواللَّهِ مَا رضيتُك للَّهِ طَرْفَةَ عينٍ.

فائدة :

الاستغفارُ: يَرِدُ مجردًا، ويردُ مَقْرونًا بالتوبةِ، فإنْ وَردَ مجردًّا دَخلَ فيه طلبُ وقايةِ شرِّ الذنبِ الماضِي بالدعاءِ، والنَّدمِ عليهِ، وشرُّ وقايةِ الذنبِ المتوقعِ بالعزمِ علَى الإقلاعِ عنهُ.

وهذَا الاستغفارُ الَّذي يمنعُ الإصْرارَ بقولِهِ: «**ما أَصرَّ مَن استْغفَر ولَو عادَ في اليوم سبعينَ مرَةَ**»[2] ، وبقولِهِ: «**لا صَغيرةَ مع الإصرارِ، ولا كبيرةَ مع الاستغفارِ**» خرَّجهما ابنُ أبي الدُّنيا.

وكذا في قولِهِ تعالَى: ﴿**الَّذينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ**﴾ [آل عمران:١٣٥]، وفي «الصحيحِ»: «**أذنبَ عبدٌ ذنبًا...**»[3] الحديثَ.

وهوَ المانعُ من العقوبةِ في قولِهِ: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾

(١) أخرجه: مسلم (٢/ ٥١).
(٢) أخرجه: أبو داود (١٥١٤)، والترمذي (٣٥٥٩).
(٣) أخرجه: البخاري (٩/ ١٧٨)، ومسلم (٨/ ٩٩).

[الأنفال:٣٣]، وإنْ وردَ مقرونًا بالتوبةِ اختصَّ بالنوعِ الأولِ، فإنْ لم يصحبْهُ الندمُ على الذنبِ الماضِي، بلْ كانَ سُؤالاً مُجردًا فهو دعاءٌ محضٌ، وإن صَحِبَه ندمٌ فهو توبةٌ.

والعزمُ على الإقلاعِ من تمامِ التوبةِ، والتوبةُ إذا قُبلتْ فهلْ تُقبلُ جَزْمًا أم ظاهرًا؟ فيه خلافٌ معروفٌ.

فيقالُ: الاستغفارُ المجردُ هو التوبةُ مَعَ طلبِ المغفرةِ بالدعاءِ، والمقرونُ بالتوبةِ: هوَ طلبُ المغفرةِ بالدعاءِ فَقَط.

وكذلك التوبةُ إنْ أُطلقتْ دخلَ فيها الانتهاء عن المحظورِ، وفِعْلُ المأمورِ ولهذا عَلَّقَ الفلاحَ عليْهَا، وجعلَ مَنْ لم يَتُبْ ظالمًا، فالتوبةُ حينئذٍ تشملُ فعلَ كُلِّ مأمورٍ، وترك كُلِّ محظورٍ ولهذا كانتْ بدايةُ العبدِ ونهايتُهُ هي حقيقةُ دينِ الإسلامِ.

وتارةً يُقرنُ بالتَّقْوَى، أو بالعملِ فتختصُّ حينئذٍ بتركِ المحظورِ واللَّهُ أعلمُ.

وفي فضائلِ الاستغفارِ أحاديثُ كثيرةٌ مِنْها:

حديثُ: **«جِلاءِ القلوبِ تلاوةُ القرآنِ والاستغفارُ»**[(١)].

وحديثُ: **«فإن تابَ واستغفرَ ونَزَعَ صُقِلَ قَلْبُهُ»**[(٢)].

وحديثُ: **«ابنَ آدمَ إنَّك لو بَلَغَتْ ذنوبُك عَنَانَ السماءِ، ثُمَّ استغفرتَني على ما كانَ**

---

(١) أخرج أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٩٧) لفظًا مقاربًا له ومن حديث ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد»** قالوا: يا رسول اللَّه، فما جلاؤها؟ قال: **«تلاوة القرآن»**.

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٢٩٧)، والترمذي (٣٣٣٤)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤١٨)، وابن ماجه (٤٢٤٤).

منكَ، غفرتُ لكَ ولا أُبالي»(1).

وحديثُ ابنِ عمرَ: كنَّا نَعُدُّ لرسولِ اللَّهِ ﷺ في المجلسِ الواحدِ: «ربِّ اغفرْ لي، وتُبْ عليَّ، إنَّكَ التوابُ الغفورُ» مائةَ مرةٍ(2).

وحديثُ أبي هريرةَ مرفوعًا: «إنِّي لأستغفرُ اللَّهَ في اليومِ أكثرَ من سبعينَ مرةً، وأتوبُ إليه» خرَّجه البخاريُّ(3).

ومنْ حديثِه مرفُوعًا: «لَو لَم تُذنِبُوا لَذَهبَ اللَّهُ بكُم، ولجاء بقومٍ يُذنِبونَ ثم يستغفرون فيغفرُ لَهُمْ» خرَّجه مسلم(4).

وفي «المسندِ» من حديث عطيةَ عَنْ أبي سعيد عن النبيِّ ﷺ: «مَنْ قالَ حين يَأوي إلى فَراشِه، أَستغفرُ اللَّهَ الذي لا إله إلا هُو الحيَّ القيُّومَ وأتُوبُ إليه، غَفَرَ اللَّه له ذُنُوبهُ، وإنْ كانتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ، وإن كانت مثل رَملِ عَالج، وإن كانت عدد ورق الشَّجَرِ»(5).

وحديثُ: «منْ أكثرَ منَ الاستغفارِ جعلَ اللَّهُ لهُ منْ كلِّ همٍّ فرجًا» خرَّجه أحمدُ منْ حديثِ ابن عباسٍ(6)، ويعضدُهُ قولُه تعالَى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح:10]، وقولُه: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ [هود:3].

---

(1) أخرجه: الترمذي (3540).

(2) أخرجه: أحمد في «المسند» (1/ 21)، وأبو داود (1516)، والترمذي (3434)، وابن ماجه (3814).

(3) أخرجه: البخاري (8/ 83).

(4) أخرجه: مسلم (8/ 94).

(5) أخرجه: أحمد في «المسند» (3/ 10)، والترمذي (3397).

(6) أخرجه: أحمد في «المسند» (1/ 248)، وأبو داود (1518)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (456).

قالَ رياحٌ القيسيُّ: لي نيفٌ وأربعونَ ذنبًا، قدِ استغفرتُ لكلِّ ذنبٍ مائةَ ألفِ مرَّةٍ.

وقال الحسنُ: لا تملُّوا من الاستغفارِ.

وقال بكرٌ المُزَنيُّ: إنَّ أعمال بني آدمَ ترفعُ فإذا رفعت صحيفةٌ فيها استغفارٌ رُفعت بيضاءُ، وإذا رُفعتْ ليس فيها استغفارٌ رفعت سوداء.

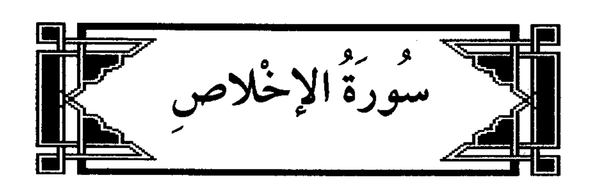
وعن الحسنِ قالَ: أكثرُوا مِن الاستغفارِ في بيُوتِكم، وعلَى موائِدِكم، وفي طُرُقِكم، وفي أسواقِكُم، فإنَّكم ما تدرُون متى تَنْزِلُ المغفرةُ.

وقال لقمان لابنه: أيْ بُنيَّ؛ عوِّد لسانَكَ: اللهَمَّ اغفرْ لِي، فإنَّ للَّهِ ساعاتٍ لا يردُّ فيهنَّ سائلاً.

ورُئِيَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ في النَّومِ فقيلَ لهُ: ما وجدَّتَ أفضلُ؟ قالَ: الاستغفار[١].

* * *

(١) رسالة «تفسير سورة النصر».



سُورَةُ الإِخْلاصِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

قال ابنُ رجبٍ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: «الكلامُ على سُورةِ الإِخْلاصِ».

وفي موضعِ نزولِهَا قولانِ: **أحدهما:** أنها مكيةٌ.

والثاني: مدنيةٌ، وذلك في فصولٍ في فضائِلِهَا وسببِ نزولِهَا وتفسيرِهَا.

أمَّا فضائلُهَا فكثيرةٌ جداًّ.

منْهَا: أنَهَا نِسْبَةُ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ.

خرَّج الطبرانيُّ[1] منْ طريقِ عثمانَ بنِ عبدِ الرحمنِ الطرائفيِّ عَنْ الوازعِ ابن نافعٍ عن أبي سلمةَ عنْ أبي هريرةَ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**لكُلِّ شيءٍ نسبةٌ، ونسبةُ اللَّهِ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، ليسَ بأجوفَ**»، الوازعُ ضعيفٌ جداًّ، وعثمانُ يروي المناكيرَ، وسيأْتي في سببِ نزولِهَا ما يشهدُ لَهُ.

ومنها: أنَّها صفةُ الرحمنِ، وفي صحيحِ البخاريِ ومسلمٍ[2] من حديثِ عائشةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ بعثَ رجُلاً على سريةٍ فكان يقرأُ لأصحابِهِ في صَلاتِهِم فيَختمُ بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلمَّا رجَعوا ذكروا ذلك للنبيِّ ﷺ فقال: «**سلُوهُ: لأيِّ شيءٍ يصنعُ ذلك؟**»، فسألُوهُ، فقال: لأنَّها صِفَةُ الرَّحمنِ، وأنا أُحبُّ أن

---

(١) «المعجم الأوسط» (٧٣٢). (٢) أخرجه: البخاري (٩/ ١٤٠)، ومسلم (٢/ ٢٠٠).

أَقرأَ بِهَا، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**أخبروهُ أن اللَّه يُحبُّهُ**».

ومنهَا: أَنَّ حُبَّها يُوجبُ محبةَ اللَّه، لهذا الحديثِ المذكورِ آنفًا، ومنهُ قولُ ابنِ مسعودٍ: «مَنْ كانَ يحبُّ القرآنَ فهُوَ يحبُّ اللَّهَ»[1].

ومنها: أن حُبَّها يُوجبُ دُخولَ الجنَّةِ؛ ذكرَ البخاريُّ في «صحيحه»[2] تَعْليقًا وقالَ: عبيدُ اللَّهِ عنْ ثابتٍ عن أنسٍ قالَ: كانَ رجُلٌ مِنَ الأنصارِ يؤُمُّهم في مسجدِ قُباءَ، وكانَ كلَّما افتتحَ سورةً يقرأُ بِهَا لهمْ في الصلاةِ ممَّا يقرأُ به، افتتح بـ ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ حتّى يفرُغَ منْها، ثُمَّ يقرأُ سُورةً أُخرَى معَها، وكانَ يصنعُ ذلكَ في كلِّ ركعةٍ، وذكرَ الحديثَ، وفيه: فقالَ النبيُّ ﷺ: «**يا فلانُ، ما حملكَ على لزومِ هذه السورةِ في كلِّ ركعة؟**»، فقال: إني أُحبُّها، فقالَ: «**حُبُّكَ إياهَا أدخلكَ الجنَّةَ**»، وخرَّجه الترمذيُّ في «جامعه»[3] عن البخاريِّ عَنْ إسماعيلَ ابنِ أبي أويسٍ عنَ الدَّارَوَرْدِيِّ عَنْ عبيدِ اللَّهِ بنِ عبدِ الرحمنِ عنْ عبيدِ اللَّهِ بنِ عمرَ وغرَّبه، وقال: روى مباركُ بنُ فضالةَ عنْ ثابتٍ عنْ أنسٍ أن رجلاً قالَ: يا رسولَ اللَّه إنِّي أحبُّ هذه السورةَ: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ فقالَ: «**إن حُبّك إياها أدخلكَ الجنَّة**» وقدْ خرَّجه أحمدُ في «المسندِ»[4] عن أبي النضرِ عن مباركِ بنِ فضالَة به.

وروى مالكٌ عنْ عبيدِ اللَّهِ بنِ عبدِ الرحمنِ عنْ عبيدِ بنِ حُنينٍ قالَ: سمعتُ أبا هريرةَ يقولُ: أقبلتُ مع النبيِّ ﷺ، فسمعَ رجُلاً يقرأُ: ﴿**قُلْ هُوَ**

---

(١) أخرجه: الطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٤٢).

(٢) (١/ ١٩٦ _ ١٩٧).

(٣) «الجامع» (٢٩٠١).

(٤) «المسند» (٣/ ١٤١ _ ١٥٠).

اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسولُ اللَّه ﷺ: «وجَبَتْ» قلت: وَمَا وجبَت؟ قالَ: «الجَنَّةُ»، وأخرجَهُ النسائيُّ والترمذيُّ وقالَ: حسنٌ صحيحٌ لا نعرفُه إلا مِنْ حديثِ مالكٍ[1].

وروَى أبو نعيمٍ منْ طريقِ عمرِو بنِ مرزوقٍ عنْ شعبةَ عن مهاجرٍ سمعتُ رجلاً يقولُ: صحبتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ في سفرٍ، فسمعَ رَجُلاً يقرأُ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، فقالَ: «قد بَرِيءَ من الشِّرْكِ»، وسمعَ آخرَ يقرأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقالَ: «غُفِرَ لهُ»[2].

ومنْهَا: أنَّها تعْدِلُ ثلثَ القرآنِ ففي «صحيحِ البخاريِّ»[3] منْ حديثِ أبي سعيدٍ أَنَّ رجلاً سمعَ رجُلاً يقرأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُرَدِّدُها، فلمَّا أصبحَ جاءَ إلى النبيِّ ﷺ فذكرَ ذلكَ لهُ ـ وكأنَّ الرجلَ يتقالُّها ـ فقال رسول اللَّه ﷺ: «والذي نفسي بيده إنَّها لتعدلُ ثُلُثَ القرآنِ»، وقدْ رُوِيَ عنْ أبي سعيدٍ عن أخي قتادةَ بنِ النعمانِ به.

وفي «صحيحِ البخاريِّ»[4] أيضًا مِنْ طريقِ الأعمشِ عنْ إبراهيمَ النخعيِّ والضَّحَّاكِ المشرقيِّ عنْ أبي سعيدٍ قال: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ لأصحابِهِ: «أيعجزُ أحدُكُم أنْ يَقْرَأَ ثلثَ القرآنِ في ليلةٍ؟» فشقَّ ذلكَ عليهِم وقالُوا: أيُّنا يطيقُ ذلك يا رسول اللَّه، فقالَ: «اللَّهُ الواحدُ الصَّمدُ ثلثُ القرآنِ».

وفي «المسندِ»[5] منْ طريقِ ابنِ لهيعةَ عن الحارثِ بنِ يزيدَ عنْ أبي الهيثمِ

(١) أخرجه: مالك في «الموطأ» (ص ١٤٦)، والنسائي (٢/ ١٧١)، والترمذي (٢٨٩٧).
(٢) وهو عند الدارمي (٢/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٧٠٩) من طريق آخر عن شعبة.
(٣) (٦/ ٢٣٣)، (٨/ ١٦٣)، (٩/ ١٤٠).
(٤) (٦/ ٢٣٣).
(٥) (٣/ ١٥).

عنْ أبي سعيدٍ قال: باتَ قتادةُ بنُ النعمان يقرأُ الليلَ كُلَّهُ بـ ﴿قُلْ هوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فذُكِرَ ذلك للنبيِّ ﷺ فقالَ: «والذي نفسي بيدِه لَتعْدلُ نصفَ القرآنِ أو ثُلُثَه».

وفي «المسندِ»[1] أيضًا مِنْ طريقِ ابنِ لهيعةَ، حـدَّثَنَا حُيَيُّ بنُ عبدِ اللَّهِ عن أبي عبـدِ الرحمنِ عنْ عـبدِ اللَّهِ بنِ عـمرٍو: أنَّ أبا أيوبَ الأنصـاريَّ كانَ في مجلسٍ وهوَ يقولُ: ألا يستَطيعُ أحدُكُم أنْ يقومَ بثُلُثِ القرآنِ كلَّ ليلةٍ؟ فقالُوا: وهل يستطيعُ ذلكَ أحدٌ؟ قال: فإنَّ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثُلُثُ القرآنِ، قالَ: فجاءَ النبيُّ ﷺ وهو يسمعُ أبا أيوبَ، فقالَ: «صَدَقَ أبو أيوبَ».

ورَوَى يحيى بنُ سعيدٍ عنْ يزيدَ بنِ كيـسانَ عنْ أبي حازمٍ ـ قالَ الترمذيُّ: اسمُهُ سلمانَ ـ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «احشُدُوا، فإنِّي سأَقْرَأُ عليكُم ثُلُثَ القُرآنِ»، فحشدَ من حـشدَ، ثُمَّ خرجَ نبي اللَّه ﷺ فَقَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثُمَّ دخلَ فقـالَ بعضُنَا لبعضٍ: قـال رسول اللَّه ﷺ: «فإنِّي سأَقْرأُ عليكُم ثُلُثَ القرآنِ»، إنِّي لأرى هذا خبرًا جاءَهُ من السـماء، ثُمَّ خرجَ نبي اللَّه ﷺ فقال: «إني قُلْتُ: سـأَقـرأُ عليكُم ثُلُثَ القـرآنِ، ألا وإنهـا تعـدِلُ ثُلُثَ القُـرآنِ»، أخرجَهُ مسلمٌ[2].

وروى الإمامُ أحـمدُ عنْ عبدِ الرحـمنِ بنِ مهديّ عنْ زائدةَ بنِ قـدامةَ عنْ منصورٍ عن هلالِ بنِ يسـافٍ عن الربيعِ بنِ خثيمٍ عـنْ عمرِو بنِ ميـمونٍ عنْ عبدِ الرحمنِ بن أبي ليلَى عنْ امرأةٍ مِنَ الأَنْصَارِ عنْ أبي أيوبَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «أيَعْـجزُ أحـدُكُم أنْ يقرأَ ثلثَ القـرآنِ في ليلةٍ؟ فإنه مَـنْ قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ في ليلةٍ فقدْ قرأَ ليـلتئذٍ ثلثَ القرآنِ»، ورواهُ النسائيُّ والترمذيُّ

(١) (٢/ ١٧٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٢/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).

عنْ بندار[1] .

وروى الترمذيُّ عنْ قتيبةَ أيضًا عَنْ ابنِ مهـديّ، فَهُوَ لَهُمَا عُشَاري ولأحمد تُسَـاعي، وفي روايةِ الترمـذيِّ عَنْ امرأةِ أبي أيوبَ عَنْ أبي أيوبَ بِـهِ، وذكرَ اختلافًا في إسنادِهِ.

وروى أحـمـدُ[2] عن هُشَيـمٍ عنْ حـصينٍ عن هلالِ بـنِ يـسـافٍ عـنْ عبدِ الرحـمنِ بن أبي ليلَى عنْ أبيِّ بنِ كعـبٍ أو رجلٍ منَ الأنـصـارِ قـالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «منْ قرأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنَّما قرأَ بثلث القرآن»، ورواهُ النسائيُّ في «اليومِ والليلة»[3] منْ طريقِ هُشيمٍ عنْ حصينٍ عن ابن أبي ليلَى بهِ منْ غيرِ ذكـرِ هلالِ بنِ يسافٍ، وروى الإمامُ أحـمدُ أيضًا[4] عنْ وكـيعٍ عن سفيانَ عن أبي قـيسٍ عن عمرِو بن ميمونٍ عنْ أبي مسعـودٍ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدِلُ ثلثَ القرآنِ» ورواهُ ابن ماجـه والنسائيُّ في «اليومِ والليلةِ»[5] منْ طُرُقٍ، وفي بعضِ طرقِهِ وقفُهُ.

ورواه أبُو نعيمٍ منْ طريقِ مـسعرٍ عنْ أبي قـيسٍ عَنْ عمرِو بنِ ميـمونٍ عنْ أبي مسعودٍ الأنصاريِّ، كَذا قالَ.

ومنْ طريقِ شعبةَ عنْ أبي إسحاقَ عنْ عمرِو بنِ ميمونٍ عنْ ابنِ مسعودٍ.

وروَى أبو نعيمٍ منْ طريقِ عليِّ بنِ عـاصمٍ عنْ حصينٍ عنْ هلالِ بنِ يسافٍ

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٤١٨ ـ ٤١٩)، والترمذي (٢٨٩٦)، والنسائي (٢/ ١٧٢).

(٢) «المسند» (٥/ ١٤١).

(٣) «عمل اليوم والليلة» (٦٩٠).

(٤) «المسند» (٤/ ١٢٢).

(٥) أخرجه: النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٩٨)، وابن ماجه (٣٧٨٩).

عنْ ربيعِ بنِ خُثَيمٍ عنْ ابنِ أبي ليلَى عنْ كـعبِ بنِ عجرةَ عنْ النبيِّ ﷺ قالَ: «**منْ قرأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في يومٍ وليلةٍ ثلاثَ مراتٍ كانتْ تعدلُ ثلثَ القرآنِ**».

ورواهُ شعبـةُ عنْ عليٍّ بنِ مدركٍ عنْ إبراهيمَ النخعيِّ عنْ الربيعِ بـنِ خثيمٍ عن ابنِ مسعودٍ عن النبيِّ ﷺ(١).

وروى أبو نعيمٍ حدَّثَنا إبراهيمُ بنُ محمـدِ بنِ يحيى، ثنَا أحمدُ بنُ حمدونَ ابنِ رستم، ثَنا عليُّ بنُ إشْكَاب، ثنَا شـجاعُ بنُ الوليدِ، ثنَا زيادُ بنُ خيـثمةَ، عنْ محمدِ بنِ جـحادةَ، عنْ الحسنِ عنْ أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ: «**﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلثُ القرآنِ**»، قالَ إبراهيمُ: هكذا حـدَّثَني بهِ وكتبـهُ لِي بخطهِ وإنَّما يحفظُ الإسناد قراءةُ يس.

وروى يوسفُ بنُ عطيـةَ الصفارُّ: ثنَـا هارونُ بنُ كثيـرٍ، عنْ زيدِ بنِ أسلمَ عنْ أبيهِ عنْ أبي أمامةَ عنْ أبيِّ بنِ كـعبٍ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**منْ قرأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنَّما قرأَ ثلثَ القرآنِ، وكُتبَ لهُ منَ الحسناتِ بعددِ منْ أشْرَكَ باللَّهِ وآمنَ بهِ**».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(٢) منْ طريقِ قـتـادةَ عنْ سالمِ بنِ أبـي الجعـدِ عنْ معدان بنِ أبي طلحـةَ عنْ أبي الدَّرْداءَ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «**أيعجزُ أحدكُم أنْ يقرأَ كلَّ يومٍ ثـلثَ القرآنِ؟**» قالُوا: نعم، قالَ: «**إنَّ اللَّه جزَّأَ القُـرآنَ ثلاثةَ أجزاءٍ، فقل هو اللَّه أحد ثلثُ القرآنِ**».

ورَوَى أميةُ بنُ خـالدٍ عَنْ ابنِ أخِي ابنِ شهـابٍ عنْ عَمِّه عَنْ حميـدِ بـنِ

---

(١) أخرجه: النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٨٠).

(٢) «صحيح مسلم» (٢/ ١٩٩).

عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ عَنْ أمهِ أمِّ كُلْثوم بنتِ عقبةَ بنِ أبي مُعَيْط قالَتْ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلثُ القرآنِ»، رواه أحمدُ والنسائيُّ في «اليومِ والليلةِ»[1].

ورواهُ أيضًا منْ طريقِ مالكٍ عَنِ الزُّهريِّ عَنْ حميدٍ منْ قولهِ، ورواهُ أيضًا مِنْ طريقِ ابنِ إسحاقَ عَنِ الحارثِ بنِ فُضَيلٍ عَنِ الزهريِّ عَنْ حميدٍ أنَّ نفرًا مِنْ أصحابِ محمدٍ ﷺ حدَّثوه عَنِ النبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدلُ ثلثَ القرآنِ لمن صلَّى بهَا»[2].

وروى الحافظُ أبو يَعْلَى[3] عَنْ قطنِ بنِ نُسيرٍ عنْ عبيسِ بنِ ميمون عنْ يزيدَ الرقاشيِّ عَنْ أنسٍ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «أمَا يستطيعُ أحدُكُم أنْ يقْرأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاثَ مرَّاتٍ في ليلةٍ فإنَّها تعدلُ ثلثَ القرآنِ» إسنادُه ضعيفٌ.

ويُستدلُّ بِهِ على أنَّ المرادَ بكونِهَا تعدلُ ثلثَ القرآنِ، أجرَهُ وثوابَهُ، كما يُستدلُّ بحديثِ أبي الدرداءَ المتقدمِ علَى أنَّها جزءُ التوحيدِ مِنَ القرآنِ، وأنَّه ثلاثةُ أجزاءٍ: تَوحيدٌ، وتَشْريعٌ، وقَصَصٌ.

ومِنْها: أنَّ قراءَتَهَا تكفِي مِنَ الشرِّ، وتمنعهُ، وقدْ ثبتَ في «صحيحِ البخاريِّ»[4] عنْ عائشةَ: «أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذَا أَوَى إلى فِراشِهِ قرأَها مع المعوذتينِ ومَسَحَ ما استطاعَ مِنَ جسدِهِ».

وروى أبو داودَ والترمذيُّ والنسائيُّ[5] مِنْ طريقِ معاذِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٧٠٠).

(٢) أخرجه: النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٧٠١).

(٣) «المسند» (١٤٨١ ـ ٤١١٨ ـ ٤١٣٦).

(٤) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٣٣).

(٥) أخرجه: أبو داود (٥٠٨٢)، والترمذي (٣٥٧٥)، والنسائي (٨/ ٢٥٠).

خُبيبٍ عنْ أبيهِ عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ لهُ: «قُلْ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتينِ حينَ تُمسي وحينَ تُصْبِحُ ثلاثًا تكفيكَ كُلَّ يومٍ» وصحَّحهُ الترمذيُّ.

ورواهُ النسائيُّ[١] مِنْ طريقٍ أُخرَى عنْ معاذٍ عنْ عبدِ اللَّهِ بنِ خُبيبٍ عنْ أبيهِ عَنْ عقبةَ بنِ عامرٍ فذكرهُ ولفظُه: «تكْفِكَ كلَّ شيءٍ».

وقالَ البزارُ في «مسندِه»[٢] : حدَّثنا إبراهيمُ الجوهريُّ: ثَنا غسانُ بنُ عبيدٍ، عنْ أبي عمرانَ الجونيِّ، عنْ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «إذَا وضعْتَ جنبكَ على الفراشِ، وقرأتَ فاتحةَ الكتابِ، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقدْ أَمنتَ مِنْ كلِّ شيءٍ إلا الموتَ».

ومنْهَا: أنَّها أفضلُ سورِ القرآنِ، فروى الدارميُّ في «مسندِه»[٣] عنْ أبي المغيرةَ عَنْ صفوانَ عنْ أيفعَ بنِ عبيدٍ الكلاعيِّ قالَ: قالَ رجلٌ: يا رسولَ اللَّهِ، أيُّ سورِ القرآنِ أعظمُ؟ قالَ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾».

وفي «المسندِ»[٤] منْ طريقِ معاذِ بنِ رفاعةَ عنْ عليِّ بنِ يزيدَ، عنْ القاسمِ، عنْ أبي أمامةَ، عنْ عقبةَ بنِ عامرٍ قالَ: قالَ لي رسولُ اللَّهِ ﷺ: «ألا أُعلِّمُكَ خيرَ ثلاثِ سورٍ أنزلَتْ في التوراةِ والإنجيلِ والزَّبورِ والقُرآنِ العَظيمِ؟» قلتُ: بلَى، قالَ: «فَأَقْرَأَني: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾» ثُمَّ قالَ لِي: «يا عقبةُ، لا تنْسَهُنَّ ولا تَبِتْ ليلةً حتَّى تقْرأَهُنَّ»، وروى الترمذيُّ[٥] بعضَ هذا الحديثِ وحسَّنهُ، ورواه أحمدُ[٦] أيضًا بطولِهِ منْ طريقِ

---

(١) «السنن» (٨/ ٢٥١).

(٢) (٣١٠٩ - كشف الأستار).

(٣) «السنن» (٢/ ٤٤٧).

(٤) (٤/ ١٤٨).

(٥) «الجامع» (٢٤٠٦).

(٦) «المسند» (٤/ ١٥٨).

أُسيدِ بنِ عبدِ الرحمنِ الخثعميِّ عنْ فروةَ بنِ مجاهدٍ عنْ عقبةَ بنِ عامرٍ بِهِ.

ومنْهَا: أنَّ الدعاءَ بهــا مستجابٌ؛ فـفي السنن الأربعة(١) عنْ عبـدِ اللَّهِ بنِ بريدةَ عنْ أبيهِ أنَّ النبيَّ ﷺ سَمِعَ رجلاً يصلِّي يَدْعُو يقولُ: اللهُمَّ إني أسألُك بأني أشهَدُ أن لا إله إلا أنتَ الأحَدُ الصّمدُ الذي لمْ يلدْ ولم يُولد، ولم يكن له كفواً أحدٌ، قالَ: «**والّذي نفْسي بيدِهِ لقدْ سألَهُ باسمِهِ الأعظمَ، الّذي إذا سُئِلَ به أعطى، وإذا دُعِيَ بهِ أجابَ**»، وقال الترمذي: حسن غريب.

وفي «المسند»(٢) عن محجنِ بنِ الأدرعِ أنَّ النبيَّ ﷺ دخلَ المسجدَ، فإذَا هو برجلٍ قـدْ قَضَى صـلاتَه وهوَ يتشـهدُ وهُـو يقولُ: اللهمَّ إنِّي أسـألُكَ بأنّكَ الواحدُ الأحـدُ الصّمدُ الّذي لمْ يلدْ، ولمْ يولدْ، و لم يكنْ لهُ كُـفُوًا أحدٌ، أن تغفرَ لي ذنوبِي إنَّكَ أنتَ الغفورُ الرحيمُ.

فقالَ نبيُّ اللَّهِ ﷺ ثلاثَ مراتٍ: «**قدْ غُفِرَ لَهُ، قدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ**».

وقدْ وردَ في تكرير قـراءَتِها خمسينَ مـرةً أو أكثرَ منْ ذلكَ، وعشـرَ مراتٍ عقـيبَ كُلِّ صلاةٍ أحاديثُ كـثيرةٌ فـيهَا ضـعفٌ، وكذلكَ حديثُ مـعاويةَ بنِ معاويةَ الليثـيِّ خرَّجَهُ الطبرانيُّ(٣)، وأبو يَعْلى من طرقٍ كُلِّـها ضـعـيفـةٌ فلم نذكُرْهَا.

وأمَّا سـببُ نزولِهَا: ففي «المسندِ» والتـرمذيِّ(٤) عنْ أبي سعيـدٍ الصَّاغَانِي

---

(١) أخرجه: أبو داود (١٤٩٣ ـ ١٤٩٤)، والترمذي (٣٤٧٥)، والنسائي في «الكبري» كما في «تحفة الأشراف» (٢/ ٩٠)، وابن ماجه (٣٨٥٧).

(٢) «المسند» (٤/ ٣٣٨).

(٣) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (١٩/ ٤٢٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٣٣ ـ ١٣٤)، والترمذي (٣٣٦٤).

محمدِ بنِ مبشرٍ عن أبي جعفرٍ الرازيِّ عَنْ الربيعِ بنِ أنسٍ عنْ أبي العاليةَ عَنْ أبيٍّ بنِ كعبٍ أنَّ المشركينَ قالُوا للنبيِّ ﷺ: انسبْ لنَا ربَّكَ يا محمدُ؟ فأنزلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ورواه الترمذيُّ[1] من طريق عبيد اللَّه بن موسى، عن أبي جعفر عن الرَّبيعِ عن أبي العاليةِ مرسلاً. وقالَ: هذا أصحُّ من حديث أبي سعيد.

ورواه أبو يعْلَي الموصليُّ والطبرانيُّ وابن جرير[2] من طريق شريح بن يونسَ عن إسماعيل بن مجالدٍ عن مجالدٍ عن الشعبيِّ عن جابر: أنَّ أعرابيًّا جاءَ إلى رسولِ اللَّه ﷺ فقال: انسبْ لنا ربَّكَ؟ فأنزلَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرِهَا، ورُوِيَ مُرْسَلاً.

وروى عبيدُ بنُ إسحاقَ العطَّارُ عنْ قيسِ بنِ الربيعِ عنْ عاصمٍ عنْ أبي وائلٍ عَن ابنِ مسعودٍ قالَ: قالتْ قُريشٌ لرسولِ اللَّه ﷺ: انسُبْ لنَا ربكَ فنزلتْ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قالَ الطبرانيُّ: ورواه الفريابيُّ وغيرُه عَنْ قيسٍ عنْ عاصمٍ عنْ أبي وائلٍ مُرْسَلاً.

وروى ابنُ أبي حاتمٍ في «تفسيره»: حدَّثنا أبو زرعةَ: ثنا العباسُ بنُ الوليدِ: ثنا يزيدُ بنُ زريعٍ: ثنا عليُّ بنُ الحسينِ: ثنا أبو عبدِ اللَّهِ الحرشيُّ: ثنا أبو خلف عبدُ اللَّهِ بنِ عيسى: ثنا داودُ بنُ أبي هند، عنْ عكرمةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّ اليهودَ جاءتْ إلى النبيِّ ﷺ منهم حُيَيُّ بنُ أخطبَ وكعبُ بنُ الأشرفِ فقالُوا: يا محمدُ، صفْ لنا الذي بَعَثَكَ؟ فأنزلَ اللَّه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ﴾ فيخرجُ منه الولدُ، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيخرجُ

---

(١) «الجامع» (٣٣٦٥).

(٢) أخرجه: أبو يعلى في «مسنده» (٢٠٤٤)، وابن جرير في «تفسيره» (٣٠/ ٣٤٢).

مِـنْ شيءٍ.

وأما التفسيرُ:

فقولُه: ﴿قُلْ﴾ هذا افتتاحٌ للسورةِ بالأمرِ بـالقولِ، كما في المعوذتينِ وسورةِ الجنِّ.

وقدْ سُئلَ النبيُّ ﷺ عنِ المعوذتينِ فقالَ: «**قِيلَ لي فقلتُ**»(١) وذلكَ إشارةٌ منهُ إلى أنَّه ﷺ مُبلغٌ مَحْضٌ لِمَا يُوحَى إليهِ، ليسَ فـيه تصرفٌ لِمَا أوحاهُ اللَّهُ إليهِ بزيادةٍ ولا نقصٍ، وإنَّما هُوَ مُبَلِّغٌ لكلامِ ربِّه كَمَا أوحاهُ إليهِ فإذا قالَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ كانَ امـتثـالاً للقولِ الذي قـيلَ لهُ بلفظِهِ لا بمعناهُ، و﴿هُوَ﴾: اسمٌ مضمرٌ قيل إنَّه: ضميرُ الشأنِ، وقيل: لا.

و﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إنْ قيلَ: هو ضميرُ الشأنِ، فالجـملةُ مبتدأٌ وخبرٌ، وإنْ قيلَ: لا، ففيه وجـهانِ، أحدهما: أنَّ ﴿هُوَ﴾ مبتدأٌ، و﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مبتدأ وخبرٌ، وهما خبرٌ للمبتدأ الأولِ، ولا حاجةَ فيه إلى رابطٍ لأنَّ الخبرَ هو المبتدأُ بعينِهِ.

والثاني: أنَّ ﴿هُوَ﴾ مبتدأٌ و﴿اللَّهُ﴾ خبرُه و﴿أَحَدٌ﴾ بدلٌ منه.

و﴿أَحَدٌ﴾: اسمٌ مِنْ أسماءِ اللَّه يُسمَّى اللَّهُ به، ولا يُسمَّى غيرُه من الأعيانِ به.

فلا يسمَّى شيءٌ من الأشياءِ أحدًا في الإثباتِ إلا في الأعدادِ المطلقةِ.

وإنما يُسمَّى به في النفْي وما أشبهَهُ من الاستفهامِ والنهيِّ، والشرطِ كقولِه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، وقولِهِ: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريم:٩٨]، وقولِهِ:

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٢٣) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، وقولِه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة:٦]، ونحوِه.

والأحدُ: هو الواحدُ في إلاهيتهِ وربُوبيتهِ، وفسَّرهُ أهلُ الكلامِ، بما لا يتجزأُ ولا ينقسِمُ، فإنْ أُريدَ بذلكَ أنَّه ليسَ مؤلفًا مركَّبًا منْ أجزاءٍ متفرقةٍ فصحيحٌ، أو أنَّه غيرُ قابلٍ للقسمةِ فصحيحٌ، وإنْ أُريدَ أنَّه لا يتميَّزُ منه شيءٌ عن شيءٍ، وهو المرادُ بالمجسمِ عندهم فباطلٌ.

قال ابنُ عقيلٍ: الذي يَصِحُّ من قولِنا معَ إثباتِ الصفاتِ أنه واحدٌ في إلاهيتِهِ لا غيرُ.

والأحدُ هو الواحدُ. قالَ ابنُ الجوزيِّ: قالَهُ ابنُ عباسٍ وأبو عبيدةَ، وفرَّقَ قومٌ بينهما.

قال الخطابيُّ: الفرق بين الأحدِ والواحدِ: أنَّ «الواحد»: هو المتفرد بذاته فلا يضاهيه أحدٌ.

و«الأحدُ»: المنفردُ بصفاتِهِ ونعوتِهِ فلا يشاركُهُ فيها أحدٌ.

وقيلَ: بينهما فرقٌ آخرُ، وهو أنَّ الأحدَ في النفي نصٌ في العمومِ، بخلافِ الواحدِ فإنه محتملٌ للعمومِ وغيرِهِ فتقولُ: ما في الدارِ أحدٌ، ولا يقالُ: بل اثنانِ، ويجوزُ أنْ يقالَ: ما في الدارِ واحدٌ، بل اثنانِ.

وفرَّقَ بعضُ فقهاءِ الحنفيةِ بينهُما وقالَ: الأحديَةُ لا تحتملُ الجزئيةَ والعدديةَ بحالٍ.

والواحدُ يحتملُها لأنَّه يقالُ: مائةٌ واحدةٌ وألفٌ واحدةٌ، ولا يُقالُ: مائةٌ أحدٌ ولا ألفٌ أحدٌ.

وبُنِيَ على ذلك مسألةُ محمدِ بنِ الحسنِ التي ذكرَهَا في «الجامعِ الكبيرِ»: إذا كان لِرجلٍ أربعُ نسوةٍ فقالَ: واللَّهِ لا أقربُ واحدةً منْكُنَّ صارَ مُوليًا منهنَّ جميعًا، ولم يَجُزْ أن يقربَ واحدةً منهن إلا بكفارةٍ، ولوْ قالَ: واللَّهِ لا أقربُ إحداكُنَّ لم يصِر مُوليًا إلا منْ إحداهُنَّ والبيانُ إليه.

وقال العسكريُّ: أصلُ أحدٍ أوحَدُ مثلُ أكبرِ، وإحْدى مثل كُبْرى، فلمَّا وقَعَا اسمينِ وكانا كثيرَي الاستعمالِ هرَبُوا إلى الكسرةِ ليخفَّ، وحذفُوا الواوَ ليفرقُوا بين الاسمِ والصفةِ، وذلك أنَّ أوحدَ اسمٌ وأكبر منه.

والواحدُ فاعلٌ منْ وحَدَ يَحِدُ وهو واحدٌ مثل: وَعَدَ يَعِدُ فهو واعدٌ.

سؤالٌ: قوله: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ولم يقل الأحد كما قال: ﴿الصَّمَدُ﴾؟

جوابه: أنَّ الصمدَ يُسمَّى به غيرُ اللَّهِ كما يأتي ذكرُهُ، فأتى فيه بالألفِ واللامِ ليدلَّ على أنَّه ـ سبحانه ـ هو المستحقُ لكمالِ الصَّمَديّةِ، فإنَّ الألفَ واللام تأتي لاستغراقِ الجنسِ تارةً، ولاستغراقِ خصائصَ أخرى، كقولِهِ: زيدٌ هو الرجلُ أي: الكاملُ في صفاتِ الرجولةِ فكذلكَ قولُهُ: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أي: الكاملُ في صفاتِ الصمديّةِ.

وأما الأحدُ فلم يَتَّسِمْ به غيرُ اللَّهِ فلمْ يحتجْ فيه إلى الألفِ واللامِ.

قولُهُ: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أعادَ الاسمَ المبتدأ تأكيدًا للجملةِ وخبرُهُ الصمدُ. وقيلَ: هو نعتٌ والخبرُ ما بعدَهُ.

والصمدُ: اختلفتْ عِباراتُ السَّلَفِ في معناه، وهي متقاربةٌ أو متفقةٌ والمشهور منها قولان:

أحدُهما: أنَّ الصمدَ هو السَّيدُ الذي تصْمُدُ إليه الخلقُ في حوائجِهِم

ومطالبِهِم وهو مرويٌّ عَنْ ابنِ عباسٍ وغيرِه من السلفِ.

قالَ ابنُ الأنباريِّ: لا خلافَ بينَ أهلِ اللغـةِ أنَّ الصمدَ: السيدُ الذي ليس فوقَه أحدٌ، الذي يصمُدُ إليه الناسُ في حوائجِهِم وأمورِهِم.

وقالَ الزَّجَّاجُ: هو الذي ينتهِي إليه السُّؤددُ، فقدْ صَمَدَ له كلُّ شيءٍ. أي: قصدَ قصْدَهُ. وأنشدُوا:

لقدْ بكَّرَ النَّـاعي بِخَيْرِ بني أسَـدْ بعمرِو بنِ مَسْعودٍ وبالسَّيدِ الصَّمَدْ

وأنشدوا أيضًا:

عَلَـوْتُـهُ بُحسـامٍ ثُـمَّ قُـلْـتُ لَـهُ خُذْها حُذَيْفُ فأنتَ السَّيِّدُ الصَمَدُ

وفي «تفـسيـرِ ابنِ أبي حاتمٍ» بإسنـادِهِ عن عكرمةَ عنِ ابنِ عـباسٍ قـال: الصمدُ: الذي تصمدُ إليه الأشياءُ إذا نزلَ بهم كربةٌ، أو بلاءٌ.

وعن إبراهيمَ قال: الذي يَصْمُدُ إليه العبادُ في حوائجِهِم.

وعنْ عليٍّ بنِ أبي طلحةَ عنْ ابنِ عـباسٍ، قالَ: الصمدُ: السـيدُ الذي قدْ كَمُل في سؤدَدِهِ، والشَّريفُ الذي قدْ كَمُلَ في شرفِهِ، والعظيمُ الذي قدْ كَمُلَ في عظمـتِهِ، والحليمُ الذي قـدْ كَمُلَ في حِلْمِـهِ، والعليمُ الذي قدْ كَـمُلَ في عِلْمِـهِ، والحكيمُ الذي قدْ كَـمُلَ في حكمتِـهِ، وهو الذي قدْ كَـمُلَ في أنواعِ الشرفِ والسُّؤددِ. وهو اللَّهُ ـ سـبحانه ـ هذه صفتُـهُ لا تنبغِي إلا له، ليس له كفوٌ وليسَ كمثلِهِ شيءٌ، سبحان اللَّه الواحدِ القهارِ[1].

والقولُ الثاني: أنَّ الصمدَ الذي لا جوفَ له، وأنَّه الذي لا يأكلُ ولا يشربُ

---

(١) راجع «تفسير ابن جرير» (٣٠/٣٤٦).

والذي لا حشوَ له، وأنَّه الذي لا يدْخلُ فيه شيءٌ، ولا يخرجُ منه شيءٌ، ونحوُ هذه العباراتِ المتقاربةِ في المعنى، ورُوي ذلك عنْ ابنِ مسعودٍ، وقدْ سبقَ في حديثِ أبي هريرةَ المذكورِ في أوَّلِ تفسيرِ السورةِ: والصمدُ الذي ليسَ بأجوفَ.

وروى ابنُ جريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ منْ طريقِ عبيدِ اللَّهِ بنِ سعيدٍ ـ قائد الأعمشِ ـ: حدَّثني صالحُ بنُ حيانَ عنْ عبدِ اللَّهِ بنِ بريدةَ عنْ أبيه، قال: لا أعلمُ إلا أنَّه قدْ رفعَهُ: قال: «**الصمدُ الذي لا جوفَ له**».

وعنْ أبي عبدِ الرحمنِ السُّلَمِيِّ عنْ ابنِ مسعودٍ قال: الصمدُ ليسَ له حشاءٌ.

ورُوي عن ابن عباسٍ أيضًا وعكرمةَ: الصمدُ الذي لا يَطْعَمُ.

وعنه: الصمدُ: الذي لم يخرجْ منه شيءٌ.

وعنِ الشعبيِّ: الصمدُ: الذي لا يأكلُ ولا يشربُ.

وعنْ مجاهدٍ: هو المصْمَتُ الذي لا جوفَ له.

وقال طائفةٌ: الصمدُ: الذي لم يلدْ ولم يُولدْ، كأنَّهم جَعلُوا ما بعدَهُ تفسيرًا له، وهو مما تقدَّم أنَّه الذي لم يَنْفَصِلْ منه شيءٌ. ورويَ ذلك عن أبيِّ بنِ كعبٍ والربيعِ بنِ أنسٍ(١).

وتوجيهُ ذلك: الولادةُ والتوليدُ إنما يكونُ من أصلينِ، وما كانَ عينًا قائمًا بنفسه منَ المتولداتِ فلا بدَّ له من مادةٍ يخرجُ منها، وما كانَ عرَضًا قائمًا بغيرِه فلا بدَّ له منْ محلٍّ يقومُ به، فالأولُ: نفاهُ بقولِه: «أحدٌ» فإنَّ الأحدَ هو

(١) أخرجه: ابن جرير في «تفسيره» (٣٠/ ٣٤٥) وغيره من أقوال أهل العلم.

الذي لا كفوَ له ولا نظيرَ فيمتنعُ أنْ يكونَ له صاحبةٌ.

والتولُّدُ إنما يكونُ بين شيئينِ، وكونُه تعالى أحَدًا، ليسَ أحدٌ كفوًا له يستلزمُ أنَّه لم يلدْ ولم يولدْ، لأنَّ الوالدَ والولدَ متماثلانِ متكافئانِ، وهو تعالى أحدٌ لا كفوَ له.

وأيضًا فالتولُّد يحتاجُ إلى زوجةٍ وهي مكافئةٌ لزوجِهَا مِنْ وجهٍ، وذلك أيضًا ممتنعٌ.

ولهذا قال تعالى: ﴿**أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ**﴾ [الأنعام:١٠١]، وقد فَسَّر مجاهدٌ «الكفوَ» هَاهُنا بالصَّاحبةِ.

وأما الثاني؛ وهو: انفصالُ المادة فنفاهُ ـ سبحانه ـ بأنَّه الصمدُ، وهُوَ المتولدُ مِنْ أصلينِ، ربما يتكونُ مِنْ جزئينِ يَنْفصلانِ مِنْ الأصلينِ، كتولُّدِ الحيوانِ مِنْ أبيه وأمِّه بالمنيِّ الذي ينفصلُ منهُما، وكالنَّارِ المتولدةِ مِنْ بينِ الزِّنْدينِ سواءٌ كانا خشبينِ أو حجَرَينِ أو حَجَرًا وحديدًا.

وهو ـ سبحانه ـ صمدٌ لا يخرجُ منهُ شيءٌ منفصلٌ عنه.

والحيوانُ نوعانِ: متوالدٌ: وهوَ ما ولَدُهُ مِنْ جنسِهِ، وهو الإنسانُ وما يُخلقُ مِنْ أبوينِ منَ البهائمِ والطيرِ وغيرِهما.

ومتولِّدٌ: وهوَ ما يُخْلَقُ مِنْ غيرِ جنسِهِ كدودِ الفاكِهَةِ والخلِّ، وكالقَمْلِ المتولدِ من الوَسَخِ، والفارِ والبراغيثِ وغيرِ ذلكَ ممَّا يُخلَق منَ التّرابِ والماء، وإنَّما يتولدُ منْ أصلينِ أيْضًا كما خُلِقَ آدمُ من ترابٍ وماءٍ.

وإلا فالترابُ المحضُ الذي لم يَخْتَلِطْ به ما لا يُخلقُ منه شيءٌ لا حيوانَ ولا نباتَ، والنباتُ جميعُه إنَّما يتولدُ منْ أصلينِ أيْضًا.

والمسيحُ ـ عليه السلامُ ـ خُلِقَ من مريمَ ونفخة جبريلَ، وهيَ حملتْ به كمَا تحملُ النساءُ وولدتْه، فلهَذا يقالُ لهُ: ابنُ مريمَ، بخلافِ حواءَ فإنَّها خُلِقَتْ من ضِلْعِ آدمَ، فلا يُقالُ: إنَّه أبوهَا ولا هيَ ولدُهُ. وكذلك سائرُ المتولداتِ من غيرِهِما.

كما أنَّ آدمَ لا يُقالُ: إنَّه ولدُ الترابِ ولا الطينِ، والمتولِّدُ منْ جنسِهِ أكملُ من المتولدِ من غيرِ جنْسِهِ، ولهذا كان خلقُ آدمَ أعجبَ منْ خَلْقِ أولادِهِ.

فإذا نُزِّهَ الربُّ عنِ المادةِ العَلَقِ وهيَ التولدُ منْ النظيرِ، فتنزُّهُهُ عنْ تولدهِ من غيرِ نظيرٍ أولى، كما أنَّ تنزيهَهُ عنِ الكفوِ تنزيهٌ له عنْ أنْ يكونَ غيرُهُ أفضلَ منه بطريقِ الأولى.

فتبيَّنَ أنَّ ما يُقالُ: إنَّه متولدٌ من غيرِهِ منَ الأعْيانِ القائمة بنفسِهَا لا يكونُ إلا منْ مادةٍ تخرجُ منْ ذلكَ الوالدِ، ولا تكونُ إلا منْ أصلينِ، والربُّ تعالى صمَدٌ، فيمتنعُ أنْ يخرجَ منه شيءٌ وهو ـ سبحانه ـ لمْ يكنْ له صاحبةٌ فيمتنعُ أن يكونَ له ولدٌ.

وأمَّا تولدُ الأعْراضِ كتولدِ الشعاعِ، وتولدِ العِلْمِ عنِ الفكرةِ والشبعِ عنِ الأكْلِ، والحرارةِ عن الحركةِ ونحوِ ذلك.

فهذا ليسَ من تولدِ الأعْيانِ معَ أنَّ هذا لا بدَّ لهُ منْ محلٍّ، ولا بدَّ له من أصلينِ كالشعاعِ فإنَّه يحتاجُ إلى محاذَاةِ جسمٍ نُوريٍّ لجسمٍ آخرَ يقابلُهُ فينعكِسُ عليه شعاعُهُ.

فقد تَضَمَّنتْ هذه السورةُ العظيمةُ نفْيَ نوعينِ عنِ اللَّهِ تعالى:

أحدُهُما: المماثلةُ، ودلَّ على نفيهَا قولُهُ تعالى: ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ مع

دلالةِ قولِه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ على ذلكَ؛ لأنَّ أحَدِيَّتَـهُ تقتضِي أنَّه متـفردٌ بذاتِه، وصفاتِه، فلا يشارِكُهُ في ذلكَ أحدٌ.

والثاني: نفْيُ النقائصِ والعيوبِ، ، وقد نفَى منها التولُّدَ منَ الطرفينِ.

وتضَمَّنتْ إثباتَ جمـيعَ صفاتِ الكمالِ بإثباتِ الأحديّة، فـالصمديّةُ تُثبتُ الكمالَ المنافيَ للنقائصِ، والأحديّةُ تُثْبِتُ الانفرادَ بذلك. فإنَّ الأحديةَ تَقْتضِي انفرادَهُ بصِـفاتِهِ وامتيـازَهُ عَنْ خَلْقِهِ بذاتِهِ وصفـاتِهِ، والصمديةُ إثباتُ جـميعِ صفـاتِ الكمالِ ودوامِهَا وقِـدَمِهَا، فإنَّ الـسيدَ الذي يُصْمَـدُ إليه لا يكونُ إلا مُتَّصِفًا بجميعِ صفـاتِ الكمالِ الَّتي استحقَّ لأجْلِهَا أنْ يكونَ صَمَدًا، وأنَّه لمْ يزلْ كذلك ولا يزالُ، فإنَّ صمديتَهُ مِنْ لوازِمِ ذاتِهِ لا تنفكُّ عنهُ بحالٍ.

ومنْ هُنا فُسِّرَ الصمدُ بالسيدِ الذي قَدْ انتهى سؤْدُدُه، وفَسَّرَهُ عكرمةُ: بالذي لَيسَ فوقَهُ أحدٌ.

ورُوِيَ عَنْ عَليٍّ وعنْ كَعْبٍ أَنَّه: الَّذي لا يكافِئُه أحدٌ في خَلْقِهِ.

وعَنْ أبي هريرةَ قالَ: هو المُسْتَغنِي عَنْ كُلِّ أَحَدٍ، المحتاجُ إليه كُلُّ أحدٍ.

وعنْ سعيدِ بن جبيرٍ قالَ: هو الكاملُ في جميعِ صفاتِهِ وأفعالِهِ.

وعَنِ الربيعِ قالَ: هوَ الذي لا تعتْريهِ الآفاتُ.

وعنْ مقاتلِ بنِ حيانَ قالَ: هوَ الذي لا عَيْبَ فِيهِ.

وعنْ ابنِ كيسانَ: هوَ الذي لا يُوصفُ بصفَتِه أحدٌ.

وعنْ قتادةَ: الصمدُ: البَاقِي بَعْدَ خَلقِهِ، وعَنْ مجاهدٍ ومَعْمَرٍ: هُوَ الدائمُ.

وعَنْ مُرَّةَ الهمدانيِّ: هوَ الَّذي لا يَبْلى ولا يَفْنى.

وعنه أيضًا: هو الذي يحكمُ مـا يريدُ، ويفعلُ ما يشاءُ؛ لا مُـعَقِّبَ لحكمِهِ ولا رادَّ لقضائِهِ.

فقد تَضَمَّـنَتْ هذه السورةُ العظيمةُ إثباتَ صفـاتِ الكمالِ، ونفيَ النقائصِ والعيوب مِنْ خصائصِ المخلوقينَ مِنْ التولدِ والمماثلةِ.

وإذا كانَ منزَّهًا عنْ أنْ يخرجَ منهُ مادةُ الولدِ الَّتي هي أشرفُ الموادِ فَلأنْ نُزِّهَ عَنْ خروجِ مادةِ غَيرِ الولدِ أَوْلَى.

وكذلكَ تنزيهُهُ نفسَـهُ عَنْ أنْ يُولَدَ فلا يكونُ مِنْ مثلِهِ تنزيهٌ لهُ عَنْ أنْ يكونَ مِنْ سائرِ الموادِ بطريقِ الأَوْلَى.

فمنْ أثبتَ للَّهِ ولدًا فقدْ شَتَمَـهُ وقدْ ثبتَ في «صحيح البخاريِّ»[1] عنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: **«يقولُ اللَّهُ ـ عـزَّ وجلَ ـ كذَّبَني ابنُ آدمَ ولم يكنْ له ذلكَ، وشَتَمني ولم يكنْ لهُ ذلكَ، فأمَّا تكـذيبُهُ إيَّايَ فقـولُه: لن يُعيدَني كـما بدأني وليسَ أولُ الخلق بأهَونَ عليَّ من إعادته، وأمَّا شَتمُهُ إيايَ فقوله: اتَّخذ اللَّه ولدًا، وأنا الأحدُ الصمدُ، لم أَلِدْ ولم أُولَدْ ولم يكن لي كُفوًا أَحد»**.

وفي «صحيح البخاري»[2] أيضًا عن ابنِ عـبَّاسٍ عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ: **«قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: كذَّبَني ابنُ آدمَ ولَم يكنْ له ذلكَ، وشتـمني ولـم يكنْ لَه ذلك، فأمَّا تكذيبُهُ إيايَ فزعَم أنِّي لا أقدِرُ أَن أُعيدَهُ كما كان، وأمَّا شـتمهُ إيايَ فقوله: لي ولد، فسُبحاني أن أتَّخذَ صاحبةً أَو ولَدًا»**.

وقد ردّ اللَّـهُ علَى من زعمَ أنَّه لا يعيـدُ الخلقَ، وعلَى منْ زعمَ أنَّ لهُ ولدًا

---

(١) (٦/ ٢٢٢).

(٢) (٦/ ٢٤).

كما تَضَـمَّنَهُ هذا الحديثُ في قولِه: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم:٦٦]، إلى قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم:٨٩].

وفي «صحيح البخاريِّ»[(١)] أيضًا عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**لا أحَدَ أصبرُ على أذيً سمعهُ مِنَ اللَّه، إنَّهُم يجعلونَ لهُ ولَدًا وهو يرزقُهُم ويُعافيهم**».

فهذه السـورةُ الكريمةُ تَضَمَّنتْ نَفْيَ مَا هوَ من خصـائصِ آلهةِ المشركين عنْ رب العالمينَ؛ حيثُ جـاءَ في سببِ النزولِ أنَّهُم سألُوا النبيَّ ﷺ عنْ ربِّه منْ أيِّ شيءٍ هوَ؟ أمِنْ كذا، أم من كَذَا؟ أو مِمَّن وَرِثَ الدنيـا؟ ولمن يُوَرِّثُها؟ حيثُ كانوا قـد اعتادُوا آلـهةً يلدونَ، ويولدونَ، ويرِثُون ويُوَرِّثونَ، وآلهـةً من مواد مصنوعةٍ منها، فأنزلَ اللَّهُ هذه السورةَ.

وفي «المسندِ»[(٢)] من حديثِ أبيِّ بنِ كعبٍ بعـدَ ذكرِ نزولِها: لأنَّه ليسَ أحدٌ يولدُ لا يموتُ ولا أحدٌ يرِثُ إلا يُورَث، يقولُ: كلُّ مَنْ عُبِدَ منْ دونِ اللَّهِ وقدْ وُلِد مـثلُ المسيحِ والعـزيرِ وغـيرِهمـا من الصالحـينَ، ومثلُ الفـراعنةِ المدعين الإلهية، فـهذا مولودٌ يموت وهو وإنْ كانَ قـد ورثَ من غيرِه ما هو فـيه فإذا ماتَ وَرِثَهُ غيرُه واللَّه سبحـانه حيٌّ لا يموتُ ولا يُورَثُ سبحانه وتعالى، واللَّهُ أعلمُ.

سؤالٌ: نفى سـبحانـهُ الولادةَ قبلَ نفي التولدِ، والتـولد أسبقُ وقـوعًا من الولادِ في حقِّ مَنْ هو متولدٌ؟

وجوابه: أنَّ الولادةَ لم يَدَّعِها أحدٌ في حقِّـه سبحانه وإنَّما ادّعَوا أنَّه وَلَدَ، فلذلكَ قَدَّم نفيَه لأنَّه المهمُّ المحتاجُ إلى نَفْيِه.

(١) (٨/ ٣١)، (٩/ ١٤١) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.
(٢) «المسند» (٥/ ١٣٣ ـ ١٣٤).

سؤالٌ آخرُ: كيفَ نَفَى أنْ يكونَ مولودًا ولم يعتقدْه أحَدٌ؟

جوابُهُ: مِنْ وجهين، **أحدُهُما**: أَنَّهم سألوا عَمَّن وَرِثَ الدنيا ولِمَنَ يورِّثُها، وهذا يُشعرُ بأنَّ منهُم منْ اعتقدَ ذلكَ.

والثـاني: أنّه نفى عَنْ نفسِهِ سبحانه خـصائصَ آلهةِ المشركينَ فإنَّ منْهمُ مَنْ عبدَ المسـيحَ، ومنْهُم منْ عبَدَ العزيزَ وهُمَا مـولودانِ، ومنْهُم مَنْ عبدَ الملائكةَ والعجلَ وهيَ متولداتٌ، وقد تقدَّم أنَّ نفيَ الولادةِ تدلُّ علَى نفي المتولدِ بطريقِ الأَوْلى.

فائدةٌ: قالَ ابنُ عطيةَ: ﴿**كُفُوًا**﴾ خبرُ كانَ، واسمُهَا ﴿**أَحَدٌ**﴾، والظرفُ مَلغي، وسيبويه يستحسن أنْ يكونَ الظرفُ إذا تقدَّم خبرًا.

ولكنْ قَدْ يـجيءُ مُلْغى في أماكنَ يقـتَضِيَـها المعنى كـهذِهِ الآيةِ، وكـقولِ الشاعرِ أنشدَهُ سيبويه:

ما دامَ فيهنّ فَصِيلٌ حيًّا

ويُحتملُ أن يكونَ: ﴿**كُفُوًا**﴾ حالاً لما قُدِّمَ مِنْ كونِهِ وصفًا للنكرةِ كَمَا قالَ كثيرٌ لعزَّةَ:

لميةَ موحِشًا طَلَلُ

قالَ سيبويه: وهذا نَقْلٌ في الكلامِ وبابُهُ الشِّعرُ.

فهذه السـورةُ تتضمنُ انفرادَهُ ووحدانيتَـهُ، وأَنَّه منقطعُ النظيرِ، وأنَّهُ إنما نُزِّهَ عن أنْ يكونَ من أجناسِ المخلوقـاتِ، لأنَّ أفرادَ كُلِّ جنسٍ مِنْ هذه الأجناسِ متكافئةٌ مماثلةٌ، فالذهبُ يكافيءُ الذهبَ، والإنسانُ يكافيءُ الإنسانَ ويزاوجُهُ، ولهذا قالَ تعالَى: ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ**﴾ [الذاريات:٤٩]، فمَا مِنْ مخلوقٍ

إلا وله كفوٌ، هو زوجُهُ، ونظيرُهُ، وعـدلُهُ، ومثيلُهُ، فلوْ كانَ الحقُّ مِنْ جنسِ شيءٍ منْ هذهِ الأجناسِ لـكانَ له كـفوٌ وعـدلٌ، وقـدْ عُلِمَ انتـفـاؤُهُ بالشـرعِ والعقلِ.

فهذه السورةُ هِيَ نسبُ الرحمنِ وصـفتُه، وهيَ الَّتي أنزلَهَا اللَّهُ في نفي مَا أضافَ إليه المبطلونَ من تمثـيلٍ،وتجسيمٍ، وإثباتِ أصلٍ وفرعٍ، فدخَلَ فـيها ما يقولُه مَنْ يقولُ من المشركينَ، والصابـئةِ، وأهلِ الكتابِ، ومن دخلَ فيهم من منافِقِي هذهِ الأمةِ من تولدِ الملائكةِ أوِ العقولِ، أوِ النفوسِ، أوِ بعضِ الأنبياءِ، أو غيرِ الأنبياءِ.

ودخلَ فيهـا ما يقولُه مَنْ يقولُ من المشـركينَ وأهلِ الكتابِ من تولدِهِ عن غيرِه كالذينَ قالُوا في المسيحِ: إنَّه اللَّهُ، والذينَ يقولونَ في الدجالِ: إنَّهُ اللَّهُ، والذين يقولون ذلك في عليٍّ وغيرِه.

ودخلَ ما يقولُه من يقولُ من المشركـينَ وأهلِ الكتابِ من إثباتِ كفوٍ له في شيءٍ من الأشياءِ، مثل من يجعلُ له بتشبيهِهِ، أو بِتَجْسيمِهِ، كفوًا له أو يجعلُ لَهُ بعبادةِ غيرِه كُفوًا، أو يجعلُ لَهُ بإضافـةِ بعضِ خلقِهِ إلى غيرِه كُفوًا فلا كفوَ لهُ في شيءٍ من صفاتِهِ، ولا في ربوبيتِهِ ولا في إلاهيته.

فتضمنتْ هذه السورةُ تنزيهُهُ، وتقديسُهُ، عَنِ الأصولِ والفروعِ، والنظراءِ، والأمثالِ.

وليسَ في المخلوقـاتِ شيءٌ ألا ولا بدَّ أنْ يُنسبَ إلى بعـضِ هذهِ الأعيـانِ والمعانِي، فالحيوانُ من الآدمي وغيره لا بدَّ أنْ يكونَ له إما والدٌ، وإمَّا مولودٌ، وإمَّا نظيرٌ هو كـفؤُه، وكذلك الجنُّ، والملائكةُ، كمـا قالَ تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ

شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

قالَ بعضُ السلفِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمونَ أنَّ خالقَ الأزواجِ واحدٌ، قالَ تعالَى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر:٣] قالَ مجاهدٌ: كلُّ شيءٍ خلَقَهُ اللَّهُ فهو شفعٌ قالَ تعالَى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] الكفرُ والإيمانُ، والهدى والضلالة، والشقاوةُ والسعادةُ، والليلُ والنهارُ، والسماءُ والأرْضُ، والبرُّ والبحر، والشمسُ والقمرُ، والجنُّ والإنسُ، والوترُ اللَّهُ تباركَ وتعالَى.

وهو الذي ذكرهُ البخاريُّ في «صحيحه» فإنَّه يعتمدُ قولَ مجاهدٍ لأنَّه أصَحُّ التفسيرِ، قالَ الثوريُّ: إذا جاءَكَ التفسيرُ عَنْ مُجاهدٍ فحسبُكَ به، واختارَهُ الشيخُ مجدُ الدينِ بنِ تيميةَ.

وحقيقةُ الكفؤ: هُوَ المُسَاوِي والمُقَاومُ؛ فلا كفوَ لَهُ تعالَى في ذاتِه، ولا في صِفَاتِه، ولا في أسمائِه، ولا في أفعالِه، ولا في ربوبيتِه، ولا فِي إلاهيتِه، ولهذا كانَ الإيمانُ بالقدرِ نظامَ التوحيدِ، كَمَا قالَ ابنُ عبَّاسٍ، لأنَّ القدريةَ جعلُوا له كُفُوًا في الخلقِ.

وأمَّا توحيدُ الإلَهيةِ فالشركُ فيهِ تارةٌ يوجبُ الكفرَ والخروجَ مِنَ الملةِ، والخلودَ في النارِ، ومنهُ مَا هُوَ أصغرُ كالحلفِ بغيرِ اللَّهِ والنذرِ لهُ، وخشيةِ غيرِ اللَّهِ ورجائِهِ والتوكلِ عليهِ والذلِّ لَهُ وقولِ القائلِ: ما شاءَ اللَّهُ وشئْتَ.

ومنهُ ابتغاءُ الرزق مِنْ عندِ غيرِ اللَّهِ، وحَمْدُ غيرِهِ علَى ما أعطَى، والغنيةُ بذلكَ عَنْ حمدِهِ، ومنهُ العملُ لغيرِ اللَّهِ وهو الرياءُ، وهوَ أقسامٌ.

ولهذا حرَّمَ التَّشَبَهَ بأفْعَالِهِ بالتصويرِ، وحرَّمَ التسمي بأسمَائِهِ المختصةِ به

كاللَّه والرحمنِ والرَّبِّ.

وإنما يجوزُ التسميةُ بِهِ مُضَافًا إلى غَيرِ مَنْ يعقلُ، وكذلك الجبَّارُ والمتكبرُ والقهارُ ونحوُ ذلكَ كالخلاقِ والرزّاقِ والدائمِ، ومنه ملكُ الملوكِ، وقدْ جَعلَ ابنُ عقيلٍ التسميةَ بهذا مكروهَةً.

قال ابنُ عقيلٍ: كُلُّ ما انفردَ بِهِ اللَّهُ كَـ: «اللَّه» و«رحمانِ» و«خالقٍ» لا يجوزُ التَّسمي بِهِ، وكلَّما وُجِدَ معنَاهُ في الآدَمِي فإنْ كانَ يوجدُ تكبرًا، كالملكِ العظيمِ والأعظمِ، وملكِ الملوكِ والجبارِ فمكروهٌ، والصوابُ الجزمُ بتحريمِهِ.

فأمَّا مَا يتسمَّى بِهِ المخلوقونَ مِنْ أسمائِهِ كالسميعِ والبصيرِ والقديرِ والعليمِ والرحيمِ، فإنَّ الإضافةَ قاطعةُ الشركةَ، وكذلكَ الوصفيةُ، فقولنا: زيدٌ سميعٌ بصيرٌ لا يُفيدُ إلا صفةَ المخلوقِ وقولُنا: اللَّهُ سميعٌ بصيرٌ يفيدُ صفتَهُ اللائقةَ بِهِ، فانقطعتْ المشابهةُ بوجْهٍ من الوجوهِ، ولهذا قالَ تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

وفيه قولان: **أحدُهُما**: نَفْيُ التسميةِ.

والثاني: نَفْيُ المساواةِ وقدْ نَفَى سبحانه عن نفسهِ المثلية بقولِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ونفى عنه العدلَ والتسويةَ بقولِهِ: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]، وقولِه: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٦-٩٨]، ونَفَى عنه النِّدَ بقولِهِ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]، وقولِه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ [فصلت:٩].

وفي الحديث: أيُّ الذَّنْبِ أعظمُ؟ قالَ: «أن تجعل للَّه ندًا وهُوَ خلقك»[1]، وقالَ للذي قالَ لهُ: ما شاءَ اللَّه وشئتَ: «أجعلتني للَّه ندًا؟»، وفي رواية: «أجعلتني للَّه عدلاً»[2].

وقالَ كعبٌ: السماواتُ السبعُ، والأرضونَ السبعُ، أُسِّسَتْ عَلَى هذه السورةِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

ومعنى هذا ـ واللَّهُ أعلمُ ـ أنَّ السماواتِ، والأرضَ، إنما خلقتْ بالحقِ، والعدلِ، والتوحيدِ؛ كمَا قالَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

ومِنْ شعرِ أميةَ بنِ أبي الصلتِ:

وسبحانَ ربيِّ خالقِ النورِ لم يَلد ... ولم يكُ مُولُودًا بذلكَ أَشْهَد
وسبحانَهُ مِنْ كُلِّ إفكٍ وباطلٍ ... وكيفَ يلدْ ذو العرشِ أَمْ كيفَ يُولَد
هو اللَّهُ بارِيء الخلقِ والخلقُ كُلُّهم ... إمَاءٌ لَهُ طَوْعًا جميعًا وأَعْبَد
هو الصمدُ اللَّهُ الذي لَمْ يكُنْ لَهُ ... مِنَ الخلقِ كفوٌ قَدْ يُضَاهيه مخلد
وأَنَّى يكونُ الخلقُ كالخالقِ الَّذي ... يدومُ ويَبْقَى والخليقةُ تَنْفَد
وليسَ بمخلوقٍ على الدَّهْرِ جده ... ومَنْ ذا عَلَى مَرِّ الحوادث يَخْلُد
وَتفْنَى ولا يبْقَى سِوى القاهرِ الَّذي ... يُميتُ ويُحيي دائِبًا ليس يَمْهَد

آخرُه والحمدُ للَّه ربِّ العالمين[3].

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٢ ـ ١٣٧)، (٨/ ٩ ـ ٢٠٤)، (٩/ ٢ ـ ١٨٦ ـ ١٩٠)، ومسلم (١/ ٦٣) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٤ ـ ٢٢٤ ـ ٢٨٣ ـ ٣٤٧)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٩٥).

(٣) «تفسير سورة الإخلاص».

الفهارس

١ - فهرس الآيات القرآنية

٢ - فهرس الموضوعات والفوائد



الآيـــة القرآنية	رقمها	المجلد / الصفحة
• فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب اللّٰه لكم	١٨٧	١ / ١٤٢
• تلك حدود اللّٰه فلا تقربوها	١٨٧	١ / ٨٢ ـ ١٤٣ ـ ١٤٤، ٢ / ٤٨١
• يسـألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس	١٨٩	١ / ٥٣١
• وأنفقوا في سبيل اللّٰه ولا تلقوا بأيديكم إلى	١٩٥	١ / ١٤٥ ـ ١٤٦
• وأحسنوا إن اللّٰه يحب المحسنين	١٩٥	١ / ٦١٨
• الحج أشهر معلومات	١٩٧	١ / ١٤٦ ـ ١٤٨ ـ ٥٣٢، ٢ / ٥٦٢
• فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج	١٩٧	١ / ٤٧٢
• فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا اللّٰه	١٩٨ ـ ١٩٩	٢ / ٥٦٦
• واذكروه كما هداكم	١٩٨	٢ / ١٠٩
• ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا	١٩٩	٢ / ٦٤٩
• واستغفروا اللّٰه	١٩٩	١ / ١٤٩
• فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا اللّٰه	٢٠٠ ـ ٢٠١	١/ ١٦٠ ـ ١٦١، ٢ /١٦١
• ربنا آتنا في الدنيا حسنة	٢٠١	١/١٦١
• واذكروا اللّٰه في أيام معلومات	٢٠٣	١ / ١٥٣ ـ ١٥٨
• فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه	٢٠٣	١ / ١٥٦ ـ ١٥٨ ـ ١٥٩
• هل ينظرون إلا أن يأتيهم اللّٰه في ظلل	٢١٠	٢ / ٥٧٤
• فهدى اللّٰه الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق	٢١٣	١ / ٤٢٠
• كتب عليكم القتال وهو كره لكم	٢١٦	١ / ١٣٧ ـ ٣٥٦ ـ ٦١٨

الآيـــة القرآنية	رقمها	المجلد / الصفحة
• فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك	٦٥	١ / ٥٠٢
• ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرًا لهم	٦٦ ـ ٦٨	٢ / ١٣٧
• يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم	٧١	٢ / ٤٨٤ ـ ٤٨٥
• قل متاع الدنيا قليل	٧٧ ـ ٧٨	١ / ٣١٠
• من يطع الرسول فقد أطاع اللَّه	٨٠	٢ / ٤١١
• ولو كان من عند غير اللَّه لوجدوا فيه اختلافًا	٨٢	٢ / ٥٨٣
• لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر	٩٥	١ / ٢٩، ٣٠
• لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر	٩٥ ـ ٩٦	١ / ٣٤٣
• وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح	١٠١ ـ ١٠٢	١ / ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٩، ٣٥٤
• إن كان بكم أذى من مطر	١٠٢	١ / ١٦٧
• إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا	١٠٣	١ / ٦١٨
• فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا اللَّه قيامًا وقعودًا	١٠٣	١ / ١٦٢، ٣٥٦، ٣٥٧
• إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق	١٠٥	١ / ٨
• يستخفون من الناس ولا يستخفون من اللَّه	١٠٨	١ / ١٤١، ٧٠٣
• ولا يستخفون من اللَّه وهو معهم	١٠٨	٢ / ٦٩
• ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا	١٠٩	١ / ٦٨٣
• ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه	١١٠	١ / ١٥٠، ٥٦٥
• وأنزل اللَّه عليك الكتاب والحكمة وعلَّمك	١١٣	١/ ١٩٦
• لا خير في كثير من نجواهم	١١٤	١/ ٣٥٨
• ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب	١٢٣	١/ ٣٥٩
• وللَّه ما في السماوات وما في الأرض	١٣١	١/ ٣٦٠

الآيـــة القرآنية	رقمها	المجلد / الصفحة
• سورة الأعراف •		
• قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك	١٦	١/ ٧٨
• ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلا	٢٠	٢/ ١٢٨
• يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان	٢٧	١/ ٤٧٧
• وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا	٢٨	١/ ٤٧٧
• كلما دخلت أُمَّة لعنت أُخْتهَا حتى إذا ادَّاركُوا	٢٨	١/ ١٠٠
• يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد	٣١ ـ ٣٢	١/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨ ـ ٤٨٠ ـ ٤٨١
• فمن أظلم ممن افترى على اللَّه كذبًا أو كذَّب	٣٧ ـ ٣٨	١/ ٢٤٩
• ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابًا ضعفًا من النار	٣٨	١/ ٦٨٣
• إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها	٤٠	١/ ٢٦٣
• لا تفتح لهم أبواب السماء	٤٠	٢/ ٥٤٧
• لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش	٤١	١/ ٤٨١، ٢/ ٣٧٤
• ونادى أصحاب الجنة أصحابَ النارِ	٤٤ ـ ٥٠	١/ ٤٨٣
• أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم اللَّه	٥٠	٢/ ٣٤٤
• ادعوا ربكم تضرعًا وخفية	٥٥	٢/ ٢٦
• وادعوه خوفًا وطمعًا إن رحمت اللَّه قريب	٥٦	٢/ ٢٣٢
• والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربِّه	٥٨	١/ ٤١٣
• ما لكم من إله غيرُهُ	٥٩	٢/ ١٠٩
• إنهم أناس يتطهرون	٨٢	١/ ١٧١
• قد افترينا على اللَّه كذبًا إن عدنا	٨٩	١/ ٤٨٦
• أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتًا	٩٧	٢/ ٥١٥

الآيـــة القرآنية	رقمها	المجلد / الصفحة
		٥٩٧ـ ٥٩٩ـ ٦٠٠
		ـ ٦٨٤
• ولا تحسبن اللَّه غافلاً عما يعمل الظالمون	٤٢	١/ ٤٧١
• ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك	٤٤	٢/ ٢٤٢
• أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال	٤٤	٢/ ٢٤٢
• يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات	٤٨	٢/ ٥٣٨
• وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد	٤٩	١/ ٦٠٠ـ ٧١٦
• مقرنين في الأصفاد	٤٩	٢/ ٥٢٥ـ ٥٢٦
• سورة الحجر •		
• إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون	٩	١/ ٦٠٣
• والجان خلقناه من قبل من نار السموم	٢٧	١/ ٥٥١
• قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض	٣٩:٤٢	١/ ٧٨
• إن عبادي ليس لك عليهم سلطان	٤٢	٢/ ٢٥٣
• وإن جهنم لموعدهم أجمعين	٤٢:٤٤	١/ ٦٠٦: ٦٠٩
• لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم	٤٤	١/ ٣٦٨
• فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون	٩٢:٩٣	١/ ٦٠٩ـ ٦١٠
• واعبد ربك حتى يأتيك اليقين	٩٩	١/ ٦١٠
• سورة النحل •		
• ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء	٢	٢/ ٢٧٤
• وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه	٧	٢/ ٥٦٥
• وعلى اللَّه قصد السبيل ومنها جائر	٩	١/ ٨٠
• وبالنجم هم يهتدون	١٦	١/ ٦١٢

الآيـــة القرآنية	رقمها	المجلد / الصفحة
• ونبلوكم بالشر والخير فتنة	٥٣	٢/ ٢١٠
• إنهم كانوا يسارعون في الخيرات	٩٠	١/ ٣٦٦، ٢/ ٧ ـ ٢٦
• وكانوا لنا خاشعين	٩٠	٢/ ٩
• إنكم وما تعبدون من دون اللَّه	٩٨:٩٩	١/ ٩٨
• لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها	٩٩	١/ ٦٧٢
• لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون	١٠٠	١/ ٥٥٤ : ٥٥٦
• إن الذين سبقت لهم منا الحسنى	١٠١	٢/ ٣٤٤
• إن الذين سبقت لهم منا الحسنى	١٠١ : ١٠٢	٢/ ٣٨
• لا يسمعون حسيسها	١٠٢	١/ ٦١٤
• لا يحزنهم الفزع الأكبر	١٠٣	١/ ٧٠٥، ٢/ ٦٣٠
• ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر	١٠٥	١/ ٦١٨
• أن الأرض يرثها عبادي الصالحون	١٠٥	١/ ٢٥٩
• وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين	١٠٧	٢/ ٤٣٠
• أنما إلهكم إله واحد	١٠٨	٢/ ١٠٩
• إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون	١١٠	١/ ٧٠٦
• قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان	١١٢	١/ ٧٠٦
• سورة الحج •		
• يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث	٥	١/ ٧٠٧: ٧١٠
• وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء	٥	٢/ ٣٧٩
• فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار	١٩ : ٢٢	١/ ٧١٣:٧١٥
• ولهم مقامع من حديد	٢١ : ٢٢	١/ ٦٥٦

الآيـــة القرآنية	رقمها	المجلد / الصفحة
		٢/ ٦٠١
• وله المثل الأعلى في السماوات والأرض	٢٧	٢/ ٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧١ ـ ٧٢
• فأقم وجهك للدين حنيفًا	٣٠	٢/ ٢٦٤
• فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرت اللَّه	٣٠:٣١	٢/ ٧٣ ـ ٧٤
• اللَّه الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم	٤٠	٢/ ٥١
• من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحًا	٤٤	١/ ٦٩١، ٢/ ٧٦
• فانظر إلى آثار رحمة اللَّه كيف يحيي الأرض	٥٠	٢/ ٣٧٩
• إنك لا تسمع الموتى	٥٢	٢/ ٩٧ ـ ٩٨
• اللَّه الذي خلقكم من ضعف	٥٤	١/ ١٠٤
• سورة لقمان •		
• ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل	٦	٢/ ٧٧ ـ ٣٢١
• إن الشرك لظلم عظيم	١٣	١/ ٤٧٠ ـ ٤٧١
• إن اللَّه عنده علم الساعة وينزل الغيث	٣٤	١/ ٤٦٦، ٢/ ٨١ ـ ١٥١
• سورة السجدة •		
• في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون	٥	١/ ١٠
• وبدأ خلق الإنسان من طين	٧:٩	٢/ ٨٣
• ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحًا	١٢	٢/ ٢٤٢
• ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها	١٣	٢/ ٢٤٢
• إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها	١٥:١٦	٢/ ١١٧

الآيـــة القرآنية	رقمها	المجلد / الصفحة
• سورة الحجرات •		
• يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي اللَّه ورسوله	١	٢/ ٢٨٦
• أولئك الذين امتحن اللَّه قلوبهم للتقوى	٣	١/ ٣١٨
• ولكن اللَّه حبب إليكم الإيمان وزينه	٧	١/ ٢٢١، ٢/ ٢٨٦
• إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم	١٠	٢/ ٢٨٥ ـ ٢٨٧
• يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم	١١	١/ ٣٢٨، ٢/ ٢٨٩
• ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون	١١	١/ ٣١٤ ـ ٣٢٧
• قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا	١٤	٢/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠ ـ ٢٩١ ـ ٢٩٢ ـ ٢٩٨
• سورة ق •		
• ق والقرآن المجيد	١ ـ ٤	١/ ٥٥
• ونحن أقرب إليه من حبل الوريد	١٦	٢/ ٦٩
• إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد	١٧ ـ ١٨	٢/ ٣٠١ ـ ٣٠٢ ـ ٣٠٣
• وما أنا بظلام للعبيد	٢٩	٢/ ٣٠٥
• هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ	٣٢ ـ ٣٣	٢/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧
• من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب	٣٣	١/ ٧٠٢، ٢/ ٣١٥
• لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد	٣٥	١/ ٥٤٣
• ولقد خلقنا السماوات والأرض	٣٨	٢/ ٣١٥
• وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس	٣٩	٢/ ٥١٧، ٥٢٢ ـ ٥٢٣

الآيـــة القرآنية	رقمها	المجلد / الصفحة
• نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار	٤٥	١/ ٥٥
• • سورة الذاريات •		
• فالحاملات وقراً	٢	٢/ ٣٥٣
• إن المتقين في جنات وعيون	١٥	٢/ ٤٩٤
• إن المتقين في جنات وعيون	١٥ ـ ١٩	٢/ ١٨٣ ـ ١٩٨
• وبالأسحار هم يستغفرون	١٨	١/ ١٥٠، ٢/ ٦٤٩
• وفي السماء رزقكم وما توعدون	٢٢	٢/ ٣١٩، ٥٣٩ ـ ٥٤٠، ٥٤٦ ـ ٥٤٧
• ما تذر من شيء إلا جعلته كالرميم	٤٢	١/ ١٠٢
• ومن كل شيء خلقنا زوجين	٤٩	٢/ ٥٦٨، ٦٧٤:٦٧٦
• وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون	٥٦	١/ ٦٩، ٢/ ٥٠ ـ ٦٢ ـ ٣١٩ ـ ٧٢٤
• سورة الطور •		
• والبحر المسجور	٦	٢/ ٥٣٨، ٥٤١
• يوم يدعون إلى نار جهنم دعًا	١٣	١/ ٥٠٨
• إنما تجزون ما كنتم تعملون	١٦	٢/ ١٠٩
• كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون	١٩	١/ ١٦٦
• وإن للذين ظلموا عذابًا دون ذلك	٤٧	٢/ ١٣٣، ٣٥٦
• واصبر لحكم ربك إنك بأعيننا	٤٨	١/ ١٣٥، ٢/ ١٥٩
• • سورة النجم •		
• ما ضل صاحبكم وما غوى	٢	١/ ٢٢١

الآيـــة القرآنية	رقمها	المجلد / الصفحة
• الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن	١٢	٢/ ٣١٩
• سورة التحريم •		
• عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا	٥	١/ ١١١ ـ ١١٤
• يا أيها الذين آمنوا قو أنفسكم وأهليكم نارًا	٦	١/ ٩٧ ـ ١٠٣ ـ ٥١١ ـ ٥١٢، ٢/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧ ـ ٤٨٨
• يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحًا	٨	١/ ٥٦٥
• سورة الملك •		
• الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم	٢	١/ ٥٣٩ ـ ٥٤٠
• ليبلوكم أيكم أحسن عملا	٢	٢/ ٤٩٠
• وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم	٦:٨	٢/ ٣٨
• كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها	٨	٢/ ٦٤٣
• إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة	١٢	١/ ٧٠٢
• قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع	٢٣	٢/ ٥٨٨
• سورة القلم •		
• وإنك لعلى خلق عظيم	٤	٢/ ٥٠٥
• وقد كانوا يدعون إلى السجود	٤٣	١/ ٤٤٤ ـ ٤٩٢
• سورة الحاقة •		
• هاؤم اقرءوا كتابيه	١٩	٢/ ٤٦ ـ ٦٦١
• فهو في عيشة راضية	٢١:٢٤	٢/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤ ـ ٤٩٦
• كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية	٢٤	١/ ١٦٦ ـ ٤٩٦

الآيــــة القرآنية	رقمها	المجلد / الصفحة
• إن كتاب الفجار لفي سجين	٨:٧	١/ ٢٤٦
• كلا بل ران على قلوبهم	١٧:١٤	٢/ ٥٤٨ ـ ٥٥٠
• كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون	١٥	٢/ ٥١٧
• إن كتاب الأبرار لفي عليين	١٨	١/ ٢٥٦، ٢/ ١٠٠ ـ ٥٤٦
• إن كتاب الأبرار لفي عليين	٢٠:١٨	١/ ٢٤٦
• ختامه مسك	٢٦	٢/ ٥٥٢
• فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون	٣٥:٣٤	١/ ٤٨٥
• سورة البروج •		
• وشاهد ومشهود	٣	٢/ ٥٥٣
• الودود	١٤	٢/ ٥٥٤
• سورة الطارق •		
• خلق من ماء دافق	٧:٦	١/ ٥٥١
• سورة الأعلى •		
• ثم لا يموت فيها ولا يحيى	١٣	١/ ٥٨٧
• قد أفلح من تزكَّى	١٤	٢/ ٤٢٨
• بل تؤثرون الحياة الدنيا	١٧:١٦	٢/ ٢٢٧
• سورة الغاشية •		
• عاملة ناصبة . تصلى ناراً حامية	٤:٢	١/ ٣٠٦
• تسقى من عين آنية	٥	٢/ ٣٣٥
• ليس لهم طعام إلا من ضريع	٧:٦	٢/ ٥٠٢

الآيـــة القرآنية	رقمها	المجلد / الصفحة
• إن سعيكم لشتى	٤	٢/ ٤٥٠
• فأنذرتكم ناراً تلظى	١٤	٢/ ٥١٢ ـ ٦٤٠
• سورة الضحى •		
• والضحى . والليل إذا سجى	١:٣	١/ ٢٧
• والضحى	١:١٠	٢/ ٥٩١ ـ ٥٩٢
• ووجدك ضالاً فهدى	٧	٢/ ٥٩٢
• وأما بنعمة ربك فحدث	١١	١/ ١٣٠
• سورة الشرح •		
• فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً	٥:٦	٢/ ٥٩٣
• فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب	٧:٨	١/ ١٦٢
• سورة التين •		
• ثم رددناه أسفل سافلين	٥	٢/ ٥٩٧
• ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا	٥:٦	١/ ٥٧٤
• سورة العلق •		
• اقرأ باسم ربك الذي خلق	١	٢/ ٥٩٨
• كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى	٦:٧	١/ ٦٢٧
• أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى	٩:١٠	٢/ ٥٩٨
• فليدع ناديه . سندع الزبانية	١٧:١٨	٢/ ٦٠٣
• كلا لا تطعه واسجد واقترب	١٩	٢/ ٥٩٨
• واسجد واقترب	١٩	٢/ ٢٤

فهرس
الموضوعات والفوائد



فهرس الموضوعات والفوائد

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

• تفسير سورة الزمر •

• تفسير سورة غافر •

• تفسير سورة الشورى •

الموضـــــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــوع الصفحة

• تفسير سورة الأحقاف •

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

• تفسير سورة المدثر •

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
• تفسير سورة الإخلاص •	

الموضوع	الصفحة

تمت فهارس موضوعات التفسير

والحمد للَّه رب العالمين